

السيرة الحلبية

في
سيرة الأئمة المأمون

إنسان العيون

الجزء الثالث

تأليف

علي بن برهان الدين الحلبي

(٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ)

١٤٠٠ ١٩٨٠
بَیرون. لَبَنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فتح مكة شرفها الله تعالى

كان في رمضان سنة ثمان . وكان السبب ، في ذلك أنه لما كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش كان فيه أن : من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عهد قريش ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وكان قبل ذلك بينهما دماء ، أى فحجز الإسلام بينهما لتشاغل الناس به ، وهم على ما هم عليه من العداوة ، وكانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم ، أى يناصرونه على عمه نوفل بن عبد مناف .

فإن المطلب لما مات وثب نوفل على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب واغتصبه إياها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه ، فلم ينهض معه أحد منهم ، وقالوا له لا ندخل بينك وبين عمك ، وكتب إلى أخواله بني النجار ، فجاءه منهم سبعون راكبا فأتوا نوفلا وقالوا له : ورب البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت وإلا ملأنا منك السيف ، فرده ثم حالف خزاعة بعد أن حالف نوفل بنى أخيه عبد شمس . وكان صلى الله عليه وسلم يعلم بذلك الحلف فإنهم أوقفوه على كتاب عبد المطلب وقرأه عليه أبى بن كعب رضى الله عنه : أى بالحديبية ، وهو باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم نخزاعة إذا قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي منهم ، غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا ، اليد واحدة والنصر واحد ، ما أشرق ثبير وثبت حرا مكانه ، وما بل بجر صوفة .

وفى الإمتاع أن نسخة كتابهم : باسمك اللهم ، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة ، تحالفوا على التناصر والمواساة ما بل ببحر صوفة ، حلفا جامعا غير مفرق ؛ الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وتعاهدوا وتعاقدوا وأكد عهد وأوثق عقد لا ينقض ولا يندكث ، ما أشرفت شمس على ثبير ، وحن بقلاة بعير ، وما أقام الأخشبان ، وعمر بمكة لإنسان ، حلف أبد لطول أمد ، يزيد طلوع الشمس شدا ، وظلام الليل مدا ، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافتون متظاهرون متعاونون ، فعلى عبد المطلب النصر لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خزاعة النصر لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى بالله جميلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعرفنى بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف .

فلما كانت الهدنة ، وهى ترك القتال التى وقعت فى صلح الحديبية اغتتمها بنو بكر : أى طائفة منهم يقال لهم بنو نفاثة .

أى وفى الإمتاع : وسبها أن شخصا من بنى بكر هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يتغنى به ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه ، فثار الشر بين الحيين لما كان بينهم من العداوة ، فطلب بنو نفاثة من أشرف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فأمدوهم بذلك ، فبيتوا خزاعة : أى جاءوهم ليلا بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوتير ، فأصابوا منهم : أى قتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا ، منهم صفوان بن أمية وجويطب بن عبد العزى ، أى وعسكرمة ابن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو رضى الله عنهم ، فإنهم أسلموا بعد ذلك ، ولا زالوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة ، أى ولم يشاوروا فى ذلك أبا سفيان . قيل شاوروه فأبى عليهم ذلك ، وظنوا أنهم لم يعرفوا ، وأن هذا لا يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق ندموا ، وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم ، فقال : هذا أمر لم أشهده ولم أعجب عنه ، وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد ؛

ولقد حدثتني هند بنت عتبة يعنى زوجته أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدمة فكره القوم ذلك .

وعند ذلك خرج عمرو ، وقيل عمر بضم العين وصححه الذهبي ابن سالم الخزاعي : أى سيد خزاعة فى أربعين راكيا : أى من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ودخل المسجد ووقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد بين الناس وقال من أبيات :

يارب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقلك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلوننا ركعا وسجدا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نصرت يا عمرو بن سالم ، أى ودمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وقال : لا بنصرنى الله . وفى لفظ : لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب : يعنى خزاعة مما أنصر به نفسى . وفى رواية : لا منعنهم مما أمنع منه نفسى . زاد فى رواية : وأهل بيتى ثم مرت سحابة فى السماء وأرعدت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا السحاب ليستهل ، أى وفى لفظ : لينصب بنصر بنى كعب يعنى خزاعة .

أى وعن بشر بن عصفرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « خزاعة منى وأنا منهم » وقبل قدوم عمرو بن سالم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلامه بذلك حدثت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الواقعة قال لها : لقد حدث فى خزاعة حدث ، قالت : فقلت : يا رسول الله أترى قريشا يجترثون على نقض العهد الذى بينك وبينهم ؟ فقال : يتقضون العهد لأمر يريده الله ، فقلت : خير ، قال خير ، وفى لفظ قالت : خير أو لشر ؟ قال خير .

وعن ميمونة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بات عندها ليلة ، فقام ليتوضأ للصلاة ، قالت : فسمعتة يقول لبيك لبيك لبيك ثلاثا . نصرت نصرت نصرت ثلاثا ، فلما خرج قلت : يا رسول الله سمعتك تقول لبيك لبيك لبيك ثلاثا نصرت نصرت نصرت ثلاثا كأنك تكلم إنسانا ، فهل كان معك أحد ؟ قال : هذا راجز بنى كعب يعنى خزاعة يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل : أى بطنا منهم وهم بنو نفاثة ، قالت ميمونة : فأقننا

ثلاثا ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ، فسمعت الراجز يقول :
* يارب إني ناشد محمدا * إلى آخر ما تقدم ، انتهى .

وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم لعمر بن سالم وأصحابه : فيمن تهتمتكم ؟ قالوا :
بنوبكر ، قال : كلها ؟ قالوا : لا ولكن بنو نفاثة ، قال : هذا بطن من بكر .

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد أرسلوا أبا سفيان ليشد العقد ويزيد في المدة ،
فقالوا له : ما لها سواك ، أخرج إلى محمد فكلمه في تجديد العهد وزيادة المدة ، فخرج
أبو سفيان ومولى له على راحلتين فأسرع السير ، لأنه يرى أنه أول من خرج من مكة إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس قبل قدوم
أبي سفيان : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة ، وهو راجع بسخطه ،
ثم رجع أولئك الركب من خزاعة ، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان ، أى ومولى له
كل على راحلة وقد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشد العقد ويزيد
في المدة ، وقد خافوا مما صنعوا ، فسألهم : هل ذهبت إلى المدينة ؟ قالوا : لا ، وتركوه
وذهبوا ، فجاء إلى مبركهم بعد أن فارقه ، فأخذ بعراوفته فوجد فيه النوى ، فعلم أنهم
ذهبوا إلى المدينة الشريفة .

قال : وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرقوا
في الأودية ، أى ليخفى مجيئهم للنبي صلى الله عليه وسلم . فرجعوا وتفرقوا ، فذهبت فرقة إلى
الساحل ، أى وفيهم عمرو بن سالم . وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق ، وإن
أبا سفيان لقي بديل بن ورقاء بعسفان ، فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم المدينة ، فقال للقوم : أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ، فقالوا :
لا علم لنا بها ، أى وقالوا : إنما كنا في الساحل نصالح بين الناس في قتل . ثم صبر أبو سفيان
حتى ذهب أولئك القوم . وفي لفظ قال : من أين أقبلت يا بديل ؟ قال : سرت إلى خزاعة
في هذا الساحل ، قال : ما أتيت محمدا ؟ قال لا ، فلما راح بديل إلى مكة : أى توجه
إليها ، قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فجاء منزلم ففتت أبعار
أباعرهم فوجد فيها النوى ، قال أبو سفيان : أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا انتهى .

فلما قدم أبو سفيان المدينة دخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى
عنها ، ولما أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال :

يا بنية ما أدرى ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش النبي صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، قال : والله لقد أصابك بعدى شر ، فقالت : بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ، وا عجباً منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها ، فقال : أنا أترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد ؟ ثم خرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له إني كنت غائبا في صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا في المدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لذلك جئت يا أبا سفيان ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان فيكم من حدث ؟ قال : معاذ الله ، نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن على مدتنا وصلحنا ، فأعاد أبو سفيان القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليه شيئا هذا .

وفي كلام سبط ابن الجوزي رحمهما الله أن حجيته لأم حبيبة رضی الله عنها بعد حجته للنبي صلى الله عليه وسلم . ثم ذهب إلى أبي بكر رضی الله عنه فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما أنا بفاعل . وفي رواية قال لأبي بكر : جدد العقد وزدنا في المدة ، فقال أبو بكر : جوارى في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لو وجدت الدر تقاتلكم لأعتها عليكم . ثم أتى عمر بن الخطاب رضی الله عنه فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الدر لجاهدتكم : أى بها . وفي رواية أنه قال له : ما كان من حلفنا جديدا أخلقه الله ، وما كان مقطوعا فلا وصله الله ؛ فعند ذلك قال له أبو سفيان : جزيت من ذى رحم سرا . وفي لفظ سوء ؛ ثم جاء إلى عثمان بن عفان رضی الله عنه ، فقال : إنه ليس في القوم أقرب بي رحما منك فزد في المدة وجدد العقد ، فإن صاحبك لا يرده عليك أبدا ، فقال عثمان : جوارى في جواره صلى الله عليه وسلم ، انتهى . ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعنده فاطمة وحسن رضی الله عنه غلام يذب بين يديها ، فقال : يا على إنك أمس القوم بي رحما ، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبا اشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه ، فالتفت إلى فاطمة رضی الله عنها ، فقال : يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، قالت : والله ما يبلغ بني ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وفي رواية أنه قال لفاطمة : أجبرى بين الناس ،

فقالت : إنما أنا امرأة ، قال : قد أجزت أختك يعنى زينب أبا العاص بن الربيع يعنى زوجها وأجاز ذلك محمد ، قالت : إنما ذاك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فأمرى أحد ابنيك ، قالت : إنما هما صبيان ليس مثلهما يجير . قال : فكلمى عليا ، فقالت : أنت تكلمه ، فكلم عليا ، فقال : يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتات على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوار ؛ وقول فاطمة رضى الله عنها فى حق ابنيها إنهما صبيان ليس مثلهما يجير هو الموافق لما عليه أئمتنا من أن شرط من يؤمن أن يكون مكلفا ، وأما قولها وإنما أنا امرأة فلا يوافق ما عليه أئمتنا من أن للمرأة والعبد أن يؤمن لأن شرط المؤمن عند أئمتنا أن يكون مسلما مكلفا مختارا . وقد أمنت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم زوجها أبا العاص بن الربيع ، وقال صلى الله عليه وسلم « قد أجزنا من أجزت » وقال « المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أديانهم » كما سيأتى فى السرايا ، وقد تقدم ذلك قريبا عن أبى سفيان . وسيأتى قريبا أن أم هانىء أجزت ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال لها « أجزنا من أجزت يا أم هانىء » لكن سيأتى أن هذا كان تأكيدا للأمان الذى وقع منه صلى الله عليه وسلم لأهل مكة لا أمان مبتدأ .

ثم إن أبا سفيان أتى أشراف قريش والأنصار وكل يقول نجوارى فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء إلى على كرم الله وجهه وقال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد انسدت على فانصحنى ، قال : والله لا أعلم لك شيئا يعنى عنك ولـكنك سيد بنى كنانة ، فقم وأجز بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ قال : والله ما أظنه ولـكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى أجزت بين الناس . زاد فى رواية : ولا والله ما أظن أن يخفرنى أحد ، ولا يردّ جوارى ، قال : وفى رواية أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنى أجزت بين الناس ، أى وقال : لا والله ما أظن أحدا يخفرنى ويردّ جوارى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ وفى لفظ : يا أبا سفيان انتهى .

ثم ركب بعيره فانطلق حتى قدم على قريش وقد طال غيبته واتهمته قريش أنه صبأ واتبع محمدا سرا وكنم إسلامه وقالت له زوجته : إن كنت مع طول الإقامة جثتم بنجع فأنت الرجل ، فلما أخبرها : أى وقد دنا منها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته فضربت

برجلها في صدره وقالت : قبحت من رسول قوم ، فاجثت بخير ، فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند أساف ونائلة ، وذبح عندهما البدن ، ومسح رؤوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة ، فلما رأته قريش قالوا : ما وراءك ؟ هل جثت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله ، لقد أبى عليّ ، وقد تتبع أصحابه ، فما رأيت قوماً لملك أطوع منهم له . وفي رواية قال : جثت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد عليّ شيئاً ، ثم جثت إلى ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جثت عمر بن الخطاب فوجدته أدنى العدو . أي وفي رواية : أعدى العدو ، ثم جثت علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار عليّ بشيء صنعته ، فوالله لأدري أيغني عني شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس : أي قال لي لم تلتمس جوار الناس على محمد ولا تجير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها أن لا يخفر جواره ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا ، أي وإنما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ، والله لم يزدني ، قالوا : رضيت بغير رضا ، وجثت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ، ولعمر الله ما جوارك بجائر ، وإن إخفارك : أي إزالة خفارتك عليهم هين ، والله أراد الرجل : يعنون علياً كرم الله وجهه أن يلعب بك . قال : والله ما وجدت غير ذلك ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، أي قال لعائشة جهزينا وأخفي أمرك ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي تجعل قمحا سويقاً ودقيقاً . وفي لفظ : وجد عندها حنطة تنسف وتنتي ، فقال : أي بنية أمركن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجهيزه ؟ قالت : نعم فتجهز ، قال : فأين تريته يريد ؟ قالت : لا والله ما أدري ، وإن ذلك قبل أن يستشير صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في السيز إلى مكة كما سياتي . ثم إنه صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجهد والتجهيز .

أي وفي الإمتاع أن أبو بكر رضي الله عنه لما سأل عائشة رضي الله عنها دخل عليه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أردت سفراً ؟ قال نعم ؟ قال : أفأتجهز ، قال نعم ، قال : فأين تريد يا رسول الله ؟ قال : قريشا ، وأخف ذلك يا أبو بكر ، وأمر صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز ، وطوى عنهم الوجه الذي يريده ، وقد قال له أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟ قال إنهم غدروا ونقضوا العهد ،

واطوما ذكرت لك ، وفي رواية أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجا ، قال : نعم ، قال : نعلك تريد بنى الأصفر ، قال : لا ، قال : أتريد أهل نجد . قال : لا ، قال : فلعلك تريد قريشا ، قال : نعم ، قال : يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة ، قال : أو لم يبلغك ما صنعوا ببني كعب : يعنى خزاعة ، قال : وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى أهل البادية ومن حوله من المساميين في كل ناحية يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، أى وذلك بعد أن تشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما في السير إلى مكة ؛ فذكر له أبو بكر رضى الله عنه ما يشير به إلى عدم السير حيث قال له : هم قومك ، وحضه عمر رضى الله عنه حيث قال : نعم هم رأس الكفر ، زعموا أنك ساحر ، وأنت كذاب ، وذكر له كل سوء كانوا يقولون ، وإيم الله لا تذلل العرب حتى تذلل أهل مكة ؛ فعند ذلك ذكر صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر كإبراهيم ، وكان في الله أئين من اللين ؛ وأن عمر كنوح وكان في الله أشد من الحجر ؛ وأن الأمر أمر عمر ، وتقدم نحو هذا لما استشارهما صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر ، أى ثم قدمت المدينة من قبائل العرب : أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ، أى وفي رواية قال : اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة ، وأخذ بالأنقاب : أى الطرق ، أى أوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ، أى وقال لهم : لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .

ولما أجمع صلى الله عليه وسلم المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش : أى إلى ثلاثة منهم من كبارهم ، وهم : سهيل بن عمرو ، وصفوان ابن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل رضى الله عنهم - فإنهم أسلموا بعد ذلك كما تقدم - كتابا يخبرهم بذلك ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشا ، ويقال أعطاه عشرة دنانير وكساها بردا ، أى وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليه حرسا فسلكت غير الطريق ، قال : وتلك المرأة هى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطاب بن عبد مناف ، وكانت مغنية بمكة ، وكانت قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلمت ، وطلبت منه الميرة ، وشكت الحاجة ، فقال لها رسول الله

صلى الله عليه وسلم : ما كان في غنائك ما يغنيك ؟ فقالت : إن قريشا منذ قتل منهم من قتل بيدركوا الغناء ، فوصلها صلى الله عليه وسلم ، وأوقرها بعيرا طعاما ، فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام ، وكان ابن خطل يلقى عليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغنى به انتهى ، فجعلت الكتاب في قرون رأسها : أى صفائر رأسها خوفا أن يطلع عليها أحد ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليا والزبير وطلحة والمقداد ، أى وقيل عليا وعمارا والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد ، أى ولا مانع أن يكون أرسل الكل ، وبعض الرواة اقتصر على بعضهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أدركا امرأة بمحل كذا ، قد كتبت معها حاطب يكتب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم ، فخذوه منها واخلوا سبيلها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فخرجا حتى أدركاها في ذلك المحل الذى ذكره صلى الله عليه وسلم فقالا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب ، فاستنزلاها وقتشاها والتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على كرم الله وجهه : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ولا كذبتنا ، ولتخرجني هذا الكتاب ، أو لنكشفنك ، أو أضرب عنقك ، فلما رأت الجد منه قالت أعرض ، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه . وفي البخارى أخرجه من عقاصها ، ولا منافاة ، وفيه في محل آخر أخرجه من حجرتها ، والحجزة معقد الإزار والسراويل . قال بعضهم : ولا مانع أن يكون في صفائرها وأنها جعلت الصفائر في حجرتها فدفعته إليه ، وسيأتى أنها ممن أباح صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح ، ثم أسلمت وعفا عنها . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الكتاب . أى وصورة الكتاب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم ، فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه . وقيل فيه : إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد نفر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر ، وقيل فيه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آذن بالغزو ولا أراه إلا يريدكم ، وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم .

أقول : لا مانع أن يكون جميع ما ذكر في الكتاب ، بأن يكون فيه : إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد آذن ، أى أعلم بالغزو وقد نفر : أى عزم على أن ينفر ، فإما إليكم وإما إلى غيركم ، ولا أراه إلا يريدكم ، وهذا كان قبل أن يعلم بسيره إلى مكة ، فلما علم ألحق بالكتاب

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه ، أى يريد التوجه إليكم بجيش إلى آخره .
وبعض الرواة اقتصر على ما فى بعض الكتاب والله أعلم .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال له : أتعرف هذا الكتاب ؟ قال :
نعم ، فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت .
وفى لفظ : ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم
ولكنى ليس لى فى القوم أهل ولا عشيرة ، ولى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . أى
وفى لفظ قال : يا رسول الله لا تجعل على لى كنت امرأ ملصقا : أى حليفا من قريش .
وفى كلام بعضهم ما يفيد أن الملصق هو الذى لا نسب له ولا دخل فى حلف . قال : ولم
أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أمواهم وأهلهم بمكة ،
ولم يكن لى قرابة ، فأحببت أن أتخذ فيهم يدا أحمى بها أهلى ، أى وهى أمه .

ففى بعض الروايات : كنت غريبا فى قريش ، وأمى بين أظهرهم ، فأردت أن
يحفطونى فيها ، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام ، وقد علمت أن الله تعالى نزل بهم بأسه
لا يعنى عنهم كتابى شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد صدقكم ، فقال
عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : يا رسول الله دعنى لأضرب عنقه ، فإن الرجل قد
نافق ، وفى لفظ قال له : قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأنقاب
وتكتب إلى قريش تحذرهم . وفى رواية : دعنى أضرب عنقه ، لأنه يعلم أنك يا رسول
الله أخذت على الطريق ، وأمرت أن لاندغ أحدا يمر ممن تنكره إلا رددناه انتهى :

وأقول : مراد سيدنا عمر بقوله قد نافق ، أى خالف الأمر ، لأنه أخفى الكفر
لقوله صلى الله عليه وسلم « قد صدقكم » ورأى أن مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم مقتضية
للقتل ، ولكن رواية البخارى : إنه قد صدقكم ، ولا تقولوا له إلا خيرا » وعليها يشكل
قول عمر المذكور ودعاؤه عليه بقوله : قاتلك الله . إلا أن يقال : يجوز أن يكون قول
عمر لذلك كان قبل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذكر . وعند قول عمر رضى الله
عنه : دعنى لأضرب عنقه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه قد شهد بدرا ،
وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »
وفى رواية « فقد وجبت لكم الجنة » وفى رواية : « لا يدخل النار أحد شهد بدرا » فعند
ذلك فاضت عينا عمر رضى الله عنه بالبكا ، أى وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا

لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) الآيات . وفي قوله «عدوى وعدوكم» منقبة عظيمة لحاطب رضى الله عنه بأن في ذلك الشهادة له بالإيمان ، وقوله « تلقون إليهم بالمودة » أى تبدونها لهم ، وذكر بعضهم أن البلغة في اللغة : التطرف بالظاء المشالة ، يقال تبلتغ في كلامه : إذا تطرف فيه .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينة أباهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وقيل ابن أم مكتوم وبه جزم الحافظ الهمداني في سيرته . وخرج لعشر ، وقيل لليلتين ، وقيل اثنتى عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ، وقيل سبع عشرة ، وقيل ثمان عشرة ، وهو في مسند الإمام أحمد بسند صحيح . قال ابن القيم : إنه أصح من قول من قال إنه خرج لعشر خلون من رمضان ، أى وصدر به في الإمتاع ، وقيل خرج لتسع عشرة مضين من شهر رمضان في سنة ثمان . قال في النور لا أعلم خلافا في الشهر والسنة .

وما في البخارى أن خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة كان على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمة المدينة ، أى فيكون في السنة التاسعة فيه نظر ، وكان صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف ، أى باعتبار من لحقه في الطريق من القبائل كبنى أسد وسليم ، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار ، وكان المهاجرون سبعائة ومعهم ثلثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا ، وقيل كان صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا .

ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى الأبواء أو قريبا منها لقبه أبو سفيان ابن عمه الحارث وكان الحارث أكبر أولاد عبد المطلب ، وكان يكنى به كما تقدم ، وكان أبو سفيان أخاه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة على حليلة كما تقدم ، ولقبه عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب أخو أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها لأبيها ، لأن والده أم سلمة عاتكة بنت جندل الطعان ، وكان عند أبيها أمية بن المغيرة زوجتان أيضا كل منهما تسمى عاتكة ، فكان عنده أربع عواتك . وكان مجيء الحارث وعبد الله له صلى الله عليه وسلم يريدان الإسلام ، وكان رضى الله تعالى عنهما من أكبر القائميين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أشد الناس إذاية له صلى الله عليه وسلم ، أى بعد أن كان الحارث قبل النبوة آلف الناس له صلى الله عليه وسلم لا يفارقه كما تقدم ، وقد تقدم بعض ذكر

أذيتهما له صلى الله عليه وسلم ، فأعرض صلى الله عليه وسلم عنهما فكلمته أم سلمة رضى الله عنها فيهما : أى قالت له : لا يكون ابن عمك وابن عمك أى وصهرك أشقى الناس بك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى : يعنى أبأ سفیان فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى يعنى عبد الله أخأ أم سلمة فهو الذى قال لى بمكة ما قال : أى قال له : والله لأأمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر إليك ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك إلى آخر ما تقدم . فلما خرج الخبر إليهما ، قال أبو سفیان ومعه ابن له : والله ليأذن لى أو لأخذن بيد ابنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت جوعا وعطشا ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما ، ثم أذن لهما فدخلا عليه وأسلما وقبل صلى الله عليه وسلم إسلامهما .

وقيل إن عليا كرم الله وجهه قال لأبى سفیان : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) فإنه صلى الله عليه وسلم لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) . وكان أبو سفیان رضى الله عنه بعد ذلك لا يرفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه لأنه عاداه صلى الله عليه وسلم نحو عشرين سنة يهجوهم ولم يتخلف عن قتاله . وكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يحبه ويشهد له بالجنة ، ويقول : أرجو أن يكون خلفا من حمزة رضى الله عنهما ، أى وقال له صلى الله عليه وسلم يوما « الصيد كل الصيد فى جوف الفرا » وفى رواية قال له صلى الله عليه وسلم « أنت يا أبأ سفیان كما قيل : كل الصيد فى جوف الفرا » .

وفى سفره صلى الله عليه وسلم صام وصام الناس ، حتى إذا كانوا بالكديد بفتح الكاف وكسر الدال المهملة الأولى : أى وهو محل بين عسفان وقديد أفطر ، أى وقيل أفطر بعسفان ، وقيل أفطر بقديد ، وقيل أفطر بكرع الغميم . ولا منافاة لتقارب الأمكنة . وقال بعضهم : لا مانع أن يكون صلى الله عليه وسلم كرر الفطر فى تلك الأماكن لتساوى الناس فى رؤية ذلك ، فأخبر كل منهم عن محل رؤيته .

قال : وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج ووصل إلى محل يقال له الصاصل قدم

أمامه الزبير بن العوام رضى الله عنه في مائتين ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر .

أى وفي الإمتاع : لما خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة نادى مناديه : من أحب أن
يصوم فليصم ، وفي بعض الأيام صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسه الماء ووجهه
من شدة العطش ، وفي لفظ : من شدة الحر وهو صائم .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ الكديد بلغه أن الناس شق عليهم الصيام ، أى
وأنتهم ينظرون فيما فعلت ، فاستوى صلى الله عليه وسلم على راحلته بعد العصر ودعا بإناء
فيه ماء ، وقيل لبن فشرب ، ثم ناوله لرجل بجانبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض
الناس صام ، فقال : أولئك العصاة ، أى لأنهم خالفوا أمره صلى الله عليه وسلم لهم بالفطر
ليقووا على مقاتلة العدو ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال للصحابة لما دنوا من عدوهم : إنكم
قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم يفطر حتى انسلخ
الشهر انتهى .

أى وفي قديد عقد صلى الله عليه وسلم الألوية والرايات ، ودفعها للقبائل ، ثم سار
حتى نزل بمر الظهران : أى وهو الذى يقال له الآن بطن مرو عشاء ، أى وقد أعمى الله
الأخبار عن قريش إجابة لدعائه صلى الله عليه وسلم ، فلم يعلموا بوصوله إليهم ، أى ولم
يبلغهم حرف واحد من مسيره إليهم ، فأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف
نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان العباس رضى الله عنه قد
خرج قبل ذلك بعياله مسلما ، أى مظهر الإسلام مهاجرا ، فلقي رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالجحفة ، وقيل بذي الحليفة ، فرجع معه إلى مكة ، أى وأرسل أهله وثقله إلى
المدينة ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هجرتك ياعم آخر هجرة كما أن نبوتى
آخر نبوة » قال العباس رضى الله عنه : ورقت نفسى لأهل مكة ، أى وقال : يا صباح
قريش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه
إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال العباس رضى الله عنه : فجلست على بغلة رسول الله
صلى الله عليه وسلم البيضاء أى زاد بعضهم التى أهداها له دحية الكلبي ، فخرجت عليها
حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلى أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة
يخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة

فوالله إني لأسير إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، أي وقد خرجا وحكيم بن حزام: أي بعد أن خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام، فلقيا بدبلا فاستصحباه وخرجوا يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به؟ أي لأنهم علموا بمسيره صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا إلى أي جهة.

وفي سيرة الهمياطي: ولم يبلغ قريشا مسيره إليهم فلا ينافي ما قبله. وهم مغتمون يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يتجسس الأخبار وقالوا: إن أقيمت محمدا فخذ لنا منه أمانا، أي فلما سمعوا سهيل الخليل راعهم ذلك وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا، هذه كنيران عرفة، وبديل يقول له: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، وحمشتها بالحاء المهملة والشين المعجمة: أي أحرقتها وقيل بالسين المهملة: أي اشتدت عليها من الحماسة وهي الشدة، وأبو سفيان يقول: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. أي وفي رواية أن القائل هذه خزاعة غير بديل، وأن بدبلا هو القائل هؤلاء أكثر من خزاعة وهو المناسب، لأن بدبلا من خزاعة. قال العباس رضي الله عنه: فعرفت صوت أبي سفيان، أي وكان أبو سفيان صديقا للعباس ونديمه، قال العباس، فقلت: يا أبا حنظلة فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ فقلت نعم، قال: مالك فذاك أبي وأمي؟ قلت: والله هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به، أي وفي رواية: قد جاءكم بعشرة آلاف، فقال: واصباح قريش والله فما الحيلة فذاك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك، فركب خلفي، أي ورجع صاحبه، فجيئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا؟ وإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من هذا؟ وقام إلى، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فركضت البغلة فسبقته فاقتحمته عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر في أثرى، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان، أي عدو الله قد أمكن منه من غير عقد ولا عهد، فدعني لأضرب عنقه، قال: قلت يا رسول الله إني قد أجزته. ولعل العباس

وعمر رضى الله عنهما لم يباخهما قوله صلى الله عليه وسلم إنكم لا قون بعضهم . فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه إن صح .

قال العباس رضى الله : ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا ينجيه الليلة رجل دوني ، فلما أكد عمر في شأنه ، قلت : مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، أى ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف ، قال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأنتى به .

وفى البخارى أن الحرس ظفروا بأبى سفيان ومن معه وجاءوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا .

وجمع بعضهم بأنه يجوز أن يكون العباس أخذهم من الحرس ، أى ويؤيده قول ابن عقبة رحمه الله لما دخل الحرس بأبى سفيان وصاحبيه لقيهم العباس بن عبد المطلب فأجارهم ، أى وأتى أبى سفيان وتأخر صاحبه ، قال وفى لفظ : أخذهم نفر من الأنصار بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عيوناً فأخذوا بنخطم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وها هو ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ، فجاءوا بهم إلى عمر رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه كان فى تلك الليلة على الحرس كما تقدم ، فقالوا : جئناك بنفر من أهل مكة ، فقال عمر وهو يضحك إليهم : والله لو جئتمونى بأبى سفيان ما زدتم ، فقالوا : والله أتيناك بأبى سفيان ، فقال : احبسوه ، فحبسوه حتى أصبح ، فغدوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى ، وفيه ما لا يخفى ، فان الجمع بينه وبين ما قبله بعيد .

قال العباس : ولما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب به يا عباس إلى رحلك فذهبت به ، فلما أصبح غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يعد أن نودى بالصلاة وثار الناس ، ففزع أبو سفيان وقال للعباس يا أبا الفضل ما يريدون ؟ قال الصلاة .

وفى رواية : ما للناس ؟ أمروا فى بشىء ؟ قال : لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة ورأى

المسلمين يتلقون وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رأهم يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد ، فقال للعباس : يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه ، فقال له العباس : لونهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه ، فقال : ما وأيت ملكا مثل هذا لملك كسرى ولا ملك قيصر ولا ملك بنى الأصفر ، ثم قال للعباس : كلسه في قومك هل عنده من عفو عنهم ؟ فانطلق العباس بأبي سفيان حتى أدخله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي وأمي أنت ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا بعد ، قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، أما والله هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا .

قال : وفي رواية أن بديلا وحكيم بن حزام لم يرجعا بل جاء بهم العباس ، وأن العباس قال : يا رسول الله أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجزتهم وهم يدخلون عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدخلهم ، فدخلوا عليه ، فسكنوا عنده عامة الليل يستخبرهم ، أى عن أهل مكة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا أنى رسول الله ، فشهد بذلك بديل وحكيم بن حزام ، فقال أبو سفيان : ما أعلم ذلك ، والله إن في النفس من هذا شيئا فأرجئها انتهى : أى أخرها إلى وقت آخر .

وفي أسد الغابة أنه صلى الله عليه وسلم ، قال ليلة قرب من مكة في غزوة الفتح : إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك وأرغب بهم في الإسلام : عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ، أى وهذا يدل على القول بأن جبيرا أسلم يوم الفتح كمن ذكر معه . وذكر بعضهم أنه أسلم بعد الحديبية وقبل الفتح .

فقال العباس رضى الله تعالى عنه لأبي سفيان : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق فأسلم .

وذكر عبد بن حميد أن النبي صلى الله عليه وسلم حين عرض الإسلام على أبي سفيان ، قال له : كيف أصنع بالعزى ؟ فسمعه عمر رضى الله تعالى عنه من وراء القبة ، فقال له : تخراً عليها ، فقال له أبو سفيان : ويحك يا عمر ، إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى

فإياه أكلم ، وكان في هذا تصديق أمية بن أبي الصلت ، فإنه كان يقول : كنت أرى في كتبى أن نبيا يبعث في حرتنا فكننت أظن بل كنت لأشك أنى أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذ هو في بنى عبد مناف ، فنظرت في بنى عبد مناف فلم أجد أحدا يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن ربيعة فلما جاوز الأربعين سنة ولم يوح إليه علمت أنه غيره . قال أبو سفيان : فخرجت في ركب أريد اليمن في تجارة فررت بأمية بن أبي الصلت فقلت له كالمستهزى* به : يا أمية قد خرج النبي الذي قد كنت تنعته ، قال إنه حق فاتبعه ، قلت : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعني من اتباعه إلا الاستحياء من بنيات ثقيف ، إني كنت أحدتهم أنى هو يرينى تابعا لغلام من بنى عبد مناف ، ثم قال لأبى سفيان : كأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيكم بما يريد ، رواه الطبرانى في معجمه .

وذكر بعضهم أن أمية هذا كان يتفرس في بعض الأحيان في لغات الحيوان ، فر يوما على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو ، فقال : هذا البعير يقول إن في رحله مسلة تصيب ظهره ، فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرجل ، فوجدوا المسلة كما قال .

وذكر أن حكيم بن حزام قال : يا رسول الله أجدت بأوباش الناس من يعرف ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم أظلم وأفجر ، قد غدرتم بعقد الحديبية ، وتجاهرتم على بنى كعب يعنى خزاعة بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه ، فقال بدليل : صدقت والله يا رسول الله ، فقد غدروا بنا ، والله لو أن قريشا خلوا بيننا وبين عدوتنا ما نالوا منا الذى نالوا ، فقال حكيم : قد كنت يا رسول الله حقيقا أن تجعل عدتكم وكيدك هوازن ، فإنهم أبعد رحما وأشد عداوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأرجو أن يجمعها لى ربي : فتح مكة ، وإعزاز الإسلام بها ، وهزيمة هوازن وأخذ أموالهم وذرائعهم ، وقال له أبو سفيان : يا رسول الله ادع الناس بالأمان ، أرايت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، من كف يده وأغلق داره فهو آمن ، قال العباس : فقلت : يا رسول الله إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألتى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن .

أى فحكيم بن حزام من مسلمة الفتح ، وكان عمره ستين سنة ، وبقي في الإسلام مثل ذلك ، كان من أشرف قريش في الجاهلية والإسلام ، وأعتق في الجاهلية مائة رقبة ، وفي الإسلام مثل ذلك ، فإنه حج في الإسلام ، وأوقف بعرفة مائة وصيف في أعناقهم أطواق الفضة منقوش عليها « عتقاء الله عن حكيم بن حزام » وأهدى مائة بدنة قد جللها بالخبرة ، وأهدى ألف شاة . وعقد صلى الله عليه وسلم لأبي رويحة الذي آخى صلى الله عليه وسلم بينه وبين بلال لواء ، وأمره أن ينادى : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن ، أى وإنما قال ذلك لما قال له أبو سفيان : وما تسع دارى ، وما يسع المسجد ؟ ولما قال له صلى الله عليه وسلم ذلك قال أبو سفيان : هذه واسعة ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم العباس أن يحبس أبا سفيان وبديلا وحكيم بن حزام [] أى وعليه إنما خص أبو سفيان بالذكر في بعض الروايات لشرفه قال له : احبسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها . قال العباس : ففعلت ، فمرت القبائل كلها ، كلما مرت قبيلة كبرت ثلاثا عند محاذاته . قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول : مالى ولسايم ، أى فإن أول القبائل مرّ سليم ، وفيها خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، ثم تمر القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، حتى نفذت بالفاء والداد المهملة القبائل كلها ، ما تمر قبيلة إلا سألتنى عنها ، فإذا قلت له بنو فلان ، قال : مالى ولبنى فلان .

أى وقد ذكرها بعضهم مرتبة ، فقال : أول من مر خالد بن الوليد في بنى سليم بضم السين . فقال أبو سفيان : يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا خالد بن الوليد ، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، قال : ومن معه ؟ قال : بنو سليم ، قال : مالى ولبنى سليم .

ثم مر على أثره الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه في خمسمائة من المهاجرين وقتبان العرب ؟ فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال الزبير ، قال : ابن أخيك ؟ قال : نعم . ثم مرت بنو غفار بكسر الغين المعجمة ، ثم أسلم ، ثم بنو كعب ، ثم مزينة ، ثم جهينة ثم كنانة ، ثم أشجع .

ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ، قال العباس : أدخل الله الإسلام قلوبهم ، فهذا فضل الله [] حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء للبسهم الحديد . والعرب تطلق الخضرة على السواد كما تطلق

السواد على الخضره ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد :
أى فيها ألفا دارع وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : رويدا حتى يلحق أولكم
آخركم . قال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، فقال أبو سفيان : والله يا أبا الفضل
لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ، فقلت : يا أبا سفيان إنها النبوة ، فقال : نعم
إذن ، ثم قلت له : النجاء بالفتح والمد إلى قومك ، - تى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته :
يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فن دخل دار أبى سفيان فهو
آمن ، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة أم معاوية رضى الله تعالى عنهم ، فأخذت بشاربه
وقالت كلاما : معناه اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه ، قبح من طليعة قوم .

أى وفى رواية أنها أخذت بلحيته ونادت : يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلا
قاتلم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟ فقال لها : ويحك اسكتى وادخلى بيتك . وقال :
ويحك ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، من دخل دار
أبى سفيان فهو آمن ، قالوا قبحك الله ، وما تعنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو
آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم
ابن حزام فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى ربيعة فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم
وإلى المسجد ، أى وبهذا استبدل على أن مكة فتحت صاحبا لاعنوة . وبه قال إمامنا الشافعى
رحمه الله . وقال غيره : فتحت عنوة .

وفى رواية : أن النبى صلى الله عليه وسلم وجه حكيم بن حزام مع أبى سفيان بعد
إسلامهما إلى مكة ، وقال : من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن وكانت بأسفل
مكة ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن وكانت بأعلى مكة ، واستثنى صلى الله عليه
وسلم جماعة أمر بقتلهم ، وهم أحد عشر رجلا ، أى وفى الإمتاع : ستة نفر ، وأربع
نسوة وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة : منهم عبد الله بن أبى سرح ، وهو أخو
عثمان بن عفان من الرضاعة ، وكان فارس بنى عامر ، وكان أحد النجباء الكرام
من قريش رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، وعبدالله بن خطل وقينته ، وعكرمة
ابن أبى جهل رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، والحويرث بن نفيل ، ومقيس بن
حبابه ، وهبار بن الأسود رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وكعب بن زهير رضى

الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وهو صاحب بانة سعاد ، والحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وهو أخو أبي جهل لأبويه ، وزهير بن أمية رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب رضى الله تعالى عنها فإنه أسلمت بعد ذلك وعاشت إلى خلافة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، وتقدم أنها كانت حاملة لكتاب حاطب بن أبي بلتعة ، وصفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وزهير ابن أبي سلمى (١) : أى وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، ووحشى بن حرب رضى الله تعالى عنه [] فإنه أسلم بعد ذلك .

وفى رواية أن سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه كان معه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى على الأنصار .

ولما مر على أبي سفيان وهو واقف بمضيق الوادى ، قال أبو سفيان : من هذه ؟ قال : هؤلاء الأنصار ، عليهم سعد بن عبادة معه الراية ، فلما حاذاه بسعد قال : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة : أى الحرب والقتال : اليوم أستحل الحرمه . وفى لفظ : الكعبة ، اليوم أذل الله قريشا ، فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعضهم : ورأيت مع الزبير رضى الله تعالى عنه ، فلما مر بأبي سفيان وحاذاه أبو سفيان ناداه : يا رسول الله أمرت بقتل قومك ، فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا ، فإنه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشا ، أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس برّ وأرحمهم وأوصلهم ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما : يا رسول الله فإننا لا نأمن من سعد أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا سفيان كذب سعد ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشا . أى وفى رواية : اليوم يعظم الله فيه الكعبة ، اليوم تكسى فيه الكعبة ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة : أى أرسل عليا كرم الله وجهه أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس رضى الله تعالى عنهما . وقيل أعطاه للزبير ، وقيل لعلى كرم الله وجهه خشية أن يقع من ابنه قيس مالا يرضاه صلى الله عليه وسلم ، أى لأن قيسا رضى الله تعالى

(١) المنقول فى كتب التاريخ والسير أن زهير بن أبي سلمى مات قبل البعثة ولم يسلم إلا ولداه كعب

عنه كان من دهاء العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة والبسالة والشجاعة. من وقف على ما وقع بينه وبين معاوية لما ولاه سيدنا علي "كرم" الله وجهه بعد قتل عثمان رضى الله تعالى عنه مصر لرأى العجب من وفور عقله ، ومع ذلك كان له من الكرم مالا مزيد عليه . وقفت له رضى الله تعالى عنه عجوز : وقالت له : أشكو إليك قلة الجرذان ببتي . والجرذان بالذال المعجمة : نوع من الفيران ، فقال : ما أحسن هذا السؤال ! وقال لها : لأكثرن الجرذان ببيتك ، فملاً بيتها طعاما وأدما . وقيل قالت له : مشت جرذان بيتي على العصى ، فقال لها : لأدعهن يثبن وثبة الأسود ، ثم ملاً بيتها طعاما ، ولا مانع من تعدد الواقعة .

ومن هذا الوادى ما كتب به بعضهم إلى عبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين أشكو إليك الشرف . فقال له : ما أحسن ما استمنحت ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : يسأل ما لا يقدر عليه ، ويعتذر فلا يعذر .

ولما أشرف أبوه سعد رضى الله تعالى عنهما على الموت قسم ماله في أولاده ، وكان له حمل لم يشعر به ، فلما مات سعد وولد له ذلك الحمل كلمه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما في أن ينقض ما صنع أبوه من تلك القسمة ، فقال : نصيبى للمولود ، ولا أغير ما صنع أبى ، ولم يكن في وجه قيس رضى الله تعالى عنه شعر ، وكان مع ذلك جميلا ، وكانت الأنصار رضى الله تعالى عنهم تقول : وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا ، وكان له ديون على الناس كثيرة فلما مرض رضى الله تعالى عنه استبطأ عواده ، فقيل له إنهم مستحيون من أجل دينك ، فأمر مناديا ينادى : كل من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو له ، فأتاه الناس حتى هدموا درجة كان يصعد عليها إليه .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار لابنه قيس رضى الله تعالى عنهما . قال : وروى أن سعداً أبى أن يسلم اللواء إلا بأمانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إليه بعمامته . فدفع اللواء لابنه قيس رضى الله تعالى عنهما انتهى .

وفي صحيح البخارى أن كتيبة الأنصار جاءت مع سعد بن عباد رضى الله تعالى عنه ومعه الراية ولم ير مثلها ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل . وفي رواية الحميدى وهى أجل الكتاب

بالجيم . قال في الأصل : وهى أظهر من رواية أقل ، لأنها كانت خاصة المهاجرين ، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم والراية مع الزبير رضى الله تعالى عنه .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ، أى وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت . وقال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو رضى الله عنهم ، أى فإنهم أسلموا بعد ذلك [] قد جمعوا ناسا بالخدمة : وهو جبل بمكة ليقاتلوا ، وكان من جملتهم رجل كان يعدّ سلاحا ، ويصلح من شأنه ، فتقول له زوجته ، أى وقد كانت أسلمت سرا لماذا تعدّ ما أرى ؟ فيقول : لحمد وأصحابه ، فتقول له : والله ما أراه يقوم لحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم .

وفى تاريخ مكة للأزرقي قال رجل من قريش لامرأته وهى تبرى نبالا له ، وكانت أسلمت سرا ، فقالت له : لم تبرى هذا النبل ؟ قال : بلغنى أن محمدا يريد أن يفتح مكة ويفزوها ، فلئن كان لأخدمك خادما من بعض من أستأسره ، فقالت له : والله لكأثر بك وقد رجعت تطلب محباً أخبثك فيه لو رأيت خيل محمد ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أقبل ذلك الرجل إليها ، فقال : ويحك هل من محبأة ، فقالت له : فأين الخادم ؟ فقال لها : دعى عنك ، وأنشد الأبيات الآتية ، هذا كلامه .

وسبب ذلك أن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما لقيهم بالحل المذكور منعه الدخول ورموه بالنبل ، وقالوا له : لا تدخلها عنوة ، فصاح خالد فى أصحابه ، فقتل من قتل وانهمز من لم يقتل ، وكان من جملة من انهمز ذلك الرجل .

وفى رواية أنه لما دخل بيته قال لامرأته : أغلقتى على بابي ، قالت : وأين ما كنت تقول ؟ أين الخادم الذى كنت وعدتني ، تسخر به ؟ فقال * إنك لو شهدت يوم الخدمة * عبارة الأزرقي :

وأنت لو أبصرتنا بالخدمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
واستقبلتنا بالسيوف المسلمه يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضربا فلا تسمع إلا غمغمه لهم نهيت حولنا وهمهمه
لا تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

والغمجمة : الصوت الذى لا يفهم . والنهيت بالثناة تحت وفوق : الزحير . والمهممة :

صوت فى الصدر .

أى واستمر خالد رضى الله تعالى عنه يدفعهم إلى أن وصل الخزورة إلى باب المسجد
أى وصعدت طائفة منهم الجبل فتبعهم المسلمون ، فرأى صلى الله عليه وسلم وهو على العقبة
بارقة السيوف ، فقال : ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ فقيل له : لعل خالدًا قوتل ويدي*
بالقتال ، فلم يكن له بد من أن يقاتل من يقاتله ، وما كان يا رسول الله ليخالف أمرك ،
فقتل من المشركين أربعة وعشرون من قريش ، وأربعة من هذيل .

وفى رواية جعل صلى الله عليه وسلم الزبير رضى الله تعالى عنه على إحدى المجنبتين :
أى وهما الكتبتان ، تأخذ إحداهما اليمن والأخرى اليسار والقلب بينهما ، وخالدًا على
الأخرى ، وأبا عبيدة على الرجالة .

وفى لفظ : على الحسر بضم الحاء المهملة وتشديد السين المهملة : أى الذين لا دروع
لهم . قال فى شرح مسلم : فهم رجالة لا دروع عليهم ، وقد أخذوا بطن الوادى ، ولعل
ذلك كان قبل الدخول إلى مكة ، فلا ينافى ما سياتى أنه صلى الله عليه وسلم أعطى الزبير
رضى الله تعالى عنه راية ، وأمره أن يغرزها بالحجون ، لا يبرح حتى يأتبه فى ذلك المحل
وفى ذلك المحل بنى مسجد يقال له مسجد الراية .

وقد بوّشت قريش أبواشا : أى جمعوها من قبائل شتى ، فنادى رسول الله صلى الله
عليه وسلم أبا هريرة رضى الله تعالى عنه وقال لى : اهتف : أى صح لى بالأنصار ، فهتف
هم ، فجاءوا وطافوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : ترون لى أوباش قريش
وأتباعهم ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم بيديه إحداهما على الأخرى : احصلوهم حصدا
حتى توافونى بالصفى : أى ودخلوا من أعلى مكة . قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه :
فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء وما أحد يوجه إلينا منهم شيئًا . وفى لفظ :
فانشاء أن تقتل أحدا منهم إلا قتلناه : أى لا يقدر أن يدفع عن نفسه ، فجاء أبو سفيان
رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله أبيضت خضراء قريش لا قريش : أى لا جماعة
لقريش بعد اليوم ، لأن الجماعة المحيطة يعبر عنها بالسواد الأعظم ، فيقال السواد الأعظم ،
ويعبر عنها بالخضرة كما هنا ، فالمراد جماعة قريش ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم «من
أغلق بابه فهو آمن» .

قال : ووجه صلى الله عليه وسلم اللوم على خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . وقال له : لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟ قال : هم يا رسول الله بدءونا بالقتال ، ورمونا بالنبل ، ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففنا ما استطعت ، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بدا من أن أقاتلهم فظفرنا الله بهم فهربوا من كل وجه .

وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من الأنصار عنده : يا فلان ، قال : لبيك يا رسول الله ، قال : ائت خالد بن الوليد وقل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقتل بمكة أحدا ، فجاء الأنصارى فقال : يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقتل من لقيت من الناس ، فاندفع خالد فقتل سبعين رجلا بمكة . فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من قريش فقال : يا رسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم . قال : ولم ؟ قال : هذا خالد بن الوليد لا يلتقي أحدا من الناس إلا قتله ، قال : ادع لى خالد ، فدعاه له ، فقال : يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحدا ؟ قال : بل أرسلت أن تقتل من قدرت عليه . قال صلى الله عليه وسلم : ادع لى الأنصارى ، فدعاه له ، فقال : أما أمرتك أن تأمر خالد أن لا يقتل أحدا ، قال : بلى ولكنك أردت أمرا وأراد الله غيره ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل للأنصارى شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كف عن الطلب ، قال : قد فعلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قضى الله أمرا ، ثم قال : كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر ، وهى الساعة التى أحلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أى وهذه المقاتلة التى وقعت لخالد رضى الله تعالى عنه لا تنافى كون مكة فتحت صلحا كما تقدم ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن أتى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى ربيعة فهو آمن » فهو من زيادة الاحتياط لهم فى الأمان .

وقوله احصدوهم حصدا محمول على من أظهر من الكفار القتال ولم يقع قتال ، ومن ثم قتل خالد رضى الله تعالى عنه من قاتل من الكفار ، وإرادة على كرم وجهه قتل الرجلين اللذين أمتهما أخته أم هانىء كما سيأتى لعله تأول فيهما شيئا أو جرى منهما قتال له

وتأمين أم هانيء لها من تأكيد الأمان الذي وقع للعموم ، فلا حجة في كل ما ذكر على أن مكة فتحت عنوة كما قاله الجمهور .

وقيل أعلاها فتح صلحا : أى الذى سلكه أبو هريرة والأنصار لعدم وجود المقاتلة فيه ، وأسفلها الذى سلكه خالد رضى الله عنه فتح عنوة لوجود المقاتلة فيه . كما تقدم .
ودخل صلى الله عليه وسلم مكة وهو راكب على ناقته القصواء : أى مردفا أسامة ابن زيد بكرة يوم الجمعة معتمرا بشقة برد حبرة حمراء ، واضعا رأسه الشريف على رحله تواضعا لله تعالى ، حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى مكة وكثرة المسلمين ، ثم قال « اللهم إن العيش عيش الآخرة » .

وقيل دخل صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه المغفر ، وقيل وعليه عمامة سوداء حرقانية قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير إحرام ، ورايته سوداء ولوؤه أسود .
وعن جابر رضى الله تعالى عنه « كان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة أبيض » وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « كان لواءه يوم الفتح أبيض . ورايته سوداء تسمى العقاب » أى وهى التى كانت بخير ، وتقدم أنها كانت من برد عائشة .

وعنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح من كداء » بفتح الكاف والمد والتنوين « من أعلى مكة » وهذا هو المعروف خلافا لمن قال إنه دخل من أسفل مكة ، وهى ثنية كدى بضم الكاف والقصر والتنوين ، وسيأتى أنه عند الخروج خرج صلى الله عليه وسلم من هذه ، وبهذا استدلت أئمتنا على أنه يستحب دخول مكة من الأولى ، والخروج منها من الثانية ، أى واغتسل صلى الله عليه وسلم لدخول مكة كما حكاه إمامنا الشافعى رضى الله عنه فى الأم ، وبه استدلت على استحباب الغسل لداخل مكة ولو حللا أى وسيأتى ذلك عن أم هانيء رضى الله تعالى عنها ، أى وكان شعار المهاجرين « يا بنى عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يا بنى عبد الله » وشعار الأوس « يا بنى عبيد الله » أى شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل ، وعند اختلاط الحرب لو وجد .

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس ، قال وذلك بالحجون : موضع ماغرز الزبير رضى الله تعالى عنه رايته صلى الله عليه وسلم عند شعب أبى طالب الذى حصرت فيه بنو هاشم ، أى وبنو المطلب قبل الهجرة ، بقبة من آدم نصبت له هناك

وفي رواية « فأقبل صلى الله عليه وسلم إلى الحجر فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس أخذ بسبته » والسية : ما انعطف من طرف القوس « فأتى صلى الله عليه وسلم في طوافه على صنم إلى جنب البيت : أى من جهة بابه يعبدونه وهو هبل وكان أعظم الأصنام] فجعل يطعن بها في عينيه ، ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) أى فأمر به صلى الله عليه وسلم فكسر ، فقال الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه لأبي سفيان : قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت في يوم أحد في غرور حين ترعم أنه قد أنعم ، فقال أبو سفيان رضى الله تعالى عنه : دع هذا عنك يا ابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد صلى الله عليه وسلم غيره لكان غير ما كان ، أى وانتهى صلى الله عليه وسلم إلى المقام وهو يؤمئذ لاصق بالكعبة .

قال : وعن علي كرم الله وجهه ، قال « انطلق بي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا حتى أتى الكعبة ، فقال : اجلس ، فجلست إلى جنب الكعبة ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبى ، ثم قال : انهض فنهضت ، فلما رأى ضعفى تحته ، قال اجلس . فجلست ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا على اصعد على منكبى ، ففعلت » أى وفي رواية : « أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه اصعد على منكبى واهدم الصنم ، فقال ، يا رسول الله ، بل اصعد أنت فإنى أكرمك أن أعلوك ، فقال : إنك لا تستطيع حمل ثقل النبوة فاصعد أنت ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم فصعد على كرم الله وجهه على كاهله ثم نهض به » قال على : فلما نهض بي ، فصعدت فوق ظهر الكعبة ، وتنحى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وخيل لى حين نهض بي أنى لو شئت لنتلت أفق السماء أى وفي رواية : قيل لعلى كرم الله وجهه : كيف كان حالك ، وكيف وجدت نفسك حين كنت على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان من حالى أنى لو شئت أن أتناول الثريا لفعلت ، وعند صعوده كرم الله وجهه ، قال له صلى الله عليه وسلم : ألتى صنمهم الأكبر وكان من نحاس ، أى وقيل من قوارير أى زجاج .

وفي رواية « لما ألقى الأصنام لم يبق إلا صنم خزاعة موتدا بأوتاد من الحديد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عاجله فعالجته وهو يقول : إيه إيه (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فلم أزل أعاجله حتى استمكننت منه فقد قته فتكسر .

أقول : وهذا السياق يدل على أن هذا الصنم غير هبل وأن هبل ليس أكبر أصنامهم ، بل هذا أكبر منه ولم أقف على اسمه .

ومما يدل على أن الذي كسر هو هبل قول الزبير رضى الله تعالى عنه كما تقدم لأبي سفيان أن هبل الذى كنت تفتخر به يوم أحد قد كسر ، قال : دعنى ولا توبخنى ، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك .

وفى الكشاف : ألقاها جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من قوارير صفر ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا على ارم به ، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : ما رأينا أسحر من محمد .

وفى خصائص العشرة لصاحب الكشاف زيادة ، وهى : ونزلت من فوق الكعبة وانطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم نسعى ، وخشينا أن يرانا أحد من قريش هذا كلامه ، وهذا يدل على أن ذلك لم يكن يوم فتح مكة فلي تأمل .

وفى الكشاف أيضا : كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، لكل قوم صنم يحياهم . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كانت لقبائل العرب أصنام يحجون إليها وينحرون لها ، فشكا البيت إلى ربه عز وجل ، فقال : يارب إلى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك ؟ فأوحى الله تعالى إلى البيت : إني سأحدث لك نوبة جديدة ، فلأماؤك خدودا سجدا يدفون إليك دفيف النسور ، ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها ، لهم عجيح حولك بالبيت » هذا كلامه .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة ، أى بعد أن أرسل بلالا رضى الله تعالى عنه إلى عثمان بن أبي طلحة يأتى بمفتاح الكعبة إلى آخر ماسياتى ، وبعد أن محيت منها الصور ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم أمر عمر رضى الله تعالى عنه وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد ترك صورة إبراهيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عمر ألم أمرك أن لا تترك فيها صورة ؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيئا يستقسم بالأزلام (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) هذا .

وفى كلام سبط ابن الجوزى ، قال الواقدي رحمه الله : أمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما أن يقدموا إلى البيت ، وقال
لعمر : لاتدع صورة حتى تمحوها إلا صورة إبراهيم هذا كلامه ، فليأمل .

وفي رواية ، عن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما ، قال « دخلت على صلى الله
عليه وسلم في الكعبة فرأى صوراً ، فدعا بدلو من ماء فأتيته به ، فجعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم يمحوها « أى وتلك الصور هى صور الملائكة وصور إبراهيم وإسماعيل فى
أيديهما الأزلام يستقسمان بها ، أى وإسحاق وبقية الأنبياء كما تقدم فى بيان قريش الكعبة
وصورة مريم ، فقال « قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون ، قاتلهم الله ، لقد علموا أنهما
لم يستقسما بالأزلام قط « أى ولا منافاة لأنه يجوز أن يكون عمر رضى الله تعالى عنه ترك
مع صورة إبراهيم صورة إسماعيل ومريم وصورة الملائكة ، ووجد صورة حمامة من عيدان
بفتح العين المهملة وكسرهما بيده ثم طرحها ، ودعا بزعفران فلطخه بتلك التماثيل :
أى بموضعها ، وصلى بها ركعتين بين اسطوانتين ، وفى لفظ : بين العمودين اليمانيين ،
وفى لفظ : المقدمين ، وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع انتهى .

أى وفى الترمذى « دخل صلى الله عليه وسلم البيت وكبر فى نواحيه ولم يصل » وفى رواية
لمسلم « دخل صلى الله عليه وسلم هو وأسامه بن زيد وبلال وعثمان بن أبي طلحة » زاد
فى رواية « والفضل بن العباس » قال الحافظ ابن حجر : وفى رواية شاذة « فأغلقوا عليهم
الباب » وفى لفظ آخر « فأغلقا » أى عثمان وبلال فأجاف : أى أغلق عليهم عثمان الباب «
وجمع بأن عثمان هو المباشر لذلك ، لأنه من وظيفته ، وبلال رضى الله تعالى عنه كان مساعداً
له فى الغلق .

أى ولما دخلوا كان خالد بن الوليد يذب الناس وهو واقف على باب الكعبة . قال ابن عمر
رضى الله تعالى عنهما : فلما فتحوا كنت أول من وليج ، فلقيت بلالاً فسألته : هل صلى
فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، وذهب عنى أن أسأله كم صلى ؟ وهذا يدل
على أن قول بلال رضى الله تعالى عنه إنه صلى الله عليه وسلم صلى أقى بالصلاة المعهودة
لا الدعاء كما ادعاه بعضهم .

وفى كلام السهيلي فى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه صلى فيها ركعتين .
وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « أخبرنى أسامة بن زيد أنه صلى الله عليه وسلم
لما دخل البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج ، فلما خرج ركع فى قبل البيت

ركعتين» أى بين الباب والحجر الذى هو الملتزم ، وقال : هذه القبلة ، فبلال رضى الله تعالى عنه مثبت للصلاة فى الكعبة ، وأسامة رضى الله تعالى عنه ناف ، والمثبت مقدم على النافى ، على أنه جاء أن أسامة رضى الله تعالى عنه أخبر أيضا بأنه صلى الله عليه وسلم صلى فى الكعبة .

وأجيب بأن أسامة حيث أثبت اعتماد قول بلال ، وحيث نفى اعتماد ما عنده ، أى وفى مجمع الزوائد للحافظ الهيثمى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فصلى بين السارين ركعتين ، ثم خرج فصلى بين الباب والحجر ركعتين ، ثم قال : هذه القبلة ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقام يدعو ولم يصل » فالنقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اختلف . وسبب الاختلاف تعدد دخوله صلى الله عليه وسلم ؛ ففى المرة الأولى دخل وصلى ، وفى المرة الثانية دخل ولم يصل ، وهذا السياق يدل على أن ذلك كان يوم الفتح .

وفى كلام بعضهم: رواية ابن عباس ورواية بلال رضى الله تعالى عنهم صحيحتان ، لأنه صلى الله عليه وسلم دخلها يوم النحر فلم يصل ، ودخلها من الغد فصلى ، وذلك فى حجة الوداع هذا كلامه فليتأمل . أى ثم إنه صلى الله عليه وسلم جاء إلى مقام إبراهيم وكان لاصقا بالكعبة فصلى ركعتين ، ثم أخره على ما تقدم ودعا صلى الله عليه وسلم بماء فشرب منه وتوضأ .

وفى لفظ «ثم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب» أى يغلبهم الناس على وظيفتهم وهى النزاع من زمزم «لنزعت منها دلوا» أى فإن الناس يقتدون به صلى الله عليه وسلم فى ذلك مع أن النزاع من وظيفته بنى عبد المطلب ، وانزاع له العباس رضى الله تعالى عنه دلوا فشرب منه وتوضأ ، فابتدر المسلمون يصوبون على وجوههم .

وفى لفظ لا تسقط قطرة إلا فى يد إنسان إن كان قدر ما يشربها شربها وإلا مسح بها جلده ، والمشركون يقولون : مارأينا ولا سمعنا ملوكا قط بلغ هذا .

ولما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد أى والناس حوله خرج أبو بكر وجاء بأبيه رضى الله تعالى عنهما يقوده ، وقد كان كف بصره ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتية ؟ وفى لفظ : لو أقررت الشيخ

في بيته لأتيناها تكريماً لأبي بكر ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه ، فأجلسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ف مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : أسلم تسلم ، فأسلم رضى الله تعالى عنه ، وهنأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بإسلام أبيه رضى الله تعالى عنهما ، أى وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه ؛ يعنى أباه أبا قحافة ، وذلك أن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك كذا فى الشفاء ، وكان رأس أبى قحافة ولحيته بيضاء كالشغامة ، فقال : غيروهما ، وجنبوهما السواد . أى وفى رواية « واجتنبوا السواد » وجاء « غيروا الشيب ، ولا تشبهوا باليهود والنصارى » وفى رواية « اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم » وجاء « إن أحسن ما غيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم » وعن أنس رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خضب بالحناء والكتم » قال ابن عبد البر رحمه الله : والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم لم يخضب ، ولم يبلغ من الشيب ما يخضب له . وقد اختضب أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالحناء والكتم . واختضب عمر رضى الله تعالى عنه بالحناء . وجاء « يامعشر الأنصار حمروا أو صفروا وخالفوا أهل الكتاب » وكان عثمان رضى الله تعالى عنه يصفر . وعن أنس رضى الله تعالى عنه « دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبيض الرأس واللحية ، فقال ألسنت مؤمنا ؟ قال بلى ، قال : فاخضب » لكن قيل إنه حديث منكر . وجاء « من اختضب بالسواد سود الله وجهه يوم القيامة » قيل إنه حديث منكر . وجاء « يكون آخر الزمان رجال من أمتى يغيرون بالسواد لا ينظر الله إليهم يوم القيامة » قيل هو غريب جدا .

قال بعضهم : ولعل من خضب بالسواد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كسعد ابن أبى وقاص والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهم ، أى وعقبة بن عامر المدفون بمصر قال بعضهم : ليس بمصر قبر صحابى متفق عليه إلا قبر عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان من بالسواد وهو القائل فى ذلك :

تسود أعلاها وتأبى أصولها ولاخير فى الأعلى إذا فسد الأصل

وكان واليا على مصر من جهة معاوية رضى الله تعالى عنه ، فعزله بمسلمة بن مخلد ، وأمره بالغزو فى البحر .

وكان عقبة رضى الله تعالى عنه يقول: ما أنصفنا معاوية، عزلنا وغرّبنا لم يبلغهم النهى أو فهموا أن النهى للكرامة.

وقد جاء « أول من جزع من الشيب إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين رآه في عارضه » فقال عليه الصلاة والسلام: يارب ماهذه الشوهة التي شوهت بجليك؟ فأوحى الله إليه: هذا سربال الوقار، ونور الإسلام، وعزتي وجلالي ما ألبسته أحدا من خلقي يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي إلا استحييت منه يوم القيامة، أن أنصب له ميزانا، وأنشر له ديوانا أو أعذبه بالنار، فقال: يارب زدني، فأصبح رأسه مثل الثغامة البيضاء « وفي المشكاة قال صلى الله عليه وسلم « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السواد لا يجدون رائحة الجنة » رواه أبو داود والنسائي، أى وفي كلام ابن الجوزى رحمه الله: أول من تخضب بالسواد فخرعون، ومن أهل مكة أتى من العرب عبد المطلب بن هاشم. وعن عمر رضى الله تعالى عنه « اخضبوا بالسواد، فإنه أنسكى للعدو وأحب للنساء » فليتأمل.

وكان لأبى بكر رضى الله تعالى عنه أخت صغيرة في عنقها طوق من فضة اقتعله إنسان من عنقها، فأخذ أبو بكر رضى الله تعالى عنه بيد أخته وقال: أنشدنكم بالله وبالإسلام طوق أختي، فما أجابه أحد، ثم قال الثانية والثالثة، فما أجابه أحد، فقال رضى الله تعالى عنه: يا أختاه احتسبى طوقك، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل. قال بعضهم: ولم يعيش لأبى قحافة رضى الله تعالى عنه ولد ذكر إلا أبو بكر، ولا يعرف له بنت إلا أم فروة التي أنكحها أبو بكر من الأشعث بن قيس، وكانت قبله تحت تميم الدارى، وهى هذه المذكورة هنا.

وقيل كانت له بنت أخرى تسمى عربية. وعليه فيحتمل أن تكون هى المذكورة هنا وتقدم لإسلام أبى بكر رضى الله تعالى عنهما لما كان المسلمون في دار الأرقم، وأمه بنت عم أبيه. قال بعضهم: لم يكن أحد من الصحابة المهاجرين والأنصار أسلم هو ووالداه وجميع أبنائه وبناته غير أبى بكر. وبنوه ثلاثة: عبد الله وهو أكبرهم، مات أول خلافة والده. وعبد الرحمن ومحمد رضى الله تعالى عنهم. ولد محمد في حجة الوداع وهو المقتول بمصر، وبناته ثلاثة أيضا: أسماء، وهى أكبرهن، وهى شقيقة عبد الله. وعائشة، وهى شقيقة عبد الرحمن. وأم كلثوم رضى الله تعالى عنهم وعنهن.

مات أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهى ببطن أمها، وقد أنزل الله تعالى في حقه (رب

أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي (الآيات . قال بعضهم : لا يعرف في الصحابة أربعة أسلموا وصحبوا النبي صلى الله عليه وسلم وكل واحد أبو الذي بعده إلا في بيت أبي بكر رضي الله تعالى عنه : أبو قحافة وابنه أبو بكر ، وابنه عبد الرحمن ، وابن عبد الرحمن محمد ، ويكنى بأبي عتيق .

أى وقد قيل : إن قيل : هل تعرفون أربعة رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في نسق : أى من المذكور كل ابن الذى قبله ؟ أجيب بأنهم هؤلاء الأربعة : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر ، وابنه عبد الرحمن ، وابن عبد الرحمن محمد ، وبقولنا من المذكور لا يرد ما أورد على ذلك أن هذا يصدق على أبي قحافة وابنه أبي بكر وبنته أسماء وابنها عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم ، نعم يرد على ذلك حارثة أبو زيد فإنه أسلم على ما ذكره الحافظ المنذرى ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه وابنه زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد ، وجاء أسامة بولد في حياته صلى الله عليه وسلم ، أى ويحتاج إلى إثبات كونه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك المولود إلى أن يقال كان من شأنهم إذا ولد لأحدهم مولود جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيحنكه ويسميه ، خصوصاً وهذا المولود ابن حب الحب ، ولم أقف على اسم هذا المولود ، فليراجع في أسماء الصحابة .

وحيث يقال لأجل عدم ورود من ذكر ليس لنا أربعة ذكور معروفة أسماءهم ؛ وبعد الوقوف على اسم ذلك المولود يقال لأجل عدم الورد : ليس لنا أربعة ليسوا من الموالى إلا أبو قحافة وابنه أبو بكر وابن أبي بكر عبد الرحمن وابن عبد الرحمن محمد أبو عتيق فليتأمل : لا يقال : هذا موجود في غير بيت الصديق ، فقد ذكروا في الصحابة أربعة كذلك : أى ذكور ، كل واحد أبو الذى بعده ، عرفت أسماءهم وليس فيهم مولى ، وهم إياس ابن سلمة بن عمرو بن لال .

لأننا نقول : المراد المتفق على صحبتهم ، وهؤلاء لم يقع الانفاق على صحبتهم .

ومن الفوائد المستحسنة أنه ليس في الصحابة ، قال بعضهم : بل ولا في التابعين من اسمه عبد الرحيم ، وثلاثة ذكور أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم على نسق ، وهم السائب والد إمامنا الشافعى رضي الله تعالى عنه ، وأبوه عبيد ، وجده عبد يزيد .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه ، والأنصار تحته . قال بعضهم لبعض : أما

الرجل فأدركته رغبة في قربته ورأفة بعشيرته ، فنزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بما ذكر القوم ، فلما قضى الوحي رفع صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : يامعشر الأنصار قلم : أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته ، قالوا : قلنا ذلك يارسول الله ، قال صلى الله عليه وسلم : فما اسمي إذن ، أى إن فعلت ذلك كيف اسمي ؟ وأوصف بأنى عبد الله ورسوله ، كلاً لأفعل ذلك إني عبد الله ورسوله ، أى ومن كان هذا وصفه لا يفعل ذلك ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالحيا حياكم ، والمات ماتكم ، فأقبلوا إليه صلى الله عليه وسلم ويكون ويقولون : والله ماقلنا الذى قلنا إلا الضن : أى البخل بالله ورسوله : أى لا نسمح أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير بلدتنا ، يعنون المدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم .

وفى رواية أن الأنصار رضى الله تعالى عنهم قالوا فيما بينهم : أترون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فتح الله أرضه وبلده يقيم بهما ، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من دعائه قال : ماذا قلم ؟ قالوا لاشئ يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال صلى الله عليه وسلم : معاذ الله الحيا حياكم ، والمات ماتكم .

أى وتقدم له صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة نظير ذلك ، وهو أن الأنصار قالوا : يارسول الله هل عسيت إن نحن نصرناك وأظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فنبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم .

وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتل عبد الله بن أبى سرح ، لأنه كان أسلم قبل الفتح ، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليهما حكيماً ، وإذا أملى عليه عليهما حكيماً كتب غفوراً رحيماً ، وكان يفعل مثل هذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال : إن محمداً لا يعلم مايقول ، فلما ظهرت خيانه لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتدّ وهرب إلى مكة . وقيل إنه لما كتب (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) قبل إملائه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب ذلك ، هكذا أنزلت ، فقال عبد الله : إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنابى يوحى إلى ، فارتد ولحق بمكة ، فقال لقريش : إني كنت أصرف محمداً كيف شئت كان يملئ على عزير حكيم . فأقول أو علم حكيم ، فيقول نعم كل صواب ، وكل

ما أقوله يقول اكتب ، هكذا نزلت ، فلما كان يوم الفتح وعلم بإهدار النبي صلى الله عليه وسلم دمه لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة ، فقال له : يا أخى استأمن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقى ، فغيبه عثمان رضى الله عنه حتى هدأ الناس واطمأنوا ، فاستأمن له ، ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فصار عثمان رضى الله عنه يقول : يا رسول الله أمنتك والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ، ثم قال : نعم ، فبسط يده فبايعه ، فلما خرج عثمان وعبد الله قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله : أعرضت عنه مرارا ؛ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ، وقال صلى الله عليه وسلم لعبد بن بشر وكان نذر إن رأى عبد الله قتله ، أى وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه أن يقتله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : انتظرتك أن تبنى بنذر ، قال : يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلى ، فقال « إنه ليس لنبي أن يومض » . وفى رواية « الإيماء خيانة ليس لنبي أن يومض » . وفى رواية « لا ينبغى لنبي أن تكون له خائنة الأعين » أى وهذا يدل على أن خائنة الأعين الإيماء بالعيون : أى أن يومض بظرفه خلاف ما يظهره بكلامه وهو اللمز هذا .

وقيل إنه أسلم وبايع والنبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وصار يستحى من مقابلته صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لعثمان : أما بايعته وأمنتك ؟ قال بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحى منك ، قال « الإسلام يجب ما قبله » وأخبره عثمان رضى الله عنه بذلك ، ومع ذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي صلى الله عليه وسلم يجيئ معهم ولا يجيئ إليه منفردا .

وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خطل لأنه كان ممن أسلم : أى قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم ، وكان اسمه عبد العزى ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذ الصدقة ؛ وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه . وفى لفظ : كان معه مولى يخدمه ، وكان مسلما فنزل منزلا وأمره أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا وهو نائم فعدا عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا ، وكان شاعرا يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعره ، وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يصنعه .

وقد قيل إنه ركب فرسه لابسا للحديد ، وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل الله دخله الرعب ، فانطلق إلى السكبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه

ودخل تحت أستارها فأخذ رجل سلاحه ، وركب فرسه ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون ، وأخبره خبره ، فأمر بقتله .

وقيل لما طاف صلى الله عليه وسلم بالكعبة قيل هذا ابن خطل معلقا بأستار الكعبة ، فقال : « اقلوه فإن الكعبة لا تعيد عاصيا ، ولا تمنع من إقامة حد واجب » أى فقتله سعد ابن حريث وأبو برزة .

وقيل قتله الزبير رضى الله عنه ، وقيل سعد بن ذؤيب ، وقيل سعد بن زيد . قال فى النور : والظاهر اشتراكهم فيه جميعا جمعا بين الأقوال .

وأمر صلى الله عليه وسلم بقتل قينتيه ، فقتلت إحداهما واستؤم من رسول الله صلى الله عليه وسلم للأخرى فأنها وأسلمت .

والحويرث بن نقيذ ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ويعظم القول فى أذيته ، وينشد الهجاء ، وكان العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنه حمل فاطمة وأم كلثوم بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث البعير الحامل لها فرمى به الأرض ، قتله على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى ذلك اليوم وقد خرج يريد أن يهرب .

ومقيس بن ضبابه إنما أمر بقتله ، لأنه كان قد أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلما طالبا لدية أخيه هشام بن ضبابه رضى الله عنه ، قتله رجل من الأنصار فى غزوة ذى قرد خطأ يظنه من العدو ، ودفع له النبي صلى الله عليه وسلم دية أخيه ، ثم إنه عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله بعد أن أخذ دية أخيه ثم لحق بمكة مرتدا كما تقدم ، قتله ابن عمه ثميلة بن عبد الله الليثى ، أى بعد أن أخبر ثميلة بأن مقيسا مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر ، فذهب إليه فقتله ، وذلك بردم بنى جمح ، وقيل قتل وهو معلق بأستار الكعبة .

وأما هبار بن الأسود رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة ، فأهوى إليها هبار ونخس بغيرها .

وفى رواية : ضربها بالرمح فسقطت من على الجمل على صخرة ، أى وكانت حاملا فألقت ما فى بطنها وأهراقت الدماء ، ولم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت كما تقدم ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم «إن لقيتم هبارا فأحرقوه ، ثم قال : إنما يعذب بالنار رب النار . إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه فلم يوجد يوم الفتح ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه . ويذكر أنه لما أسلم وقدم المدينة مهاجرا جعلوا يسبونهُ ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : سب من سبك فانتهوا عنه » وهذا السياق يدل على إنه أسلم قبل أن يذهب إلى المدينة .

وفي لفظ : ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاء هبار رافعا صوته وقال « يا محمد أنا جئت مقرا بالإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله » واعتذر إليه أي قال له صلى الله عليه وسلم بعد أن وقف عليه وقال : السلام عليك يا نبي الله لقد هربت منك في البلاد فأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك في صفحك عن جهل عليك ، وكنا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من المهلكة ، فاصفح عن جهلي وعمما كان مني فإني مقر بسوء فعلي ، معترف بذنبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا هبار عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هدانا إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما كان قبله .

وقوله مهاجرا ، فيه أنه لا هجرة بعد فتح مكة ، إلا أن يقال هي مجاز عن مجرد الانتقال عن محل إلى آخر أخذنا مما يأتي إن شاء الله في عكرمة .

وأما عكرمة بن أبي جهل رضى الله عنه فإنه صلى الله عليه وسلم إنما أمر بقتله لأنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس على المسلمين ، ولما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه فرّ إلى اليمن فاتبعته امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أن أسلمت فوجدته في ساخل البحر يريد أن يركب السفينة ، وقيل وجدته في السفينة فردته ، أي بعد أن قالت له : يا ابن عم نجيتك من عند أوصل الناس ، وأبرّ الناس ، وخير الناس ، لانهلك نفسك ، فقد استأمنت لك ، فجاء معها فأسلم وحسن إسلامه أي بعد أن قال : يا محمد هذه يعني زوجتي أخبرتني أنك أمنتني ، قال : صدقت إنك آمن ، فقال عكرمة : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله وطأ رأسه من الحياء ، فقال له صلى الله عليه وسلم يا عكرمة ما تسألني شيئا أقدر عليه إلا أعطيتك قال : استغفر لي كل عداوة عاديتكها ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عاديتها أو منطلق تكلم به ، أي ولما قدم عليه صلى الله عليه وسلم وثب صلى الله

عليه وسلم إليه قائما فرحابه ، أى ورمى صلى الله عليه وسلم رداءه وقال : مرحبا بمن جاء مؤمنا مهاجرا ، وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة .

وفى [بهجة المجالس فى أنس المجالس] لابن عبد البر رحمه الله : أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه دخل الجنة ، ورأى فيها عذقا فأعجبه وقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبى جهل فشق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم وقال : لا يدخلها إلا نفس مؤمنة ، فلما جاءه عكرمة ابن أبى جهل مسلما فرح به ، وأول ذلك العذق لعكرمة . والعكرمة : الأثني من الحمير واستدل بذلك على تأخر الرؤيا ، وأنها تكون لغير من ترى له . قال : وصار عكرمة قبل إسلامه يطلب امرأته أم حكيم يجامعها فتأبى وتقول : أنت كافر وأنا مسلمة ، والإسلام حائل بينى وبينك فقال : إن أمرا منعك عنى لأمر كبير ، أى ولما قتل عكرمة رضى الله عنه فى اليرموك فى قتال الروم وانقضت عدتها تزوجها خالد بن سعيد ، وأراد أن يدخل بها ، فجعلت تقول له : لو أخرت الدخول حتى يفيض الله هذه الجموع يعنى الروم ، فقال خالد : إن نفسى تحدثنى أن أصاب فى جموعهم ، قالت : فدونك ، فدخل بها فى خيمته ، فما أصبح الصبح إلا والروم قد اصطفت ، فخرج خالد رضى الله عنه ، فقاتل حتى قتل ، فشددت أم حكيم عليها ثيابها ، وأخذت عمود الخيمة التى دخل بها خالد فيها ، فقتلت بها سبعة من الروم ، وقال صلى الله عليه وسلم قبل أن يقدم عليه عكرمة ابن أبى جهل رضى الله عنه « يأتىكم عكرمة مؤمنا مهاجرا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يلحق الميت » انتهى . أى وفى رواية « لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قلدنوا » وفى أخرى « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » وفى أخرى « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم » .

وجاء أنه شكأ إليه صلى الله عليه وسلم قولهم عكرمة بن أبى جهل ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات » وقد كان قبل إسلامه يارز رجلا من المسلمين فقتله ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض الأنصار : ما أضحكك يارسول الله وقد فجعنا بصاحبنا ؟ فقال : أضحكنى أنهما فى درجة واحدة فى الجنة ، ومن ثم قتل عكرمة شهيدا فى قتال الروم فى وقعة اليرموك كما مر .

وسارة رضى الله عنها ، فإنها أسلمت ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتلها ، لأنها كانت مغنية بمسكة ، وكانت تغنى بهجائه صلى الله عليه وسلم ، وهى التى وجد معها كتاب

حاطب ، وقد استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنها وأسلمت كلمة تقدم .

والحارث بن هشام وزهير بن أمية ، استجارا بأُم هانيء بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شقيقته ولم تكن أسلمت إذ ذاك فأراد علي قتلهما .

فعنها رضى الله عنها أنها قالت : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فر إلى رجلان من أمهائي : أى من أقارب زوجها هبيرة بن أبي وهب مستجيران بنى فأجرتهما . وذكر الأزرقى بدل زهير بن أمية عبد الله بن أبي ربيعة ، فدخل علي أخى علي بن أبي طالب فقال : والله لأقتلنهما ، أى وقال : تجيرى المشركين ، فحلت بينه وبينهما . فخرج فأغلقت عليهما بيتى ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوب ، فسلمت عليه فقال : من هذه ؟ فقلت أم هانيء بنت أبي طالب ، فقال : مرحبا بأُم هانيء ، وفى الرواية الأولى : فلما اغتسل أخذ ثوبه وتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم أقبل علي ، فقال : مرحبا وأهلا بأُم هانيء ، ما جاء بك ؟ فأخبرته الحديث ، فقال « أجرنا من أجزت ، وأما من أمنت فلا نقتلها » وفى البخارى أيضا « أنه صلى الله عليه وسلم اغتسل فى بيتها ثم صلى الضحى ثمان ركعات » أى ولما ذكر ذلك لابن عباس رضى الله عنهما قال : إني كنت أمر على هذه الآية (يسبحن بالعشى والإشراق) فأقول أى صلاة صلاة الإشراق ؟ فهذه صلاة الإشراق . وفى لفظ : ما عرفت صلاة الإشراق إلا الساعة ، وهذا يدل لما أفتى به والد شيخنا الرملى رحمهما الله تعالى أن صلاة الضحى صلاة الإشراق ، خلافا لما فى العباب من أنها غيرها . ويحتاج للجمع بين هذه الرواية والتي قبلها على ثبوت صحتها ، وبهذه الواقعة قال المحاملى من أئمتنا فى كتابه اللباب الذى هو أصل التنقيح الذى هو أصل التحرير : ومن دخل مكة وأراد أن يصلى الضحى أول يوم اغتسل وصلاتها كما فعله عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة . وبه ألفز فقيلى : شخص يستحب له الاغتسال لصلاة الضحى فى مكان خاص .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنهما : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى

سبحة الضحى قط ، وإني لأسبحتها : أى أصليها .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله : ما أخبرنى أحد أنه رأى النبي صلى الله عليه

وسلم يصلي الضحى إلا أم هانيء، وهذا ينازع فيه ما يأتي أن صلاة الضحى مما اختص بوجودها صلى الله عليه وسلم .

وأسلمت أم هانيء ذلك اليوم الذي هو يوم الفتح . أى وجاء أنه سمى الله عليه وسلم قال لها « هل عندك من طعام نأكله ؟ قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة وأنا أستحي أن أقدمها إليك ، فقال : هلمى بهن ، فكسرهن فى ماء ، وجاءت بملح فقال : هل من آدم ، فقالت : ما عندى يا رسول الله إلا شئ من نخل ، فقال : هلميه ، فصبه على الكسر وأكل منه ، ثم حمد الله ، ثم قال : نعم الأدم النخل . يا أم هانيء لا يقفر بيت فيه نخل . »

أى وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم سأل أهله الإدام فقالوا : ما عندنا إلا النخل فدعا به ، فجعل يأكل به ويقول « نعم الأدم النخل » وفى الحديث عن جابر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا « إن الله يوكل بأكل النخل ملكين يستغفران له حتى يفرغ » وجاء « نعم الأدم النخل ، اللهم بارك فى النخل ، فإنه كان إدام الأنبياء قبلى ، ولم يقفر بيت فيه نخل » وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ذات يوم إلى بعض حجر نسائه فدخل ، ثم أذن لى فدخلت ، فقال : هل من غداء ؟ فقالوا نعم ، فأتى بثلاثة أقرصة فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصا فوضعه بين يديه ، وأخذ قرصا فوضعه بين يدي ، ثم أخذ الثالث فكسره ، فجعل نصفه بين يديه ونصفه بين يدي ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : هل من آدم ؟ فقالوا : لا إلا شئ من نخل ، قال : هاتوه ، فنعم الأدم النخل » وفى رواية « فإن النخل نعم الإدام » قال جابر رضى الله تعالى عنه : فازلت أحب النخل منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : مازلت أحب النخل منذ سمعتها من جابر .

وصفوان بن أمية استأمن له عمير بن وهب ، أى قال له : يانبي الله إن صفوان سيد قومى قد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، فإنك أمنت الأحمر والأسود ، فقال صلى الله عليه وسلم : أدرك ابن عمك فهو آمن ، فقال : أعطى آية يعرف بها أمانك ، فأعطى صلى الله عليه وسلم لعمير عمامته التى دخل بها مكة . أى وفى لفظ : أعطاه برده ، أى بعد أن طلب منه العود ، فقال : لا أعود معك إلا أن تأتيني بعلامة أعرفها ، فقال : امكث مكانك حتى أتيك به . فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فرده : أى بعد أن قال له : اعزب عنى لا تكلمنى ، فقال : أى صفوان ، فذاك أبى وأمى ، جئتكم من عند أفضل

الناس ، وأبرّ الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، وابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال : إني أخافه على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك ، وأكرم ، فرجع معه حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هذا يزعم أنك أمنتني ، قال : صدق فقال : يا رسول الله أمهلني بالخيار شهرين ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت بالخيار أربعة أشهر ، أى ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين ، ولما فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمها : أى بالجرعانة رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمق شعبا ملأنا نعما وشاء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال هو لك وما فيه ، فقبض صفوان ما فى الشعب ، وقال : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبى ، فأسلم كما سيأتى .

وهند امرأة أبو سفيان رضى الله تعالى عنهما فإنها أسلمت بعد ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتلها لأنها مثلت بعمه حمزة رضى الله تعالى عنه يوم أحد ولا كت قلبه كما تقدم .
وكعب بن زهير رضى الله تعالى عنه فانه أسلم بعد ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان ممن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووحشى رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه قتل عمه حمزة رضى الله تعالى عنه يوم أحد ، وكانت الصحابة أحرص شيء على قتله ، ففر إلى الطائف ، وقد قدمنا إسلامه استطرادا .

قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى يوم الفتح على الصفا يبايع الناس فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام ، أى على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا أفواجا .

أى وجاءه صلى الله عليه وسلم رجل فأخذته الرعدة فقال له صلى الله عليه وسلم « هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

أى وكان من جملة من بايعه النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما . فعن معاوية رضى الله تعالى عنه لما كان عام الحديبية وقع الإسلام فى قلبى ، فذكرت ذلك لأمى ، فقالت : إياك أن تخالف إياك فيقطع عنك القوت ، فأسلمت وأخفيت إسلامى ، فقال لى يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامى : أخوك خير منك ، هو على دينى ، فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامى ، ولقيته صلى الله عليه وسلم

فرحب بي وكتبت له : أى بعد أن استشار فيه جيزيل عليه الصلاة والسلام ، فقال ، استكتبه فإنه أمين ، وأردفه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً خلفه ، فقال : ما يلينى منك ؟ قلت بطى ، قال : اللهم املاهُ حلماً وعلماً ..

وعن العرياض بن سارية رضى الله تعالى عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية « اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب » زاد فى رواية « ويمكن له فى البلاد » .

وعن بعض الصحابة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لمعاوية يقول : اللهم اجعله هادياً مهدياً وأهد به ولا تعذبه .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً لمعاوية « يا معاوية أنت منى وأنا منك لتزاحنى على باب الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه الوسطى والى تليها » ويذكر أنه كان عنده قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وإزاره ورداؤه وشيء من شعره ، فقال عند موته : كفنونى فى القميص ، وأدرجونى فى الرداء ، وأزرونى بالإزار ، واحشوا منخري وشدق من الشعر ، واخلوا بينى وبين أرحم الراحمين .

وقد بشر بمعاوية رضى الله تعالى عنه بعض كهان اليمن . وسبب ذلك أن أمه هند كانت قبل أبيه أبى سفيان عند الفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلد ذلك البيت يوماً من الضيفان ، فاضطجع الفاكه وهند فيه فى وقت القائلة ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجته ، وأقبل رجل كان يغشاه فولج البيت ، فلما رأى المرأة التى هى هندولى هارباً ، وأبصره الفاكه وهو خارج من البيت ، فأقبل إلى هند فضر بها برجله . وقال لها : من هذا الذى كان عندك ؟ قالت : ما رأيت رجلاً ولا انتبهت حتى أيقظتنى ، فقال لها : الحقى بأبيك ، وتكلم فيها الناس ، فقال لها أبوها عتبة : يا بنية إن الناس قد أكثروا فىك فأنبئنى نبأك ، فإن كان الرجل عليك صادقاً دسست إليه من يقتله فنقطع عنك المقالة ، وإن يك كاذباً حاكته إلى بعض كهان اليمن ، فحلفت له أنه لكاذب عليها ، فقال عتبة للفاكه : يا هذا إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكنى إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، وخرجوا معهم بهند ونسوة معها ، فلما شارفوا البلاد وقالوا : غدا نرد على الكاهن الفلانى ، تنسكرت حالة هند وتغير وجهها ، فقال لها

أبوها : إني قد أرى ما بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ، كان هذا قبل أن يشهد الناس مسيرنا ، قالت : لا والله يأتاه ما ذاك لمكروه عندي ، ولكني أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ، ولا آمنه أن يسمني ميسما يكون على سبة في العرب ، قال : إني سوف أختبره من قبل أن ينظر في أمرك ، فصفر بفرس حتى أدلى ، ثم أخذ حبة من حنطة فأدخلها في إحليله وأوكأ عليها بسير ، فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : إنا قد جئناك في أمر وإني قد خبأت لك خباء أختبرك به ، فانظر ماهو ؟ قال : سمرة في كمره ، قال : أريد أبين من هذا قال : حبة بر في إحليل مهر ، قال : صدقت انظر في أمر هذه النسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب كتفها ، ويقول انهضى ، حتى دنا من هند فضرب كتفها . وقال : انهضى غير وسخاء ولا زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها ، فنثرت يدها من يده وقالت : إليك عنى ، فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك فتزوجها أبو سفيان ، فجاءت منه بمعاوية رضى الله تعالى عنهم ، وقد قال له صلى الله عليه وسلم « يامعاوية إذا ملكت فأحسن » وفي رواية « إذا ملكت من أمرأمتي شيئا فاتق الله واعدل » .

ويؤثر عنه رضى الله تعالى عنه أنه لما حضرته الوفاة قال : اللهم ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسى . اللهم أقل عثرتي ، واغفر زلتى ، وعد بملكك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك ، ثم بكى رضى الله تعالى عنه حتى علا نحيبه .

كتب إلى عائشة رضى الله تعالى عنها : اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، ومن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام » وكتبت إليه رضى الله تعالى عنها مرة أخرى : أما بعد فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفأك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا ، والسلام .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان رضى الله تعالى عنه ، متنقبة متنكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دين من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمن : بايعتنى على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن أى وذلك إسقاط الأجنة . زاد في لفظ : ولا

تلحقن بأزواجكن غير أولادهم : أى ولا تقعدن مع الرجال فى خلاء : أى لا تجتمع امرأة مع رجل فى خلوة ، ولا تأتين ببهتان تفتريه بين أيدىكن وأرجلكن . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : البهتان أن تلحق بزوجه ولدا ليس منه أى ولا يغنى عنه الزنا ، كما أن ذلك لا يغنى عن الزنا ، وقد تجبل ولا يلحقه بأحد ، ولا تعصين فى معروف . وجاء أن بعض النسوة قالت : ما هذا المعروف الذى لا ينبغي لنا أن نعطيك فيه ؟ قال لا تصحن ، أى وفى لفظ : لا تنحن ، ولا تخمشن وجهها ، ولا تنشرن شعرا . وفى لفظ : ولا تحلقن شعرا ، ولا تحرقن قرنا ، ولا تشقطن جيبا ولا تدعين بالويل .

وجاء « هذه النوائح تجعلن يوم القيامة صفيين : صفا عن اليمين ، وصفا عن اليسار ، ينبحن كما ينبح الكلب » وجاء « تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعناء غرباء ، عليها جلباب من لعنة ودرع من جرب ، واضعة يدها على رأسها تقول : ويلاه » وجاء « النائحة إذا لم تب تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » . وجاء « لا تقبل الملائكة على نائحة » . وجاء « ليس للنساء فى اتباع الجنائز من أجر » .

وجاء « أن هندا قالت له صلى الله عليه وسلم : إنك لتأخذ علينا مالا تأخذه على الرجال » أى لأن الرجال كان صلى الله عليه وسلم يبايعهم على الإسلام وعلى الجهاد فقط « وإنها قالت لما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تسرقن ، والله إنى كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان وكان حاضرا : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل عفا الله عنك ، أى فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . يانبي الله ، وأنها قالت لما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تزنين أو تزنى الحررة يارسول الله ؟ ولما قال : ولا تقتلن أولادكن ، قالت ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا » وفى لفظ « هل تركت لنا ولدا إلا قتلته يوم بدر » وفى لفظ « أنت قتلت آباءهم يوم بدر وتوصينا بأولادهم » وفى لفظ « ربيناهم صغارا ، وقتلتهم كبارا فضحك عمر رضى الله تعالى عنه حتى استلقى ، وتبسم صلى الله عليه وسلم » وفى لفظ « فضحك صلى الله عليه وسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تأتين ببهتان تفتريه ؟ قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح » زاد فى لفظ « وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تعصيتى فى معروف ، قالت : والله ماجلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف » وفى

لفظ « أنها آتته منتقبة بالأبطح وقالت : إني امرأة مؤمنة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرحبا بك . »

قال بعضهم : وفي إسلام أبي سفيان قبل هند وإسلامها قبل انقضاء عدتها ، أى لأنها أسلمت بعده بليلة واحدة ، وإقرارهما على نكاحهما حجة للشافعى رضى الله تعالى عنه . ثم أرسلت إليه صلى الله عليه وسلم بهدية وهى جديان مشويان مع مولاة لها فاستأذنت ، فأذن لها ، فدخلت عليه وهو صلى الله عليه وسلم بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبدالمطلب وقالت له : إن مولاتى تعتذر إليك وتقول : إن غنمها اليوم لقليل الوالدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك لكم فى غنمكم وأكثر والدتها فكثر الله ذلك ، تقول تلك المولاة : لقد رأينا من كثرة غنمنا والدتها ما لم نكن نرى قبل . وجاءت إليه وقالت يارسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل على من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟ فقال لها : لا عليك أن تطعمهم بالمعروف « وفي لفظ « إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، قال : خذى مايكفيك وولدك بالمعروف » أى وجاء « أن بعض النساء قالت : هلم نبايعك يارسول الله ، قال : لا أصافح النساء ، وإنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » وفي لفظ « قولى لألف امرأة كقولى لامرأة واحدة » وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : لم يصافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ، وإنما كان يبايعهن بالكلام .

وعن الشعبي « بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء وعلى يده ثوب ، وقيل إنه غمس يده فى إناء وأمرهن فغمسن أيديهن فيه ، فكانت هذه البيعة » قال ابن الجوزى : والقول الأول أثبت .

وقد ذكر المبايعات له صلى الله عليه وسلم لافى خصوص يوم الفتح على حروف المعجم فى كتاب التلخيص ، وتقدم عن أم عطية رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام ، فقال أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا ، وقرأ إلى قوله تعالى : فى معروف فقلن

تعم ، فمد يده من خارج ومددن أيديهن من داخل البيت ، ثم قال : اللهم اشهد ، ولعل ذلك كان بحائل والفتنة مأمونة .

وقال صلى الله عليه وسلم لعنه العباس أين ابنا أخيك ؟ يعنى أبا لُب عتبة ومعتب ؟ لأراهما ، قال العباس رضى الله تعالى عنه : قد تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش ، قال ائتني بهما ، فركبت إليهما فأنتيت بهما ، فدعاهما للإسلام فأسلما ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامهما ودعا لهما ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بأيديهما وانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ، ثم انصرف والسرور يرى في وجهه صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : سرك الله يا رسول الله ، إني أرى السرور في وجهك . قال : إني استوهبت ابني عمي هذين من ربى فوهبهما لى وشهدا معي حيننا والطائف . ولم يخرجنا من مكة ، ولم يأتيا المدينة ، وقلعت عين معتب في حين .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح « هذا ما وعدنى ربى ، ثم قرأ (إذا جاء نصر الله والفتح) » انتهى وقد أشار إلى ذلك صاحب الحمزية رضى الله تعالى عنه بقوله :

واستجابت له بنصر وفتح بعد ذلك الخضراء والغبراء
وتوالت للمصطفى الآية الكبرى عابهم والغارة الشعواء
فإذا ماتلا كتابا من الله تلتته كتيبة خضراء

أى أجاب دعوته صلى الله عليه وسلم الرفيع والوضيع ؛ وعن الأول كنى بالخضراء التى هى السماء . فقد جاء فى حديث سنده واه « السماء اندنيا زمردة خضراء ، وذكر أنها أشد بياضا من اللبن وخضتها من صخرة خضراء تحت الأرض » وكنى عن الثانى بالغبراء التى هى الأرض ، وإنما كانت غبراء لأن جميع طبقاتها من طين ، مع حصول نصر له صلى الله عليه وسلم على أعاديه ، وفتح لبلادهم بعد ذلك الضعف الذى كان به صلى الله عليه وسلم وبأصحابه ، وقتلهم وكثرة عدوهم مع التصميم على أذيتهم . وتتابعت العلامات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وتوالت له عليهم الإغارة المحيطة بهم من سائر الجوانب . وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه دعا عثمان بن طلحة رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو ابن العاصى قبل الفتح وأسلموا كما تقدم ، واستمر فى المدينة إلى أن جاء معه صلى الله عليه وسلم

لإلى فتح مكة ، وبه يردّ ما روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث عليا كرم الله وجهه إلى عثمان بن طلحة لأخذ المفتاح فأبى أن يذفعه له وقال : لو علمت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أمنعه منه ، وأوى على كرم الله وجهه يده وأخذ المفتاح منه قهرا وفتح الباب وأنه لما نزل قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) أمره صلى الله عليه وسلم أن يذفع له المفتاح متلفظا به ، فجاءه على كرم الله وجهه بالمفتاح متلفظا به ، فقال له : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال على كرم الله وجهه : لأن الله أمرنا برده عليك فأسلم .

ثم لما دعا صلى الله عليه وسلم عثمان وجاء إليه أخذه منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها ، ثم وقف صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم خطبة بين فيها جملة من الأحكام . منها « أن لا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذي محرم ، ولا صلاة بعد العصر ولا بعض الصبح ، ولا يصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر ، ثم قال : يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) الآية . ثم قال : يا معشر قريش ماترون ؟ » وفي لفظ « ماذا تقولون ؟ ماذا تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم . وابن أخ كريم ، وقد قدرت » أى . وفي لفظ « لما خرج صلى الله عليه وسلم من الكعبة يوم الفتح وضع يده على عضادى الباب ثم قال : ماذا تقولون ؟ ماذا تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا ، فقال سهيل بن عمرو : نقول خيرا ونظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال : أقول كما قال أخى يوسف (لا تثريب عليكم اليوم) » وفى لفظ « فإنى أقول كما قال أخى يوسف (لا تثريب عليكم اليوم ينسب الله لكم وهو أرحم الراحمين) اذهبوا فأنتم الطلقاء » أى الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا . والطلاق فى الأصل ، الأسير إذا أطلق ؟ فخرجوا فكأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام .

قال : وذكر أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه أرسل بلالا رضى الله تعالى عنه

إلى عثمان بن طلحة يأتي بمفتاح الكعبة ، فجاء إلى عثمان فأخبره ، فقال إنه عند أمي ، فرجع بلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسولا ، فقالت : لا واللوات والعزى لا أدفعه أبدا ، فقال عثمان : يا رسول الله أرسلني أخلصه لك منها ، فأرسله ، فجاء إليها فطلبه منها ، فقالت : لا واللوات والعزى لا أوصله إليك أبدا ، فقال : يا أمه ادفعيه إلي فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، إن لم تفعلني قتلت أنا وأخي ويأخذك منك غيري ، فأدخلته حجرتها وقالت : أي رجل يدخل يده ههنا ، أي وقالت له : أنشدك الله أن لا يكون ذهاب مأثرة قومك على يديك ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم ينتظر حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ؛ فبينما هو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الدار ، وعمر رضي الله عنه رافعا صوته وهو يقول : يا عثمان اخرج ، فقالت : يا بني نخذ المفتاح ، فإن تأخذه أحب إلي من أن تأخذه تيم وعدى : أي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذ عثمان ، فخرج يمشي حتى إذا كان قريبا من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزله عنه ، فسقط منه المفتاح ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المفتاح فحنى عليه وتناوله ، أي وفي رواية : فاستقبلته ببشر ، واستقبلني ببشر فأخذني وفتح الكعبة . وفي رواية أنه قال له : هاك المفتاح بأمانة الله . وفي لفظ : لما أبت أمه أن تعطيه المفتاح ، قال : والله لتعطينه أو لأخرجن هذا السيف من منكبي ، فلما رأت ذلك أعطته إياه ، فجاء به ففتح عثمان له الباب .

ويحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها ، وقد أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى إلى بعض هذه القصة بقوله :

صرعت قومه حباثل بغي ملها المكر منهم والدهاء
فأتهم خيل إلى الحرب تحتنا ل وللخيل في الوغى خيلاء
قصدت منهم القناققوافي الطعن منها ما شأنها الايطاء
وأثارت بأرض مكة نغما ظن أن الغدو منها عشاء
أحجمت عنده الحجون وأكدي دون إعطائه القليل كداء
ودعت أوجها بها وبيوتا مل منها الإقواء والإكفاء
فدعوا أحلم البرية والعفو وجواب الحليم والإغضاء
ناشدوه القربى التي من قريش قطعها الترات والشحناء

فعفا عفو قادر لم ينغصمه عليهم بما مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصل لله تساوى التقريب والإقصاء
وسواء عليه فيما أتاه من سواه الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعة وجفاء
قام لله في الأمر فأرضى الله عنه تباين ووفاء
فعله كله جميل وهل ينضح إلا بما حواه الإناء

أى ألقى قومه الذين لم يؤمنوا به بين يديه حياثل بغيهم التي مدها المسكر والدهاء حالة
كون ذلك منهم ، فبسبب مكرهم أتهم من قبله خيل تبختر بها راكموها إلى الحرب
والخيل عليها الشجعان كبر وترفع في الحرب ، قصدت في أبدانهم الرماح ، فبسبب قصدها
بهم كانت الطعنات المشبهة بالقوافي في متابعتها حالة كون ذلك الطعن من تلك الرماح ،
مما عابها الإيطاء : أى لم يعدم وجوده فيها . والإيطاء في القافية : تكريرها متحدة اللفظ
والمعنى وهو معيب على الشاعر ، لأنه يدل على قصوره . والطعنات المتوالية في محل واحد
تدل على قصر ساعد الشجاع . ورفعت تلك الخيل غبارا أظلم الجو حتى ظن أن وقت الغدو
من تلك الغبرة وقت العشاء ، وذلك بأرض مكة عند فتحها ، أمسكت عند ذلك الغبار
لكثرت الحجون ، وهو كداء بالفتح والمد : أعلى مكة لكثرة ما أعطاه صلى الله عليه وسلم
للناس ، وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم القليل من الناس كداء بالضم والمد : وهو أسفل
مكة ، وهذه لغة فيه قليلة ، وعند ذلك قلّ غباره ، وأهلكت تلك الخيول أوجها من
الناس بمكة ممن أباح دمه ومن قاتل ، وأهلكت بيوتا كان أهل مكة يرجعون إليها . ملّ من
تلك البيوت : خلوتها عن أنس بها والرجوع إليها ، وعند ذلك طلبوا منه العفو عما مضى
منهم ، وجواب الخليم لمن سأله العفو عنه العفو . وإرخاء الجفون من الحياء ، وحلفوه
بالقربي التي وصلت إليه من بطون قريش ، وهم ولد النضر بن كنانة التي قطعها المقاتلة
والتباغض والتحاسد ، فبسبب ذلك عفا صلى الله عليه وسلم عفو قادر ، لم يكدر ذلك العفو
حسب إغراء سفهائهم به حالة كون ذلك الإغراء منهم فيما مضى ، وإذا كان القطع والوصل
لله تساوى عند فاعل ذلك التقريب للأقارب والبعداء والإبعاد للأقارب والبعداء ، والذي
تقريبه وإبعاده لله لا لغيره يستوى عنده سبه والمبالغة في مدحه إذا أتاه ذلك من غيره ، ومن
ثم لو كان انتقامه لهوى النفس الأمانة بالسوء لا استمرت قطيعة الرحم ودام إبعاده لها . كيف

وقد قام لله في أموره كلها ، فبسبب ذلك أَرْضَى اللهُ تَبَايُنَ مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَعْدَائِهِ وَوَفَاءَ لِأَوْلِيَائِهِ ؛ فَعَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّهُ جَمِيلًا . وَلَا يَبْدَعُ فِي ذَلِكَ ، إِذْ مَا يَسِيلُ مِمَّا فِي الْإِنَاءِ عَلَى ظَاهِرِهِ إِلَّا مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْإِنَاءِ ، فَمِنْ أَمْتَلَأُ قَلْبَهُ خَيْرًا كَانَتْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا خَيْرًا ، وَمِنْ أَمْتَلَأُ قَلْبَهُ شَرًّا كَانَتْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا شَرًّا .

ثُمَّ جَلَسَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ وَمِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ فِي كَهْمِهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اجْمَعْ لَنَا . وَفِي لَفْظٍ : اجْمَعْ لِي الْحِجَابَةَ مَعَ السَّقَايَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ مَا تَبْدُلُونَ فِيهِ أَمْوَالَكُمْ لِلنَّاسِ : أَيُّ وَهُوَ السَّقَايَةُ ، لِأَمَّا تَأْخُذُونَ فِيهِ مِنَ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ ، وَهِيَ الْحِجَابَةُ لِشُرْفِكُمْ وَعُلُوِّ مَقَامِكُمْ .

وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّ الْعَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَطَاوَلَ يَوْمَئِذٍ لِأَخْذِ الْمِفْتَاحِ فِي رِجَالِ مَنْ بَنَى هَاشِمٌ أَيُّ مِنْهُمْ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْنَ عُمَانُ بْنُ طَلْحَةَ فَخَدَعَنِي لَهُ ، فَقَالَ : هَاكَ مِفْتَاحُكَ يَا عُمَانُ ، الْيَوْمَ يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ .

وَقِيلَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (إِنْ اللهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) فِي شَأْنِ عُمَانَ بْنِ طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَدَفَعَ الْمِفْتَاحَ لَهُ : أَيُّ لَمَّا أَخَذَهُ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السَّقَايَةِ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَلِي : أَكْرَهْتُ وَأَذَيْتُ ، وَأَمْرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرُدَّ الْمِفْتَاحَ إِلَى عُمَانَ وَيَعْتَذِرَ إِلَيْهِ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِي شَأْنِكَ : أَيُّ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْآيَةَ ، فَفَعَلَ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ ذَلِكَ .

وَسِياقُ هَذِهِ الرِّوَايَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَخَذَ الْمِفْتَاحَ عَلَى أَنْ لَا يَرُدَّهُ لِعُمَانَ ، غَلَمًا نَزَلَتْ الْآيَةُ أَمْرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرُدَّ الْمِفْتَاحَ لِعُمَانَ .

وَالسَّقَايَةُ كَمَا تَقْدُمُ كَانَتْ أَحْوَاضًا مِنْ أَدَمَ يَوْضَعُ فِيهَا الْمَاءَ الْعَذْبَ لِسَقَايَةِ الْحَاجِّ ، وَيَطْرَحُ فِيهَا التَّمْرَ وَالزَّرْبِيبَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ .

وَفِي كَلَامِ الْأَزْرَقِيِّ : كَانَ لَزَمَزَمَ حَوْضَانُ : حَوْضٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّكْنِ يَشْرَبُ مِنْهُ ، وَحَوْضٌ مِنْ وَرَائِهِ لِلْوَضوءِ ، أَيُّ وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ الْفَتْحِ .

وَالسَّقَايَةُ قَامَ بِهَا الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ ، وَقَامَ بِهَا بَعْدَهُ وَلَدُهُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا لَكَ وَلَهَا ؟ نَحْنُ أَوْلَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، قَامَ بِهَا الْعَبَّاسُ بَعْدَ مَوْتِ

أبيه عبد المطلب ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس يوم الفتح ، واستمر المفتاح مع عثمان رضى الله عنه إلى أن أشرف على الموت ولم يعقب ، دفعه إلى أخيه شيبة ، ومن ثم عرفت ذريته بالشيبيين ، أى وفي رواية « دفع صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة إلى عثمان وإلى شيبة ابن عمه ، وقال : خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

أى وكون شيبة ابن عم عثمان هو الموافق لقول الحافظ ابن حجر : الشيبيون نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . فأبو طلحة له ولدان عثمان وطلحة ، أتى عثمان بشيبة ، وأتى طلحة بعثمان .

وفي كلام ابن الجوزى ما يوافق ، وهو أن عثمان لما هاجر إلى المدينة وأسلم سنة ثمان لم يزل مقياً بالمدينة حتى خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة . أى وقد تقدم « ثم رجع إلى المدينة ، ولم يزل مقياً بها حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى مكة واستمر مقياً بها حتى مات بها في أول خلافة معاوية رضى الله عنه ، فلم يزل عثمان رضى الله عنه يلى فتح البيت إلى أن أشرف على الموت دفع المفتاح إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عمه ، فبقيت الحجابة في ولد شيبة ، وكان عثمان بن طلحة هذا خياطاً وهى صناعة نبي الله إدريس عليه الصلاة والسلام .

وفي رواية « أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا عثمان بن طلحة ، وقال له : أرني المفتاح ، فأثابه به ، فلما بسط يده إليه قام العباس فقال : يا رسول الله اجعله لى مع السقاية فكف عثمان يده ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرني المفتاح ، فبسط يده يعطيه ، فقال العباس مثل كلمته الأولى فكف عثمان يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتنى المفتاح ، فقال : هاك بأمانة الله « ولعل هذا كان قبل دخوله صلى الله عليه وسلم الكعبة ، فيسكن طلب العباس رضى الله عنه أن يكون المفتاح له تكرر قبل دخوله الكعبة وبعده . وفي رواية « أنه قال له اثنتى بالمفتاح ، قال : فأثبته به ، فأخذه ثم دفعه إلى وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وفي لفظ غيره « إن الله رضى لكم بها فى الجاهلية والإسلام ، إني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم لا ينزعها منكم إلا ظالم » وفي رواية « لا يظلمكموها إلا كافر »

ولا مانع أن يكون ذلك بعد أن دفعه على كرم الله وجهه له بأمره صلى الله عليه وسلم، وكأنه صلى الله عليه وسلم أحب أن يؤدي الأمانة بيده الشريفة من غير واسطة . وقال له « يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف ، فقال عثمان رضى الله عنه : فلما وليت ناداني ، فرجعت إليه ، فقال : ألم يكن الذى قلت لك ؟ قال رضى الله عنه : فذكرت قوله صلى الله عليه وسلم لى بمكة قبل الهجرة . »

وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يدخل الكعبة مع الناس وكنا نفتحها فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فلما أقبل ليدخلها أغلظت عليه ونلت منه وحلم على . ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت ، فقلت : قد هلكت قريش يومئذ وذلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل عمرت وعزت يومئذ ، فوقعت كلمته صلى الله عليه وسلم منى موقعا وظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال صلى الله عليه وسلم . قال : فلما قال لى يوم الفتح ذلك ، قلت : بلى أشهد أنك رسول الله .

وفى رواية وأنه صلى الله عليه وسلم دخل يومئذ الكعبة ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن : أى للظهر على ظهر الكعبة وأبو سفيان وعتاب بن أسيد . وفى لفظ : خالد بن أسيد والحارث ابن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد أى أو خالد بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون يسمع هذا العبد فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته . أى وفى رواية أنه قال ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، ولا مانع من وجود الأمرين منه ، أى وتقدم فى عمرة القضاء وقوع مثل ذلك من جماعة لما أذن بلال رضى الله عنه على ظهر الكعبة أيضا ، أى وقال غير هؤلاء من كفار قريش لقبه أكرم الله فلانا يعنى أباه إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة . وفى لفظ : والله ، الحدث العظيم أن يصبح عبد بنى جمع ينهق على بيته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الجصاء ، فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم . لقد علمت الذى قلت ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال : أما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، فقال أبو سفيان ؟ أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك .

وجاء « أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أبى سفيان وهو فى المسجد ، فلما نظر

إليه أبو سفيان قال في نفسه ليت شعري بأى شيء غلبني ؟ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه حتى ضرب يده بين كتفيه ، فقال : بالله غلبتك يا أبا سفيان : فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله ، وصار بعض قریش يستهزئون ويحككون صوت بلال غيظا ، وكان من جملتهم أبو محذورة رضى الله عنه ، وكان من أحسنهم صوتا ، فلما رفع صوته بالأذان مستهزئا سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر به فثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصيته وصدرة بيده الشريفة ، قال : فامتلا قلبي والله إيمانا و يقينا ، فعلمت أنه رسول الله ، فألتي عليه صلى الله عليه وسلم الأذان وعلمه إياه ، وأمره أن يؤذن لأهل مكة ، وكان سنه ست عشرة سنة وعقبه بعده يتوارثون الأذان بمكة ، وتقدم أن أذان أبي محذورة وتعليمه صلى الله عليه وسلم الأذان كان مرجعه من حنين ، وتقدم طلب تأمل الجمع بينهما .

وفي تاريخ الأزرقي : أن جويرية بنت أبي جهل قالت عند أذان بلال على ظهر الكعبة : والله لا نحب من قتل الأحبة ، ولقد جاء لأبي الذي جاء لمحمد من النبوة فردها ، ولم يرد خلاف قومه .

وعن الحارث بن هشام قال : « لما أجاتني أم هاني ، وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم جوارها فصار لأحد يتعرض لى ، وكنت أخشى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فر على وأنا جالس ، فلم يتعرض لى ، وكنت أستحى أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أذكر برؤيته إياى فى كل موطن مع المشركين ، فلقيته وهو داخل المسجد ، فلقينى بالبشر ، فوقف حتى جثته فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق ، فقال : الحمد لله الذى هدأك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام » .

وجاءه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح السائب بن عبد الله الخزومى ، أى وقيل عبد الله ابن السائب بن أبي السائب ، وقيل السائب بن عويمر ، وقيل قيس بن السائب بن عويمر . قال فى الاستيعاب : وهذا أصح ما قيل فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وكان شريكا له صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، فقال : فأخذ عثمان وغيره يشنون على ، فقال صلى الله عليه وسلم لهم : لا تعلمونى به ، كان صاحبي . وفى لفظ : لما أقبلت عليه قال : مرحبا بأخى وشريكى . كان لا يدارى ، ولا يمارى ، قد كنت تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تتقبل منك : أى لتوقف صحتها على الإسلام ، وهى الأعمال المتوقفة على النية التى شرطها الإسلام وهى اليوم تتقبل منك ، أى لوجود الإسلام .

وأرسل سهيل بن عمرو رضى الله تعالى عنه ولده عبد الله ليأخذ له أمانا منه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أبتى تؤمنه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم هو آمن بالله فيظهر ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : « من لقي سهيل بن عمرو فلا يجد إليه النظر ، فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يبجل الإسلام » فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سهيل : كان والله برا صغيرا برا كبيرا ، فكان سهيل رضى الله تعالى عنه يقبل ويدبر ، وخرج إلى حنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة .

وذكر أن فضالة بن عمير بن الملوح حدث نفسه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح : قال : فلما دنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال يا فضالة ، قال فضالة : نعم يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أستغفر الله ، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة رضى الله تعالى عنه يقول : والله مارفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه .

قال : ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بعد الظهر مسندا ظهره الشريف إلى الكعبة . وقيل كان على راحلته ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيها الناس إن الله تعالى قد حرم مكة يوم خالق السموات والأرض ويوم خالق الشمس والقمر ، ووضع هذين الجبلين ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجرة ، ولم تحل لأحد كان قبلى ، ولم تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة » أى من صبيحة يوم الفتح إلى العصر غضبا على أهلها « ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فن قال لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله قد أحلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحلها لكم » .

وقد جاء فى صحيح مسلم « لا يحل أن يحمل السلاح بمكة ، يامعشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، فن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فقتله ، ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذى قتله

خزاعة » وهو ابن الأقرع الهذلي من بني بكر فإنه دخل مكة وهو على شركة فعرفته خزاعة فأحاطوا به ، فطعنه منهم خراش بمشقص في بطنه حتى قتله ، فلامه صلى الله عليه وسلم وقال « لو كنت قاتلا مسلما بكافر لقتلت خراشا » أى والمشقص ما طال من النصال وعرض . قال ابن هشام : وبلغنى أنه أول قتيل وداه النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه أنه تقدم في خيبر أنه ودى قتيلا . وقال صلى الله عليه وسلم يوم الفتح « لا نغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » قال العلماء : أى على الكفر : أى لا يقاتلوا على أن يسلموا ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره » .

ولما أسلمت هند رضى الله تعالى عنها عمدت إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقدم وتقول : كنا منك في غرور .

ثم بعث صلى الله عليه وسلم السرايا إلى كسر الأصنام التي حول مكة ، أى لأنهم كانوا اتخذوا مع الكعبة أصناما جعلوا لها بيوتا يعظمونها كتعظيم الكعبة ، وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة ، فكان في كل حى صنم ؛ من ذلك كما تقدم : العزى ، وسواع ، ومناة ، وسيأتى الكلام على ذلك في السرايا إن شاء الله تعالى .

أى وفي هذا العام الذى هو عام الفتح كانت غزوة أوطاس ، وأوطاس : هى هوازن . وحللى صلى الله عليه وسلم المتعة ثم بعد ثلاثة أيام حرمها . ففي صحيح مسلم عن بعض الصحابة « لما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المتعة خرجت أنا ورجل إلى امرأة من بنى عامر كأنها بكرة غيطاء » وفى لفظ « مثل البكرة الغنطبية ، فعرضنا عليها أنفسنا . فقلنا لها : هل لك أن يستمتع منك أحدنا ؟ فقالت : ماتدفعان ؟ قلنا بردينا » وفى لفظ « ردائنا ، فجعلت تنظر فتترانى أجمل من صاحبي وترى برد صاحبي أحسن من بردى ، فإذا نظرت إلى أعجبتى ، وإذا نظرت إلى برد صاحبي أعجبها ، فقالت : أنت وبردك تكفينى فكنت معها ثلاثا » .

والحاصل أن نكاح المتعة كان مباحا ، ثم نسخ يوم خيبر ، ثم أبيض يوم الفتح ، ثم نسخ فى أيام الفتح ، واستمر تحريمه إلى يوم القيامة . وكان فيه خلاف فى الصدر الأول ثم ارتفع ، وأجمعوا على تحريمه وعدم جوازه .

قال بعض الصحابة « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما بين الركن والباب وهو يقول : أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع ، ألا وإن الله حرمها إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيموهن شيئا» أى لكن في مسلم عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال «استمتعنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر» . وفي رواية عنه : حتى نهى عنه عمر رضى الله تعالى عنه : وقد تقدم في غزاة خيبر عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : لا أعلم شيئا حرم ثم أبيع ثم حرم إلا المتعة ، وهو يدل على أن إباحتها عام الفتح كانت بعد تحريمها بخيبر ثم حرمت به ، وهذا يعارض ما تقدم أن الصحيح أنها حرمت في حجة الوداع . إلا أن يقال : يجوز أن تحريمها في حجة الوداع تأكيداً لتحريمها عام الفتح ، فلا يلزم أن تكون أبيحت بعد تحريمها أكثر من مرة كما يدل عليه كلام إمامنا الشافعى ، لكن يخالفه ما في مسلم عن بعض الصحابة « رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أوطاس في المتعة ثلاثا ثم نهى عنها » .

وقد يقال : مراد هذا القائل بعام أوطاس عام الفتح ، لأن غزاة أوطاس كانت في عام الفتح كما تقدم ، وما تقدم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من جوازها رجوع عنه . فقد قال بعضهم : والله ما فارق ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الدنيا حتى رجوع إلى قول الصحابة في تحريم المتعة ، ونقل عنه رضى الله تعالى عنه أنه قام خطيبا يوم عرفة فقال : أيها الناس إن المتعة حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير .

والحاصل أن المتعة من الأمور الثلاثة التي نسخت مرتين . الثاني لحوم الحمر الأهلية : الثالث القبلة كذا في [حياة الحيوان] .

قال : واستقرض صلى الله عليه وسلم من ثلاثة نفر من قريش : أخذ من صفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه خمسين ألف درهم . ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم . ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فرقها صلى الله عليه وسلم في أصحابه من أهل الضعف ثم وفاها مما غنمه من هوازن وقال « إنما جزاء السلف الحمد والأداء » ٥١ .

أى « وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة أى بعد فتحها تسعة عشر ، وقيل ثمانية عشر يوما » واعتمده البخارى « يقصر الصلاة في مدة إقامته » . وبهذا الثانى قال أئمتنا إن من أقام بمحل الحاجة يتوقعها كل وقت قصر ثمانية عشر يوما غير يومى الدخول والخروج ، ولعل

سبب إقامته المدة المذكورة أنه كان يترجى حصول المال الذى فرقه فى أهل الضعف من أصحابه ، فلما لم يتم له ذلك خرج من مكة إلى حنين لحرب هوازن .
وجاء إليه صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص ؛ وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد : يارسول الله هذا ابن أخى عتبة بن أبى وقاص ، عهد إلى أنه ابنه : أى قال إذا قدمت مكة انظر إلى ابن وليدة زمعة فإنه منى فاقبضه إليك ، فقال عبد بن زمعة : يارسول الله هذا أخى ابن وليدة أبى زمعة ولدته على فراشه : أى مع كونها فراشا له ، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الولد فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبى وقاص ، فقال لعبد بن زمعة : هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراش أبيك زمعة «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقال لزوجته سودة بنت زمعة «احتجى منه يا سودة» لما رأى عليه من شبه عتبة : أى فخشى أن يكون ابن خاله فأمرها بالاحتجاب ندبا واحتياطا ، فلم يرها حتى لقي الله . وفى بعض الروايات «احتجى منه يا سودة فليس لك بأخ» .

وسرقت امرأة فأراد صلى الله عليه وسلم قطعها ففزع قومها إلى أسامة بن زيد ابن حارثة رضى الله تعالى عنهم يستشفعون به ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه صلى الله عليه وسلم وقال : «أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة : استغفر لى يارسول الله ، ثم قام صلى الله عليه وسلم خطيبا فأنشأ على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها . وفى كلام بعضهم : كانت العرب فى الجاهلية يقطعون يد السارق اليمنى .

وولى صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضى الله تعالى عنه وعمره إحدى وعشرون سنة أمر مكة ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يصلى بالناس ، وهو أول أمير صلى بمكة بعد الفتح جماعة ، وترك صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه بمكة معه معلما للناس السنن والفقه .

فى الكشف ، وعنه صلى الله عليه وسلم « أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، أى وقال ذلك ثلاثا » فكان رضى الله عنه شديدا

على المريب لنا على المؤمن ، وقال : والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابيا جافيا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلًا شديدًا حتى فتح له فدخلها فأعز الله به الإسلام فنصرته للمسلمين على من يريد ظلمهم» هذا .

وفي تاريخ الأزرقي ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لقد رأيت أسيدا في الجنة وأنى أى كيف يدخل أسيد الجنة فعرض له عتاب بن أسيد ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا الذى رأيت ، ادعوه لى ، فدعى له . فاستعمله يومئذ على مكة ، ثم قال : يا عتاب أتدرى على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيرا يقولها ثلاثا» .

فإن قيل : كيف يقول صلى الله عليه وسلم عن أسيد إنه رآه في الجنة ثم يقول عن ولد أسيد إنه الذى رآه في الجنة ، قلنا لعل عتابا كان شديد الشبه بأبيه ، فظن صلى الله عليه وسلم عتابا أباه ، فلما رآه عرف أنه عتاب لا أسيد .

وفي كلام سبط ابن الجوزى : عتاب بن أسيد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لما خرج إلى حنين وعمره ثمانى عشرة سنة . وفي كلام غيره ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم إنما استخلف عتاب بن أسيد وترك معه معاذ بن جبل بعد عودته من البطائف وعمرته من الجعرانة ، إلا أن يقال : لا مخالفة ، ومراده باستئلافه إبقاؤه على ذلك ، وينبغى أن يكون ماتقدم عن الكشاف من قول أهل مكة له صلى الله عليه وسلم «لقد استخلفت على أهل الله عتاب بن أسيد» إلى آخره بعد إبقائه على استخلافه لما لا يخفى .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن أسيدا والد عتاب واليا على مكة مسلما فأتى الكفر ، فكانت الرؤيا لولده ، كما تقدم مثل ذلك في أبي جهل وولده عكرمة رضى الله تعالى عنه .

ولما ولاه صلى الله عليه وسلم على مكة جعل له في كل يوم درهما ، فكان رضى الله تعالى عنه يقول : لا أشبع الله بطنا جاع على درهم في كل يوم .

ويروى أنه قام فخطب الناس ، فقال : أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم : أى له درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم درهما في كل يوم ، فليست لى حاجة إلى أحد .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، وفرض له عمالته أربعين أوقية من فضة» ولعل الدرهم كل يوم يجرز القدر المذكور : أى أربعين أوقية فى السنة فلا مخالفة .

وفى السنن الكبرى للبيهقى : وولد عتاب هذا عبد الرحمن الذى قطعت يده يوم الجمل واحتملها النسرة وألقاها بمكة ، وقيل بالمدينة . كان يقال له يعسوب قريش .

غزوة حنين

اسم موضع قريب من الطائف . وفى كلام بعضهم : إلى جنب ذى الحجاز ، وهو سوق الجاهلية ، وتقدم ذكره . وفى كلام بعض آخر : اسم لما بين مكة والطائف ، ويقال لها غزوة هوازن ، ويقال لها غزوة أوطاس باسم الموضع الذى كانت به الوقعة فى آخر الأمر . أى وسببها أنه لما فتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة أطاعت له قبائل العرب إلا هوازن وثقيفا ، فإن أهلها كانوا طغاة عتاة مردة .

قال : قال أئمة المغازى : لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة مشى أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض ، فأشفقوا : أى خافوا أن يغزوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد فرغ لنا ، فلاناهية : أى لا مانع له دوننا ، والرأى أن يغزونا ، فحشدوا وبغوا وقالوا : والله إن محمدا لاقى قوما لا يحسنون القتال ، فأجمعت هوازن أمرها اه أى جمعوا ، وكان جماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصيرى : أى بالصاد المهملة رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسترضعا فيهم وحضر معهم دريد بن الصمة ، وكان شجاعا مجربا ولكنه كبر أى لأنه بلغ مائة وعشرين سنة ، وقيل مائة وخمسين ، وقيل مائة وسبعين : أى وقيل قارب المائتين قاله ابن الجوزى ، وقد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب : أى لأنه كان صاحب رأى وتدبير ومعرفة بالحروب ، وكان قائد ثقيف ورئيسهم كنانة بن عبد ياليل رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، وقيل قارب بن الأسود وكان سن مالك بن عوف إذ ذاك ثلاثين سنة ، فأمر الناس بأخذ أموالهم ونسائهم وأبنائهم معهم ، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم

دريد بن الصمة ، فقال دريد للناس : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم محل الخيل . وفى لفظ : مجال الخيل بالجيم لا حزن ضرر . والحزن : بفتح الحاء المهملة وإسكان الزاى وبالنون : ما غلظ من الأرض . والضرر : بكسر الضاد المعجمة وإسكان الراء وبالسین المهملة : ما صلب من الأرض ، ولا سهل دهس . والسهل : ضد الحزن . والدهس بفتح الدال المهملة والهاء وبالسین المهملة : اللين كثير التراب ، مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير بضم النون : أى صوتها ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء . واليعار بضم المثناة تحت وبالعین المهملة المخففة والراء : صوت الشاء : أى وخوار البقر أى صوتها ، قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال ابن مالك : أى وكان توافق معه على أن لا يخالفه ، فإنه قال له إنك تقاتل رجلا كريما قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى يهود الحجاز ، أى غالبهم ، إما قتلا ، وإما خروجا عن ذل وصغار ، فقال له : لا نخالفنك فى أمر تراه ، فقيل له : هذا مالك ، فقال : يا مالك أما إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كأن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، وخوار البقر ؟ قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فأنقض به . قال أبو ذر : أى زجره كما تزجر الدابة ، وهو أن يلصق اللسان بالحنك الأعلى ويصوت به ، وهو معنى قول الأصل : أى صوت بلسانه فى فيه ، ثم قال له : راعى . وفى لفظ : روعى ضأن ، والله ماله وللحرب ، ثم أشار عليه برد الذرية والأموال وقال : هل يردّ المنهزم شىء ؟ إن كانت لك لم يتفعلك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكتب ؟ قالوا : لم يشهدا منهم أحد ، قال : غاب الحد والجد ، الأول بفتح الحاء المهملة والثانى بالمعجمة مكسورة ضد الهزل ، وبفتحها الحظ ، لو كان يوم علا ورفعة ما غابا ، ثم أشار عليه بأمر لم يقبلها مالك منه وقال : والله لا أطيعك ، إنك قد كبرت وضعف رأيك ، فقال دريد لهوازن : قد شرط يعنى مالكا أن لا يخالفنى فقد خالفنى ، فأنا أرجع إلى أهلى فنعوه ، وقال مالك : والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر ، قالوا : أطعناك : أى ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفا ، ثم جعلوا الإبل صفوفا والبقر والغنم وراء ذلك لثلا بفروا . وفى لفظ :

صفت الخليل ثم الرجالة المقاتلة ، ثم صفت النساء على الإبل ، ثم صفت الغنم ، ثم صفت النعم ، ثم قال للناس : إذا رأيتموهم شدوا عليهم شدة رجل واحد ، وبعث عيوننا له : أى وهم ثلاثة أنفار أرسلهم لينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا وقد تفرقت أوصالهم قال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا على خيول بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، وإن أطعنا رجعتنا بقومك ، فقال : أف لكم ، بل أنتم أجبن العسكر ، فلم يرد ذلك ، ومضى على ما يريد .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم أرسل إليهم رجلا من أصحابه ، أى وهو عبد الله بن أبي حنيفة الأسلمي ، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فدخل فيهم : أى ومكث فيهم يوما أو يومين وسمع ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر : أى وجاءه رجل فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبابهم ، اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله تعالى . فأجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر السير إلى هوازن ، وذكر له صلى الله عليه وسلم أن عند صفوان بن أمية - ولم يكن أسلم يومئذ بل كان مؤمنا - أدرعا وسلاحا ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إليه فقال : يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل عارية ، وهى مضمونة حتى تؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس . وفى رواية الإمام أحمد قال صفوان : عارية مؤداة ، فقال صلى الله عليه وسلم : العارية مؤداة ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح . قيل وسأله صلى الله عليه وسلم أن يكفيهم حملها ففعل . وذكر أن بعض تلك الأدرع ضاع ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمنها له ، فقال : أنا اليوم يا رسول الله فى الإسلام أرغب . قال : واستعار صلى الله عليه وسلم من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فقال له : كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين أه أى وتقدم أن نوفلا هذا فدى نفسه وكان فى أسرى بدر بألف رمح .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اثنى عشر ألفا : ألفان من أهل مكة ، والعشرة آلاف الذين فتح الله تعالى بهم مكة أى على ما تقدم .

قال بعضهم : وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشين على غير وهن يرجون

الغنائم ولا يكرهون : أى من لم يصدق إيمانه أن الضيعة ، وفى لفظ أن الصدمة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : أى فقد خرج معه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، فلما قربوا من محل العدو صفهم ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار ، فلواء المهاجرين أعطاه عليا كرم الله وجهه ، وأعطى سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه راية ، وأعطى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه راية ، ولواء الخزرج أعطاه الحباب بن المنذر رضى الله تعالى عنه ، ولواء الأوس أعطاه أسيد بن حضير رضى الله تعالى عنه .

وفى سيرة الدمياطى : وفى كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم ، وكذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها رجال منهم ، وركب صلى الله عليه وسلم بغلته ولبس درعين والمغفر والبيضة ، والدرعان هما ذات الفضول والسغدية بالسنين المهلمة والغين المعجمة : وهى درع داود عليه السلام التى لبسها حين قتل جالوت ومروا بشجر سدرة كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم : أى يعلقونها بها ، فقالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى عليه السلام : (اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) « لتركبن سنن من كان قبلكم » فلما كان بجنين وانحدروا الوادى ، أى وذلك عند غبش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصمة ، فإنه قال للمالك : اجعل لك كميننا يكون لك عوناً إن حمل القوم عليك جاءهم السكين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد ، فحملوا عليهم حملة رجل واحد ، أى وكانوا رماة فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر ، لا يكاد يسقط لهم سهم .

أى وعن البراء رضى الله تعالى عنه وسأله رجل ، فقال : قررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فقال : ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر .

وأما ما روى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزما ، فنهزما حال من سلمة لا من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينهزم قط فى موطن من المواطن كما تقدم .

وعن البراء رضى الله عنه : كانت هوازن ناسا رماة ، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا

فَأَكْبَيْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ فَاسْتَقْبَلُونَا بِالسَّهَامِ ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ رَاجِعِينَ مَنَهْمِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ . أَيْ وَيَقَالُ إِنَّ الطَّلَاءَ وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَيْ مِنْ كَانَ إِسْلَامُهُ مَدْخُولًا مِنْهُمْ اخْذَلُوهُ هَذَا وَقْتَهُ فَانْهَزَمُوا ، فَهَمَّ أَوَّلُ مَنْ انْهَزَمَ وَتَبِعَهُمُ النَّاسُ . وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا شَأْنُ النَّاسِ ؟ قَالَ أَمْرُ اللَّهِ . وَهَذَا السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ انْهَزَمُوا مَرَّتَيْنِ : الْأُولَى فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، وَالثَّانِيَةَ عِنْدَ انْكَسَابِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اخْتِذِ الْغَنَائِمِ . وَالَّذِي فِي الْأَصْلِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى الْأُولَى .

وَإِنْجَازَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتِ الْيَمِينِ وَمَعَهُ نَفَرٌ قَلِيلٌ ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَابْنَةُ الْفَضْلِ وَأَبُو سَفْيَانَ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ وَرَبِيعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ وَمُعْتَبُ بْنُ عَمْرِ أَبِي لَهَبٍ ، وَفَقَّتْ عَيْنُهُ ، وَلَمْ أَقْفِ عَلَى أَيِّهِمَا كَانَتْ ، أَيْ وَوَرَدَتْ فِي عَدَمٍ مِنْ ثَبِتٍ مَعَهُ رَوَايَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ ، فَقِيلَ مِائَةٌ ، وَقِيلَ ثَمَانُونَ ، وَقِيلَ اثْنَا عَشَرَ ، وَقِيلَ عَشْرَةٌ ، وَقِيلَ كَانُوا ثَلَاثًا .

وَلَا مَخَالَفَةَ لِإِمْكَانِ الْجَمْعِ ، وَصَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ .

وَعَنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كُنْتُ آخِذًا بِحِكْمَةِ بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْ وَهِيَ الشَّهْبَاءُ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهُ فِرْوَةَ بْنِ عَمْرِو الْجَزَامِيِّ ، أَيْ صَاحِبِ الْبُلْقَاءِ وَعَامِلِ مَلِكِ الرُّومِ عَلَى فِلَسْطِينَ يُقَالُ لَهَا فَضْةٌ . وَقِيلَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا دَلْدَلُ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهُ الْمُقَوْقِسُ . وَفِي الْبِخَارِيِّ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهُ مَلِكُ أَيْلَةَ . قَالَ بَعْضُهُمْ : وَالْأَوَّلُ أُثْبِتُ .

وَيَدُلُّ لِلثَّانِي مَا أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ « انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ بِحَيْنٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءُ وَكَانَ يَسْمِيهَا دَلْدَلًا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : دَلْدَلُ الْبَدِيِّ ، فَأَلْزَقْتُ بَطْنَهَا بِالْأَرْضِ » الْحَدِيثُ . وَأَبُو سَفْيَانَ ابْنُ الْحَارِثِ أَخَذَ بِرُكَابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ النَّاسِ « إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟ فَلَمْ أَرَ النَّاسَ يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ » فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، يَا أَصْحَابَ السَّمْرَةِ « يَعْنِي الشَّجْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَهَا بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ .

وَفِي لَفْظِ « يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ بِالْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجْرَةِ ، وَبِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا » أَيْ وَإِنَّمَا خَصَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَبَّاسَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَظِيمَ الصَّوْتِ ،

كان صوته يسمع من ثمانية أميال ، كان يقف على سلع وينادى غلمانة آخر الليل وهم بالغابة فيسمعهم ، وبين سلع والغابة ثمانية أميال .

وغارت الخليل يوما على المدينة ، فنادى : واصباحاه فلم تسمعه حامل إلا وضعت من عظم صوته .

وفي لفظ آخر : نادى يا أصحاب السمرة يوم الحديدية ، يا أصحاب سورة البقرة ، أى وخص سورة البقرة بالذكر ، لأنها أول سورة نزلت في المدينة ، لأن فيها (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وفيها (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) وفيها (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) . في لفظ : نادى : يا أنصار الله وأنصار رسوله ، يا بنى الخرج . خصهم بالذكر بعد التعميم لأنهم كانوا صبرا في الحرب . أو غلب فأجابوا لبيك نبيك . وفي لفظ : يا لبيك يا لبيك » .

أى وفي البخارى « لما أدبروا عنه صلى الله عليه وسلم حتى بقى وحده ، فنادى يومئذ نداءين التفت عن يمينه ، فقال : يا معشر الأنصار ، قالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، قالوا : لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك » .

ويجوز أن يكون هذا بعد نداء العباس وقربهم منه صلى الله عليه وسلم ، وصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك ، أى لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله صلى الله عليه وسلم لإعطفة الإبل . وفي لفظ : عطفة البقر على أولادها فلما حهم أخزف عندى على رسول الله صلى الله عليه وسلم من رماح الكفار ، حتى إذا انتهى إليه من الناس مائة استقبلوا الناس فاقتلوا ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القوم وهم يجتلدون ، أى وكان شعارهم كيوم فتح مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : الآن حمى الوطيس ، وهو حجارة توقد العرب تحتها النار يشوون عليها اللحم . والوطيس في الأصل : التنور ، وهذه من الكلمات التى لم تسمع إلا منه صلى الله عليه وسلم ، وهى مثل يضرب لشدة الحرب : أى وصار يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن

عبد المطلب ، وهذا السياق يدل على أن المائة انتهت إليه صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وهو يؤيد القول بأن الذين ثبتوا معه صلى الله عليه وسلم لم يبلغوا المائة .

وفي رواية : لما انكشف الناس عنه يوم حنين قال الحارثة ، بالحاء المهملة ، ابن النعمان : يا حارثة كم ترى الناس الذين ثبتوا؟ فحزرتهم مائة ، فقلت : يا رسول الله مائة ، فلما كان يوم من الأيام مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يناجى جبريل عليه السلام عند باب المسجد ، فقال جبريل عليه السلام : يا محمد من هذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حارثة بن النعمان ، فقال جبريل عليه السلام : هو أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه السلام . قال : فلما أخبرني بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له : ما كنت أظنه إلا دحية الكلبي واقفا معك .

وفي رواية : لما فر الناس يوم حنين عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أربعة : ثلاثة من بني هاشم ، ورجل من غيرهم : علي بن أبي طالب ، والعباس وهما بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان ، وابن مسعود من جانبه الأيسر ، ولا يقبل أحد من المشركين جهته صلى الله عليه وسلم إلا قتل .

وذكر بعضهم أنه رأى أبا سفيان بن الحارث حينئذ آخذاً بزمام بقلته صلى الله عليه وسلم ، ولا ينافي ما تقدم أن الآخذ بذلك العباس رضى الله عنه ، وأن أبا سفيان بن الحارث كان آخذاً بركابه صلى الله عليه وسلم ، لجواز أن يكون آخذاً بزمامها بعد أخذه بركابه صلى الله عليه وسلم .

وعن أبي سفيان بن الحارث قال : لما تقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسى وبىدى السيف مصلتا والله يعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلىّ ، فقال له العباس : يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه ، فقال : غفر الله له كل عداوة عادانيها ثم التفت إلىّ وقال : يا أخى ، فقبلت رجله فى الركاب وقال صلى الله عليه وسلم فى حقه «أبو سفيان ابن الحارث من شبان أهل الجنة أو من سيد فتيان أهل الجنة» وليس قوله صلى الله عليه وسلم «أنا النبي لا كذب» إلى آخره من الشعر ، لأن شرطه كما تقدم فى بناء المسجد أن يكون عن قصد وروية ، بناء على أن مشطور الرجز ومنهوكه شعر وهو الصحيح ، خلافاً للأخفش حيث ردّ على الخليل فى قوله إن الرجز شعر بأنه وقع منه صلى الله عليه وسلم فى قوله المذكور ، وقد قال الله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) .

ورد بأن ما يقع موزونا لا عن قصد لا يقال له شعر . ولا يقال لقائله إنه شاعر كما تقدم مع زيادة ، وإنما قال صلى الله عليه وسلم « أنا ابن عبد المطلب » ولم يقل أنا ابن عبد الله ، لأن العرب كانت تنسبه صلى الله عليه وسلم إلى جده عبد المطلب لشهرته ، ولموت عبد الله في حياته كما تقدم ، فليس من الافتخار بالآباء الذي هو من عمل الجاهلية كما تقدم في قوله صلى الله عليه وسلم « أنا ابن العواتك والفواطم » . وأخذ من هذا أنه لا بأس بالانتساب في موطن الحرب .

وذكر الخطابي أنه صلى الله عليه وسلم إنما قال « أنا ابن عبد المطلب » على سبيل الافتخار، ولكن ذكرهم صلى الله عليه وسلم بذلك رؤيا كان رآها عبد المطلب أيام حياته ، وكانت القصة مشهورة عندهم فعرفهم بها وذكرهم إياها ، وهي إحدى دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم عن بغلته . وقيل لم ينزل بل قال : يا عباس ناولني من الحصباء فانخفضت به بغلته حتى كادت بطنها تمس الأرض ، ثم قبض قبضة من تراب قال بعضهم : كأن الله أفقه : أى أفهم البغلة كلامه صلى الله عليه وسلم : أى علمت مراده .

وفي رواية كما تقدم أنه قال لها : يا دلدل البدى ، فلبدت : أى انخفضت . وفي رواية قال : اربضى دلدل فربضت . وقيل ناوله العباس ذلك . وقيل ناوله على . وقيل ابن مسعود رضى الله عنهم . فعنه حادت به بغلته ، قال السرج . فقلت : ارتفع رفعك الله ، فقال ناولني كفا من تراب فناوته ، ثم استقبل بها وجوههم ، فقال : « شامت الوجوه » أى وفي رواية قال « حم لا ينصرون » وفي رواية « جمع بينهما فما خلف الله منهم إنسانا إلا ملأت عينيه وفه ترابا تلك القبضة وقال انهزموا ورب محمد فولوا مدبرين » [] أى وقال بعضهم : ما خيل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا .

وحدث رجل كان من المشركين يوم حنين قال : « لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقوموا لنا حلبة شاة أن كشفناهم ، قال : فبينما نحن نسوقهم ونحن في آثارهم ، إذ صاحب بغلة بيضاء ، وإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه وقالوا : شامت الوجوه ارجعوا » فانهمنا

من قولهم وركبوا أجسادنا فكانت إياها ، وإلى ربه صلى الله عليه وسلم بالخصي أشار صاحب الحمزية رحمه الله تعالى بقوله :

ورمى بالخصي فأقصد جيشا ما العصا عنده وما الإلقاء

أى ورمى صلى الله عليه وسلم بالخصي فأهلك ذلك الجيش العظيم ، أى شىء عصا موسى عند ذلك الخصي ؟ وأى شىء إلقاء موسى عليه السلام لتلك العصا عند إلقاء ذلك الخصي ؟ شتان ما بينهما فلا يقاس هذا بذلك لأن هذا أعظم ، لأن انقلاب العصا حية كان مشابها لانقلاب جبالهم وعصبيهم حيات ، لأن ابتلاعها لجبالهم وعصبيهم لم يقهر العدو ولم يشتت شملهم ، بل زاد بعدها طغيانهم وعتوهم على موسى عليه السلام ، بخلاف هذا الخصي فإنه أهلك العدو وشتت شمله .

أى وذكر أنه عند القتال أنزل الله تعالى قوله (ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) إلى قوله (غفور رحيم) .

فقد جاء أن بعض أصحابه : أى وهو أبو بكر رضى الله عنه كما فى سيرة الحافظ للمدائني قال « يارسول الله لن نغلب اليوم من قلة ، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءت تلك الكلمة » وقيل بل قائل ذلك هو صلى الله عليه وسلم لما رأى كثرة المسلمين ، وقيل قال ذلك فتى من الأنصار : أى وهو سلمة بن الأكوع ، أو سلامة بن وقش : أى وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم رفع يومئذ يديه ، وقال : اللهم أنشدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا » .

أى وأخرج البيهقي فى الأسماء والصفات عن الضحاك ، قال « دعا موسى عليه الصلاة والسلام حين توجه إلى فرعون لعنه الله ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين : كنت وتكون ، وأنت حتى لا تموت ، تنام العيون ، وتنكدر النجوم ، وأنت حتى قيوم لا تأخذ سنة ولا نوم ، يا حي يا قيوم » .

وكان أمام المشركين رجل على جمل أحمر بيده راية ، داء فى رأس رمح طويل وهو أوزن خلفه إذا أدرك طمن برمح وإذا فاته رفع رمح لمن ورائه فاتبعوه ، فبينما هو كذلك إذ أهوى إليه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل من الأنصار يريدانه ، فأنى على من خلفه وضرب عرقوبى الجمل فوق على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن

قدمه بنصف ساقه ، واجتلد الناس ؛ فوالله ما رجعت راجعة المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما انهزم المسلمون تكلم رجال من أهل مكة بما فى نفوسهم من الضعف ، ومنهم أبو سفيان بن حرب رضى الله عنه . قيل وكان إسلامه بعد مدخولا ، وكانت الأزمات فى كنانته ، فقال : لانتهى هزيمتهم يعنى المسلمين دون البحر ، أى وقال والله غلبت هوازن ، فقال له صفوان : بفيك الكتيب : أى الحجارة والتراب . وقد وصلت الهزيمة إلى مكة ، وسر بذلك قوم من مكة ، وأظهروا الشنائة ، وقال قائل منهم ترجع العرب إلى دين آبائها ، أى وقال آخر : أى وهو أخو صفوان لأمه : ألا قد بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان وهو يومئذ مشرك : اسكت فض الله فاك : أى أسمتط أسنانك ، والله لأن يربنى من الربوبية : أى يملكنى ويدبر أمرى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن .

وفى رواية مر رجل من قريش على صفوان بن أمية ، فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبدا ، فغضب صفوان رضى الله عنه وقال : أتبشرنى بظهور الأعراب ؟ فوالله لرب رجل من قريش أحب إلى من رجل من الأعراب . وقال عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه : وكونهم لا يجبرونها أبدا هذا ليس بيدك ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شىء ، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غدا ، فقال له سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلافه لحديث ، فقال له : يا أبأ يزيد إنا كنا على غير شىء وعقولنا ذاهبة نعبد حجرا لا يضر ولا ينفع .

وعن شذبة الحجبي رضى الله عنه : أى حاجب البيت ويقال لبيه بنو شذبة ، وهم حجابة البيت كما تقدم أنه . كان يحدث عن سبب إسلامه ، قال : مارأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم ماضى عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وسار إلى حرب هوازن ، قلت : أسير من قريش إلى هوازن بنحين ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله ، فأكون أنا الذى قمت بتأر قريش كلها : أى ولفظ « اليوم أدرك تأرى من محمد » أى لأن أباه وعمه قتلوا يوم أحد ، قتلها حمزة رضى الله عنه كما تقدم .

وأقول : لو لم يبق من العرب والمعجم أحد إلا اتبع محمدا ما اتبعته ، لا يزداد ذلك الأمر

عندى إلا شدة ، فلما اختلط الناس ونزل صلى الله عليه وسلم عن بغلته أصلت السيف ودنوت منه أريد الذى أريد منه ، ورفعت السيف حتى كادت أوقع به الفعل رفع إلى شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى ، فوضعت يدي على بصرى خوفا عليه .

وفى رواية : لما هممت به حال بينى وبينه خندق من نار وسور من حديد ، فنادانى صلى الله عليه وسلم : يا شيبه ادن منى ، فدنوت منه فالتفت إلى وتبسم وعرف الذى أريد منه ، ف مسح صدرى ، ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان ، قال شيبه : فوالله لو كان الساعة إذن أحب إلى من سمعى وبصرى ونفسى ، وأذهب الله ما كان فى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ادن فقاتل ، فتقدمت أمامه أضرب بسيفى الله أعلم إني أحب أن أقيه بنفسى كل شئ* ولو كان أبى حيا ولقيته تلك الساعة لأوقعته به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه ، حتى تراجع المسلمون وكرواكرة واحدة ، وقربت إليه صلى الله عليه وسلم بغلته ، فاستوى عليها قائما ، وخرج فى أثرهم حتى تفرقوا فى كل وجه : أى لايلوى أحد منهم على أحد ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل من قدر عليه ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى قتلوا الذرية ، ففهمهم النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » وفى رواية « من أقام بينة على قتيلى قتله فله سلبه » .

وفى الأصل فى غزوة بدر أن المشهور أن قول النبي صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » إنما كان يوم حنين . وأما ما روى أنه قال ذلك يوم بدر ويوم أحد فأكثر ما يوجد فى رواية من لا يحتاج به ، ومن ثم قال الإمام مالك رضى الله عنه : لم يبلغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا يوم حنين .

وتعقب ما فى الأصل بأنه وقع ذلك فى غزوة مؤتة كما فى مسلم وهى قبل الفتح .

وفى كلام بعضهم : كون السلب للقاتل أمر مقرر من أول الأمر ، وإنما تجدد يوم حنين للإعلام العام والمناداة بالمشروعيته .

وحدث أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة رضى الله عنه استلب وحده عشرين رجلا : أى قتلهم وأخذ أسلابهم .

وقال أبو قتادة رضى الله عنه : رأيت يوم حنين مسلما ومشركا يقتتلان وإذا رجل من المشركين يريد إعانة المشرك على المسلم فأثبته وضربت يده ففقطعتها ، فاعتنقني بيده

الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت ، ولولا أن الدم نزهه لقتلني ، فسقط
وضربته فقتلته ، وأجهضني القتال عن استلابه ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، قلت :
يا رسول الله ، لقد قتلت قتيلًا ذا صلب ، وأجهضني عنه القتال ، فما أدري من استلبه ،
فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله فأرضه عنى من سلبه ، فقال أبو بكر رضى
الله عنه : والله لا يرضيه ، تعتمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلب قتيله .
وفى لفظ قال أبو بكر رضى الله عنه : أى للنبي صلى الله عليه وسلم : كلا ، تعطيه أضيع من
قريش وتدع أسدا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله . والأضيع تصغير ضيع ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق اردد عليه سلبه . قال أبو قتادة رضى الله عنه :
فأخذته منه فاشترت بثمنه : أى السلب الذى جمعته بستانا ، وأدرك ربيعة بن رفيع دريد
ابن الصمة فأخذ بخظام جملة وهو يظن أنه امرأة فإذا هو شيخ كبير أعمى ولا يعرفه الغلام ،
فقال له دريد : ماذا تريد ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى
ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا ، فقال له يسخر به : بثس ماسلحتك أمك ، خذ سيني هذا
من مؤخرة الرجل ، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك
كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد
منعت فيه نساءك ، فقتله ، فلما أخبر ربيعة أمه بقتله ، فقالت له : أما والله لقد أعتق
اثنين بل ثلاثا ، وقالت له : ألا تكرمت عن قتله لما أخبرك بمنه علينا ، فقال : ما كنت
لأنكرم عن رضا الله ورسوله .

أى وقيل القاتل لدريد بن الصمة الزبير بن العوام رضى الله عنه ، وقيل عبد الله بن قبيع
وكانت أم سليم رضى الله عنها مع زوجها أبى طلحة رضى الله عنه وهى حازمة وسطها ببرد
لها وفى حزامها خنجر ، وكانت حاملا بابنها عبد الله ، فقال لها زوجها أبو طلحة : ما هذا
الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، فقال أبو طلحة :
ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميضاء ، فأعادت عليه القول ، فجعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم يضحك ، أى وكان يقال لها العميصاء والرميضاء : وهى التى يخرج
القذى من عيناها ، ومن ثم قال بعضهم : قيل لها الرميضاء لرمص كان فى عيناها .

وعن ولدها أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قدمات أبى مالك عنها مشركا ثم خطبها
عمى أبو طلحة وهو مشرك فأبت ودعته إلى الإسلام فأسلم ، فقالت له : إني أنزوجك ولا

أخذ منك صداقا غيره فزوجها ، قال أنس رضى الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم
« دخلت الجنة فسمعت خشقة ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا هذه العيصاء بنت ملحان أم
أنس بن مالك » .

وعنه رضى الله عنه « كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخل على أحد من النساء
إلا أزواجه وإلا أم سليم فانه كان يدخل عليها ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : إني أرحها ،
قتل أخوها معي » ولعل المراد أنه كان يكثر الدخول عليها كأزواجه ، ولا ينافى أنه صلى
الله عليه وسلم كان يدخل على غيرها من النساء الأنصار ، لأن من خصائصه صلى الله عليه
وسلم جواز الاختلاء بالأجنبية ، فكان يدخل على أخت أم سليم وهي أم حرام بالراء
رضى الله عنها ، وتغلى له رأسه الشريف وينام عندها ويدخل على الربيع ، ثم رأيت في الإمتاع
أشار إلى ذلك .

وفي [مزيل الخفاء] أن أم سليم وأختها خالتا النبي صلى الله عليه وسلم من جهة
الرضاع ، وعليه فلا دلالة في دخوله صلى الله عليه وسلم عليهما والخلوة بهما على جواز
الخلوة بالأجنبية .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سليم ، أى وهو أبو عمير
الذى كان صلى الله عليه وسلم يداعبه ويقول أبا عمير ما فعل النغير ، ذكره السيوطي
في كتابه [تبريد الأكباد] .

وفي كلام بعضهم ما يفيد أنه غيره ، فقالت لأهلها : لا تحدثوا أباطلحة بانه حتى
أكون أنا أحدثه فجاء فقال : ما فعل ابني ؟ قالت : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه عشاء
فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما رأت أنه قد
شبع وأصاب منها ، قالت : يا أباطلحة أ رأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت وطلبوا
عاريتهم أ لهم أن يمنعوا ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، فغضب ثم انطلق حتى أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك
الله لكما في غابر ليلتكما ، قال : فحملت بعبد الله المذكور ، قالت : ولما ولدته حملته
وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك تمر ؟ فقلت : نعم ،
فناولته تمرات فألقاهن صلى الله عليه وسلم في فيه الشريف فلا كهن ، ثم فغر فالصبي
فوجه فيه فجعل الصبي يتلمظ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حب الأنصار التمر

وسماه عبد الله ، أى وجاء لعبد الله هذا الذى جاء من جماع تلك الليلة تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن .

«ولما أخبر أبو طلحة النبى صلى الله عليه وسلم بما تقدم عن أم سليم ، قال : الحمد لله الذى جعل فى أمى مثل صابرة بنى إسرائيل ، فقيل : يارسول الله ما كان من خبرها ؟ قال : كان فى بنى إسرائيل امرأة وكان لها زوج وكان له منها غلامان ، وكان زوجها أمرها بطعام تصنعه ليدعو عليه الناس ، ففعل واجتمع الناس فى داره ، فانطلق الغلامان يلعبان ، فوقما فى بثر كانت فى الدار ، فكرهت أن تنغص على زوجها الضيافة ، فأدخلتها البيت وسجتها بثوب ، فلما فرغوا دخل زوجها ، فقال : أين ابناى ، قالت : هما فى البيت ، وإمها كانت تمسحت بشيء من الطيب وتعرضت للرجل حتى وقع عليها ثم قال : أين ابناى ؟ قالت : هما فى البيت ، فناداها أبوها فخرجا يسعيان ، فقالت المرأة : سبحان الله . والله لقد كانا ميتين ولكن الله أحياهما ثوابا لصبرى .

ولما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى آثارهم أبا عامر الأشعري رضى الله عنه ، وسيأتى فى السرايا . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معسكره ، قال شيبة : فدخل خبائه فدخلت عليه ، مادخل عليه غيرى حبا لرؤية وجهه وسرورا به ، فقال : يا شيبة الذى أراد الله خير مما أردت بنفسك ، ثم حدثنى بكل ما أضمرته فى نفسى مما لم أذكره لأحد قط . فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، ثم قلت : استغفرنى ، فقال غفر الله لك ، أى وقالت له صلى الله عليه وسلم أم سليم رضى الله عنها : بأبى أنت وأمى يارسول الله . اقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد كنى وأحسن .

وعن عائذ بن عمرو قال : أصابتنى رمية يوم حنين فى جبتي فسال الدم على وجهى وصدرى ، فسد النبى صلى الله عليه وسلم الدم بيده عن وجهى وصدرى إلى ترقوتى ، ثم دعانى فصار أثر يده صلى الله عليه وسلم غرة سائلة كغرة الفرس .

وجرح خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فتغل النبى صلى الله عليه وسلم فى جرحه فلم يضره .

أى فعن بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم ، يمشى فى المسلمين ويقول : من يدلنى

على رحل خالد بن الوليد حتى دل عليه ، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أنقل بالجراحة ففضل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه فبرىء .

وعن جبير بن مطعم رضى الله تعالى عنه قال : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون شيئا أسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادى لم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن إلا هزيمة القوم .

وفى سيرة الحافظ الهميضى رحمه الله أن سما الملائكة يوم حنين عمائم حر أرخوها بين أكتافهم : أى فعن جمع من هوازن قالوا : لقد رأينا يوم حنين رجالا بيضا على خيل بلق ، عليها عمائم حر قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض ، وكتائب لا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم . ولما وقعت الهزيمة أسلم ناس من كفار مكة وغيرهم لما رأوا نصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وعن شيبه الحجبي قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، والله ماخرجت إسلاما ولكن خرجت اتقاء أن تظهر هوازن على قريش ، فوالله إني لواقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله إني لأرى خيلا بلقا ، قال : يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر فضرب بيده صدرى ثم قال : اللهم اهد شيبه ، فعل ذلك ثلاثا ، فما رفع صلى الله عليه وسلم يده عن صدرى الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلى منه ويحتاج إلى الجمع بينه وبين ما تقدم على تقدير صحتها .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبي والغنائم أن تجمع ، فجمع ذلك كله وأحضره إلى الجعرانة أى بسكون العين وتخفيف الراء . وكثير من أهل الحديث يشددونها وسى المحل باسم امرأة كانت تلقب بذلك قيل وهى التى نقضت غزوها من بعد قوة ، فكان بها إلى أن انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أى من غزوة الطائف . وفى هذه الغزوة سمى طلحة بن عبيد الله طلحة الجواد لكثرة إنفاقه على العسكر .

غزوة الطائف

ولما علم صلى الله عليه وسلم أن مالك بن عوف وجمعا من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انتهزامهم . أى والطائف بلد كبير ، كثير الأعتاب والنخيل والفاكهة ، قيل سمي بذلك لأن جبريل عليه السلام طاف بها حين نقلها من الشام إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام : أى أن الله يرزقهم أى أهل مكة من الثمرات .

أى وقيل لأنهم بنوا حوالها حائطا وطاقوا به تحصينا لهم ، وقيل هى جنة أصحاب الصريم كانوا نواحي صنعاء ، نقاها جبريل عليه السلام فسار بها إلى مكة وطاف بها حول البيت ، ثم أنزلها فى ذلك المكان ، أى ويقال له « وج » سمي ذلك باسم شخص من العماليق أول من نزل به ، وأن أولئك القوم تحصنوا فى حصن به وأدخلوا فيه ما يصاحهم ستة ، خرج صلى الله عليه وسلم من حنين وتوجه إليهم وترك السبي بالجرعانة .

أى ، وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالسبي والغنائم إلى الجعرانة مع بديل ابن ورقاء الخزاعي . وفى كلام السهيلي : وكان سبي حنين ستة آلاف رأس ، قد ولى صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب أمرهم وجعله أمينا عليهم هذا كلامه ، أى ولعل هذا بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف ، لأن أبا سفيان كان معه صلى الله عليه وسلم بالطائف كما سيأتى فلا معارضة .

أى ومر صلى الله عليه وسلم بحصن مالك بن عوف ، فأمر به فهدم ، ومر بحائط ، أى بستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم : إما أن تخرج ، وإما أن نخرب عليك حائطك ، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحراقه ، ومر صلى الله عليه وسلم بقبر ، فقال : هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف ، أى وكان من ثمود قوم صالح أى وقد أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان ثم دفن فيه ، أى بعد أن كان بالحرم ولم تصبه تلك النقمة ، فلما خرج من الحرم إلى المكان المذكور أصابته النقمة .

فمن بعض الصحابة : حين خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فررنا بقبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف ،

وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، الحديث .

وفي العرائس عن مجاهد قيل له : هل بقي من قوم لوط أحد؟ قال : لا ، إلا رجل بقي أربعين يوما وكان بالحرم فجاءه حجر ليصيبه في الحرم ، فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر : ارجع من حيث جئت ، فإن الرجل في حرم الله تعالى ، فرجع فوقف خارجا من الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته ، وخرج من الحرم إلى هذا المحل أصابه الحجر فقتله فدفن فيه .

وأبو رغال هذا هو الذي كان دليلا لأبرهة ليوصله إلى مكة لما مر أبرهة بالطائف ، وتلقاه أهله ، وأظهروا له الطاعة ، وقالوا له : نرسل معك من يدلك على الطريق ، فأرسلوا أبا رغال معه دليلا كما تقدم . وقال صلى الله عليه وسلم « آية ذلك أنه دفن معه غضن من ذهب ، إن أتم نبشتم عنه أصبتموه » فابتدره الناس فنبشوه واستخرجوا منه الغضن . وقدم صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه على مقدمته : أى وهى خيل بنى سليم مائة فرس قدمها من يوم خرج من مكة ، واستعمل عليهم خالد بن الوليد ، فلم يزل كذلك حتى وصل ، فلما وصل نزل قريبا من الحصن وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحات .

أى ومن أصيب أبو سفيان بن حرب ، أصيبت عينه ، فأقى النبي صلى الله عليه وسلم وعينه في يده ، فقال : يا رسول الله ، هذه عيني أصيبت في سبيل الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن شئت دعوت فردت عينك ، وإن شئت فالجنة . وفى لفظ : فعين في الجنة ، قال : فالجنة ، ورمى بها من يده « أى وقلعت عينه الثانية في القتال يوم اليرموك عند مقاتلة الروم ، فإن أبا سفيان رضى الله تعالى عنه كان في ذلك اليوم يحرض المسلمين على قتال الروم والثبات لهم ، ويقول لهم : الله الله عباد الله ، انصروا الله ينصركم ؛ اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، وذلك في آخر خلافة الصديق ، فإن الصديق رضى الله عنه توفى وهم في الاستعداد للقتال باليرموك ، وكان الأمير على العسكر خالد بن الوليد رضى الله عنه .

ولما ولى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه أرسل البريد بعزل خالد وولاية أبي عبيدة بن الجراح على العسكر ، فجاء البريد وقد التحم القتال بين المسلمين والروم ، وأخطته

خيول المسلمين ، وسألوه عن الخبر ، فلم يخبرهم إلا بخير وسلامة ، وأخبرهم عن إمداد يحيى إليهم ، وأخفى موت أبي بكر رضى الله تعالى عنه وتأمير أبي عبيدة ، فأتوا به إلى خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فأسر إليه موت أبي بكر وولاية عمر رضى الله تعالى عنهما ، وأخبره بما أخبر به الجند ، فاستحسن ذلك منه ، وأخذ الكتاب فجعله في كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك يتخاذل العسكر ، ثم لما هزم الله الروم ، وجمعوا الغنائم ، ودفنوا قتلى المسلمين وقد بلغوا ثلاثة آلاف ، دفع خالد رضى الله تعالى عنه الكتاب إلى أبي عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فتولى أبو عبيدة ، ثم بعث أبو عبيدة أبا جندل رضى الله تعالى عنه بشيرا إلى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه بالفتح على المسلمين .

ولما عزل سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه خالد بن الوليد وولى أبا عبيدة خطب الناس وقال : إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد ، إني نزعته وأثبت أبا عبيدة بن الجراح ، فقام إليه عمرو بن حفص وهو ابن عم خالد بن الوليد وابن عم أم سيدنا عمر ، فقال : والله ما عدلت يا عمر ، لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغمدت سيفا سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد قطعت الرحم ، وجفوت ابن العم ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : إنك قريب القرابة ، حديث السن ، غضبت لابن عمك .

ومات ممن خرج بالطائف اثنا عشر رجلا ، فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف الآن ، وكان معه صلى الله عليه وسلم من نسائه أم سلمة وزينب رضى الله تعالى عنهما ، فضرب لها قبتين ، وكان يصلى بين القبتين الصلاة متمصورة مدة حصار الطائف ، وكانت ثمانية عشر يوما : أى غير يومى الدخول والخروج ، وهذا هو المراد بقول فقهائنا لأنه صلى الله عليه وسلم أقامها بمكة عام الفتح لحرب هوازن يقصر الصلاة ، وقيل فى مدة حصاره غير ذلك .

ودخل صلى الله عليه وسلم خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله ومخنث ، وإذا المخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا ، فعليك بابنة غيلان ، فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فلما سمعه صلى الله عليه وسلم قال : لا يدخل هذا عليكن . وأراد المخنث بالأربع التى تقبل بهن عكنها الأربع التى فى بطنها ، ولكل عكنة طرفان فتكون ثمانية من خلفها ، فهى الثمانية التى تدبر بهن .

أى وفى الإمتاع : كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مولى لخالته فاخته بنت عمرو

ابن عائذ يقال له مائع ، وكان يدخل بيوته صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى أنه لا يفظن لشيء من أمر النساء ولا لإربة له ، فسمعه صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخالد بن الوليد ويقال لعبد الله أخى أم سلمة : إن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف غدا فعليك ببادية ، أى رضى الله تعالى عنها فإنها أسلمت ، وبادية بالياء تحت لا بالنون بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ؛ إذا قامت تثنت ، وإذا جلست تبنت ، وإذا تكلمت تغنت ، بين رجلها مثل الإناء المكفوء ، ثم نفر كأنه الأقحوان ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أرى هذا الخبيث يفظن لما أسمع .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال له : قاتلك الله ، لقد أمعنت النظر . ما كنت أظن هذا الخبيث يعرف شيئا من أمر النساء .

وفى الأغاني أن هيتا بكسر الهاء وقيل بفتحها وإسكان التحتية بعدها مثناة . والهيت : الأحمق الخنث ، قال لعبد الله بن أمية : إن فتح الله عليكم الطائف فاسأل النبي صلى الله عليه وسلم بادية بنت غيلان ، فإنها رداح شموع نجلاء إن تكلمت تغنت يعنى من الغنة ، وإذا قامت تثنت ، موردة الخدين ، منحطة المسانتين ، لقهاء الفخذين ، مسرولة الساقين ، كأنها قضيب بان . وفى لفظ : كأنها حوط بانه قصفت ، تقبل بأربع وتدبر بثمان ، وبين فخذيهما شيء مخبوء كأنه الإناء المكفوء ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه قال : لقد غلغلت النظر يا عدو الله ، ثم نفاه من المدينة إلى الحمى وقال : لا يدخل على أحد من نسائكم ، فقيل له صلى الله عليه وسلم إنه يموت جوعا ، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس .

وقيل نقي صلى الله عليه وسلم كلا من مائع وهيت إلى الحمى ، فشكيا الحاجة ، فأذن لها أن ينزلا كل جمعة يسألان الناس ثم يرجعان إلى مكانهما ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلا المدينة فأخرجهما أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فلما توفى دخلا المدينة فأخرجهما عمر رضى الله تعالى عنه ، فلما مات دخلا .

وغيلان أبو بادية هو الذى أسلم وعنده عشر نسوة ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يمسك أربعا ويفارق سائرهن .

واختلف الفقهاء فى ذلك ؟ فقال فقهاء الحجاز : يختار أربعا ، وقال فقهاء العراق يمسك التى تزوج أولا ثم التى تليها إلى الرابعة . واحتج فقهاء الحجاز بترك الاستفصال .

وغيلان هذا لما وفد على كسرى قال له : أىّ ولدك أحب إليك ، فقال الغائب حتى يقدم والمريض حتى يعافى ، والصغير حتى يكبر .

وكان الخثون في زمانه صلى الله عليه وسلم ثلاثة : هيت ، وماتع وهذم ، وقيل لهم ذلك لأنه كان في كلامهم لين ، وكانوا يختضبون بالحناء كخضاب النساء لأنهم يأتون الفاحشة الكبرى . ويحتمل أن يكون كل من ماتع وهيت كان معه صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة وقد سمع منهما ماتقدم عنهما ، ويدل لهذا الاحتمال أنه نفاهما . وفي البخارى أن القائل لعبد الله ماتقدم هو هيت . ويحتمل أن الذى كان معه صلى الله عليه وسلم أحدهما وتكرر منه ذكر ماتقدم ، وتسميته باسم الآخر خلط من بعض الرواة فليتأمل .

وقال : أقبل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ونادى من يبارز ؟ فلم يطلع إليه أحد ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد ، وناداه عبد ياليل لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم في حصننا ، فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيا فإنا جميعا حتى نموت عن آخرنا اه ، ونصب عليهم المنجنيق : أى ورى به كما في كلام غير واحد من أئمتنا ، وهو أول منجنيق رى به في الإسلام ، أى أرشده إليه سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه قال : إنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون فنصيب من عدونا ، أى ويقال إن سلمان رضى الله تعالى عنه هو الذى عمله بيده ، وفيه أنه تقدم في خيبر أنه لما فتح حصن الصعب وجدوا فيه آلة حرب ودبابات ومنجنيقات ، إلا أن يقال سلمان صنع هذا المنجنيق الذى بالطائف ، لأنه يجوز أن يكون الذى وجدوه في خيبر لم يكن معهم في الطائف ، وتقدم في خيبر أنه صلى الله عليه وسلم لما حاصر الوطيح وسلام أربعة عشر يوما ولم يخرج أحد منهما هم صلى الله عليه وسلم أن يجعل عليهم المنجنيق ، وتقدم عن الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على حصن البراء . وقد قدمنا أن ذلك لا يخالف قول بعضهم لم ينصب المنجنيق إلا في غزوة الطائف ، لأنه يجوز أن يكون مراد هذا البعض لم يرم به إلا في غزوة الطائف ، أى كما أشرنا إليه .

وأول من صنع المنجنيق إبليس ، فإن نمرودا لعنهما الله لما أراد أن يلقى إبراهيم عليهم الصلاة والسلام في النار بنى إلى جنب الجبل جدارا طوله ستون ذراعا ، ولما ألقوا الحطب وجعلوا فيه النار ووصلت النار إلى رأس ذلك الجدار لم يدروا كيف يلقون إبراهيم ، فتمثل

لهم إبليس لعنه الله في صورة نجار فصنع لهم المنجنيق ونصبوه على رأس الجبل ووضعوه فيه وألقوه في تلك النار .

وأول من رمى به في الجاهلية جذيمة الأبرش ، وهو أول من أوقد الشمع ودخل نفر من الصحابة تحت دبابه وزحفوا بها إلى جدار الحصن ليحرقوه . وفي الإمتاع دخلوا تحت دبابتين وكانا من جلود البقر ، فأرسلت إليهم ثقيف سلك الحديد عمما بالنار فخرجوا من تحتها فرموهم بالنبل فقتل منهم رجال . أي والدبابه بفتح الدال المهملة ثم موحدة مشددة . وبعد الألف موحدة ثم تاء التانيث : وهي آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود يدخل فيها الرجال فيديون بها إلى الأسوار لينقبوها ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعنابهم ، أي ونخيلهم وتحريقها ، فقطع المسلمون قطعاً ذريعا ، فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أدعها لله وللرحم ، ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر ، أي وقيل ثلاثة وعشرون رجلا ، ونزل منهم شخص في بكرة ، فقيل له أبو بكرة ، أي وكان عبدا للحارث بن كلدة ، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، قال : واستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم عينه بن حصن في أن يأتي ثقيفا في حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له في ذلك ، فأتاهم فدخل في حصنهم ، فقال لهم : تمسكوا في حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبيد ، أي زاد بعضهم : ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا : أي لا يشق عليكم قطع هذا الشجر ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ما قلت لهم يا عينه ؟ قال : أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، وحذرتهم النار ودلتهم على الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت ، إنما قلت لهم كذا ، وقص عليه القصة ، فقال صدقت . يارسول الله ، أتوب إلى الله وإليك من ذلك اه .

ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح الطائف ، أي فإن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ، قالت له : يارسول الله ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف ؟ قال لم يؤذن لنا الآن فيهم ، وما أظن أن نفتحها الآن ، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك ، فقال : لم يؤذن لنا في قتالهم ، فقال رضي الله تعالى عنه : كيف نقبل في قوم لم يأذن الله فيهم ، وفي لفظ : إن خولة قالت : يارسول الله أعطني إن فتح الله عليك

الطائف حلى بادية بنت غيلان أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانتا من أحلى نساء ثقيف ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف ياخولة ، فذكرت خولة ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ما حديث حدثتني خولة؟ زعمت أنك قلت لها ، قال : قتلته ، قال أو ما أذن الله فيهم يا رسول الله؟ قال لا ، قال : أو أذن بالرحيل؟ قال بلى ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس أى وهو نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب أو المقام ، فقال له : يا رسول الله ثعلب فى جحر إن أقت أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه فأذن فى الناس بالرحيل ، فقبح الناس ذلك وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاغدوا على القتال ، فغدوا ، فأصاب الناس جراحات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قافلون إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، ورجعوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، أى تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، لأنهم رأوا أن رأيه صلى الله عليه وسلم أبرك وأنفع من رأيهم ، فرجعوا إليه وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده فلما ارتحلوا واستقبلوا ، قال قولوا : آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون ، وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف ، فقال : اللهم اهد ثقيفا واث بهم مسلمين ، ولعل صاحب الهمزية رحمه الله يشير إلى ذلك بقوله :

جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

أى آذاه صلى الله عليه وسلم قومه من قريش وغيرهم فأرخصى جفنه حياء ، وصاحب عدم الانتقام شأنه إرخاء الجفن . وسع علمه علوم العالمين من الإنس والجن والملك ، ووسع حلمه كل من صدر منه نقص ، فهو بسبب ذلك بحر واسع لم تتعبه الأحوال الثقيلة .

ومن جملة من جرح سيدنا عبد الله بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما رماه بسهم أبو محجن ، وطاوله ذلك الجرح إلى أن مات به فى خلافة أبيه ، ورثته زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان يحبها حباً شديداً مرّ عليه أبوه يوم جمعة وهو يلاعها وقد صلى الناس ، فقال عبد الله : أو جمع الناس؟ فسمعه أبوه ، فقال : أشغلتك عن

الصلاة؟ لاجرم لا تبرحن حتى تطلقها فطلقها ، ثم تعب عبد الله بسبب طلاقها فاطلع عليه أبوه يوما فسمعه يقول آياتا من جملتها :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير جرم تطلق
فقال له : يا عبد الله راجع عاتكة ، فقال لأبيه : قف بمكانك ، وكان معه غلام
مملوك له ، فقال للغلام : أنت حر لوجه الله ، اشهدا أني قد راجعت عاتكة ، فلما مات
رضي الله تعالى عنه رثته بقولها في آيات :

آليت لا تنفك عيني حزينه عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
ثم تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فلما أعرس بها ، قال له علي كرم
الله وجهه : أتأذن لي أن أكلم عاتكة ، فقال : لا غيرة عليك كلمها ، فقال لها علي كرم
الله وجهه : أنت القائلة البيت :

آليت لا تنفك عيني قريرة عليك ولا ينفك جلدى أصفرا
قالت : لم أقل هكذا ، وبكت وعادت إلى حزنها ، فقال له عمر رضي الله تعالى
عنه : يا أبا الحسن ما أردت إلا إفسادها علي ، فلما قتل عمر رضي الله تعالى عنه رثته
بآيات منها :

من لنفس عادها أحزانها ولعين شفها طول السهد
جسد لف في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد
ثم تزوجها الزبير رضي الله تعالى عنه ، فلما قتل رثته بآيات منها تخاطب قاتله :
ثكلتك أمك أن قتلت لمسلما حلت عليك عقوبة المتعمد
ثم خطبها سيدنا علي كرم الله وجهه ، فقالت له : لم يبق للإسلام غيرك وأنا أنفك لك
عن القتل ، ومن ثم قيل في حقها : من أراد الشهادة فعليه بعاتكة .

وعند منصرفه صلى الله عليه وسلم من ذلك : أي وبينما هو يسير ليلا بواد بقرب
الطائف إذ غشى سدره في سواد الليل وهو في وسن النوم ، فانفرجت السدره له نصفين ،
فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نصفها وبقية منفرجة على حالها ، أي وعند
انخداره صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة لقيه سراقة ، وهو واضع الكتاب الذي كتبه له
صلى الله عليه وسلم عند الهجرة بين أصبعيه وينادي : أنا سراقة ، وهذا كتابي ، فقال
صلى الله عليه وسلم : هذا يوم وفاء ومودة ؛ أدنوه ، فأدنوه منه وساق إليه الصدقة ،

وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذى ملأه لإبله هل له فى ذلك من أجر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم فى كل ذات كبد حراء أجر » .

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة أحصى السبي فكان ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألفا وأربعة آلاف أوقية فضة .

فأعطى صلى الله عليه وسلم للمؤلفة ، أى من أسلم من أهل مكة ، فكان أولهم أباسفيان بن حرب رضى الله عنه أعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال : ابني يزيد ويقال له يزيد الخير فأعطاه كذلك ، وقال ابني معاوية فأعطاه كذلك ، فأخذ أبوسفيان رضى الله عنه ثلثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة . وقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لأنت كريم فى الحرب وفى السلم ، أى وفى لفظ : لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، هذا غاية الكرم جزاك الله خيرا .

وأعطى حكيم بن حزام رضى الله عنه مائة من الإبل ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها ؛ أى وفى الامتاع : وسأله حكيم بن حزام مائة من الإبل فأعطاه ، ثم سأله مائة فأعطاه ، وقال له : « يا حكيم ، هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها ، أى وقال : يارسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا ، فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله ، فقال عمر : يامعشر المسلمين إنى أعرض عليه حقه الذى قسم الله له من هذا النىء فيأبى أن يأخذه .

وأعطى صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس مائة من الإبل . وأعطى عيينة مثله . وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل ، فقال فى ذلك شعرا : أى يعاتبه صلى الله عليه وسلم به حيث فضل الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن عليه وهو :

أجعل نهى ونهب العيب (يعنى فرسه) بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهم ومن تضع اليوم لا يرفع
فأعطاه صلى الله عليه وسلم تمام المائة . أى وفى رواية أنه قال : اقطعوا عنى لسانه .

وفي الكشاف أنه صلى الله عليه وسلم قال : بأبأ بكر أقطع أسانه عنى وأعطه مائة من الإبل ، هذا كلامه ، وحينئذ يتوقف في قولهم فظن ناس أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يمثل به وفرع هو أيضا لذلك فأتى به إلى الغنائم ، وقيل له خذ منها ماشئت ، فقال : إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع لساني بالعطاء فكره أن يأخذ منها شيئا ، فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلة ، وفي رواية « فأتى له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة » وروى بدل : فما كان حصن ولا حابس : فما كان بدر ولا حابس وهو صحيح أيضا ، لأن بدرا جد حصن أبو أبيه فانسب تارة إلى أبيه حصن وتارة إلى جد أبيه بدر ، فإن عينته بن حصن بن حذيفة بن بدر . وروى بدل مرداس : شيخى بالإفراد يعنى والده ، وروى بالثنائية يعنى والده وجده .

وفي كلام بعضهم : كانت المؤلفثة ثلاثة أصناف . صنفت يتألفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا كصفوان بن أمية . وصنفت ليثبت إسلامهم كأبي سفيان بن حرب . وصنفت لدفع شرهم كعينته بن حصن والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس . لكن في رواية « قيل يارسول الله أعطيت عينته بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة . وتركت جعيل بن سراقه ؟ فقال : أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض كلهم مثل عينته والأقرع ، ولكنى تألفتها ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه » وتقدم أن جعيل هذا كان من فقراء المسلمين ، وكان رجلا صالحا دميما قبيحا ، وهو الذى تصور الشيطان بصورته يوم أحد ، وقال إن محمدا قد مات ، وجاء « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلىّ منه خشية أن يكب في النار على وجهه » وقال صلى الله عليه وسلم « إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حبان » وأعطى صفوان بن أمية ماتقدم ذكره وهو جميع ما في الشعب من غم وإيل وبقر ، وكان مملوعا وكان ذلك سببا لإسلامه كما تقدم .

أقول : في كلام ابن الجوزى رحمه الله : اعلم أن من المؤلفثة قلوبهم أقواما تؤلفوا في بدء الإسلام ثم تمكن الإسلام في قلوبهم ، فخرجوا بذلك عن حد المؤلفثة ، وإنما ذكرهم العلماء في المؤلفثة اعتبارا ببداية أحوالهم ، وفيهم من لم يعلم منه حسن الإسلام ، والظاهر بقاؤه على حالة التأليف .

ولا يمكن أن يفرق بين من حسن إسلامه ، وبين من لم يحسن إسلامه لجواز أن يكون

من ظننا به شرا أنه على خلاف ذلك ، إذ الإنسان قد يتغير عن حاله ولا ينتقل إلينا أمره فالواجب أن نظن بكل من نقل عنه الإسلام خيرا .

وقد جاء عن أنس رضى الله عنه ، قال « كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسلم لشيء يعطاه من الدنيا ، فلا يسمى حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها » هذا كلام ابن الجوزى ، والعباس بن مرداس أسلم قبل الفتح ببسير ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، والله أعلم . ولا زال صلى الله عليه وسلم يعطى الرجل ما بين مائة وخمسين من الإبل ، أى وذلك من الخمس كما سيأتى .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت باحصاء الناس والغنائم : أى ما بقى منها ، وهى الأربعة الأقسام الباقية بعد إعطاء من تقدم ما تقدم من الخمس وقسمتها عليهم ، أى بعد أن اجتمعوا إليه وصاروا يقولون يارسول الله اقسم علينا حتى أجتوه صلى الله عليه وسلم إلى شجرة فاخطففت رداءه ، فقال ردوا رداى أيها الناس ، فوالله إن كان لى فيه شجر تهامة نعا لقسمته عليكم ثم ما ألفتيمونى بجيلا ولا جبانا ولا كدودا ، ثم قام صلى الله عليه وسلم إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله مالى من فينكم أى غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والخيط ، فإن الغلول يكون على أهله عارا وشارا ونارا يوم القيامة ، فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر ، وقال : يارسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لى دبر ، فقال : أما نصيبى منها فلك ، قال : أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لى بها وألقاها .

ويروى أن عقيلاً كان دفع لامرأته إبرة أخذها من الغنيمة ، أى فإنها قالت له : إني قد علمت أنك قد قاتلت فإذا أصبت من الغنيمة ، فقال : دونك هذه الإبرة تحيطين بها ثيابك . فسمع منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شيئا فليرده حتى الخيط والخيط ، فرجع وأخذها منها وألقاها فى الغنائم .

وفى كلام السهيلي أن أباجهم بن حذيفة العدوى كان على الأنفال يوم حنين ، فجاءه خالد بن البرصاء وأخذ من الأنفال زمام شعر فأنعه أبوجهم ، فلما تمانعا ضربه أبوجهم بالقوس فشججه منقلا ، فاستعدى عليه خالد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : خذ خمسين شاة ودعه فقال : أقدننى منه ، فقال : خذ مائة ودعه ، فقال : أقدننى منه ، فقال :

خذ خمسين ومائة ودعه وليس لك إلا ذلك ، ولا أقيدك من وال عليك ، فتومت المائة والحمسون بخمس عشرة فريضة من الإبل ، فن هنا جعلت دية المتقلة خمس عشرة فريضة ، ولما قسم ما بقى خص كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ ثنتي عشرة بعيراً وعشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم إلا للفرس واحد ، ومن ثم لم يعط الزبير رضى الله عنه إلا للفرس واحد ، وكان معه أفراس ، وبه أخذ إمامنا الشافعى رضى الله عنه فقال : لا يعطى إلا للفرس واحد ، وقال بعض المناقبين : قيل وهو معتب هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغير وجهه الشريف ، أى حتى صار كالصرف بكسر الصاد المهملة : وهو شىء أحمراً يذبغ به الجلد . وفى رواية : فغضب صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً واحمر وجهه وقال : «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخى موسى عليه السلام ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» انتهى .

ولعل من ذلك أن قارون ابن خالة موسى عليه السلام أو ابن عمه جملة البغى والشر على أن أحضر امرأة بغياً وجعل لها جعلاً على أن ترمى موسى بنفسها ، وأحضر بنى إسرائيل وأعلمهم بذلك ودعا موسى عليه السلام وقال له : إن قومك اجتمعوا فآخروا إليهم لتأمرهم وتنهاتهم ، فخرج عليه السلام إليهم وقال لهم : يا بنى إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن أفتري جلدناه ، ومن زنى محصنا رجمناه حتى يموت ، ومن زنى وهو لم ينكح جلدناه مائة جلدة ، فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإن بنى إسرائيل زعموا أنك فجرت بفلانته ، فقال : ادعها ، فإن قالت فهو كما قالت ، فأنت فقال موسى : يا فلانة أنشدك بالذى أنزل التوراة أصدق قارون ؟ فقالت : أما إذا أنشدتني فقد أشهد أنك برىء وأنت رسول الله ، وإن قارون جعل لى جعلاً على أن أرمىك بنفسى ، وجاءت بخريطين فيهما دراهم عليهما ختمه ، وقالت للملأ : إن قارون أعطانى هاتين وهذا ختمه ، وأعوذ بالله أن أفتري على الله ، فنظر القوم إلى ختمه فعلموا صدقها فخر موسى ساجداً ، فأوحى الله إليه : أن ارفع رأسك فإنى أمرت الأرض أن تطيعك ، فخسف به فهو يتجملجل فى الأرض ، يخسف به فى كل يوم مقدار قامه إلى يوم القيامة .

ولعل من ذلك أيضاً أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك فخذ منا من يذهب معك ليسمعوا كلامه تعالى فيؤمنوا ، فأوحى الله لموسى عليه

السلام: أن اختر سبعين من خيارهم واصعد بهم الجبل أنت وهرون واستخلف يوشع ففعل
فلما سمعوا كلامه سبحانه سألوه أن يريهم الله جهرة .

ومن ذلك نسبته إلى أنه قتل أخاه هرون عليهما السلام كما تقدم ، أى وقيل إن قاتل :
هذه القسمة ما عدل فيها: ذو الخويرة التيمي ، وهو غير ذى الخويرة اليماني الذى بال
فى المسجد . فقد جاء « أن ذى الخويرة التيمي وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال : يا محمد قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ،
فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عدلت ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ فقال عمر رضى الله عنه : ألا نقتله ؟ .
قيل وقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : ألا أضرب عنقه » .

قال الإمام النووى رحمه الله : ولا تعارض ، لأن كل واحد منهما استأذن فيه ؟ أى
فى مسلم « فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال : لا ، ثم
أدبر ، فقام إليه خالد رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال لا لعله
أن يكون يصلى ، قال خالد رضى الله عنه : وكم مصلى يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » .

وفى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بعث على كرم الله وجهه وهو
باليمن بذهبية فى تربتها ، أى لم تخلص من ترابها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسما
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة
ابن علاثة وزيد الخير ، فغضبت قريش فقالوا: يعطى صنديد نجد ويدعنا؟ فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إني إنما فعلت ذلك لأنألفهم ، فجاء رجل فقال : اتق الله يا محمد ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن يطع الله إن عصيته ! يأمننى على أهل الأرض
ولا تأمنونى ؟ » وفى رواية « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ؟ يأتينى خبر السماء
صباحا ومساء ، فجاء رجل فقال ماتقدم ، فقال له : ويحك أو لست أحق أهل الأرض
أن يتقى الله ؟ » .

ولعل هذه القسمة غير قسمة غنائم حنين ، وإن الرجل الذى قال له ما ذكر يحتمل أن
يكون واحدا منهما أو من شيعة ذلك الرجل الذى قال له فى أحدهما ..
وذكر بعضهم أن ذى الخويرة أصل الخوارج ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال « دعوه

فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية » وفي رواية « قال عمر رضى الله عنه : يارسول الله دعنى فأقتل هذا المنافق ، فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابه » أى جماعة يخرجون من صلبه فهو أصل الخوارج « يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم » وفي لفظ « تراقبهم ، لاتفقهه قلوبهم ، ليس لهم حظ منه إلا تلاوة الفم ، وإنهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، لأن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وئود » أى قتلا متأصلا لعامتهم . وفي رواية « إذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » وبهذا استدل من يقول بجواز قتل الخوارج . وقد قاتلهم على كرم الله وجهه . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الخوارج ، أمهم كفار ؟ فقال : « من الكفر فروا ، فقيل : أمنافقون ؟ فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا وهؤلاء يذكرون الله كثيرا فقيل : ما هم ؟ فقال : أصابتهم فتنة فعموا وصموا » فلم يجعلهم صلى الله عليه وسلم كفارا لأنهم تعلقوا بضرب من التأويل :

وحينئذ يكون المراد بالدين فى وصفهم بالمروق من الدين الطاعة لا الملة ، وبعده رواية بدل الإيمان : الإسلام ، وكان مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذا الخويصرة خرج منه حرقوص المعروف بندى الندية ، وهو أول من بوىع من الخوارج بالأمانة .

والخوارج قوم يكفرون مرتكب الكبيرة ، ويحكمون بمحيط بعمل مرتكبها وتخليده فى النار ، ويحكمون بأن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر ولا يصلون جماعة .

وسبب مقاتلة سيدنا على كرم الله وجهه لهم أنهم تقموا عليه التحكيم الذى وقع بينه وبين معاوية فى صفين ، وقالوا لا حكم إلا الله ، وأنت كفرت حيث حكمت الحكيمين ، فإن شهدت على نفسك أنك كفرت فيما كان من تحكيمك الحكيمين واستأنفت التوبة والإيمان نظرنا فيما سألتنا من الرجوع إليك ، وإن تكن الأخرى فإننا نناوبك على سواء (إن الله لا يهذى كيد الخائنين) فلما أيس من رجوعهم إليه قاتلهم . وحرقوص هذا أول مارق من الدين ، وكان رجلا أسود ، إحدى عضديه مثل ثدى المرأة . فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم « إن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدي ، عليه شعرات بيض » .

ولما قاتلهم على كرم الله وجهه وقتل غالبهم التمس ذلك الرجل فأتى به ، فإذا هو له ثدى كثنى المرأة . وفي رواية التمسوه في القتلى فلم يجدوه ، فقام على كرم الله وجهه بنفسه فطاف في القتلى فأخرجوه من بينهم ، فكبر على كرم الله وجهه ، ثم قال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول « إن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض » فقام إليه عبدة السلماني ، فقال : يا أمير المؤمنين : والله الذي لا إله إلا هو ، أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : إى والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثا وهو يخلف له .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجدوا في أنفسهم » أى غضبوا « حتى كثرت منهم القالة » أى وهى القول الردىء « أى حتى قال بعضهم إن هذا هو العجب يعطى قريشا » وفي لفظ : « الألفاء والمهاجرين ، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » أى وفي لفظ « إن هذا هو العجب ، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش ، وإن غنائمنا ترد عليهم » وفي رواية « إذا كانت شديدة ندعى إليها ويعطى الغنيمة غيرنا » وفي رواية « سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالغمم ، فإن كان من أمر الله صبرنا ، وإن كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم استعبتناه ، فدخل عليه سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم » ، أى غضبوا « لما صنعت في هذا النىء الذى أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار منها شيء ، قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ فقال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، قال : فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة » أى وهى قبة من أدم . أى وفي كلام بعضهم أن الحظيرة الزربية التى تجعل للإبل والغمم من الشجر لتقيها من البرد والريح ، ولعل هذا باعتبار الأصل فلا مخالفة ؛ فلما اجتمعوا له أتى سعد إليه صلى الله عليه وسلم فقال : اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى فقال لهم : أفياكم أحد من غيركم ؟ قالوا لا إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن أخت القوم منهم » وفي رواية « قال : من كان ههنا من غير الأنصار فليرجع إلى رحله » ، وذكر بعضهم أن سبب إيراد ابن أخت القوم منهم أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضى الله عنه « اجمع لى من هنا من قريش ، فجمعهم

له ثم قال : تخرج إليهم أم يدخلون ؟ قال : أخرج ، فخرج صلى الله عليه وسلم فقال : يامعشر قريش هل فيكم من غيركم ، قالوا : لا إلا ابن أختنا فذكره » ثم قال : « يامعشر قريش إن أولى الناس بالمتقون ، فانظروا لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها فأصدت عنكم بوجهي » انتهى .

« فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يامعشر الأنصار مامقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ » والمقالة كما علمت : الكلام الرديء ، والجددة : الغضب ، والمعروف أنه الموجدة ، ومن ثم قال بعضهم : الجددة في المال ، والموجدة في الغضب « ألم أتكم ضلالا فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف بين قلوبكم » أى وفي لفظ « وكنتم متفارقين فجمعكم الله » وفي لفظ « يامعشر الأنصار ألم يمن الله عليكم بالإيمان ، وخصكم بالكرامة ، وسماكم بأحسن الأسماء ، أنصار الله ، وأنصار رسوله ؟ قالوا : بلى الله ورسوله أمن وأفضل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبوني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولسوله المنة والفضل » أى وفي لفظ « قالوا : يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور ، ووجدتنا على شفا جرف من النار فأنقذنا الله بك . ووجدتنا ضلالا فهدانا الله بك ؛ فرضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، فافعل ماشئت ، فأنت يا رسول الله في حل ، قال : إذن والله لو شئتم لقلتم فصدقم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فأغنيناك ، أى وخائفا فأمنناك » أى أى إن كان متعديا كما هنا فالأفصح المدد ، وإن كان قاصرا فالأفصح القصر ، قال تعالى (وآويناها إلى ربوة) وقال تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف) « قال فقال الأنصار : المن لله ولسوله ، والفضل علينا وعلى غيرنا ، فقال : ما حديث بلغنى عنكم ؟ فسكتوا ، فقال : ما حديث بلغنى عنكم ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا ، وأما ناس منا حديثه أسنانهم ، قالوا : يغفر الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يغطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » ، أى وفي رواية « ما الذى بلغنى عنكم ؟ قالوا هو الذى بلغك ، لأنهم لا يكذبون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأعطي رجلا حديثه عهد بكفر أتأفهمهم » اه أى وفي رواية « إن قريشا حديثه عهد بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأنا لفهمهم ، أو جدتم يامعشر الأنصار في أنفسكم في اغاغة » بضم اللام وغينين معجمتين : أى شيء قليل من الدنيا « ألفت بها

قوما ليسلموا ، أى ليحسن إسلامهم ويسلم غيرهم تعاليم ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذى لا يزول ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت رجلا من الأنصار . أى لا نسبت إلى المدينة « ولو سلك الناس شعبا » أى بكسر الشين المعجمة : وهو ما انفرج بين جبلين « وسلك الأنصار شعبا لسلك شعبا الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » وفى لفظ « فىكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا » أى وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : « ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى » ليس من المن المذموم فى قوله صلى الله عليه وسلم « آفة الساحة المن » بل هو من التذكير بنعمة الله ، لكن يشكل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار « ألا تجيبونى الخ » فليتأمل ، أى وقد جاء فى مدح الأنصار « اللهم اغفر للأنصار ، وأبناء الأنصار ، ولأزواج الأنصار ، ولذرارى الأنصار ، الأنصار ، الأنصار كرشى وعييتى ، وإن الناس يكثرون ويقولون ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئتهم » وفى لفظ آخر : « اللهم صل على الأنصار ، وعلى ذرية الأنصار وعلى ذرية ذرية الأنصار » وقال للأنصار « أنتم شعار والناس دثار » أى والشعار الثوب الذى يلبى الجسد ، والدثار : الثوب الذى يكون فوق ذلك الثوب ، فهم ألصق به وأقرب إليه صلى الله عليه وسلم من غيرهم وقال « الأنصار حبهام لإيمان ، وبغضهم نفاق ، اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار ، ولنساء الأنصار ، ولنساء أبناء الأنصار ، ولذرارى الأنصار . وفى لفظ « اللهم اغفر للأنصار ، ولذرارى الأنصار . ولذرارى ذرارهم ، ولوالهم . ولجيرانهم ؛ لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » وقال « لا تؤذوا الأنصار ، فن آذاهم فقد آذانى ، ومن نصرهم فقد نصرنى ، ومن أحبهم فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى ، ومن بغى عليهم فقد بغى على ، ومن قضى لهم حاجة كنت فى حاجته يوم القيامة أسرع . إن الله اختار دارهم لإعزاز دينه ، واختارهم لنبيه أنصارا » وقال صلى الله عليه وسلم « حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق » وقال فى الأنصار « لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » وقال لهم « اللهم أنتم أحب الناس إلى قالها ثلثا » قال : وقال حسان رضى الله عنه فى مدح الأنصار :

سماهم الله أنصارا بنصرهم دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا للنائبات وماخافوا وماضجروا انتهى

أى وقد وقع له صلى الله عليه وسلم نظير ذلك ؛ فعن عمرو بن ثعلبة : « أنه صلى الله عليه وسلم سبى فأعطى قوما ومنع قوما ، وقال : إنا لنعطى قوما نخشى هلعهم وجزعهم ، ونكل قوما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن ثعلبة » فكان عمرو رضى الله عنه يقول : ما يسرنى أن لى بها حمر النعم .

ولما أسرت أخته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة الشياء بشين معجمة مفتوحة ومثناة تحتية ساكنة وميم بمدة ، ويقال الشياء بغير ياء ، واختلف فى اسمها صارت تقول : والله إني أخت صاحبكم ولا يصدقوها ، فأخذها طائفة من الأنصار حتى أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا محمد إني أختك ، قال : وما علامة ذلك ؟ « الحديث » ثم قال لها ارجعى إلى الجعرانة تكونين مع قومك ، فإني أمضى إلى الطائف ، فرجعت إلى الجعرانة ، فلما قدم صلى الله عليه وسلم الجعرانة جاءته ، فقالت : يا رسول الله إني أختك ، أى وأنشدته أبياتا ، قال : وما علامة ذلك « بكسر الكاف لأنه خطاب لمؤنث » قالت عضه عضضتها فى ظهري « فى رواية « فى وجهي » وفى رواية « فى إبهامى وأنا متوركتك » فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة . وفى رواية « قال لها إن تكوئى صادقة فإن بك منى أثرا بنى بلى ، فكشفت عن عضدها » ثم قالت : نعم يا رسول الله ، حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضة ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة « فليتأمل » وعند ذلك قام صلى الله عليه وسلم لها قائما وبسط لها رداءه وأجلسها عليه . أى ودمعت عيناه ، وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما ؛ أى وقال لها : سلى تعطى ؛ واشفعى تشفعى ، فاستوهبته السبى ؛ أى بعد أن قال لها قومها : إن هذا الرجل أخوك ؛ فلو أتيتك فسألته قومك لرجونا أن يحايينا ، فأنته فقالت : أتعرفنى ؟ قال : ما أنكرك فمن أنت ؟ قالت : أنا أختك بنت أبى ذؤيب ، وآية ذلك أنى حملتك ذات يوم فعضضت كتنى عضه شديدة هذا أثرها فرحب بها ، ثم استوهبته السبى وهم ستة آلاف فوهبه لها ، فما عرفت مكرمة مثلها ، ولا امرأة هى أيمن على قومها منها ، وخيرها صلى الله عليه وسلم وقال : إن أحببت فعندى محبة مكرمة ، وإن أحببت أمتعتك وترسعى إلى قومك ، قالت : بلى تمتعنى وتردنى إلى قومى ، فأعطاها غلاما يقال له مكحول وجارية ، وقيل بل أعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعما وشاء « وقيل إن القادمة عليه صلى الله عليه وسلم أمه من الرضاع التى هى حليلة ، وتقدم الكلام على ذلك .

قال بعضهم : وهذا العطاء الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤلفة من قريش إنما كان من خمس الخمس الذى هو سهمه صلى الله عليه وسلم ، لا من أربعة أحماس الغنيمة وإلا لاستأذن الغانمين فى ذلك ، لأنهم ملكوها بجوزهم لها .

ثم قدم صلى الله عليه وسلم وفد هوازن ، وهم أربعة عشر رجلا مسلمين ورأسهم زهير ابن صرد وفى لفظ : يكنى بأبى صرد ، وأبو برقان بالموحدة ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، أى فقالوا : يا رسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك . وفى رواية قالوا : يا رسول الله إن فيمن أصبتهم الأمهات والأخوات والعمات والحالات ، وهن محازى الأقسام ، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله ، وقال زهير : يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك أى لأن مرضعته صلى الله عليه وسلم حليلة كانت من هوازن ، أى وقال له أيضا : ولو ملحننا أى أرضعنا للحارث بن أبى شمر : أى ملك الشام ، أو للنعمان بن المنذر : أى ملك العراق ، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين وأنشدته أبياتا يستعطفه صلى الله عليه وسلم بها منها :

امن علينا رسول الله فى كرم فإنك المرء نرجوه ومنتظر

امن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

أى الدفعات الكثيرة من اللبن * إنا لنشكر للنعماء إن كفرت * أى جحدت . وفى لفظ :

إنا لنشكر آلاء وإن كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

إنا نؤمل عفوا منك نلبسه هدى البرية أن تعفو وتنتصر

فألبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك إن العفو مشتهر

فقال صلى الله عليه وسلم : « إن أحسن الحديث أصدقه ، أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » أى وفى لفظ البخارى « أحب الحديث إلى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبى ، وإما المال » وفى رواية « وقد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون » أى لأنه صلى الله عليه وسلم انتظرهم بعد أن قفل من الطائف بضع عشرة ليلة . وفى لفظ « أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : قد وقعت المقاسم مواقعها ، فأى الأمرين أحب إليكم ؟ أطلب لكم السبى أم الأموال ؟ » وإنما قال صلى الله عليه وسلم لهم : قد وقعت المقاسم ، أى لأنه لا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم ، وإنما يمن عليهم

قبله كما وقع له صلى الله عليه وسلم في يهود خيبر ، ولا يخفى أن هذا في الرجال دون الذراري « فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا ، ولا نتكلم في شاة ولا بعير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما مالى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، أى وقال لهم : فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا ، أى بعد أن قال لهم صلى الله عليه وسلم : أظهروا إسلامكم وقولوا نحن إخوانكم في الدين ، فسأسل لكم الناس ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بعد أن أثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سيهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما ييء الله علينا فليفعل » كذا في البخارى .

وفى لفظ « أنه صلى الله عليه وسلم قال : وأما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أسبيه » .

وفى رواية « فمن أحب منكم أن يعطى غير مكره فليفعل ، ومن كره أن يعطى ويأخذ الفداء فعلى فداؤهم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون والأنصار رضى الله تعالى عنهم : ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال العباس بن مرداس : وهتمونى : أى أضعفتمونى حيث صيرتمونى منفردا » .

وفى رواية « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء القوم جاءوا مسلمين وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان عنده من النساء سبي فطابت نفسه أن يرده فليرده ، ومن أبى فليرد عليهم ذلك قرضا علينا بكل إنسان ست فرائض من أول ما ييء الله علينا ، قالوا : رضينا وسلمنا ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، ولما فرق صلى الله عليه وسلم النساء نادى مناديه : ألا لتوطأ الحبالى حتى يضعن ، ولا غير الحبالى حتى يستبرئن بحيضة » .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه ، قال « أصبنا سبايا يوم حنين ، فكنا نلتمس فداءهن ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل ، فقال : اصنعوا ما بدا لكم ، فما قضى الله فهو كائن ، وليس من كل الماء يكون الولد » قال أبو سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه : وكانت اليهود تزعم أن العزل الموءودة الصغرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبت اليهود ، ولو أراد الله أن يخلقه لم يستطع أحد أن يصرفه » وجاء « لو أن الماء الذى يكون منه الولد أهرقت على صخرة لأخرج الله منها ولدا » وقد جاء فى الحديث ما قالت اليهود . فى مسلم وابن ماجه « العزل الواد الخنى » أى لأن التحرز عن الولد بالعزل كدفنه حيا فليتأمل ، وقد مر الكلام على ذلك مبسوطا .

والفريضة : البعير الذى يؤخذ فى الزكاة لأنه فرض وواجب على رب المال ، وإلى عفوه صلى الله عليه وسلم عن هوازن ، أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

من فضلا على هوازن إذ	كان له قبل ذلك فيهم رباء
وأتى السبي فيه أخت رضاع	وضع الكفر قدرها والسبأ
فحبها برا توهمت لنا	س به أنما السبأ هداء
بسط المصطفى لها من رداء	أى فضل حواه ذلك الرداء
فخذت فيه وهى سيدة النس	وة والسيدات فيه إماء

أى أعتق صلى الله عليه وسلم هوازن قبيلة أمه من الرضاعة التى هى حليلة السعدية ، وكانوا ستة آلاف آدمى وإنما أعتقهم لأجل أنه صلى الله عليه وسلم كان له وهو طفل فيهم رباء بفتح الراء والمد : أى تربيته فيهم ، ولأجل أن أخته من الرضاعة أتت فى ذلك السبي ، وتلك الأخت صغر كفرها وسباؤها قدرها الرفيع بأخوته صلى الله عليه وسلم فأعطها برا وفعل معها معروفا حتى وقع فى وهم الحاضرين بسبب ذلك أن سبأها هداء لها بكسر الراء كالعروس التى تهذى لزوجها ، ومن بره صلى الله عليه وسلم لها أنه بسط لها رداءه لتجلس عليه ، أى شرف لذلك الرداء شرف عظيم ، لا غاية له بسبب مماسته لجسده الشريف فصارت فى ذلك السبي سيدة من فيه من النساء ، وصار السيدات التى فيه بالنسبة إليها إماء ؛ بل الجمع بين كون أخته المذكورة هى الشافعة فى السبي وقبلت شفاعتها ، وبين كون المسائل فيهم هوازن ، والأصل اقتصر على سؤال الوفد ، ورد جميع السبي ، ولم يتخلف منه أحد إلا عجوز من عجائزهم ، كانت عند عيينة بن حصن أبى أن يردها ، وقال حين

أخذها: أرى عجوزا إني لأحسب أن لها في الحى نسبا وعسى أن يعظم فداؤها ، ثم ردها بعد ذلك بعشر من الإبل ؛ وقيل بست أخذ ذلك من ولدها بعد أن سناومه فيها مائة من الإبل ، وقال له ولدها: والله ما نديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا فوها ببارد ، ولا صاحبها بواجد : أى بجزين لفرأقها ، ولا درها بناكد بالنون : أى غزير وهو من الأضداد . وقيل قائل ذلك له زهير .

وقد يقال : لا مخالفة لجواز أن زهيرا هو ولدها ، فقال عيينة : خذها لا بارك الله لك فيها ، قال وذلك ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم ، دعا على من أبى أن يرد من السبي شيئا أن يبخرس ، أى يكسد ، فإن ولدها دفع له فيها مائة من الإبل فأبى ، ثم غاب عنه ثم مر عليه معرضا عنه فقال : خذها بالمائة ، فقال لا أدفع إلا خمسين فأبى ، فغاب عنه ثم مر عليه معرضا عنه فقال : خذها بخمسين فقال لا أدفع إلا خمسة وعشرين فأبى . فغاب عنه ثم مر عليه معرضا عنه ، فقال خذها بالخمسة والعشرين فقال : لا آخذها إلا بعشرة . وفي رواية إلا بستة فقال له ما تقدم ، ولما أخذها ولدها قال لعيينة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسا السبي قبضية قبضية ، فقال : لا والله ما ذاك لها عندي ، فما فارقها حتى أخذ لها منه ثوبا ، والقبضية بضم القاف : وهو ثوب أبيض من ثياب مصر منسوب للقبط وهم أهل مصر وضم القاف من التغيير فى النسب .

أى وفى كلام بعضهم وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا أن يقدم مكة فيشترى للسبي ثياب المتعة فلا يخرج الحر منهم إلا كاسيا ، قال : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبس أهل مالك بن عوف النضرى بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبي أمية ، وكلمه الوفد فى ذلك ، فقالوا : يا رسول الله أولئك سادتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أريد بهم الخير ، ولم يجز أن تجرى السهمان فى مال مالك بن عوف ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد هوازن : ما فعل مالك بن عوف ؟ قالوا : يا رسول الله هرب ، فلحق بحصن الطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبروه أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل ، فلما بلغ مالكا ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومه وأن ماله وأهله موفور ، وما وعده به نزل من الحصن مستخفيا خوفا أن تحبسه ثقيف إذا علموا الحال ، وركب فرسه وركضه ، حتى أتى الدهناء ، محلا معروفا ، ركب راحلته ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدركه

بالجعرانة ، وأسلم وردّ عليه أهله وماله ، واستعمله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من هوازن ، فكان لا يقدر على سرح لثقيف إلا أخذه ولا رحل إلا ميله ، وكان رضى الله تعالى عنه يرسل بالخمسة مما يغتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

أى وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المحل الذي هو الجعرانة ، وهو المراد بقول بعضهم وهو بحنين ، لأن المراد منصرفه من غزوة حنين ، وعلى ذلك الأعرابي جبة وهو متضمخ بخلوق : أى مصفر لحيته ورأسه ، وقد أحرم بعمرة فقال : أفتنى يا رسول الله . وفي رواية قال له : كيف ترى في رجل أحرم في جبة بعد ما تضحخ بطيب ؟ فسكت ساعة ثم نزل عليه الوحي ، فلما سرى عنه قال : أين السائل عن العمرة اخلع عنك الجبة ، واغسل عنك أثر الخلق . وفي رواية قال له صلى الله عليه وسلم : ما كنت تصنع في حجك ؟ قال : كنت أنزع هذه الجبة ، وأغسل هذا الخلق ، فقال صلى الله عليه وسلم : اصنع في عمرتك ما كنت صانعا في حجك . واستند لذلك من يقول بحرمة التطيب قبل الإحرام بما يبقى عند الإحرام . والراجح عند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه استحباب ذلك .

وجاءه صلى الله عليه وسلم رجل فوقف على رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لى عندك موعدا ، فقال صلى الله عليه وسلم له : صدقت فاحتكم ، فقال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيا ، فقال صلى الله عليه وسلم : هى لك ، ولقد احتكمت يسيرا ، ولصاحبة موسى عليه الصلاة والسلام التى دلته على عظام يوسف عليه الصلاة والسلام كانت احزم وأجزل حكما منك حين حكهما موسى عليه الصلاة والسلام ، فقالت : حكى أن تردنى شابة ، وأدخل معك الجنة ، كذا ذكره الغزالي رحمه الله . قال السخاوى : وهذا أخرجه ابن حبان والحاكم وصحح إسناده ، وفيه نظر كما قال العراقي ، وهذا أصل فى عدم إخلاف الوعد بالخيز .

ونقل الإمام النووى رحمه الله أن جماعة ذهبوا إلى وجوب الوفاء بذلك ؛ ووجهه السبكى رحمه الله بأن إخلاف الوعد كذب ، والكذب حرام وترك الحرام واجب .

وذكر الغزالي رحمه الله أن إخلاف الوعد لا يكون كذبا إلا إذا عزم حين الوعد على عدم الوفاء .

أى ويدل لذلك ماجاء عن عبد الله بن ربيعة قال «جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

بيننا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، قال : لو لم تفعل كتبت عليك كذبة .

وأحرم صلى الله عليه وسلم من الجعرانة ودخل مكة ليلا ، واستمر يلبى حتى استلم الحجر ، ثم رجع من أيلته ؛ وأصبح بها كبائت . وفي لفظ : أصبح بمكة كبائت وفيه نظر ، ولم يسق هديا في هذه العمرة وحلق رأسه وكان الخالق لرأسه الشريف أبا هند الحجام وقيل أبو خراش بن أمية الذي حلق رأسه صلى الله عليه وسلم في الحديبية ، وأتى بأعمال للعمرة بعد أن أقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، وقال : اعتمر منها سبعون نبيا .

غزوة تبوك

بعدم الصرف للعلمية والتأنيث . ووقع في البخارى صرفها نظرا للموضع ، أى ويقال لها غزوة العسيرة ، ويقال لها الفاضحة ، لأنها أظهرت حال كثير من المنافقين .

فى شهر رجب سنة تسع أى بلا خلاف ، ووقع فى البخارى أنها كانت بعد حجة الوداع ، قيل وهو غلط من النسخ ؛ بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء المحل المعروف .

أى وذكر بعضهم أن سبب ذلك أن متنصرة العرب كتبت إلى هرقل : إن هذا الرجل الذى قد خرج يدعى النبوة هلك وأصاب أصحابه سنون أهلكت أموالهم ، فبعث رجلا من عظامهم وجهاز معه أربعين ألفا ، أى ولم يكن لذلك حقيقة ، أى وإنما ذلك شئ قيل لمن يبلغ ذلك للمسلمين ليرجف به وكان ذلك فى عسرة فى الناس وجذب فى البلاد ، أى وشدة من نحو الحر ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم [] أى وكونه عند طيب الثمار يؤيد قول عروة بن الزبير : إن خروجه صلى الله عليه وسلم لتبوك كان فى زمن الخريف ، ولا يتأنى ذلك وجود الحر فى ذلك الزمن ، لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وورثى غيرها ، إلا ما كان من غزوة تبوك لبعث المشقة وشدة الزمن ، أى وكثرة العدو ، وليأخذ الناس أهبتهم ، وأمر الناس بالجهاز ، أى وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ،

أى أكد عليهم فى طلب ذلك ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وأنفق عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، قال : فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والحيل ، وهى تسعمائة بعير ومائة فرس والزراد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية .

أى وفى كلام بعضهم أنه أعطى ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخسين فرسا ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارض عن عثمان ، فأبى عنه راض » .

أى وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريميتين يدعو لعثمان بن عفان يقول : اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه » وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « سألت ربى أن لا يدخل النار من صاهرته أو صاهرنى » .

وجاء رضى الله تعالى عنه بألف دينار فصبها فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها بيديه ويقول : « ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم يرددها مرارا » اهـ .

وفى رواية « جاء بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصبت بين يديه ، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول بيديه ويقلبها ظهرا البطن ، ويقول : غفر الله لك ، ياعثمان ما أسرت وما أعلنت ، وما كان منك ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما يبالي ما عمل بعدها » أى ولعل هذه العشرة الآلاف هى التى جهز بها العشرة آلاف إنسان وإنما أى العشرة غير الألف التى صبها فى حجره صلى الله عليه وسلم .

وأنفق غير عثمان أيضا من أهل الغنى قال : وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئا . قال : أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئا قال : النصف الثانى . وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه بمائة أوقية ، أى ومن ثم قيل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما كانا خزنتين من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله تعالى . وجاء العباس رضى الله تعالى عنه بمال كثير ، وكذا طلحة رضى الله تعالى عنه ، وبعث النساء رضى الله تعالى عنهن بكل

ما يقدرن عليه من خلبين . وتصديق عاصم بن عدى رضى الله تعالى عنه بسبعين وسقا من تمر اهـ . وجاءه صلى الله عليه وسلم جمع ، أى سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يتحملونه : أى يسألونه أن يحملهم . فقال صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ، وعند ذلك (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون) أى ما يحملهم ، ومن ثم قيل لهم البكاءون ، ومنهم العرياض بن سارية رضى الله تعالى عنه ، ولم يذكره القاضى البيضاوى فى السبعة . وحمل العباس رضى الله تعالى عنه منهم اثنين ، وحمل منهم عثمان رضى الله تعالى عنه بعد الجيش الذى جهزه ثلاثة ، أى وحمل ياميز بن عمرو النضرى اثنين دفع لهما ناضحا له وزود كل واحد منهما صاعين من تمر . وعدهم مغلطاي ثمانية عشر .

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم ، فقلت : يابى الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم ، فقال والله لا أحملكم على شى . وفى رواية : والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه ، فرجعت حزينا إلى أصحابى من منع النبى صلى الله عليه وسلم ومن مخافة أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم وجد فى نفسه حيث حلف على أن لا يحملهم . قال : فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى صلى الله عليه وسلم فلم ألث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادى أين عبد الله ابن قيس ؟ فأجبتة قال : أجب ، رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ، فلما أتيتة قال : خذ هذه الستة أبعرة فانطلق بها إلى أصحابك . زاد بعضهم : فعند ذلك قال بعضهم لبعض أغلقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أى حملناه على يمين الغلق وقد حلف أن لا يحملنا ثم حملنا فوالله لا باريك لنا فى ذلك ، فأتوه فذكروه ، فقال عليه الصلاة والسلام : أنا ما حملتكم ، الله حملكم ، ثم قال : «إنى لا أحلف يميننا فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير » أى فهو صلى الله عليه وسلم إنما حلف أن لا يتكلف لهؤلاء حملا بقرض ونحوه مادام لا يجد لهم حملا فلا حث . وفيه أن هذا لا يناسب قوله : إنى لا أحلف إلى آخره .

وأجيب بأن هذا استثبات قاعدة لاتدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم حث فى يمينه بل خرج الكلام على تقدير . كأنه قال لو حثت فى يمينى حيث كان الحث خيرا وكفرت عنها لكان ذلك شرعا واسعا بل ندبا راجحا ، ويؤيده أنه لم ينقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عن هذه اليمين ، وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هذا وما قبله .

وقد يقال: إن حمل العباس رضى الله تعالى عنه اثنين منهم إلى آخره كان قبل وجود هذه الأبرعة الستة ، أو يدعى أن هؤلاء غير من تقدم .

فلما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار بالناس وهم ثلاثون ألفا ، أى وقيل أربعون ألفا ، وقيل سبعون ألفا وكانت الخليل عشرة آلاف فرس ، وقيل بزيادة ألفين . وخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله تعالى عنه على ما هو المشهور ، وقال الحافظ الدمياطى رحمه الله : وهو أثبت عندنا ، وقيل سباع بن عرفطة ، أى وقيل ابن أم مكتوم ، وقيل على بن أبى طالب ، قال ابن عبد البر : وهو الأثبت ، هذا كلامه . وفى كلام ابن إسحاق : وخلف عليا كرم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، وتخلف عنه عبد الله بن أبى سلول وهن كان من المنافقين بعد أن خرج بهم ، وعسكر عبد الله بن أبى على ثنية الوداع ، أى أسفل منها ، لأن معسكره صلى الله عليه وسلم كان على ثنية الوداع ، وكان عسكر عبد الله بن أبى أسفل منه . قال ابن إسحاق رحمه الله : وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين ، أى والتعبير عن ذلك بالزعم واضح لأنه يبعد أن يكون عسكر عبد الله مساويا لعسكره صلى الله عليه وسلم فضلا عن كونه أكثر منه فلي تأمل ، وقال عند تخلفه : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحرب والبلد البعيد : أى مالا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال ، يقول ذلك إرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه أى وقيل للروم بنو الأصفر ، لأنهم ولد روم بن العيص بن إسحاق نبي الله عليه السلام ، وكان يسمى الأصفر لصفرة به .

فقد ذكر العلماء بأخبار القدماء أن العيص تزوج بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم وكان به صفرة ، فقليل له الأصفر ، وقيل الصفرة كانت بأبيه العيص [] .

ولما ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثنية الوداع متوجها إلى تبوك عقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ورايته صلى الله عليه وسلم العظمى للزبير رضى الله عنه ، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير رضى الله عنه ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر رضى الله عنه ، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء وراية ، أى لبعضهم راية ولبعضهم لواء ، وكان قد اجتمع جمع من المنافقين أى فى بيت سويلم اليهودى ، فقال بعضهم لبعض : أنحسبون جلاد بنى الأصفر .

أى وهم الروم كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنهم يعنى الصحابة غدا مقرنون فى الحبال ، يقولون ذلك إرجافا وترهيبا للمؤمنين ، والجلاد : الضرب بالسيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك لعمار بن ياسر رضى الله عنه « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألمهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلت كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتنرون إليه وقالوا (إنما كنا نخوض ونلعب) فأنزله الله تعالى (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) وقال صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس : يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ، قال : يا رسول الله أو تأذن لى أى فى التخلف ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك ، فأنزله الله تعالى (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اغزوا تبوك تغنموا بنات بنى الأصفر نساء الروم ، فقال قوم من المنافقين : ائذن لنا ولا تفتنا فأنزله الله تعالى الآية (ألا فى الفتنة سقطوا) » أى التى هى التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة عنه .

وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال للجد بن قيس : « يا أبا قيس هل لك أن تخرج معنا لعلك تحب : أى تردف خلقتك من بنات بنى الأصفر ، فقال ما تقدم » وعند ذلك لأمه ولده عبد الله رضى الله عنه وقال له : والله ما يمنعك إلا النفاق ، وسينزل الله فيك قرآنا فأخذ نعله وضرب به وجه ولده ، فلما نزلت الآية قال له : ألم أقل لك ؟ فقال له : اسكت يا اسكع ، فوالله لأنت أشد على من محمد : وفى رواية أن الجد بن قيس لما امتنع واعتذر بما تقدم قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ولكن أعينك بمالى ، فأنزله الله تعالى (قل أنفقوا طوعا أوكرها لن يتقبل منكم) وتقدم أنه لم يبايع بيعة الرضوان ، وتقدم أنه تاب من النفاق وحسنت توبته ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال لبنى ساعدة : « من سيدكم ؟ فقالوا : الجد بن قيس على بخل فيه ، فقال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ قالوا : يا رسول الله من سيدنا ؟ فقال : بشر بن البراء بن معرور . وفى رواية « سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح » وذكر ابن عبد البر أن النفس أميل إلى الأول ومات الجد بن قيس فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقال بعض المنافقين لبعض : لانتفروا فى الحر فأنزله الله تعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أى يعلمون (وجاء المعذرون) أى وهم الضعفاء والمقلون (من

الأعراب ليؤذن لهم) في التخلف فأذن لهم ، وكانوا اثنين وثمانين رجلا وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جراءة على الله ورسوله ، وقد عناهم الله تعالى بقوله (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) .

قال السهيلي : وأهل التفسير يقولون إن آخر براءة نزل قبل أولها ، وإن أول ما نزل منها (انفروا خفافا وثقالا) قيل معناه شبابا وشيوخا ، وقيل أغنياء وفقراء ، وقيل أصحاب شغل وغير ذى شغل وقيل ركبانا ورجالة ، ثم نزل أولها في نبذ كل ذى عهد إلى صاحبه كما تقدم .

وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير عذر ، وكانوا ممن لا ينهم في إسلامه .

ولما خلف صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه أرجف به المنافقون ، وقالوا ما خلفه إلا استتقالا له ، وحين قيل فيه ذلك أخذ على كرم الله وجهه سلاحه ، ثم خرج حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال : يا نبي الله زعم المنافقون أنك ما خلفتني إلا استتقتني وتخففت مني ، فقال : «كذبوا ، ولسكتي خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لاني بعدى » أي فإن موسى عليه السلام حين توجه إلى ميقات ربه استخلف هرون عليه السلام في قومه ، فرجع على المدينة .

وعن علي كرم الله وجهه قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة وخلف جعفر في أهله ، فقال جعفر : والله لا أتخلف عنك ، فخلفني ، فقلت : يا رسول الله أتخلفني إلى شيء تقول قريش ، أليس يقولون ما أسرع ما أخذ ابن عمه وجلس عنه ، وأخرى أتبني الفضل من الله ، لأنى سمعت الله يقول (ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار) الآية ، فقال : أما قولك أن تقول قريش ما أسرع ما أخذ ابن عمه وجلس عنه ، فقد قالوا إنى ساحر وإنى كاهن وإنى كذاب ، وأما قولك تبني الفضل من الله ، فلك أبي أسوة أي حيث تخلفت عن بعض مواطن القتال ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى عليهما السلام » أي ولم يتخلف عنه علي كرم الله وجهه في مشهد من المشاهد إلا في هذه الغزوة .

وادعت الرافضة والشيعية أن هذا من النص التفصيلي على خلافة علي كرم الله وجهه

قالوا لأن جميع المنازل الثابتة لهرود من موسى سوى النبوة ثابتة لعلي كرم الله وجهه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا لما صح الاستثناء : أى استثناء النبوة بقوله « إلا أنه لا نبي بعدى » ومما ثبت لهرود من موسى عليه السلام استحقاقه للخلافة عنه أو عاش بعده : أى دون النبوة .

ورد بأن هذا الحديث غير صحيح كما قاله الآمدى : وعلى تسليم صحته ، بل صحته هي الثابتة لأنه فى الصحيحين - فهو من قبيل الآحاد ، وكل من الرافضة والشيعية لا يراه حجة فى الإمامة . وعلى تسليم أنه حجة فلا عموم له ، بل المراد ما دل عليه ظاهر الحديث أن عليا كرم الله وجهه خليفة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أهله خاصة مدة غيبته بتبوك ، كما أن هرون كان خليفة عن موسى فى قومه مدة غيبته عنهم للمناجاة . فعلى تسليم أنه عام لكنه مخصوص والعام المخصوص غير حجة فى الباقي أو حجة ضعيفة . وقد استخلف صلى الله عليه وسلم فى مرار أخرى غير على فيلزم أن يكون مستحقا للخلافة ، وصار بعد مسيره صلى الله عليه وسلم يتخذ عنه الرجل ، فيقال تخلف فلان ، فيقول دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وكان ممن تخلف عن مسيره معه صلى الله عليه وسلم أبو خيثة . ولما أن سار صلى الله عليه وسلم أياما دخل أبو خيثة على أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشتين لها فى حائط قد رشت كل منهما عريشتها ، وبردتا فيها ماء ، وهياتا طعاما ، وكان يوما شديدا الحر ، فلما دخل نظر إلى امرأته وما صنعتا فقال رضى الله عنه : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحر ، وأبو خيثة فى ظل بارد وماء مهيا ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيتالى زادا ففعلتا . ثم قدم ناضحه فارتحل وأخذ سيفه ورمحه كما فى الكشاف ، أى ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل بتبوك ، وقد كان أبو خيثة أدرك عمير بن وهب فى الطريق يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا حتى دنوا من تبوك . فقال أبو خيثة لعمير : إن لى ذنبا فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ، فلما دنا أبو خيثة قال الناس : هذا ركب مقبل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا خيثة . فقالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثة ، فلما أناخ أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه

وسلم : أولى لك يا أبا خيشمة ؛ ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له بخير : أى وأولى لك كلمة تهديد وتوعد . ولما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر ديار ثمود سجدى ثوبه على رأسه واستحث راحلته ، وقال « لاتدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم » ، أى لأن البكاء يتبعه التفكير والاعتبار ، فكأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالتفكير فى أحوال توجب البكاء من تقدير الله عز وجل على أولئك بالكفر ، مع تمكينه لهم فى الأرض ، وإمهالهم مدة طويلة ، ثم إيقاع نعمته بهم وشدة عذابه ، وهو سبحانه يقرب القلوب ، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك « ونهى صلى الله عليه وسلم الناس أن يشربوا من مائها شيئا ، وأن لا يتوضئوا به للصلاة ، وأن لا يعجن به عجين . وأن لا يحاس به حيس ، ولا يطبخ به طعام ، وأن العجين الذى عجن به أو الحيس الذى فعل به يلفونه الإبل ، وأن الطبيخ الذى طبخ به يلتقى ولا يأكلوا منه شيئا » .

ثم ارتحل بالناس : أى لزال سائر حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة ، أى وقال : من كان له بعير فليشد عقاله ، ونهى الناس فى تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه صاحبه ؛ فخرج شخص وحده لحاجته فحتم ، وخرج آخر كذلك فى طلب بعير له نذ فاحتمله الريح حتى ألقته بجبل طي ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ألم أنحكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؛ ثم دعا للذى ختم فشنى ، والذى ألقته الريح بجبل طي ، فأرسلته طي له صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضى الله عنه يصلى بالناس . واستعمل على حرس العسكر عباد ابن بشر ، فكان يطوف فى أصحابه على العسكر . ثم أصبح الناس ولا ماء معهم : أى وحصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم ، حتى حملهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها .

فمن عمر رضى الله عنه : خرجنا فى حر شديد ، فزلنا منزلا أصابنا فيه عطش ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده . وفى لفظ : على صدره ، فشكوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، أى قال له أبو بكر : يا رسول الله قد

عَوَدَ اللهُ مِنَ الدَّعَاءِ خَيْرًا فَادَعِ اللهُ لَنَا ، قَالَ أَتَجِبُ ذَلِكَ ؟ قَالَ نَعَمْ ، فَدَعَا ، أَيْ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْهُمَا حَتَّى أَرْسَلَ اللهُ سَحَابَةَ فَطَرَتْ حَتَّى ارْتَوَى النَّاسُ وَاحْتَمَلُوا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، قَالَ : وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ تِلْكَ السَّحَابَةَ لَمْ تَتَجَاوَزِ الْعَسْكَرَ ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ لِأَخْرَجْتُمْهُمْ بِالْإِنْفَاقِ : وَيَحْكُ قَدِ تَرَى ، فَقَالَ : إِنَّمَا مَطَرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ) أَيْ بَدَلَ شُكْرِ رِزْقِكُمْ (أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ) أَيْ حَيْثُ تَنْسُوبُهُ لِلْأَنْوَاءِ . وَقِيلَ إِنَّهُ قَالَ لَهُ : وَيَحْكُ ، هَلْ بَعْدَ هَذَا شَيْءٌ ؛ قَالَ : سَحَابَةٌ مَارَةً انْتَهَى .

وَفِي لَفْظٍ أَنَّهُمْ لَمَّا شَكُوا إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِدَّةَ الْعَطَشِ . قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَلِّي : لَوْ اسْتَسْقَيْتُمْ لَكُمْ فَسَقَيْتُمْ قَلْتُمْ هَذَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا . فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهُ مَا هَذَا بِحِينَ أَنْوَاءِ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ، فَدَعَا اللهُ تَعَالَى ، فَهَاجَتْ رِيحٌ وَثَارَ سَحَابٌ فَطَرُوا حَتَّى سَالَ كُلُّ وَادٍ ، فَرَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ يَغْرِفُ بِقَدْحِهِ ، وَيَقُولُ : هَذَا نُوءُ فُلَانٍ فَانزَلت الآية .

وَصَلَّتْ نَاقَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ غَرَضُهُمْ إِلَّا الْغَنِيمَةُ : إِنْ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَّهُ يُخْبِرُكُمْ بِخَبَرِ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ رَجُلًا يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللهُ ، وَقَدْ دَانِي اللهُ عَلَيْهَا أَنَّهُ فِي شَعْبِ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ حَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بِزَمَامِهَا ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى تَأْتُونِي بِهَا ، فَذَهَبُوا فَوَجَدُوهَا كَذَلِكَ ، فَجَاءُوا بِهَا ، أَيْ وَتَقَدَّمَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظِيرُ هَذَا فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمَصْطَلِقِ الَّتِي هِيَ الْمَرِيْسِيْعُ ، وَلَا بَعْدَ فِي تَعَدُّدِ الْوَاقِعَةِ : وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَطِئِ بَعْضِ الرِّوَاةِ .

وَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ بَعْضَ الصَّحَابَةِ جَاءَ إِلَى رَحْلِهِ ، فَقَالَ لِمَنْ بِهِ : وَاللَّهِ لَعَجِبُ فِي شَيْءٍ حَدَّثَنَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَقَالَةٍ قَائِلٍ أَخْبَرَهُ اللهُ عَنْهُ وَذَكَرَ الْمَقَالَةَ . فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ فِي رَحْلِهِ : هَذِهِ الْمَقَالَةُ قَالَهَا فُلَانٌ يَعْنِي شَخْصًا فِي رَحْلِهِ أَيْضًا قَالَهَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ بَيْسِيرَ ، فَقَالَ : يَا عِبَادَ اللهِ فِي رَحْلِي دَاهِيَةٌ وَمَا أَشْعُرُ : أَيْ عَدُوٌّ اللهُ أَخْرَجَ مِنْ رَحْلِي وَلَا تَصْحَبْنِي فَيَقَالُ : إِنَّهُ تَابَ ، وَيَقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَا بَشَرًا حَتَّى هَلَكَ .

وَتَبَاطَأَ جَمَلُ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بِهِ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ ، فَتَخَلَّفَ عَنِ الْجَيْشِ فَأَخَذَ مَتَاعَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ يَتَّبِعُ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ فَأَدْرَكَهُ نَازِلًا فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ ، فَأَيُّ وَقَبِلَ مَجِيئَهُ قَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ تَخَلَّفَ أَبُو ذَرٍّ وَأَبْطَأَ بِهِ بَعِيرُهُ .

فقال صلى الله عليه وسلم : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ولما أشرف على ذلك المنزل ونظره شخص يمشى ، فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم ، قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده » وكان كما قال صلى الله عليه وسلم إنه يموت وحده . فقد مات رضى الله عنه وحده بالربذة لما أخرجه عثمان رضى الله عنه إليها .

أى فإنه بعد موت أبي بكر رضى الله عنه خرج من المدينة إلى الشام . فلما ولى عثمان رضى الله عنه شكاه معاوية رضى الله عنه إليه ، فإنه كان يغلظ على معاوية فى بعض أمور تقع منه ، فاستدعاه عثمان رضى الله عنه من الشام ثم أسكنه الربذة ، ولم يكن معه إلا امرأته وغلأمه ، فوصاهما عند موته أن غسلا نى وكفنا نى ثم اجعلانى على قارعة الطريق ، فأول من يمر بكم قولاً له هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، فلما مات رضى الله عنه فعلا به ذلك . وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق فوجدوا الجنائزة على ظهر الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها فقام إليهم الغلام وقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، فاستهل عبد الله بن مسعود بيكى ويقول : صدق رسول الله ، تمشى وحدك وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود خبره .

أى وفى الحدائق عن أم ذر قالت : لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت ، فقال : ما يبكيك ؟ قلت : ومالى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ولا بد لنا من معين على دفنك ، وليس معنا ثوب يسعك كفنا . فقال : لا تبكى وأبشرى ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد مات فى قرية ، وإنى أنا الذى أموت بالفلاة ، والله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبت . وفى رواية : ما كذبت ولا كذبت فانظرى الطريق . فقالت : قد ذهب الحاج وتقطعت السبل . فقال : انظرى ؛ فقالت : كنت أشتد إلى الكتيب فأقوم عليه ثم أرجع إليه فأمرضه ، فبينما أنا كذلك إذا أنا برجال على

يروا حلهم كأنهم الرخم فألحت بثوبى، فأسرعوا إلى ووضعوا السياط في نخورها يستقبلون إلى، فقالوا مالك يا أمة الله؟ فقلت: امرؤ من المسلمين يموت تكفنوناه، قالوا: ومن هو؟ قلت أبو ذر. قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت نعم، فأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا عليه فرحب بهم. وقال: أبشروا فإنكم عصابة من المؤمنين وحدثهم الحديث، وقال: والله لو كان لي أو لها ما يسعني كفننا ما كفنت إلا فيه، وإني أنشدكم الله والإسلام لا يكفنتي منكم رجل كان أميراً ولا عريفاً ولا بريداً أو نقيباً، ولم يكن منهم أحد سلم من ذلك إلا فتي من الأنصار، فقال: والله لم أصب مما ذكرت شيئاً أن أكفنتك في ردائي هذا وثوبين معي من غزل أمي، فأت فكفنته الفتى الأنصارى ودفنته في النفر الذين معه.

أقول: يحتاج إلى الجمع بين هذا وما تقدم. وقد يقال: لا ينافي ذلك ما تقدم عن ابن مسعود رضي الله عنه، لجواز أن يكون قدمه بعد أن كفن بكفن الأنصارى، ولا ينافي ذلك ما تقدم من قول الراوى: فلما مات فعلاً: أى زوجته وعلامة ذلك: أى غسله وتكفينه، ولا ينافي ذلك قول الغلام لابن مسعود ومن معه: أعينونا على دفنته. ولا ينافي ذلك قول الراوى هنا: ودفنته: أى الفتى الأنصارى في النفر الذين معه، لأن ذلك يقال إذا اشتركوا مع غيرهم في ذلك.

وأبو ذر رضي الله عنه اسمه جندب، وقيل اسمه سلمة بن جنادة. وكان من أوعية العلم المبرزين في الزهد والورع والقول بالحق. وقد قال صلى الله عليه وسلم في حقه « ما أظلت الحضراء، ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبي ذر » وكان رضي الله عنه من الأقدمين في الإسلام. قال ابن عبد البر: كان خامس رجل أسلم فليتأمل. وقال صلى الله عليه وسلم « أبو ذر في أمتى شبيه عيسى ابن مريم في زهده » وبعضهم يرويه « من ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فليتنظر إلى أبي ذر » وإلى وجود ما أخبر صلى الله عليه وسلم عن أبي ذر من أنه يموت وحده أشار الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تائيته بقوله:

وعاش أبو ذر كما قلت وحده ومات وحيداً في بلاد بعيدة

قال: وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال: لما كنا فيما بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته بعد الفجر وتبعته بماء فأسفر الناس بصلاتهم التي هي صلاة الفجر فقدموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فصلى بهم، فانتهى صلى الله عليه

وسلم بعد أن توضأ ومسح خفيه لعبد الرحمن بن عوف وقد صلى ركعة ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن ركعة وقام ليأتي بالركعة الثانية ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم بعد فراغه : أحسستم أو أصبتم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته » اه أى ولعل هذا لاينافي ماتقدم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضى الله عنه يصلى بالناس ، وقوله « لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته » يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل خاف الصديق فى هذه الغزوة حيث يصلى بالعسكر فليتأمل .

أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « عبد الرحمن سيد من سادات المسلمين » ولا يخالف هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما « لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم خلف أحد من أمته إلا خلف أبى بكر » أى فى مرض موته ، لأن المراد صلاة كاملة أو تكرر الصلاة هذا .

وفى الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم فيما حكى القاضى عياض رحمه الله أنه لايجوز لأحد أن يؤمه صلى الله عليه وسلم لأنه لايصح التقدم بين يديه فى الصلاة ولا غيرها لالعذر ولا لغيره .

وقد نهى الله المؤمنين عن ذلك ، ولا يكون أحد شافعا له وقد قال « أمتكم شفعاؤكم » ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه « ما كان لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم » فليتأمل .

ولما نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء ، فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت .

قال : وعن حذيفة رضى الله عنه « بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى الماء قلة أى ماء عين تبوك ، أى وقد قال لهم صلى الله عليه وسلم : إنكم لتأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تناوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى ، وأمر صلى الله عليه وسلم مناديا يتادى بذلك فجئناها فإذا العين مثل الشراك تبض من مائها ، وقد سبق إليها رجلان : أى من المنافقين ومسا من مائها فسيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك » وفى رواية « سبق إليها أربعة من المنافقين ، ثم إنهم غرفوا من تلك العين قليلا قليلا حتى اجتمع شئ فى شن فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير » وفى رواية فجعلوا فيها سهاما

دفعها صلى الله عليه وسلم لهم ، فجاشت بالماء ، وإلى ذلك أشار الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تائيته بقوله :

فيوما يوقع النيل جثت بشرهم ويوما يوقع الوبل جدت بسقية

وحينئذ أى وحين إذ ثبت أنه صلى الله عليه وسلم جعل السهام في عين تبوك يسقط الاعتراض بأن وقع النيل لم يكن بتبوك وإنما كان بالحديبية على أن الذى بالحديبية إنما هو غرز سهم واحد لاسهام فليتأمل .

ثم قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ « يامعاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملي جنانا » أى بستانين ، وذكر ابن عبد البر رحمه الله عن بعضهم . قال : أنا رأيت ذلك الموضوع كله حوالى تلك العين جنانا خضرة نضرة .

وقبل قدومهم تبوك بليلة نام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يستيقظ حتى كادت الشمس قيد رمح ، أى وقد كان صلى الله عليه وسلم قال لبلال : اكلاً لنا الفجر فاستد بلال ظهره إلى راحلته فغابته عيناه قال : ألم أقل لك يا بلال اكلاً لنا الفجر ؟ وفي رواية أن بلالا رضى الله عنه قال لهم ناموا وأنا أوقظكم : فاضطجعوا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بلال أين ما قلت ؟ قال : يا رسول الله ذهب بي مثل الذى ذهب بك ، أى وفي لفظ : أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك ، وقال صلى الله عليه وسلم للصديق : إن الشيطان صار يهدى بلالا للنوم كما يهدى الصبي حتى ينام ؛ ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا وسأله عن سبب نومه ؛ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبر به النبي الصديق ، فقال الصديق للنبي صلى الله عليه وسلم : أشهد أنك رسول الله ، فانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزله غير بعيد . ثم صلى وتقدم في خيبر : أى في غزوة وادى القرى ، فإنها كانت عند منصرفه من خيبر ، الخلاف في أى غزوة كان وسار صلى الله عليه وسلم مسرعاً بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك .

وفي منصرفه من تبوك قال أبو قتادة رضى الله عنه : «بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قافل من تبوك وأنا معه ، إذ خفق خفقة وهو على راحلته قال على شقه ، فدنوت منه فدعته ، فأنبته فقال : من هذا؟ فقالت أبو قتادة يا رسول الله ، خفت أن تسقط فدعمتك ، فقال : حفظك الله كما حفظت رسوله ثم سار غير كثير ثم فعل مثلها .

فدعمته ، فانتبه ، فقال : يا أبا قتادة هل لك في التعريس ؟ فقلت : ماشئت يا رسول الله ، فقال انظر من خلفك ، فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال : ادعهم ، فقلت أجبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءوا فعرسنا .

وفي رواية قال أبو قتادة رضي الله عنه « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير حتى ابهار الليل وأنا إلى جنبه فنعس فقال عن راحلته ، فأثبته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته ، فدعمته حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلاً هي أشد من الميلتين الأولتين حتى كاد يسقط ، فأثبته فدعمته فرفع رأسه فقال : من هذا ؟ قلت : أبو قتادة ، قال : متى كان هذا مسيرك مني ؟ قلت : مازال هذا مسيرى منذ الليلة ، قال : حفظك الله كما حفظت نبيه » وهذا تقدم في منصرفه من خيبر ، ولا مانع من التعدد . ويحتمل أن هذا خلط وقع من بعض الرواة فلي تأمل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : هل ترى من أحد : يعني من الجيش ؟ قلت : هذا راكب ، ثم قلت هذا راكب آخر حتى اجتمعنا وكنا سبعة . وفي رواية خمسة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطريق ، ثم قال : احفظوا علينا صلاتنا ، وكان أول من استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس في ظهره ، فقمنا فزعين . ثم قال : اركبوا ، فركبنا ، فسرنا حتى ارتفعت الشمس : ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء ، فتوضأ منها وبقي فيها شيء ، وفي رواية : جرة من ماء ، ثم قال : لي احفظ علينا ميضأتك ، وفي رواية : ازدهر بها يا أبا قتادة فسيكون لها نبأ الحديث .

وفي رواية : « ما أيقظنا إلا حر الشمس ، فقلنا : إنا لله فاتنا الصبح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنغيظن الشيطان كما غاظنا ، فتوضأ من الإداوة التي هي الميضأة ، ففضل فضل ، فقال يا أبا قتادة احفظ بما في الإداوة ، واحفظ بالركوة فإن لها شأنًا فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر بعد طلوع الشمس . وفي لفظ إن عمر رضي الله عنه هو الذي أيقظ النبي صلى الله عليه وسلم بالتكبير .

أقول : ظاهر هذه الرواية أنهم صلوا بمحلهم ولم ينتقلوا . وفي رواية قال لهم صلى الله عليه وسلم : تحولوا عن مكانكم الذي أصابتكم فيه الغفلة . وفي لفظ : ارتحلوا ، فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان .

وفي البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال « كنا في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنا أسرينا حتى كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافر منها ، فأيقظنا إلا حر الشمس ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا نام لم نوقظه حتى يكون هو يستيقظ ، لأننا لا ندرى ما يحدث له صلى الله عليه وسلم في نومه : أى من الوحي ، فكانوا يخافون من إيقاظه قطع الوحي » كما تقدم في غزوة بني المصطلق « فلما استيقظ عمر رضى الله عنه ورأى ما أصاب الناس : أى من فوات صلاة الصبح كبر ورفع صوته بالتكبير ، فزال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم » .

وفي رواية « إن الصديق رضى الله عنه استيقظ أولاً ثم لازال يسبح ويكبر حتى استيقظ عمر ، ولا زال يكبر حتى استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استيقظ شكوا إليه الذى أصابهم : أى من فوات صلاة الصبح ، قال : لاضير ، ارتحلوا ، فارتحلوا ، فسار غير بعيد ثم نزل ، فدعا بالوضوء فتوضأ ونودى بالصلاة فصلى بالناس » وهذا كما نرى فيه التصريح بأن هاتين اليقظتين وقعتا في غزوة تبوك ، الأولى عند ذهابهم لها ، والثانية عند منصرفهم منها .

وفي دلائل النبوة للبيهقي عن بعض الصحابة : « وبعد أن صلينا وركبنا جعل بعضنا يهمس إلى بعض : ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذى تهمسون دوني ؟ فقلنا : يارسول الله بتفريطنا في صلاتنا ، قال : أما لكم في أسوة حسنة ؟ ثم قال : ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى » .

وفي فتح البارى : اختلف في تعيين هذا السفر . ففي مسلم أنه كان في رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة . وفي أبي داود « أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية ليلاً ، فنزل فقال : من يكاؤنا ؟ فقال بلال أنا » الحديث . وفي مصنف عبد الرزاق أن ذلك كان بطريق تبرك .

وقد اختلف العلماء هل كان ذلك : أى نومهم عن صلاة الصبح مرة أو أكثر ؟ فجزم الأصيلي رحمه الله بأن القصة واحدة .

وتعقبه القاضى عياض رحمه الله بأن قصة أبي قتادة مغايرة لقصة عمران بن حصين . ومما يدل على تعدد القصة اختلاف مواطنها .

وفي الطبراني قصة شبيهة بقصة عمران وأن الذي كلاً لهم الفجر ذو مخبر ، قال ذو مخبر :
فما أيقظني إلا حر الشمس ، فمجت أدنى القوم فأيقظته وأيقظ الناس بعضهم بعضاً حتى استيقظ
النبي صلى الله عليه وسلم فليأتمل ، وتقدم عن الإمتاع قال عطاء بن يسار : إن ذلك كان بتبوك ،
وهذا لا يصبح ، وإلا فالآثار الصحاح على خلاف قوله مسندة ثابتة ، والله أعلم .

واستشكل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام
قلوبنا » وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد قالت له « أتنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام
عيني ولا ينام قلبي » .

وأجيب عنه بأجوبة حسنها أن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحديث والألم
ولا يدرك ما يتعلق بالعين كروية الشمس وطلوع الفجر .

ومن الأجوبة أنه صلى الله عليه وسلم كان له نومان : نوم تنام فيه عينه وقلبه ، ونوم
تنام فيه عينه فقط . وينبغي أن يكون هذا الثاني أغلب أحواله وإن كان الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام مثله في ذلك ، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ،
ولا تنام قلوبنا » أي غالباً . ويكون هذا حاله دائماً وأبداً إذا كان متوضئاً ، لقولهم : إنه لا ينقض
وضوؤه صلى الله عليه وسلم بالنوم ، وفي جعله العين محلاً للنوم نظر ، لأن العين إنما هي محل
السنة ، ومحل النعاس الرأس ، ومحل النوم القلب .

قال الحافظ السيوطي : وكون القلب محلاً للنوم دون العين لا يشكل عليه قوله صلى الله
عليه وسلم « تنام عيناى ولا ينام قلبي » ، لأنه من باب المشاكلة ، وفيه بحث هذا كلامه .

واستشكل قوله صلى الله عليه وسلم « ارتحلوا فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان »
وفي لفظ « ارتحلوا ، فإن هذا واد به شيطان » بأنه يقتضى تساط الشيطان على النبي صلى الله
عليه وسلم ، لأن الظاهر أن وجود الشيطان هو السبب في النوم عن الصلاة .

وأجيب بأنه على تسليم ذلك ، فإن تسليطه إنما كان على من كان يحفظ الفجر بلال أو
غيره . ففي بعض الروايات كما تقدم « إن الشيطان أتى بلالاً فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي
حتى نام » .

ثم لحق صلى الله عليه وسلم بالجيش ، وقبل لحوقه صلى الله عليه وسلم بهم قال لأصحابه
ما ترون الناس : يعنى الجيش فعلموا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال صلى الله عليه وسلم :
لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا ، وذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما أرادا أن ينزلا

بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما فنزلا على الماء فأبوا ذلك عليهما ، فنزلا على غير ماء بفلاة من الأرض لاماء بها عند زوال الشمس وقد كادت أعناق الخيل والركاب تقطع عطشا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أين صاحب الميضة؟ قيل هو ذا يارسول الله . قال : جنني بميضا نك فجاءه بها وفيها شيء من ماء ، وفي رواية : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالركوة فأفرغ مافي الإداوة فيها ووضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا ، وفاض الماء حتى رووا ورووا خيلهم وركابهم ، وكان في العسكر من الخيل اثنا عشر ألف فرس أى على ماتقدم ، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألفا ، وقيل سبعون ألفا . وواضح أن هذه العطشة غير المتقدمة التي دعا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل المطر .

وفي كلام بعضهم أنه لما حصل للقوم العطش أرسل صلى الله عليه وسلم نفرا ؛ ويقال عليا والزبير يستعرضون الطريق ، وأعلمهم أن عجوزا تمر بهم في محل كذا على ناقة معها سقاء ماء ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : اشترؤا منها بما عزّ وهان ، واثتوا بها مع الماء ، فلما بلغوا المسكان إذا بالمرأة ومعها السقاء . وفي رواية : إذا نحن بامرأة سادلة رجلها بين مزادتين ، فسألوها في الماء ، فقالت : أنا وأهلي أحوج إليه منكم ؛ فسألوها أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الماء ؛ فأبت وقالت : من هو رسول الله ؟ لعله الساحر . وفي رواية الذي يقال له الصابي وخير الأشياء أني لا آتبه ؛ فشدها وثاقا وأتواها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم : خلوا عنها . وفي رواية : قلنا لها أين الماء ؟ قالت : أهاه أهاه لاحالكم ، بينكم وبين الماء مسيرة يوم وليلة ، ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتأذنين لنا في الماء ، ولتصيين ماءك كما جئت به ؟ فقالت : شأنكم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبي قتادة : هات الميضة ، فقرّبت إليه ، فحل السقاء وتقل فيه وصب في الميضة ماء قليلا ، ثم وضع يده الشريفة فيه ثم قال : ادنوا فخذوا ، فجعل الماء يفور ويزيد والناس يأخذون حتى ما تركوا معهم إناء إلا ملأوه ، ورووا إبلهم وخيلهم ، وبقى في الميضة ثلاثاها . والميضة هي الإداوة لأنه يتوضأ منها . وفي الدلائل للبيهقي : فجعل في إناء من مزادتيها ، ثم قال فيه ما شاء الله أن يقول . زاد في رواية : ثم مضمض ، ثم رد الماء في المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي ، ثم أمر الناس أن يملئوا آنتهم وأسقيتهم ، ثم قال لها : تعلمي والله ما رزأنا من مائك شيئا ، ولكن الله عز وجل هو الذي سقانا .

والعزالي : جمع عزلاء ، والعزلاء : هي التي تجعل في فم القربة لينزل فيها الماء من الراوية وهي المرادة بالمزادة ، وهذا السياق يدل على أن هذه عطشة ثالثة ، لأن الثانية وضع صلى الله عليه وسلم يده في الركوة التي صب فيها من الميضة ، وهذه وضع يده في الميضة بعد أن لم يجدوا في الميضة شيئا .

وفي رواية أن تلك المرأة أخبرته أنها مؤتممة : أي لها صبيان أيتام ، فقال : هاتوا ما عندكم فجمعنا لها من كسر وتمر وصرتها صرة ، ثم قال لها : اذهبي فأطعمي هذا عيالك .

وفي رواية أيتامك ، وصارت تعجب مما رأت . ولما قدمت على أهلها قالوا لها : لقد احتبست علينا ، قالت : حبسني أنى رأيت عجبا من العجب ، أرأيتم مزادتي هاتين ؟ فوالله لقد شرب منهما قريب من سبعين بعيرا ، وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر والأحصى ، ثم هما الآن أوفر منهما يومئذ ، فلبثت شهرا عند أهلها ثم أقبلت في ثلاثين راكبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت وأسلموا .

وفي مسلم « لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة بحيث صارت تمص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها ؛ فقالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادأهنا ؛ فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله إن فعلت فنى الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها في ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ؛ فدعا بنطع فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم ؛ فجعل الرجل يأتي بكف ذرة ؛ ويحییء الآخر بكف من تمر ؛ ويحییء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ؛ ثم قال لهم : خذوا في أوعيتكم ، فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة » وفي رواية « إلا وقاه الله النار » وتقدم نظير ذلك في الرجوع من غزوة الحديبية ، أى ولا مانع من التعدد أو هو من خلط بعض الرواة ؛ ولعل هذا كان بعد أن ذبح لهم طلحة بن عبيد الله جزورا فأطعمهم وأسقاهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنت طلحة الفياض » وسماه يوم أحد « طلحة الخير » ويوم حنين « طلحة الجود » لكثرة إنفاقه على العسكر رضى الله عنهم .

وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم ، قال « كنت في غزوة تبوك على نحر السمن ،

فنظرت إلى النحي وقد قلّ مافيّه ، وهيات للنبي صلى الله عليه وسلم طعاما ووضعت النحي في الشمس ونمت ، فانتبهت بجزير النحي ، فقممت فأخذت رأسه بيدي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى : لو تركته لسال الوادى سمنا .

وعن العرياض بن سارية رضى الله عنه ، قال « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ، فقال ليلة لبلال : هل من عشاء ؟ فقال : والذى بعثك بالحق لقد نفضنا جربنا » فقال : انظر عسى أن تجد شيئا ، فأخذ الجرب ينفضها جرابا جرابا ، ففتح التمرة والتمرتان حتى رأيت في يده صلى الله عليه وسلم سبع تمرات ، ثم دعا بصحفة فوضع التمر فيها ثم وضع يده الشريفة على التمرات ، وقال : كلوا بسم الله ، فأكلنا ثلاثة أنفس ، وأحصيت أربعة وخسين ثمرة أعدّها عدّا ونواها في يدي الأخرى وصاحبى يصنعان كذلك ، فشبعنا ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هي ، فقال : يا بلال ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعاً ، فاما كان من الغد دعا صلى الله عليه وسلم بلالا بالتمرّات ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة عليهنّ ، ثم قال : كلوا بسم الله ، فأكلنا حتى شبعنا وإنا لعشرة ثم رفعنا أيدينا وإذا التمرات كما هي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أن أستحي من ربى لأكلنا من هذه التمرات حتى نردّ إلى المدينة من آخرنا ، فأعطاهنّ غلاما فولى وهو يلوكون .

وأناه صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك يحنة بضم المثناة تحت وفتح الحاء المهملة ثم نون مشددة مفتوحة ثم تاء التانيث ابن رؤبة بالموحدة صاحب أيلة وصحبتة أهل جرباء تانيث أجرب يمد ويقصر : قرية بالشام ، وأهل أذرح بالذال المعجمة والراء المهملة المضمومة والحاء المهملة ، مدينة تلقاء السراة ، وأهل مينا ، وأهدى . يحنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء ، فكساه رسول الله صلى الله عليه وسلم بردا ، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعطاء الجزية ، أى بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم .

وكتب له صلى الله عليه وسلم ولأهل أيلة كتابا صورته « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنته بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يجوز ماله دون نفسه ، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يجل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر . »

وكتب صلى الله عليه وسلم لأهل أذرح وجرباء ما صورته « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ، وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين » وصالح صلى الله عليه وسلم أهل ميناء على ربح ثمارهم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال « رأيت ونحن بتبوك شعلة مه نار في ناحية العسكر » أى ضوء شمعة كما صرح به الجلال السيوطى رحمه الله حيث أجاب من سأله هل الشمع كان موجودا قبل البعثة وهل وقد عنده صلى الله عليه وسلم بأنه كان موجودا قبل البعثة ؛ فقد ذكر العسكرى رحمه الله فى الأوائل أن أول من أوقده جزيمة الأبرش ؛ أى وقد تقدم وهو قبل البعثة بدهر ، وورد فى حديث « أنه أوقد للنبي صلى الله عليه وسلم عند دفنه عبد الله ذا البجادين » قال : وقد ألفت فى المسألة تأليفا سميته [مسامرة السموع فى ضوء الشموع] قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه « فاتبعها أنظر إليها ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذوالبجادين المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرة وأبو بكر وعمر يدليانه ، وهو يقول : أدليا إلى أخا كما ، فأدليا إليه ، فلما هياه لشقه قال : اللهم قد أمسيت راضيا عنه فأرض عنه » يقول ابن مسعود : ياليتنى كنت صاحب الحفرة : أى والبجاد بموحدة ككتاب : الكساء المخطط الغليظ ، لأنه لم يكن لعبد الله المذكور إلا بجاد واحد ، فشقه نصفين فاتزر بواحد وارتدى بالآخر وقدم المدينة وأسلم ، وقرأ قرآنا كثيرا ؛ وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

« ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك خرج معه وقال : يا رسول الله ادع الله لى بالشهادة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم ائتني بلحاء شجرة » أى بقشرها « فأتاه بذلك فربطه صلى الله عليه وسلم على عضده وقال : اللهم حرم دمه على الكفار ؛ قال : يا رسول الله ليس هذا ما أردت . قال إنك إذا أخذت الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، فأخذته الحمى بعد الإقامة بتبوك أياما ومات بها » أى وهذا هو المشهور .

وروى عن الأدرع الأسلمى وكان فى حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، جئت ليلة أحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجل ميت ، فقتل : هذا عبد الله ذو البجادين ، توفى بالمدينة ، وفرغوا من جهازه وحملوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

الرفقوا به رفق الله بكم ، فإنه كان يحب الله ورسوله ، قال ابن الأثير : وهذا حديث غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه وتقدم .

وعن الحافظ السيوطي رحمه الله : لما ذكر أنه أوقد للنبي صلى الله عليه وسلم الشمع عند دفنه عبد الله ذا البجادين قال : وقد دل ذلك على إباحة استعماله أى الشمع ولا يعد استعماله إسرافاً مع قيام غيره من الأدهان مقامه .

وأقام صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ، وفي سيرة الحافظ الدمياطي عشرين ليلة يصلى ركعتين ولم يجاوز تبوك ، ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن ذلك على تقدير صحته .

قال : وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في مجاوزتها ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه ، فقال يارسول إن للروم جموعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام . وقد دنونا ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً ، وهذا تصريح بأن تبوك لم يقع بها مقاتلة ولا حصل فيها غنيمة ؛ وبه يرد ما ذكره الزمخشري في فضائل العشرة أنه صلى الله عليه وسلم جلس في المسجد يقسم غنائم تبوك ، فدفع لكل واحد سهماً ، ودفع لعلى كرم الله وجهه سهمين ، فقام زائدة بن الأكوع وقال : يارسول الله أوحى نزل من السماء أم أمر من نفسك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أنشدكم الله هل رأيتم في ميمنتكم صاحب الفرس الأغر المحجل والعمامة الخضراء بها ذؤابتان مرخاتين على كفيه بيده حربة قد حمل بها على الميمنة فأزالها ؟ قالوا نعم ، قال : هو جبريل عليه الصلاة والسلام ولأنه أمرنى أن أدفع سهمه لعلى ، فقال زائدة : حينما سهم منهم ، وخطب صلى الله عليه وسلم خطبة فيها « أما بعد ، فإن أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ؛ ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، والنساء حباله الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، والسعيد من وعظ بغيره ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، أستغفر الله لى ولكم » .

وأهدى له صلى الله عليه وسلم بعض أهل الكتاب جبة فدعا بالسكين فسمى الله وقطع وأكل ؛ ثم انصرف صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة وكان في الطريق ماء يخرج من وشل قليل جداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه ، فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا مافيه ؛ فلما أتاه رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقف عليه ، فلم يجد فيه شيئا ، فقال : من سبقنا إلى هذا الماء ؟ فقيل له فلان وفلان وفلان ، فقال أو لم أنهم أن يستقوا منه شيئا حتى آتبه ، ثم لعنهم ودعا عليهم ، ثم نزل صلى الله عليه وسلم فوضع يده تحت الوشل فصار يصب في يده . ما شاء الله أن يصب ثم نضح ومسح بيده ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شاء أن يدعو به فانخرق من الماء وكان له حس كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن بقيتم أو بقي منكم أحد لتسمعن بهذا الوادى وقد أخصب ما بين يديه وما خلفه . أى وهذا خلاف عين تبوك الذى تقدم له صلى الله عليه وسلم فيها ما يشبه هذا ، وقوله لمعاد « يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ههنا مليا جنانا » إلى آخره ، لأن تلك العين كانت بتبوك ، وهذا عند منصرفه من تبوك .

قال : واجتمع رأى من كان معه صلى الله عليه وسلم من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا وقيل أربعة عشر ، وقيل خمسة عشر رجلا على أن ينكثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة التى بين تبوك والمدينة ، فقالوا : إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادى فأخبر الله تعالى رسوله بذلك ، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع ، فسلك الناس بطن الوادى ، وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ، فلما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وسلكوا العقبة ، وأمر صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنهما أن يسوق من خلفه .

وفي الدلائل عن حذيفة قال « كنت ليلة العقبة آخذنا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به وعمار بن ياسر يسوقه أو أنا أسوقه وعمار يقوده » أى يتناوبان ذلك « فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط بعض متاعه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر حذيفة أن يردهم ، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه محجن ، فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال : إليكم إليكم يا أعداء الله فإذا هو يقوم ملثمين » وفي رواية « أنه صلى الله عليه وسلم صرخ بهم فولوا مدبرين ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع على مكرهم به ، فانخطوا من العقبة مسرعين إلى بطن

الوادى واختلطوا بالناس ، فرجع حذيفة يضرب الناقة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم ؟ قال : لا ، كان القوم ملثمين واللبلة مظلمة ..

وعن حمزة بن عمرو الأسلمي رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول « لما سقط متاع النبي صلى الله عليه وسلم وأردت جمعه نور لى فى أصابعى الخمس فأضاعت حتى جمعت ماسقط حتى مابقى من المتاع شىء » وفى لفظ « أن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : عرفت راحلة فلان وراحلة فلان ، قال : هل علمت ما كان من شأنهم ، وما أرادوه ؟ قال لا : قال : إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة فيزحونى فيطرحونى منها ، إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم وسأخبركم بهم واكتاهم ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إليه أسيد بن حضير ؟ فقال يارسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادى ، فقد كان أسهل من سلوك العقبة ؟ فقال : أتدرى ما أراد المنافقون وذكر له القصة ، فقال : يارسول الله قد نزل الناس واجتمعوا ، فركل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا ، فإن أحببت بين بأسمائهم ، والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برء وسهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم ، فقال : يارسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس يظهرون الشهادة ، ثم جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما قالوه وما أجمعوا عليه ، فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر ، فأنزله الله تعالى (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر الآية) ، وأنزل الله تعالى (وهووا بما لم ينالوا) ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم ارمهم بالدبيلة « وهى سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم انتهى . أى وفى لفظ « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلكه » .

وفى الإمتاع أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك صلى إلى نخلة فجاء شخص فمر بينه وبين تلك النخلة بنفسه ، وفى رواية وهو على حمار ، فدعا عليه صلى الله عليه وسلم فقال : قطع صلاتنا قطع الله أثره فصار مقعدا ، وكان يقال لحذيفة رضى الله تعالى عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال حذيفة : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته ، فأوحى إليه وراحلته باركة فقامت تجر زمامها ، فلقيتها فأخذت بزمامها

ووجئت إلى قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتختها ، ثم جلست عندها حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بها ، فقال : من هذا ؟ قلت ، حذيفة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني مسر إليك سرا فلا تذكره ، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، وعد جماعة من المنافقين ، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة رضى الله تعالى عنه فقاده إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر رضى الله تعالى عنه وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم للمسلمين عند انصرافه : إن بالمدينة لأقواما ماسرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال نعم حبسهم العذر ، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بنى أوان محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، أى وقال البكرى : أظن أن الرء سقطت من بين المحزة والواو : أى أروان ، منسوب إلى البئر المشهورة .

وحين نزل صلى الله عليه وسلم أتاه خبر مسجد الضرار ، فأنزله الله تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا) الآية : أى لإضرار أهل قباء ، أى فإن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء حسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا نصلى فى مربط حمار ، لا ، لعمر الله أى لأنه كان لا امرأة كانت تربط فيه حمارها ، ولكننا بنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، فثبت لنا الفضل والزيادة على إخواننا وكان المسلمون فى تلك الناحية كلهم يصلى فى مسجد قباء جماعة ، فلما بنى هذا المسجد فصرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا بذلك المسجد ، فكان به تفريق للؤمنين ، فكانوا يجتمعون فيه ويعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويستهزئون به ، أى ويقال إن أبا عامر الراهب الذى سماه النبي صلى الله عليه وسلم فاسقا هو الأمر لهم ببناؤه ، فقال لهم : ابنوا لى مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة ، وإنهم لما فرغوا من بنائهم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم ويصلى فيه كما صلى فى مسجد قباء ، فهم أن يأتيهم ، فأنزله الله تعالى الآية .

وفى رواية أتوه صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله قد

بيننا مسجدا لدى العلة والحاجة والليله المطيرة ، والليله الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، قال : إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لأنينا كم فصلينا لكم فيه ، فلما قفل من السفر وسألوه إتيان المسجد جاءه صلى الله عليه وسلم اخبر من السماء فأمر جماعة منهم وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهم وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاحرقوه واهدموه على أصحابه ، ففعل به ذلك ، قال : وكان ذلك بين المغرب والعشاء ، ووصل الهدم إلى الأرض ، وأعطاه صلى الله عليه وسلم لثابت بن أرقم رضى الله تعالى عنه يجعله بيتا ، فلم يولد في ذلك البيت مولود قط ، وحفر فيه بقعة فخرج منها الدخان ، ولعل هذا أى جعله بيتا كان بعد أن أمر صلى الله عليه وسلم أن يتخذة محلا لإلقاء الكناسه والجيفة .

وفى الكشاف أن مجمع بن حارثة كان إمامهم فى مسجد الضرار ، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى خلافته أن يأذن لمجمع بن حارثة أن يؤمهم فى مسجدهم ، فقال : لا ولا نعمة ، أليس بامام مسجد الضرار ؟ فقال : يأمر المؤمنين لاتعجل على فوالله لقد صليت بهم والله يعلم إني لا أعلم ما أضمروا فيه ولو علمت ما صليت معهم فيه ، وكنت غلاما قارئا للقرآن ، وكانوا شيوخا لا يقرءون من القرآن شيئا فعذره وصدقه ، وأمره بالصلاة بهم .

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة قال : هذه طابة أسكننيها ربى ، تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولما رأى صلى الله عليه وسلم جبل أحد قال « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه » وتقدم ما فى ذلك فى غزوة أحد ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تلقاه النساء والصبيان يقطن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال البيهقى رحمه الله : وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة من مكة لأنه عند مقدمه المدينة من تبوك ، هذا كلامه ، ولا مانع من تعدد ذلك .
ولما دنا صلى الله عليه وسلم من المدينة تلقاه عامة الذين تحلفوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تكلموا رجلا منهم ، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم ، فأعرض

عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه انتهى .

أى وعن فضالة بن عبيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما غزا غزوة تبوك جهد الظهر جهدا شديدا حتى صاروا يسوقونه ، فشكوا إليه صلى الله عليه وسلم ذلك ورآهم يسوقونه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فى مضيق والناس يمرون فيه فنفخ فى الظهر ، وقال : اللهم احمل عليها فى سبيلك فانك تحمل على القوى والضعيف والرطب واليابس فى البر والبحر ، فزال ما بها من الإعياء ، وما دخلنا إلا وهى تنازعنا أزمته .

وجاء «أن حية عارضتهم فى الطريق عظيمة الخلق ، فانحاز الناس عنها ، فأقبلت حتى وقفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته طويلا والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتزلت الطريق فقامت قائمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلى يستمعون القرآن أى بنخلة عند منصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وتقدم الكلام عليه فرأى عليه من الحق حين ألم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببلده أن يسلم عليه ، وها هو يقرؤكم السلام » فقال الناس : وعليه السلام ورحمة الله .

وقد كان تخلف عنه صلى الله عليه وسلم ، رهط من المنافقين وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، وتخلف عنه أيضا كعب بن مالك وكان من الخزرج ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا من الأوس : فأما المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتدرون فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم ، ووكل سرايرهم إلى الله ، واستغفر لهم ؛ وأما الثلاثة ، فعن كعب بن مالك الخزرجى رضى الله تعالى عنه أنه قال « لما جئته صلى الله عليه وسلم وسأمت عليه تبسم تبسم المغضب وقال لى تعال ، فجئت حتى جلست بين يديه ، فقال : ما خلفك ؟ فصدفته ، وقلت : والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » وفى رواية « قلت : يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كاذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط على فيه ، ولئن حدثتك حديث صدق تجده على فيه ، إنى لأرجو فيه عنو الله ، والله ما كان لى من عذر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فىك ، وقال الرجلان

الآخرا ن وهما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا ممن شهد بدرًا وهما من الأوس مثل قول كعب ، فقال لهما صلى الله عليه وسلم مثل ما قال لكعب ، ونهى صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس ، فأما الرجلان فسكنا في بيوتهما يسكيان ، وأما كعب فكان يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف بالأسواق فلا يكلمه أحد منهم ، قال : ولما طال ذلك على من جفوة الناس تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلى فسلمت عليه ، والله مارد على السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت إليه فنشدته ، فسكت فعدت إليه فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال : وبيننا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ، فطفق : أى جعل الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان أى وهو الحارث بن أبى شمر أو جبلة بن الأيهم ، وكان الكتاب ملفوفا فى قطعة من الحرير ، فإذا فيه : أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضبعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأته : وهذا أيضا من البلاء ، فيممت أى قصدت به النور فسجرت به : أى ألقيته فيها : أى والأنباط قوم يسكنون البطائح بين العراقين : قال حتى إذا مضت أربعون ليلة جاءنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقر بها ، وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى صاحبي : أى وهما هلال بن أمية ومرارة بن الربيع بمثل ذلك ، فقلت لا مرأتى الحق بأهلك فكوفى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا ولكن لا يقربك ، قالت : والله إنه أبه حركة إلى شىء ، والله ما زال ييكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال كعب : فقال لى بعض أهلى . قال فى النور : الظاهر أن القائل له امرأة لأن النساء لم يدخلن فى النهى لأن فى الحديث « ونهى المسلمين » وهذا الخطاب لا يدخل فيه النساء فدل على أن المراد الرجال ، قالت : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدرينى ما يقول لى رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، ثم مضى بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما كان صلاة الفجر صبح تلك الليلة سمعت صوتا فوق جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدا . وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آذن ، أى أعلم بتوبة الله علينا ، فلما جاءنى الرجل الذى سمعت صوته يبشرنى أى وهو حمزة بن عمرو الأوسى نزعته له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله لأأملك غيرهما يومئذ : واستعرت أى من أبى قتادة رضى الله عنه ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقانى الناس فوجا فوجا : أى جماعة جماعة يهتفون بالتوبة ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة : أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان آخى بينهما حين قدم المدينة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر ، فلما جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم قال : أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم عند الله عز وجل ؟ قال : لا بل من عند الله ، فقلت : يا رسول الله إن من توتيتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، أى وكان المبشر للال بن أمية أسعد بن أسد ، وكان المبشر لمرارة بن الربيع سلطان بن سلامه أو سلامة بن وقش .

أى وفى البخارى عن كعب بن مالك رضى الله عنه « فأنزله الله توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقى الثالث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة رضى الله عنها محسنة فى شأنى معينة فى أمرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أم سلمة تيب على كعب ، قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ، قال : إذن يحطمكم الناس فيمنعوك النوم سائر الليل ، حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أعلم بتوبة الله علينا وأنزل الله تعالى (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) إلى قوله (وكونوا مع الصادقين) وقال فى حق من اعتذر له صلى الله عليه وسلم (سيحلفون بالله لكم) إلى قوله (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .

واستشكل نزول الوحي بالقرآن في بيت أم سلمة بقوله صلى الله عليه وسلم في حق عائشة رضي الله عنها « ما نزل على الوحي في فراش امرأة غيرها » وأجاب بعضهم بأنه يجوز أن يكون ما تقدم في حق عائشة كان قبل هذه القصة ، أو أن الذي خصت به عائشة رضي الله تعالى عنها نزول الوحي في خصوص الفراش لا في البيت .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) الآية ، قال : كانوا عشرة أبو لبابة وأصحابه ، تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فلما رجع صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد منهم أبو لبابة ، فلما مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من هؤلاء ؟ قالوا : أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم ، قال صلى الله عليه وسلم : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لانطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا ، فأنزل الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) الآية ، فعند ذلك أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم ، فجاءوا بأموالهم وقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أمرت أن آخذ أموالكم ، فأنزل الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) إلى قوله (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) وهم الذين لم يربطوا أنفسهم بالسوارى ، وتقدم أن أبا لبابة رضي الله عنه ربط نفسه ببعض سوارى المسجد في قصة بنى قريظة ، وعلى هذا فقد تكرر منه ربط نفسه ، وقد ذكره ابن إسحاق فليتأمل ذلك .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم من تبوك وجد عويمرا العجلاني رضي الله عنه امرأته حبلى ، أى وهى خولة بنت عمه قيس ، فلا عن بينهما صلى الله عليه وسلم أى في المسجد بعد العصر وكان قد قذفها بشريك بن سحماء ابن عمه وقال : وجدته على بطنها ، وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمرا وقال له : اتق الله في زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان ، فقال : يا رسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر ، ودعا صلى الله عليه وسلم بالمرأة التى هى خولة وقال لها : اتق الله ولا تخبرينى إلا بما صنعت ، فقالت : يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور ، وإنه يأتي وشريكا يطيل السهر ويتحدث ، حملته الغيرة ، على أن قال ما قال ، فدعا شريكا

وقال له : ما تقول ؟ فقال مثل قول المرأة فأنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم) الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينادى بالصلاة جامعة ، فلما صلى العصر أى وقد نودى بذلك واجتمع الناس ، قال صلى الله عليه وسلم لعويمر : قم ، فقام وقال : أشهد بالله إن خولة لزانية ، وإني لمن الصادقين ، ثم قال فى الثانية : أشهد بالله إنى رأيت شريكا على بطنها ، وإني لمن الصادقين ، ثم قال فى الثالثة : أشهد بالله إنها حبلى من غيرى وإني لمن الصادقين ، ثم قال فى الرابعة : أشهد بالله إنى ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ، ثم قال فى الخامسة : لعنة الله على عويمر يعنى نفسه إن كان من الكاذبين ، ثم أمره صلى الله عليه وسلم بالعود ، وقال لخولة : قومي ، فقامت فقالت : أشهد بالله ما أنا زانية ، وإن عويمرا لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الثانية : أشهد بالله ما رأيت شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الثالثة أشهد بالله إنى لحبلى منه وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الرابعة : أشهد بالله إنه ما رأى قط على فاحشة ، وإنه لمن الكاذبين ثم قالت فى الخامسة : إن غضب الله على خولة تعنى نفسها إن كان من الصادقين ، ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : أى قال له لا سبيل لك عليها وهو دليل لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه القائل إن الفرقة بين الزوجين تحصل بنفس التلاعن .

وما جاء فى بعض الروايات أنه طلقها ثلاثا قبل أن يأمره صلى الله عليه وسلم : أى بعدم الاجتماع بها فهو محمول على أنه ظن أن التلاعن لا يجرمها عليه ، فأراد تخريمها بالطلاق ، فقال : هى طالق ثلاثا ، ومن ثم قال له صلى الله عليه وسلم عقب ذلك لا سبيل لك عليها ، أى لا ملك لك عليها فلا يقع طلاقك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : إن جاء الولد على صفة كذا فعويمر صادق ، وإن جاء على صفة كذا فعويمر كاذب ، فجاء على الصفة التى تصدق عويمرا ، فكان الولد ينسب إلى أمه .

وفى البخارى « أن عويمرا أتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان فقال : كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا : أيقنته فقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ سل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى عاصم النبى صلى الله عليه وسلم فسأله ، فكره النبى صلى الله عليه وسلم تلك المسألة وعابها ، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأه عويمر ، فقال له عاصم : لم تأتئى بخير ، قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة وعابها ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره المسألة التى لا يحتاج

إليها : أى التى لم تكن وقعت لاسيما إن كان فيها هتك ستر مسلم أو مسلمة . قال : فعويمر رضى الله عنه لم يكن وقع له مثل ذلك حينئذ ثم اتفق له وقوع ذلك بعد ، فقال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال : يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا إن تكلم بجلدهموه ، وإن قتله قتلتموه ، أو سكت سكت على غيظ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم افتح ، وجعل يدعو ، فنزلت آية اللعان ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم لعويمر قد أنزل الله فيك وفى صاحبتيك قرآنا فاذهب فائت بها « أى وذلك بعد أن ذكر له عويمر قصته .

وفى رواية « قد قضى فيك وفى امرأتك فتلاعنا » وفيه « أن هلال بن أمية أجد المتخلفين عن تبوك قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء ، أى وكانت حاملا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : البينة » زاد فى رواية : « أو حدى فى ظهره » فقال ، يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا يتكلم يلتمس البينة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول وإلا فحدى فى ظهره ؛ فقال هلال : والذى بعثك بالحق إني لصادق فليزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد ، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام : أى بعد أن قال صلى الله عليه وسلم : اللهم افتح ، أى بين لنا الحكم ، فأنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهن) فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى المرأة فجاءت وتلاعنا ، وعند الخامسة تلكأت ونكصت حتى ظن أنها ترجع ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قال لها : إنها أى اللعنة موجبة : أى للعذاب فى الآخرة ، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، ثم قالت : والله لا أفصح قومي سائر الأيام وقالتها : أى الخامسة ، أى وقال صلى الله عليه وسلم : إن جاءت به كذا فهو لهلال ، وإن جاءت به كذا فهو لشريك ، فجاءت به على الوصف الذى ذكر أنه يكون لشريك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لولا ما سبق من كتاب الله تعالى لمكان لى ولها شأن .

وجهور العلماء على أن سبب نزول آية اللعان قصة هلال بن أمية ، وأنه أول لعان وقع فى الإسلام .

وذهب جمع إلى أن سبب نزولها قصة عويمر العجلاني ، لقوله صلى الله عليه وسلم « قد

أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا» وأجيب بأن معناه لما نزل في قصة هلال ، لأن ذلك عام في جميع الناس .

قال الإمام النووي رحمه الله : ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعا ، فاعلها سألأ في وقتين متقاربين : أى وقال صلى الله عليه وسلم في كل : اللهم افتح ، فنزلت هذه الآية فيهما ، وسبق هلال باللعان ، فكان أول من لاعن .

وفي مسلم « أن سعد بن عبادة قال : يا رسول الله أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلا أيقنته ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، قال ، سعد : بلى والذي أكرمك بالحق » . وفي رواية « كلا والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف » وفي لفظ « لضربته بالسيف من غير صفح » أى بل أضربه بحده ، « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا إلى ما يقول سيدكم » وليس ذلك من سعد رضى الله تعالى عنه ردا عليه صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو إخبار عن حاله ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « إنه لغير ، وأنا أغير منه ، والله أغير منى » فأخبر صلى الله عليه وسلم عن سعد بأنه غير ، وأنه صلى الله عليه وسلم أغير منه ، وأن الله أغير منه صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم جاء في الحديث ، « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك وعد الجنة ليكثر سؤال العباد إياها والثناء منهم عليه » .

وفي تفسير الفخر الرازى رحمه الله « لا شخص أغير من الله » وبه استدل على جواز إطلاق الشخص على الله تعالى .

وفي الحلية لأبى نعيم رحمه الله عن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر أرأيت لو وجدت مع أم رومان رجلا ما كنت صانعا ؟ قال : كنت فاعلا به شرا ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عمر أرأيت لو وجدت رجلا ، أى مع زوجتك ما كنت صانعا ؟ قال : كنت والله قاتله ، فقرا صلى الله عليه وسلم (والذين يرمون أزواجهم) الآية » .

وفي الأم لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه عن سعيد بن المسيب رضى الله تعالى عنه « أن رجلا من أهل الشام وجد مع امرأته رجلا فقتله ، فرفع الأمر إلى معاوية رضى الله تعالى عنه فأشكل على معاوية القضاء فيها فكتب . معاوية إلى أبى موسى الأشعري رضى الله

تعالى عنه أن يسأل عن ذلك على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فاستخبر على أبا موسى عن القصة ، فأخبره أبو موسى أن معاوية كتب إليه في ذلك ، فقال على كرم الله وجهه : أنا أبو الحسن إن لم يأت بأربعة شهداء قتلناه ، فلي تأمل .

وفي الخصاص الكبرى أن في غزوة تبوك اجتمع صلى الله عليه وسلم باليأس . فعرف أنس رضي الله تعالى عنه : سمعنا صوتا يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم المرحومة المغفور لها المستجاب لها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أنس انظر ما هذا الصوت ؟ قال أنس رضي الله تعالى عنه : فدخلت الجبل ، فإذا رجل عليه ثياب بيض أبيض الرأس واللحية ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما رأيته قال : أنت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم ، قال : ارجع إليه واقراه السلام ، وقل له : أخوك إلياس يريد أن يلقاك ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فجاء صلى الله عليه وسلم يمشي وأنا معه ، حتى إذا كنت منه قريبا تقدم النبي صلى الله عليه وسلم وتأخرت أنا فتحدثنا طويلا فنزل عليهما من السماء شيء شبه السفرة ودعاني فأكلت معهما قليلا فإذا فيها كمأة ورمان وحوت وتمر وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ثم جاءت سحابة فاحتملته وأنا أنظر إلى بياض ثوبه فيها . قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه ، وأطال في بيان ذلك : والعجب من الحاكم كيف يستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدركه به على الحاكم .

وفي النور : لم ينجيء في حديث صحيح اجتماعه صلى الله عليه وسلم باليأس . وفي الجامع الصغير إلياس أخو الخضر . وفي تفسير البغوي : أربعة من الأنبياء أحياء إلى يوم البعث اثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس ، أي وإلياس في البر والخضر في البحر ، يجتمعان كل ليلة على ردم ذى القرنين بحرسانه . وأكلهما الكرفس والكمأة ، واثنان في السماء إدريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام .

وعن ابن إسحق الخضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل ، أي وقد يقال : لا ينافي ذلك ما تقدم أنهما أخوان ، لجواز أن يكونا أخوين لأم .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : لم يتقل بسند صحيح ولا حسن تسكن إليه النفس أن الخضر عليه الصلاة والسلام اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام ، ولو

كان حيا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله اجتماعه به صلى الله عليه وسلم .

وفي الخصائص الكبرى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال « خرجت ليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم أحمل الطهور ، فسمع قائلا يقول : اللهم أعني على ماينجيني مما خوفتني منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأنس ضع الطهور وأت هذاقل له : ادع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعينه الله على مابعثه به ، وادع لأمته أن يأخذوا ماأنام به من الحق ، فأتيته فقلت له : فقال مرحبا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أناكنت أحق أن آتبه ، اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام ، وقل له أخوك الخضر يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن الله فضلك على النبيين كما فضل شهر رمضان على الشهور ، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام ، فلما وليت سمعته يقول : اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها قال بعضهم : وهذا حديث واه منكر الإسناد سقيم المتن ، ولم يرسل الخضر عليه الصلاة والسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يلقه .

قال السيوطي في اللآلئ قلت : قد أخرج هذا الحديث الطبراني في الأوسط . وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الإصابة : قد جاء من وجهين . وفي الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه جمعت له الشريعة والحقيقة ، ولم يكن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أحدهما بدليل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، والمراد بالشريعة الحكم بالظاهر ، وبالحقيقة الحكم بالباطن .

وقد نص العلماء على أن غالب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا ليحكموا بالظاهر دون ما اطلعوا عليه من بواطن الأمور وحقائقها ، ومن ثم أنكروا موسى عليه الصلاة والسلام على الخضر صلى الله عليه وسلم في قتله الغلام بقوله (لقد جئت شيئا نكرا) فقال له الخضر عليه الصلاة والسلام (وما فعلته عن أمري) ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام : إني على علم من عند الله لا ينبغي لك أن تعلمه ، أى تعمل به لأنك لست مأمورا بالعمل به ، وأنت على علم من عند الله لا ينبغي لى أن أعلمه : أى لا ينبغي لى أن أعمل به ، لأنى لست مأمورا بالعمل به .

وفي تفسير أبي حيان : والجمهور على أن الخضر نبي وكان علمه معرفة بواطن أمور

أوحيت إليه ، أى ليعمل بها ، وعلم موسى عليه الصلاة والسلام الحكم بالظاهر ، أى دون الحكم بالباطن .

ونبينا صلى الله عليه وسلم حكم بالظاهر فى أغلب أحواله ، وحكم بالباطن : أى فى بعضها ، بدليل قتله صلى الله عليه وسلم للسارق وللمصلى لما اطلع على باطن أمرهما وعلم منهما ما يوجب القتل .

وقد ذكر بعض السلف رحمه الله أن الخضر إلى الآن ينفذ الحكم بالحقيقة ، وأن الذين يموتون فجأة هو الذى يقتلهم ، فإن صح ذلك فهو فى هذه الأمة بطريق النيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام صار من أتباعه صلى الله عليه وسلم ، كما أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما ينزل يحكم بشريعته نيابة عنه لأنه من أتباعه .

وفيه أن عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع به صلى الله عليه وسلم اجتماعاً متعارفاً بيت المقدس فهو صحابى . وجاء فى حديث مطعون فيه : أى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام يجتمعان فى كل عام : أى فى الموسم ، ويخلق كل منهما رأس صاحبه ويفترقان عن هذه الكلمات « بسم الله ، ماشاء الله لايسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، ماشاء الله ما يكون من نعمة فمن الله ، ماشاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله » . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : من قالها حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات عوفى من السرقة والحرق والغرق ومن السلطان ، ومن الشيطان ، ومن الحية والعقرب .

وعن على كرم الله وجهه : مسكن الخضر بيت المقدس فيما بين باب الرحمة إلى باب الأسباط ، والله اعلم .

باب سراياه صلى الله عليه وسلم وبعرته

لا يخفى أن ما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له غزوة، وما خلا عنه صلى الله عليه وسلم يقال له سرية إن كان طائفة اثنين فأكثر، فإن كان واحداً قيل له بعث، وربما سموا ببعض السرايا غزوة كما في مؤتة، حيث قالوا غزوة مؤتة، وكما في سرية الرجيع حيث عبر عنها السيوطي في الخصائص بغزوة الرجيع، وعن سرية ذات السلاسل بغزوة ذات السلاسل، وعن سرية سيف البحر بغزوة سيف البحر، وربما سموا الواحد سرية وهو في الأصل كثير، وربما سموا الاثنين فأكثر بعثاً، ومنه قول الأصيل كاببخاري بعث الرجيع، وظاهر كلامهم أنه لا فرق في ذلك بين أن يكون لإرسال ذلك لقتال، أو لغير قتال كتجسس الأخبار، أو لتعليمهم الشرائع كما في بئر معونة والرجيع، أو للتجارة كما في سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما حيث ذهب مع جمع بالتجارة للشام فلقبوه بنو فزارة فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم كما سيأتي.

والسرية في الأصل الطائفة من الجيش تخرج منه، ثم تعود إليه خرجت ليلاً أو نهاراً، وقيل السرية هي التي تخرج ليلاً. والسارية هي التي تخرج نهاراً، وهي من مائة إلى خمسمائة، وقيل إلى أربعمائة: أي وفي القاموس: السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة، وعليه فإدراك ذلك لا يقال له سرية، فإزاد على الثلثمائة أو أربعمائة إلى ثمانمائة يقال له بفسر بالنون، فإن زاد على ذلك إلى أربعة آلاف قيل له جيش؛ أي وقيل الجيش من ألف إلى أربعة آلاف، فإن زاد على ذلك قيل له جيش جرار أي إلى اثني عشر ألفاً.

والبعث في الأصل: الطائفة تخرج من السرية، ثم تعود إليها؛ وهو من عشرة إلى أربعين يقال له حنيفة، ومن أربعين إلى ثلثمائة يقال له معتقب، وما زاد على ذلك يسمى حزة: قال بعضهم: والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، وما هزم قوم بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة إذا صدقوا وصبروا» أي فلا يرد انهزام القدر المذكور يوم حنين. قال في الأصل: وكانت سراياه صلى الله

عليه وسلم التي بعث بها سبعا وأربعين سرية ، وهو في ذلك موافق لما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب . قال الشمس الشامي : والذي وقفت عليه من السرايا والبعوث لغير الزكاة يزيد على السبعين ا هـ .

أى وكان صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا بسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، والوليد الصبي ، أى مالم يقاتل كالنساء وإلا قتلوا . وفي رواية « لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة » ، وهذا عند العمدة ، فلا ينافى أنه يجوز الإغارة على المشركين ليلا وإن لزم على ذلك قتل الصبيان والنساء والشيخ . فقد روى الشيخان « سئل صلى الله عليه وسلم عن المشركين يبيتون ، أى يغار عليهم ليلا فيصيبيون من نساءهم وذرائعهم ؟ فقال : هم منهم » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ولا سمع ولا طاعة في معصية الله » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن تخلفه عن تلك السرايا ويقول : « والذي نفسى بيده لولا أن رجلا من المؤمنين لا تطيب نفوسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحلهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزوا في سبيل الله ، والذي نفسى بيده ، لو ددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ، ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل » .

ومن جملة وصيته صلى الله عليه وسلم لمن يوليه على سرية « وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن هم أبوا فاسألم الجزية ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » . ومن جملة قوله صلى الله عليه وسلم للسرايا « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » ولما بعث صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى رضى الله تعالى عنهما إلى اليمن قال لهما « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلعا » .

سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة ، ثلاثين رجلا من المهاجرين ، قبيل ومن الأنصار ، وفيه نظر لأنه صلى الله عليه وسلم لم يبعث من الأنصار إلا بعد أن غزا بهم بدرأ ، أى وذلك في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة ، وعمد له صلى الله

عليه وسلم لواء أبيض . وهو أول لواء عقد في الإسلام ، حمله أبو مرثد بفتح الميم وإسكان
الراء ثم مثلثة مفتوحة : حليف حمزة رضى الله تعالى عنه ، ليعترض عيرا لقريش جاءت
من الشام تريد مكة ، وفيها أبو جهل لعنه الله في ثلثمائة رجل ، وقيل في مائة وثلاثين ،
فصار رضى الله تعالى عنه إلى أن وصل سيف البحر ، أى بكسر السين المهملة وإسكان المثناة
تحت ثم فاء : ساحله من ناحية العيص ، أرض من جهينة فصادف العير هناك ، فلما تصافوا
للقتل حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان حليفا للفريقين ، فأطاعوه وانصرفوا ،
ولم يقع بينهم قتال . ولما عاد حمزة رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأخبره الخبر ، أى بأن مجديا حجز بينهم وأنهم رأوا منه نصفه ، قال صلى الله عليه وسلم
في مجدى : إنه ميمون النقية : أى مبارك النفس ، مبارك الأمر . وقال سعيد أورشيد الأمر :
أى أموره ناجحة ، ولم يقع له إسلام . أى وفي الإمتاع : وقدم رهط مجدى على النبي صلى الله
عليه وسلم فكساهم .

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس ثمانية أشهر من الهجرة عبيدة بن الحارث
رضى الله تعالى عنه في ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين ، منهم سعد بن أبي وقاص
رضى الله تعالى عنه ، وعقد له لواء أبيض ، وحمله مسطح بن أثانة رضى الله تعالى عنه ليعترض
عيرا لقريش ، وكان رئيسهم أبا سفيان . وقيل عكرمة بن أبي جهل . وقيل مكرز بن حفص
في مائتي رجل ، فوافوا العير ببطن رايغ : أى ويقال له ودان ، فلم يكن بينهم إلا المناوشة
برمى السهام ، أى فلم يسلوا السيف ، ولم يصطفوا للقتال . وكان أول من رمى من المسلمين
سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه ، فكان سهمه أول سهم رمى به في الإسلام ، أى كما
أن سيف الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه أول سيف سل في الإسلام . ففي كلام ابن الجوزى :
أول من سل سيفا في سبيل الله الزبير بن العوام .

وقد ذكر أن سعدا رضى الله تعالى عنه تقدم أصحابه ونثر كنانته ، وكان فيها عشرون
سهما مامنهما سهم إلا ويخرج إنسانا أو دابة ، أى لو رمى به لصدق رميه وشدة ساعده
رضى الله تعالى عنه ، ثم انصرف الفريقان ، فإن المشركين ظنوا أن للمسلمين مددا فخافوا
وانهزموا ، ولم يتبعهم المسلمون ، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو ، أى الذى

يقال له ابن الأسود ، وعيينة بن غزوان ، فإنهما كانا مسلمين ولكنهما خرجا مع المشركين ليتوصلا بهم إلى المسلمين ، فعلم أن سرية عبيدة بن الحارث رضى الله تعالى عنه بعد سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه وقيل بل هي قبلها ، وكلام الأصل يشعر به ، ويؤيده قول ابن إسحاق كانت راية عبيدة بن الحارث فيما بلغنا أول راية عقدت في الإسلام . قال بعضهم : ومنشأ هذا الاختلاف أن بعث حمزة وبعث عبيدة رضى الله تعالى عنهما كانا معا ، أى في يوم واحد في محل واحد ، أى وشيعتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا كما في ذخائر العقبى فاشتبه الأمر ، فمن قائل يقول : إن راية حمزة رضى الله تعالى عنه أول راية عقدت في الإسلام ، وأن بعثه أول البعوث ، ومن قائل يقول : إن راية عبيدة رضى الله تعالى عنه أول راية عقدت في الإسلام ، وأن بعثه أول البعوث ، لكن يشكل على ذلك أن خروج حمزة كان على رأس سبعة أشهر من الهجرة كما تقدم ، وخروج عبيدة كان على رأس ثمانية أشهر كما تقدم ، وبما ذكر أن بعثهما معا إلى آخره يرد ما أجاب به بعضهم عن هذا الإشكال ، بأنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم عقد رايتهما معا ، وتأخر خروج عبيدة إلى رأس الثمانية أشهر لأمر اقتضى ذلك هذا كلامه ، إلا أن يقال يجوز أن يكون المراد ببعثهما معا أمرهما بالخروج ، وأن المراد بتشيعهما جميعا أن كلا منهما وقع له التشيع منه صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا يقتضى أن يكون ذلك في وقت واحد تأمل .

وفي هذا إطلاق الراية على اللواء ، وهو الموافق لما صرح به جماعة من أهل اللغة أنهما مترادفان ، وتقدم أنه لم يحدث له اسم الراية إلا في خيبر ، أى وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية ، وما هنا يرده .

وفي كلام بعضهم كانت رايته صلى الله عليه وسلم سوداء ولواؤه أبيض كما في حديث ابن عباس وأبي هريرة رضى الله تعالى عنهما . زاد أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : مكتوب فيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

سرية سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه

إلى الخرار

بفتح الخاء المعجمة وراءين مهملتين: وفي النور بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء الأولى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس تسعة أشهر من الهجرة سعد بن أبي وقاص حتى عشرين من المهاجرين ، أى وقيل ثمانية وعقد له لواء أبيض ، حمله المقداد بن عمرو قال : والخرار واد يتوصل منه إلى الجحفة ، وقد عهد صلى الله عليه وسلم إليه أن لا يجاوزه ليعترض عيرا لقريش تمر بهم فخرجوا يمشون على أقدامهم يكونون النهار ويسرون الليل حتى صبحوا المكان المذكور في صبح خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس ، فانصرفوا راجعين إلى المدينة اه .

وقد ذكر ابن عبد البر وابن حزم هذه السرية بعد بدر الأولى . وفي السيرة الشامية « الباب السادس في سرية سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه إلى الخرار » وساق ماتقدم وقال بعده « الباب السابع في سرية سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه » .

روى الإمام أحمد عنه قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءت جهينة فقالوا له : إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وقومنا ، فأوثق لهم فأسلموا ، وبعثنا صلى الله عليه وسلم ولا نكون مائة ، وكان ذلك في رجب أى من السنة الثانية ، وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغير على حى من كنانة ، فأغرنا عليهم ، فكانوا كثيرا فلجأنا إلى جهينة فنعوننا ، وقالوا لم تقاتلون في الشهر الحرام ؟ فقال بعضنا لبعض : ما ترون ؟ فقال بعضنا نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره ، وقال بعض آخر لا نقيم ههنا ، وقلت أنا فى أناس معى : بل نأتى عير قريش فنقتطمها ، فانطلقنا إلى العير وانطلق بعض أصحابنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان محمرا وجهه ، فقال : جئتم متفرقين وإنما أهلك من قبلكم الفرقة ، لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش ، فبعث علينا عبد الله بن جحش أميرا فأمره علينا لنذهب إلى جهة نخلة بين مكة والطائف » .

سرية عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنه

إلى بطن نخلة

قال : لما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء الأخيرة ، قال لعبد الله بن جحش وواف مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجهها ، فوافاه الصبح ومعه قوسه وجعبته ودرقته ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح وجدته واقفا عند بابه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب ، فدخل عليه ، فأمره فكتب كتابا ثم دعا عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنه ، فدفع إليه الكتاب ، وقال له : قد استعملتك على هؤلاء نفر ٥٠ . أى وكان قبل ذلك بعث عليهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، فلما ذهب لينطلق بكى صبيانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث عليهم عبد الله وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين ، أى فهو أول من تسمى فى الإسلام بأمر المؤمنين ثم بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ولا ينافى ذلك قول بعضهم : أول من تسمى فى الإسلام بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، لأن المراد أول من تسمى بذلك من الخلفاء أو أن هذا أمير جميع المؤمنين وذاك أمير من معه من المؤمنين خاصة .

فقد جاء أن عمر رضى الله تعالى عنه كان يكتب أولا : من خليفة أبى بكر ، فاتفق أن عمر رضى الله تعالى عنه أرسل إلى عامل العراق أن يبعث إليه برجلين جلدتين يسألهما عن أهل العراق ، فبعث إليه بعبد بن ربيعة وعدى بن حاتم الطائى ، فقدمتا المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاصى رضى الله تعالى عنه ، فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال عمرو : أنتم والله أصبتما اسمه ، فدخل عليه عمرو وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ما بالك فى هذا الاسم ؟ فأخبره الخبر وقال : أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فأول من سماه بذلك عبد بن ربيعة وعدى بن حاتم . وقيل أول من سماه بذلك المغيرة بن شعبة ، وحينئذ صار يكتب : من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، فقد كتب رضى الله تعالى عنه بذلك إلى نيل مصر ؛ فإن عمرو بن العاصى رضى الله تعالى عنه لما فتح مصر ودخل شهر يؤنة من شهور العجم دخل إليه أهل مصر وقالوا له : أيها الأمير إذا كان أحد عشر ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جاريتك بكر بين أبويها وجعلنا عليها من الثياب والحلى ما يكون ، ثم

ألقيناها في هذا النيل ، أى ليجرى ، فقال لهم عمرو رضى الله تعالى عنه : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله ، فأقاموا مدة والنيل لا يجرى لا قليلا ولا كثيرا حتى هم أهل مصر بالجللاء منها ، فكتب عمرو بذلك إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إليه كتابا وكتب بطاقة في داخل الكتاب ، وقال في الكتاب : قد بعثت إليك بطاقة في داخل الكتاب فألقها في نيل مصر ، فلما قدم الكتاب أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد : فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله هو الذى يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة ، فقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم .

وكان أولئك النفر ثمانية : أى وقيل اثني عشر من المهاجرين . يعقب كل اثنين منهم بعيرا منهم سعد بن أبى وقاص وعيينة بن غزوان ، وكانا يعقبان بعيرا ، ومنهم واقد ابن عبد الله ، ومنهم عكاشة بن محصن ، وأمر صلى الله عليه وسلم عبد الله أن لا ينظر في ذلك الكتاب حتى يسير يومين ، أى قبل مكة ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه أى على السير معه . أى وقد عقد له صلى الله عليه وسلم راية .

قال ابن الجوزى : أول راية عقدت في الإسلام راية عبد الله بن جمحش ، أى بناء على أن الراية غير اللواء ، وحينئذ تعارض القول بترادفهما والقول بأن اسم الراية إنما وجد في خبير .

قال ابن الجوزى رحمه الله : وهو أول أمير أمر في الإسلام . وفيه أنه مخالف لما سبق . إلا أن يريد أول من سمى أمير المؤمنين ، فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب ، فإذا فيه إذا نظرت في كتابي هذا فأت حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، ولا تكره أحدا من أصحابك على السير معك ، أى ولفظ الكتاب : سر بسم الله وبركاته ولا تكرهن أحدا من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى حتى تأتى بطن نخلة فترصد غير قريش ، وتعلم لنا أخبارهم ، فلما قرأ الكتاب على أصحابه قالوا : نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك ، فسر على بركة الله تعالى ، أى وجعل البخارى دفعه صلى الله عليه وسلم الكتاب لعبد الله ليقراه ويعمل بما فيه دليلا على صحة الرواية بالمناولة ، وهى أن الشيخ يدفع لتلميذه كتابا ، ويأذن له أن يحدث عنه بما فيه .

ومن قال بصحة المناولة سيدنا مالك بن أنس رضى الله عنه . روى إسماعيل بن صالح عنه أنه أخرج لهم كتباً مشدودة وقال لهم : هذه كتبى صححتها ورويتها فاروها عنى ، فقال له إسماعيل بن صالح : نقول : حدثنا مالك؟ قال نعم .

وفى لفظ أن عيد الله رضى الله عنه لما قرأ الكتاب قال سمعاً وطاعة ، أى بعد أن استرجع ثم أعلم أصحابه ، وقال لهم من كان يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا ففاض إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففضوا لم يتخلف منهم أحد حتى إذا كانوا ببحران بفتح الموحددة وبضمها وسكون الحاء المهمله : موضع أضهل سعد بن أبي وقاص وعيينة بن غزوان بغيرهما فتخلفا فى طلبه ومضى عبد الله ومن عداهما معه حتى نزل بنخلة فمرت عبر القريش : أى تحمل زيبيا وأدما : أى جلودا من الطائف وأمتعة لتجارة ، فى تلك العير عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن المغيرة ، وأخوه نوفل والحكم بن كيسان ، ونزلوا قريبا من عبد الله وأصحابه وتخوفوا منهم ، فأشرف عليهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه : أى وتراءى لهم ليظنوا أنهم عمارا فيطمثنوا ، أى وذلك بإرشاد عبد الله بن جحش رضى الله عنه ، فإنه قال لهم : إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم فليعرض لهم ، فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرف عليهم ، فلما رأوا رأسه مخلوقا قالوا عمار ، أى هؤلاء قوم معتمرون لا بأس عليكم منهم ، وكان ذلك آخر يوم من شهر رجب ، أى وقيل أول يوم منه .

ويدل للأول ما جاء أن عبد الله تشاور مع أصحابه فيهم ، فقال بعضهم لبعض : إن تركتموهم فى هذه الليلة دخلوا الحرم فقد تمنعوا منكم به ، وإن قتلتموهم فى هذا اليوم تقتلوهم فى الشهر الحرام ، أى وكان ذلك قبل أن يحل القتال فى الشهر الحرام ، فإن تحريم القتال فى الأشهر الحرم كان معمولا به من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، جعل الله ذلك مصلحة لأهل مكة ، فإن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما دعا لنزولته بمكة أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوى إليهم لمصالحتهم ومعاشهم ، جعل الأشهر الحرم أربعة : ثلاثة سردا وواحدا فردا وهو رجب ، أما الثلاثة فليأمن الحجاج فيها واردين لمسكة وصادرين عنها ، شهرا قبل شهر الحج ، وشهرا آخر بعده قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ثم يرجع ، وأما رجب فكان للعمار يأمنون فيه مقبلين ومدبرين وراجعين

نصف الشهر للإقبال ونصفه الآخر للإياب ، لأن العمرة لا تكون من أقاصي بلاد العرب كالحج ، وأقصى منازل بلاد المعتمرين خمسة عشر يوما ، ذكره السهيلي .

ولم يزل تحريم القتال في تلك الأشهر الحرم إلى صدر الإسلام ، وذلك قبل نزول براءة ؛ فإن براءة كان فيها نبذ العهد العام ، وهو أن لا يصد أحد عن البيت جاءه ، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم ، وأن لا يبيع مشرك ، وإباحة القتال في الأشهر الحرم ، أى مع بقاء حرمتها ، فإنها لم تنسخ ، قال تعالى (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) فتعظيم حرمتها باقية لم تنسخ ، وإنما نسخ حرمة القتال فيها ، خلافا لما نقل عن عطاء من أن حرمة القتال فيها باقية لم تنسخ .

ويدل للثاني ما في الكشاف وكان ذلك اليوم أول يوم من رجب وهم يظنون أنه من جمادى الآخرة ، فتردد القوم وهابوا الإقدام ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، ثم أجمع رأيهم على قتل من لم يقدروا على أسره ، أى وأخذ ما معهم فقتلوا عمرو بن الحضرمي ، رماه واقد بن عبد الله بسهم فهو أول قتيل قتله المسلمون ، وأسروا عثمان والحكم فهما أول أسير أسره المسلمون ، وأقلت بفتح الهمزة باقى القوم ، أى وجاء الخبر لأهل مكة فلم يمكنهم الطلب للدخول شهر رجب ، أى بناء على ما تقدم ، واستاق عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم العير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أول غنيمة غنمها المسلمون فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، وأبى أن يستلم العير والأسيرين ، فسقط بالبناء للمجهول في أيديهم : أى ندموا وعنفهم لإخوانهم من المسلمين ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ؟ سفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأرأى فيه الرجال ، أى وصارت قريش تعير بذلك من بمكة من المسلمين ، يقولون لهم : يا معشر الصيابة قد استحلتم الشهر الحرام ، وقاتلتم فيه ، وزادوا في التشنيع والتعير وصارت اليهود تتفاخر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون القتيل عمرو الحضرمي والقاتل واقد ، فيه عمرت بفتح العين المهملة وكسر الميم الحرب : أى حضرت الحرب ووقدت الحرب ، فكان ذلك الفأل عليهم لعنهم الله وضاق الأمر على عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم ، فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) أى عظيم الوزر (وصد عن سبيل الله) أى ومنع للناس عن دين الله (وكفر به) أى بالله (والمسجد الحرام) أى ومنع للناس عن مكة (وإخراج أهله منه) وهم

النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين منه من (أكبر عند الله) أعظم وزرا (والفتنة) الشرك : أى الذى أنتم عليه ، أو حملكم من أسلم على الكفر بالتعذيب له (أكبر من القتل) لكم فيه : أى صدهم لكم عن المسجد الحرام ، وكفرهم بالله وإخراجكم من مكة وأنتم أهلها ، وفتنة من أسلم بحيث يرتد عن الإسلام ويرجع إلى الكفر أكبر من قتل من قتلتم منهم ، ففرج عن عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم ، أى وهذا كما ترى يدل على أنهم قتلوا مع علمهم بأن ذلك اليوم من رجب ، هو يضعف ما تقدم عن الكشاف الموافق لما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أصحاب محمد كانوا يظنون أن ذلك اليوم آخر جمادى ، وكان أول رجب ولم يشعروا ، أى لأن جمادى يجوز أن يكون ناقصا . وفيه أنه لو كان الأمر كذلك لاعتذر عبد الله وأصحابه رضى الله تعالى عنهم بذلك .

وجاء أن المسلمين اختلفوا فى ذلك اليوم ، فمن قائل منهم هذه غرة من عدوكم وغنم رزقتموه ، ولا ندرى أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا ؟ وقال قائل منهم : لا نعلم اليوم إلا من الشهر الحرام ، ولا نرى أن تستحلوه لطمع اشتمتم عليه ؛ ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم عقل ابن الحضرمي أى أعطى دينه ؛ ويضعفه ما تقدم فى غزوة بدر من أن أخاه طلب ثاره وكان ذلك سببا لإثارة الحرب وأن عتبة بن ربيعة أراد أن يتحمل دينه ويتحمل جميع ما أخذ من العير وأن تكف قريش عن القتال ، وحينئذ تسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين ؛ وطمع عبد الله وأصحابه فى حصول الأجر ؛ وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزله الله تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) أى فقد أثبت لهم الجهاد فى سبيل الله . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم ذلك العير وخمسه . أى جعل خمسة لله وأربعة أخماسه للجيش .

وقيل تركه حتى يرجع من بدر وخمسه مع غنائم بدر ، وقيل إن عبد الله هو الذى قسمها ، أى فإنه رضى الله عنه ، قال لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما غنمنا الخمس فأخرج خمس ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أى عزلها له ، وقسم سائرها بين أصحابه رضى الله عنهم . وحينئذ يكون ما تقدم من قوله وأبى أن يتسلم العير ، الظاهر فى أن العير لم تقسم ، المراد خمس تلك العير ، وهو أول غنيمة خست فى الإسلام ؛ أى قبل فرضه ، ثم فرض على ما صنع عبد الله رضى الله عنه ، ويوافق ذلك قول ابن عبد البر

في الاستيعاب .. وعبد الله بن جحش أول من سنّ الخمس من الغنيمة للنبي صلى الله عليه وسلم من قبل أن يفرض الله الخمس ، وأنزل الله تعالى بعد ذلك آية الخمس (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) الآية ، وإنما كان قبل ذلك المربع ، هذا كلامه ، والمربع : ربع الغنيمة ، وتقدم أن النبي والغنيمة يطلق أحدهما على الآخر .

وفي كلام فقهاءنا أن الغنيمة كانت في صدر الإسلام له صلى الله عليه وسلم خاصة ، ثم نسخ ذلك بالتخمينس .

وبعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء عثمان والحكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعني سعد بن أبي وقاص وعيينة ابن غزوان ، فإننا نخشاكم عليهما ، فإن قتلتموهما تقتل صاحبينا ، فإن سعدا وعيينة رضى الله عنهما لم يحضرا الواقعة بسبب التماسهما بعيرهما وقد مكنا في طلبه أياما ثم قدما ، فأفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسيرين : أى كل واحد بأربعين أوقية ، فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا .

أى وعن المقداد : أراد أميرنا يعني عبد الله بن جحش أن يقتل الحكم ، فقلت : دعه فقدم به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما عثمان فلاحق بمكة فأت بها كافرا بعث وفي الأصل تبعا لشيخه الحافظ الدمياطي .

سرية عمير بن عدي الخطمي الضريير

إلى عصماء

أى بالمد : بنت مروان اليهودية ، وكانت متزوجة في بني خطمة ، وكان زوجها مرثد بن زيد بن حصين الأنصارى أسلم بعد ذلك رضى الله عنه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمير بن عدي الخطمي ، وهو أول من أسلم من بني خطمة إلى قتل عصماء بنت مروان ، لأنها كانت تسب الإسلام وتؤذى النبي صلى الله عليه وسلم في شعرها ، وتخرّص عليه ، فجاءها عمير في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحوّلها نقر من ولدها نيام وعلى صدرها صبي ترضعه ففسها بيده ونهى الصبي عن صدرها ، ووضع سيفه على صدرها وتحامل غلبه حتى أنفذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبي

صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقتلت ابنة مروان ؟ فقال : نعم ، فهل علىّ في ذلك من شيء ؟ فقال : لا ينتطح فيها عزان : أى الأمر في قتلها حين لا يعارض فيه معارض ، وهذه الكلمة من جملة الكلمات التي لم تسمع إلا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع غالبها في النور في هذا المحل ، قال : وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم عميرا هذا بالبصير ، لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : انظروا إلى هذا الأعمى الذى يسرى في طاعة الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقل الأعمى ، ولكن البصير .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما قال : ألا رجل يكفيننا هذه ؟ يعنى عصماء بنت مروان ، فقال عمير بن عدى : أنا لها ، فأناها وكانت تماره : أى تبيع التمر ، فقال لها : أعندك أجود من هذا التمر ، لتمر بين يديها ؟ قالت نعم ، فدخلت إلى البيت وانكبث لتأخذ شيئا من التمر ، فالتفت يمينا وشمالا فلم يشعر بأحد ، فضرب رأسها حتى قتلها ، فليتأمل هذا مع ما قبله .

ثم إن عميرا أتى المسجد فصلى الصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف صلى الله عليه وسلم من صلاته نظر إليه ، فقال له : أقتلت ابنة مروان ؟ قال نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أحببتكم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله فانظروا إلى عمير ، فلما رجع عمير إلى منزل بنى خطمة وجد بنينا في جماعة يدفنونها ، فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال : نعم فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون : والذى نفسى بيده لو قتلتم بأجمعكم ما قالت لأضربنكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم ، فيومئذ ظهر الإسلام في بنى خطمة ؛ وكان يخفى إسلامه من أسلم منهم ، لكن جاء في رواية أنها كانت تلقى خرق الحيز في مسجد بنى خطمة فليتأمل .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما أهدر دم عصماء نذر عمير إن رد الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بدر إلى المدينة سالما ليقتلنها ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر إلى المدينة عدا عليها عمير رضى الله تعالى عنه فقتلها . وفي كلام السهيلي رحمه الله أن الذى قتل عصماء بعلمها .

وقد يقال : لا محالة لأن عميرا رضى الله عنه جاز أن يكون كان بعلاها قبل مرثد بن زياد .

وذكر في الاستيعاب في ترجمة عمير رضى الله عنه أنه قتل أخته لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمها .

أقول : الظاهر أنها غير عصماء ؛ لأن نسب عصماء غير نسب عدى ، إلا أن يقال إنها أخته لأمه ويبعده ما تقدم من أنه كان زوجها لها ، والله أعلم * وبعث * وفي الأصل تبعاً لشيخه الحافظ الدمياطى .

سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك

أى والعفك بفتح العين المهملة وبالفاء وبالكاف : أى الحمق أى أبى الحمق اليهودى ، قال صلى الله عليه وسلم يوماً « من لى بهذا الخبيث ، يعنى أبا عفك » أى من ينتدب إلى قتله وكان شيخاً كبيراً قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وكان يحرض الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبه فى شعر له ، فقال سالم بن عمير رضى الله عنه ، أى وهو أحد البكائين ، وقد شهد بدرًا : على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه فطلب له غرة : أى غفلة ، فلما كانت ليلة صائفة أى شديدة الحر نام أبو عفك بقاء بيته ، أى خارجه ، فعلم بذلك سالم رضى الله عنه فأقبل نحوه فوضع السيف على كبده ثم تحامل حتى خش السيف فى الفراش وصاح عدو الله ، فتركه سالم رضى الله عنه وذهب ، فقام إلى أبى عفك ناس من أصحابه فاحتملوه وأدخلوه داخل بيته فأتى عدو الله ، وابن إسحاق قدم هذا البعث على بعث عمير :

سرية عبد الله بن مسامة رضى الله عنه

إلى كعب بن الأشرف الأوسى

أى فإن أباه أصاب دماً فى الجاهلية فأتى المدينة فحالف بنى النضير فشرف منهم ، وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعباً وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة ، وكان شاعراً مجيداً ، وقد كان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ، وكان يعطى أخبار اليهود ويصلهم ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة مجاءه أخبار يهود من بنى قينقاع وبنى قريظة لأخذ صلته على عادتهم ، فقال لهم : ما عندكم من أمر هذا الرجل : يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : هو الذى كنا ننتظر ، ما أنكرنا من نعوته شيئاً ، فقال لهم قد حرمتكم كثيراً من

الخير ، فارجعوا إلى أهليكم ، فإن الحقوق في مالي كثيرة ، فرجعوا عنه خائنين ، ثم رجعوا إليه وقالوا له إنا أعجلناك فيما أخبرناك به ، ولما استثبتنا علمنا أننا غلطنا وليس هو المنتظر ، فرضى عنهم ووصلهم ، وجعل لكل من تابعهم من الأجر شيئا من ماله .، وهذا نزل فيه قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما) استودعه شخص دينارا فجحده كذا في تكملة الجلال السيوطي . وفي الكشاف وفروعه أنها نزلت في فنحاص بن عازوراء . وقد يقال : لا مانع من تعدد الواقعة .

ولما انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنهما مبشرين لأهل المدينة بذلك وصارا يقولان قتل فلان وفلان وأسر فلان وفلان من أشراف قريش ، صار كعب يكذب في ذلك ويقول هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؛ والله إن كان محمد قتل هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها ، أي كما تقدم ، فلما يتقن عدو الله الخبير خرج حتى قدم مكة وكان شاعرا فجعل يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه ، وينشد الأشعار ويبيكي من قتل بلدر من أشراف قريش ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت ، ثم رجع إلى المدينة : أي بعد أن لم يجد من يأوى رحله بمكة ، أي لأنه لما قدم مكة وضع رحله عند المطلب بن وداعة وأكرمه زوجة المطلب وهي عاتكة بنت أسيد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان وأخبره بذلك ، فهجا المطلب وزوجته ، فلما بلغهما هجاء حسان ألقت رحله ، وقالت : مالنا ولهذا اليهودي ؟ وأسلم المطلب وزوجته بعد ذلك رضي الله عنهما ، وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله ، أي يقال إنه خرج في سبعين راكبا من اليهود إلى مكة ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلوا على أبي سفيان فقال لهم أبو سفيان إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا تأمن أن يكون هذا مكرًا منكم ، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا للذين الصنمين وآمنوا بهما ، ففعلوا ، فأنزل الله تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) أي وحالفهم عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، فخرج من مكة للمدينة ، فلما وصل إلى المدينة وصار يشب بنساء المسلمين : أي يتغزل فيهن ويدكرهن بالسوء حتى آذاهن •

أى وقيل إن كعب بن الأشرف صنع طعاما وواطأ جماعة من اليهود أن يدعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام ، فإذا حضر يفتكون به ، ثم دعاه فجاء ومعه بعض أصحابه ، فأعلمه جبريل عليه السلام بما أضمره بعد أن جالسه ، فقام صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام يستره بجناحه حتى خرج ، فلما فقدوه تفرقوا ، ولما منع من تعدد الأسباب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ينتدب لقتل كعب بن الأشرف ؟ وفى لفظ : من لنا بابن الأشرف ، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا ، أى وفى رواية : إنه يؤذى الله ورسوله ، وفى أخرى فإنه قد آذانا بشعره وقوى المشركين علينا ، أى فإن أباسفيان قال لكعب : فانك تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى طريقا وأقرب إلى الحق ، أنحن أم محمد ؟ فقال كعب : اعرضوا على دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحز للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونظوف به ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم ، وديننا قديم ودين محمد الحديث ، فقال كعب لعنه الله : أنتم والله أهدى سبيلا مما هو عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لى بقتل ابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسامة الأوسى : أنا لك به يارسول الله ، هو خالى - لأن محمد بن مسلمة ابن أخته - أنا أقتله ، وأجمع : أى عزم على ذلك هو وأربعة : أى من الأوس عباد بن بشر وأبو نائلة ، وكان رضى الله عنه أنا لكعب بن الأشرف من الرضاة والحارث بن عيسى والحارث بن أوس . ومكث محمد بن مسلمة رضى الله عنه بعد قوله لرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا ماتقوم به نفسه خوفا من عدم وفائه بما ذكر ، ثم قال : يارسول الله لا بد لنا أن نقول : أى نذكر ما نتوصل به إليه من الحيلة ، وجينئذ كان المناسب أن يقول لا بد لنا أن نقول : أى نخترع ما نحتال به عليه ، فقال : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حل من ذلك ، فأباح صلى الله عليه وسلم لهم الكذب لأنه من خدع الحرب كما تقدم .

وقيل إنه صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه ، والجمع ممكن ، فتقدمهم إلى كعب أبو نائلة رضى الله عنه ، وكان يقول الشعر فتحدث معه ساعة وتناشد شعرا ، ثم قال : ويحك يا ابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد أن أذكركها لك فآتم عني ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب وورمتنا عن قوس واحدة ، فمقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس ، أى

وسألنا الصدقة ونحن لا نجد مانأكل ، وسائر ما عندنا أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه ، فقال كعب : لقد كنت أخبرتك يا ابن مسلمة أن الأمر سيصير إلى ما تقول ، أى ثم قال له كعب : أصدقنى ما الذى تريدون فى أمره ؟ قال : خذلانه والتضحى عنه ، قال شريين ، بان لـكم أن تعرفوا ما أتم عليه من الباطل ، فقال أبو نائلة ، وقيل محمد بن مسلمة كما فى رواية صحيحة .

قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل أن كلا منهما قال له : إني أريد أن تبينى وأصحابى طعاما ما وزهنتك ونوثق لك ، فقال : أترهونى أبناءكم . وفى رواية نساءكم ؛ قال : أردت أن تفضحننا ، زهنتك من الحلقة : أى السلاح كما تقدم - وقيل الدرع خاصة - مافيه وفاء ، وقد أردت. أن آتيك بأصحابى ، أراد أبو نائلة رضى الله عنه أن لا ينكر كعب السلاح إذا جاء به هو وأصحابه ، فقال إن فى الحلقة لوفاء : أى وفى البخارى ، قال : ارهونى نساءكم ، قالوا : كيف زهنتك نساءه وأنت أجمل العرب . زاد فى رواية : ولا نأمنك عليهن ، وأى امرأة تمتنع منك لجمالك فانك تعجب النساء ، قال : فارهونى أبناءكم ، قالوا : كيف زهنتك أبناءنا فيسب أحدهم ، فيقال رهن يوسف ؛ قالوا : هذا عار علينا ولكنا زهنتك اللامة : أى السلاح ، فرجع أبو نائلة رضى الله عنه إلى أصحابه فأخبرهم الخبر ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ، ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجوا من عنده متوجهين إلى كعب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى معهم إلى بقيق الغرقد ثم وجههم وقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته : أى وأمر عليهم محمد بن مسلمة ، وكانت تلك الليلة مغمرة ، فأقبلوا رضى الله عنهم حتى انتهوا إلى حصن كعب فهتف به أبو نائلة رضى الله عنه ، وكان كعب قريب عهد بعرس ، وإن فوثب فى ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها أى طرفها ، وقالت : إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى مثل هذه الساعة ، قال : إنه أبو نائلة ، او وجدنى قائما لا يوقظنى ، فقالت : والله إني لأعرف فى صوته الشر ، أى وفى البخارى : فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فإني أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . وفى مسلم كأنه صوت دم : أى صوت طالب دم ، قال : إنما هو ابن أختى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة ، إن الكرمى او دعى إلى طعنة لبليل لأجاب كذا فى البخارى . وفى مسلم : إنما هو محمد ورضيعته ، قيل وصوابه إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة .

فقد ذكر أهل العلم أن أبا نائلة رضى الله عنه كان رضيعا لمحمد فنزل أى وهو ينفع منه ريح طيب ، فتحدث معه هو وأصحابه ساعة ثم تماشوا ، ثم إن أبا نائلة رضى الله عنه وضع يده على رأس كعب ثم شم يده ، وقال : ما رأيت طيبا أعطر من هذا الطيب . أى فقال : وكيف وعندى أعطر نساء العرب وأكمل العرب ؟ وفى لفظ : وأجل بدل أكل ، وهى أشبه ، فقال له : يا أبا سعيد أدن منى رأسك أشبه وأمسح به عيني ووجهي ، ثم مشوا ساعة ، ثم عاد أبو نائلة لوضع يده على رأسه ، واستمسك به وقال اضربوا عدو الله ، فضربوه ، فاختلفت عليه أسياهم ، فلم تغن شيئا : أى وقع بعضها على بعض ولصق عدو الله بأبي نائلة وصاح صيحة لم يبق حصن إلا وعليه نار ، قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : فوضعت سني فى ثنيته ثم تحاملت عليه حتى بلغ عانته فوقع ، أى ولما صاح اللعين صاحت امرأته : يا آل قريظة والنضير مرتين ، فخرجت اليهود فأخذوا على غير طريق الصحابة ففاتوهم .

قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : وأصيب الحارث بن أوس من بعض أسيافنا فى رجله ورأسه ونزف به الدم ، فتخلف عنا : أى وناداهم : اقرءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام ، فعضنوا عليه واحتملوه . وفى رواية تخلف عن أصحابه فافتدوه ورجعوا إليه فاحتملوه . قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : فجننا رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى ، فسلمنا عليه ، فخرج إلينا وأخبرناه بقتل عدونا ، وتفل على جرح صاحبنا فلم يؤله .

قال : وفى رواية أنهم حزوا رأس كعب وحملوا ذلك الرأس ثم خرجوا يشتدون ، فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تلك الليلة ، فلما سمع تكبيرهم بالبقيع كبر وعرف أنهم قد قتلوا عدو الله ، وخرج إلى باب المسجد فجاءوا فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على باب المسجد ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلحت الوجوه ، قالوا : أفلح وجهك يا رسول الله ، ورموا برأسه بين يديه ، فحمد الله على قتله ، أى وعند ذلك أصبحت يهود مذعورين ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قتل سيدنا غيلة ، فذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم صنيعة من التعجيبض عليه وأذيته المسلمين فزادوا خوفا .

سرية عبد الله بن عتيك رضى الله عنه

لقتل أبي رافع

سلام بالتخفيف ابن أبي الحقيق على وزن نصير بالتصغير وبالحاء المهملة الخزرجي :
أى وفي البخارى : أبى رافع عبد الله بن أبى الحقيق ، ويقال له سلام بن أبى الحقيق ، كان
بجيبير ، وكان تاجر أهل الحجاز .

لما قتلت الأوس : أبى عبد الله بن مسلمة وأبو نائلة ومن تقدم معهما كعب بن الأشرف
تمذاكر الخزرج من يشابه كعب بن الأشرف فى العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من
الخزرج ، فذكروا أبى رافع سلام بن أبى الحقيق ، أى لأنه كان يؤذى رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

أى وعن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب بالمال الكثير على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى حذب الأحزاب يوم الخندق ، لأن الأوس
والخزرج كانا يتنافسان فىم يقرّب إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، لانفعل الأوس
شيئا من ذلك إلا فعلت الخزرج نظيره وبالعكس ، ويقولون : والله لا يذهبون بهذا فتيلة
علينا فى الإسلام ، فانتدب لقتله خمسة من الخزرج منهم عبد الله بن عتيك ، وعبد الله
ابن أنيس ، وأبو قتادة ، واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : أى فى أن
يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة ، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك وأمرهم
أن لا يقتلوا وليدا ولا امرأة فخرجوا حتى أتوا خيبر فقتلوا دار أبى رافع ليلا ، فلم يدعوا
بيتا فى الدار إلا أغلقوه على أهله ، وكان أبو رافع فى عليّة لها درجة ، أى سلم من الخشب
من محل يصعد عليه إلى تلك العلية ، فطلعوا فى تلك الدرجة حتى قاموا على باب تلك
العليّة ، فاستأذنوا فخرجت إليهم امرأته ، فقالت : من أنتم ؟ قالوا : ناس من العرب
نلتمس الميرة .

وفى لفظ : لما صعدوا قدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يتكلم بلسان يهود ، فاستفتح
وقال : جئت أبى رافع بهدية ، ففتحت له امرأته وقالت : ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه ،
فاما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجره ووجدوه وهو على فراشه ، مادهم عليه
فى الظلمة إلا بياضه كأنه قبطية بيضاء فابتدروه بأسياهم ، ووضع عبد الله بن أنيس رضى الله

عنه سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول قطنى قطنى : أى يكفينى يكفينى ، وعند ذلك صاحت المرأة . قال بعضهم : ولما صاحت المرأة جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكف يده . قال : وفي رواية أن المرأة لما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشار إليها بعضنا بالسيف فسكبت ، فابتدرناه بأسياقنا وخرجنا من عنده ، وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيي* البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثبا شديدا ، أى جرحت جرحا شديدا . وفي لفظ : قد انكسرت ساقه . وفي آخر فأنخلعت رجله فعصبتها بعمامته ، والجمع بين كسر ساقه وخلع رجله واضح ، لأن الانخلاع يكون من المفصل ، فقد انكسرت ساقه وأنخلعت من مفصلها ، ومع الكسر والانخلاع حصلت فيها جراحة أيضا .

وأما قول ابن إسحاق رحمه الله فوثبت يده فقبل وهم والصواب رجله كما تقدم . وفي السيرة الهشامية : فوثبت يده ، وقبل رجله .

وقد يقال : لمانع من حصولهما ، قال : فحملناه حتى أتينا محلا استخفينا فيه : أى وذلك المحل من أفئنتهم التى يلقون فيها كناستهم . وفي لفظ : أنهم كمنوا في نهر من عيونهم حتى سكن الطلب .

وقد يقال : لا مخالفة ، لأنهم أوقدوا النيران ، وتفرقوا من كل وجه يطلبونهم أى وفي لفظ : فخرج الحارث في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران حتى إذا أيسوا رجعوا إلى عدو الله ، فاكتفوه وهو بينهم يجود بنفسه ، فقال بعضنا لبعض : كيف نعلم أن عدو الله مات ؟ فقال رجل منهم : أنا أذهب فأنظر لكم ، فانطلق حتى دخل في الناس قال : فوجدت امرأته تنظر في وجهه وفي يدها المصباح ، ورجال يهود حوله وهم يتحدثون وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى .

أى وعلى الرواية الآتية أنه أكذبها ، ثم أقبلت تنظر في وجهه ، ثم قالت فاضت وإله يهود : أى خرجت روحه ، فما سمعت من كلمة كانت ألد إلى نفسى منها ، ثم جئت وأخبرت أصحابى ، واحتملنا عبد الله بن عتيك ، وقدمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية : أن ابن عتيك لما عصب رجله انطلق حتى جلس على الباب . وقال : لا أخرج الليلة حتى أعلم أى قتله أولا ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ، فقال .

أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلق يحجل إلى أصحابه وقال قد قتل الله أبا رافع ، فأسرعوا ، وليتأمل هذا مع ما قبله ، وقوله أنعى هو بفتح العين ، وقيل الصواب انعوا ، والنعى : خبر الموت والاسم الناعى . ويقال له الناعية ، وكانت العرب إذا مات فيهم الكبير ركب راكب فرسا وصار يذكر أوصافه وما أثره ، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك . ولا منافاة بين كونه انطلق يحجل إلى أصحابه وكونهم حملوه ، لأنه يجوز أن يكون عند وقوعه وحصول ما تقدم له لم يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام وقدر على المشى يحجل ، ومن ثم جاء في بعض الروايات : فقامت أمى مابى قلبه : أى علة مهلكة . فلما وصل إلى أصحابه وعاد عليه المشى أحس بالألم ، فحماله أصحابه ، وهذا السياق يدل على أن الذى قتله عبد الله ابن عتيك وحده ، وهو مابى البخارى ، وفي رواية أن الذى كسرت رجلاه أبو قتادة لأنهم لما قتلوه وخرجوا نسي أبو قتادة قوسه فرجع إليها وأخذها فأصيبت رجله فشدّها بعمامته ولحق بأصحابه ، وكانوا يتناوبون حمله حتى قدموا المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم فسحها فبرئت ، أى وقال لما رأنا : أفلحت الوجوه ، قلنا أفلح وجهك يا رسول الله وأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده صلى الله عليه وسلم في قتله كل منا ادعاه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتوا أسيافكم فجنناها بها فنظر إليها ، فقال لسيف عبد الله بن أنيس : هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام . قال : والثابت في الصحيح كما علمت أن عبد الله بن عتيك هو الذى انفرد بقتله وأن عدو الله كان يحصن بأرض الحجاز ، ولا منافاة لأن خير من الحجاز ، أى من قرأه وريفه .

فلما دنوا من خير وقد غربت الشمس وراح الناس بسرهم ، قال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس فهتف به البواب : يا عبد الله ، ناداه بذلك كما ينادى الشخص شخصا لا يعرفه وهويظن أنه من أهل الحصن ، إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب فدخل وكن . فلما أغلق الباب علق المفاتيح . قال ثم أخذتها وفتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده . فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقته على من داخله حتى انتهت إليه ، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لأدرى أين هو من البيت . قلت : أبا رافع ، قال من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فصرته بالسيف فما أغنت شيئا وصاح ، فخرجت من البيت ، أى وعند ذلك قالت له

أمراه : يا أبارافع هذا صوت عبد الله بن عتيك . قال : ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك ؟ قال ابن عتيك : ثم عدت وقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال لأملك الويل ، إن رجلا في البيت ضربني بالسيف فعمدت إليه فضربته أخرى فلم تغن شيئا فتواريت ثم جئته كهيئة المغيث وغيرت صوتي ، وإذا هو مستلق على ظهره فوضعت السيف في بطنه وتحاملت عليه حتى سمعت صوت العظم ، ثم جئت إلى الدرجة فوقع ، فانكسرت رجلي فعصبتها بعمامتي فانطلقت إلى أصحابي ، وقلت النجاة قد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته . فقال : ابسط رجلك فسحها فكأنني لم أشتكها قط ، وعادت كأحسن ما كانت انتهى ، أي وهذا ما في البخاري .

وفيه في رواية أخرى أن ابن عتيك قال : لما وضعت السيف في بطنه وتحاملت عليه حتى سمعت صوت العظم خرجت دهشا حتى أتيت السلم : أي الذي صعدت فيه أريد أن أنزل فأسقطت منه فانخلعت رجلي ، فعصبتها ، فأنتيت أصحابي أحجل . فقلت : انطلقوا فبشروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية ، فلما كان في وجه الصبح صعده الناعية ، فقال أنعي أبا رافع ، فقمت أمشي ما بي قلبي ، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشروه .

وفي سيرة الحافظ الدمياطي أنهم مكثوا في ذلك المحل الذي استخفوا فيه يومين حتى سكن عنهم الطلب . وينبغي النظر إلى وجه الجمع بين ما ذكر .

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنهما إلى القردة

بفتح القاف والراء ، وقيل بالفاء مفتوحة ، وقيل بكسرهما وسكون الراء ، وقدمه في الأصل على الأول : اسم ماء .

وسبها أن قريشا لما كانت وقعة بدر خافوا الطريق التي كانوا يسلكونها إلى الشام من على بدر ، فسلكوا طريقا أخرى من جهة العراق . فخرج غيرهم فيه أموال كثيرة جدا من تلك الطريق يريدون الشام ، واستأجروا رجلا يدلم على الطريق ، وكان ذلك الرجل ممن هرب من أسارى بدر . وفي ذلك العير من أشرف قريش : أبو سفیان ، وصفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وحويطب بن عبد العزى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

زيد بن حارثة في مائة راكب ، وهي أول سرية لزيد بن حارثة خرج فيها أميرا ، فصادف تلك العير على ذلك الماء فأصاب العير ، وأفلت القوم وأسروا دليلهم .
وقدم زيد رضي الله عنه بتلك العير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخسماها ، فباع الخمس ما قيمته عشرون ألف درهم ، وأتى بذلك الأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل له إن تسلم تترك : أى من القتل ، فأسلم فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين إسلامه بعد ذلك .

سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد

وهو ابن عمته صلى الله عليه وسلم برة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاة ، أرضعتها ثوية كما تقدم - إلى قطن - أى وهو جبل ، وقيل ماء من مياه بنى أسد .
وسببها أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد صار في قومهما ومن أطاعهما إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أخبره بذلك رجل من طيء قدم المدينة لزيارة بنت أخيه بها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسلمة المذكور ، وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار ، وخرج الرجل المخبر له صلى الله عليه وسلم دليلا لهم ، وقال له صلى الله عليه وسلم سر حتى تنزل أرض بنى أسد فأغر عليهم قبل أن يتلاقى عليك جموعهم ، فأعد السير ، أى بفتح الهمزة والغين المشددة والذال المعجمتين : أى أسرع ، ونكب ، أى بفتح الكاف المخففة : عدل عن سيف الطريق ، وسار بهم ليلا ونهارا ليستبق الأخبار ، فأنتهى إلى ماء من مياههم ، فأغار على سرح لهم ، وأسروا ثلاثة من الرعاة وأفلت سائرهم ، ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق : فرقة بقيت معه ، وفرقتان أغارتا في طلب النعم والشاء والرجال ، فأصابوا إبلا وشاء ولم يلقوا أحدا ، فأنحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة .

قال : وقيل إنه أخرج صنق رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك عبدا ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان يباح له أخذ الصنقى ، وهو ما يختاره أو يختاره له أمير السرية قبل القسمة من النوى أو الغنيمة من جارية أو غيرها كما تقدم . وأخرج الخمس ، ثم قسم ما بقى بين أصحابه ، فأصاب كل إنسان سبعة أبعرة ، أى وطليحة هذا كان يعد بألف فارس ؛ قدم عليه صلى الله عليه وسلم في بعض الوفود وأسلم . ثم ارتد وادعى النبوة ، وتوفى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقويت شوكته ، ثم أسلم بعد وفاة أبي بكر رضى الله عنه ، وحسن إسلامه ، وحج في زمن عمر رضى الله عنه ، ولم يعرف لأخيه سلمة إسلام . بعث عبد الله ابن أنيس إلى سفیان بن خالد الهذلي ثم اللحياني بكسر اللام وفتحها .

وسبب ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بلغه أن سفیان المذكور قد جمع الجموع لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث عبد الله بن أنيس رضى الله عنه ليقتله ، فقال : صفه لى يارسول الله ، فقال إذا رأيته هبته وفرقت : أى خفت منه وذكرت الشيطان ، فقال عبد الله : يارسول الله ما فرقت من شيء قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى إنك تجدله قشعريرة إذا رأيته ، فقال عبدالله : فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول : أى ما أتوصل به إليه من الحيلة فأذن لى : أى قال لى : قل ما بدا لك : أى وقال انتسب إلى خزاعة . قال عبدالله بن أنيس فسرت حتى إذا كنت ببطن عرنة وهو واد بقرب عرفة لقيته يمشى : أى متوكئا على عصا يهدّ الأرض ووراءه الأحابيش : أى أخلاط الناس ممن انضم إليه ، فعرفته بنعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنى هبته وكنت لا أهاب الرجال ، فقلت : صدق الله ورسوله ، أى وكان وقت العصر ، فخشيت أن يكون بينى وبينه محاولة يشغلنى عن الصلاة فصليت وأنا أمشى نحوه أومى برأسى . فلما انتهيت إليه ، قال لى : من الرجل ؟ فقلت : رجل من خزاعة ، سمعت يجمعك لمحمد فجئت لأكون معك ، قال : أجل ، إنى لأجمع له ، فشيت معه ساعة وحدثته فاستحلى حديثى . أى وكان فيها حديثه به أن قلت له : عجبت لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث . فارق الآباء ، وسفه أحلامهم . فقال لى : إنه لم يلق أحدا يشبهنى ولا يحسن قتاله .

فلما انتهى إلى خبائه وتفرق عنه صحابه قال لى : يا أخا خزاعة هلم ، فدنوت منه . فقال اجلس فجلست معه ، حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته وأخذت رأسه ثم دخلت غارا فى الجليل وصيرت العنكبوت : أى نسجت على ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئا . فانصرفوا راجعين ، ثم خرجت . فكنت أسير الليل وأتوارى النهار حتى قدمت المدينة : فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فلما رآنى قال : قد أفلح الوجه . قلت : أفلح وجهك يارسول الله . فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبرى ، فدفع لى عصا وقال : تخصص بهذه فى الجنة : أى توكأ عليها فإن المتخصصين فى الجنة قليل ، فكانت تلك العصا عنده . فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدخلوها فى كفته ويجعلوها بين جلده

وكفنه ففعلوا . أى وفي القاموس ذو المخصرة : أى ككنسة بكسر الميم عبد الله بن أنيس وهذه القصة وقصة كعب بن الأشرف ترد على الزهري قوله لم يحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس إلى المدينة قط . وحمل إلى أبي بكر رضى الله تعالى عنه رأس فكره ذلك . وأول من حملت إليه الرؤوس عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

وفيه أنه لما قتل الحسين وجماعة من أهل بيته بعث ابن زياد قبحة الله برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية . وابن الزبير رضى الله عنهما لم يبايع بالخلافة إلا بعد موت يزيد . ومضى مدة خلافة ابنه معاوية رضى الله عنه الذى خلع نفسه وهى أربعون يوما . ولعل لإرسال رأس الحسين ومن معه كان قبل رأس عبد الله بن أبي الحمق ؛ فلا ينافى قول ابن الجوزى أول رأس حمل في الإسلام - أى من المسلمين - رأس عبد الله بن أبي الحمق . وذلك أنه لدغ فمات ، فخشيت الرسل أن تتمم فقطعوا رأسه فحملوه .

ثم رأيت ابن الجوزى قال : قال ابن حبيب : نصب معاوية رضى الله عنه رأس عمرو بن أبي الحمق . ونصب يزيد بن معاوية رأس الحسين رضى الله عنه . وقول الزهري إلى المدينة لا يخالف ما فى النور ماتقدم فى غزوة بدر : كم من رأس حمل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن تلك الرؤوس لم تحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ على أن فيه أنه لم يحمل إليه ذلك اليوم إلا رأس أبي جهل على ماتقدم .

سرية الرجيع

وفى الأصل : بعث الرجيع . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة ، وقيل ستة عيوناً إلى مكة يتجسسون أخبار قريش ليأتوه بها ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه ، ويقال له ابن أبي الأفلح بالفاء ، وقيل أمر عليهم مرثد الغنوى رضى الله عنه حليف عمه صلى الله عليه وسلم حمزة رضى الله عنه ، ومرثد بفتح الميم وإسكان الراء وبالمثناة . والغنوى بغير معجمة : أى وكان مرثد هذا يحمل الأسرى ليلاً من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، فوعد رجلاً من الأسرى بمكة أن يحمله ، قال : فجئت به حتى انتهيت به إلى حائط من حيطان مكة فى ليلة مقمرة ، فجاءت عناق وكانت من جملة البغايا بمكة ، فرأت ظلى فى جانب الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتنى قالت : مرثد ؟ قالت مرثد ، قالت : مرحباً وأهلاً لم تبت عندنا الليلة ، فقلت : يا عناق إن الله حرم الزنا ، فدلّت

على ، فخرج في أثرى ثمانية رجال ، فتواريت في كهف الخندمة فجاءوا حتى وقفوا على رأسى ، فأعماهم الله عنى ، فلما رجعوا رجعت لصاحبى ، فحملته وكان رجلا ثقيلا حتى انتهيت إلى محل فككت عنه قيده ، ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة ، ثم استشرته صلى الله عليه وسلم أن أنكح عناق ، فأمسك عنى حتى نزلت الآية (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فدعانى صلى الله عليه وسلم فتلاها على ، ثم قال لى : لا تنزوجها .

وفى قطعة التفسير للجلال المحلى أن الآية نزلت فى بغايا المشركين لما هم فقراء المهاجرين أن يزوجهن وهن موسرات لينفقن عليهم ، فقبل التحريم خاص بهم ، وقبل عام ، ونسخ بقوله (وأنكحوا الأيامى منكم) الآية .

وفيه أن عند فقهائنا يحرم على المسلم نكاح من تعبد الأوثان وإن لم تكن بغيا .

ومن جملة العشرة عبد الله بن طارق وخبيب بن عدى وخبيب تصغير خب : وهو الماكر من الرجال الخداع ، وزيد بن الدثنة بفتح الدال المهملة وكسر التاء المثناة وقد تسكن ثم نون مفتوحة ثم تاء تأنيث مقلوب من الندثة . والندث : استرخاء اللحم ، فخرجوا رضى الله عنهم : أى يسرون الليل ويكمنون النهار ، حتى إذا كانوا بالرجيع : وهو ماء لهذيل لقبهم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتاه عبد الله بن أنيس وجاء برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم وقومه - وهم بنو لحيان - فإتهم ذكروا لهم فنفروا إليهم فيما يقرب من مائة رام ، أى ولا يخالف ما فى الصحيح قريبا من مائة رجل ، فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوه فى منزل نزلوه ، أى فإن منهم امرأة كانت زرعى غنما فرأت النوى فقالت : هذا تمر يثرب ، فصاحت فى قومها : أتيتم ، فتبعوهم إلى أن وجدوهم فى المحل المذكور ، فلما أحسوا بهم لجثوا إلى موضع من جبل هناك : أى صعدوا إليه ، فأحاطوا بهم ، وقالوا لهم : انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحدا ، فقال عاصم رضى الله تعالى عنه : أما أنا فلا أنزل على ذمة : أى أمان وعهد كافر ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما ، أى وستة منهم ، وصار عاصم يرميهم بالنبل وينشد أبياتا منها :

الموت حق والحياة باطل وكل ما قضى الإله نازل

بالمرء والمرء إليه آيل

ولا زال يرميهم حتى فنيت نبهه ، ثم طاعنهم حتى انكسرت رمحهم ، ثم سل سيفه ،

وقال : اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمى لحمى آخره ، ونزل إليهم ثلاثة على العهد وهم : خبيب ، وزيد ، وعبد الله بن طارق رضى الله تعالى عنهم ، فلما أمسكهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا خبيبا وزيدا وامتنع عبد الله ، وقال : هذا أول الغدر : أى ترك الوفاء بعهد الله ، والله لا أصحبكم ، إن لى بهؤلاء يعنى القتلى أسوة ، فعالجوه ، فأبى أن يصحبهم . أى فقتلوه كما فى الصحيح ، وقيل صحبهم إلى أن كانوا بمر الظهران يريدون مكة ، انتزع عبد الله يده منهم ، ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد ، أى ودخاوا بهما مكة فى شهر القعدة ، فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، أى وقيل بيع كل بخمسين من الإبل ، أى وقيل بيع خبيب بأمة سوداء ، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيبا ، قيل لأنه قتل الحارث يوم بدر كما فى البخارى .

وتعقب بأن المعروف عندهم أن قاتل الحارث يوم بدر إنما هو خبيب بن إساف الخزرجى ، أى وقيل القاتل له على كرم الله وجهه ، وخبيب بن عدى هذا أوسى لم يشهد بدرًا عند أحد من أرباب المغازى ، أى وقيل فى هذا تضعيف الحديث الصحيح .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر رحمه الله ذكر أنه لزم من هذا رد الحديث الصحيح ، ولو لم يقتل خبيب بن عدى الحارث بن عامر ما كان لاعتناء آل الحارث بشرائه وقتله به معنى ؛ إلا أن يقال لسكونه من قبيلة قاتله وهم الأنصار . وابتاع زيدا صفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ليقبله بأبيه ، فحبسوهما إلى أن تنقضى الأشهر الحرم ؛ واستعار خبيب رضى الله تعالى عنه وهو محبوس موسى من بنت الحارث . وفى الصحيح من بعض بنات الحارث ليستحد بها : أى يخلق بها عانته ، فدرج لها ابن صغير وهى غافلة عنه حتى أتى إلى خبيب رضى الله تعالى عنه ، فأجلسه خبيب رضى الله تعالى عنه على فخذه والموسى بيده ، فلما رأت ابنها على تلك الحالة فرزت فرعة عرفها خبيب رضى الله تعالى عنه ، فقال : أتخشين أن أقتله : ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، وذلك بكسر الكاف لأنه خطاب للمؤنث .

وروى أنه رضى الله عنه أخذ بيد الغلام ؛ وقال : هل أمكن الله منكم ؛ فقالت المرأة : ما كان هذا ظنى بك ؛ فرمى لها بالموسى ؛ وقال : إنما كنت مازحا ، ما كنت لأغدر .

وفى السيرة الشامية أن تلك المرأة قالت : قال لى : تعنى خبيبا رضى الله تعالى عنه حين حضره القتل : ابعتى إلى بجديدة أنظهر بها للقتل : أى وقد كان رضى الله تعالى عنه قال

لها : إذا أرادوا قتلي فأذنيبي ؛ فلما أرادوا قتله أذنته ؛ فطلب منها تلك الحديدية ؛ قالت : فأعطيت غلاما من الحى موسى ، فقلت له : ادخل بها على هذا الرجل البيت ، قالت : فوالله لما دخل عليه الغلام قلت والله أصاب الرجل نأره بقتل هذا الغلام ويكون رجل برجل ، فلما ناوله الحديدية أخذها من يده ، ثم قال : لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدية إلى ؟ ثم خلى سبيله . ويقال إن الغلام ابنها : أى ويرشد إليه قول خبيب رضى الله تعالى عنه : ما خافت أمك .

وكانت بنت الحارث تقول : والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب ، قالت : والله لقد وجدته يوما أى وقد اطلعت عليه من شق الباب يأكل قطفًا من عنب في يده : أى مثل رأس الرجل ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة ثمرة . وفي رواية ؛ ولا أعلم فى أرض الله عنبا يؤكل .

أى واستدل أئمتنا بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته ، ولعل ذلك كان بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأقره ، فلما انقضت الأشهر الحرم بانقضاء الحرم خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه فى الحل ، فلما قدم للقتل قال لهم : دعونى أصل ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين وقال لهم : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى من جزع لزدت ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا : أى متفرقين واحدا بعد واحد ، ولا تبق منهم أحدا : أى الكفار ، وقد قتلوا فى الخندق متفرقين .

قال : ذكر أنهم لما خرجوا به ليقتلوه خرج النساء والصبيان والعييد ، فاما انتهوا به إلى التنعيم أمروا بحشبة طويلة فحفرها لها ، فلما انتهوا بخبيب إليها وبعد صلاته للركعتين صلبوه على تلك الحشبة ، أى ليراه الوارد والصادر ، فيذهب بخبره إلى الأطراف ، ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نخل سبيلك ، وإن لم ترجع لنقتلنك قال : إن قتلى فى سبيل الله لقليل ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام ، فبلغه أنت عنى السلام وبلغه ما يصنع بنا .

وعنه أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي فسمعناه يقول : وعليه السلام

ورحمة الله وبركاته ، فلما سرى عنه صلى الله عليه وسلم قال : هذا جبريل عليه السلام يقرئني من خبيب السلام ، خبيب قتلته قريش .

وقد جاء : أن المشركين دعوا أربعين ولدا من قتل آباؤهم يوم بدر فأعطوا كل واحد رجلا ، وقالوا هذا الذي قتل آباءكم ، فطعنوه بتلك الرماح حتى قتلوه ، واكلوا بتلك الخشب أربعين رجلا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم المقداد والزبير بن العوام رضى الله تعالى عنهما في إنزال خبيب عن خشبته . وفي لفظ قال صلى الله عليه وسلم « أيكم ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة ؟ فقال له الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه : أنا يارسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود ، فجاء فوجدا عندهما أربعين رجلا لكنهم سكارى نيام فأنزلاه » وذلك بعد أربعين يوما من صلبه وموته .

وحمله الزبير رضى الله تعالى عنه على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء فشعر بهما المشركون ، أى وكانوا سبعين رجلا فتبعوهما ، فلما لحقوا بهما قذفه الزبير رضى الله تعالى عنه ، فابتلعت الأرض اه . ومن ثم قيل له بليغ الأرض ، أى وكشف الزبير رضى الله تعالى عنه العمامة عن رأسه وقال لهم : أنا الزبير بن العوام وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يذبان عن شبلهما ، فإن شتمت ناضلتكم ، وإن شتمت نازلتكم ، وإن شتمت انصرفتم ، فانصرفوا عنهما .

وقدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان عنده صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ، فقال له جبريل : يا محمد إن الملائكة تباهى بهذين الرجلين من أصحابك ، فنزل فيهما (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) الآية ، وتقدم أنه قيل إنها نزلت في على كرم الله وجهه لما نام على فراشة صلى الله عليه وسلم ليلة ذهابه إلى الغار . وقيل إنها نزلت في حق صهيب لما أراد الهجرة ومنعه منها قريش ، فجعل لهم ثلث ماله أو كله كما تقدم .

ورأيت بعضهم هنا قال : إنها نزلت في صهيب رضى الله تعالى عنه لما أخذه المشركون ليعذبوه ، فقال لهم : إني شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أو من غيركم ، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتدعوني وديني ففعلوا .

وفي كلام ابن الجوزي رحمه الله أن عمرو بن أمية هو الذى أنزل خبيبا ، فعنه رضى الله تعالى عنه قال : جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها فحللته فوقع إلى الأرض ، ثم التفت فلم

أرخبيا ابتلعتة الأرض ، وهذا هو الموافق لما في السيرة المشامية ، وأن ذلك كان حين أرسله صلى الله عليه وسلم والأنصار لقتل أبي سفيان بن حرب كما سيأتي إن شاء الله تعالى : أى كان خبيب رضى الله تعالى عنه تحرك على الخشب فانقلب وجهه عن القبلة : أى الكعبة فقال : اللهم إن كان لى عندك خير فحول وجهى نحو قبلتك ، فحول الله وجهه نحوها ، فقال : الحمد لله الذى جعل وجهى نحو قبلته التى رضى لنفسه ولنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ، ودعا عليهم خبيب رضى الله تعالى عنه ، فقال : اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ، قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما : فألقى أبو سفيان بنفسه إلى الأرض على جنبه خوفا من دعوة خبيب رضى الله تعالى عنه ؛ لأنهم كانوا يقولون إن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زال عنه : أى لم تصبه تلك الدعوة . وقد ولى عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه سعد بن عامر رضى الله تعالى عنه على بعض أجناد الشام ، فقيل له إنه مصاب يلحقه غشى ، فاستدعاه ، فلما قدم عليه وجد معه مزودا وعكازا وقدحا ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : ليس معك إلا ما أرى ، فقال له : وما أكثر من هذا يا أمير المؤمنين ؟ مزودى أضع فيه زادى ، وعكازى أحمل به ذلك ، وقدحى آكل فيه ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : أبك لم ؟ فقال : لا ؛ فقال : فما غشيت بلغنى أنها تصيدك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما بى من بأس ، وليكنى كنت فيمن حضر خبيب بن عدى حين قتل ، وسمعت دعوته ؛ فوالله ما خطر على قلبى وأنا فى مجلس قط إلا غشى على فزاده ذلك عند عمر رضى الله تعالى عنهما خيرا ، ووعظ عمر ؛ فقال له : من يقدر على ذلك ؟ فقال : أنت يا أمير المؤمنين ، إنما هو أن يقال فطاع ؛ فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : إرجع إلى عمالك ؛ فأبى ، وناشده الإغفاء ، فأعفاه .

وكان خبيب رضى الله تعالى عنه هو الذى سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة ؛ أى لأنه صلى الله عليه وسلم بلغه ذلك عنه فاستحسنه فكان سنة ؛ وهذا يدل على أن واقعة زيد ابن حارثة رضى الله تعالى عنهما متأخرة عن قصة خبيب رضى الله تعالى عنه . لكن فى لنور : والمعروف أن زيد بن حارثة صلاحها قبل خبيب بزمن طويل .

وفى الينبوع أن قصة زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما كانت قبل الهجرة ؛ أى وكان ابن سيرين رحمه الله إذا سئل عن الركعتين قبل التل ، قال : صلاحها خبيب رضى الله تعالى عنه وحجروهما فاضلان ، ويعنى بحجج بن عدى رضى الله تعالى عنه . فإن

زيادا والى العراق من قبل معاوية رضى الله تعالى عنه وشى به إلى معاوية ، فأمر معاوية بإحضاره ، فلما قدم على معاوية ، قال له : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية رضى الله تعالى عنه : أو أمير المؤمنين أنا اضربوا عنقه ؛ فلما قدم للقتل قال : ادعوني أصلى ركعتين ، فصلاهما خفيفتين ؛ ثم قال رضى الله تعالى عنه : لولا أن تظنوا بي غير الذى بي لأظنتهما ، ثم قتل هو وخمسة من أصحابه .

ولما حج معاوية رضى الله تعالى عنه وجاء المدينة زائرا استأذن على عائشة رضى الله تعالى عنها فأذنت له ، فلما قعد ، قالت له : أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه ؟ قال : إنما قتلهم من شهد عليهم .

وقصة زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما رواها الليث بن سعد . قال : بلغنى أن زيد ابن حارثة اكترى بغلا من رجل بالطائف ، فقال به ذلك الرجل إلى خربة وقال له : إنزل فترل زيد رضى الله تعالى عنه ، فإذا فى الخربة المذكورة قتلى كثيرة ، فلما أراد أن يقتاه ، قال له : دعنى أصلى ركعتين ، أى لأنه رأى أن الصلاة خير ماختم به عمل العبد ، قال صل فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئا ، وهذا يدل على أن القتلى كلهم كانوا مسلمين ، قال : فلما صليت أتانى ليقتلنى ، فقلت : يا أرحم الراحمين ، قال : فسمع صوتا يقول : لا تقتله ، فهاب ذلك ، فخرج يطلبه ، فلم ير شيئا فرجع إلى ، فناديت يا أرحم الراحمين ، فعل ذلك ثلاثا ، فإذا بفارس على فرس فى يده حربة حديد فى رأسها شعلة نار قطعنها فأنفذها من ظهره فوق مينا . ثم قال لى لما دعوت الأولى « يا أرحم الراحمين » كنت فى السماء السابعة ، فلما دعوت الثانية « يا أرحم الراحمين » كنت فى سماء الدنيا ، فلما دعوت الثالثة أتيتك .

أقول : وقد وقع مثل ذلك لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان يتجر بمال له ولغيره يسافر به فى الآفاق ، وكان ناسكا ورعا فخرج مرة فى بعض أسفاره ، فلقبه لص مقنع فى السلاح ، فقال له : ضع مامعك فإنى قاتلك ، فقال : ما تريد من دمي ؟ فشأنك والمال ؛ فقال : أما المال فلى ؛ ولست أريد إلا دمك فقال : ذرنى أصلى أربع ركعات ؛ فقال صل ماشئت ؛ فتوضأ ثم صلى أربع ركعات ؛ ثم دعا فى آخر سجدة ؛ فقال : ياودود ، ياذا العرش المجيد ؛ يا فعال لما تريد ؛ أسألك بعزك الذى لا يرام ؛ وملكك الذى لا يضام ؛ وبنورك الذى ملأ أركان عرشك

أن تكفيني شر هذا اللص ، يامغيث أغثنى ، وكرر ذلك ثلاث مرات ، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة وضعها من أدنى فرسه ، فلما بصربه اللص أقبل نحوه ، فطعته الفارس فقتله ، ثم أقبل إلى أبي معلق ، فقال : قم ، فقال : من أنت بأبي أنت وأمي ، فلقد أغاثني الله بك اليوم ؟ قال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقة ، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجعة ، ثم دعوت بدعائك الثالث ، فقيل لي دعاء مكروب ، فسألت الله تعالى أن يوليني قتله ، قال أنس رضي الله تعالى عنه : من فعل ذلك استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب .
أى وقد وقع نظير هذه المسألة ، أى من حيث إقراره صلى الله عليه وسلم على فعل غيره ، وهو أنهم كانوا يأتون الصلاة قد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها ، فكان الرجل يشير إلى الرجل كم صلى ؟ فيقول واحدة أو اثنتين فيصلهما وحده ، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم ، فجاء معاذ رضي الله تعالى عنه ، فقال : لأجده صلى الله عليه وسلم على حال أبدا إلا كنت عليها ، ثم قضيت ماسبقني ، فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فثبت معه ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قام فقضى ماعليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد سن لكم معاذ ، فكذا فاصنعوا ؛ أى وكان هذا قبل قوله صلى الله عليه وسلم « ما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

وأخرج صفوان بن أمية رضي الله تعالى عنه زيدا رضي الله تعالى عنه إلى الحل مع مولى له ليقتله به ، واجتمع عند قتله رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن -رب ، فلما قدم للقتل ، قال له أبو سفيان رضي الله تعالى عنه : أشدك بالله يا زيد أنتحب محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ، فقال والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني لخالص في أهلي ، فقال أبو سفيان رضي الله تعالى عنه : مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ، وتقل مثل ذلك عن خبيب رضي الله تعالى عنه ، أى فإنهم لما وضعوا السلاح في خبيب رضي الله تعالى عنه وهو مصلوب نادوه وناشدوه : أنتحب أن محمدا مكانك ؟ قال : لا والله ما أحب أن يؤذى بشوكة في قدمه ، ثم قتله ذلك المولى . أى طعنه برمح في صدره حتى أنفذه من ظهره ، وقيل رمى بالنبل ، وأرادوا فتنته عن دينه ، فلم يزد إلا إيمانا .

ولما قتل عاصم رضي الله تعالى عنه الذي أمير هذه السرية على ما تقدم ، أرادت

هذيل أخذ رأسه ليبيعه من سلافة وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار وكلام بعضهم يقتضى أنها أسلمت بعد ، فإن عاصما هذا كما تقدم قتل يوم أحد ولديها كلاهما أشعره سهما ، وكل يأتى إليها بعد إصابته بالسهم ويضع رأسه فى حجرها ، فتقول : يابنى من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلا يقول حين رمانى : خذها وأنا ابن أبي الأفلح فندرت إن قدرت على رأسه لتشرين فى قحفة الخمر ، وجعلت لمن يجيء برأسه مائة ناقة كما تقدم ، فحالت الدبر بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة : وهى الزناير بينهم وبين عاصم رضى الله تعالى عنه ، كلما قدموا على قحفة طارت فى وجوههم ولدغتهم فقالوا : دعوه حتى يمسى فنأخذه ، فبعث الله الوادى : أى سال ، فاحتمل السيل عاصما فذهب به حيث أراد الله فسمى حى الدبر وبعث ناس من قريش لما بلغهم قتل عاصم فى طلب جسده أو شئء منه يعرفونه : أى ليثلوا به لأنه قتل عظيما من عظمائهم ، قال الحافظ ابن حجر لعله عقبه بن أبى معيط فإن عاصما قتله صبيرا باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انصرفوا من بدر أى كما تقدم ، قال : وكأن قريشا لم تشعر بما جرى لهذيل من منع الزناير لهم عن عاصم ، أو شعروا بذلك ورجوا أن الزناير تركته : أى ولم يشعروا بأن السيل أخذه اه أى وقد كان عاصم رضى الله تعالى عنه دعا الله أن لا يمسه مشركا ، ولا يمسه مشرك فى حياته ، وتقدم هنا أنه دعا الله أن يحمى لحمه فاستجاب الله له ، فلم يحصل له ذلك لا فى حياته ولا بعد موته .

أى وفى كلام بعضهم : لما نذر عاصم أن لا يمسه مشركا ووفى بنذره عصمه الله عن مساس سائر المشركين إياه ، فصار عاصم معصوما هذا .

وقيل إن هؤلاء العشرة لم يخرجوا ليأتوا بنجر قريش ، وإنما خرجوا مع رهط من عضل والقارة ، وهما بطنان من بنى الهون قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا فى الدين ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الاسلام ، فبعث صلى الله عليه وسلم معهم أولئك نفر ، فساروا حتى إذا كانوا على الرجيع استصرخوا عليهم هذيل ، فلم يشعررا إلا والرجال بأيديهم السيوف فدعوهم فأخذوا أسيافهم ليقتلوا القوم ، فقالوا لهم : والله لا نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا تقتلكم ، فأبوا الحديث ، والحافظ الدمياطى رحمه الله اقتصر على هذا الثانى ، وأن أميرهم كان مرثدا الغنوى رضى الله

تعالى عنه ، فقال : سرية مرثد الغنوي إلى الرجيع ، قال قدم رهط من عضل والقارة فقالوا : يا رسول الله إن فينا إسلاما الحديث ، لكنه في سياق القصة قال وأمر عليهم عاصما وقيل مرثدا رضي الله تعالى عنهما ، وأخر هذه السرية عن السرية بعدها التي هي سرية القراء إلى بئر معونة .

سرية القراء رضي الله تعالى عنهم

إلى بئر معونة

لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنه : أي ويقال له ملاعب الرماح وهو رأس بني عامر . أي ويقال له أيضا أبو براء بالمداغير ، وهو عم عامر بن الطفيل عدو الله ، أي وأهدى إليه صلى الله عليه وسلم ترسين وراحتين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أقبل هدية من مشرك » . وفي رواية « نهيت عن عطايا المشركين » .

أقول : وفي كلام السهيلي أنه أهدى إليه فرسا ، وأرسل إليه إني قد أصابني وجع فابعث إلى بشيء أتداوى به فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم بعكة عسل ، وأمره أن يستشفى به ، وقال « نهيت عن زبد المشركين » قال السهيلي : والزبد مشتق من الزبد ، لأنه نهى عن مداهنتهم واللين لهم : كما أن المداهنة مشتقة من الدهن ، فرجع المعنى إلى اللين ، كذا قال ، ولعل هذا كان بعد ما تقدم . ويحتمل أن يكون قبله وهو الأقرب والله أعلم .

فلما قدم عليه أبو عامر عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام ، أي وقال إني أرى أمرك هذا أمرا حسنا شريفا ، أي ولم يسلم بعد ذلك على الصحيح ، خلافا لمن عدّه في الصحابة ، ثم قال : يا محمد لو بعثت رجلا من أصحابك إلى أهل نجد : أي وهم بنو عامر وبنو سليم ، فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أخشى أهل نجد عليهم ، قال أبو براء : أناهم جاروهم في جوارى وعهدي ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ، وخرج أبو براء إلى ناحية نجد وأخبرهم أنه قد أجاز أصحاب محمد ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو رضي الله تعالى عنه في أربعين ، وقيل في سبعين ، وعليه اقتصر

الحافظ الديماطي : أى لأنه الذى فى صحيح البخارى ، وقيل فى ثلاثين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين .

أى وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا القيل وهم ، وأنه يمكن الجمع بين كونهم سبعين وكونهم أربعين بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة كانوا أتباعا ، ويقال لهؤلاء القراء : أى للملازمتم قراءة القرآن ، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا فى ناحية المدينة يصلون ويتدارسون القرآن ، فيظن أهلهم أنهم فى المسجد ، ويظن أهل المسجد أنهم فى أهاليهم ، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء واحتطبوا وجاءوا بذلك إلى حجر النبي صلى الله عليه وسلم وفى كلام بعضهم أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ، ويتدارسون القرآن بالليل ، وكانوا يبيعون الحطب ويشترون به طعاما لأصحاب الصفة .

وقد يقال : لا منافاة ، لجواز أنهم كانوا يفعلون هذا مرة وهذا أخرى ، أو بعضهم يفعل أحد الأمرين وبعضهم يفعل الآخر ، وكان منهم عامر بن فهيرة رضى الله تعالى عنه .

وكتب صلى الله عليه وسلم لهم كتابا فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهى بين أرض بنى عامر وحره بنى سليم ، والحره : أرض فيها حجارة سود ، فلما نزلوها بعثوا حرام ، بالحاء المهملة والراء ، ابن ملحان وهو خال أنس بن مالك بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل لعنه الله . أى وهو رأس بنى سليم . وفى لفظ سيد بنى عامر وابن أخى أبى براء عامر بن مالك كما تقدم ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا عليه فقتله ، أى بعد أن قال : يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، فآمنوا بالله ورسوله ، فجاء إليه رجل من خلفه قطعنه بالرمح فى جنبه حتى نفذ من جنبه الآخر ، فقال : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ، وقال : بالدم هكذا فنضح على وجهه ورأسه ، ثم استصرخ عليهم : أى استغاث بنى عامر . فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : إنا لن نخفر بأبى براء : أى لا نزيل خفارته وتنقض عهده ، وقد عقد لهم عقدا وجوارا ، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم . قال الحافظ الديماطي : عصية ورعلا وذكوان زاد بعضهم : وبنى لحيان ، قال بعضهم : وليس فى محله .

أقول : كان قائله سرى إليه ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم جمع بنى لحيان فى الدعاء عليهم مع من ذكر قبله . وسيأتى أنه إنما جمعهم معهم لأن خبر أصحاب الرجيع وأصحاب

بئر معونة جاءه صلى الله عليه وسلم في يوم واحد وبنو لحيان أصحاب الرجيع ، فدعا عليهم دعاء واحدا ، والله أعلم ، فلما دعا تلك القبائل الثلاثة التي هي عصية ورعل وذكوان أجابوه إلى ذلك ، ثم خرجوا حتى أحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم إلا كعب بن زيد رضى الله تعالى عنه ، فإنه بقي به رمق ، وحمل من المعركة ، فعاش بعد ذلك حتى قتل يوم الخندق شهيدا ، وإلا عمرو بن أمية الضمري رضى الله تعالى عنه ورجلا آخر كانا في سرح القوم ، ولما أحاطوا بهم قالوا : اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك عنا السلام غيرك ، فاقرأه منا السلام ، فأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بذلك ، فقال : وعليهم السلام .

أى وفي لفظ أنهم قالوا : اللهم بلغ عنا نبينا صلى الله عليه وسلم أناقد لقينك فرضينا عنك ورضيت عنا فلما جاءه الخبر من السماء قام صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن إخوانكم قد لقوا المشركين ، وقتلوهم ، وإنهم قالوا : ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا ورضينا عنه ورضى عنا ربنا . وفى لفظ : فرضى عنا وأرضانا ، فأنا رسولهم لا يسكم لأنهم قد رضوا عنه ورضى عنهم .

وذكر أنس رضى الله عنه أن ذلك : أى قولهم المذكور كان قرآنا يتلى ، ثم نسخت تلاوته ، أى فصار ليس له حكم القرآن من التعبد بتلاوته وأنه لا يسه إلا الطاهر ولا يتلى في صلاة إلى غير ذلك من أحكام القرآن .

ولما رأى عمرو بن أمية والرجل الذى معه الطير تحوم على محل أصحابهما ، أى وكانا في رعاية إبل القوم كما تقدم ، قالا والله إن لهذا الطير لشأنا ، فأقبلا ينظران ، فإذا القوم في دماهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ، فقال للرجل الذى مع عمرو : ماذا ترى ؟ فقال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر ، فقال له لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، فأقبلا فلحقا القوم ، فقتل ذلك الرجل وأسر عمرو ، فأخبرهم أنه من مضر . فأخذاه عامر بن الطفيل وجز ناصيته . وأعتقه عن رقبة كانت على أمه . فخرج عمرو حتى جاء إلى ظل فجلس فيه . فأقبل رجلان حتى نزلا به معه ، فسألهما فأخبراه أنهما من بنى عامر ، وفى لفظ من بنى سليم وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو . فأمهلهما حتى ناما فعدا عليهما فقتلهما وهو يرى أى يظن أنه قد أصاب بهما نارا من بنى عامر ، فلما قدم عمرو

على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الخبر وأخبره بقتل الرجلين؛ فقال له: لقد قتلت قتيلين لأديتهما: أى لأدفعن ديتهما. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عمل أبى براء. قد كنت لهذا كارها متخوفا. ولما بلغ أبا براء أن عامر بن الطفيل ولد أخيه أزال خفارتة شق عليه ذلك وشق عليه ما أصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه فعند ذلك حمل ربيعة بن أبى براء على عامر بن الطفيل، أى الذى هو ابن عمه فطعنه بالرمح فوقع فى فخذه ووقع عن فرسه، وقال: إن أنا مت فدى لعمى يعنى أبا براء، وإن أعش فسأرى رأى، أى وفى لفظ: نظرت فى أمرى.

وفى الإصابة أن ربيعة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أياضل عن أبى هذه العنزة أن أضرب عامر بن الطفيل ضربة أو طعنة، قال نعم فرجع ربيعة فضرب عامرا ضربة أشواه منها فوثب عليه قومه، فقالوا لعامر بن الطفيل اقتصص، فقال قد عفوت. أى وعقب ذلك مات أبو براء أسفا على ما صنع به ابن أخيه عامر بن الطفيل من إزالته خفارتة، وعاش عامر بن الطفيل ولم يمت من هذه الطعنة، بل مات بالطاعون بدعائه صلى الله عليه وسلم كما سيأتى فى الوفود فى وفد نبى عامر [].

أى وقال بعضهم: قد أخطأ المستغفرى فى عده صحابيا، ولما قتل عامر بن فهيرة رضى الله تعالى عنه رفع إلى السماء، فلما رأى قاتله ذلك أسلم، أى وهو جبار بن سلمى، أى لا عامر بن الطفيل كما وقع فى بعض الروايات، كما علمت.

وقال صلى الله عليه وسلم أى لما بلغه قتل عامر بن فهيرة إن الملائكة وارت جنة عامر بن فهيرة أى فى الأرض: أى بناء على أنه لما رفع إلى السماء وضع كما فى البخارى؛ فقد جاء أن عامر بن الطفيل، قال لعمر بن أمية رضى الله تعالى عنه وأشار إلى قتيل من هذا، فقال له عمرو هذا عامر بن فهيرة، فقال لقد رأيت بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء وبين الأرض ثم وضع.

وفى بعض الروايات أن عامر بن فهيرة التمس فى القتل يومئذ، أى فلم يوجد فيرون أن الملائكة رفعته، وظاهرها أن الملائكة لم تضعه فى الأرض بل رفعته، أى ويؤيده أن عامر بن الطفيل لعنه الله دخل بعمر بن أمية رضى الله تعالى عنه فى القتل، وصار يقول له ما اسم هذا، ما اسم هذا، ما اسم هذا؟ ثم قال له هل من أصحابك من ليس فيهم؟ قال نعم، ما رأيت فيهم عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما، قال له عامر:

أى رجل هو فيكم؟ قال : من أفضلنا وأولى ، أى ومن أولى المسلمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عامر : لما قتل رأيتك رفع إلى السماء .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أنه قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة ، ومكث يدعو عليهم ثلاثين صباحا . أقول : وفي رواية الشيخين قنت شهرا أى متابعا يدعو على قاتلى أصحاب بئر معونة ، أى بعد الاعتدال فى الصلوات الخمس من الركعة الأخيرة وحينئذ يكون المراد بالصباح اليوم وليته .

وذكر بعض أصحابنا أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه فى الدعاء المذكور وقاس عليه رفعهما فى قنوت الصبح » وروى الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى قنوت الصبح .

واستدل أصحابنا على استحباب القنوت للنازلة فى سائر المكتوبات بقنوته ودعائه على قاتلى أصحاب بئر معونة .

وفى بعض السير : فدعا النبي صلى الله عليه وسلم شهرا عليهم فى صلاة الغداة . وفى لفظ يدعو فى الصبح ، وذلك بدء القنوت ، وما كان يقنت رواه الشيخان .

وقد سئل الجلال السيوطى هل دعاؤه صلى الله عليه وسلم على من قتل أصحابه كان عقب فراغه من القنوت المشهور أو كان الدعاء هو قنوته؟ فأجاب رحمه الله بأنه لم يقف على شىء من الأحاديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم جمع بين القنوت والدعاء ، قال : بل ظاهر الأحاديث أنه اقتصر على الدعاء ، أى فىكون قنوته هو الدعاء ، وهو الموافق لقول أصحابنا . ويستحب القنوت فى اعتدال آخره صبيح مطلقا وآخر سائر المكتوبات أى باقيا للنازلة وهو : اللهم اهدنا الخ فى أن أل فى القنوت للعهد والله أعلم .

وفى رواية أنه يدعو على الذين أصابوا أصحابه فى الموضعين ، أى بئر معونة والرجيع دعاء واحدا ، لأنه صلى الله عليه وسلم جاءه خبرهما فى وقت واحد كما تقدم ، وأدمج البخارى رحمه الله بئر معونة مع بعث الرجيع لقربهما فى الزمن ، أى ففیه مكث صلى الله عليه وسلم يدعو على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبنى لحيان ، أى وهو يقتضى أنهما شىء واحد وليس كذلك ؛ وقد علمت أن بنى لحيان قتلوا أصحاب الرجيع ومن قبلهم قتلوا أصحاب بئر معونة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء

بالقاف مفتوحة وبالطاء المهملة ، وهم بنو بكر بن كلاب .

بعث صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إلى القرطاء في ثلاثين راكبا أى وأمره أن يسير إلى الليل ويكمن النهار ، وأمره أن يشن عليهم الغارة فصار الليل وكمن النهار ، قال : وصادف في طريقه ركباناً نازلين ، فأرسل إليهم رجلا من أصحابه يسأل من هم ؟ فذهب الرجل ثم رجع إليه ، فقال : قوم من محارب ، فنزل قريبا منهم ، ثم أمهلهم حتى عطوا : أى بركوا الإبل حول الماء ، أغار عليهم ، فقتل نفرا منهم أى عشرة وهرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ، ولم يتعرض للظعن أى النساء انتهى ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بني بكر بعث عابد بن بشير إليهم وخرج محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه فى أصحابه ، فشن عليهم الغارة ، فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ، ثم انحدر رضى الله تعالى عنه إلى المدينة فخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء به وعدل الجزور بعشرة من الغنم ، وكان النعم مائة وخمسين بعيرا ، والغنم ثلاثة آلاف شاة ، وأخذت تلك السرية ثمانية بن أثال الحنفى من بنى حنيفة أى سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه ، وجى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لم : أتدرون من أخذتم : هذا ثمانية بن أثال الحنفى : فأحسنوا إيساره أى قيده [] فربط بسارية من سواري المسجد .

قال : وقيل إن هذه السرية لم تأخذه بل دخل المدينة وهو يريد مكة للعمرة فتحير في المدينة ، وقد كان جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا من عند مسيلمة وأراد اغتياله صلى الله عليه وسلم ، فدعاه ربه أن يمكنه منه ، فأخذ وجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فربط بسارية من سواري المسجد ، فدخل صلى الله عليه وسلم على أهله فقال اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، وأمر له صلى الله عليه وسلم بناقة يأتيه لبنها مساء وصباحا ، وكان ذلك لا يقع عند ثمانية موقعا من كفائته : أى وجاء إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مالك يا ثمام : هل أمكن الله منك ؟ فقال : قد كان ذلك يا محمد . وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه فيقول : ما عندك يا ثمامة ، فيقول : يا محمد عندى خير ، إن تقتل تقتل ذا كرم . وفى لفظ : ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ،

وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ففعل ذلك معه ، ثلاثة أيام ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : فجعلنا أيها المساكين أى أصحاب الصفة نقول : نبينا صلى الله عليه وسلم ما يصنع بدم ثمامة ، والله لأكلاة جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

وفى الاستيعاب أنه صلى الله عليه وسلم انصرف عن ثمامة وهو يقول : اللهم أكلة لحم من جزور أحب إلى من دم ثمامة ، ثم أمر به فأطلق ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الثالث قال : أطلقوا ثمامة فقد عفوت عنك يا ثمامة ، فأطلق ، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أى وهذا يخالف ما ذكره فقهاؤنا من الاستدلال بقصة ثمامة على أنه يستحب لمن أسلم أن يغتسل لإسلامه ، ثم رأيت بعض متأخرى أصحابنا أجاب بأنه أسلم أولا ، ثم لما اغتسل أظهر إسلامه .

وفى الاستيعاب : فأسلم ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يغتسل كما فى رواية أخرى أنه قال : يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى ، ثم شهد شهادة الحق ، فلما أسى جىء له بما كان يأتيه من الطعام ، فلم ينل منه إلا قليلا . ولم يصب من حلاب اللقحة إلا يسيرا ، فعجب المسلمون . قال وقال : يارسول الله إني خرجت معتمرا ، وفى لفظ فى الصحيح : فإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فإذا ترى ؟ فأمره أن يعتمر . فلما قدم بطن مكة لبي ، فكان أول من دخل مكة ملييا ، فأخذته قريش ، فقالوا : لقد اجترأت علينا ، أنت صبوت يا ثمامة . قال : أسلمت وتبعت خير دين محمد ، والله لا يصل إليكم حبة من حنطة : أى من اليمامة من أرض اليمن ، وكانت ريفا لأهل مكة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدموه ليضربوا عنقه ، فقال قائل منهم : دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة فخلوا سبيله ، فخرج ثمامة إلى اليمامة ، فنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا حتى أضربهم بالجوع ، وأكلت قريش العلهز وهو الدم يخلط بأوبار الإبل فيشوى على النار كما تقدم ، فكتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أأنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ، فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا . فكتبت

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة رضى الله تعالى عنه أن يخلى بينهم وبين الحمل .
وفي لفظ : خلى بين قومي وبين ميرتهم ، ففعل ، فأنزل الله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب)
الآية هذا .

والذى فى الاستيعاب أن ثمامة لما دخل مكة وقد سمع المشركون خبره ، فقالوا : يا ثمامة
صبوت وتركت دين أبائك ، قال : لا أدري ماتقولون ، إلا أنى أقسمت برب هذه البنية
يعنى الكعبة لا يصل إليكم من اليمامة شىء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم ، وكانت
ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خرج رضى الله تعالى عنه ففزع عنهم ما كان يأتى منها .
فلما أضربهم ذلك كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن عهدنا بك وأنت تأمر
بصلة الرحم وتحث عليها وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضر بنا ، فإن رأيت أن تكتب
إليه أن يخلى بيننا وبين ميرتنا فافعل ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن خلى
بين قومي وبين ميرتهم :

ولما عجب المسلمون من أكله بعد إسلامه رضى الله تعالى عنه ، لكونه دون أكله
قبل إسلامه قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول
النهار فى معنى كافر وأكل آخر النهار فى معنى مسلم ، إن الكافر لياكل فى سبعة أمعاء ،
وإن المسلم يأكل فى معنى واحد انتهى .

أى وقد وقع له صلى الله عليه وسلم ذلك مع جهجاه الضفارى رضى الله تعالى عنه فإنه
أكل مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو كافر فأكثر ، ثم أكل معه وقد أسلم فأقل ، فقال
النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل فى معنى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »
ولعل المراد بالأكل ما يشمل الشرب ، ثم رأيت فى الجامع الصغير « إن الكافر ليشرب
فى سبعة أمعاء والمسلم يشرب فى معنى واحد » والمراد أنه يأكل ويشرب مثل الذى يأكل
ويشرب فى سبعة أمعاء .

وكان رضى الله تعالى عنه مقيماً باليمامة ، ولما ارتد أهل اليمامة ثبت ثمامة فى قومه على
الإسلام ، وكان ينهاهم عن اتباع مسيلمة اعنه الله ، ويقول لهم : إياكم وأمرا مظلماً لا نور
فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه منكم .

سرية عكاشة بن محصن رضى الله تعالى عنه إلى الغمر

بفتح الغين المعجمة وسكون الميم والراء : ماء لبني أسد : أى جمع من بني أسد :
وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عكاشة بن محصن الأسدى رضى الله تعالى عنه
فى أربعين رجلا منهم ثابت بن أرقم رضى الله تعالى عنه ، وقيل إن ثابتا رضى الله تعالى عنه
هو الذى كان الأمير على هذه السرية ، فخرج يسرع فى السير إلى أن وصل إلى الماء
المذكور ، فوجد القوم علموا بهم فهربوا ولم يجدوا فى دارهم أحدا ، فبعث شجاع بن
وهب طليعة يطلب خبرا ويرى أثرا فأخبر أنه رأى أثر نعم قريبا ، فخرجوا فوجدوا
رجلا نائما ، فسألوه عن خبر الناس : فقال : وأين الناس ، لقد لحقوا بعليات بلادهم ،
قالوا : فالنعم ؟ قال : معهم ، فضر به أحدهم بسوط فى يده ، فقال : تؤمنونى على دى
وأطعكم على نعم لبني عم له لم يعلموا بمسيركم إليهم ، قالوا نعم ، فأمنوه فانطلقوا معه ،
فأمنن : أى بالغ فى الطلب حتى خافوا أن يكون ذلك غدرا منه لهم . فقالوا : والله لتصدقنا
أو لنضربن عنتك ، فقال : تظلعون عليهم من هذا الخلل ، فلما طاعوا منه وجدوا نعما
روائع ، فأغاروا عليها ، فاستاقوها ، فاذا هى مائة بعير وشردت الأعراب فى كل وجه ولم
يطلبوهم ، وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل ، وأطلقوا الرجل الذى أمنوه ، والله أعلم .

سرية محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه لذى القصة

بفتح القاف والصاد المهملة المشددة ، وهو موضع قريب من المدينة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة فى عشرة نفر لبني ثعلبة وبني
عوال من ثعلبة بذى القصة ، فورد عليهم ليلا ، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن
مسلمة وأصحابه ، وأمهلوهم حتى ناموا وأحدقوا بهم : أى فاشعروا إلا وقد خالطهم
القوم ، فوثب محمد بن مسلمة فصاح فى أصحابه : السلاح : فوثبوا وتراموا ساعة ، ثم
حمل القوم عليهم بالرماح فقتلوهم ، ووقع محمد بن مسلمة جريحا ، فضربوا كعبه فلم
يتحرك فظنوا موته ، فجردوه من الثياب وانطلقوا ، ومر بمحمد وأصحابه رجل من
المسلمين فاسترجع ، فلما سمعه محمد رضى الله تعالى عنه يسترجع تحرك له ، فأخذه وحمله

إلى المدينة . فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلا إلى مصارعهم فلم يجدوا أحدا . ووجدوا نعما وشاء ، فأنحدروا بها إلى المدينة .

سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه إلى ذى القصة أيضا

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه في أربعين رجلا إلى من بذى القصة : فانه باغته صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى يومئذ بمحل بينه وبين المدينة سبعة أميال فصلوا المغرب ، ومشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح ، فأغاروا عليهم : فأعجزوهم هربا في الجبال : وأسروا رجلا واحدا ، وأخذوا نعما من نعمهم ، ورثة : أى ثيابا خلقة من متاعهم ، وقدموا بذلك إلى المدينة ، فخمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم الرجل ، فتركه صلى الله عليه وسلم .

سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه إلى بنى سليم بالجموح

بفتح الجيم ، وهو اسم لناحية من بطن نخل .
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى بنى سليم ، بالجموح ، فسار حتى ورد ذلك المحل . فأصابوا امرأة من مزينة فدلتهم على محلة من محال القوم ، فأصابوا في تلك المحلة إبلا وشاء ، وأسروا منها جماعة من جملتهم زوج تلك المرأة ، وأنحدروا بذلك إلى المدينة ، فوهب رسول الله صلى الله عليه وسلم امثلك المرأة نفسها وزوجها .

سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما إلى العيص

وهو محل بينه وبين المدينة أربع ليال .
بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام ، فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب ليعترضها ، أى وكان فيها أبو العاص بن الربيع ، وقدم به

وبتلك العير المدينة ، فاستجار أبو العاص بزوجه زينب رضى الله تعالى عنها ، فأجارته ونادت في الناس حين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر : أى دخل في الصلاة هو وأصحابه ، فقالت : أيها الناس إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى لما سلم وأقبل على الناس وقال : هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا نعم ، قال : أما والذي نفسى بيده ما علمت بشيء من هذا ، أى ثم انصرف صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته وقال : قد أجزنا من أجزت . قال : وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أديانهم » أى وفي الصحيحين « ذمة المسامين واحدة ، يسعى بها أديانهم ، فمن أخضر مسلما » أى أزال خفارته : أى نقض جواره وعهده « فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ثم دخلت عليه صلى الله عليه وسلم زينب رضى الله تعالى عنها فسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ، فأجابها إلى ذلك ، وقال لها صلى الله عليه وسلم أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له : أى لتحريم نكاح المؤمنات على المشركين أى كما تقدم في الحديدية .

وبعث صلى الله عليه وسلم للسرية فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نجب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى فاء عليكم ، فأنتم أحق به ، فقالوا : يا رسول الله بل نرد عليه ، فرد عليه ما أخذ منه .

وهذا السياق يدل على أن ذلك كان قبل صلح الحديدية ووقوع الهدنة ، لأن بعد ذلك لم تتعرض سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش ، وهو يخالف قوله صلى الله عليه وسلم لها : لا يخلص إليك ، لأن تحريم نكاح المؤمنات على المشركين إنما كان في الحديدية . وقد ذكر بعضهم أن ذلك كان قبيل الفتح ستة ثمان ، ومن ثم ذكر الزهرى وتبعه ابن عقبة رحمهما الله تعالى أن الذين أخذوا هذا العير وأسروا من فيها أبو بصير وأبو جندل وأصحابهما رضى الله تعالى عنهم ، لأنهم كانوا في مدة صلح الحديدية ، من شأنهم أن كل عير مرت بهم لقريش أخذوها بغير معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فلما أخذوا هذه العير خلوا سبيل أبي العاص لكونه صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل أعجزهم هربا ، وجاء تحت الليل فدخل على زوجته زينب رضى الله تعالى عنها فاستجار بها فأجارته ، ثم كلمها في أصحابه الذين أسروا ، فكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

في ذلك ، فخطب الناس وقال : إنا صاهرنا أبا العاص فنعم الظهر وجدناه ، وإنه قد أقبل من الشام في أصحاب له من قريش ، فأخذهم أبو جندل وأبو بصير وأسروهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وأن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني أن أجبرهم فهل أنتم مجبرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال الناس : نعم ، فلما باع أبا جندل وأبا بصير وأصحابهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوا الأمرى ، وردوا عليهم كل شيء حتى العقال .

وصوب في الهدى هذا الذى ذكره الزهرى ، أى لما علمت أن مما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لبنته زينب : ولا يخلص إليك فإنك لا تخينين له ، لأن تحريم نكاح المؤمنات على المشركين إنما كان بعد الحديبية .

وذكر أن المسلمين قالوا لأبي العاص : يا أبا العاص إنك في شرف من قريش وأنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لأنه يلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف ، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة ، فقال : بئس أمرتموني أفتتح ديني بغدرة: أى بالغدر وعدم الوفاء ، ثم ذهب أبو العاص إلى أهل مكة فأدى كل ذى حق حقه ، ثم قام فقال : يا أهل مكة هل بقي لأحد منكم مال لم يأخذه ، هل وفيت ذمتي ؟ فقالوا اللهم نعم ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ، فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منغنى عن الإسلام عنده إلا خشية أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم .

ثم خرج حتى قدم المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرد له رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضى الله تعالى عنها على النكاح الأول ولم يحدث نكاحا ، وذلك بعد ست سنين وقيل بعد سنة واحدة انتهى .

أقول : وفي رواية بعد سنتين . والمتبادر أن السنة أو السنتين من إسلامها دونه ، وهو مخالف لما عليه أهل العلم من أنه لا بد أن يجتمع الزوجان في الإسلام والعدة ، ومن ثم قالت طائفة منهم الترمذى : هذا حديث ليس بإسناده بأس ، ولكن لا يعرف وجهه .

وفي كلام بعض الحفاظ : يمكن أن يقال قوله بعد ست سنين ولم يقل من إسلامها دونه صيره مجهول تاريخ الابتداء فلا يصح الاستدلال به .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد بنته

زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . قال بعضهم : وهذا في إسناده مقال ، وقال غيره : هذا حديث ضعيف ، وقال آخر : لا يثبت ، والحديث الصحيح إنما هو أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرهما على النكاح الأول .

وقال ابن عبد البر : حديث أنه صلى الله عليه وسلم أقرهما على النكاح الأول متروك لا يعمل به عند الجميع . وحديث ردها بنكاح جديد عندنا صحيح يعضده الأصول ، وإن صح الأول أريد به على الصداق الأول وهو حمل حسن ، هذا كلامه .

قال بعضهم : تصحيح ابن عبد البر لحديث إنه ردها بنكاح جديد مخالف لكلام أئمة الحديث كالبخاري وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان والدارقطني والبيهقي وغيرهم ، هذا كلامه .

وفى كون زينب رضى الله تعالى عنها كانت مشركة وأسلمت قبل زوجها المشعر به قول بعضهم ولم يقل من إسلامها - نظر ، لأنها اتبعت ما بعث به أبوها صلى الله عليه وسلم من غير تقدم شرك منها .

لا يقال : فحيث كانت مسلمة فكيف زوجها من أبي العاص وهو كافر . لأننا نقول على فرض أنه صلى الله عليه وسلم زوجها له بعد البعث فقد زوجها له قبل نزول قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) لأن تلك الآية نزلت بعد صلح الحديبية كما علمت . على أن ابن سعد ذكر أنه صلى الله عليه وسلم زوجها له فى الجاهلية : أى قبل البعثة ، والله أعلم .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما

إلى بنى ثعلبة

أى بالطرف ككتف : اسم ماء .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى بنى ثعلبة فى خمسة عشر رجلا : أى بالطرف ، فأصاب عشرين بعيرا وشاء ، واقتصر الحافظ الدمياطى على النعم ، ولم يذكر الشاء ولم يجد أحدا ، لأنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إليهم ، فصبح زيد رضى الله تعالى عنه بالنعم والشاء المدينة ، أى وقد خرجوا فى طلبه فأعجزهم [وكان شعارهم الذى يتعارفون به فى ظلمة الليل « أمت أمت » .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى جذام

محل يقال له حسمى بكسر الحاء المهملة وسكون السين على وزن فعلى . وهو موضع وراء وادى القرى ، يقال إن الطوفان أقام بذلك المحل بعد نضوبه : أى ذهابه ثمانين سنة . وسببها أن دحية الكلبي رضى الله تعالى عنه أقبل من عند قيصر ملك الروم ، أى وكان صلى الله عليه وسلم وجهه إليه [] كذا قيل ، ولعله من تصرف بعض الرواة ، أو أنه أرسله إليه بغير كتاب ، وإلا فأرساله إليه بالكتاب كان بعد هذه السرية ، لأنه كان بعد الحديبية .

ولما وصل رضى الله تعالى عنه إليه أنجاه بمال وكساء فأقبل بذلك إلى أن وصل ذلك المحل ، فلقى الهنيد وابنه في ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وسلبوه مامعه ، ولم يتركوا عليه إلا ثوبا خلقا ، فسمع بذلك نفر من جذام من بنى الضبيب : أى ممن أسلم منهم فنفروا إليهم ، واستنقذوا لدحية رضى الله تعالى عنه ما أخذ منه ، وقدم دحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل ورد معه دحية ، وكان زيد رضى الله تعالى عنه يسير بالليل ويكنم بالنهار ومعه دليل من بنى عذرة فأقبل حتى هجم على القوم : أى على الهنيد وابنه ومن كان معهم مع الصبح ، فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهم ، وأخذوا من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، ومن السبي مائة من النساء والصبيان . قال : ولما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد رضى الله تعالى عنه ركبوا وجاءوا إلى زيد وقال له رجل منهم : إنا قوم مسلمون ، فقال له زيد اقرأ أم الكتاب فقراها ، ثم قدم منهم جماعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه الخبر وقال بعضهم : يارسول الله لا تحرم علينا حلالا ، ولا تحل لنا حراما ، فقال : كيف أصنع بالقتلى ؟ فقال : أطلق لنا من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقالوا : ابعث معنا رجلا لزيد رضى الله تعالى عنه ، فبعث صلى الله عليه وسلم معهم عليا كرم الله وجهه يأمر زيدا أن يخلى بينهم وبين حرمهم وأموالهم ، أى فقال على : يارسول الله إن زيدا لا يطيعنى ، فقال : خذ سبي هذا ، فأخذه وتوجه ، فلقى على كرم الله وجهه رجلا أرسله زيد رضى الله تعالى عنه مبشرا على ناقة من إبل القوم ، فردها على كرم الله وجهه على القوم ، وأردفه خلفه ، ولقى

زيدا فأبلغه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعند ذلك قال له زيد ، ما علامة ذلك ؟ فقال : هذا سيفه صلى الله عليه وسلم فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا ، فقال : من كان معه شيء فليرده ، فهذا سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد الناس كافة كل ماأخذوه انتهى .

أقول : وهذا السياق يدل على أن جميع ما أخذته من النعم والشاء والسبي كان لمن أسلم من جذام من بنى الضبيب ، وإن بعض من قتل مع الهنيد وابنه كان مسلما ، وفي ذلك من البعد ما لا يخفى ، والله أعلم .

سرية أمير المؤمنين أبي بكر الصديق

رضى الله عنه لبنى فزارة كما في صحيح مسلم بوادى القرى

عن سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله تعالى عنه إلى فزارة وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشيننا الغارة فوردنا الماء . فقتل أبو بكر : أى جيشه من قتل ، ورأيت طائفة منهم المذارى ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل ، فأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا وفيهم امرأة : أى وهى أم قرفة عليها قشع من آدم : أى فروة خلقة معها ابنتها من أحسن العرب ، فجننت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، فنظفنى أبو بكر رضى الله عنه ابنتها ، فلم أكشف لها ثوبا ، فقدمنا المدينة ، فلقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ياسلمة هب لى المرأة لله أبوك : أى أبوك لله خالصا حيث أنجب بك وأنى بمثلك ، يقال ذلك فى مقام المدح والتعجب : أى وقد كان وصف له صلى الله عليه وسلم جمالها ، فقلت : هى لك يارسول الله ، فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا فى أيدي المشركين .

وفى لفظ : فدى بها أسيرا كان فى قريش من المسلمين ، كذا ذكر الأصيل أن أمير هذه السرية : أى التى أصابت أم قرفة أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وأنه الذى فى مسلم .

وذكر فى الأصيل قبل ذلك عن ابن إسحاق وابن سعد أن أمير هذه السرية ، أى التى

أصابت أم قرفة زيد بن حارثة رضى الله عنهما ، وأنه لقي بنى فزارة وأصيب بها ناس من

أصحابه ، وانفلت زيد من بين القتلى : أى احتمل جريحا وبه رمق ، فلما قدم زيد رضى الله تعالى عنه نذر أن لا يمس رأسه غسل من الجنابة حتى يغزو بنى فزارة ، فلما عوفى أرسله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فحكمنا النهار وساروا الليل حتى أحاطوا بهم ، وكبروا وأخذوا أم قرفة وكانت أم قرفة فى شرف من قومها ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا كلهم لها محررم ، وكان لها اثنا عشر ولدا . ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل فى العزة ، فتقول : لو كنت أعز من أم قرفة ، فأمر زيد بن حارثة أن تقتل أم قرفة ، أى لأنها كانت تسب النبي صلى الله عليه وسلم .

وجاء أنها جهزت ثلاثين راكبا من ولدها وولد ولدها وقالت لهم : اغزوا المدينة واقتلوا محمدا ، لكن قال بعضهم : إنه خير منك [] فربط برجلها جبلين ثم ربطا إلى بعيرين وزجرهما ، أى وقيل إلى فرسين ، فركضا فشقاها نصفين ، وقرفة ولدها هذا الذى تكفى به قتله النبي صلى الله عليه وسلم وبقية أولادها قتلوا مع أهل الردة فى خلافة الصديق فلا خير فيها ولا فى بنيتها ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنة أم قرفة ، وذكر له صلى الله عليه وسلم جمالها ، فقال صلى الله عليه وسلم لابن الأكوخ : ياسلمة ما جارية أصبتها ، قال : يارسول الله جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا فى بنى فزارة : فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام مرتين أو ثلاثا ، فعرف سلمة أنه صلى الله عليه وسلم يريد بها ، فوهبها له ، فوهبها النبي صلى الله عليه وسلم لخاله حزن بن أبى وهب ابن عمرو بن عائذ بمكة ، وكان أحد الأشراف ، فولدت له عبد الرحمن بن حزن ؛ وإنما قيل لحزن خاله لأن فاطمة أم أبى النبي صلى الله عليه وسلم هى بنت عائذ كما تقدم ، وعائذ جد حزن لأبيه ، وفى لفظ بنت عمرو بن عائذ .

وفى كلام السهيلي أن رواية الفداء لمن كان أسيرا بمكة أصح من رواية أنه صلى الله عليه وسلم وهبها لخاله حزن .

وجمع الشمس الشامى بين الروايتين حيث قال : يحتمل أنهما سريتان اتفق لسلمة بن الأكوخ فىهما ذلك ، أى إحداهما لأبى بكر ، والأخرى لزيد بن حارثة ، ويؤيد ذلك أن فى سرية أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ببنت أم قرفة إلى مكة ففدى بها أسرى كانوا فى أيدي المشركين . أى وفى سرية زيد وهبها لخاله حزن بمكة . قال : ولم أر من تعرض لتحرير ذلك انتهى .

أقول: في هذا الجمع نظر، لأنه يقتضى أن أم قرفة تعددت، وأن كل واحدة كانت لها بنت جميلة، وأن سلمة بن الأكوع أسرها، وأنه صلى الله عليه وسلم أخذها منه، وفي ذلك بعد، إلا أن يقال: لا تعدد لأم قرفة وتسمية المرأة في سرية أبي بكر أم قرفة وهم من بعض الرواة. ويدل عليه أن بعضهم أوردتها ولم يسم المرأة أم قرفة، بل قال فيهم امرأة من بنى فزارة معها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلني أبو بكر بنتها فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا، فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق مرتين في يومين، فقال: يا سلمة هبني المرأة، فقلت: هي لك، فبعث بها إلى مكة ففدى بها ناسا كانوا أسرى بمكة.

ثم لا يخفى أن ما ذكره الأصل عن ابن إسحاق وابن سعد من أنه صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة إلى وادي القرى، أي غازيا لبني فزارة، وأنه لقيهم وأصيب بها ناس من أصحابه، وأفلت زيد من بين القتلى جريحا الخ يخالفه ما ذكره عن ابن سعد مما يقتضى أن زيد بن حارثة في هذه لم يكن غازيا، بل كان تاجرا، وأنه لم يرسل لبني فزارة وإنما اجتاز بهم فقاتلوه.

والمذكور عن ابن سعد مانصه: قالوا: خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة فضربوه وضربوا أصحابه، أي فظنوا أنهم قد قتلوا وأخذوا ما كان معهم، فقدموا المدينة، ونذر زيد أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بني فزارة، فلما خلص من جراحته بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية لهم، وقال لهم: اكنوا النهار وسبروا الليل، فخرج بهم دليل من بني فزارة وقد نزر بهم القوم، فكانوا يجمعون له ناظورا حين يصبحون فينظر على جبل يشرف على وجه الطريق الذي يرون أن المسلمين يأتون منه، فينظر قدر مسيرة يوم، فيقول اسرحوا فلا بأس عليكم، فإذا أمسوا أشرف ذلك الناظر على ذلك الجبل فينظر مسيرة ليلة، فيقول ناموا فلا بأس عليكم في هذه الليلة، فلما كان زيد ابن حارثة وأصحابه على نحو مسيرة ليلة أخطأ بهم الدليل الفزاري طريقهم، فأخذ بهم طريقا أخرى حتى أمسوا وهم على خطأ، فعابنوا الحاضر من بني فزارة: فحمدوا خطأهم فكمن لهم في الليل حتى أصبحوا فأحاطوا بهم ثم كبر زيد وكبر أصحابه إلى آخر ما تقدم. ولما قدم زيد بن حارثة المدينة جاء إليه صلى الله عليه وسلم وقرع عليه الباب، فخرج

إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عربانا يجر ثوبه واعتنقه وقبله ، وسأله فأخبره بما ظفروه
الله تعالى به .

وحينئذ يشكل قوله في الأصل : ثبت عن ابن سعد أن لزيد بن حارثة سريتين بوادى
القرى . إحداهما في رجب والأخرى في رمضان ، فإنه بظاهره يقتضى أنه أرسل غازيا
المرتين لبني فزارة بوادى القرى .

وقد علمت أن كلام ابن سعد يدل على أن زيد بن حارثة في السرية الأولى إنما كان
تاجرا اجتاز ببني فزارة بوادى القرى فقاتلوه هو وأصحابه وأخذوا ما معهم .

ثم رأيت الأصل تبع في ذلك شيخه الحافظ الدمياطى حيث قال سرية زيد بن حارثة
إلى وادى القرى في رجب : قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا رضى الله
تعالى عنه أميرا . ثم قال : سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بناحية وادى القرى في رمضان .
وفيه ما علمت :

ثم لا يخفى أن في هذا إطلاق السرية على الطائفة التى خرجت للتجارة ولا يختص ذلك
بمن خرج للقتال أو لتجسس الأخبار ، وقد تقدم .

سرية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه

إلى دومة الجندل

بضم الدال المهملة وبفتحةها ، وأنكره ابن دريد لبني كعب .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ، فأقعه
بين يديه وعممه بيده ، قال أى بعد أن قال له : تجهز فإنى باعثك فى سرية من يومك هذا
أومن الغد إن شاء الله تعالى . ثم أمره أن يسرى من الليل إلى دومة الجندل فى سبعمائة
وعسكروا خارج المدينة .

فلما كانت وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال : أحببت يارسول الله أن يكون آخر عهدى بك ، وكان عليه عمامة من كرابيس :
أى غليظة قد لثها على رأسه ؛ فنقضها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثم عممه بعمامة
سوداء وأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحوها من ذلك . ثم قال : هكذا يا ابن عوف
فاعتم فإنه أحسن وأعرف .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، وقام صلى الله عليه وسلم فحمد الله ، ثم صلى على نفسه ، ثم قال : خذنه يا ابن عوف انتهى ، وقال : اغز بسم الله وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، ولا تغلّ ، أى لا تخن في المعجم ولا تغدر ، أى لا تترك الوفاء ، ولا تقتل وليداً وفي رواية : لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ولا تملوا ، ولا تقتلوا وليداً : أى صبيّاً ، فهذا عهد الله وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم فيكم ثم قال صلى الله عليه وسلم له : إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم ، فسار عبد الرحمن ابن عوف حتى قدم دومة الجندل ، فسكت ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وهم يأبون ويقولون : لا نعطي إلا السيف . وفي اليوم الثالث أسلم رأسهم وملكهم الأصبع بن عمرو الكلبى وكان نصرانياً : قال في النور : لم أجد أحداً ترجمه ، والظاهر أنه ما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فهو تابعى ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطاء الجزية : أى وأرسل رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه بذلك وأنه يريد أن يتزوج فيهم . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تزوج بنت الأصبع ، أى فتزوجها رضى الله تعالى عنه ، وبنى بها عندهم ، وقدم بها المدينة ، وهى أم ولده سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى أول كلبية نسكحها قرشى ، ولم تلد غير سلمة وطلقها عبد الرحمن فى مرض موته ثلاثاً وتمعها جارية سوداء ، ومات وهى فى العدة ، وقيل بعد انقضاء العدة فورثها عثمان رضى الله تعالى عنه .

قال : وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما أنه قال « سرت لأسمع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، فإذا فتى من الأنصار أقبل يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس ، فقال : يا رسول الله أى المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقاً ، ثم قال : وأى المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً قبل أن ينزل بهم ، أولئك الأكياس . ثم سكت الفتى وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يامعشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلت بكم ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، إنه إن تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا . وما نقص المكيا والميزان فى قوم إلا أخذهم الله بالسنين ، ونقص من الثمرات ، وشدة المؤنة ، وجور السلطان لعلهم يذكرون . وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا البهاثم لم يسقوا

وما نقض قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذ ما كان في أيديهم . وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم » وفي رواية « إلا بأسهم الله شيعاً وأذاق بعضهم بأس بعض » .

وفي الأصل ذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه لدومة الجندل في سرية . زاد في السيرة الشامية على ذلك قوله : كما سيأتى .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى مدين

قرية سيدنا شعيب صلوات الله وسلامه عليه ، وهى تجاه تبوك فأصاب سيبيا ، وفرقوا في بيعهم بين الأمهات والأولاد ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبيكون ، فقال : ما لهم ؟ فقيل : يارسول الله فرق بينهم : أى بين الأمهات والأولاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تتبعوهم إلا جميعاً .

قال فى الأصل : وكان مع زيد رضى الله تعالى عنه فى هذه السرية ضميرة مولى على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكذا أخوه رضى الله تعالى عنه ؛ وأخ له وهو تابع فى ذلك لابن هشام . وردت بأن مولى على هذا الذى هو ضميرة لم يذكر فى كتب الصحابة وكذا أخوه .

سرية أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه

إلى بنى سعد بن بكر بفدك

وهى قرية بينها وبين المدينة ست ليال ، أى وفى لفظ : ثلاث مراحل ، وهى خراب الآن . وفى الصحاح : فدك قرية بخيبر .

وسببها أنه صلى الله عليه وسلم بلغه أن لمبنى سعد جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، وأن يجعلوا لهم تمر خيبر : أى ما يرجد من غلتها ، فبعث إليهم علياً كرم الله وجهه فى مائة رجل ، فسار الليل وكمن النهار إلى أن نزلوا محلاً بين خيبر وفدك ، فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم ؟ أى فقال : لا علم لى ، فشدوا عليه ، فأقر أنه عين : أى جاسوس لهم ، وقال :

أخبركم على أن تؤمنوني؟ فأثمنوه: فدلهم ، فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألني شاة ،
وهربت بنو سعد بالظعن ، فهزل على كرم الله وجهه صفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
لقوحا : أى حلوبا [.] قريبة عهد بنتاج تدعى الحفدة بفتح الحاء وكسر الفاء وفتح الدال
المهملة لسرعة سيرها ، ومنه فى الدعاء : إليك نسعى ونخفد ثم عزل الخمس وقسم الباقي
على أصحابه .

أقول : قوله يريدون أن يمدوا يهود خبير ، يقتضى بظاھرہ أن ذلك كان عند محاصرة
خبير أو عند إرادة ذلك ، وفيه مالا يخفى لما تقدم ، والله أعلم .

سرية عبد الله بن رواحة رضى الله عنه إلى أسير

بضم الهزرة وفتح السين ، ويقال أسير بن رزام اليهودى بخبير .

لما قتل الله أبا رافع بن سلام بن أبى الحقيق عظيم يهود خبير كما تقدم ، أمروا عليهم
أسير بن رزام ، قال : ولما أمروه عليهم ، قال لهم : إني صانع بمحمد مالم يصنعه أصحابي ،
فقالوا له : وما عسيت أن تصنع ؟ قال : أسير فى غطفان فأجمعهم لحربه ، قالوا : نعم
مارأيت ، وكان ذلك قبل فتح خبير انتهى .

فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجه إليه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر سرا يسأل عن
خبر أسير وغرته ، فأخبر بذلك ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فندب
رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس لذلك ، فانتدب له ثلاثون رجلا ، وأمر عليهم عبد الله
ابن رواحة رضى الله تعالى عنه ، وقيل عبد الله بن عتيك ، فقدموا على أسير ، فقالوا :
نحن آمنون حتى نعرض عليك ماجئنا له . قال : نعم ولى منكم مثل ذلك ، فقالوا : نعم ،
فقلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خبير ويحسن إليك
فطمع فى ذلك : أى واستشار يهود فى ذلك فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا : ما كان
محمد ليستعمل رجلا من بنى إسرائيل ، قال : بلى قد ملّ الحرب .

قال فى النور : هذا الكلام لا يناسب أن يقال قبل فتح خبير ، فالذى يظهر أنها بعد
فتح خبير .

وأقول: يجوز أن يكون المراد باستعماله على خير المصالحة وترك القتال، ومن ثم أجاب بقوله إنه صلى الله عليه وسلم قد ملّ الحرب، والله أعلم.

فخرج، وخرج معه ثلاثون رجلا من يهود مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، قال عبد الله بن أنيس، كنت رديفا لأسير، فكأن أسيرا ندم على خروجه معنا، فأهوى بيده إلى سيفي، ففطنت بفتح الطاء له، وقلت أغدر عدوّ الله أغدر عدوّ الله ثلاثا؟ فضربته بالسيف فأطحت عامة فخذة فسقط، وكان بيده مخدش من شوحط فضربني به على رأسي فشجني مأمومة، وملنا على أصحابه فقتلناهم إلا رجلا واحدا أعجزنا جريا. ثم أقبلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثناه الحديث، فقال صلى الله عليه وسلم: قد نجاكم الله من القوم الظالمين وبصق في شجتي فلم تقح عليّ ولم تؤذني.

قال: وفي رواية زيادة على ذلك، وهي وقطع لي قطعة من عصاه، فقال: أمسك هذه معك علامة بيني وبينك يوم القيامة أعرفك بها، فإنك تأتي يوم القيامة متخصرا، فلما دفن عبد الله بن أنيس جعلت معه على جلده دون ثيابه انتهى.

أقول: تقدم نظير ذلك لعبد الله بن أنيس هذا لما أرسله صلى الله عليه وسلم لقتل سفيان ابن خالد الهذلي وجاء برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحتمل أن هذا وهم من بعض الرواة، ويحتمل تعدد الواقعة: أي أعطاه صلى الله عليه وسلم عصاه أولا في تلك، وأعطاه أخرى ثانية في هذه، وجعل العصا بين جلده وكفنه، ولا مانع منه، لكن ربما تتشوف النفس للسؤال عن حكمة تكرير ذلك لعبد الله بن أنيس وتخصيصه بهذه المنقبة دون بقية الصحابة، والله أعلم.

سرية عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أمسلم بن حريس رضي الله عنهما

بالحاء المهملة وكسر الراء وسين مهملة، وكل ما في الأنصار حريس بالسين المهملة إلا الحريش فإنه بالشين المعجمة، وقيل بدله جبار بن صخر إلى أبي سفيان بن حرب بمكة ليغتالاه.

وسببها أن أبا سفيان رضي الله عنه قال لنفر من قريش: ألا أحد يغتال لنا محمدا فإنه يمشى في الأسواق وحده، فأناه رجل من الأعراب، وقال يعني نفسه: قد وجدت أجمع الرجال قلبا، وأشدهم بطشا، وأسرعهم عدوا، فإذا أنت فدينتي خرجت إليه حتى أغتاله

فإن معي خنجرًا بفتح الحاء المعجمة كجناح النسر ، وإني عارف بالطريق ، فقال له : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيرا ونفقة ، وقال له : اطو أمرك ، وخرج ليلا إلى أن قدم المدينة ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدل عليه ، وكان صلى الله عليه وسلم في مسجد بنى عبد الأشهل ، فعقل راحلته وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم ، قال : إن هذا يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريد ، فجاء ليبنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجذبه أسيد بن حضير رضى الله تعالى عنه بداخله إزاره : أى بحاشيته من داخل ، فإذا بالخنجر فأخذ أسيد يخنقه خنقا شديدا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدقنى ، قال : وأنا آمن ؟ قال : نعم ، فأخبره بأمره فخلى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، أى وقال : يارسول الله ما كنت أخاف الرجال ، فلما رأيتك ذهب عقلي وضعفت نفسى ، ثم اطلعت على ما هممت به ، فعلمت أنك على الحق ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم .

فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري ومن تقدم معه إلى أبي سفيان بمكة . أى وذلك بعد قتل خبيب بن عدى رضى الله تعالى عنه وصلبه على الخشبة .

ومضى عمرو بن أمية رضى الله تعالى عنه يطوف بالبيت ليلا ، فرآه معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما فعرفه ، فأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه لأنه كان فاتكا في الجاهلية وقالوا : لم يأت عمرو بنخبر ، واشتدوا في طلبه .

قال : وفي رواية لما قدما مكة حبسا جملتهما ببعض الشعاب ، ثم دخلا ليلا ، فقال له صاحبه : يا عمرو لو طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ثم طلبنا أبا سفيان ، فقال له عمرو : إني أعرف بمكة من الفرس الأبلق ، أى وإن القوم إذا تعشوا جلسوا على أفئنتهم ، فقال : كلا إن شاء الله ، قال عمرو : طفنا بالبيت وصلينا ، ثم خرجنا لطلب أبي سفيان ، فلقيني رجل من قريش فعرفتني ، وقال : عمرو بن أمية فأخبر قريشاني ، فهربت أنا وصاحبي انتهى أى وصعدنا الجبل ، وخرجوا في طلبنا ، فدخلنا كهفا في الجبل ، واتى عمرو رجلا من قريش فقتله : أى قتل ذلك الرجل عمرو ، فلما أصبحنا ، غدا رجل من قريش يقود فرسا ونحن في الغار ، فمات لصاحبي : إن رأنا صاح بنا ، فخرجت إليه ومعى خنجر أعدده لأبي سفيان فضربته على يده فصاح صيحة أسمع أهل مكة ، فجاء الناس يشتدون فوجدوه بأخر رمق

فقالوا له : من ضربك ؟ قال عمرو بن أمية ، وغلبه الموت فاحتملوه ، فقلت لصاحبي ، لما أمسينا : النجاة ، فخرجنا ليلا من مكة نريد المدينة ، ففررنا بالحرس الذين يحرسون خشبة حبيب بن عدى رضى الله تعالى عنه ، فقال أحدهم : لولا أن عمرو بن أمية بالمدينة لقلت إنه هذا الماشي ، فلما حاذيت الخشبة شددت عليها ، فحملتها واشتديت أنا وصاحبي فخرجوا وراءنا ، فألقيت الخشبة فغيبه الله عنهم ، كذا في السيرة المشامية .

وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم أرسل الزبير والمقداد لإنزاله وأن الزبير أنزله فابتلعه الأرض . وتقدم عن ابن الجوزى مثل ما هنا من أن الذى أنزله عمرو بن أمية رضى الله تعالى عنه ، فيحتاج إلى الجمع على تقدير صحة الروایتين . ويقال إن عمرا قتل رجلا آخر سمعه يقول :

ولست بمسلم . ادمت حيا . ولست أدين دين المسلمين

ولقي رجلين بعثتهما قريش إلى المدينة يتجسسان لهم الخبر ، فقتل أحدهما وأسر الآخر ثم قدم رضى الله تعالى عنه المدينة ، وجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك .

سرية سعيد بن زيد رضى الله تعالى عنه

وقيل كرز بن جابر رضى الله تعالى عنه وعليه الأكرهون . ومن ثم اقتصر عليه الحافظ الدمياطى ، أى وقيل جرير بن عبد الله البجلي . ورد بأن إسلام جرير بن عبد الله المذكور كان بعد هذه السرية بنحو أربع سنين [] إلى العرنيين .

وسببها أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر : أى ثمانية من عريته ، وقيل أربعة من عريته وثلاثة من عسكل ، والثامن من غيرهما مسلمين ، نطقوا بالشهادتين ، كانوا مجهودين قد كادوا يهلكون أى لشدة هزاهم وصفرة ألوانهم وعظم بطونهم ، وقالوا : يا رسول الله آونا وأطعمنا ، فأنزلهم صلى الله عليه وسلم عنده : أى بالصفة ثم قال لهم : أى بعد أن ذكروا له صلى الله عليه وسلم أن المدينة وبثة ونحة ، وأنهم أهل ضرع ولم يكونوا أهل ريف : لوخرجتم إلى ذود لنا : أى لقاح وكانت خمسة عشر فشربتم من ألبانها وأبوالها ، أى لأن فى لبن اللقاح جلاء وتليينا وإدرارا وتفتيحاً للسلد ، فإن الاستسقاء

وعظم البطن وإنما ينشأ عن السدد وآفة في الكبد . ومن أعظم منافع الكبد (١) لبن اللقاح ، لاسيما إن استعمل بحرارته التي يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل مع حرارته التي يخرج بها ففعلوا ثم لما صححت أجسامهم كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعيها وهو يسار مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومثلوا به : أي قطعوا يديه ورجليه ، وغرزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات واستاقوا اللقاح .

وفي لفظ أنهم ركبوا بعضها واستاقوها ، فأدركهم يسار ومعه نفر ، فقاتلهم فقطعوا يده ورجله ، الحديث .

وبلغه صلى الله عليه وسلم الخبر ، فبعث صلى الله عليه وسلم في آثارهم عشرين فارسا ، واستعمل عليهم من تقدم ، وأرسل معهم من يقص آثارهم ، فأدركهم فأحاطوا بهم فأسروهم ودخلوا بهم المدينة فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم : أي غورت بمسامير محماة بالنار ، وألقوا بالحرية : أي وهى أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ، يستسقون فلا يسقون . قال أنس رضى الله تعالى عنه : ولقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ليجد بردها لما يجده من شدة العطش حتى ماتوا على حالهم [] وأنزل الله فيهم (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية ، ولم يقع بعد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم سمل عينا . وفي لفظ أنهم لما أسروا ربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، فخرجوا بهم نحوه ، فلقوه بجمع السيول ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، وصلبوا هنالك ، وأنه صلى الله عليه وسلم فقد من اللقاح لقحة تدعى الحفياة ه فسأل عنها ، فقيل نحروها ، كذا في سيرة الخافظ الدمياطي ، وقدم فيها هذه السرية على سرية عمرو بن أمية الضمري رضى الله تعالى عنه .

سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

إلى طائفة من هوازن

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ثلاثين رجلا إلى عجز بفتح العين المهملة وبضم الجيم وبالزاي : محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء ، يقال له تربة بضم المثناة فوق وفتح الراء ثم موحدة مفتوحة ثم تاء . وأرسل صلى الله عليه وسلم دليلا من بنى هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر لهوازن فهربوا ، فجاء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه محالهم ، فلم يجد منهم أحدا ، فانصرف راجعا إلى المدينة ، فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل : هل لك جمع آخر من نخشم ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : لم يأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، إنما أمرنى بقتال هوازن .

سرية أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

إلى بنى كلاب

عن سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر وأمره علينا ، فسبى ناسا من المشركين ، فقتلناهم ، فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين ، ومازاده الأصل على هذا من قوله إن سلمة بن الأكوع قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر رضى الله تعالى عنه إلى فزارة الخ نسب فيه للوهم ، لأن ذلك كان فى سريته لبنى فزارة بوادى القرى ، وقد تقدمت ، فهما قضيتان مختلفتان جمع بينهما ، أى . وهذا الذى فى الأصل تبع فيه شيخه الخافض الدمياطى ، وفيه ما علمت .

سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله تعالى عنه

إلى بني مرة بفدك

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشير بن سعد في ثلاثين رجلا إلى بني مرة بفدك وتقدم أنها قرية بينها وبين المدينة ستة أميال ، فخرج فلقي رعاء الشاء ، فسأل عن الناس ففقيل في بواديهم ، فاستاق النعم والشاء ، وانحدر إلى المدينة ، فخرج الصريخ إليهم فأدركه منهم العدد الكثير عند الليل فباتوا يترامون بالنبل حتى فنى نبل أصحاب بشير ، أى فلما أصبحوا حملوا على بشير وأصحابه ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وولى من ولى منهم ، وقاتل بشير قتالا شديدا حتى ارتث : أى جرح وصار مابه رمق ، وضربت كاهه اختبارا لحياته فلم يتحرك ، ففقيل مات ، فرجعوا بنعمهم وشياهم ، وجاء إليه صلى الله عليه وسلم خبرهم ثم جاء بشير رضي الله تعالى عنه إلى المدينة بعد ذلك ، أى فإنه استمر بين القتلى إلى الليل ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك فأقام بفدك عند يهودى أياما حتى قوى على المشى ، وجاء إلى المدينة .

أقول : وهذا يدل على أن بني مرة الذين توجه إليهم بشير لم يكونوا بفدك ، بل بالقرب منها ، فيكون قوله أو لا لبني مرة بفدك فيه تسميح ، وأن بشيرا حصلت له هذه الحالة مرتين ، فلي تأمل .

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله تعالى عنه

إلى بني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالمقعة ، اسم محل وراء بطن نخل

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثي رضي الله تعالى عنه في مائة وثلاثين رجلا لبني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالمقعة ، ودليلهم يسار مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهجموا عليهم جميعا ووقعوا في وسط محالهم ، فقتلوا جمعا من أشرفهم واستاقوا نعما وشاء ، ولم يأسروا أحدا وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما الرجل الذي قال : لا إله إلا الله ، وهو مرداس بن نهيك . وفي سيرة الحافظ الدمياطي نهيك ابن مرداس ، والأول هو الذي في الكشاف ، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هلا شققت

عن قايه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟» فعن أسامة رضى الله تعالى عنه «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، فلما أعيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصارى ، وطعنته برمحى حتى قتله ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ قلت : إنما قالها متعوّذاً ، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم» أى تمنيت أن أكون أسلمت اليوم فيكفر عنى ما صنعت ، قال : كذا وقع في الأصل أن قتل أسامة للرجل الذى قال لا إله إلا الله كان في هذه السرية ، وقد تبع في ذلك ابن سعد . وإنما كان ذلك في سرية أسامة بن زيد للحرقة بضم الحاء المهملة وفتح الراء وبالقف ثم تاء تأنيث بطن من جهينة ، وسيأتى عن أسامة «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة ، فصبحناها ، فكان رجل يدعى مرداس بن نهبك إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا ، وإذا أدبروا كان من حاميتهم فهزمناهم ، فتبعته أنا ورجل من الأنصار ، فرفعت عليه السيف ، فقال لا إله إلا الله» وزاد في رواية «محمد رسول الله ، فكف الأنصارى ، فطعنته برمحى حتى قتله ، ثم وجدت في نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى ما أقدر على أكل الطعام ، حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلنى واعتقنى» قال بعضهم «وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ، ويجب أن يثنى عليه خيراً ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه ، فجعل القوم يحدثون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ولقيه رجل ، فقال الرجل لا إله إلا الله ، فشد عليه أسامة فقتله وهو صلى الله عليه وسلم يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه صلى الله عليه وسلم رفع رأسه الشريف لأسامة فقال : يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ فقال أسامة رضى الله تعالى عنه : إنما قالها خوفاً من السلاح» وفي رواية «إنما كان متعوّذاً من القتل ، قال أسامة رضى الله تعالى عنه : ولا زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر على حتى تمنيت أنى لم أسلم إلا يومئذ» انتهى .

والذى في الكشاف في تفسير قوله تعالى (ولا تقولوا لمن أتى إليكم السلام لست مؤمناً) أصله أن مرداس بن نهبك رجل من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره ففزعهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليها غالب بن فضالة اللبثى رضى الله تعالى عنه ، فهربوا وبقي

مرداس لثقتة بإسلامه . فلما رأى الخليل ألبأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال « لا إله إلا الله محمد رسول الله » السلام عليكم ، فقتله أسامة ابن زيد واستاق غنمه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فوجد وجدا شديداً وقال : قتلتموه إرادة ما معه ، ثم قرأ الآية على أسامة ، فقال : يا رسول الله استغفر لي ، قال : فكيف بلا إله إلا الله ؟ فإزال يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لي وقال : أعتق رقبة ، وسيأتي نحو ذلك في سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى مصاب بشير بن سعد .

ويبعد تعدد هذه الواقعة سيما في مواطن ثلاثة أو أربعة ، وكون يسار مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دليلاً في هذه السرية يقتضى أنها متقدمة على سرية العرينيين ، فقد تقدم أنهم قتلوه ثم رأيت في النور قال : ولعل هذا غير ذلك ، لكن لم أر له ذكراً في الموالى إلا أن يكون أحد موالى أقاربه عليه الصلاة والسلام فنسب إليه ، ومن ثم لم يشهد أسامة رضى الله تعالى عنه مع على كرم الله وجهه قتالاً ، وقال له : لو أدخلت يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها ، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله وقلت له : أعطى الله عهداً أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله ، والله أعلم .

سرية بشير بن سعد الأنصاري رضى الله تعالى عنه

إلى يمن

بفتح الياء آخر الحروف وقيل بضمها ، أو يقال أمن بالهمزة مفتوحة وسكون الميم ، وجبار بفتح الجيم : واد قريب من خيبر .

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من غطفان قد واعدتهم عيينة بن حصن : أى قبل أن يسلم رضى الله تعالى عنه ، ليكون معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشير بن سعد ، فعقد له لواء ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، فساروا الليل وكنوا النهار حتى أتوا المحل المذكور ، فأصابوا نعماً كثيراً ، وتفرق الرعاء بكسر الراء والمد ، وذهبوا إلى القوم ، وأخبروهم فتفرقوا ولحقوا بعلياً بلادهم ، وعلياً

بضم العين وسكون اللام مقصورا: نقيض السفلى، فلم يظفر بأحد منهم إلا برجلين أسروهما فرجع بالنعم والرجلين إلى المدينة ، فأسلم الرجلان ، فأرسلهما صلى الله عليه وسلم ، قال : والرجلان من جمع عيينة ، فإن المسلمين لما لقوا جمع عيينة انهزموا أمامهم وتبعوهم أخذوا منهم ذينك الرجلين انتهى ، أى وعيينة بن حصن كان يقال له الأحمق المطاع ، لأنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة ، وقيل له عيينة ، قال فى الأصل : لأن عينه حجفت : أى عظمت وكبرت ، فلقب بذلك رضى الله تعالى عنه .

سرية ابن أبى العوجاء السلمى رضى الله تعالى عنه

إلى بنى سليم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى العوجاء رضى الله تعالى عنه السلمى فى خمسين رجلا إلى بنى سليم ، فكان لهم جاسوس مع القوم ، فخرج إليهم وسبق القوم وحذرهم ، فجمعوا لهم جمعا كثيرا ، فجاءوا لهم وهم معدون لهم فدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : أى حاجة لنا بما تدعوننا إليه ؟ فتراموا بالنبل ساعة ، وجعلت الأمداد تأتهم ، وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية ، فقاتل المسلمون قتالا شديدا حتى قتل عامتهم ، وأصيب ابن أبى العوجاء جريحا مع القتلى ، ثم تحامل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه

إلى بنى الملوخ

بضم الميم وفتح اللام وتشديد الواو مكسورة ثم حاء مهملة بالكديد، بفتح الكاف وكسر الدال المهملة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثى فى بضعة عشر رجلا قال : وما نقل عن الواقدى أنهم كانوا مائة وثلاثين رجلا فذلك فى سرية لغالب غير هذه انتهى .

أقول : وهى المقدمة التى توجهت لبنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة بالميفعة ، والله أعلم . وأمر صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله وأصحابه أن يشنوا الغارة على القوم ، فخرجوا

حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثي فأسروه ، فقال : إنما خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أزيد الإسلام ، فقالوا له : إن كنت مسلماً لم يضرك ربطنا لك يوماً وليلة ، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك ، فشدوه وثاقاً ، وخلفوا عنده سويد بن صخر .
أى وفى لفظ : خلفوا عليه رجلاً أسود منهم ، وقالوا له : إن نازعك فاحترأسه ، وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس ، فكمنوا فى ناحية الوادى . قال جنذب الجهنى : وأرسلنى القوم جاسوساً لهم ، فخرجت حتى أتيت تلامشرفاً على الحاضر : أى القوم المقيمين بمحلهم . فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر ، إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته : إني لأنظر على هذا الجبل سواداً مارأيتة قبل ، انظري إلى أوعيتك لاتكون الكلاب جرت منها شيئاً . فنظرت فقالت : والله ما فقدت من أوعيتي شيئاً ، فقال : ناوليني قوسى ونبل ، فناولته قوسه وسهمين ، فأرسل سهماً ، فوالله ما أخطأ بين عيني ، فانزعته وثبت مكانى ، فأرسل آخر فوضعه فى منكبى ، فانزعته وثبت مكانى ، فقال لامرأته : والله لو كان جاسوساً لتحرك ، لقد خالطه سهمان لا أبالك : أى بكسر الكاف : أى لا كافل لك غير نفسك وهو بهذا المعنى يذكر فى معرض المدح ، وربما يذكر فى معرض الذم وفى معرض التعجب لا بهذا المعنى ، فإذا أصبحت فانظريهما لاتمضعهما الكلاب ثم دخل ، فلما اطمأنوا وناموا شينا عليهم الغارة ، واستقنا النعم والشاء بعد أن قتلنا المقاتلة وسينا الذرية ، أى ومروا على الحارث الليثي ، فاحتماوه واحتملوا صاحبهم الذى تركوه عنده ، فخرج صريخ القوم فى قومهم ، فجاء مالا قبل لنا به ، فصار بيننا وبينهم الوادى ، فأرسل الله سبحانه فأمطر الوادى ما رأينا مثله ، فسال الوادى بحيث لا يستطيع أحد أن يجوز به ، فصاروا وقوفاً ينظرون إلينا ونحن متوجهون إلى أن قدمنا المدينة .

أى وفى لفظ آخر : فقلنا القوم ينظرون إلينا ، إذ جاء الله بالوادى من حيث شاء يملأ جنبه ماء ، والله مارأينا يوماً سحاباً ولا مطراً ، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه فوقفوا ينظرون إلينا ، وقد وقع نظير ذلك : أى سيل الوادى لقطنة بن عامر حين توجه إلى بنى خثعم بناحية تبال كما سياتى .

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله تعالى عنه إلى مصاب

أصحاب بشير بن سعد رضي الله تعالى عنه

أى في بني مرة بفدك

لما قدم غالب من الكديد مؤبدا منصورا بعثه صلى الله عليه وسلم في مائتي رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد ، وذلك في بني مرة بفدك ، وكان قبل قدوم غالب هيا صلى الله عليه وسلم الزبير لذلك وعقد له لواء ، فلما قدم غالب رضي الله تعالى عنه قال صلى الله عليه وسلم للزبير اجلس ، فصار غالب رضي الله تعالى عنه إلى أن أصبح القوم فأغاروا عليهم ، وكان غالب رضي الله تعالى عنه قد أوصاهم بعدم مخالفتهم له ، وآخى بين القوم ، فساقوا نعمًا وقتلوا منهم .

قال : لما دنا غالب منهم ليلا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له وأن تطيعوني ولا تخالفوا لى أمرأ فإنه لا رأى لمن لا يطاع . وفي رواية : لا تعصوني ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من يطع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني » وإنكم متى ما تعصوني فإنكم تعصون نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ثم ألقى رضي الله تعالى عنه بين القوم ، فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك ؟ فيقول لا أدري ، فإذا كبرت فكبروا ، فاما أحاطوا بالقوم كبر غالب رضي الله تعالى عنه وكبروا معه ونجدوا السيوف ، فخرج الرجال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، وكان شعار المسلمين « أمت أمت » وكان في القوم أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما ، وتفقدته غالب رضي الله عنه فلم يره ، وبعد ساعة : أى من الليل أقبل ، فلامه غالب وقال : ألم تر إلى ما عهدت إليك ، فقال : خرجت في أثر رجل منهم جعل يتهمك بي حتى إذا دنوت منه وضربه بالسيف قال « لا إله إلا الله » فقال له الأمير : بشما فعلت وماجئت به ، تقتل امرأ يقول « لا إله إلا الله » فندم أسامة وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة ، وعدل البعير بعشرة من الغنم انتهى ، وتقدمت الحوالة على هذه ، وتقدم ما فيها .

وقوله هنا حتى إذا دنوت منه وضربته بالسيف قال « لا إله إلا الله » يقتضى أنه إنما قال « لا إله إلا الله » بعد ضربه بالسيف ؛ إلا أن يحمل على الإرادة ، وتقدم أنه طعنه برمح ، فليأمل .

سرية شجاع بن وهب الأسدي رضى الله تعالى عنه إلى بنى عامر

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب رضى الله تعالى عنه فى أربعة وعشرين رجلا إلى جمع من هوازن : أى يقال لهم بنو عامر ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يغير عليهم ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى أصبحهم وهم غافلون ، أى وقد نهى أصحابه أن يمعنوا فى الطلب ؛ فأصابوا نعماء وشاء ؛ واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة ، فكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيرا ؛ وعدل البعير بعشرة من الغنم .

سرية كعب بن عمير الغفارى رضى الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاق من أرض الشام وراء وادى القرى فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا كثيرا ، أى لأنه لما دنا كعب ابن عمير رضى الله تعالى عنه من القوم ذهب عين لهم فأخبروهم بقلة المسلمين [فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا ورشقوهم بالنبل . فقاتلهم المسلمون أشد القتال حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن عمير فإنه ظن قتله ؛ فلما أمسى تحامل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك عليه ، فهم بالبعث إليهم ؛ فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر ، فتركهم . أقول : لم أفق على السبب الذى اقتضى البعث إلى ذلك المحل ، والله أعلم .

سرية عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه إلى ذات الساسل

أرض بها ماء يقال له الساسل ، بضم السين الأولى وكسر الثانية . أى وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى . المشهور أنها بفتح الأولى ، قيل سمي المكان بذلك ، لأنه كان به رمل بعضه على بعض كالسلسلة . يقال ماء سلسل وسلسال ؛ إذا كان سهل الدخول

في الخلق لعذوبته وصفائه ، وتلك الأرض وراء وادي القرى ، وقيل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يغزوا .

أقول : وخالد بن الوائد رضى الله تعالى عنه في زمن الصديق غزاة مع أهل فارس يقال لها ذات السلاسل ، لكثرة من تسلسل فيها من الشجعان خوف الفرار ، فقتلوا عن آخرهم لأن السلاسل منعهم الهزيمة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاسل إلى الصديق رضى الله تعالى عنه ، والله أعلم .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا من قضاة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، أى وذلك بعد إسلامه بسنة ، وعقد له لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا . وأمره صلى الله عليه وسلم أن يستعين بمن يمر عليهم ، فصار الليل وكمن النهار حتى قرب من القوم ، فبلغه أن لهم جمعا كثيرا ، فبعث رافع بن كعب الجهني رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين مع سراة المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وعقد له لواء ، وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلحق بعمرو أبو عبيدة ، وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت على مددا وأنا الأمير ، قال : وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو : أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو : أنتم مدد لنا ، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف ، قال : لتعلم يا عمرو أن آخر شيء عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك ، قال : فإني الأمير عليك ، قال : فدونك اه [] أى لأن أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه كان حسن الخلق لين العريكة فكان عمرو يصلى بالناس .

أى وعن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، قال : بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي . فقال : يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك ؟ فقلت : إني لم أسلم رغبة في المال ، قال « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ورأوا جمعا كثيرا ، فحمل عليهم المسلمون فقتلوا . قال : وأراد المسلمون أن يتبعوهم ، فنعهم عمرو رضى الله تعالى عنه ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من

البرد فنعهم عمرو : أى وقال : كل من أوقد ناراً لأفدنه فيها ، فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد ، فكلمه بعض سراة المهاجرين في ذلك فغالظه عمرو في القول ، وقال له : قد أمرت أن تسمع لى وتطيع ؟ قال نعم ، قال : فافعل . ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه غضب وهم أن يأتيه ، فمنعه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فسكت ، واحتلم عمرو رضى الله تعالى عنه وكانت تلك اللياة شديدة البرد جدا ، فقال لأصحابه ماترون ؟ قد والله احتلمت . فإن اغتسلت مت ، فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس اه ثم بعث عمرو عوف بن مالك مبشرا للنبي صلى الله عليه وسلم بقدمهم وسلامتهم . قال : قال عوف بن مالك رضى الله تعالى عنه : جثته صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى بيته ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : عوف بن مالك ؟ فقلت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، قال : أخبرنى ، فأخبرته بما كان من مسيرنا وما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وبين عمرو ، ومطاوعة أبى عبيدة لعمرو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح ، وأخبرته بمنع عمرو رضى الله تعالى عنه للمسلمين من اتباع العدو ، ومن إيقاد النار ، ومن صلاته بأصحابه وهو جنب ، فلما قدم عليه عمرو كلمه صلى الله عليه وسلم فى ذلك قال : كرهت أن يوقدوا ناراً فىرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فىكون لهم مدد فيعطفون عليهم ، فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره . قال عمرو : وسألنى عن صلاتى فقال : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فقلت : والذى بعثك بالحق إنى لو اغتسلت لمت ، لم أجد برداً قط مثله ، وقد قال الله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فضحك صلى الله عليه وسلم اه .

أى ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن صلاة الصحابة خلفه ، فإنى لم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالقضاء .

سرية الخبط

وهو ورق السم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في ثلثة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى حى من جهينة في ساحل البحر ، وقيل ليرصدوا عيرا لقريش ، أى وعليه فتكون هذه السرية قبل الهدنة الواقعة في الحديبية ، لما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم بعد الهدنة لم يكن يرصد عيرا لقريش إلى الفتح ؛ وتعدد سرية الخبط بعيد ، فلا يقال يجوز أن تكون سرية الخبط مرتين : مرة قبل الهدنة ، ومرة بعدها ، ومن ثم حكم على هذا القول بأنه وهم . فأقاموا بالساحل نصف شهر ، فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط : أى كانوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم . فإن أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه كان يعطى الواحد منهم في اليوم والليلة تمر واحدة يمصها ثم يصرها في ثوبه .

أى وعن الزبير رضي الله تعالى عنه أنه قيل له : كيف كنتم تصنعون بالتمر ؟ قال : نمصها كما يمص الصبي ثدى أمه ، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل ، لأنه صلى الله عليه وسلم زودهم جرابا من تمر ، فجعل أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه يقوتهم إياه ، حتى صار بعدة لهم عدا ، حتى كان يعطى الواحد تمر كل يوم ثم بعد التمر أكلوا الخبط .

ولما رأى قيس بن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنهما ما بالمسلمين من جهد الجوع أى مشقته ، أى وقال قائلهم : والله لو لقينا عدو ما كان منا حركة إليه لما بالناس من الجهد ، قال : من يشتري منى تمرا أوفيه له في المدينة يجزر يوفيا إلى ههنا ؟ فقال له رجل من أهل الساحل : أنا أفعل ، لكن والله ما أعرفك ، فمن أنت ؟ قال : أنا قيس ابن سعد بن عبادة ، فقال الرجل : ما أعرفنى بسعد ، إن بينى وبين سيد خلة سيد أهل يثرب ، فاشترى خمس جزائر كل جزور بوسق من تمر . والوسق : بفتح الواو وكسرها ستون صاعا ، وجمع الأوّل أوسق ، والثانى أوساق ، فقال له الرجل : أشهدلى ، فقال

أشهد من تحب ، فأشهد نفرا من المهاجرين والأنصار من جملتهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

وقيل إن عمر رضى الله تعالى عنه امتنع من أن يشهد ، وقال : هذا يدآن ولا مال له إنما المال لأبيه . فقال الرجل : والله ما كان سعد ليخني بآبائه ، أى لا يوفى عن ابنه ما ألزمه ، فكان بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس رضى الله تعالى عنه الجزر فنحر لهم منها ثلاثة فى ثلاثة أيام ، وأراد أن ينحر لهم فى اليوم الرابع ، فهاه أبو عبيدة وقال له : عزمت عليك أن لاتنحر ، أتريد أن تخفر ذمتك ؛ أى لا يوفى لك بما التزمت ولا مال لك . فقال له قيس رضى الله تعالى عنه : أرى أباثابت ، يعنى والده سعدا يقضى ديون الناس ويطعم فى الجماعة ولا يقضى ديننا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله ؟

وفى البخارى أن قيسا رضى الله تعالى عنه نحر لهم تسع جزائر كل يوم ثلاثا ، ثم نهاه أبو عبيدة .

أى ومما يؤيد ما ذكر من أن الجزر كانت خمسة ، وأنه نحر لهم ثلاثة أيام كل يوم جزورا ما جاء فى بعض الروايات أنه بقى معه جزوران قدم بهما المدينة يتعاقبون عليهما فلينظر الجمع .

ثم إن البحر الذى لهم دابة هائلة يقال لها العنبر بحيث إن أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه نصب لهم ضلعا من أضلاعها . وفى لفظ : من أضلاعه ومر تحت أطول رجل فى القوم : أى وهو قيس بن سعد بن عبادة راكبا على أطول بعير لم يطأطى رأسه .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه ، أنه قال : دخلت أنا وفلان وفلان وعد خمسة نفر عينها مارآنا أحد . أى وفى لفظ . ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقدمهم فى وقب عينها ، فأكلوا منها أياما : أى نحو شهر وكانوا ثلثمائة .

فمن بعضهم : لما تفرحت أشداقتنا من الخبيط انطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا كهيئة الكتيب الضخم ، فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : ميتة ، ثم قال : اضطررتم فاكلوا ، فأقنا عليه شهرا ونحن ثلثمائة حتى سمننا ، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه الدهن بالقلال .

وفي رواية : فأخرجنا من عينه كذا وكذا قلة ودك ، وصحبوا من لحمها إلى المدينة ،
أى وقيل لها العنبر لأنها تبتلع العنبر .

فمن إمامنا الشافعي رضى الله تعالى عنه . قال : سمعت من يقول : رأيت العنبر نابتا
في البحر ملتويا مثل عتق الشاة ، وفي البحر دابة تأكله ، وهو سم لها فيقتلها فيقذفها البحر
فيخرج العنبر من جوفها .

وقيل العنبر اسم لسمكة مخصوصة في البحر هائلة الخلقه طولها وعرضا ، وقد أخبرني
بعض السفار أن جملا مات على شاطئ البحر ، فألقى في البحر ، فابتلته سمكة ، فوقف
أخفاف يديه في حلقها ، فجاءت سمكة فابتلعت تلك السمكة .

وفي زمن الحاكم بأمر الله وجدت سمكة بدمياط طولها مائتا ذراع وعرضها مائة وستون
ذراعا ، وكان يقف في حلقها خمس رجال بالمجاريف يجرفون الشحم ، وأقام أهل دمياط
يأكلون من لحمها خمسة أشهر .

ولما بلغ سعد بن عباد ما حصل للمسلمين من المجاعة قبل قدومهم قال : إن يكن
قيس ، يعنى ولده كما أعهد فلينحر للقوم . فلما قدم قيس قال له سعد : ما صنعت في
مجاعة القوم ؟ قال : نحرته ، قال أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نحرته ، قال : أصبت ،
قال : ثم ماذا ؟ قال : نحرته ، قال أصبت ، ثم قال ماذا ؟ قال : ثم نهيت ، قال : ومن
نهاك ؟ قال أميرى أبو عبيدة ، قال : ولم ؟ قال : زعم أنه لا مال لي ، وإنما المال لأبيك ،
فقلت له : أبى يقضى عن الأبعاد ويحمل الكحل ويطعم في المجاعة ولا يصنع هذا لي ؟
فلان لموافقتي ، فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع ، فقال سعد لولده قيس
ذاك أربع حوائط ، أى بساتين ، أذناها ما يتحصل منه خمسون وسقا . ثم إن قيسا رضى
الله تعالى عنه وفي الرجل صاحب الجزر ، وحمله : أى أعطاه ما يركبه ، وكساه ، فبلغ
النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل قيس ، قال : إنه في بيت جود . إن الجود لمن شيمة أهل
ذلك البيت .

أى ومن ثم قال بعضهم : لم يكن في الأوس والخزرج مطعمون يتوالدون في بيت
واحد إلا قيس وأبوه سعد وأبوه عبادة وأبوه دليم ، كان في كل يوم يقف شخص على أطم
ينادى : من يريد الشحم واللحم فعليه بدار أبى دليم .

أى وكان أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالاثنين والرجل بالجماعة ، وأما سعد فينطلق بالثمانين .

وعن سعد بن عباد « زارنا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، ثم قال : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عباد » .
قال : ويذكر أن سعدا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : من عذيري من ابن الخطاب يبخل على ابني ، اه .

ويذكر عن سعد بن عباد أنه كان شديد الغيرة ، لم يتزوج إلا بكرا ، وماطلق امرأة وقدر أحد أن يتزوجها .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه : فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر العنبر ، فقال : رزق أخرجه الله تعالى لكم ، لعل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ، فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله أى ولم يكن أروح ، بدليل أنه صلى الله عليه وسلم قال : لو نعلم أنا ندركه لم يروح لأحبينا لو كان عندنا منه ، قال ذلك ازديادا منه .

سرية أبي قتادة رضى الله تعالى عنه إلى غطفان

أرض محارب

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة في خمسة عشر رجلا إلى غطفان ، وأمره أن يشن الغارة عليهم ، فصار يسير الليل ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم ، وأحاط بهم ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا الإبل والغنم ، فكانت الإبل مائة بعير ، والغنم ألفي شاة ، وسبوا سبايا كثيرة ، فأصاب كل رجل بعد إخراج الخمس اثني عشر بعيرا ، وعدل البعير بعشرين من الغنم . ووقع في سهم أبي قتادة رضى الله تعالى عنه جارية حسناء وضيئة ، فاستوهبها منه صلى الله عليه وسلم ، فوهبها له ، ثم وهبها صلى الله عليه وسلم لشخص ، أى كان وعده بجارية من أول فيء نبيء الله به ، فجاء ذلك الشخص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب جارية وضيئة وقد كنت وعدتني جارية من أول فيء نبيء الله به عليك ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي قتادة ، قال : هب لي الجارية ، فوهبها له الحديث .

سرية عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضى الله تعالى عنه

إلى الغابة

وهي الشجر الملتف .

قال عبد الله المذكور : تزوجت امرأة من قومي ، فجيئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستعينه على ذلك ، فقال : كم أصدقت ؟ قلت : مائتي درهم . فقال : سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واديكم هذا . وفي لفظ : لو كنتم تغرفونها من ناحية بطحان ما زدتم . والله ما عندي ما أعينك ، فلبثت أياما ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا يقال له رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة في جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلين من المسلمين ، فقال : اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتونى منه بخبر ، ودفع لنا شارفا عجماء : أى ناقة مسنة ، وقال : تبلغوا عليها ، واعتقبوها ، فركبها أحدنا ، فوالله ما قامت به ضعفا حتى ضربت ، فخرجنا ومعنا سلاحنا النبل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريبا من القوم عند غروب الشمس ، فكنت في ناحية وصاحبي في ناحية أخرى ، فقلت لهما : إذا سمعتماني قد كبرت فكبرا ، فوالله إنا كذلك ننتظر غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة المجمع للقوم خرج في طلب راع لهم أبطأ عليهم وتخوفوا عليه ؛ فقال له نفر من قومه : نحن نكفيك ولا تذهب أنت ، فقال : والله لا يذهب إلا أنا ، فقالوا فنحن معك ، فقال : والله لا يتبعني أحد منكم ، وخرج حتى مر بي ، فلما أمكنتني نفحته : أى رميته بسهم فوضعت في فؤاده ، فوالله ما تكلم ، ووثبت عليه فاحتزرت رأسه ، وشدت في ناحية العسكر وكبرت ، وشدت أصحابي وكبرا ، فهرب القوم واستقنا إبلا وغنما كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجئت برأسه أحمله معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعانتني رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيرا في صدأتي .

قال : وبعضهم جعل هذه السرية وسرية أبي قتادة إلى غطفان بأرض محارب التي قبل هذه واحدة ، أى ومن ثم ذكرتها عقبها خلاف ما صنع في الأصل .

قال : ويدل لكونهما واحدة ما نقل عن عبد الله بن أبي حدود ، قال : لما طلبت منه صلى الله عليه وسلم الإعانة في مهر زوجتي ، قال لي : ما وافقت عندنا شيئا أعينك به ، ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلا في سرية ، فهل لك أن تخرج فيها فلاني أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك ، فقلت : نعم ، فخرجنا حتى جئنا الحاضر : أي وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه ، أي كما تقدم ؛ فلما ذهبت فحمه العشاء : أي إقباله وأول سواده ، خطبنا أبو قتادة ، وأوصانا بتقوى الله تعالى ، وألف بين كل رجلين ، وقال : لا يفارق كل رجل زميله حتى يفقل : أي يرجع ، ولا يجيء إلى الرجل فأسأله عن صاحبه ، فيقول لا علم لي به ، وإذا كبرت فكبروا ، وإذا حملت فاحملوا ، ولا تمنعوا في الطلب ، فأحطنا بالحاضر ، فجرد أبو قتادة سيفه وكبر وجردنا سيوفنا وكبرنا معه ، وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل ، فأقبل علىّ قال : يا مسلم هلم إلى الجنة يتحكم بي ، فلت إليه فذهب أمامي : أي وصار يقبل علىّ بوجهه مرة ويدبر عني بوجهه مرة أخرى ، فتبعته ، فقال لي صاحبي : لا تتبعه فقد نهانا أميرنا أن نمنع في الطلب ، ولا زال كذلك ، وقال : إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر ، فأدرسته فرميته بسهم فقتلته ، وأخذت سيفه وجئت صاحبي فأخبرني أنهم جمعوا الغنائم ، وأن أبا قتادة تغيظ علىّ وعليك ، فجئت أبا قتادة فلامني فأخبرته الخبر ، ثم سقنا النعم ، وحملنا النساء ، وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، ثم لما أصبحنا رأيت في السبي امرأة كأنها ظبي تكثر الالتفات خلفها وتبكي ، فقلت لها : أي شيء تنظرين ؟ قالت : والله أنظر إلى رجل لئن كان حيا ليسنقذنا منكم ، فوقع في نفسي أنه الذي قتلته ، فقلت لها : والله قد قتلته ، وهذا والله سيفه معلق بالقتب ، فقالت : فألق إلىّ غمده ، فقلت : هذا غمد سيفه ، فلما رآته بكت ولبثت انتهى ، ولا ينبغي أن السياق في كل يبعد كونهما واحدة .

سرية أبي قتادة رضي الله تعالى عنه

إلى بطن أضم

اسم موضع أو جبل .

لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة رضي الله تعالى عنه في ثمانية نفر من جملةهم محكم بن جثامة الليثي إلى بطن أضم ، ليظن ظان أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم توجه إلى تلك الناحية وتنشر بذلك الأخبار ، فرّ عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محكم فقتله ، أى لشيء كان بينه وبينه ، وسلبه متاعه وبغيره ، وعند وصولهم إلى المحل رجعوا ، فباغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إلى مكة ، فوالوا إليه حتى لقوه ، قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحكم : أقتلته بعد ما قال آمنت بالله ؟ وفى رواية : بعد ما قال إني مسلم ؟ أى أتى بما لم يأت به إلا مؤمن آمن بالله وكان مسلماً ، قال : يارسول الله إنما قالها : أى تحية الإسلام متعوذاً ، قال : أفلا شققت عن قلبه ؟ قال : لم يارسول الله ؟ قال : لتعلم أصادق هو أم كاذب . أى وفى رواية فقال : يارسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما فى قلبه ؟ فقال له : فلا أنت قبلت ما تكلم به ، ولا أنت تعلم ما فى قلبه ، فقال : استغفر لى يارسول الله ، فقال : لاغفر الله لك ، فقام يتلقى دمه بيرده اهـ وأنزل الله تعالى فيه (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتيقنوا ولا تقولوا لمن أتىكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) إلى آخر الآية .

وذكر ابن إسحاق فى خبر محكم : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بجنين ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها ، فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن بختصان فى عامر ابن الأضبط ؛ عيينة بن حصن يطلب دمه ؛ أى ويقول : والله يارسول الله إني لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحر مثل ما أذاق نساءى ، والأقرع يدافع عن محكم ، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعيينة ومن معه : بل تأخذون الدية خمسين فى سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا ، وهو يأبى عليه ؛ فلم يزل به حتى انفقا على الدية ، ثم قالوا : إن محكم يستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام محكم وهو رجل آدم طويل : أى عليه حلة قد كان تهباً للقتل فيها حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه تدمعان ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : أنا محكم ، قد فعلت الذى بلغك ، وإني أتوب إلى الله تعالى ، واستغفر لى يارسول الله ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم لا تغفر لمحكم ، قالها ثلاثاً بصوت عال ، فقام يتلقى دمه بفضل ردائه ، فامكث إلا سبعا حتى مات فلفظته الأرض مرات حتى ضموا عليه الحجارة وواروه .

أى ولما أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال لهم : إن الأرض تقبل من هو

شر من صاحبكم ، ولكن الله يعظكم : أى وفى رواية : إن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله : أى حرمة من يأتى بها .

ولفظ الأرض له ردّ ما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر له بعد دعائه عليه ، إلا أن يكون المراد استغفر له بعد موته ، ويوافق ما فى بعض الروايات : أراد الله أن يجعله موعظة لكم لكيلا يقدم رجل منكم على قتل من يشهد أن لا إله إلا الله ، أو يقول إنى مسلم ، اذهبوا به إلى شعب بنى فلان فادفنوه فإن الأرض ستقبله ، فدفنوه فى ذلك الشعب ، فيجوز أن يكون استغفر له حينئذ ، وقيل إن الذى لفظته الأرض غير محكم ، لأن محكما مات بمحص أيام ابن الزبير رضى الله تعالى عنه ، والذى لفظته الأرض اسمه فليت .

سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه

إلى العزى

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى بن فتح مكة الوليد فى ثلاثين فارسا من أصحابه إلى العزى ، وهو صنم كان لقريش ، وكان معظما جدا ، وفى لفظ : العزى نخلات أى سمرة مجتمع ، لأنه كان يهدى إليها كما يهدى إلى الكعبة ، لأن عمرو بن لحي أخبرهم أن الرب يشقى بالطائف عند اللات ويصيف عند العزى ، فلما وصل إلى محلها أى وكان بناء على ثلاث سمرة ، فقطع السمرة ، وهدم ذلك البناء ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فقال له : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا ، قال : فارجع إليها ، فرجع خالد وهو متغيظ ، فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس : أى شعر رأسها منتشر تحثو التراب على رأسها ، فجعل السادن يصيح بها : أى يقول : يا عزى عوريه ، يا عزى خبليه ، فضر بها خالد فقطعها نصفين : أى وهو يقول :

يا عزى كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم تلك العزى .

سرية عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى سواع

بالعين المهملة: أى سعى باسم سواع بن نوح عليه السلام، وكان على صورة امرأة وكان يقوم نوح، ثم صار لهذيل. كانوا يحجون إليه: أى قبل فتح مكة، وبعد ذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله. قال عمرو رضى الله عنه: فانتهيت إلى ذلك الصنم وعنده سادنه: أى خادمه، فقال لى: ما تريد؟ فقلت: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه، قال: لا تقدر، قلت لم؟ قال: تمنع. قلت: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك وهل يسمع أو يبصر؟ فدنوت منه فكسرتة، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيها شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

سرية سعد بن زيد الأشهلى رضى الله عنه إلى مناة

صنم كان للأوس والخزرج.

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأشهلى في عشرين فارساً إلى مناة ليهدم محله، فلما وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد إلى ذلك الصنم، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصيانك، فضربها سعد رضى الله عنه فقتلها، وهدم محلها.

سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى بنى جذيمة

بناحية يلعلم يدعوهم إلى الإسلام، أى ولم يكن صلى الله عليه وسلم علم بإسلامهم ولم يأمره بمقتلهم. أى إذا لم يسلموا.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار ومن بنى سليم، أى وهو عليه الصلاة والسلام مقيم بمكة إلى بنى جذيمة، وكانوا في الجاهلية قد قتلوا الفاكه عم خالد، وقتلوا أخا الفاكه أيضاً

في الجاهلية ، وكانوا من أشرحى في الجاهلية وكانوا يسمون لعقة الدم ، وقتلوا والد عبد الرحمن بن عوف ، فلما علموا به وعلّموا أن معه بنى سليم وكانوا قتلوا منهم مالك بن الشريد وأخويه في موطن واحد خافوه ، فلبسوا السلاح ، فلما انتهى خالد رضى الله عنه إليهم تلقوه ، فقال لهم خالد : أسلموا ، فقالوا نحن قوم مسلمون . قال : فألقوا سلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل ، ما نحن بآمنين لك ولا لمن معك . قال خالد : فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا ، فزلت فرقة منهم فأسرهم وتفرقت بقية القوم .

وفي رواية : لما انتهى خالد إلى القوم فتلقوه ، فقال لهم : ما أنتم ؟ أى أمسلمون أم كفار ؟ قالوا : مسلمون ، قد صلينا ، وصدقنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبنينا المساجد في ساحتنا وأذنا فيها . وفي لفظ : لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فقالوا : صبأنا صبأنا ، قال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخشنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح ، قال : فضعوا السلاح فوضعوا ، فقال : استأسروا ، فأمر بعضهم فكثف بالتخفيف بعضا وفرقهم في أصحابه ، فلما كان في السحر نادى منادى خالد رضى الله عنه : من كان معه أسير فليقتله ، فقتل بنو سليم من كان معهم ، وامتنع المهاجرون والأنصار رضى الله تعالى عنهم ، وأرسلوا أسراهم ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل خالد ، أى فإن رجلا من القوم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما فعل خالد ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ قال : نعم ، رجل أصفر ربة ، ورجل طويل أحمر ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : والله يارسول الله أعرفهما ؛ أما الأول فهو ابني فهذه صفته ، وأما الثاني فهو سالم مولى أبي حذيفة ؛ فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ، أى قال ذلك مرتين ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب كرم الله وجهه فودى لهم قتلاهم ، قال له صلى الله عليه وسلم : يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، ودفع إليه صلى الله عليه وسلم مالا : أى إبلا وورقا ، يدي به قتلاهم ، ويعطيهم منه بدل ما تلف عليهم من أموالهم ، فودى قتلاهم ، وأعطاهم عوض ما تلف عليهم حتى ميغلة الكلب : أى الإناء التى يشرب فيها ، حتى إذا لم يبق لهم دم ولا مال ، قال : هل بقي لكم دم أو مال ؟ قالوا : لا ، قال : أعطيتكم ما بقي معي من المال احتياطا بدل ما لا تعلمون : أى مما تلف من

أموالكم ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبت وأحسنتم أي وزاد .

وفي رواية : والذي أنا عبده لهُ أحب إلى من حمر النعم ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة شاهرا يديه يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات انتهى .

ووقع بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما شر بسبب ذلك ، فقال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام ، فقال له : إنما أخذت بثأر أبيك ، فقال له عبد الرحمن : كذبت ، أنا قتلت قاتل أبي . أي وفي رواية : كيف تأخذ مسلمين يقتل رجل في الجاهلية ؟ فقال خالد : ومن أخبركم أنهم أسلموا ؟ فقال : أهل السرية كلهم أخبروا بأنك قد وجدتهم بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ، فقال : جاءني أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أغير ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أخذت بثأر عمك الفاكه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً فأنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل منهم ولا روحته ، أي والغدوة : السير في أول النهار إلى الزوال . والروحة : السير من الزوال إلى آخر النهار .

والمراد بأصحابه هنا السابقون إلى الإسلام ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، بل هو المراد كما تصرح به الرواية الآتية ، فقد نزل صلى الله عليه وسلم الصحابة غير السابقين الذين يقع منهم الرد على الصحابة غير السابقين - لكون ذلك لا يليق بهم - منزلة غير الصحابة . قال : ولما عاب عبد الرحمن على خالد الفعل المذكور أعان عبد الرحمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عن خالد وقال : يا خالد ذر أصحابي . وفي رواية « لا تسب أصحابي لو كان لك أحد ذهباً فأنفقته قيراطاً قيراطاً في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحته من غدوات أو روحات عبد الرحمن » انتهى .

أي ولا يخفى أنه يبعد أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إنما قتلهم لقولهم صبياناً ولم يقولوا أسلمنا ، إلا أن يقال : يجوز أن يكون خالد فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام ، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما أنكر عليه العجلة وترك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبياناً ، ثم لا يخفى أنه جاء « لا تسبوا أصحابي ، فلو أنفق

أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » ونقل الإمام السبكي عن الشيخ تاج الدين بن عطاء الله : فإنه كان يحضر مجلس وعظه أن قوله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابي كان خطاباً لمن يأتي بعده من أمته ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان له تجليات ، فرأى في بعضها سائر أمته الآتين من بعده ، فقال خطاباً لهم : لا تسبوا أصحابي ، وارتضى منه هذا التأويل هـ . فالنهي والخطاب بلا تسبوا أصحابي لغير الصحابة تنزيلاً للغائب الذي لم يوجد منزلة الموجود الحاضر . وفيه أن هذا لا يساعد عليه المقام .

وفي الحديث من التنويه برفعة الصحابة وعلو منزلتهم ما يقطع الأطماع عن مداناتهم ، فإن كون ثواب إنفاق مثل جبل أحد ذهباً في وجه الخير لا يبلغ ثواب التصديق بنصف المدّ الذي إذا طحن وعجن لا يبلغ الرغيف المعتاد أمر عظيم .

أقول : ووقع لخالد رضي الله تعالى عنه نظير ذلك في زمن خلافة الصديق .

فإن العرب لما ارتدت بعد موته صلى الله عليه وسلم عين خالدًا لقتال أهل الردة وكان من جملتهم مالك بن نويرة ، فأمره خالد هو وأصحابه ، وكان الزمن شديد البرد ، فنادى منادى خالد : أن ادفنوا أسراكم ، فظن القوم أنه أراد ادفنوا أسراكم : أي اقتلوهم ، فقتلوهم ، وقتل مالك بن نويرة ، فلما سمع خالد بذلك ، قال : إذا أراد الله أمراً أمضاه ، وتزوج خالد رضي الله عنه زوجة مالك بن نويرة وكانت من أجل النساء . ويقال إن خالدًا استدعى مالك بن نويرة وقال له : كيف ترتد عن الإسلام وتمنع الزكاة ؟ ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة ؟ فقال : كان صاحبكم يزعم ذلك ، فقال له : هو صاحبنا وليس هو بصاحبك ، يا ضرار اضرب عنقه ، وأمر برأسه فجعل ثالث حجرين جعل عليها قدر يطبخ فيه لحم ، فعل ذلك إرجافاً لأهل الردة : فلما بلغ سيدنا عمر ذلك قال للصديق رضي الله تعالى عنهما اعزله ، فإن في سيفه رهقاً كيف يقتل مالسكا ويأخذ زوجته ؟ فقال الصديق رضي الله تعالى عنه : لا أحمّد سيفاً سله على الكافرين والمنافقين ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين والمنافقين » وقال الصديق رضي الله تعالى عنه في حق خالد : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد .

وفي كلام السهيلي أنه روى عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر الصديق : إن في سيف خالد رهقاً فاقتله ، وذلك حين قتل مالك بن نويرة وجعل رأسه تحت قدر حتى

طبخ به ، وكان مالك ارتد ثم رجع إلى الإسلام ولم يظهر ذلك لخالد ، وشهد عنده رجلان من الصحابة برجوعه إلى الإسلام فلم يقبلهما وتزوج امرأته ، فلذلك قال عمر لأبي بكر اقتله ، فقال : لأفعل لأنه متأول ، فقال : اعزله ، فقال : لأغمد سيفاً سله الله تعالى على المشركين ، ولا أعزل والياً ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قيل وأصل العداوة بين خالد وسيدنا عمر رضي الله عنهما على ما حكاه الشعبي أنهما وهما غلامان تصارعا ، وكان خالد ابن خال عمر ، فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت .

ولما ولي سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه الخلافة أول شيء بدأ به عزل خالد لما تقدم ، وقال : لا يلي لي عملاً أبداً . وقيل لكلام بلغه عنه ، ومن ثم أرسل إلى أبي عبيدة : إن أكذب خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه ، وإن لم يكذب نفسه فهو معزول ، فانزع عمامته وقاسمه ماله نصفين فلم يكذب نفسه ، فقاسمه أبو عبيدة ماله حتى إحدى نعليه وترك له الأخرى وخالد يقول : سمعا وطاعة لأمر المؤمنين .

وبلغه أن خالداً أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف وقد قصده ابتغاء إحسانه ، فأرسل لأبي عبيدة أن يصعد المنبر ويوقف خالداً بين يديه وينزع عمامته وقلنسوته ويقيده بعمامته ، لأن العشرة آلاف إن كان دفعها من ماله فهو سرف ، وإن كان من مال المسلمين فهي خيانة ، فلما قدم خالد رضي الله تعالى عنه على عمر رضي الله تعالى عنه قال له : من أين هذا اليسار الذي تجيز منه بعشرة آلاف ؟ فقال : من الأنفال والسهمان ، قال : ما زاد على التسعين ألفاً فهو لك ، ثم قوّم أمواله وعروضه وأخذ منه عشرين ألفاً ، ثم قال له : والله إنك على لكريم ، وإنك لحبيب ، ولم تعمل لي بعد اليوم على شيء ، وكتب رضي الله عنه إلى الأمصار : إنني لم أعزل خالداً عن مبخلة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، أي وأن نصر خالد على من قاتله من المشركين ليس بقوته ولا بشجاعته ، بل بفضل الله .

فالصديق لم يعزل خالد بن الوليد مع فعله ما يبكره بتأويل له في ذلك ، كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يعزله مع فعله لما كرهه صلى الله عليه وسلم حيث رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد ، لكونه كان شديداً على الكفار ، لرجحان

المصلحة على المفسدة . وسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه عزاه لخوف افتتان الناس به ، فعزله
وولى أبا عبيدة بن الجراح .

قال بعضهم : كان الصديق رضى الله تعالى عنه لنا وخالد بن الوليد شديدا ، وعمر رضى
الله عنه كان شديدا وأبو عبيدة لنا ، فكان الأصاح لكل منهما أن يولى من ولاه ليحصل
التعادل ، والله أعلم .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في القوم رجل قال لهم أنا لست من هؤلاء
ولكنى عشقت امرأة فلحققتها ، فدعوني أنظر إليها ثم افعلوا بي ما بدا لكم ، ثم أشار إلى نسوة
مجتمعات غير بعيد . قال بعضهم : فقلت : والله ليسير ما طلب ، فأخذته حتى أوقفته
عليهن فأنشد أبياتا ، ثم جئت به ، فقدموه فضربت عنقه ، فقامت امرأة من بينهن ،
فجاءت حتى وقفت عليه فشبهت بفتح الهاء شهقة أو شهقتين ثم ماتت . أى وفي رواية
فأكبت عليه تقبله حتى ماتت انتهى . أى وفي رواية فانحدرت إليه من هو دجها فحنت عليه
حتى ماتت ، فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما كان فيكم رجل
رحيم القلب » .

سرية أبي عامر الأشعري رضى الله عنه إلى أوطاس

لما انصرف صلى الله عليه وسلم من حنين وانهمز المشركون عسكر منهم طائفة بأوطاس ،
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عامر الأشعري عم أبي موسى الأشعري في جماعة فيهم
أبو موسى الأشعري . ووقع في الأصل أن أبا عامر ابن عم أبي موسى الأشعري قال في النور
وهو غلط ، وإنما أبو موسى ابن أخي أبي عامر . فاحقوا بالقوم وتناوشوا القتال : أى
تكافتوا فيه ، وبارز أبو عامر تسعة ، ويقال إنهم إخوة وهو يقتلهم واحدا بعد واحد ،
أى وصار كل من برز له منهم يدعو إلى الإسلام فيأبى فيقول اللهم اشهد ويحمل عليه
فيقتله . ثم برز له أخوه العاشر فقتل أبا عامر ؛ أى فإنه قال له أسلم فأبى ، فقال : اللهم اشهد
فقال : اللهم لا تشهد وفرش يديه ، فظن أبو عامر أنه أسلم فكف عنه ، فعاد إلى أبي عامر
فقتله ثم أسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه ، وكان إذا رآه صلى الله عليه وسلم يقول : هذا شريد
أبي عامر .

قال : وعن أبي موسى الأشعري قال : جئت لأبي عامر وفيه رمق فقلت : يا عم من

رماك ؟ فقال : ذاك ، وأشار إلى شخص من القوم ، فقصده فلاحقته ، فلما رآني ولى ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحي ألا تثبت ؟ فثبت ، فاختلفنا ضربتين فقتلته ، ثم قلت لأبي عامر : قد قتل الله صاحبك ، قال : فازرع هذا السهم فزرعته ، فقال : يا ابن أخي بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مني السلام وقل له يستغفر لي ، وقال : ادفع فرسي وسلاحي له انتهى ، فليتأمل الجمع بين هذا وما قبله .

وقبل أن يموت أبو عامر رضى عنه استخلف ابن عمه أبا موسى ودفع الراية له . وفي لفظ : أن أبا عامر رماه واحد فأصاب قلبه ، ورماه آخر فأصاب ركبته فقتلاه ، وولى الناس أبا موسى فحمل عليهما فقتلتهما : أى وفتح الله عليهما ، وانهمز المشركون وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا .

ولما رجع أبو موسى رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بموت أبي عامر استغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «اللهم اجعله من أعلى أمتي في الجنة» أى وفي رواية : «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» ودعا لأبي موسى أى فقال : «اللهم اغفر له ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما» .

سرية الطفيل بن عمرو الدوسى رضى الله عنه إلى ذى الكفين

صنم عمرو بن حميمة الدوسى ليهدمه

لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى الطائف بعث الطفيل رضى الله تعالى عنه لهدم ذى الكفين ، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف ، فخرج سريعا إلى قومه ، فهدم ذى الكفين ، وجعل يحشى النار في وجهه ، وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا ، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر الأزدي من يحمل رايتكم ؟ فقال الطفيل : من كان يحملها في الجاهلية النعمان بن الراوية ، قال : أصبتم .

سرية عينة بن حصن الفزاري رضى الله تعالى عنه

إلى بنى تميم

أى وسبها أنه صلى الله عليه وسلم بعث بشر بن سفيان إلى بنى كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بنى تميم على ماء ، فأخذ بشر صدقات بنى كعب ، فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك : لم تعطونهم أموالكم ؟ فاجتمعوا وأشهروا السلاح ، ومنعوا بشرا من أخذ الصدقة ، فقال لهم بنو كعب : نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة ، فقال لهم بنو تميم : والله لاندع يخرج بعير واحد ، ولما رأى بشر رضى الله تعالى عنه ذلك قدم المدينة ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينة بن حصن الفزاري إلى بنى تميم في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، فهجم عليهم ، وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة . وفى لفظ : إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فجاء بهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث ، فجاء فى أثرهم جماعة من رؤسائهم ، منهم عطارد ابن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهم ، ورياح بكسر الراء والمثناة تحت ابن الحارث ، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري ، فجاءوا إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم ، أى بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستبظوه ، فجاءوا من وراء الحجرات ، فنادوا : أى بصوت جاف : اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين ، يا محمد اخرج إلينا ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أى وقد تأذى من صياحهم ، وأقام بلال رضى الله تعالى عنه الصلاة ، وتعلقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه ، فوقف معهم : أى قالوا له : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر ثم جلس فى صحن المسجد ، أى بعد أن قالوا له ما تقدم ، ومنه : إن مدحنا لزين ، وإن شتمنا لشين ، نحن

أكرم العرب ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم ، بل مدح الله عز وجل الزين وشتمه الشين ، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام ، ثم قالوا له : فائذن لخطيبنا وشاعرنا ، قال : أذنت فليقم . وفي لفظ : إني لم أبعث بالشعر ، ولم أومر بالفخر ، ولكن هاتوا ، فقدموا عطاردا بن حاجب .

وفي لفظ قال الأقرع بن حابس لشاب منهم : قم ياقلان فاذكر فضلك وفضل قومك ، فتكلم وخطب ، أى فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف . وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم عددا ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخر فليعدد مثل ماعدنا ، وإنا لو شئنا لأكثرنا ، وإنما أقول قولى هذا لأن يأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس . أى وفي رواية أنه قال : الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه ، وأعطانا أموالا نفعل فيها مانشاء ، فنحن خير أهل الأرض ، وأكثرهم عددا ، وأكثرهم سلاحا ، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا أو بفعال هى أفضل من فعالنا .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه ، أى قال له : قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت رضى الله تعالى عنه فقال : الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرميه علمه ، ولم يكن شىء قط إلا من فضله ؛ ثم إنه كان من فضله أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ؛ أكرمه نسبا ، وأصدقه قلبا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، واثمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان فأمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوو رحمة ؛ أكرم الناس أحسابا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس مقالا ، ثم كان أول الناس إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ورسوله ؟ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله ، فمن آمن بالله ورسوله منع دمه وماله ، ومن كفر جاهدناه فى الله ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

أى وفي رواية أنه قال : الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، دعا المهاجرين من بنى عمه ، أحسن الناس وجوها ، وأعظم الناس أحلاما فأجابوه . والحمد لله الذى جعلنا أنصاره .

ووزراء رسوله وعزا الدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله ، ومن أباهها قاتلناه . وكان رغبة في الله علينا هينا ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

ثم قال الزبيرقان لرجل منهم : فقم يا فلان فقل آياتنا تذكرك فيها فضلك وفضل قومك ، فقال آياتنا منها :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا نحن الرعوس وفينا يقسم الربع
إذا أبينا فلا يأتى لنا أحد إنا لذلك عند الفخر ترتفع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على بحسان بن ثابت ، فحضر ، فقال له : قم فأجبه ، فقال : يسمعنى ما قاله ، فأسمعه ، فقال حسان رضى الله تعالى عنه آياتنا ، منها :

نصرنا رسول الله والدين عنوة على من رغم عات بعيد وحاضر
وأحيأونا من خير من وطى الحصا وأمواتنا من خير أهل المقابر

وثابت بن قيس هذا كان يعرف بخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، افتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال : من يعلم لى علمه ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فذهب فوجده فى منزله جالسا منكسا رأسه ؟ فقال له : ما شأنك ؟ قال : أخشى أن أكون من أهل النار لأنى رفعت صوتى فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم . فرجع الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه . فقال : اذهب إليه فقل له : لست من أهل النار . ولكنتك من أهل الجنة ، وقال صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس « قتل يوم اليمامة ، وكان عليه درع نفيسة ، فربه رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من المسلمين نأثم أنه ثابت فى منامه فقال له : إني أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيبه ، إني لما قتلت مربي رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس ، عند خبائه فرس ، وقد كفا على الدرع برمة وفوق البرمة رحل ، فأث خالد فره فليأخذها ، فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه فقل له : إن على من الدين كذا وكذا وفلان من رقيق عتيق ، فاستيقظ الرجل فأث خالد فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأثى بها بعد أن وجدها على ما وصف ، وحدث أبا بكر رضى الله تعالى عنه برؤياه فأجاز وصيته . قال بعضهم : ولا يعلم أحد حدث وصيته بعد موته سواه .

ووقعت مفاخرة بين الزبرقان بن بدر وبين حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه كل
منهما يذكر قصيدة يذكر فيها فخرا : فمن قصيدة الزبرقان بن بدر وهو مطلعها :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
ومن قصيدة حسان رضى الله تعالى عنه وهو مطلعها :

إنا أبينا ولم يأبى لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وفيه أن هذا البيت من قول بعض بنى تميم ، وقد أسمعه لحسان كما تقدم فليتأمل .
ووقعت مفاخرة بين الأقرع بن حابس وبين حسان رضى الله تعالى عنه ، فقال الأقرع
ابن حابس : إني والله يا محمد قد قلت شعرا فاسمعه ، فقال له صلى الله عليه وسلم :
هات ، فأنشد :

أتيناك كما يعرف الناس فضلنا إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وإنا رءوس الناس من كل معشر وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا حسان فأجبه ، فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم
هياتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأقرع : لقد كنت غنيا يا أخا بنى دارم أن
تذكر ما كنت ترى أن الناس قد نسوه ، فكان هذا القول من رسول الله صلى الله عليه
وسلم أشد عليهم من قول حسان رضى الله تعالى عنه . وحينئذ قال الأقرع بن حابس : لخطيبه
- يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم
أعلى من أصواتنا ، أى ثم دنا من النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد أن لا إله إلا الله
وأنتك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يضرك ما كان قبل هذا . ورأى
النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن رضى الله تعالى عنه ، فقال : يا رسول الله لى من
الولد عشرة ما قبلت واحدا منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم
لا يرحم » .

قال ابن دريد رحمه الله : اسم الأقرع نواس ، وإنما لقب الأقرع لقرع كان فى رأسه ،
والقرع : النخصاص الشعر . وكان رضى الله تعالى عنه شريفا فى الجاهلية والإسلام ، ونزله

فيهم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) .

ووقع أن عمرو بن الأهم مدح الزبيرقان للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنه لمطاع في أندبته ، سيد في عشيرته ، فقال الزبيرقان : لقد حسدني يا رسول الله لشرفي ، وقد علم أفضل مما قال ، فقال عمرو : إنه لزم المرءة ، ضيق العطن ، لثيم الخال . وفي لفظ أن الزبيرقان قال : يا رسول الله أنا سيد تميم ، والمطاع فيهم ، والحجاب منهم ، أخذ لهم بختوقهم ، وأمنهم من الظلم وهذا يعلم ذلك ، يعني عمرو بن الأهم ، فقال عمرو : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع في ناديه ، مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبيرقان : والله لقد كذب يا رسول الله ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو : أنا أحسدك ؟ والله إنك للثيم الخال ، حديث المسال ، أحق الوالد ، مبغض في العشيرة ، فعرف عمرو الإنكار في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، والله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الثانية ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقيح ما علمت . وفي رواية : والله يا رسول الله لقد صدقت فيهما ؛ أرضاني فقلت أحسن ما علمت ، وأسخطني فقلت أسوأ ما علمت ؛ فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا » وجاء « إن من لبيان سحرا ، وإن من العلم جهلا ، وإن من الشعر حكما ، وإن من القول عيا » .

قال بعضهم : أما قوله صلى الله عليه وسلم « إن من البيان سحرا » فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق . وأما قوله « إن من العلم جهلا » فإن العالم يكلف ما لا يعلم فيجهله ذلك . وأما قوله « إن من الشعر حكما » فهو هذه المواعظ والأمثال . وأما قوله « وإن من القول عيا » فعرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ، هذا كلامه .

وفيه إن هذا بيان للسحر المذموم ، وليس المراد هنا وإنما هو من السحر الحلال ، ومن ثم أقر صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهم عليه ولم يسخطه منه ، فالسحر المذموم أن يصور الباطل في صورة الحق ببيانه ، ويخدع السامع بتمويهه وهو المراد عند الإطلاق ، والسحر غير المذموم فما كان من البيان على حق ، لأن البيان بعبارة مقبولة عذبة لا استكراه فيها تستميل القلوب كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إلى ماموّة به .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم رد عليهم الأسارى والسبي وأحسن جوائزهم ، قال : أى بعد أن أسلموا ، وأعطى كل واحد اثني عشر أوقية ، قيل لإ عمرو بن الأهتم فإن القوم خلفوه في ظهورهم ، لأنه كان أصغرهم سنا فأعطاه خمس أواق .
وقد اختلف في عدد هذا الوفد ، فقيل كانوا سبعين رجلا ، وقيل كانوا ثمانين ، وقيل كانوا تسعين انتهى .

أى والذي في الاستيعاب : ثم أسلم القوم وبقوا في المدينة مدة يتعلمون الدين والقرآن ، ثم أرادوا الخروج إلى قومهم فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم أسراهم ونساءهم ، وقال : أما بقي منكم أحد؟ وكان عمر بن الأهتم في ركبهم ، فقال قيس بن عاصم وكان مشاحنا له : لم يبق منا إلا غلام في ركابنا وأزرى به ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطاهم ، وبلغ عمرا ما قال قيس في حقه ، فأشد أبياتا تتضمن لومه على ذلك ، وكان عمرو خطيبا بليغا شاعرا محسنا ، يقال إن شعره كان حلالا منتثورة ، وكان رضى الله تعالى عنه جميلا يدعى الكحيل لجماله ، وهو القائل :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

هذا كلامه ، وأنزل الله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قيل معناه لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا فتؤخروا إجابته بالأعذار التي يؤخر بها بعضكم إجابة بعض ، ولكن عظموه صلى الله عليه وسلم بسرعة الإجابة .

سرية قطبة بن عامر رضى الله تعالى عنه

إلى حى من خثعم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قطبة بن عامر في عشرين رجلا إلى حى من خثعم ، وأمره أن يرش الغارة عليهم ، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فأخذوا رجلا فسألوه فاستعجم عليهم : أى سكت ولم يعلمهم بالأمر ، فجعل يصيح بالحاضر : أى وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه كما تقدم ويخنرهم ، فغضبوا عنقه ، ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا الغارة عليهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى في الفريقين ، وساقوا النعم والشاء إلى المدينة ، وجاء سهيل فحال بينهم وبين القوم ، فلم يجد القوم إليهم سبيلا وتقدمت الحوالة على هذا .

سرية الضحاك الكلابي رضي الله تعالى عنه

في جمع إلى بنى كلاب ، فلقومهم ودعوهم إلى الإسلام فأبوا ، فقاتلوهم فهزموهم ، وكان من جملة المسلمين شخص لقي أباه في جملة القوم ، فدعاه إلى الإسلام فسبه وسب الإسلام فضرب عرقوب فرس أبيه فوقع ، فأمسك أباه إلى أن أتى بعض المسلمين فقتله ، أى وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم بعث لبنى كلاب وكتب إليهم في رق فلم ينفادوا للإسلام ، وغسلوا الخط من الرق ، وخاطوه تحت دلوهم ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : ما لهم ؟ أذهب الله عقولهم ، فصار لا يوجد أحد منهم إلا مختل العقل ، مختلط الكلام بحيث لا يفهم كلامه ..

سرية علقمة بن مجزز رضي الله تعالى عنها

بضم الميم وفتح الجيم وزاين الأولى مكسورة مشدودة المدلجى : أى وهو ولد القائف الذى قاف في حق زيد بن حارثة وأسامة رضي الله تعالى عنهما وقال : إن بعض هذه الأقدام من بعض ، فهو صحابي ابن صحابي ، إلى جمع من الحبشة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناسا من الحبشة تراءهم أهل جدة : أى في مراكب ، وجدة بضم الجيم وتشديد الدال المهملة : قرية ؛ سميت بذلك لبنائها على ساحل البحر ، لأن الجدة شاطئ البحر ، فبعث إليهم علقمة بن مجزز رضي الله تعالى عنهما في ثمانية ، فحاض بهم البحر حتى أتوا إلى جزيرة في البحر فهربوا ، أى ورجعوا ، ولم يلق كيدا . ثم لما كانوا في أثناء الطريق أذن علقمة رضي الله تعالى عنه لجماعة أن يعجلوا وأمر عليهم أحدهم ، فزأوا ببعض الطريق وأوقدوا نارا يصطلون عليها ، فقال لهم أميرهم : عزمت عليكم إلا توائبتم : أى وقعتم في هذه النار ، فقام بعض القوم فحجزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها ، فقال : اجلسوا إنما كنت أضحك معكم ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » .

قال : وعن علي كرم الله وجهه قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار ، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فأغضبوه في شيء ،

فقال : اجمعوا لى حطبا ، فجمعوا له ، ثم قال : أوقدوا نارا فأوقدوها ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى ، قال : فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنا فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فكان كذلك حتى سكن غضبه وطفئت النار ، فلما رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا له ذلك ، فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها أبدا . وقال صلى الله عليه وسلم « لاطاعة فى معصية الله ، وإنما الطاعة فى المعروف » انتهى ، أى والضمير فى « دخلوها » للنار التى أوقدت ، والضمير فى منها لنار الآخرة ، لأن الدخول فيها معصية والعاصى يستحق النار ، فالمقصود من ذلك الزجر .

وفى رواية « من أمركم منهم » أى من الأمراء « بمعصية الله فلا تطيعوه » وفى لفظ « لاطاعة فى معصية الله » ولا مانع من تكرار هذه الواقعة .

سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

إلى هدم الفللس بضم الفاء وسكون اللام « صنم طي » والغارة عليهم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فى خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا معه راية سوداء واواء أبيض إلى هدم الفللس والغارة عليهم ، فشنوا الغارة عليهم مع الفجر ، فهدموا الفللس وأحرقوه ، واستاقوا النعم والشاء والسبي ، وكان فى السبي أخت عدى بن حاتم الطائى ، أى واسمها سفانة بفتح السين المهملة وتشديد الفاء وبعد الألف نون مفتوحة ثم تاء تأنيث ، والسفانة فى الأصل : هى الدررة ، وهذه أسلمت رضى الله تعالى عنها . قال بعضهم : ولا يعرف لحاتم بنت إلا هذه ، ووجدوا فى خزانة الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب ، وهى : رسوب ، والحذم ، واليماني ، وثلاثة أذراع . وجعل الرسوب والحذم صفيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار إليه الثالث الذى هو اليماني .

قال : ومر النبى صلى الله عليه وسلم بأخت عدى فقامت إليه ، وكانت امرأة جذلة : أى ذات وقار وعقل ، وكلمته صلى الله عليه وسلم أن يمن عليها ، فمن عليها ، فأسلمت رضى الله تعالى عنها ، وخرجت إلى أخيها عدى فأشارت إليه بالقدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عليه كما سياتى فى الوفود .

ويذكر أنها قالت له صلى الله عليه وسلم « يا محمد أرأيت أن تخلى عنا ، ولا تشمت بنا أحياء من العرب فإني ابنة سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طي » ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يجب مكارم الأخلاق .

أى وفي لفظ « قالت له صلى الله عليه وسلم : يا محمد أرأيت أن تمنّ علىّ ولا تفضحني في قومي فإني بنت سيدهم ، إنّ أبي كان يطعم الطعام ، ويحفظ الجوار ، ويرعى الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العريان ، ولم يردّ طالب حاجة قط » أنا بنت حاتم الطائي . فقال لها صلى الله عليه وسلم : هذه مكارم الأخلاق حقا ، ولو كان أبوك مسلما لترحم عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يجب مكارم الأخلاق ، وإن الله يجب مكارم الأخلاق .

وفي رواية « أنها قالت : يا رسول الله ، هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن علىّ منّ الله عليك . قال : ومن وفدك ؟ قالت عدي بن حاتم ، قال : الفارّ من الله ورسوله » أى لأنه هرب لما رأى الجيش كما سيأتى في الوفود « قالت : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتني حتى إذا كان من الغد قلت له كذلك وقال لي مثل ذلك ، ففي اليوم الثالث أشار إلىّ رجل تخلفه بأن كلميه فكلمته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد فعلت فلا تعجلي حتى يجيء من قومك من يكون لك ثقة يبعثك إلى بلادك ، فأذنيني أى أعلميني وسألت عن الرجل الذي أشار علىّ بكلامه ، فقيل لي إنه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قالت : فصبرت حتى قدم عليّ من أتق به ، فجيئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحلني ، وأعطاني نفقة ، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي » انتهى .

سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج

بفتح الميم وإسكان الذال المعجمة ثم حاء مهملة مكسورة ثم جيم كسجد : أبو قبيلة من اليمن .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج من أرض

اليمين في ثلثمائة فارس ، وعقد له اواء وعممه بيده وقال : امض ولا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد ، ففرق أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فاتوا بنهب بفتح النون وغنائم وأطفال ونساء ونعم وشاء وغير ذلك ، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب بضم الحاء وفتح الصاء المهملتين ، ثم أتى جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة فصف أصحابه ، ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان ، ثم حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً فانهزموا وتفرقوا ، فكف عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، فأسرع إلى إجابته ومتابعته نفر من رؤسائهم وقالوا : نحن على من وراءنا من قومنا ، وهذه صدقاتنا ، فخذ منها حق الله تعالى . وجمع على كرم الله وجهه الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء ، فكتب في سهم منها لله ، وأقرع عليها فخرج أول السهام سهم الخمس ، وقسم الباقي على أصحابه ، ثم رجع على كرم الله وجهه فوفى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قدمها للحج ، أى حجة الوداع .

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم بعث علياً كرم الله وجهه في سرية إلى اليمن ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، فكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ كتابه خراً ساجداً ثم جلس ، فقال : السلام على همدان ، وتتابع أهل اليمن إلى الإسلام . قال فى الأصل : إن هذه السرية هى الأولى وما قبلها السرية الثانية .

سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه

إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ، وكان نصرانياً

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً فى رجب سنة تسع إلى أكيدر بدومة الجندل وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وكانت ليلة مقمرة صافية وهو على سطح له ونعه امرأته ، فجاءت البقر تحكّ بقرونها باب الحصن ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ، قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ، فنزل فأمر بفرسه فأسرج ، وركب معه نفر من أهله فيهم أخ له يقال له حسان ، فتلقتهم خيل خالد فاستأسر أكيدر ، وقتل أخوه حتى قتل ، وأجار خالد أكيدراً من القتل حتى يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دومة الجندل ، وكان على أكيدر قباء من

ديباج مخصوصة : أى فيها خوص منسوجة بالذهب مثل خوص النخل ، فاستلبه خالد إياها ، وأرسلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتهجبت الصحابة منها . فقال صلى الله عليه وسلم « للمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » أى وقد تقدم . وصالح على أهل دومة الجندل بألقى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح .

ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه مصاد قافلا إلى المدينة ، فقدم بالأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصالحه على الجزية ، وحقق دمه ودم أخيه ، وخلي سبيلهما ، وكتب له كتابا فيه أمانهم وختمه يؤمئذ بظفره : أى ومن جملة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد ابن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها » إلى آخره ، وهذا كما لا يخفى يدل على أن أكيدر أسلم ، أى وهو الموافق لقول أبي نعيم وابن منده بإسلامه ، وأنه معدود من الصحابة وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم حلة ؛ فوهبها صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب . وذكر ابن الأثير : أى فى أسد الغابة أن القول بإسلامه غلط فاحش ، فإنه لم يسلم بلا خلاف بين أهل السير ، أى وحينئذ يكون قوله فى الكتاب حين أجاب إلى الإسلام أى انقاد إليه . ويبعده قوله : وخلع الأنداد والأصنام فليتأمل ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما صالحه عاد إلى حصنه وبقي فيه على نصرانته .

ثم إن خالدًا رضى الله تعالى عنه حاصره فى زمن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما فقتله لتفضيه العهد .

قال ابن الأثير : وذكر البلاذرى أن أكيدرا لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أسلم ، ثم بعد موته صلى الله عليه وسلم ارتد ، ثم قتله خالد : أى بعد أن عاد من العراق إلى الشام .

قال : وعلى هذا القول لا ينبغي أن يذكر فى الصحابة ، وإلا كان كل من أسلم فى حياته صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، أى ومات مرتدًا يذكر فى الصحابة ، أى ولا قائل بذلك .

ثم رأيت الذهبي قال فى عمارة بن قيس بن الحارث الشيباني إنه ارتد ، وقتل مرتدًا فى خلافة أبى بكر ، وبهذا خرج عن أن يكون صحابيا بكل حال .

سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه إلى أبني

بضم الهمزة ثم موحدة، ثم نون مفتوحة مقصورة : اسم موضع بين عسقلان والرملة .
وفى كلام السهيلي رحمه الله : وهى قرية عند مؤنة التى قتل عندها زيد بن حارثة ،
رضى الله تعالى عنهما .

لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة أمر
صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو الروم ، فلما كان من الغد دعا صلى الله عليه وسلم أسامة
ابن زيد فقال : سر إلى موضع قتل أبيك فأوظهم الخليل ، فقد وليتك هذا الجيش ،
فاغز صباحا على أهل أبني ، وحرقت عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن ظفرك
الله عليهم فأقلّ اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك .

فلما كان يوم الأربعاء بدأ به صلى الله عليه وسلم وجعه فحمّ وصدع ، فلما أصبح
يوم الخميس عقد صلى الله عليه وسلم لأسامة لواء بيده ، ثم قال : اغز باسم الله وفى سبيل
الله ، وقاتل من كفر بالله ، فخرج رضى الله تعالى عنه بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة ،
وعسكر بالجرف ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا اشتد لذلك ، منهم
أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنهم ، فتكلم قوم
وقالوا : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين والأنصار ، أى لأن سن أسامة رضى
الله تعالى عنه كان ثمان عشرة ، وقيل تسع عشرة سنة ، وقيل سبع عشرة سنة .

ويؤيد ذلك أن الخليفة المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية الذى يضرب به
المثل فى الذكاء وهو صبي وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالة . فقال المهدي :
أف لهذه العتائين ، أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث ، ثم التفت إليه المهدي
وقال : كم سنك يا فتى ؟ فقال : سنى - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - سن أسامة بن زيد
ابن حارثة رضى الله تعالى عنهم لما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا فيه أبو بكر
وعمر رضى الله تعالى عنهما . فقال : تقدم ، بارك الله فيك ، وكان سنه سبع عشرة سنة .

ومما يؤثر عنه : من لم يعرف عيبه فهو أحق ، فقيل له ما عيبك يا أبا وائلة ؟ قال :
كثرة الكلام ، وقيل كان عمر أسامة رضى الله تعالى عنه عشرين سنة .

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاتلتهم وطعنهم في ولايته مع حدائنه سنة غضب صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، وخرج وقد عصب على رأسه عصا بة وعايه قطفة ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، وإن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله وإيم الله إن كان خليقا بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإنهما مظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم ، وتقدم أنه رضى الله تعالى عنه كان يقال له الحب ابن الحب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمح خشمه وهو صغير بثوبه .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم فدخل بيته وذلك في يوم السبت . عشر خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة ، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخرجون إلى العسكر بالحرف ، وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول : أرسلوا بعث أسامة ، أى واستننى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وأمره بالصلاة بالناس .

أى فلا منافاة بين القول بأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان من جملة الجيش وبين القول بأنه تخلف عنه ، لأنه كان من جملة الجيش أو لا ؛ وتخلف لما أمره صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس .

وبهذا يرد قول الرافضة طعنا في أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه تخلف عن جيش أسامة رضى الله تعالى عنه ، لما علمت أن تخلفه عنه كان بأمر منه صلى الله عليه وسلم لأجل صلاته بالناس ، وقول هذا الرافضى مع أنه صلى الله عليه وسلم لعن المتخلف عن جيش أسامة مردود ، لأنه لم يرد اللعن في حديث أصلا .

فلما كان يوم الأحد اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه ، فدخل أسامة من عسكره والنبي صلى الله عليه وسلم مغمور ، فطأ رأسه فقبله وهو صلى الله عليه وسلم لا يتكلم ؛ فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة رضى الله تعالى عنه . قال أسامة : فعرفت أنه صلى الله عليه وسلم يدعولى ، ورجع أسامة رضى الله تعالى عنه إلى عسكره ، ثم دخل عليه صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين : فقال له صلى الله عليه وسلم : اغد على بركة الله تعالى ، فودعه أسامة وخر إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل ، فبينما هو

يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن رضى الله تعالى عنها قد جاءه يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت .

وفى لفظ : فسار حتى بلغ الجحرف فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول له : لا تعجل ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيل ، فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنهم ، فانتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يموت ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس .

أى وفى لفظ أنه رضى الله تعالى عنه لما نزل بذي خشب قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسلمون الذين عسكروا بالجحرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بلواء أسامة حتى أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغرزته عنده .

فلما بويح لأبي بكر رضى الله تعالى عنه بالخلافة أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة وأن يمضى أسامة لما أمر به .

فلما مات صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، أى فإنه لما اشتهرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ظهر النفاق ، وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية ، وصارت المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، وارتدت طوائف من العرب وقالوا نصلى ولا ندفع الزكاة وعند ذلك كلم أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى منع أسامة من السفر : أى قالوا له كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟ فأبى أى وقال : والله الذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أورد جيشا وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا حلات لواء عقده . وفى لفظ : والله لأن تحظفنى الطير أحب إلى من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أقول : ذكر بعضهم أن أسامة رضى الله تعالى عنه وقف بالناس عند الخندق وقال لسيدنا عمر : ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه أن يأذنلى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقله وأنقال المسلمين أن يتحظفهم المشركون ، وقالت له الانصار رضى الله تعالى عنهم : فإن أبى أبو بكر إلا أن يمضى : أى الجيش فأبلغه منا السلام ، واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة ، فقدم عمر على أبى بكر رضى الله تعالى عنهما وأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر : والله لو تحظفنى الذئب والكلاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى

الله عليه وسلم . قال عمر رضى الله تعالى عنه : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال : شكلك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أزعه ، فخرج عمر إلى الناس فقال : امضوا شكلكم أمهاتكم ، مالقيت اليوم بسبيكم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، هذا كلامه .

وفيه أن هذا مخالف لما تقدم من صعوده صلى الله عليه وسلم المنبر وإنكاره على من طعن في ولاية أسامة ، إذ يبعد عدم بلوغ ذلك للأنصار رضى الله تعالى عنهم ، إلا أن يقال : لعل من قال لسيدنا عمر هذه المقالة جمع من الأنصار لم يكونوا سمعوا ذلك ولا بلغهم ، أو جوزوا أن الصديق رضى الله تعالى عنه يوافق على ذلك حيث رأى فيه المصلحة ، وسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه جوز ذلك حيث لم يتكفل بالرد عليهم بأنه صلى الله عليه وسلم أنكر على من طعن في ولاية أسامة رضى الله تعالى عنه ، فلي تأمل ، والله أعلم .

وكلم أبو بكر رضى الله تعالى عنه أسامة في عمر رضى الله تعالى عنه أن يأذن له في التخلف ففعل ، ولعل ذلك كان تطيبا لخاطر أسامة ، ومن ثم كان عمر رضى الله تعالى عنه لا يلقى أسامة إلا قال السلام عليك أيها الأمير كما يأتي : فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة خرج أسامة رضى الله تعالى عنه : أى في ثلاثة آلاف فيهم ألف فرس ، وودعه سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعد أن سار إلى جانبه ساعة ماشيا ، وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحة الصديق ، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله إنا أن نركب وإنا أن نزل ، فقال : والله لست بنازل ، ولست براكب : ثم قال له الصديق ، رضى الله تعالى عنه : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك .

وقد وقع نظير ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ رضى الله تعالى عنه إلى اليمن شيعه صلى الله عليه وسلم وهو يمشى تحت راحلة معاذ وهو يوصيه .

ثم إن أسامة رضى الله تعالى عنه سار إلى أهل أبي ، فشن عليهم الغارة : أى فرق الناس عليهم ، وكان شعارهم « يامنصور أمت » فقتل من قتل وأسر من أسر ، وحرقت منازلهم وحرقت أرضها فأزال نخلها ، وأجال الخيل في عرصاتها ، ولم يقتل من المسلمين أحد . وكان أسامة رضى الله تعالى عنه على فرس أبيه وقتل قاتل أبيه رضى الله تعالى عنهما ،

وأصمهم للفرس سهمين وللفارسيهما ، وأخذ لنفسه مثل ذلك ، فلما أمسى أمر الناس بالرحيل ، وأسرع السير ، وبعث مبشرا إلى المدينة بسلامتهم .
وخرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار ممن لم يكن في تلك السرية يتلقون أسامة ومن معه ، وسروا بسلامتهم . ودخل أسامة رضى الله تعالى عنه واللواء بين يديه حتى انتهى إلى باب المسجد ثم انصرف إلى بيته .

أى وكان في خروج هذا الجيش نعمة عظيمة ، فإنه كان سببا لعدم ارتداد كثير من طوائف العرب أرادوا ذلك . وقالوا : لولا قوة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ماخرج مثل هؤلاء من عندهم : ففتبوا على الإسلام .

أى وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حتى بعد أن ولي الخلافة إذا رأى أسامة رضى الله تعالى عنه قال : السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أسامة : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، تقول لى هذا ؟ فيقول : لا أزال أدعوك ما عشت الأمير . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت على أمير . وفي السيرة الشامية سرايا أخر تركنا ذكرها تبعا للأصل . وفي السنة الثامنة أمر صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضى الله تعالى عنه أن يخرج بالناس وهو بمكة .

وقد كان صلى الله عليه وسلم استعمله عليها لما أراد الخروج إلى حنين ، وقيل لما رجع من حنين . واستمر أميرا على مكة حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقره الصديق رضى الله تعالى عنه إلى أن توفى ، وكانت وفاته يوم وفاة الصديق رضى الله تعالى عنهما ، أى لأنه أطمع سم سنة في اليوم الذى أطمع فيه الصديق ذلك ، وكان ذلك الحج على ما كانت عليه العرب في الجاهلية من حج التكفار مع المسلمين ، لكن كان المسلمون بمعزل عنهم في الموقف .

ولما دخلت سنة تسع استعمل صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه على الحج ، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ، وبعث معه صلى الله عليه وسلم بعشرين بدنة قادها صلى الله عليه وسلم وأشعرها بيده السريفة ، وساق أبو بكر رضى الله تعالى عنه خمس بدنات ، ثم تبعه على كرم الله وجهه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء : أى بفتح القاف والمد . وقيل بالضم والقصر ونسب للخطأ ، فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه استعملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج ؟ قال :

لا ، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس ، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده ، وكان العهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عاما وخاصا ، فالعام أن لا يصد أحد عن البيت جاءه ، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم كما تقدم ، والخاص بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة .

وفي كلام السهيلي رحمه الله تعالى : لما أردف أبو بكر بعلي رضي الله تعالى عنهما رجعا أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله هل أنزل في قرآن ؟ قال : لا ولكن أردت أن يبلغ عني من هومن أهل بيتي ، فضي أبو بكر رضي الله عنه فحج بالناس : أي في ذي الحجة لاني ذي القعدة كما قيل من أجل النسيء الذي كان في الجاهلية ، يؤخرون له الأشهر الحرم ، أي فإن براءة نزلت : أي صدرها ، وإلا فقد نزل منها قبل ذلك في غزوة تبوك (انفروا خفافا وثقالا) الآيات ، وكان نزول صدرها بعد سفر أبي بكر رضي الله عنه فقيل له صلى الله عليه وسلم : لو بعثت بها إلى أبي بكر ، فقال : لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي .

ثم دعا صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه ، فقال : اخرج بصدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، فقرأ على بن أبي طالب كرم الله وجهه براءة يوم النحر : أي الذي هو يوم الحج الأكبر عند الجمرة الأولى وقال : « لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « أمرني على كرم الله وجهه أن أطوف في المنازل من منى براءة فكنت أصيح حتى صحت حلقى ، فقيل له : بماذا كنت تنادي ؟ فقال : بأربع : أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، وأن لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد فله عهد أربعة أشهر ثم لا عهد له ، وأول تلك الأربعة يوم النحر من ذلك العام — ولا عهد له فعنده إلى انقضاء المحرم » .

وكان المشركون إذا سمعوا النداء براءة يقولون لعلي كرم الله وجهه : سترون بعد الأربعة أشهر ، فإنه لا عهد بيننا وبين ابن عمك إلا الطعن والضرب .

ولنما أمر صلى الله عليه وسلم بما ذكر ، لأنهم كانوا يحجون مع المسلمين ويرفعون أصواتهم بقولهم : لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . أي وتقدم سبب الإتيان بذلك ، ويطوف رجال منهم عراة ليس على رجل منهم ثوب بالليل ، فيقول الواحد

منهم : أطوف بالبيت كما ولدتنى أمى ليس على شئ من الدنيا خالطه الظلم : أى وفى لفظ التى قارفنا فيها الذنوب .

وكان لا يطوف الواحد منهم بثوب إلا بثوب من ثياب الخمس وهم قريش ، يستعيره أو يكثره ، وإذا طاف بثوب من ثيابه ألقاه بعد طوافه فلا يمسه هو ولا أحد غيره أبدا ، فكانوا يسمون تلك الثياب اللعنى .

وفى الكشف : كان أحدهم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه ، لأنهم قالوا لا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها . وقيل تفاؤلا بأن يعرفوا من الذنوب كما يعرفون من الثياب .

وكانت النساء يظفن كذلك ، وقيل كانت الواحدة تلبس درعا مفرجا . وقد طافت امرأة عريانة ويدها على قبلها وهى تقول :

اليوم يبنو بعضه أو كله فسا بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى (يانبي آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد - قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) فأبطلت ذلك سورة براءة فى تلك السنة ، أى وقيل الزينة المشط ، وقيل الطيب .

وكان بنو عامر فى أيام الحج لا يأكلون الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما يعظّمون بذلك حجّتهم ، فقال المسلمون فإننا أحق أن نفعل ذلك ، فقيل لهم (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

ويحكى أن بعض الأطباء الحذاق من النصارى ، قال لبعض الحكماء : ليس فى كتابكم من علم الطب شئ . والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله فى بعض آية من كتابه ، قال له : وماهى ، قال : قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، فقال النصرانى : ولا يؤثر عن رسولكم صلى الله عليه وسلم شئ من الطب ؟ قال : قد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وماهى ؟ قال قوله « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وأعط كل بدن ما عودته » . فقال ذلك الطبيب : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئا .

وبينت براءة أن من كان له عهد فعهد إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة

أشهر . وفي لفظ : لما لحق على كرم الله وجهه أبا بكر رضى الله عنه ، قال له أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال : بل مأمور .

وزعمت الرافضة أنه صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر عن إمارة الحج بعلى . وعبارة بعض الرافضة : ولما تقدم أبو بكر بسورة براءة رده صلى الله عليه وسلم بعد ثلاثة أيام بوحي من الله . وكيف يرضى العاقل إمامة من لا يرتضيه النبي صلى الله عليه وسلم بوحي من الله لأداء عشر آيات من براءة ، هذا كلامه .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : وهذا أبين من الكذب ، فإن من المعلوم المتواتر أن أبا بكر رضى الله عنه لم يعزل ، وأنه حج بالناس ، وكان على كرم الله وجهه من جملة رعيته في تلك السنفرة ، يصلى خلفه كسائر المسلمين ، ولم يرجع إلى المدينة حتى قضى الحج في ذلك العام .

وإنما أردف صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه بعلى كرم الله وجهه لنبذ اليهود ، وكان من عادة العرب لا يبنذ العهد إلا المطاع أو رجل من أهل بيته ، أى فلو تلا أبو بكر رضى الله عنه ما فيه نقض عهد عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما تعللوا وقال قائلهم : هذا خلاف ما نعرف ، فأزاح الله عنهم بكون ذلك على يد رجل من بنى أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذى إليه ممن له ذرية وهو عبد المطاب ، قال : وهذا غير بعيد من افتراء الرافضة وبهتانهم ، أى وعلى عادة العرب بما ذكر جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عنى إلا رجل من أهل بيتى » كما تقدم . وفي لفظ « إلا رجل منى » أى لا يبلغ عنى عقد العقود ولا حلها إلا لرجل منى ، أى من بنى أبي الأذى ولا أب له ذرية أذى إليه صلى الله عليه وسلم من عبد المطلب .

ولا يجوز حمل ذلك على تليغ الأحكام والقرآن ، إذ كل أحد من المسلمين مأذون له فى تبليغ ذلك عنه صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه السنة التى هى سنة تسع تابعت الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل لها سنة الوفود .

باب يذكر فيه ما يتعلق بالوفود التي وفدت عليه

صلى الله عليه وسلم

أى غير من تقدم ؛ فقد تقدم أنه قدم عليه صلى الله عليه وسلم وفد هوازن بالجمعرانة ، وكذا وفد عليه بها مالك بن عوف النصرى وذلك فى آخر سنة ثمان : أى ووفد نصارى نجران ، أى قبل الهجرة ، ووفد بنى تميم فى سرية عيبنة بن حصن . وذكر ابن سعد أن ذلك كان فى المحرم سنة تسع .

ووفد عليه وفد نصارى نجران أيضا بعد الهجرة وكانوا ستين راكبا ودخلوا المسجد النبوى ، أى وعليهم ثياب الخبرة وأردية الحرير مختمين بخواتم الذهب ، أى ومعهم هدية وهى بسط فيها تماثيل ومسوح ، فصار الناس ينظرون للتماثيل فقال صلى الله عليه وسلم : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونها أخذها ، فقالوا نعم : نعطيكمها . ولما رأى فقراء المسلمين ما عليه هؤلاء من الزينة والزى الحسن تشوقت نفوسهم إلى الدنيا ، فأنزله الله تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار) الآيات ، وأرادوا أن يصلوا بالمسجد بعد أن حان وقت صلاتهم وذلك بعد العصر ، فأراد الناس منعهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعوهم ، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم ، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا وقالوا قد كنا مسلمين قبلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم ، يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا : أى لأن أحدهم قال له صلى الله عليه وسلم : المسيح عليه الصلاة والسلام ابن الله لأنه لا أب له . وقال له آخر : المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى ، وأخبر عن الغيوب ، وأبرأ من الأدواء كلها ، وخلق من الطين طيرا . وقال له أفضلهم : فعلام تشتمه وتزعم أنه عبد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم هو عبد الله « وكلبته ألقاها إلى مريم » فغضبوا ، وقالوا : إنما يرضينا أن تقول إنه إله ، وقالوا له صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقا فأرنا عبد الله يحيى الموتى ويشفى الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيرا فينفخ فيها فتطير ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم عنهم ، فنزل الوحي بقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح

ابن مريم) وقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أن أبا هلكم ، أى ندعو ونجتهد في الدعاء بالعنة على الكاذب ، فقالوا له : يا أبا القاسم نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك ، فخلا بعضهم ببعض ، فقال بعضهم : والله عاظم أن الرجل نبي مرسل ، وما لا عن قوم قط نبيا إلا استؤصلوا : أى أخذوا عن آخرهم ، وإن أنتم أيتم إلا دينكم فوادعوه وصالحوه وارجعوا إلى بلادكم ، وفي لفظ : أنهم ذهبوا إلى بني قريظة : أى من بقى منهم وبني النضير وبني قينقاع واستشاروهم ، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه .

وفي لفظ : أنهم وادعوه على الغد ، فلما أصبح صلى الله عليه وسلم أقبل ومعه حسن وحسين وفاطمة وعلى رضى الله عنهم وقال : اللهم هؤلاء أهلى ، أى وعند ذلك قال لهم الأسقف : إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل لهم جبالاً لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبق على وجه الأرض نصراني ، فقالوا : لا نباهلك .

وعن عمر رضى الله عنه « أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لو لاعنتهم يا رسول الله بيد من كنت تأخذ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : آخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين وعائشة وحفصة » وهذا أى زيادة عائشة وحفصة في هذه الرواية دل عليه قوله تعالى (ونسأنا ونساءكم) وصالحوه صلى الله عليه وسلم على الجزية ، صالحوه على ألف حلة في صفر ، وألف في رجب ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وكتب لهم كتابا وقالوا له : أرسل معنا أمينا ، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه ، وقال لهم : هذا أمين هذه الأمة ، أى وفي رواية : هذا هو القوي الأمين ، وكان لذلك يدعى في الصحابة بذلك .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أما والذي نفسى بيده لقد تدلى العذاب على أهل نجران ، ولو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير ، ولأضرم الوادى عليهم نارا ، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على الشجر ، ولا حال الحول على النصراني حتى يهلكوا » .

ووفد عليه صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة الداريون أبو الهند الدارى وتميم الدارى وأخوه نعيم ، وأربعة آخرون ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم أرضا من أرض الشام فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا حيث شئتم ، قال أبو هند :

فنهضنا من عنده تتشاور في أى أرض نأخذ؟ فقال تميم الدارى رضى الله عنه نسأله بيت المقدس وكورتها ، فقال أبو هند : هذا محل ملك العجم وسيصير محل ملك العرب ، فأخاف أن لا يتم لنا ، قال تميم : نسأله بيت جيرون وكورتها ، فنهضنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له ، فدعا بقطعة من آدم وكتب لهم كتابا نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للداريين إذا أعطاه الله الأرض وهب لهم بيت عينون وجيرون والمرطوم ، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أبد الأبد ، شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة ، وكتب : ثم أعطانا كتابنا ، وقال : انصرفوا حتى تسمعوا أنى قد هاجرت ، قال أبو هند : فانصرفنا ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يحدد لنا كتابا آخر ، فكتب لنا كتابا نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أنطى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمييم الدارى وأصحابه ، إني أنطيتكم بيت عينون وجيرون والمرطوم ، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام برمتهم وجميع ما فيهم نطية بيت ونفذت ، وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد ، فمن آذاهم آذاه الله ، شهد بذلك أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وكتب نقل ذلك في المواهب وأقره .

وخطب صلى الله عليه وسلم خطبة ، قال فيها : حدثني تميم الدارى ، وذكر خبر الجساسة : أى لأن تميما رضى الله عنه أخبره صلى الله عليه وسلم أنه ركب البحر فتاهت به سفينته ، فسقطوا إلى جزيرة فخرجوا إليها ياتمسون الماء فلقى إنسانا يجر شعره ، فقال له : من أنت؟ قال : أنا الجساسة ، قالوا : فأخبرنا ، قال : لأخبركم ولكن عليكم بهذه الجزيرة فدخلناها ، فإذا رجل مقيد ، فقال : من أنتم؟ قلنا ناس من العرب ، قال : ما فعل هذا النبي الذي خرج فيكم؟ قلنا قد آمن به الناس واتبعوه وصدقوه ؛ قال : فإن ذلك خير لهم ، قال : أفلا تخبروني عن عين ذعر ما فعلت؟ فأخبرناه عنها ، فوثب وثبة ، ثم قال : ما فعل نخل بيسان العرب ، هل أطمع بتمر؟ فأخبرناه أنه قد أطمع ، فوثب مثلها ، فقال : أما لو قد أذن لي في الخروج لو طئت البلاد كلها غير طيبة ، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدث الناس ، فقال : هذه طيبة وذاك الدجال ، قال ابن عبد البر : وهذا أولى ما يخرج به المحدثون في راية الكبار عن الصغار ، أى كما تقدم .

ووفد عليه صلى الله عليه وسلم وهو في خيبر الأشعريون صحبة أبي موسى الأشعري ، صحبوا جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، وقال صلى الله عليه وسلم فيهم كما تقدم « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » وقال في حق أهل اليمن « يريد أقوام أن يضعوهم ويأبى الله إلا أن يرفعهم » والأشعري نسبة إلى أشعر ، واسمه نبت بن أدد ابن يشجب ، وإنما قيل له أشعر ، لأن أمه ولدته والشعر على بدنه .

قال : ولما فتحت مكة ودانت له صلى الله عليه وسلم قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعداوته ، لأن قريشا كانت قادة العرب ودخلوا في دين الله أفواجا .

قال في النهاية : الوفد القوم يجتمعون ويردون البلاد واحدهم وإفداه . والوفد رسول القوم يقدمهم ، وقد يراد به ما هو أعم من ذلك ، فيشمل من قدم غير رسول الله ، وحينئذ يكون من ذلك كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه فإنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسبب ذلك أن أخاه بجير بن زهير خرج يوما هو وكعب في غم لهما ، ففان لأخيه كعب اثبت في الغنم حتى أتى هذا الرجل ، يعنى النبي صلى الله عليه وسلم فأسمع كلامه وأعرف ما عنده ، فأقام كعب ومضى بجير ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع كلامه وآمن به ، وذلك أن أباهما زهيراً كان يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آمن ببعثته صلى الله عليه وسلم ، ورأى زهير والدهما رضي الله تعالى عنهما أنه قد مد بسبب من السماء ، وأنه مد يده ليتناوله ففاته ، فأوله بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي يبعث في آخر الزمان وأنه لا يدركه وأخبر بنيه بذلك وأوصاهم إن أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلموا ، ولما اتصل خبر إسلام بجير بأخيه كعب أغضبه ذلك ، فلما كان منصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف كتب بجير رضي الله تعالى عنه إلى أخيه كعب بن زهير - وكان ممن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم - يخبره بنتيج مكة وأنه صلى الله عليه وسلم قتل بها رجلا ممن كان يهجوه من شعراء قريش ، وهرب بعضهم في كل وجه كابن الزبير وهيرة بن أبي وهب وأنه صلى الله عليه وسلم ، قال : من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله : فإن كان لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقتل أحدا جاء تائبا ، ولا يظالبه بما تقدم الإسلام ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجاتك .

وفي تصحيح الأنساب لابن أبي الفوارس أن زهير بن أبي سلمى قال لأولاده : إني رأيت في المنام سببا ألقى إلى من السماء ، فددت يدي لأتناوله فقاتني ، فأولته أنه النبي الذي يبعث في هذا الزمان وأنا لا أدركه ، فن أدركه منك فليصدقه وليتبعه ليهتدى به ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمن به ابنه بجير وأقام كعب ابنه على الشرك والتشبيب بأُم هاني بنت أبي طالب رضى الله عنها ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال : لئن وقع كعب في يدي لأقطعن لسانه الحديث .

أى ولا مانع أن يكون ضم إلى هذا هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض ؛ وأرجف به أعداؤه ، وصاروا يقولون هو مقتول لا محالة ، فلم يجد بدا من مجيئه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعمل القصيدة التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فيها إرجاف أعدائه به رضى الله تعالى عنه التي مطلعها :

* بانت سعاد فقلبي اليوم متبول *

ثم خرج رضى الله تعالى عنه حتى قدم المدينة فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة ، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح ، فأشار له ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا رسول الله ، فقم إليه واستأمنه ، فقام إلى أن جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده في يده وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ومن حضره لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، فقال : يا رسول الله أنا كعب بن زهير ، فوثب رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً ، فلما أنشد القصيدة المذكورة ومدح فيها المهاجرين ولم يتعرض للأنصار ، قيل حمله على ذلك ما سمعه من ذلك الأنصارى مما غاظه ، ولم يسمع من المهاجرين شيئاً يغيظه .

وفيه أن هذا واضح إذا كان أنشأ ذلك في ذلك الوقت ، وأما إذا كان عمله قبل مجيئه كما هو ظاهر ما تقدم أنه عمل تلك القصيدة التي من جملتها ما ذكر فلا ، فعند ذلك غضب الأنصار ، فمدحهم بالقصيدة التي مطلعها .

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقب من صالحى الأنصار

أى ويقال إنه صلى الله عليه وسلم هو الذى حضه على مدحهم وقال له لما أنشد : بانت سعاد ، ورآها صلى الله عليه وسلم مشتملة على مدح المهاجرين دون الأنصار : لولا : أى هلا ذكرت الأنصار بخير ، فان الأنصار أهل لذلك ؟ أى ولما أنشده صلى الله عليه وسلم بانت سعاد وقال :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

الذى صلى الله عليه وسلم برده كانت عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتراها معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما من آل كعب بمال كثير ، أى بعد أن دفع لكعب فيها عشرة آلاف ، فقال : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا ، فلما مات كعب رضى الله تعالى عنه أخذها من ورثته بعشرين ألفا ، وتوارثها خلفاء بنى أمية ، ثم خلفاء بنى العباس . اشتراها السفاح أول خلفاء بنى العباس بثلاثمائة دينار أى بعد انقراض دولة بنى أمية ، أى وكانوا يطرحونها على أكتافهم جلوسا وركوبا ، وكانت على المقتدر حين قتل وتلوثت بالدم .

ويقال إن التى كانت عند بنى العباس برده صلى الله عليه وسلم التى أعطاها لأهل أيلة مع كتابه الذى كتبه لهم أمانا وذلك فى غزوة تبوك ، وحينئذ تكون برده كعب رضى الله تعالى عنه فقدت عند زوال دولة بنى أمية : وأما هذه البردة فاعل فقدها كان فى فتنة التار .

ثم رأيت ابن كثير رحمه الله قال : إن معاوية رضى الله تعالى عنه اشترى البردة التى كانت عند الخلفاء من أهل كعب بأربعين ألف درهم ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون حتى أخذها التتر منهم سنة أخذ بغداد . وقال : هذا من الأمور المشهورة جدا ، ولكنى لم أر ذلك فى شيء من الكتب باسناد أرتضيه . وصار كعب رضى الله تعالى عنه من شعرائه صلى الله عليه وسلم الذين يذبون عن الإسلام كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنهما الأنصاريين .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة من تبوك فى رمضان قدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف . وكان مع خبرهم أنه لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محاصرهم تبع أثره عروة بن مسعود رضى الله تعالى عنه حتى أدركه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله

صلى الله عليه وسلم إنهم قاتلوك ، فقال له عروة : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم : أى أول أولادهم . وفى رواية : من أبصارهم ، فخرج رضى الله تعالى عنه يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخافوه لمرتبته فيهم ، أى لأنه رضى الله تعالى عنه كان فيهم محببا مطاعا ، فلما أشرف لهم على عليه ودعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل جانب فأصابه سهم فقتله .

وفى لفظ : أنه رضى الله تعالى عنه قدم الطائف عشاء ، فجاءته ثقيف يسلمون عليه ، فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعصوه وأسمعوه من الأذى ألم يكن يغشاه منهم ، فخرجوا من عنده حتى إذا كان السحر وطلع الفجر قام على غرفة فى داره وتشهد ، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله ، فقيل له قبل أن يموت : ماترى فى دمك ؟ فقال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلى فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفونى معهم ، فدفنوه معهم ، وقال فى حقه صلى الله عليه وسلم « إن مثله فى قومه كمثل صاحب يس - إنه قال لقومه (اتبعوا المرسلين) الآيات فقتله قومه » أى المذكورة فى سورة يس - وهو حبيب بن برى .

وقال السهيلي : يمحتمل أن المراد به صاحب إلياس ، فإن إلياس يقال فى اسمه يس أيضا . وقد قال صلى الله عليه وسلم مثل هذه المقالة فى حق شخص آخر يقال له قرة بن حصين أو ابن الحارث ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بنى هلال بن عامر يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه : فقال صلى الله عليه وسلم « مثله مثل صاحب يس - » .

ثم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة شهرا ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد أسلموا . فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو وكان فى سن عروة بن مسعود رضى الله تعالى عنه فى ذلك . فأبى أن يفعل ، لأنه خشى أن يفعل به كما فعل بعروة . وقيل كلدوا مسعود بن عبد ياليل ونسب قائله إلى الغلط ، فقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجلا فبعثوا معه خمسة أنفار منهم شرحبيل بن غيلان أحد أشراف ثقيف ، أسلم غيلان بالغين المعجمة على عشر نسوة ، ومن أسلم على عشر نسوة أيضا عروة بن مسعود ، وكذلك مسعود بن معتب ، ومسعود بن عمير . وسفيان بن عبد الله ، وأبو عقيل مسعود بن عامر : وكلهم من ثقيف .

ويقال : وقد عليه صلى الله عليه وسلم تسعة عشر رجلا هم أشرف ثقيف ، فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يؤمئذ ، وفيهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغرهم ، فلما قربوا من المدينة لقوا المغيرة بن شعبة الثقفي ، فذهب مسرعا ليبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمهم عليه ، فلقبه أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأخبره ، فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أقسمت عليك لانتسبني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكون أنا أحدثه ففعل ، فدخل أبو بكر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقدمهم عليه ، ثم خرج المغيرة أى وعلمهم رضى الله تعالى عنه كيف يجيئون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا إلا تحية الجاهلية وهى عم صباحا ، ثم قدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب لهم قبة فى ناحية المسجد : أى ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، وكانوا يغدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص عند أسبابهم ، فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، وإذا وجد النبي صلى الله عليه وسلم نائما ذهب إلى أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحبه وكان فيهم رجل مجذوم ، فأرسل صلى الله عليه وسلم يقول له : إنا بايعناك فارجع . فى المرفوع « لاتدعوا النظر إلى المجذومين » وجاء « كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أورمحين » هذا معارض بقوله صلى الله عليه وسلم « لاعدوى ولا طيرة » وبما جاء فى أحاديث أخر « أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم طعاما . وأخذ يده وجعلها معه فى القصعة وقال : كل بسم الله ، ثقة بالله ، وتوكلا عليه . »

وأجيب بأن الأمر باجتنب المجذوم إرشادى ، ومؤاكلته لبيان الجواز ، أو جواز الخالطة محمولة على من قوى إيمانه وعدم جوازها على من ضعف إيمانه ، ومن ثم باشر صلى الله عليه وسلم الصورتين ليقتدى به : فيأخذ القوى الإيمان بطريق التوكل ، والضعيف الإيمان بطريق الحفظ والاحتياط .

وعند انصرافهم قالوا : يا رسول الله : أمر علينا رجلا يؤمننا ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رأى من حرصه على الإسلام وقرأ للقرآن وتعلم الدين ، ولقول الصديق رضى الله تعالى عنه له صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

وفي رواية أن عثمان بن أبي العاص قال : قلت : يا رسول الله اجعلني إمام قومي ، قال : أنت إمامهم ، وقال لي : إذا أمت فأخف بهم الصلاة ، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا ، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشی بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب لهم كتابا ، وكان الكاتب له خالد المذكور . ومن جملة : بسم الله الرحمن الرحيم ، مع محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين . إن عضاه وجّ وصيده حرام ، لا يعضد شجره ، ومن وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتزغ ثيابه . وجّ : واد بالطائف ، وقيل هو الطائف . والعضاه : كل شجر له شوك واحده عضه كشفة وشفاه .

وروى أبو داود والترمذي : « ألا إن صيد وجّ وعضاهه حرام محرم » وكانوا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا : وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم الصلاة . فقال : لا خير في دين لا صلاة فيه . وفي لفظ : لا ركوع فيه . وأن يترك لهم الزنا والربا وشرب الخمر فأبى ذلك . وسألوه أن يترك لهم الطاغية التي هي صنمهم وهي اللات ، أي وكانوا يقولون لها الربة ، لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم له ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فلا زالوا يسألونه ستة وهو يأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد قدومهم وأرادوا بذلك ليدخل الإسلام في قومهم ولا يرتاع سفهاؤهم ونساؤهم بهدمها ، فأبى عليهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أي وعند خروجهم قال لهم سيدهم كنانة : أنا أعلمكم بثقيف ، اكنموا إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال ، وأخبروهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم سألنا أمورا عظيمة ما أبيتناها عليه : سألنا أن نهدم الطاغية ، وأن نترك الزنا والربا وشرب الخمر ، فلما جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا : جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف ودان له الناس ، فعرض علينا أمورا شادا وذكروا ما تقدم ، قالوا : والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبدا ، فقالوا لهم : أصلحوا " - ح ، وتهيئوا للقتال ، ورموا حصنكم ، فكثت ثقيف كذلك يومين أو ثلاثة ، ثم أتى الله الرعب في قلوبهم وقالوا : والله ما لنا من طاقة ، فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل : فعند ذلك قالوا لهم : قد قاضينا وأسلمنا ، فقالوا لهم : لم كنتمونا ؟ قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان ، فأسلموا ومكثوا أياما ، فقدم عليهم رسل رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنهما لهدم الطاغية .

وفى رواية : لما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث صلى الله عليه وسلم معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة رضى الله تعالى عنه أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال : ادخل أنت على قومك ، فلما دخل المغيرة علاها ليضربها بالمعول : أى الفأس العظيمة التى يقطع بها الصخر ، وقام قومه دونه خشية أن يرمى كما رمى عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرا . أى مكشوفات الرؤوس حتى العواتق من الحجال يبكين على الطاغية .

قال : وفى رواية يظنون أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك ، وأراد المغيرة رضى الله تعالى عنه أن يسخر بثقيف ، فقال لأصحابه : لأضحكنكم من ثقيف ، فألقى نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها . وفى لفظ : أخذ يرتكض فصاحوا صيحة واحدة ، فقالوا : أهدم الله المغيرة قتلته الربة ، وقالوا : والله لا يستطيع هدمها .

وفى رواية لما أخذ المعول وضرب به اللات ضربة صاح وخر لوجهه ، فارتج الطائف بالصياح سرورا ، وإن اللات قد صرعت المغيرة ، وأقبلوا يقولون كيف رأيت يا مغيرة ؟ دونكها إن استطعت ، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها ؟ فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم : يا خبيثاء ، والله ما قصدت إلا الهزؤ بكم .

وفى رواية : فوثب وقال لهم : قبحكم الله ، إنما هى لكع ، حجارة ومدر : فاقبلوا عافية الله وعبدوه ، ثم أخذ فى هدمها اه ، فهدمها بعد أن بدأ بكسر بابها حتى هدم أساسها وأخرج ترابها لما سمع سادنها يقول : ابعضبن الأساس فليخسفن بهم وأخذ مالها وحليها ، فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود أخاه من مال الطاغية ، فقضاه ، فإن أبا مليح بن عروة ابن مسعود وقارب ابن عمه بن الأسود أخو عروة بن مسعود سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، وكانا قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين لما قتلت ثقيف عروة ابن مسعود قبل أن تسلم ثقيف كما تقدم ، وكان صلى الله عليه وسلم قد أجاب أبا مليح ، فقال له نعم ، فقال له ابن عمه قارب بن الأسود : وعن الأسود يا رسول الله ، فإن عروة

والأسود أخوان لأب وأم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأسود مات مشركا ، فقال
قارب : يارسول الله إنما الدين علىّ وأنا الذي أطلب به .

ومن الوفود وفد بني تميم وقد تقدم ذكره : أى فى الكلام على سرية عيينة بن حصن
الغزارى إلى بني تميم ، وفى ذلك الوفد عطارذ بن حاجب وعمرو بن الأهمم والأقرع بن حابس
والزبرقان بن بدر .

وذكر فى الاستيعاب أنه كان مع وفد تميم قيس بن عاصم فأسلم ، وذلك فى سنة تسع ،
فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا سيد أهل الوبر ، وكان عاقلا حلما
مشهورا بالحلم . قيل للأحنف بن قيس — وكان من أحلم الناس : ممن تعلمت الحلم ؟ قال :
من قيس بن عاصم ، رأيت يوما قاعدا بنفاء داره محتبيا بمخاض سيفه يحدث قومه ، فأتى
برجل مكتوف وآخر مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قد قتل ابنك ، قال : فوالله
ما حل حبوته ولا قطع كلامه ، فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه ، فقال : يا ابن أخى بئس
ما فعلت ، أمت بربك ، وقطعت رحلك ، وقتلت ابن عمك ، ورميت نفسك بسهمك ، ثم
قال لابن له آخر : قم يا بنى فوار أحاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة
دية ابنها فانها غريبة .

وكان قيس بن عاصم رضى الله تعالى عنه ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية .
وسبب ذلك أنه سكر يوما فغمز عكنة ابنته وسب أبويها ، ورأى القمر فصار يخاطبه ،
وأعطى الخمار مالا كثيرا ، فلما أفاق أخبر بذلك فحرمها على نفسه وقال فى ذمها أبياتا
كثيرة .

ولما حضرته الوفاة دعابنيه ، فقال لهم : يا بنى احفظوا عنى فلا أحد أنصح لكم منى ،
إذا مات فسودوا كباركم ، ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم . وعليكم
بإصلاح المال فإنه منبهة للسكرىم ، ويستغنى به عن اللثيم . وإياكم ومسألة الناس فإنها آخر
كسب الرجل ، فإذا مات فلا تنوحوا علىّ ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينبع عليه ،
وقد قيل فيه من جملة أبيات عند موته :

فما كان قيس هلكه هلك واحد واكنه بنيان قوم تهلما

وتقدم أنهم نادوه صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات : يا محمد اخرج إلينا ثلاث
مرات ، فخرج إليهم إلى آخر ما تقدم .

ومنها وفد بني عامر فيهم عامر بن الطفيل وأريد بن قيس وجبار بن سلمى بضم السين وفتحها ، وكانوا أي هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم ، وكان عامر بن الطفيل عدو الله سيدهم ، كان مناديه ينادى بسوق عكاظ : هل من راجل فنحمله ، أو جائع فنطعمه ، أو خائف فتؤمته ؟ وكان من أجمل الناس ، وكان مضمر الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لأريد وهو أخو ليبيد الشاعر : إذا قدمنا على هذا الرجل فإني شاغل عنك وجهه ؟ فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ، وقد قال قومه : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، فقال : والله لقد كنت آليت : أي حلفت أن لا أنهي حتى تتبع العرب عقبي ، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر بن الطفيل : يا محمد خالني : أي اجعلني خليلا وصديقا لك ، قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له ، قال : يا محمد خالني ، وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وينتظر من أريد ما كان أمره به فجعل أريد لا يأتي بشيء .

وفي رواية لما أتاه صلى الله عليه وسلم عامر وسده : أي أتى له وسادة ليجلس عليها ، ثم قال له صلى الله عليه وسلم : أسلم يا عامر ، فقال له عامر : إن لي إليك حاجة ، قال : اقرب مني ، فقرب منه حتى حنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على أن قوله خالني : أي اجعل لي منك خلوة ، وهو المناسب لقول عامر لأريد إني أشاغل عنك وجهه .

قال : وذكر أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له أسلم يا عامر ، فقال : أتجعل لي الأمر بعدك إن أسلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك لك ولا لقومك : أي إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء : أي وقال له : يا محمد أسلم على أن لي الوبر ولك المدر ، فقال : لا ، فقال : مالي إن أسلمت ؟ فقال : لك مال المسلمين وعليك ما عليهم ، فقال : أما والله لأملأها عليك خيلا ورجالا . وفي رواية : خيلا مجردا ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمنحك الله عز وجل .

قال السهيلي : وجعل أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه يضرب في رءوسهما ويقول اخرجا أيها الهجرسان : أي القردان ، فقال له عامر : ومن أنت ؟ فقال : أسيد بن حضير ، فقال : أحضير بن سماك ؟ قال نعم ، قال : أبوك كان خيرا منك ، قال : بلى أنا خير منك ومن أبي ، لأن أبي كان مشركا وأنت مشرك .

ومكث صلى الله عليه وسلم أياما يدعو الله عليهم ويقول : اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت وابعث له داء يقتله اه . أى ثم قال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزامت قريش على منابرها ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا قوم آمنوا ، ثم قال : اللهم اهد بنى عامر ، واشغل عنى عامر بن الطفيل بما شئت وأناى شئت .

وفى البخارى « أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أخيرك بين ثلاث خصال : يكون لك أهل السهل ولئ أهل الوبر ، وأكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فلما خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر لأربد : وبيك يا أربد ، أين ما كنت أمرتك به ، والله ما كان على وجه الأرض من رجل أخافه على نفسى منك أبدا ، وإيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا ، فقال : لا أبالك ، لا تعجل على ، والله ما هممت بالنذى أمرتى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ أى وفى رواية : إلا رأيت بينى وبينه سورا من -ديد . وفى رواية : لما وضعت يدى على قائم السيف يبست فلم أستطع أن أحركها . وفى رواية : لما أردت سل سنى نظرت فإذا فحل من الإبل فاغر فاه بين يدى يهوى إلى ، فوالله لو سلته لخفت أن يتلغ رأسى .

ويمكن الجمع بأن ما فى الرواية الأولى كان بعد أن تكرر منه المم ، وما فى الرواية الثانية كان بعد أن حصل منه هم آخر ، وكذا يقال فى الثالثة ، وخرجوا راجعين إلى يلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه : أى وفى لفظ حلقه ، أى وأوى لبيت امرأة سلولية من بنى سلول ، وكانوا موصوفين باللؤم . وفى كلام السهلى : إنما اختصها بالذكر لقرب نسبها منه لأنها منسوبة إلى سلول بن صعصعة ، والطفيل من بنى عامر بن صعصعة أى فهى تأسف عليه ، وصار يأسف الذى كان موته ببيتها ، وصار يمس الطاعون ويقول : يابنى عامر غدة : أى أغد غدة كغدة البعير ، وموتا فى بيت امرأة من بنى سلول ، اثنونى بفرسى ، ثم ركب فرسه وأخذ رجمه ، وصار يجول حتى وقع عن فرسه ميتا .

أى ويذكر أنه صار يقول : ابرز يا ملك الموت . وفى لفظ : ياموت ابرزلى : أى أى لأقاتلك ، وهذا يدل على أن موت عامر لم يتأخر سىما وقد جاء فى رواية : فخرج حتى

إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها سلوية فنزل عن فرسه ونام في بيتها ، فأخذته غدة في حلقه فوثب على فرسه وأخذ رجمه ، وأقبل يجول وهو يقول : غدة كغدة البسكرة ، وموت في بيت سلوية ، فلم يزل على تلك الحالة حتى سقط عن فرسه ميتا .

ويحتاج للجمع بينه وبين قول الأوزاعي قال يحيى : فكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحا ، وقدم صاحبا على قومهما ، فقالوا لأربد : ما وراءك يا أربد ؟ فقال : لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لو ددت أنى عنده الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقاتله هذه بيوم أو يومين معه جملة يتبعه فأرسل الله عليه وعلى جملة صاعقة أحرقتهما . أى وذلك في يوم صحو قانظ ، وأنزل الله تعالى قوله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) وأما جابر بن سماعة الذى هو ثالثهم ، فقد أسلم مع من أسلم من بنى عامر .

ومنها وفود ضمام بن ثعلبة ، أى وقيل وفد في سنة خمس : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه متكئا جاءه رجل من أهل البادية قال فيه طاححة بن عبيد الله : جاءنا أعرابي من أهل نجد ثأر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول ، الحديث : أى جاء على جملة وأناخه في المسجد ثم عقله وقال : أيسكم ابن عبد المطاب . أى وفي رواية : أيسكم محمد ؟ قالوا هذا الأغر المرتفق : أى الأبيض المشرب بحمره المتسكى ، على مرفقه ، فدنا منه صلى الله عليه وسلم فقال : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة قال : سل عما بدا لك . أى وفي رواية : لمغلظ عليك في المسئلة فلا تجد على في نفسك مالا أجد في نفسي ، فقال : سل ما بدا لك ، فقال : يا محمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك ترعّم أن الله أرسلك . قال : صدق ، فقال : أنشدك بفتح الهزرة رب من قبلك ورب من بعدك . وفي رواية : بالذى خلق السموات والأرض ، ونصب هذه الجبال ، قال : اللهم نعم . قال : وفي رواية أنه قال له قبل ذلك : آله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون ؟ قال : اللهم نعم انتهى . قال : أنشدك بالله آله أمرك أن نصلى خمس صلوات في كل يوم وليلة ؟ قال اللهم نعم . قال : وأنشدك بالله آله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال : اللهم نعم ، قال : وأنشدك بالله آله أمرك أن تصوم هذا الشهر من اثني عشر شهرا ؟ قال : اللهم نعم ، قال : وأنشدك بالله آله أمرك أن يحج

هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ، قال : اللهم نعم ، قال : فأنا قد آمنت وصدقت وأنا ضمام ابن ثعلبة .

أقول : وهذا السياق يدل على أن وفوده كان بعد فرض الحج ، وهو يخالف ما سبق أنه كان في سنة خمس ومن ثم استبعده ابن القيم . قال : والظاهر أن هذه اللفظة مدرجة من كلام بعض الرواة .

وفيه أن الذي جزم به إسحاق وأبو عبيدة أنه وفد في سنة تسع وصوبه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ، ومن ثم جاء ذكر الحج في مسلم ، ويؤيد ذلك قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم علينا الحديث ، لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنما قدم المدينة بعد الفتح ، فلما أن ولى ضمام رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقه الرجل : أى بضم القاف صار فقيها ، وبكسرها فهم . وفي لفظ : لئن صدق لي دخلن الجنة ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول : ما رأيت أحدا أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة . أى وفي لفظ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : فما سمعنا بوافد وقد كان أفضل من ضمام . ولما رجع ضمام رضي الله تعالى عنه إلى قومه قال لهم : إن الله تعالى قد بعث رسولا ، وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه .

قال : وفي رواية أن أول شيء تكلم به أن سب اللات والعزى ، فقال له قومه : مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجدون ، فقال لهم : ويلكم ، والله إنهما لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا إلى آخر ما تقدم ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فلم يبق من القوم رجل ولا امرأة إلا وأسلم .

ومنها وفد عبد القيس وفيهم الجارود ، وكان نصرانيا : أى قد قرأ الكتب فقال أبياتا مخاطبا بها النبي صلى الله عليه وسلم ، منها :

يا نبي الهدى أتاك رجلا قطع فدفدا وآفا آلا

تنقى وقع شر يوم عبوس أو جل القلب ذكره ثم هالا

الدفد: المفازة ، والآل : ما يرفع الشخص في أول النهار وفي آخره ، وقيل السراب .

قيل وكانوا ستة عشر ، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام ، فقال : يا محمد إنى

كنت على دين وإني تارك ديني لدينك فتضمن لى ذنبي ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم أنا ضامن لك أن قد هداك إلى ما هو خير لك منه ، فأسلم وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحملهم ، فقال : والله ما عندي ما أحلکم عليه ، فقال : يا رسول الله يحال بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال المسلمين أى من الإبل والبقر مما يحمى نفسه أفتبلغ عليها : أى تركبها إلى بلادنا . قال : لا ، إياك وإياها ، فإنما تلك حرق النار أى لهما كذا فى الأصل .

وفى السيرة المشامية أن الجارود إنما وفد مع حلف له يقال له سامة بن عياض الأزدي وأن الجارود قال لسلمة : إن خارجا خرج بتهامة يزعم أنه نبي ، فهل لك أن تخرج إليه ، فإن رأينا خيرا دخلنا فيه ، وأنا أرجو أن يكون هو النبي الذى بشر به عيسى ابن مريم ، لكن يضمير كل واحد مناه ثلاث مسائل يسأله عنها لا يخبر بها صاحبه ، فاعمرى إنه إن أخبرنا بها إنه لنبي يوحى إليه ، فلما قدما عليه صلى الله عليه وسلم قال له الجارود : يم بعثك به ربك يا محمد ؟ قال : بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله ، والبراءة من كل ند أو دين يعبد من دون الله ، وباقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة لحقها ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا بغير إلحاد (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) قال الجارود : يا محمد إن كنت نبيا فأخبرنا عما أضمرنا عليه ، فحفت رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة كأنها سنة ثم رفع رأسه الشريف والعرق يتحدر عنه ، فقال : أما أنت يا جارود ، فإنك أضمرت أن تسألنى عن دماء الجاهلية ، وعن حلف الجاهلية ، وعن المنيحة . ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مردود ، ولا حلف فى الإسلام . ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ، فإنها تغدو برفده وتروح بمثله . وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت على أن تسألنى عن عبادة الأوثان ، وعن يوم السباسب ، وعن عقل الهجين . فأما عبادة الأوثان فإن الله تعالى يقول (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وأما يوم السباسب فقد أعقبه الله ليلة خيرا من ألف شهر ، فاطلبوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ریح فيها ، تطلع الشمس فى صبيحتها لاشعاع لها . وأما عقل الهجين ، فإن المؤمنين إخوة متكافأ دماؤهم ، يجير أقصاهم على أدناهم ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، فقلا : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله انتهى .

وذكر في السيرة الهشامية في وفد عبد القيس أنه كان قبل فتح مكة ، وذكر ما حاصله « أنه صلى الله عليه وسلم بينما هو يحدث أصحابه ، إذ قال لهم : سيطلع عليكم من ههنا ركب هم خير أهل المشرق » وفي رواية « ليستبين ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا » أي أهزلوا « الركائب ، وأفئوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه ، فتوجه نحو مقدمهم ، فأتى ثلاثة عشر راكبا ، وقيل كانوا عشرين راكبا ، وقيل كانوا أربعين رجلا ، فقال : من القوم ؟ قالوا : من بني عبد القيس ، فقال : أما إن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكركم آنفا ، فقال خيرا ، ثم مشى معهم حتى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للقوم : هذا صاحبكم الذى تريدون ، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم بباب المسجد بثياب سفرهم ، وتبادروا يقبلون يده صلى الله عليه وسلم ورجله ، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج ، وهو رأسهم ، وكان أصغرهم سنا ، فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع ، وذلك بمرأى من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخرج ثوبين أبيضين لبسهما ، ثم جاء يمشى حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلها ، وكان رجلا دميما ففظن لنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمامته ، فقال : يا رسول الله إنه لا يستقى أى يشرب فى مسوك : أى جلود الرجال ، وإنما يحتاج الرجل من أصغريه لسانه وقلبه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فيك خلتين يجهما الله ورسوله : الحلم والأناة ، فقال : يا رسول الله أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما ؟ قال : لا ، بل الله تعالى جبلك عليهما ، فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يجهما الله ورسوله صلى الله عليه وسلم « والأناة على وزن قناة : التؤدة . وقد جاء « التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة » .

وفي رواية « أنهم لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من القوم ؟ قالوا : من ربيعة » أى وهو المراد بما فى بعض الروايات ربيعة ، فإنه من التعبير عن البعض بالكل .

وفي البخارى فى الصلاة « إن هذا الحى من ربيعة » أى إن هذا الحى حى من ربيعة وهو فى الأصل اسم لمنزل القبيلة ، سميت به القبيلة ، لأن بعضهم يجما ببعض ، قال « خير ربيعة عبد القيس ، مرحبا بالقوم » أى صادفتم رحبا بضم الراء : أى سعة . وأول من قال مرحبا سيف بن ذى يزن ، وقد تكررت هذه الكلمة منه صلى الله عليه وسلم ، قالها

لابنة عمه أم هانئ رضي الله تعالى عنها . وقال لعكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه « مرحبا بالراكب المهاجر » وقال لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها « مرحبا بابنتي » وقال لشخص دخل عليه « مرحبا ، وعليك السلام » .

ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم « غير خزايا ، ولا ندأى » أى حالة كونكم سالمين من الخزى ومن الندم . وفى لفظ « مرحبا بالوفد الذين جاءوا غير خزايا ولانداى ، أنا حجيج من ظلم عبد القيس ، فقالوا : يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة » أى من سفر بعيد ؛ لأن مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق . وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لانصل إليك إلا فى شهر حرام » أى وفى لفظ « إلا فى هذا الشهر الحرام » وهو كمسجد الجامع (ونساء مؤمنات) وهو شهر رجب للتصريح به فى بعض الروايات .

وقال بعضهم : وفى هذا دليل على أن الأعمال الصالحة تدخل الجنة إذا قبلت ، وقبولها يقع برحمة الله ، لأن مضر كانت تبالغ فى تعظيم شهر رجب زيادة على بقية الأشهر الحرم ومن ثم قيل رجب مضر « فأمرنا بأمر فصل » أى فاصل بين الحق والباطل « فقال : أمرم بأربع » أى بخصال أربع أو جمل أربع .

ففى بعض الروايات « قالوا : حدثنا بجمل من الأمر ، وأنها كم عن أربع : أمرم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » أى وفيه أن القوم كانوا مؤمنين مقرين بكلمة الشهادة .

ووقع فى البخارى فى الزكاة زيادة واو قبل شهادة وهى زيادة شاذة لم يتابع عليها راويها « وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس » أى لأنهم كانوا بصدد محاربة كفار مضر ، وهذا زائد على الأربع ، ومن ثم قال بعضهم هو معطوف على قوله بأربع : أى أمرم بأربع وبأن تعطوا ، ومن ثم غاير فى الأسلوب . وفى مسلم « أمرم بأربع : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان ، وأعطوا الخمس من الغنائم » ولم يذكر الحج ، لأنه لم يكن فرض على الصحيح كما قال الحافظ الدمياطى رحمه الله ، وهو بناء على الأصح أنه فرض سنة ست . وقول الواقدي إن قدوم وفد عبد القيس كان فى سنة ثمان ليس بصحيح ، لكن ذكر بعضهم أن لعبد القيس وفدين ، واحدة كانت قبل فرض الحج ، وواحدة

بعده . ومن ثم جاء ذكر الحج في مسند الإمام أحمد ، وهو « وأن تحجوا البيت » وإله لم يتعرض في هذه الرواية لعدد : أى لقوله أربع ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لهم « وأنها كم عن أربع ، عن الدبا » أى القرع : أى عما ينبذ فيها « والحنتم » وهو جرار مدهونة بدهان أخضر : أى عما ينبذ فيها : أى وقيل الحنتم جرار كانت تعمل من طين وشعر وأدم « والنقير » أصل النخلة ينقر وينبذ فيه التمر ، أى ما ينبذ في ذلك « والمزفت » ما طلى بالزفت أى عما ينبذ فيه . وفي رواية زيادة على ذلك « والنقير » ما طلى بالقار ، وهو نبت يحرق إذا يبس وتطلى به السفن كما تطلى بالزفت ، زاد في رواية « وأخبروا بهن من وراءكم » أى من جثم من عندهم ، ومن يتحدث من الأولاد « قالوا : فيم نشرب يا رسول الله ؟ قال : في أسقية الأدم » أى الجلود التى يلاث : أى يربط على أفواهاها « قالوا : يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان » أى الفيران : أى لاتبقي فيها أسقية الأدم ، قال « وإن أكلها الجرذان ، قال ذلك مرتين أو ثلاثا » فقال له الأشج « يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة ونخة ، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا ، فرخص لنا في مثل هذه ، فأوما صلى الله عليه وسلم بكفيه وقال له : يا أشج إن رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه وفرج بين يديه وبسطها « يعنى أعظم منها « حتى إذا ثمل ، أى سكر » أحلكم من شرا به قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف ، وكان القوم رجل وقع له ذلك « أى وهو جهنم بن قثم ، قال : لما سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت أسدل ثوبي لأعطى الضربة وقد أبداها الله لنيبه صلى الله عليه وسلم ، أى وفي كلام السهيلي « فعجبوا من علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وإشارته إلى ذلك الرجل هذا كلامه .

أى وفي رواية « أنهم سألوه عن النبيذ ، فقالوا : يا رسول الله إن أرضنا أرض ونخة لا يصلحها إلا النبيذ ؛ قال : فلا تشربوا في النقير ، فكأنى بكم إذا شربتم في النقير قام بعضكم إلى بعض بالسيوف ، فضرب رجلا منكم ضربة لا يزال يعرج منها إلى يوم القيامة فضحكوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما يضحككم ؟ قالوا : ولقد شربنا في النقير فقام بعضنا إلى بعض بالسيوف فضرب هذا ضربه بالسيف فهو أعرج كما ترى ، ثم ذكر لهم صلى الله عليه وسلم أنواع تمر بلدهم ، فقال : لكم تمر تدعونها كذا وتمر تدعونها كذا ، فقال له رجل من القوم : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو كنت ولدت في جوف هجر ما كنت بأعلم منك الساعة ، أشهد أنك رسول الله ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن أرضكم رفعت إلى منذ قعدتم ، أى فنظرت من أذناها إلى أقصاها وقال لهم : خير
تمرك البرنى ، يذهب بالداء ولاداء معه « أى وإنما اقتصر صلى الله عليه وسلم فى المناهى
على شرب الأنبذة فى الأوعية المذكورة مع أن فى المناهى ما هو أشد فى التحريم لكثرة
تعاطيهم لها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ومعنى النهى عن الانتباز فى هذه الأوعية بخصوصها
أنه يسرع فيها الإسكار ، فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك .

وكان فى عبد القيس أبو الوازع بن عامر وابن أخته مطر بن هلال ، ولما ذكروا للنبي
صلى الله عليه وسلم أنه ابن أختهم قال « ابن أخت القوم منهم » وكان فيهم ابن أختى الوازع
وكان شيخا كبيرا مجنوننا جاء به الوازع معه ليدعوه صلى الله عليه وسلم ، فمسح ظهره
ودعا له ، فبرأ لحينه وكسى شبابا وجمالا حتى كأن وجهه وجه العنراء .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم زودهم الأراك يستاكون به وذكر أنه كان فيهم غلام
ظاهر الوضأة فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم خلف ظهره ، وقال : إنما كان خطيئة
داود عليه الصلاة والسلام النظر » .

ومنها وفد بنى حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب ، قيل جاء بنو حنيفة إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومعهم مسيلمة الكذاب ، يسترونه بالثياب ، وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم جالسا فى أصحابه رضى الله تعالى عنهم معه عسيب من عسب النخل فى رأسه
خويصات ، فلما انتهى مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يسترونه بالثياب ،
كلمه وسأله أن يشركه معه فى النبوة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو سألتنى
هذا العسيب ما أعطيتك .

وقيل إن بنى حنيفة جعلوه فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فقالوا : يارسون
الله إننا قد خلفنا صاحبنا فى رحالنا يحفظها لنا فأمر له صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لو احد
من القوم ، وهو خمس أواق من فضة ، وقال : أما إنه ليس بشركم مكانا ، فلما رجعوا
إليه أخبروه بما قال عنه ، فقال : إنما قال ذلك لأنه عرف أن لى الأمر من بعده ، فلما
رجعوا واتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وكذب ، وادعى أنه أشرك معه صلى الله عليه
وسلم فى النبوة وقال لمن وفد معه : ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له : أما إنه ليس بشركم مكانا

ماذا إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه فى الأمر . أى وهو صلى الله عليه وسلم إنما أراد بذلك أنه حفظ ضيعة أصحابه ، هذا .

وفى الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم أقبل ومعه ثابت بن قيس بن شماس رضى الله تعالى عنه وفى يد النبى صلى الله عليه وسلم قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم بلغه عنه أنه قال : إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته « وإنى لأراك الذى منه رأيت » وهذا قيس يجيبك عنى ثم انصرف .

والذى رآه منه صلى الله عليه وسلم أنه رأى فى المنام أن فى يده سوارين من ذهب قال : فأهينى شأنهما فأوحى الله لى فى المنام : أن انفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذا بين يخرجان من بعدى : أى وهما طليحة العيسى صاحب صنعاء ، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة « فإن كلا منهما ادعى النبوة فى حياته صلى الله عليه وسلم . وكان طليحة العيسى يقول : إن ملكا كان يقال له ذو النون يأتينى كما يأتى جبريل محمدا ، فلما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : لقد ذكر ملكا عظيما فى السماء يقال له ذو النون . وجمع بعضهم بين هذا الذى فى الصحيحين وما هنا بأنه يجوز أن يكون مسيلمة قدم مرتين : الأولى كان تابعا ومن ثم كان فى حفظ الرجال ، والثانية كان متبوعا ولم يحضر أنفة منه واستكبارا ، وعامله صلى الله عليه وسلم معاملة الإكرام على عادته صلى الله عليه وسلم فى الاستئلاف فأتى لى قومه وهو فيهم كذا قيل .

ولا يخفى أن قوله ولم يحضر يقتضى أنه لم يجئ لى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المرتين ، وتقدم أنه جاء إليه صلى الله عليه وسلم وهم يسترونه بالثياب ، وهذا : أى ستره بالثياب هو المناسب لكونه متبوعا ثم صار مسيلمة لعنه الله يتكلم بالهذيان يضاهاى به القرآن . فمن ذلك قوله قبحه الله : لقد أنعم الله على الحلبى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين شعاف وحشا ، وقال : والطاحنات طحننا . والعاجنات عجننا . والحازبات خبزنا . والثارذات ثردنا . واللاقات لقنا . ووضع عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا . وقيل إنه لعنه الله طلب منه أن يتقل فى بئر تبركا ففعل فبلح ماؤها . ومسح رأس صبي فصار أقرع قرعا فاحشا . ودعا لرجل فى بنين له بالبركة فيهما ، فرجع الرجل إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط فى بئر والآخر أكله الذئب . ومسح على عيني رجل للاستشفاء بمسحه فابيضت عيناه ، فعل ذلك مضاهاة للنبى صلى الله عليه وسلم . وهذا السياق يرشد إلى أنه كان برأس ذلك الصبي قرع يسير

فمسح عليه للاستشفاء ، ثم أظهر معجزة بزعمه . وهو أنه أدخل بيضة في قارورة وافتضح بأن البيضة بنت يومها إذا ألقيت في الخل والنوشادر يوما وليلة فإنها تمتد كالخيط . فتجعل في القارورة ويصب عليها ماء فتجمد ، وبهذا يردّ على من رثاه من بنى حنيفة بقوله :

لهفي عليك أبا ثمامه كم آية لك فيهمو كالشمس تطلع من غمامه
فيقال له : كذبت ، بل كانت آياته معكوسة .

قال : وكتب مسيلمة قبحة الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتابا فقال : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد — فإنني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأمر ، وليس قريش قوما يعدلون ، وبعث رجلين . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى . أما بعد — فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال للرجلين : وإنما تقولان مثل ما يقول ؟ قالان نعم ، قال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما انتهى .

ومنها وفدطي ، وفيهم زيد الخليل رضى الله تعالى عنه . وفد عليه صلى الله عليه وسلم ، وفيهم قبضة بن الأسود ، وسيدهم زيد الخليل . قيل له ذلك ، لخمسة أفراس كانت له : أى ولو كان وجه التسمية يلزم اطراده لقبيل للزبرقان بن بدر زبرقان الخليل .

فقد قيل : إنه وفد على عبد الملك بن مروان وقاد إليه خمسة وعشرين فرسا ، ونسب كل واحدة من تلك الأفراس إلى آبائها وأمهاتها ، وحلف على كل فرس يمينًا غير اليمين التي حلف بها على غيرها ، فقال عبد الملك : عجبى من اختلاف أيمانهم أشدّ من عجبى من معرفته بأنساب الخليل .

وكان زيد الخليل شاعرا خطيبا بليغا جوادا ، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم . وقال صلى الله عليه وسلم في حق زيد الخليل « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما قيل فيه إلا زيد الخليل ، فإنه لم يبلغ أى ما قيل فيه كل ما فيه » وسماه صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال له وهو لا يعرفه : « الحمد لله الذى أتى بك من سهلك وحزنك ، وسهل قلبك للإيمان ، ثم قبض صلى الله عليه وسلم على يده ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا زيد الخليل بن مهلهل ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : بل أنت زيد

الخير ، ثم قال : يازيد مأخبرت عن رجل قط شيئا إلا رأيته دون ما أخبرت عنه غيرك ؛
أى وأجاز صلى الله عليه وسلم كل واحد منهم خمس أواق ، وأعطى زيد الخليل اثنتي عشرة
أوقية ونشا : أى وأقطعه محلين من أرضه ، وكتب له بذلك كتابا ، ولما خرج من عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها إلى قومه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن
ينجو زيد من الحمى » أى ما ينجو منها ، فى أثناء الطريق أصابته الحمى ، أى وفى لفظ أنه
صلى الله عليه وسلم قال له : يازيد تقتلك أم ملدم يعنى الحمى .

وفى رواية أن زيد الخليل لما قام من عنده صلى الله عليه وسلم وتوجه إلى بلاده ، قال
صلى الله عليه وسلم : « أى فتى إن لم تدركه أم كلبة » يعنى الحمى ، والكلبة الرعدة .
وفى رواية « ما قدم على رجل من العرب يفضله قومه إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا
ما كان من زيد ، فإن ينج زيد من حمى المدينة فلا أمر ماهو » .

قال : ولما مات أقام قبيصة بن الأسود الناحة عليه سنة ، ثم وجه براحلته ورحله . وفيه
كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أقطعه فيه محلين بأرضه ، فلما رأت امرأته الراحلة
ضرمتها بالنار ، فاحترقت واحترق الكتاب انتهى .

وفى كلام السهيلي : وكتب له كتابا على ما أراد وأطعمه قرى كثيرة منها فذك ؛ هذا
كلامه . وقيل بقى إلى خلافة عمر رضى الله عنهما .

ومنها وفود عدى بن حاتم الطائي . حدث عدى رضى الله عنه قال : كنت امرأ شريفا
فى قومي ، آخذ المرباع من الغنائم كما هو عادة سادات العرب فى الجاهلية : أى وهو ربع
الغنيمة كما تقدم ، فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته ، ما من رجل من العرب
كان أشد كراهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به منى ، فقلت لغلام كان راعيا
لإبلى : لأبأ لك اعزل من إبلى أجمالا ذللا سمانا ، فاحتبسها قريبا منى ، فإذا سمعت يجيش
لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأذنى ففعل ، ثم إنه أتاني ذات يوم ، فقال يا عدى ما كنت
صانعا إذا غشيك محمد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها ، فقالوا : هذه
جيوش محمد . فقلت له قرب لى أجمالى ، فقرّبها فاحتملت أهلى وولدى ، والتحقت بأهل
دينى من النصارى بالشام ، وخلفت بنتا لحاتم فى الحاضر ، فأصبيت فيمن أصيب : أى
سبيت فيمن أصيب من الحاضر ، فلما قدمت فى السبايا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربى إلى الشام من عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكساها ، وحملها ، وأعطاهها نفقة ، وخرجت إلى أن قدمت على الشام ، فوالله إنى لقاعد فى أهلى ، إذ نظرت إلى ظعينة تؤمنا ، فقلت : ابنة حاتم ، فإذا هى هى . فلما وقعت على قالت : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وقطعت بقية والدك وعورتك ، فقلت : أى أختى ، لانتقولى إلا خيرا فوالله مالى من عذر ، ولقد صنعت ما ذكرت ، ثم نزلت وأقامت عندى . فقلت لها وكانت امرأة حازمة : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلتحق به سرىعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فأنت أنت . فقلت والله إن هذا للرأى ، أى ولعلها لم تظهر له إسلامها لثلاثين طبعه من قولها له إن يكن نبيا أى على الفرض والتنزل تحريضا له على اللحق به صلى الله عليه وسلم ، فخرجت حتى جثته صلى الله عليه وسلم بالمدينة فدخلت عليه . فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لقائدنى إليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته صلى الله عليه وسلم فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها . فقلت ما هو بملك ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من آدم محشوة ليفاقدتها إلى وقال : اجلس على هذه . فقلت بل أنت فاجلس عليها ، قال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض . فقلت والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال لى مامعناه : يا عدى بن حاتم أسلم قالها ثلاثا . فقلت : إنى على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت أنت أعلم بدينى ؟ قال نعم أأست من الركوسية : أأست من القوم الذين لهم دين ؟ لأنه تقدم أنه كان نصرانيا . فقلت بلى ، فقال : ألم تكن تسير فى قومك بالرباع ، أى تأخذ ربع الغنيمة كما هو شأن الأشراف من أخذهم فى الجاهلية ربع الغنيمة ؟ قلت بلى . قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . فقلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، أتعرف الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالله ، وفى لفظ : فولذى نفسى بيده ليرتمن هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد .

وفى رواية : ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخح من القادسية : أى وهى قرية بينها وبين

الكوفة نحو مرحلتين - على بعيرها حتى تزور البيت ، أى الكعبة لانخاف - ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وإيم الله ليوشكن أن أسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تهج بالبيت وإيم الله لتكونن الثانية ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه .

ومنها وفود فروة بن مسيك المرادى ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فروة مفارقا للملوك كندة ، وكان بين قومه مراد وبين همدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا في يوم يقال الردم ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم . فقال : يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوءه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرا ، واستعمله صلى الله عليه وسلم على مراد وزبيد ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصي على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فروة عند توجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كأن رجل خان الرجل عرق نساءها
فركبت راحلتى أومّ محمدا أرجو فواضلها وحسن ثوابها

ومنها وفد بنى زبيد بضم الزاى وفتح الموحدة . وفد بنو زبيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وكان فارس العرب مشهورا بالشجاعة ، شاعرا مجيدا ، قال لابن أخيه قيس المرادى : إنك سيد قومك وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبيّ فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخني عليك ، وإذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه ، فأبى عليه قيس ذلك وسفه رأيه . فركب عمرو رضى الله عنه حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه فأسلم ، فلما بلغ ذلك قيسا قال : خالفني وترك أمرى ورأى ، وتواعد عمرا . فقال عمرو في قيس أبياتا منها :

فمن ذا عاذرى من ذى سفاه يريد بنفسه شدّ المزاد
أريد حييانه ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مرادى

أى وبعد موته صلى الله عليه وسلم ارتد عمرو هذا مع الأسود العبسى ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وشهد فتوحات كثيرة : أيام الصديق وأيام عمر رضى الله عنهما .

وعن ابن إسحاق : قيل إن عمرو بن معد يكرب لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسلم قيس بعد ذلك ، قيل له صحبة ، وقيل لا .

ومنها وفد كندة ، أى وله صلى الله عليه وسلم جذة منهم ، وهى أم جدّه كلاب . وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون ، أى وقيل ستون من كندة فيهم الأشعث بن قيس ، وكان وجيها مطاعا في قومه ، وفى الإمتاع وهو أصغرهم . فلما أرادوا الدخول عليه صلى الله عليه وسلم رجلوا : أى سرحوا جمعهم . أى شعور رؤوسهم ، أى الساقطة على مناكبهم ، وتكحلوا ، ولبسوا عليهم جيب الخبرة أى بوزن عنبة : برود الين المخططة ، قد كففوها : أى سجدوها بالحرير . فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وعند ذلك قالوا : أبيت اللعن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست ملكا أنا محمد بن عبد الله . قالوا : لانسميك باسمك ، قال : أنا أبو القاسم . فقالوا : يا أبا القاسم إنا خباننا لك خبنا فما هو ؟ وكانوا خبيثوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عين جرادة فى ظرف سمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ، إنما يفعل ذلك بالكاهن ، وإن الكاهن والكهانة والمتكهن فى النار ، فقالوا : كيف نعم أنك رسول الله ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من حصباء فقال : هذا يشهد أنى رسول الله ، فسيح الحصى فى يده ، فقالوا : نشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى بالحق وأنزل على كتابا لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا : أسمعنا منه ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والصفات صفا) حتى بلغ (رب المشارق والمغارب) ثم سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكن بحيث لا يتحرك منه شىء ودموعه تجرى على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكى ، أفن مخافة من أرسلك تبكى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) الآية ، ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى ، قال : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم . فعند ذلك شقوه منها وألقوه .

وفيه أن هذا يخالف ما قاله فقهاؤنا معاش الشافعية من جواز التسجيف بالحرير ، إلا

أن يقال الجواز مخصوص ، بأن لا يجاوز الحد اللائق بالشخص ، ولعل سجنهم تجاوزت الحد اللائق بهم وقد قال الأشعث له صلى الله عليه وسلم : نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار ، يعني جدته أم كلاب ، فقد تقدم أنها من كندة ، وقيل إنما قال ذلك الأشعث ، لأن عمه العباس بن عبد المطلب كان إذا دخل حيا من أحياء العرب ، لأنه كما تقدم كان تاجرا ، فإذا سئل من أين ؟ قال : أنا ابن آكل المرار ليعظم ، يعني انتسب إلى كندة ، لأن كندة كانوا ملوكا فاعتقدت كندة أن قريشا منهم لقول العباس المذكور ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا ، نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننثني من آباؤنا : أي لا نتسب إلى الأمهات وتترك النسب إلى الآباء .

والأشعث هذا ممن ارتد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا إلى الإسلام وخلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أي فإنه حوصر ، ثم جرى به أسيرا ، فقال للصديق حين أراد قتله : استبقني لحروبك وزوجني أختك ، فزوجه أخته أم فروة فدخل سوق الإبل بالمدينة واختلط سيفه ، فجعل لا يرى جملا إلا عرقبه ، فصاح الناس : كفر الأشعث ، فلما فرغ طرح سيفه وقال : والله ما كفرت إلا أن الرجل يعني أبا بكر رضي الله تعالى عنه زوجني أخته ، ولو كنا ببلادنا لكانت لنا وليمة غير هذه وقال : يا أهل المدينة انمروا وكلوا ، وأعطى أصحاب الإبل أثمانها ، قال : وقال صلى الله عليه وسلم للأشعث « هل لك من ولد ؟ فقال : لي غلام ولد لي عند مخرجي إليك أوددت أن لي به لسبعة ، فقال : إنهم لحبينة مبخلة محزنة ، وإنهم لقررة العين ، وثمرة الفؤاد » انتهى .

ومنها وفد أزد شنوءة . وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع من الأزدي وفيهم صرد بن عبد الله الأزدي أي وكان أفضلهم ، فأمره صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ، فخرج حتى نزل بجرش بضم الجيم وفتح الراء وبالشين المعجمة وهي مدينة بها قبائل من قبائل اليمن وحاصرها المسلمون قريبا من شهر ثم رجعوا عنها ، حتى إذا كانوا بجبل يقال له شكر بالشين المعجمة والكاف المفتوحين ، وقيل بامسكان الكاف ، فلما وصلوا ذلك المحل ظن أهل جرش أن المسلمين رضي الله تعالى عنهم إنما رجعوا عنهم منهزمين ، فخرجوا في طلبهم حتى إذا أدركوهم عطفوا عليهم فقتلوهم قتلا شديدا .

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة

يرتادان : أى ينظران الأخبار ، فبينما هما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بأى بلاد الله شكر ؟ فقام إليه رجلان فقالا : يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر ، فقال إنه ليس بكشر ولكنه شكر ، قالا : فما شأنه يا رسول الله ؟ قال إن بدن الله لتنحر عنده الآن ، وأخبرهما الخبر : فخرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى قومهما فوجد قومهما قد أصيبوا في اليوم والساعة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، وعند إخبارهما لقومهما بذلك وفد وفد جرش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بكم أحسن الناس وجوها ، وأصدقه لقاء ، وأطيبه كلاما ، وأعظمه أمانة ، أنتم منى وأنا منكم ، وحمى لهم حمى حول بلدهم .

ومنها وفد رسول ملوك حمير ، وحامل كتابهم إليه صلى الله عليه وسلم ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول ملوك حمير وحامل كتابهم إليه صلى الله عليه وسلم بإسلام الحارث بن عبد كلال بضم الكاف .

وقد اختلف في كون الحارث له وفادة فهو صحابي أولا ، والنعمان ومعافر بالفاء مكسورة وهمدان ، أى باسكان الميم وفتح الدال المهملة وهى قبيلة .

وأما همدان بفتح الميم والذال المعجمة فقبيلة بالعجم ، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال وإلى النعمان ومعافر وهمدان ، أما بعد : فإني أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو : أما بعد : فإنه قد وقع بنا رسولكم مقلنا من أرض الروم : أى رجوعنا من غزوة تبوك ، فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وإن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة .

أما بعد : فإن محمدا النبي أرسل إلى زرعة ذى يزن . وفى الاستيعاب : زرعة بن سيف ذى يزن . وفى كلام الذهبي : زرعة بن سيف ذى يزن أن : إذا أتاكم راسلي فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعقبة بن نمر ، ومالك بن مرارة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفتكم بالخلاء المعجمة

جمع مخلاف ، وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبن إلا راضيا . أما بعد فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله .

ثم إن مالك بن كعب بن مرارة قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حير وقتلت المشركين : فأبشر بخير ، وأمرك بحمير خيرا ، ولا تخونوا ، ولا تخاذلوا بضم التاء المثناة الفوقية وكسر الدال . ويجوز أن يكون بفتح المثناة وفتح الدال محذوف إحدى التاءين ، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وإن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وأمركم به خيرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ومنها وفد رسول فروة بن عمرو الجذامى : وفد رسول فروة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بإسلامه : وأهدى له صلى الله عليه وسلم بغاة بيضاء : أى يقال لها فضة وحمارا يقال له يعفور وفرسا يقال له الظرب وثيابا وقباء مرصعا بالذهب :

وكان فروة رضى الله تعالى عنه عاملا للروم على ما يليهم من العرب ، فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه وحبسوه ، ثم ضربوا عنقه وصلبوه أى بعد أن قال له الملك ارجع عن دين محمد ونحن نعيدك إلى ملكك قال : لا أفارق دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنك تعلم أن عيسى عليه الصلاة والسلام بشر به ، ولكنك تضن بملكك .

ومنها وفد بنى الحارث بن كعب . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، وقال له : إن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج خالد رضى الله تعالى عنه حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلموا ، فقام فيهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنهم يعلمهم الإسلام ، أى شرائعه ، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل . فقبل معه وفتحهم . فأقبل رضى الله تعالى عنه ومعه وفتحهم . وفيهم قيس بن الحصين ذو الغصنة بالغين المعجمة . أى لأنه كان فى خلقه غصة لا يكاد يبين الكلام منها . وهى صفة لأبيه الحصين . وربما وصف بها قيس . قال فى النور : ويحتمل أن يقال له ذو الغصنة وابن ذى الغصنة لأنه وأباه كانت بهما الغصنة وفيه بعد .

وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم : بما كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحدا بظلم . قال صدقتم . وأمر عليهم صلى الله عليه وسلم زيد بن الحصين ، ولم يمكنوا بعد رجوعهم إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها أنه وفد عليه صلى الله عليه وسلم رفاعة بن زياد الخزاعي . وفد رفاعه بن زيد الخزاعي بالخاء المعجمة والزاي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما فأسلم وحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا إلى قومه «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمدرسول الله صلى الله عليه وسلم لرفاعة بن زيد إني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ، فن أقبل منهم في حزب الله وحزب رسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين » فلما قدم رفاعة رضى الله تعالى عنه على قومه أجابوا وأسلموا .

ومنها وفد همدان . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع من همدان فيهم مالك ابن نمط وكان شاعرا مجيدا ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك ، عليهم مقطعات من الحبرات بكسر الخاء المهملة : ثياب قصار . وقيل مخططة من برود اليمن . والعمائم العدنية نسبة إلى عدن مدينة باليمن : سميت بذلك لأن تبعا كان يحبس فيها أرباب الجرائم . وفدوا إليه صلى الله عليه وسلم على الرواحل المهرية والأرخبية . والمهرية : نسبة إلى قبيلة يقال لها مهرة باليمن والأرخبية : نسبة إلى أرحب وصار مالك بن نمط يرتجز : أى يقول الرجز بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

إليك جاوزنا سواد الريف في هبوات الصيف والخريف

مخططات بجمال الليف

ومن شعره :

حافظت رب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذى العرش مهتد
فاحلت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد

وقد أمره صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره بقتال ثقيف ، فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه كذا في الأصل .

وفي الهدى : روى البيهقي باسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد

ابن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى من ذكر يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه . ثم إنه صلى الله عليه وسلم بعث علياً كرم الله وجهه وأمر خالدًا بالرجوع إليه وأن من كان مع خالد إن شاء بقي مع عليّ وإن شاء رجع مع خالد ، فلما دنا من القوم خرجوا إليه ، فصاف على كرم الله وجهه أصحابه صفًا واحدًا ، ثم تقدم بين أيديهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا جميعاً ، وكتب بذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه ، ثم قال : السلام على همدان ، السلام على همدان ، وهذا أصح ، لأن همدان لم تكن تقاتل ثقيفاً ، فإن همدان باليمن وثقيفاً بالطائف .

أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : نعم الحى همدان ، ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد . وفيهم أبدال وفيهم أوتاد .

ومنها وفد تجيب أى بضم المثناة فوق وتحتية ويجوز الفتح ، وهى قبيلة من كندة . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تجيب وقد كانوا ثلاثة عشر رجلاً ، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم ، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأكرم منوهم . وقالوا : يا رسول الله إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوها فاقسموها على فقرائكم ، قالوا : يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا ، أى وفضل بفتح الضاد وكسرها ، قال أبو بكر : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فزاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم رغبة ، وأرادوا الرجوع إلى أهلهم فقيل له ما يعجلكم ؟ قالوا : نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاقينا إياه وما ورد علينا ، ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه ، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً ، قال : فأرسلوه إلينا ، فأرسلوه فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتى ، قال : وما حاجتك ؟ قال : تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ، ويجعل غناى فى قلبى ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه ، ثم أمر له صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه .

ثم إنهم بعد ذلك وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخى في الموسم إلا ذلك الغلام ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل الغلام الذى أتانى معكم ؟ قالوا : يارسول الله ، ما رأينا مثله قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لولا أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعا ، فقال رجل منهم ، أو ليس يموت الرجل جميعا يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا ، فلعل الأجل يدركه في بعض تلك الأودية فلا يزال الله عز وجل في أيها هلاك .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع من رجوع من أهل اليمن عن الإسلام قام ذلك الغلام في قومه فذكرهم الله والإسلام ، فلم يرجع منهم أحد ، وجعل أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يذكر ذلك الغلام ويسأل عنه ، ولما بلغه ما قام به كتب إلى زياد بن الوليد أى وكان واليا على حضرموت يوصيه به خيرا .

ومنها وفد بنى ثعلبة . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من الجعرانة أربعة نفر من بنى ثعلبة : أى مقرين بالإسلام ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماء . قال بعضهم : فرمى ببصره إلينا فأسرعنا إليه وبلال يقيم الصلاة ، فسلمنا عليه وقلنا يارسول الله إنارسل من خلفنا من قومنا ، ونحن مقرون بالإسلام . وقد قيل لنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا إسلام لمن لاهجرة له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم ، أى ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا الظهر ثم انصرف إلى بيته فلم يلبث أن خرج إلينا فدعا بنا ، فقال : كيف بلادكم ؟ قلنا نحصبون ، فقال : الحمد لله ، فأقننا أياما وضيافته صلى الله عليه وسلم تجرى علينا ، ثم لما جاءوا يودعون صلى الله عليه وسلم قال لبلال أجزهم ، فأعط كل واحد منهم خمس أواق فضة أى والأوقية أربعون درهما .

ومنها وفد بنى سعد هذيم من قضاة . عن النعمان رضى الله تعالى عنه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافدا في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد : أى جعلها موطأة قهرا وغلبة ، وأزاح العرب : أى استولى عليها ،

والناس صنفان إما داخل في الإسلام راغب فيه ، وإما خائف السيف ، فزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على جنازة في المسجد ، أي وهو سهيل بن البيضاء ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يصل في مسجده على جنازة إلا عليه رضى الله تعالى عنه . وما وقع له في مسلم أنه صلى الله عليه وسلم صلى فيه على سهيل وأخيه نظر فيه مع أن فقهاءنا ذكروه وأقروه ، فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم . وقلنا حتى يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبايعه .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلينا ، فدعانا فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا : من بني سعد هذيم ، فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا : نعم ، فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا : يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما أسلمتم فأنتم مسلمون قال : فأسلمنا وبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدينا على الإسلام ، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبنا ، فأتى بنا إليه ، فتقدم صاحبنا فبايعه صلى الله عليه وسلم على الإسلام . فقلنا : يا رسول الله إنه أصغرنا ، وإنه خادمنا فقال صلى الله عليه وسلم « سيد القوم خادمهم ، بارك الله عليه » قال النعمان رضى الله تعالى عنه : فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فكان يؤمنا فلما أردنا الانصراف أمر صلى الله عليه وسلم بلالا فأجازنا بأواق من فضة ، لكل رجل منا ، فرجعنا إلى قومنا .

ومنها وفد بني فزارة . وفد عليه صلى الله عليه وسلم بضعة عشر رجلا من بني فزارة فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن وابن أخيه الجلد بن قيس بن حصن وهو أصغرهم مقرين بالإسلام وهم مستنون : أي توالى عليهم الجذب على ركائب عجاف : أي هزال ، فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بلادهم ؟ فقال رجل منهم : أي وهو خارجة : أسنت بلادنا ، وهلكت مواشينا ، وأجدب جنابنا : أي ما حولنا وغرثت [] أي جاءت عيالنا فادع لنا ربك يغيثنا ، واشفع لنا إلى ربك ، وليشفع لنا ربك إليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله وبلك هذا أنا أشفع إلى ربي عز وجل ، فن ذا الذي يشفع ربنا إليه ! لا إله إلا هو العلي العظيم ، وسع كرسيه : أي علمه ، كذا قيل . وقيل موضع قدميه السموات والأرض : أي أحاط بالسموات والأرض ، وهو دون العرش

كما جاءت به الآثار ، فهي تثظ : أى تصوت من عظمته وجلاله كما ينط الرحل بالحاء المهملة « الحديث : أى من ثقل الحمل .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليضحك من شغفكم وأزلكم : أى شدة ضيقكم وجدبكم ، وقرب غيائكم ، فقال الأعرابي : لن نعدم من رب يضحك خيرا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، وصعد صلى الله عليه وسلم المنبر فتكلم بكلمات ، وكان لا يرفع يديه : أى الرفع البالغ فى شىء من الدعاء إلا فى الاستسقاء ، فرفع صلى الله عليه وسلم يديه حتى رؤى بياض إبطيه . أى وفى النور : وقد جوزت وجهها وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان يرفع يديه فى الاستسقاء يعنى ظهور كفيه إلى السماء كما فى مسلم ، أى فيكون التقدير : لا يرفع ظهور كفيه إلى السماء إلا فى الاستسقاء .

وأقول : فيه أن هذا يقتضى أنه يفعل ذلك ، وإن كان استسقاؤه لطلب حصول شىء كما فى دعائه صلى الله عليه وسلم فى هذا الاستسقاء فإنه متضمن للحصول .

وقد ذكر فى النور أن ما كان الدعاء فيه لطلب شىء كان يبطن الكفين إلى السماء . والظاهر أن مستند ذلك استقراء حاله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء فى الاستسقاء وغيره فليتأمل ، والله أعلم :

ومما حفظ من دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم أسق » بقطع الهمزة ووصلها « بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحى بلدك الميت ، اللهم أسقنا غيثاً أى مطراً « مغيثاً مربعا بضم الميم وإسكان الراء ، وبالوحدة مكسورة وبالعين المهملة : مسرعا لإخراج الربيع ، « مرتعا بالناء المشناة فوق من رعت الدابة : إذا أكلت ما شاءت « طبقا » أى مستوعبا للأرض منطبقا عليها ، واسعا « عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار . اللهم أسقنا رحمة ، ولا تسقنا عذابا ، ولا هدما ، ولا غرقا ، ولا محقا . اللهم أسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء .

فقام أبو لبابة رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله التمر فى المرابد ، أى وتكرر ذلك منه صلى الله عليه وسلم ومن أبى لبابة ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أسقنا الغيث حتى يقوم أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده ، أى المحل الذى يخرج منه ماء المطر بازاره فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فوالله ما رأينا الشمس سبقا « أى من السبت إلى السبت الآخر ، وقام أبو لبابة رضى الله تعالى عنه عريانا يسد ثعلب مربده بازاره لئلا يخرج التمر منه .

وفي بعض الروايات « فأمرت السماء وصى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم طاف الأنصار بأبي لبابة رضى الله تعالى عنهم يقولون له : يا أبا لبابة إن السماء والله لم تطلع حتى تقوم عريانا تسد ثعلب مربدك بازارك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو لبابة رضى الله تعالى عنه عريانا يسد ثعلب مربده بازاره فأقلت السماء » وحينئذ يكون قول الراوى لثلاث يخرج منه التمر بحسب ما فهم ، ويكون قول الصحابة : فوالله ما رأينا الشمس سبتا كان في قصة غيرها فخلط بعض الرواة : فجاء ذلك الرجل أو غيره . والذي في الصحيح أنه الرجل الأول .

وذكر بعض الحفاظ « أنه خارجة بن حصن ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، فدعا ورفع يديه حتى رأى بياض إبطيه » وهو أى بياض الإبط معدود من خصائصه صلى الله عليه وسلم « ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الإكام « بكسر الهمزة ، جمع أكمة : وهى التل المرتفع » والظراب « بكسر الظاء المشالة جمع ظرب بفتحها : الروابى الصغار « وبطن الأودية ، ومنابت الشجر فانجابت السحابة » أى أقلعت عن المدينة انجياب الثوب .

أقول : لعل هذا المطر كان عاما للمدينة وما حولها حتى وصل إلى محل هؤلاء الوفد ، وإلا فهم إنما طلبوا حصول المطر لمحلهم ، ولا يلزم من وجوده بالمدينة وجوده بمحلهم إلا إذا كان قريبا بالمدينة بحيث إذا وجد المطر بها يوجد بمحلهم غالبا ، وقد أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى إلى هذه القصة بقوله :

ودعا للأنام إذ دهمتهم	سنة من نخولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيا	م عليهم سحابة وطفاء
تنحوى مواضع الرعى والسة	ى وحيث العطاش توهى السقاء
وأنى الناس يشكون أذاها	ورخاء يؤذى الأنام غلاء
فدعا فانجلى الغمام فقل فى	وصف غيث إقلاعه استسقاء
ثم أرى الثرى وقرت عيون	بقراها وأحييت إحياء
فترى الأرض عنده كسما	أشرقت من نجومها الظلماء
يخجل الدر واليواقيت من نو	ر رباها البيضاء والحمراء

ثم رأيت فى الحدائق لابن الجوزى رحمه الله عن أنس رضى الله تعالى قال « أصابت

الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب على المنبر يوم الجمعة ، فقام أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله أن يسقينا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما في السماء قزعة سحب ، فدار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل صلى الله عليه وسلم عن المنبر حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته الشريفة ، قال : فطرنا يومنا ذلك . ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال : يا رسول الله تهدم البناء ، وغرق المال ، ادع الله لنا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال : اللهم حوالينا ولا علينا قال : فما جعل يشير بيديه إلى ناحية من السماء إلا انفرجت حتى صارت المدينة في مثل الجونة حتى سال الوادى شهرا فلم يجي أحد من ناحية إلا حدث بالجوود .

ثم رأيت بعضهم قال : أحاديث الاستسقاء ثابتة في الصحيحين . وظاهرها أنه تعدد ، ففي بعضها أنه وقع وهو في خطبة الجمعة ، وفي بعضها أنه صعد المنبر حين شكى إليه فخطب ودعا .

وفي بعضها ، أنه خرج إلى المصلى بعد أن وعد الناس يوما يخرج فيه ونصب له منبرا واستسقى وأجيب دعوته ونزل المطر وجاء إليه صلى الله عليه وسلم أعرابي . وقال له : يا رسول الله أتيناك ومالتنا بعير يئط ، ولا صغير يغط ، ثم أنشد شعرا يقول فيه :

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فدعا فسقى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه ، من ينشدنا قوله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله كأنك تريد قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل الأبيات

فقال صلى الله عليه وسلم أجل .

وفي رواية « لما جاءه صلى الله عليه وسلم المسلمون : وقالوا : يا رسول الله ، فحط المطر ، ويبس الشجر ، وهلك المواشي وأسنت الناس ، فاستسقى لنا ربك ، فخرج صلى الله عليه وسلم والناس معه يمشون بالسكينة والوقار حتى أتوا المصلى ، فتقدم صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة وكان يقرأ في العيدين والاستسقاء في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب : وسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وهل

أتاك حديث الغاشية ، فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه وقلب رداءه لكي ينقلب القحط إلى الخصب ، ثم جثى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه ورفع يديه وكبر تكبيرة ، ثم قال : اللهم اسقنا ، وأغننا غيثا مغيثا رحيا واسعا وجدا ؛ طبقا مغدقا عاما ، هنيئا مريئا مريعا مرتعا وابلا ، سائلا مسيلا ، مجللا دائما ، دارا نافعا ، غير ضار ، عاجلا غير واب غيثا . اللهم تحيي به البلاد ، وتغيث به العباد ، وتجعله بلاغا للحاضر منا والباد . اللهم أنزل في أرضنا زينتها ، وأنزل علينا سكنها . اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهورا ، تحيي به بلدة ميتا واسعة ، مما خلقت أنعاما وأناسي كثيرا ، فما برحوا حتى أقبل قزح من السحاب فالتأم بعضه إلى بعض . ثم أمطرت سبعة أيام لا تطلع عن المدينة ، فأتاه صلى الله عليه وسلم المسلمون فقالوا : قد غرقت الأرض ، وتهدمت البيوت ، وانقطعت السبل ، فادع الله يصرفها عنا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر حتى بدت نواجذه ، تعجبا لسرعة ملالة ابن آدم . ثم رفع يديه ، ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على رءوس الظراب ، ومنبت الشجر ، وبطون الأودية ، وظهور الآكام ، تنقشعت عن المدينة ثم قال صلى الله عليه وسلم : لله در أبي طالب لو كان حيا قرت عيناه ، من الذي ينشدنا قوله ؟ فقام على كرم الله وجهه فقال : يا رسول الله كأنك أردت قوله فقال الأبيات .

ومنها وفد بني أسد . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رهط من بني أسد ، منهم ضرار بن الأزور ، ووابصة بن معبد وطليحة بن عبد الله الذي ادعى الذبوة بعد ذلك ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، ومنهم معاذة بن عبد الله بن خلف .

وقد استهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ناقة تكون جيدة للركوب والحلب ، من غير أن يكون لها ولد معها ، فطلبها فلم يجدها إلا عند ابن عم له ، فجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلبها فشرب منها ثم سقاها ، ثم قال : اللهم بارك فيها وفيمن منحها ، فقال : يا رسول الله وفيمن جاء بها ، فقال : وفيمن جاء بها . ومنهم حضرمي بن عامر ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد مع أصحابه ، فسلموا عليه ، وقال شخص منهم : يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنتك عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثا ، ونحن لمن وراءنا .

أى وفي لفظ إن حضرمي بن عامر قال : أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء : أى ذات قحط ولم تبعث إلينا . وفي رواية : يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب ، فأنزل

الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله بمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) .

وسألوه صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، من العيافة وهي زجر الطير ، والتخرص على الغيب ، والكهانة ، وهي الإخبار عن الكائنات في المستقبل ، وضرب الحصباء ، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله خصلة بقيت ، فقال : وما هي ؟ قالوا انخط : أى خط الرمل ومعرفة ما يدل عليه ، قال صلى الله عليه وسلم : علمه نبى ، فمن صادف مثل علمه علم . أى وفي رواية لمسلم : فن وافق خطه ، أى علم موافق خطه فذاك : أى يباح له وإلا فلا يباح له إلا بتبيين الموافقة .

أى وفي شرح مسلم أن محصل مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهى عنه : أى لأنه لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم قال : لو علمتم موافقته ، لكن لا علم لكم بها ؛ وأقاموا أياما يتعلمون الفرائض ، ثم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه وأمر لهم بجوائز ثم انصرفوا إلى أهلهم .

ومنها وفد بنى عذرة : قبيلة باليمن ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلا من بنى عذرة . أى وسلموا بسلام الجاهلية فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من التوم ؟ فقال قائلهم : من بنى عذرة : أى أخوقصى لأمه : نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، فلنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بكم وأهلا : أى لقيتم رحبا وأتيتم أهلا ، فاستأنسوا ولا تستوحشوا ، ما أعرفنى بكم ، قال : ثم قال صلى الله عليه وسلم لهم : فإيمنكم من تحية الإسلام ؟ قالوا : يا محمد كنا على ما كان عليه آبؤنا ، فقد منا مرتادين لأنفسنا ولقومنا : وقالوا لإلام تدعو ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ وأن تشهدوا أنى رسول الله إلى الناس كافة ، فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس تحسن ظهورهن وتصلين لمراقبتن فإنه أفضل العمل ، ثم ذكر لهم صلى الله عليه وسلم باقى الفرائض من الصيام والزكاة والحج انتهى فأسلموا ، وبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الشام عليهم ، وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده ، ونهاهم صلى الله عليه وسلم عن سؤال الكاهنة : أى فقد قالوا : يا رسول الله إن فينا امرأة كاهنة قريش والعرب يتحاكمون إليها ، أفنساها عن أمور ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

لا تسألوها عن شيء . ونهاهم صلى الله عليه وسلم عن الذبائح التي كانوا يذبحونها إلى أصنامهم ، وقالوا نحن أعوانك وأنصارك ، ثم انصرتنا وقد أجزوا ، أي وكسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدهم دابر .

ومنها وفد بني بليّ على وزن على مكبرا ، وهو حى من قضاة . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من بليّ ؛ منهم - وهو شيخهم - أبو الضبيب تصغير الضب : الدابة المعروفة ، نزلوا على رويغ بن ثابت البلوى ، وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : هؤلاء قومي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك ، فأسلموا ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا للإسلام ، فوقع مات منكم على غير الإسلام فهو في النار .

قال : وفي رواية عن رويغ رضى الله عنه قال : قدم وفد قومي ، فأزلتهم على ، ثم خرجت بهم حتى انتهينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في أصحابه ، فسلمنا عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : رويغ ؟ فقلت : ليك ، قال : من هؤلاء القوم ؟ قلت : قومي يارسول الله ، قال : مرحبا بك وبقومك . قلت : يارسول الله قدموا وافدين عليك مقرّين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يهديه للإسلام » فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنا وفدنا إليك لنصدقك ، ونشهد أنك نبي حق ، ونخلع ما كنا نعبد وكان يعبد آباؤنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا للإسلام ، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار انتهى . وقال له أبو الضبيب : يارسول الله إن لي رغبة في الضيافة ، فهل لي في ذلك أجر ؟ قال : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة ، فقال : يارسول الله ما وقت الضيافة ؟ قال : ثلاثة أيام فما بعد ذلك صدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحوجك : أي يضيق عليك ، أي وفي لفظ : فيؤثمك : أي يعرضك للإثم : أي تتكلم بسىّ القول ؛ قال : يارسول الله أرايت الضالة من الغنم أجدها ؟ في الفلاة من الأرض قال : هي لك ، أو لأخيك ، أو للذئب . قال : فالبعير ؟ قال : مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه . قال رويغ : ثم قاموا فرجعوا إلى منزلي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي منزلي يحمل تمرا ، فقال : استعن بهذا التمر ، فكانوا يأكلون منه ومن

غيره ، فأقاموا ثلاثة أيام ؛ ثم ودعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم .

ومنها وفد بني مرة . وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر رجلا من بني مرة ، رأسهم الحارث بن عوف ، فقال : يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك ، نحن قوم من بني لؤى ابن غالب ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للحارث : أين تركت أهلك؟ فقال : بسلاح وما والاها ، فقال : كيف البلاد؟ فقال : والله إنا لمسنون ، وما فى المال مح : أى صوت يردده فادع الله لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم استقمهم الغيث فأقاموا أياما ، ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مودعين له فأمر بلالا أن يجيزهم ، فأجازهم بعشرة أواق من فضة ، وفضل الحارث ابن عوف فأعطاه اثني عشر أوقية ، أى وهذا يفيد أن كل واحد أعطى عشر أواق ، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البلاد مطيرة ، فسأوا قومهم متى مطرتم ؟ فإذا هو ذلك اليوم الذى دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخصبت لهم بعد ذلك بلادهم .

ومنها وفد خولان ، وهى قبيلة من اليمن . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من خولان ، فقالوا : يا رسول الله نحن على من وراعنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل ، مصدقون برسوله ، وقد ضربنا إليك آباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها . وحزون كفلوس : وهو ما غلظ منها ، والمثة لله ولرسوله علينا ، وقدمنا زائرين لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ما ذكرتم من مسيركم إلى ، فإن لكم بكل خطوة خطاها بغير أحدكم حسنة ؛ وأما قولكم زائرين لك ، فإنه من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة : فقالوا : يا رسول الله ، هذا السفر الذى لا توى عليه : أى والتوى بفتح المثناة فوق وفتح الواو مقصورا : هو هلاك المال ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل عم أنس؟ وهو صنم خولان الذى كانوا يعبدونه ، قالوا : بشرّ بدلنا الله تعالى ما جئت به ، وقد بقيت منا بعد بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى فقد كنا منه فى غرور وفتنة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟ قالوا : لقد رأيتنا بضم المثناة فوق ، وأسنننا حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لعم أنس قربانا فى غداة واحدة ، وتركناها يردها السباع ونحن أحوج إليهما من السباع ، فجاءنا الغيث من

ساعتنا ، ولقد رأينا الغيث يوارى الرحال ويقول قائلنا أنعم علينا عم أنس ، وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يقسمون لهذا الصنم من أموالهم من إنعامهم وحرثهم ، فقالوا : كنا نزرع الزرع ، فنجعل له وسطه ، فنسميه له ونسمى زرعاً آخر حجرة : أى ناحية لله ، فإذا مالت الريح بالذى سميناه له : أى لله جعلناه لعم أنس ، وإذا مالت الريح بالذى سميناه لعم أنس لم نجعله لله ، فذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل على فى ذلك (وجعلوا لله مآذراً من الحرث والأنعام نصيباً) الآية ، قالوا : وكنا نتحاكم إليه فيتكمم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الشياطين تكلمنكم ، وسألوه صلى الله عليه وسلم عن فرائض الله فأخبرهم بها صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وحسن الجوار لمن جاوروا ، وأن لا يظلموا أحداً ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ثم ودعوه صلى الله عليه وسلم بعد أيام وأجازهم : أى أعطى كل واحد اثنتى عشرة أوقية ونشا ، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس .

ومنها وفد بنى محارب . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من بنى محارب وفيهم خزيمة بن سواد ، وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام عرضه نفسه على القبائل فى المواسم يدعوهم إلى الله تعالى ، فجاسوا عنده يوماً من الظهر إلى العصر ، وأدام صلى الله عليه وسلم النظر إلى رجل منهم ، وقال له : قدر أيتك ، فقال له ذلك الرجل : إى والله لقد رأيتنى ، وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف على الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، ثم قال : يا رسول الله ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام منى ، فأحمد الله الذى جاء به حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل . فقال : يا رسول الله استغفر لى من مراجعتى إياك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الإسلام يجب ما قبله : يعنى الكفر ، أى ومسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه خزيمة بن سواد فصارت له غرة بيضاء ، وأجازهم كما يجيز الوفود ، ثم انصرفوا إلى أهلهم .

ومنها وفد صداء : حى من عرب اليمن . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر رجلاً من صداء .

وسبب ذلك أنه صلى الله عليه وسلم هياً بعثاً أربعائة من المسلمين استعمل عليهم قيس

ابن سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنهم ، ودفع له لواء أبيض ، ودفع إليه راية سوداء ، وأمره أن يظاً ناحية من اليمن كان فيها صداء ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل منهم ، وعلم بالجيش ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله جئتك وافداً على من ورأى ، فاردد الجيش ، وأنا لك بقومى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن سعد رضى الله تعالى عنهما وخرج الصداى إلى قومه ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولئك القوم ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله دعهم ينزلون على ، فنزلوا عليه فحباهم بالوحدة : أعظاهم وأكرمهم وكساهم ، ثم ذهب بهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم : فبايعوه على الإسلام ، وقالوا له : نحن لك على من وراءنا من قومنا فرجعوا إلى قومهم فشفاهم الإسلام ، فوافى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة رجل فى حجة الوداع ، وسمى ذلك الرجل الذى كان سبياً فى رد الجيش ومجىء الوفد بزباد بن الحارث الصداى ، أى وذكر زياد أنه صلى الله عليه وسلم قال له : يا أخا صداء إنك لمطاع فى قومك ، قال : فقامت بلى من من الله عز وجل ومن رسوله . قال وفى رواية : بل الله هدهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلا أوامرك عليهم؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، فكتب لى كتاباً بذلك ، فقامت : يا رسول الله مر لى بشيء من صدقاتهم ، قال : نعم . فكتب لى كتاباً آخر انتهى .

قال زياد رضى الله تعالى عنه : وكنت معه صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، وكنت رجلاً قويا ، فلزمت غرزه : أى ركابه ، وجعل أصحابه يتفرقون عنه ، فلما كان السحر قال صلى الله عليه وسلم : أذن يا أخا صداء ، فأذنت على راحتى ، ثم سرنا حتى نزلنا ، فذهب صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع ، فقال : يا أخا صداء هل معك ماء؟ قلت معى شيء فى إداوتى : أى وهى إناء من جلد صغير . وفى رواية : لا إلا شىء قليل لا يكفيك ، قال : هاته ، فجئت به ، قال : صب ، فصبيت مائى الإداوة فى القعب ، أى وهو القدح الكبير ، وجعل أصحابه صلى الله عليه وسلم يتلاحقون : ثم وضع صلى الله عليه وسلم كفه فى الإناء فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور ، ثم قال : يا أخا صداء لولا أنى أستحى من ربى عز وجل لسقينا وأسقينا : أى من غير أصل ، ثم توضأ وقال : أذن فى أصحابى : من كانت له حاجة فى الوضوء بفتح الواو فليرد ، قال : فورد الناس من آخرهم ، ثم جاء بلال يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أخا صداء

أذن ، ومن أذن فهو يقيم فأقت ، ثم تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بنا ، فلما سلم : يعني من صلاته قام رجل يشكو من عامله ، فقال : يا رسول الله إنه آخذنا بذحول كانت بيننا وبين قومه في الجاهلية : أى وفي رواية آخذنا بكل شئ كان بيننا وبين قومه في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا خير في الإمارة لرجل مسلم ، ثم قام رجل آخر ، فقال : يا رسول الله أعطني من الصدقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت جزءا منها أعطيتك ، وإن كنت غنيا عنها فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن ، فقلت : يا رسول الله هذان كتابك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ؟ قلت : إني سمعتك تقول : لا خير في الإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم ، وسمعتك تقول : من سأل الصدقة وهو عنها غنى فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن وأنا غنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن الذى قلت كما قلت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دلني على رجل من قومك أستعمله ، فدلته صلى الله عليه وسلم على رجل منهم فاستعمله . قلت : يا رسول الله إن لنا بئرا إذا كان الشتاء كفانا ماؤها ، وإن كان الصيف قلّ علينا فتفرقنا على المياه ، والإسلام فينا قليل ، ونحن نخاف ، فادع الله عز وجل لنا في بئرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ناولني سبع حصيات ، فناولته ففركهن في يده الشريفة ثم دفعهن إلى وقال : إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة حصاة وسم الله ، قال : ففعلت ، فما أدركنا لها قرعا حتى الساعة .

ومنها وفد غسان : اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ، ومنهم بنو حنيفة ، وقيل غسان قبيلة .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر من غسان فأسلموا ، وقالوا : لاندرى هل يتبعنا قومنا أم لا وهم يحبون بقاء ملكهم وقربهم من قيصر ، فأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجواز ، وانصرفوا راجعين إلى قومهم ، فلما قدموا عليهم ولم يستجيبوا لهم كتبوا لإسلامهم .

ومنها وفد سلامان بفتح السين وتخفيف اللام : وفي العرب بطون ثلاثة منسوبون إليه : بطن من الأزد ، وبطن من طيء ، وبطن من قضاة وهم هؤلاء .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من سلامان ، فيهم خبيب بن عمرو ، السلاماني فأسلموا .

قال : وعن خبيب رضى الله تعالى عنه : صادفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا من المسجد إلى جنازة دعى إليها ، فقلنا : السلام عليك يا رسول الله : فقال : وعليكم السلام من أنتم ؟ قلنا : نحن من سلامان قدمنا إليك لتبايعك على الإسلام ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى ثوبان غلامه ، فقال : أنزل هؤلاء ، وسألنا عن أشياء انتهى .

قال خبيب رضى الله تعالى عنه : قلت يا رسول الله ما أفضل الأعمال ؟ قال : الصلاة في وقتها ، وصلوا معه صلى الله عليه وسلم يومئذ الظهر والعصر ، ثم شكوا له صلى الله عليه وسلم جدب بلادهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اسقهم الغيث في دارهم ، فقلت يا رسول الله ارفع يديك فإنه أكثر وأطيب ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قام صلى الله عليه وسلم وقمنا معه ، وأقمنا ثلاثة أيام وضيافته صلى الله عليه وسلم تجرى علينا ، ثم ودعنا ، وأمر لنا بجوائز ، فأعطينا خمس أواق فضة لكل واحد واعتذر إلينا بلال رضى الله تعالى عنه وقال : ليس عندنا اليوم مال ، فقلنا : ما أكثر هذا وأطيبه ثم رجعنا إلى بلادنا فوجدناها قد مطرت في اليوم الذى دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها وفد بنى عبس . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من بنى عبس فقالوا : يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لاهجرة له ، ولنا أموال ومواش هي معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لاهجرة له بعناها وهاجرنا من آخرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم أى ينقصكم من أعمالكم شيئاً وسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خالد بن سنان هل له عقب ؟ فأخبروه أنه لا عقب له كانت له ابنة فانقرضت ، وأنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه عن خالد بن سنان وقال : إنه نبي ضيعه قومه : وجاء « ليس بينى وبين عيسى عليه الصلاة والسلام نبي » .

أى وإذا صح شيء من الأحاديث التى ذكر فيها خالد بن سنان أو غيره يكون .

معناه : لم يكن بينه صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام نبي مرسل ، أى وتقدم مافى ذلك .

ومنها وفد النخع : أى بفتح النون وانحاء المعجمة : قبيلة من اليمن ، وهم آخر الوفود ، وكان وفودهم سنة إحدى عشرة فى النصف من المحرم .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا رجل من النخع مقرين بالإسلام وقد

كانوا بايعوا معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ، فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو :

يا رسول الله إني رأيت فى سفرى هذا عجبا : أى وفى رواية : رأيت رؤيا هالتي ، قال :

وما رأيت ؟ قال : رأيت أتانا تركبها فى الحى ولدت جديا : أى وهو ولد المعز أسقع

أحوى ، أى والأسقع الذى سواده مشرب بحمرة . والأحوى : الذى ليس شديد السواد

ومن ثم فسر بالأخضر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تركت أمة لك مصرّة

لك على حمل ؟ قال نعم ، قال فإنها تلد غلاما وهو ابنك قال : يا رسول الله ، فماله أسقع

أحوى ؟ قال : ادن منى ، فدنا منه ، فقال : هل بك من برص تكتمه ؟ قال : فوالذى

بعثك بالحق ما علم به أحد ولا اطلع عليه غيرك ، قال هو ذاك ، قال : يا رسول الله ورأيت

النعمان بن المنذر أى وهو ملك العرب وعليه قرطان . والقرط : ما يكون فى شحمة الأذن ،

ودملجان بضم الدال المهملة وضم اللام وفتحها ، ومسكتان بضم الميم وسكون المهملة ،

قال : ذاك ملك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجهته ، قال : يا رسول الله ، ورأيت عجوزا

شمطاء : أى يخالط شعر رأسها الأبيض شعر أسود خرجت من الأرض ، قال : تلك بقية

الدنيا ، وقال : ورأيت نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقال له عمرو ،

وهى تقول لظى لظى ، بصير وأعمى أطعمونى أكلكم أهلكم ومالككم ، قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم تلك فتنة تكون فى آخر الزمان ، قال : يا رسول الله وما الفتنة ؟ قال :

يقتل الناس إمامهم ويشجعون اشتجار أطباق الرأس ، ويشجعون بالشين المعجمة وبالجم :

أى يشتبكون فى الفتنة اشتباك أطباق الرأس ، وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم

بين أصبعيه ، يحسب المسىء فيها أنه محسن ، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أسهل . أى وفى لفظ :

أحلى من شرب الماء البارد ، وإن مات ابنك أدركت الفتنة ، وإن مت أنت أدركها ابنك ،

فقال : يا رسول الله ادع الله أنى لأدركها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم

لا يدركها ، فمات وبقى ابنه عمرو ، ولم يجتمع به صلى الله عليه وسلم ، فهو تابعى وكان ممن

خلع عثمان رضى الله تعالى عنه .

قال: وفي رواية أن النخع بعثت رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم أرطاة بن شرحبيل من بني حارثة والأرقم من بني بكر ، فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليهما الإسلام فقبلاه فبايعاه على قومهما ، وأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنهما وحسن هيتهما ، وقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل خلفنا وراءكما من قومكما مثلكما ؟ قالا : لا يا رسول الله ، قد خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلا كلهم أفضل منا ، وكلهم يقطع الأمر وينفذ الأشياء ما يشاء ، فدعا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقومهما بخير ، وقال : اللهم بارك في النخع .

وعقد صلى الله عليه وسلم لأرطاة لواء على قومه ، فكان في يده يوم الفتح ، وشهد به القادسية ، وقتل يومئذ رضي الله تعالى عنه اه .

وقوله وكان في يده يوم الفتح لا يناسب ما تقدم أن وفد النخع كان قدومه في سنة إحدى عشرة ، إلا أن يقال إن هذين وفدا قبل وفود ذلك الجمع .

وقد ترك الأصل التعرض لحملة من الوفود وذكرت في السيرة العراقية والسيرة الهشامية تركناها تبعا للأصل .

منها أن عمرو بن مالك وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، ثم رجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : حتى نصيب من بني عقيل مثل ما أصابوا منا فكان بينهم وبين بني عقيل مقتلة ، وكان عمرو بن مالك هذا من جملة من قاتل معهم ، فقتل رجلا من بني عقيل ، قال عمرو : فشددت يدي في غل وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأخيه ما صنعت ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن أتاني لأضرب ما فوق الغل من يده ، فلما جئت سلمت فلم يرد علي السلام وأعرض عني ، فأثبته عن يمينه فأعرض عني ، فأثبته عن يساره فأعرض عني ، فأثبته من قبل وجهه ، فقلت : يا رسول الله إن الرب عز وجل ليرضى فيرضي ، فارض عني رضي الله تعالى عنك ، قال : رضيت .

وتقدم أنه قد جاء في الصحيح « لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » والله أعلم .

باب بيان كتبه صلى الله عليه وسلم التي أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام

أى فى الغالب ، وإلا فنها ما ليس كذلك ، وهذه غير كتبه صلى الله عليه وسلم التي كتبها بالأمان التي تقدم ذكرها .

أى ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يكتب للملوك قيل له : يارسول الله إنهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان محتوما : أى ليكون فى ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغى أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم . وفيه أن هذا واضح إذا كان الختم عليها بعد طيبها ؛ ويجعل عليها نحو شمع ويختم فوق ذلك . والظاهر أن ذلك لم يكن ، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن الزوير لبعده مع الختم ، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة ، أى بعد أن اتخذ خاتما من ذهب ، فاقتدى به صلى الله عليه وسلم ذوو اليسار من أصحابه ؛ فصنعوا خواتيم من ذهب . ولما لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لبس أصحابه رضى الله تعالى عنهم خواتيمهم ، فجاءه جبريل عليه السلام بعد من الغد بأن لبس الذهب حرام على ذكور أمتك ، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الخاتم ، فطرح أصحابه خواتيمهم ، وكان نقش خاتمه الفضة ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

وفى حديث موضوع : كان نقش خاتمه صدق الله : وفى رواية شاذة أنه بسم الله محمد رسول الله ، والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق ؛ فمحمد آخر الأسطر ؛ ورسول فى الوسط ، والله فوق ، كذا قال بعض أئمتنا .

قال فى النور : والذى يظهر لى أن هذه الكتابة كانت مقلوبة حتى إذا ختم بها يختم على الاستواء كما فى خواتم الكبراء اليوم . وختم صلى الله عليه وسلم بذلك الخاتم الكتاب وكان فى يده الشريفة ، ثم فى يد أبى بكر ، ثم فى يد عمر ، ثم فى يد عثمان رضى الله تعالى عنهم ؛ حتى وقع فى بئر أريس فى السنة التي توفى فيها عثمان رضى الله تعالى عنه ؛ فالتسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه .

وذكر أن هذا الخاتم الذى كان فى يده صلى الله عليه وسلم ثم فى يد أبى بكر ثم فى يد عمر ثم فى يد عثمان رضى الله تعالى عنهم ، كان الخاتم الحديد الذى كان ملويا عليه الفضة ،

وأنه الذى كان فى يد خالد بن سعيد ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : مانقش هذا الخاتم ، قال : محمد رسول الله ، قال : اطرحه إلى ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبسه ، فكان فى يده ثم فى يد أبى بكر الحديث .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه « أنه صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة فضه حبشى أى من جذع » لأنه يؤتى به من بلاد الحبشة . وقيل صنف من الزبرجد ، وأنه الذى نقش فيه « محمد رسول الله » وفى لفظ « فضه منه » وفى لفظ « فضه من عقيق » .

أى ولا ينافى ذلك وصفه بأنه حبشى ، لأن العقيق يؤتى به من بلاد الحبشة : ولم يرد أنه صلى الله عليه وسلم لبس خاتما كله عقيق . وفى الحديث « تختموا بالعقيق فإنه مبارك ، تختموا بالعقيق فإنه يننى الفقر » .

قيل وكان خاتمه صلى الله عليه وسلم فى خنصر يده اليسرى ، وهو المروى عن عامة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وقيل كان فى خنصر يمينه صلى الله عليه وسلم ، وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وطائفة ، ومنهم عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتختم فى يمينه وقبض والخاتم فى يمينه ، قال بعضهم : وهذا رواه عبيدة بن القاسم وهو كذاب : أى وهو يخالف ما جمع به البغوى بأنه تختم أولا فى يمينه ثم تختم به فى يساره ، وكان ذلك آخر الأمرين . وروى أشعب الطامع عن عبد الله بن جعفر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتختم فى اليمنى » .

قال الإمام النووى رحمه الله : التختم فى اليمنى أو اليسار كلاهما صح فعاه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لكنه فى اليمنى أفضل : لأنه زينة واليمن بها أولى ، هذا كلامه ، أى ولأن ابن أبى حاتم نقل عن أبى زرعة أنه كان فى يمينه صلى الله عليه وسلم أكثر منه فى يساره وكان يجعل فضه مما يلى كفه ، وتقدم أن الخاتم الذى لبسه صلى الله عليه وسلم يوما وألقاه كان من الذهب ، وقيل كان ذلك الخاتم من حديد .

وقد قال صلى الله عليه وسلم للابن خاتم الحديد « مالى أرى عليك حلية أهل النار » فطرحة ، ولعله ليكون سلاسل أهل النار وأغلاظهم وقبودهم من حديد ، أى ثم جاء وعليه خاتم من صفر : أى نحاس فقال « مالى أجد فيك ريح الأصنام » ولعل الأصنام كانت تتخذ من نحاس غالبا ، ثم أتاه وعليه خاتم من ذهب فقال « مالى أرى عليك حلية أهل الجنة »

أى المختص لإباحتها بأهل الجنة فى الجنة قال : « يارسول الله : من أى شىء أتخذه ؟ قال : من ورق ولا تتمه مثقالا » أى وزن مثقال ، لكن فى رواية أبى داود « ولا تتمه مثقالا ولا قيمة مثقال » وهى تفيد أن الخاتم إذا كان دون مثقال وزنا لكن بلغ بالصنعة قيمة مثقال كان منها عنه .

وفى الحديث « ما طهر الله كفا فيه خاتم من حديد » وهو يفيد كراهة لبس الخاتم الحديد .

وفى كلام الشمس العلقمى : ولا يكره كونه من نحو حديد ونحاس ، لحديث الشيخين « التمس ولو خاتماً من حديد » فليتأمل .

وعند عزمه صلى الله عليه وسلم على إرسال الكتب وتكلم مع أصحابه فى ذلك خرج على أصحابه يوماً فقال « أيها الناس إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى رحمكم الله ، ولا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه السلام ؛ فقال أصحابه رضى الله تعالى عنهم : وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يارسول الله ؟ قال : دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وأبى ، فشكا ذلك عيسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وجه إليهم . »

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر

المدعو هرقل ملك الروم على يد دحية الكلبي رضى الله تعالى عنه ، والدحية : بلسان اليمن الرئيس .

وقيصر معناه فى اللغة البقير لأنه شق عنه ، لأن أم قيصر ماتت فى المخاض فشق عنه وأخرج فسمى قيصر ، وكان يفتخر بذلك ويقول : لم أخرج من فرج ، أى لأن كل من ملك الروم يقال له قيصر .

كتب صلى الله عليه وسلم كتاباً لقيصر يدعو إلى الإسلام ، وبعث به دحية الكلبي رضى الله تعالى عنه ، وأمره أن يدفعه إلى قيصر ففعل كذلك ، أى بعد أن قال صلى الله عليه وسلم « من ينطق بكتابتى هذا ، فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟ » .

وقيل أمر صلى الله عليه وسلم دحية أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى قيصر .

ولما انتهى دحية رضى الله تعالى عنه إلى الحارث أرسل معه عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه ليوصله إلى قيصر ، فذهب به إليه ، فقال قومه لدحية رضى الله تعالى عنه : إذا رأيت الملك فاسجد له ، ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك .

قال دحية رضى الله تعالى عنه : لأفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير الله ، قالوا : إذن لا يؤخذ كتابك ، فقال له رجل منهم : أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له ، فقال دحية رضى الله تعالى عنه وما هو ؟ فقال : إن له على كل عتبة منبراً يجلس عليه ، فضع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها ففعل ، فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا الترجمان الذى يقرأ بالعربية ، ثم قال : انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب رضى الله تعالى عنه بالشام ، أى بغزة مع رجال من قريش فى تجارة زمن هدنة الحديبية ، أى وكان أولها فى ذى القعدة سنة ست .

وقيل كتب إليه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وذلك فى السنة التاسعة . وجمع بينهما بأنه صلى الله عليه وسلم كتب لقيصر مرتين ، والأول ماهو فى الصحيحين ، والثانى قاله السهيلي ، واستدل له بنجر فى مسند الإمام أحمد : أى وأغرب من قال إن الكتابة له كانت سنة خمس .

قال أبو سفيان : فأتانا رسول قيصر : أى وهو والى شرطته ، فانطلق بنا حتى قدمنا عليه : أى فى بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فقال لترجمانه : أى وهو المعبر عن لغة بلغة وهو معرب . وقيل اسم عربى ، سلهم أيهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ أى وفى لفظ : لهذا الرجل الذى خرج بأرض العرب يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان ، أنا أقربهم نسباً إليه ، لأنه لم يكن فى الركب يومئذ من بنى عبد مناف غيرى : أى لأن عبد مناف هو الأب الرابع له صلى الله عليه وسلم وكذا لأبي سفيان . أى وزاد فى لفظ : ما قرابتك منه ؟ قلت : هو ابن عمى ، فقال له : اذن منى ثم أمر بأصحابى ، فجعلوا خلف ظهرى ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم سأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ، وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذباً

إن قاله : أى حتى لاستحيوا أن تشافهوه بالتكذيب إذا كذب ، قال أبو سفيان :
فوالله لولا الحياء يومئذ أن يردوا على كذبا لكذبت ، ولكنى استحييت : فصدقت
وأنا كاره . أى وفي رواية : لولا مخافة أن يؤثر عنى الكذب لكذبت : أى لولا
خفت أن ينقل عنى الكذب إلى قومي ويتحدثوا به فى بلادى لكذبت عليه :
لبغضى إياه ومحبتى نقصه ، وبه يعلم أن الكذب من القبائح جاهلية وإسلاما .
ثم قال لترجمانه : قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت : هو مناذ ونسب .
قال : قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قلت : لا قال : قل له هل كنتم تتهمونونه
بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا . أى وفي رواية : هل كان حلافا كذابا مخادعا
فى أمره لعله يطلب ملكا وشرفا كان لأحد من أهل بيته قبله . قال : هل كان من آباءه ملك ؟
قلت : لا ، أى وزاد فى رواية : كيف عقله ورأيه ؟ قال لم نعب عليه عقلا ولا رأيا قط .
قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ؟ قلت : بل ضعفائهم ، أى والمراد بأشرف الناس
أهل النخوة وأهل التكبر ، فلا يرد مثل أبى بكر وعمر وحمزة رضى الله عنهم ممن أسلم قبل
هذا السؤال .

وعند ابن إسحاق رحمه الله تعالى : تبعه منا الضعفاء والمساكين والأحداث ، وأما ذوو
الأحساب والشرف فما تبعه منهم أحد ، وهو محمول على الأكثر الأغلب : أى الأكثر
والأغلب أن أتباعه صلى الله عليه وسلم ضعفاء . قال : فهل يزيدون أو ينقصون ؟ قلت :
بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه : أى كراهة له وعدم رضا به بعد أن
يدخل فيه ؟ قلت لا . ولا يقال هذا منقوض بما لعبد الله بن جحش حيث ارتد ببلاد الحبشة
لأنه يرتد كراهية للإسلام بل لغرض نفسانى كما تقدم . قال : فهل يغدر إذا عاهد ؟ قلت
لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندري ما هو فاعل فيها . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم . قال :
فكيف حربكم وحربه ؟ قلت دول وسجال ، ندل عليه مرة أى كما فى أحد ، ويدال علينا
أخرى أى كما فى بدر ، وقد تقدم فى أحد أن أبا سفيان رضى الله عنه قال يوم أحد يوم
بيوم بدر والحرب سجال : أى نوب .

وفى لفظ قال أبو سفيان : انتصر علينا مرة يوم بدر وأنا غائب ثم غزوتهم فى بيوتهم
ببقر البطون ويجدع الآذان والأنوف والشروج ، وأشار بذلك إلى يوم أحد .

قال : فما يأمركم به ؟ قلت : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا أى والذى

في البخارى يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وبينها ناعما كان يعبد آباؤنا ،
ويأمرنا بالصلاة والصدقة . وفي لفظ : والزكاة . وفي لفظ جمع بين الصدق والصدقة والعفاف
أى ترك المحارم وخوارم المروعة ، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه : قل له : إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك
الرسول تبعث في نسب قومها . وسألتك : هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا
فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتى بقول قيل قبله . وسألتك : هل كنتم
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مقال ؟ فزعمت أن لا فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب
على الناس ويكذب على الله تعالى . وسألتك : هل كان من آباءه ملك فقلت لا فلو كان من
آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟
فقلت : ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسول : أى لأن الغالب أن أتباع الرسول أهل الاستكانة
لأهل الاستكبار . وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك
الإيمان حتى يتم . وسألتك : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا
وكذلك الإيمان حين تحالط بشاشته القلوب ، إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به
لا يسخطه أحد . وسألتك : هل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، وإن حربكم وحربه دول وسجال
يدال عليكم مرة وتداولون عليه أخرى ، وكذلك الرسول تبلى ثم تكون له العاقبة : وسألتك
ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .
أى وفي البخارى : وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسول لا تغدر : أى لأنها
لا تطلب حظ الدنيا الذى لا يناله طالبه إلا بالغدر ، فعلمت أنه نبي . وقد كنت أعلم أنه خارج
ولكن لم أظن أنه فيكم ، وإن كان ما حدثتني به حقا فيوشك : أى يقرب أن يملك موضع
قدمي هاتين .

أى وذكر بعضهم أن هذا يدل على أن هذه الأشياء التى سألت عنها هرقل كانت عنده
في الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم .

وفيه أن هذا لا يأتى مع قوله ما تقدم إذ هو يقضى أن ذلك علامة على رسالة كل رسول
ثم قال قيصر : ولو أعلم أى أخلص أى أصل إليه لتجشمت : أى تكلفت مع المشقة لقيه :
أى وفي لفظ آخر : لأستطيع أن أفعل ، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : ولا عذر له في هذا ، لأنه قد عرف صدق النبي

صلى الله عليه وسلم وإنما شح بالملك ، فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام ، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي وما زالت عنه الرياسة .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : لو تفتن هرقل لقوله صلى الله عليه وسلم في الكتاب إليه « أسلم تسلم » وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل ما يخافه ، ولكن التوفيق بيد الله .

ثم قال : ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه : أى مبالغة فى خدمته والتعبد له ؛ ولا أطلب منه ولاية ولا منصبا .

قال أبو سفيان : ثم دعا بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى » أى ومن لم يتبع الهدى فلا سلام عليه ، فليس فى هذا بداءة الكافر بالسلام « أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام » أى بالكلمة الداعية للإسلام وهى كلمة التوحيد أى إليها ، فالباء موضع إلى « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » أى لإيمانك بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو لإيمان أتباعك بسبب إيمانك « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين » أى فلاحين القرى ؛ أى ومن ثم جاء فى رواية « إثم الفلاحين » وفى رواية « إثم الأكارين » والأكار : الفلاح ، لأن أهل السواد وما والاهاهم أهل فلاحه ، والمراد إثم رعاياك الذين يتبعونك ويتقادون لأمرك . وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أسرع انقيادا من غيرهم ، لأن الغالب عليهم الجهل والجفاء وقلة الدين ، والمراد عليك مع إثمك إثم رعاياك ؛ لأنه إذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا ، فهو متسبب فى عدم إسلامهم ، والفاعل لمعصية المتسبب لارتكاب غيره لها عليه الإثم من جهتين : جهة فعله وجهة تسببه (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) والواو فى قوله صلى الله عليه وسلم « ويا أهل الكتاب » عاطفة على مقدر معطوف على قوله أدعوك . والتقدير أدعوك بدعاية الإسلام ، وأقول لك ولأتباعك بأهل الكتاب .

قيل وهذه الآية كتبها صلى الله عليه وسلم قبل نزولها لأنها إنما نزلت فى وفد نجران ، وذلك فى سنة تسع . وهذه القصة كانت فى سنة ست ، وقيل بعد نزولها لأن نزولها كان فى أول الهجرة فى شأن اليهود : قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : وجوز بعضهم نزولها مرتين وهو بعيد كذا قال فلي تأمل .

قال أبو سفيان رضى الله عنه: فلما قضى مقاله وفرغ من الكتاب علت أصوات الذين حوله وكثر لغتهم: أى أصواتهم التى لانفهم .

وفى البخارى: كثر عنده الصخب: وارتفاع الأصوات. والصخب. اختلاط الأصوات عند المحاضرة. زاد البخارى: فلا أدرى ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا، فلما خرجت أنا وأصحابى وخلصنا قلت لهم لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة: أى عظم أمره، هذا ملك بنى الأصفر يخافه، فما زلت موقنا أن سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام، أى فأظهرت ذلك اليقين لأنه ارتفع. وفى لفظ: فما زلت مرعوبا من محمد حتى أسلمت .

وقد تقدم الكلام على كبشة، وهو أن جد وهب لأمه أبو آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة. قال فى شرح مسلم: وهو الذى كان يعبد الشعري، وأبو سلمة أم جده عبد المطلب كان يكنى أبا كبشة، وزوج مرضعته صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة، وتقدم الكلام أيضا على بنى الأصفر.

ويروى أن أبا سفيان رضى الله تعالى عنه قال لقيصر لما سأله: هل كنتم تهمونونه بالكذب؟ فقال: لا لكن أخبرك عنه أيها الملك خبرا تعرف به أنه قد كذب، قال: وما هو؟ قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجداً هذا ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح، فقال بطريق: أى قائد من قواد الملك كان واقفا عند رأس قيصر: صدق أيها الملك، فنظر إليه قيصر، فقال: ما أعلمك بهذا؟ قال: إني كنت لأنام ليلة أبدا حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى فلم نستطع أن نحركه كأنما زاول جبلا، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا: لانستطيع أن نحركه حتى نصبح، فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب. قال فى النور: الذى يظهر لى أنه الصخرة: أى المراد بالصخرة فى بعض الروايات كما قدمناه، وإذا فيه أثر مربوط الدابة فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر، فقال قيصر لقومه: يا قوم أستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبيا يبركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله فى غيركم، وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء، أى وأمر بإزالة دحية وإكرامه .

وذكر أن ابن أخى قيصر أظهر الغيظ الشديد وقال لعمه: قد ابتدأ بنفسه وسماك

صاحب الروم ، ألقى به : يعنى الكتاب ، فقال له : والله إنك لضعيف الرأى ، أترى أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر ؟ هو حق أن يبدأ بنفسه ، ولقد صدق ، أنا صاحب الروم ، والله مالكي ومالكة . أى وفى لفظ أن أخاص قيصر لما سيع الترجمان يقرأ « من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم ضرب فى صدر الترجمان ضربة شديدة ، ونزع الكتاب من يده ، وأراد أن يقطعه ، فقال له قيصر : ماشأنك ؟ فقال : تنظر فى كتاب رجلى قد بدأ بنفسه قبلك وسماك قيصر صاحب الروم وما ذكر لك ملكا ؟ فقال له قيصر : إنك أحمق صغير أو مجنون كبير ، أترى أن تمزق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه ؟ ولعمري إن كان رسول الله كما يقول لنفسه أحمق أن يبدأ بها منى ، ولئن سماني صاحب الروم لقد صدق ، ما أنا إلا صاحبهم وما أمملكهم ، ولكن الله سخرهم لى ، ولو شاء لسلطهم على كما سلط فارس على كسرى فقتلوه .

ولما جاءه صلى الله عليه وسلم الخبر عن قيصر قال : « ثبت ملكه » وفى لفظ « سيكون لهم بقية ، ولقد صدق الله ورسوله » .

فقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى أن الملك المنصور قلاوون أرسل بعض أمراءه إلى ملك المغرب بهدية فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنج فى شفاعة لقبيله وأكرمه وقال له لأتحضنك بتحفة سنوية فأخرج له صندوقا مصفحا بالذهب وأخرج منه مقلمة ؛ وفى لفظ قصبة من الذهب .

فمن السهيلي رحمه الله تعالى قال : بلغنى أن هرقل وضع الكتاب فى قصبة من ذهب تعظيما له ، فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه ، وقد ألقى عليه خرقة حرير ، فقال : هذا كتاب نبيكم لجدى قيصر ، مازلنا نتوارثه إلى الآن ، وذكر لنا آباؤنا عن آباءهم أنه مادام هذا الكتاب عندنا لا يزول الملك عنا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ، ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا ، أى ولا يتأفاه ما جاء « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » لأن المراد إذا زال ملكه عن الشام لا يخلفه فيه أحد ، وكان كذلك لم يبق إلا ببلاد الروم :

أى ويروى أن قيصر لما رجع من بيت المقدس إلى محل دار ملكه وهى حمص ، أى فإنه لما ظهر على الفرس وأخرجهم من بلاده نذر أن أتى بيت المقدس ماشيا شكرا لله ؛ فلما أراد الذهاب إلى بيت المقدس ماشيا بسط له البسط وطرح له عليها الرياحين ، ولا زال يمشى على ذلك إلى أن وصل إلى بيت المقدس كما سيأتى ، فلما رجع إلى حمص كان له فيها

قصر عظيم ، فأغلق أبوابه وأمر ناديا ينادى : ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، فدخلت الأجناد في سلاحها وطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم : إني أردت اختبار صلابتكم في دينكم ، فقد رضيت فرضوا عنه .

والذي في البخارى أن قيصر لما سار إلى حمص أذن لعطاء الروم في دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع ، فقال : يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، فلما رأى قيصر نفرتهم وأيس من الإيمان منهم أى وقالوا له أندعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابي ، فقال ردوهم على وقال : إني قلت مقاتلي أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه . وعند ذلك كتب كتابا وأرسله مع دحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه إني مسلم ولكنتى مغلوب ، وأرسل بهدية ، فلما قرئ عليه صلى الله عليه وسلم الكتاب قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم ، وقبل صلى الله عليه وسلم هديته وقسمها بين المسلمين ، ومصداق قوله صلى الله عليه وسلم أن قيصر بعد هذه القصة بدون سنتين قاتل المسلمين بغزوة مؤتة .

وفي صحيح ابن حبان عن أنس رضى الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه أيضا من تبوك يدعو له وأنه قارب للإجابة ولم يجب » وفي مسند الإمام أحمد « أنه كتب من تبوك إلى النبي صلى الله عليه وسلم إني مسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذب إنه على نصرانيته » . وفي لفظ : « كذب عدو الله والله إنه ليس بمسلم » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : فعلى هذا إطلاق صاحب الاستيعاب أنه آمن : أى أظهر التصديق ، لكنه لم يستمر عليه ولم يعمل بمقتضاه ، بل شح بملكه ، وآثر العافية على العاقبة لعنة الله عليه ، أى لأنه تحقق كفره أى وقد ذكر حامل كتابه إليه صلى الله عليه وسلم قال جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهرائى أصحابه محتبيا ، فقلت : أين صاحبكم ؟ قيل : هو هذا ، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى فوضعه فى حجره ، ثم قال : من أنت ؟ قلت : أنا أحد تنوخ ، قال : هل لك فى الإسلام دين الخنيفية ملة إبراهيم ؟ قلت إني رسول قوم وعلى دين قوم لأرجع عنه حتى أرجع إليهم ، فضحك صلى الله عليه وسلم وقال (إنك لانهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) فلما فرغ من قراءة كتابى قال : إن لك حقا ، وإنك رسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، إنا قوم سفر ،

فقال رجل : أنا أجوزه ، فأنى بحلة فوضعها فى حجرى ، فسألت عنه ؟ فقيل لى : إنه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس

على يد عبد الله بن حذافة ، أى لأنه كان يتردد عليه كثيرا

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمى ، وقيل أخاه خنيسا ، وقيل أخاه خارجة ، وقيل شجاع بن وهب ، وقيل عمر بن الخطاب رضى الله عنهم إلى كسرى ، وبعث معه كتابا مختوما فيه وبسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم الجوس « أى الذين هم أتباعك . قال عبد الله بن حذافة رضى الله عنه : فأتيت إلى بابه وطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه ، فأخذه ومزقه .

أى وفى رواية « أن كسرى لما أعلم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن بجمال الكتاب أن يدخل عليه ، فلما وصل أمر كسرى أن يقبض منه الكتاب ، فقال : لا ، حتى أدفعه إليك كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال كسرى ادنه ، فدنا فناولته الكتاب ، فدعا من يقرؤه ، فقرأه فإذا فيه : من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس ، فأغضبه حين بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم مافيه ، وأمر باخراج حامل ذلك الكتاب فأخرج ، فلما رأى ذلك قعد على راحلته وسار ، فلما ذهب عن كسرى سورة غضبه ، بعث فطلب حامل الكتاب فلم يجده ، فلما وصل إليه صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر قال صلى الله عليه وسلم : مزق كسرى ماكه . »

وكتب كسرى إلى بعض أمرائه باليمن يقال له باذان : إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسر إليه فاستتبته ، فإن تاب وإلا فابعث إني برأسه ، يكتب إلى هذا الكتاب : أى الذى بدأ فيه بنفسه وهو عبدى ، أى وفى رواية : إن تكفينى رجلا

خرج بأرضك يدعوني إلى دينه وإلا فعلت فيك كذا يتوعده ، فابعث إليه برجلين جليدين فيأ تيباني به : فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع قهرمانه ، وبعث معه رجلا آخر من الفرس ، وبعث معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدما الطائف ، فوجدا رجلا من قريش في أرض الطائف ، فسألاه عنه ، فقال : هو بالمدينة . فلما قدما عليه صلى الله عليه وسلم المدينة قال له : شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك . وقد بعثنا إليك فان أبيت هلكت وأهلك قومك وخربت بلادك ، وكانا على زى الفرس من حلق لحاهم وإعفاء شواربهم ، فكره صلى الله عليه وسلم النظر إليهما ، ثم قال لهما : ويلكما ، من أمركما بهذا ؟ قالوا : أمرنا ربنا ، يعنينا كسرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولكن أمرني ربي بإعفاء لحيتي وقص شاربي ، ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيا غدا ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه يقتله في شهر كذا في ليلة كذا ، فلما كان الغد دعاها وأخبرها الخبر ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى باذان : إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى يوم كذا من شهر كذا . فلما أتى الكتاب باذان توقف ، وقال إن كان نبيا فسيكون ما قال ، فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد ولده شيرويه ، قيل قتله ليلا بعد ماضى من الليل سبع ساعات فيكون المراد باليوم في تلك الرواية مجرد الوقت : أى وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم لرسول باذان : اذهب إلى صاحبك وقل له إن ربي قد قتل ربك الليلة ، ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءه صلى الله عليه وسلم هلاك كسرى قال : « لعن الله كسرى ، أول الناس هلاكا فارس ثم العرب » .

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال « لتفتحن عصابة من المسلمين أو المؤمنين أورهط من أمتي كنوز كسرى التي في القصر الأبيض » فكانت أنا وأبى فيهم ، وأصبنا من ذلك ألف درهم وقدم على باذان كتاب ولد كسرى شيرويه ، فيه : أما بعد ، فقد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس فانه قتل أشرافهم . فتفرق الناس ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذلى الطاعة من قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى يكتب إليك فيه فلا تزعجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا .

وفي رواية أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : إن كسرى قد استخلف ابنته . فقال :
« لا يفلح قوم تملكهم امرأة » .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة

على يد عمرو بن أمية الضمري رضى الله عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري رضى الله عنه إلى النجاشي
وبعث معه كتابا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ،
سلم أنت : أى أنت سالم » لأن السلم يأتي بمعنى السلامة وإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو
الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها
إلى مريم البتول الطيبة الحصينة » : أى العفيفة : أى المنقطعة عن الرجال التى لا شهوة لها
فيهم ، أو المنقطعة عن الدنيا وزينتها ؛ ومن ثم قيل لفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم
البتول « فحملت بعيسى . حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإني أدعوك إلى الله
وحده لا شريك له والمبالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتوقن بالذى جاءني ، فإني رسول
الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ،
والسلام على من اتبع الهدى » فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره
فجلس على الأرض ، ثم أسلم ودعابحى من عاج : أى وهو عظم الفيل ، وجعل فيه كتاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم .

أى وفي كلام بعضهم : وبعث صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي
فكان أول رسول ، وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ، وفي الآخر يأمره أن
يزوجه صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ، فأخذ الكتابين وقبلهما ووضعهما على رأسه وعينيه ،
ونزل عن سريره تواضعا ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق :

وكتب إليه صلى الله عليه وسلم النجاشي : أى جواب الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ،
إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من النجاشي أصحمة ، السلام عليك يابني الله
من الله ورحمة الله وبركاته الذى لا إله إلا هو . زاد في لفظ : الذى هداني للإسلام . أما بعد
فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، فورب

السماء والأرض إن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعث به إلينا . وقد قرّبنا ابن عمك وأصحابه ، يعنى جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين رضى الله عنهم ، فأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، أى جعفر بن أبي طالب ، وأسلمت على يده لله رب العالمين . أى وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتركوا الحبشة ما تركوكم » .

وذكر أن عمرو بن أمية رضى الله عنه قال للنجاشي . أى عند إعطائه الكتاب : يا أحممة إن على القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك في الرقة علينا منا وكأننا في الثقة بك منك ؛ لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا لنناه ، ولم نحفظك على شرّ قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم ، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يردّ ، وقاض لا يجور ، في ذلك موقع الخير وإصابة الفضل ، وإلا فأنت في هنا النبي الأُمى صلى الله عليه وسلم كاليهود في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس ، فرجاك للملم يرجهم له ، وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر ، فقال النجاشي : أشهد بالله إنه للنبي الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار كبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشنى من الخبر . زاد بعضهم : ولكن أعوانى من الحبشة قليل ، فأنتظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب .

أقول : كذا في الأصل ، وهو صريح في أن هذا المكتوب إليه هو الذى هاجر إليه المسلمون سنة خمس مع النبوة ، ونجاه النبي صلى الله عليه وسلم يوم توفى وصلى عليه بالمدينة منصرفه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وذلك في السنة التاسعة .

والذى قاله غيره كابن حزم أن هذا النجاشي الذى كتب إليه صلى الله عليه وسلم الكتاب وبعث به عمرو بن أمية الضمري لم يسلم ، وأنه غير النجاشي الذى صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم الذى آمن به وأكرم أصحابه ، وفي صحيح مسلم ما يوافق ذلك .

ففيه عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النجاشي الذى كتب إليه ليس بالنجاشي الذى صلى عليه . ويردّ بأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم كتب للنجاشي الذى صلى عليه وللنجاشي الذى تولى بعده على يد عمرو بن أمية فلا مخالفة .

ومن ثم قال في النور : والظاهر أن هذه الكتابة متأخرة عن الكتابة لأصحمة الرجل الصالح الذي آمن به صلى الله عليه وسلم وأكرم أصحابه هذا كلامه .

وفيه أن رد الجواب على النبي صلى الله عليه وسلم بالكتاب المذكور ورده على عمرو ابن أمية بقوله أشهد بالله إنه النبي الذي ينتظره أهل الكتاب إلى آخره إنما يناسب الأول الذي هو الرجل الصالح ويكون جواب الثاني لم يعلم ، وقد تقدم عن ابن حزم أنه لم يسلم .

وقال بعضهم : إنه الظاهر ، وحينئذ يكون الراوى خلط فوهم أن المكتوب إليه ثانيا هو المكتوب إليه أولا كما أشار إليه في الهدى ، والله أعلم .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمقوقس

ملك القبط

وهم أهل مصر والإسكندرية وليسوا من بنى إسرائيل — على يد حاطب بن أبي بلتعة رضى الله عنه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من الحديبية ، قال : أيها الناس ، أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله ، فوثب إليه حاطب رضى الله عنه ، وقال : أنا يارسول الله ، قال : بارك الله فيك يا حاطب ، قال حاطب رضى الله عنه : فأخذت الكتاب وودعته صلى الله عليه وسلم ، وسرت إلى منزلى ، وشددت على راحتي ، وودعت أهلى وسرت .

زاد السهيلي : وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل مع حاطب جبيرا مولى أبي رهم الغفارى ، فإن جبيرا هو الذى جاء بمارية من عند المقوقس .

واترض بأن هذا لا يلزمه أن يكون صلى الله عليه وسلم أرسل جبيرا مع حاطب للمقوقس ، لجواز أن يكون المقوقس أرسل جبيرا مع حاطب . والمقوقس لقب ، وهو لغة : المطول للبناء ، واسمه جريج بن مينا . وبعث معه صلى الله عليه وسلم كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى : أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجره مرتين ،

فإن توليت فإنما عليك إثم القبط» أي الذين هم رعاياك ، و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وختم الكتاب ، وجاء به حاطب رضى الله عنه حتى دخل على المقوقس بالإسكندرية : أي بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية ، فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب رضى الله عنه سفينة وحاذى مجلسه ، وأشار بالكتاب إليه . فلما رآه أمر باحضاره بين يديه ؛ فلما جرى به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه ، وقال لحاطب : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه : أي من قومه ، وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت ، فقال له حاطب : ألسنت تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله ؟ فإله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه ؟ قال : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم ، ثم قال له حاطب رضى الله عنه : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعنى فرعون (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) فانتقم به ثم انتقم منه ؛ فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بغيرك بك ، إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له يهود ، وأقربهم منه النصارى ؛ ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبي . ولسنا نهاك عن دين المسيح عليه السلام ، ولكننا نأمرك به . فقال : إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة باخراج الخبء بفتح الخاء المعجمة وهمز في آخره : أي الشيء الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، أى يخبر بالمغيبات وسأنتظر ، وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وجعله في حق عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له .

ثم دعا كاتبها له يكتب بالعربية ، فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم «بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد نبى ، وقد كنت

أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، أى فإنه قد دفع له مائة دينار وخمسة أثواب « وبعثت لك بجايرتين لهما مكان فى القبط عظيم » أى وهما مارية وسيرين بالسجين المهملة مكسورة « وبثياب : أى وهى عشرون ثوبا من قباطى مصر » قال بعضهم : وبقيت تلك الثياب حتى كفن صلى الله عليه وسلم فى بعضها .

وفى كلام هذا البعض : وأرسل له صلى الله عليه وسلم عمائم وقباطى وطيبا وعودا وندا ومسكام ألف مثقال من الذهب ومع قدح من قوارير ، فكان صلى الله عليه وسلم يشرب فيه ، أى لأنه سأل حاطبا رضى الله عنه فقال : أى طعام أحب إلى صاحبكم ؟ قال : الدباء : يعنى القرع ، ثم قال له : فى أى شىء يشرب ؟ قال : فى قعب من خشب ، ثم قال « وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » ولم يزد على ذلك ، ولم يسلم .

ولا يخفى أنه سيأتى أنه أهدى إليه صلى الله عليه وسلم زيادة على الجاريتين جارية أخرى اسمها قيسر ، وهى أخت مارية ، ولعله إنما اقتصر على ذكر الجاريتين دون هذه الثالثة مع أنها أخت مارية لأنها دونهما فى الحسن :

وذكر بعضهم أن سيرين أيضا أخت مارية ، فالثلاث أخوات .

وفى ينبوع الحياة لابن ظفر : فأهدى إليه صلى الله عليه وسلم المقوقس جوارى أربعا ، أى ويوافقه قول بعضهم : وأرسل إليه صلى الله عليه وسلم جارية سوداء اسمها بريرة .

وفى كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم أهدى لإحدى الجاريتين لأبى جهم بن قيس العبدى ، فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر . وأخرى أهداها الحسن بن ثابت ، وهى أم عبد الرحمن بن حسان كما تقدم فى قصة الإفك . وأهدى إليه المقوقس زيادة على ذلك خصيا : أى مجبوبا : أى غلام أسود يقال له مأبور باثبات الرء ، وقيل بحدفها ، وقيل هابو أى بالهاء بدل الميم وإسقاط الرء ابن عم مارية : وكونه كان مجبوبا عند إرساله وكان المهدي له المقوقس هو المشهور .

وفى كلام بعضهم أن المهدي له جريح بن مينا القبطى الذى كان على مصر من قبل هرقل ، وأنه لم يكن حال الإرسال مجبوبا ، وأنه قدم مع مارية فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يدخل عليها ، وأنه رضى من مكانه من دخوله على سرية النبى صلى الله عليه وسلم

أن يجب نفسه فقطع ما بين رجله حتى لم يبق منه شيء ، فليتأمل ، وسيأتى ما وقع له .
وأهدى إليه المقوقس زيادة على البغلة وهى الدلدل ، وكانت شهباء . والدلدل فى اللغة : اسم
للقنفذ العظيم ، وكانت أنثى ، ولا يستدل بلحوق التاء لها لأنها للوحدة .

وفى كلام بعضهم : أجمع أهل الحديث على أن بغلة النبي صلى الله عليه وسلم كانت
ذكرا لا أنثى ، وأول من استنتج البغال قارون . قالوا : والبغل أشبه بأمه منه بأبيه .

قيل : ولم يكن يومئذ فى العرب بغلة غيرها . وقد قال له سيدنا على رضى الله عنه :
لو حملنا الحمر على الخيل لكان لنا مثل هذه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما
يفعل ذلك الذين لا يعلمون . قال ابن حبان : أى الذين لا يعلمون النهى عنه .

وفيه أن الله امتن بها كاخليل والحمير ، ولا يقع الامتنان بالمكروه . وحمارا أشهب
يقال له يعفورا وعفير بالعين المهملة مضمومة . وضبطه القاضى عياض بالمعجمة وغلط
فى ذلك ؛ مأخوذ من العفرة : وهى لون التراب ، وفرسا وهو اللزاز ، أى فإن المقوقس
سأل حاطبا رضى الله عنه ما الذى يجب صاحبك من اخليل ؟ فقال له حاطب : الأشقر ،
وقد يركب عنده فرسا يقال له المرتجز ، فانتخب له صلى الله عليه وسلم فرسا من خيل مصر
الموصوفة ، فأسرج وألجم ، وهو فرسه صلى الله عليه وسلم الميمون .

وأهدى له صلى الله عليه وسلم عسلا من عسل بنها بكسر الباء الموحدة : قرية من
قرى مصر ؛ وأعجب به صلى الله عليه وسلم ودعا فى عسل بنها بالبركة ؛ لأنه حين أكل
منه قال : إن كان عسلكم أشرف فهذا أحلى ؛ ثم دعا فيه بالبركة .

وأهدى إليه مربعة يضع فيها المكحلة وقارورة الدهن والمشط والمقض والمساوك ؛
ومكحلة من عيدان شامية ومرآة ومشطا ؛ أى فإن المقوقس سأل حاطبا عن النبي صلى الله
عليه وسلم هل يكتحل ؟ فقال له : نعم ؛ وينظر فى المرآة ، ويرجل شعره ، ولا يفارق
خسا فى سفر كان أو فى حضر ، وهى : المرآة ، والمكحلة ، والمشط ، والمدرى ، والمساوك
والمدرى : شىء كالمسلة يفرق به بين شعر الرأس ويحك به لأن حكه بالأصبع يشوش الشعر
ويلوى بها قرون شعر الرأس .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها «سبع لم تفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر
ولا حضر : القارورة التى يكون فيها الدهن ، والمشط ، والمكحلة ، والمقراض» أى المقص

والمسواك ، والمرأة » . زاد بعضهم «والإبرة ، والخيط » ولعل عدم ذكر ذلك في الكتاب أنه لم يره شيئا ينبغي ذكره .

أى وقد قال بعضهم : إن المقوقس أرسل مع الهدية طيبيا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع إلى أهلك « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . واعترض كون الحمار الذى أرسله المقوقس يسمى يعفورا ، بأن الحمار الذى يسمى يعفورا أهداه له فروة بن عمرو الجذامى عامل قيصر .

وأهدى إليه أيضا بغلة شهباء يقال لها فضة . وفرسا يقال له الظرب كما تقدم . ثم رأيت بعضهم سمي الحمار الذى أهداه عامل قيصر عفيرا أيضا ؛ وعليه فتسمية حمار المقوقس عفيرا أيضا كما فى الأصل أن الحمار الذى أهداه المقوقس يقال له يعفورا وعفيرا من خلط بعض الرواة فلا منافاة . وفى هذا قبول هدية المشركين . وقد تقدم رده صلى الله عليه وسلم لهداياهم وقال : لا أقبل زبد المشركين .

ومما يشكل عليه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم فى هدنة الحديبية أهدى صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان عجوة ، وامتهدها أدماء فهداه إليه أبو سفيان وهو على شركه .

وذكر أن المقوقس قال لحاطب رضى الله عنه : القبط لا يطاوعونى فى اتباعه ، ولأحب أن تعلم بمحاورتى إياك ، وأنا أضنّ : أى أبجل بملكى أن أفارقه ، وسيظهر على البلاد ، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده أى وكان كذلك ، فإن المسلمين فتحوا مصر سنة ست عشرة ونزلها الصحابة . فارجع إلى صاحبك ، وارجل من عندى ، ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا . قال حاطب رضى الله عنه : فرحلت من عنده ، أى وبعث معه جيشا إلى أن دخل جزيرة العرب ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فردّ الجيش وارتفق بالقافلة .

قال حاطب : وذكرت قوله للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال «ضنّ الخبيث بماكّه» ولا بقاء لملكه» .

ومن ثم ذكر بعضهم أن هرقل لما علم ميل المقوقس إلى الإسلام عزله ، ويخالفه قول بعضهم : وبعث أبو بكر رضى الله عنه حاطبا هذا إلى المقوقس بمصر فصالح القبط ؛ إلا أن يقال : يجوز أن يكون المقوقس عاد لولايته بعد عزله .

وذكر بعضهم أن بانى الإسكندرية لما أراد بناءها قال : أبنى مدينة فقيرة إلى الله غنية

عن الناس فدامت ، وبني أخوه مدينة قال عند إرادة بنائها : أبني مدينة فقيرة إلى الناس غنية عن الله ، فسلط الله عليها الخراب في أسرع وقت .

ولما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر وقف على بعض ما بقى من آثار تلك المدينة فسأل عن ذلك ، فأخبر بهذا الخبر .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمنذر بن ساوي العبيدي

بالبحرين على يد العلاء بن الحضرمي

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ، وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد : فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا ، وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » أى وهذا جواب كتاب أرسله المنذر جوابا لكتاب أرسله له صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه .

أقول : ولم أقف على ذلك الكتاب ولا على حامله . والظاهر أنه العلاء المذكور ، فقد ذكر السهيلي رحمه الله أن العلاء قدم على المنذر بن ساوي ، فقال له : يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة ، إن هذه المجوسية شر دين ، ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعبدون في الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا نصدقه ، ولمن لا يخون أن لا تأتمنه ، ولمن لا يخلف أن لا تثق به ، فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به . فقال المنذر : قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيت للآخرة والدنيا فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة

وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده . وإن من إعظام
من جاء به أن يعظم رسوله ، وسأنظر والله أعلم .
ومن جملة كتاب المنذر ، أى الذى هذا الكتاب جوابه « أما بعد يا رسول الله ،
فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم
من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث لى فى ذلك أمرك » .
وذكر ابن قانع أن المنذر المذكور وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فهو من
الصحابة . قال أبو الربيع : ولا يصح ذلك .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابني الجلندى

ملكى عمان

أى بضم العين المهملة وتخفيف الميم : بلدة من بلاد اليمن على يد عمرو بن العاص رضى
الله عنه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى جيفر وعبد ابني
الجلندى ، وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر
وعبد ابني الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى » أما بعد : فإني أدعوكما بدعاية الإسلام
أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على
الكافرين ، وإنكما إن أقرتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما
زائل عنكما ، وخيلي تحل : أى تنزل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » وختم رسول الله
صلى الله عليه وسلم الكتاب .

قال عمرو : ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فعمدت إلى عبد ، وكان أحلم
الرجلين وأسهلها خلقا ، فقلت : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى
أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك ،
ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده . وتخلع ماعبد من دونه ، وتشهد
أن محمدا عبده ورسوله . قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ يعنى
العاص بن وائل ، فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت : مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ،
ووددت له لو كان آمن وصدق به ، وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام .

فقال : متى تبعته ؟ قلت : قريبا ، فسألني أين كان إسلامي ؟ فقلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه قال : والأساقفة : أي رؤساء النصرانية والرهبان ، قلت نعم ؟ قال : انظر يا عمرو ماتقول ؟ إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له : أي أكثر فصيحة من كذب . قلت : وما كذبت وما نستحله في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت له بلي ، قال : بأى شيء علمت ذلك يا عمرو ؟ قلت : كان النجاشي رضي الله عنه يخرج له خراجا . فلما أسلم النجاشي وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال لا والله ، ولو سألتني درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خراجا ويدين ديننا محدثا . فقال هرقل : رجل رغب في دين وإخثاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع ، قال : انظر ما تقول يا عمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني : ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبرّ وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب : فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولو كان أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا : أي تابعا .

قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم ، قال : إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات في الأموال . أي ولما ذكرت المواشي قال : يا عمرو ، يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه : فقلت نعم ، فقال ؟ والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

قال عمرو : فكشكت أياما بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه خبري ، ثم إنه دعاني فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي : أي عضدي ، قال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس ، فنظرت إليه ، فقال : تكلم بماجتك ، فدفعت إليه سببا محتوما ، ففض خاتمه ، فقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه ، ثم قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : اتبعوه ، إما راغب في الدين وإما راهب مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام ، واختاروه على غيره ،

وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال مبين ، فما أعلم أحداً يبق غيرك في هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتنبه تطوك الخيل وتبيد خضراءك : أى جماعتك فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال : دعنى يومى هذا وارجع إلى غدا . فلما كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فرجعت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يادى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله ألفت : أى وجدت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت وأنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه ، فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الاسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا ، وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوننا على من خالفنى .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هوزة

بالذال المعجمة ، وقيل بالذال المهملة . قال فى النور : ولا أظنه إلا سبق قلم - صاحب الإمامة - أى وزاد بعضهم : وإلى ثمامة بن أثال الحنفيين ملكى الإمامة ، وفيه نظر ، لأن ثمامة رضى الله تعالى عنه كان مسلما حينئذ على يد سليط بفتح السين المهملة بن عمر والعامرى أى لأنه كان يختلف إلى الإمامة ، وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوزة بن على ، سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر : أى حيث تقطع الإبل والخيل ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ماتحت يديك » فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم محتوما أنزله وحياه ، وقرأ عليه الكتاب فردّ ردا دون ردّ . فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليط رضى الله تعالى عنه بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي صلى الله عليه وسلم فأشبهه ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم كتابه ، وقال : لو سألتى سيابة ، أى بفتح السين المهملة وتخفيف المثناة من تحت وموحدة مفتوحة : أى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه . فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتح جاءه جبريل عليه الصلاة والسلام . فأشبهه بأن هوزة قد مات ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما إن الإمامة سيخرج

بها كذاب يتنبأ يقتل بعدى ، أى فقال قائل : يارسول الله من يقتله ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت وأصحابك ، فكان كذلك .

أقول : هذا يدل على أن القائل له صلى الله عليه وسلم ذلك هو خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فإن أبا بكر رضى الله تعالى عنه وجهه أميرا على الجيش الذى أرسله لمقاتلة مسيلمة لعنه الله ، وتقدم الخلاف فى قتاله : والمشهور أنه وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهما ، وكان سن هوزة مائة وخمسين سنة .

ويذكر أن هوزة هذا كان عنده عظيم من عطاء النصارى حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال له : لم لاتبجيه ؟ قال : أنا ملك قومى ، ولئن اتبعته لم أملك ، فقال : بلى والله لئن اتبعته ليملكنك ، وإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه النبي العربى الذى بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل محمد رسول الله الحديث .

أى وذكر السهيلي رحمه الله تعالى أن سليطا قال له : يا هوزة إنه سودتك أعظم حائلة : أى بالية ، وأرواح فى النار يعنى كسرى ، لأنه الذى كان توجه ، وإنما السيد من منع بالإيمان ، ثم تزود بالتقوى . وإن قوما سعدوا برأيتك فلا تشقين به ، وأنا أمرك بخير مأمور به ، وأنهاك عن شر منهى عنه ، أمرك بعبادة الله ، وأنهاك عن عبادة الشيطان ، فإن فى عبادة الله الجنة ، وفى عبادة الشيطان النار . فان قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت ، وإن أبيت فبيتنا وبينك كشف الغطاء وهو المطلاع ؛ فقال هوزة : ياسليطسو ذنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور ففقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلى رأى فأجيبك به إن شاء الله تعالى .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمر الغسائى

أى وكان بدمشق : أى بغوطتها : أى وهو محل معروف كثير المياه والشجر . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسائى وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك مملكك » وختم الكتاب .

قال شجاع رضى الله تعالى عنه : فخرجت حتى انتهيت إلى بابه ، فأقت يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه . فقال : لاتصل إليه حتى يخرج يوم كذا ، وجعل حاجبه يسألني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه ، فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبه البكاء ، ويقول : إني قرأت في الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه فكنت أراه : أى أظنه يخرج بالشأم ، فأراه قد خرج بأرض القرظ : أى . وهو ورق ، أو ثمر السلم ، فأنا أومن به وأصدقه ؛ وأنا أخاف من الحارث بن أبى شمر أن يقتلني ، فكان هذا الحاجب يكرمنى ويحسن ضيافتي ، ويخبرني عن الحارث باليأس منه . ويقول : هو يخاف قيصر ، فخرج الحارث يوماً وجلس وعلى رأسه التاج وأذن لى عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه ، ثم رمى به ، ثم قال : من يزع منى ملكى ، أنا سائر إليه ، وأو كان باليمن جثته . على بالناس . فلم يزل جالساً يعرض عليه حتى الليل . وأمر بالخليل أن تنعل ، ثم قال لى : أخبر صاحبك بما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره الخبر وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبي رضى الله عنه ، بعثه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لاتسر إليه واله عنه ، أى لاتذكره ؛ واشتغل بابلياء : أى بيت المقدس ، ومعنى إيلياء بالعبرانية بيت الله ، والمراد باشتغاله بذلك أن يهيبه لقيصر الإنزال ببيت المقدس ، فإنه نذر المشى من حمص ، وقيل من قسطنطينية إلى بيت المقدس ماشياً شكراً لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس ، وأظهر الله تعالى الروم على فارس ، ففرشوا له بسطاً ونثروا عليها الرياحين وهو يمشى عليها حتى بلغ بيت المقدس فجاء إليه كتاب قيصر : أى الذى فيه أنه يلهو عنه ولا يذكره وأنا مقيم فدعانى وقال متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ قلت : غدا ، فأمر لى بمائة مثقال ذهباً ، ووصلنى حاجبه بنفقة وكسوة ، وقال لى ذلك الحاجب : اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم من السلام وأخبره أنى متبع دينه .

قال شجاع : فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من الحارث ، قال باد : أى هلك ملكه ؛ وأقرأته السلام من الحاجب وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوق :

وفى كلام بعضهم وبعض أهل السير على أن الحارث أسلم ؛ ولكن قال : أخاف أن أظهر إسلامى فيقتلنى قيصر . وذكر ابن هشام وغيره أن شجاع بن وهب إنما توجه إلى جبلة ابن الأيهم .

ويقال إن شجاع بن وهب أرسل إلى الحارث وإلى جبلة بن الأيهم ، وإن شجاعاً قال له : يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبي من داره إلى دارهم ؛ يعني الأنصار ؛ فأووه ومنعوه . ونصروه ، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آباءك ولكنك ملكك الشام وجاورت الروم ، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس ، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم . وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة ، وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع ، والأذان بالناقوس ، والجمع بالشعانيين ؛ وكان ما عند الله خيراً وأبقى . قال جبلة : إني والله لو ددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي اجتمعهم على من خلق السموات والأرض ، وقد سرتني اجتماع قومي له ، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه ، ولكني لست أرى حقاً ولا باطلاً وسأنظر .

وفي كلام بعضهم أنه أسلم ورد جواب كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلمه بإسلامه ، وأرسل الهدية ، وكان ثابتاً على إسلامه لزمن عمر رضي الله عنه فإنه حج في خلافته .

أى وفي كلام بعضهم : لما أسلم جبلة بن الأيهم في أيام عمر رضي الله عنه وكتب إليه يخبره بإسلامه ويستأذنه في القدوم عليه ، فسرّ عمر بذلك ، وأذن له ، فخرج في خمسين ومائتين من أهل بيته ، حتى إذا قارب المدينة عمد إلى أصحابه فحملهم على الخيل ، وقلدها بقلائد الذهب والفضة ، وألبسها الديباج وسرف الحرير ، ووضع تاجه على رأسه ، فلم تبق بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيه وزينته . فلما دخل على عمر رضي الله تعالى عنه رحب به وأدى مجلسه ؛ وأقام بالمدينة مكرماً ، فخرج عمر رضي الله تعالى عنه حاجباً فخرج معه وحين تطوف بالبيت وطى رجل من فزاره إزاره فانحل ، فلطم الفزارى لطمته هشم بها أنفه وكسر ثناياه ، أى ويقال فقأ عينه ، فشكا الفزارى ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه ، فاستدعاه وقال له : لم هشمت أنفه ، أو قال لم فقأت عينه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين تعمد حلّ إزارى ، ولولا حرمة البيت ، لضربت عنقه بالسيف ، فقال له عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه وإلا أقدمته منك . وفي رواية : وجكّم إما بالعضو أو بالقصاص ، فقال جبلة فتصنع بي ماذا ؟ قال : مثل ما صنعت به . وفي رواية : أنتقص له منى سواء وأنا ملك وهذا سوتى ؟ فقال له عمر رضي الله تعالى عنه : الإسلام سوى بينكما ، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى ، فقال : إن كنت أنا وهذا الرجل سواء في الدين فأنا أنتضر ، فإنى كنت

أظن يا أمير المؤمنين أني أكون في الإسلام أعزمني في الجاهلية، فقال له عمر رضی الله تعالى عنه : إذا أضرب عنقك ، فقال فأهلني الليلة حتى أنظر في أمري ، قال : ذلك إلى خصمك فقال الرجل : أمهله يا أمير المؤمنين ، فأذن له عمر رضی الله تعالى عنه في الانصراف ، ثم ركب في بني عمه وهرب إلى القسطنطينية أي فدخل على هرقل وتنصر هناك ومات على ذلك . وقيل عاد إلى الإسلام ومات مسلماً .

وكان جبلة رجلاً طوالاً طوله اثنا عشر شبراً ، وكان يمسح الأرض برجليه وهو راكب ، فسرّ هرقل به ، وزوجه ابنته ، وقاسمه ملكه ، وجعله من سماره ، وبني له مدينة بين طرابلس واللاذقية سماها جبلة باسمه يقال إن فيها قبر إبراهيم بن آدم .

وقيل المحاكمة كانت عند أبي عبيدة بن الجراح رضی الله تعالى عنه . أي فقد ذكر بعضهم أن جبلة لم يزل مسلماً حتى كان في زمن عمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنه ، فبينما هو في سوق دمشق إذ وطئ رجلاً من مزينة فوثب المزني فلطم خد جبلة ، فأرسله مع جماعة من قومه إلى أبي عبيدة بن الجراح ، فقالوا : هذا لطم جبلة ، قال : فليطمه ، قالوا : ما يقبل ، قال : لا ، يقبل ، قالوا : إنما تقطع يده ، قال : لا ، إنما أمر الله بالقود ، فلما بلغ جبلة ذلك ، قال : أتروني أني جاعل وجهي ندا لوجه؟ بئس الدين هذا ، ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم على هرقل .

حجة الوداع

ويقال لها حجة البلاغ ، وحجة الإسلام ، لأنه صلى الله عليه وسلم ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها ، ولأنه ذكر لهم ما يحل وما يحرم : وقال لهم : هل بلغت ، ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج من المدينة غيرها ، قيل لإخراج الكفار الحج عن وقته ، لأن أهل الجاهلية كانوا يؤخرون الحج في كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في هذه الحجة « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فإن هذه الحجة كانت في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته وكانت سنة عشر .

قال الجمهور : فرض الحج كان سنة ست من الهجرة أي وصححه الرافي في باب السير

وتبعه النووي .

وقيل فرض سنة تسع : وقيل سنة عشر انتهى ، وبه قال أبو حنيفة ، ومن ثم قال إنه على الفور . وقيل فرض قبل الهجرة واستغرب .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الحج وأعلم الناس بذلك ، ولم يحج منذ هاجر إلى المدينة غير هذه الحجة ، قال : وأما بعد النبوة قبل الهجرة فحج ثلاث حججات ، أى وقيل حجتين : أى وهما اللتان بايع فيهما الأنصار عند العقبة :

وفى كلام ابن الأثير : كان صلى الله عليه وسلم يحج كل سنة قبل أن يهاجر . وفى كلام ابن الجوزى : حج صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها حججا لا يعلم عددها ، أى وكان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة ، مخالفا لقريش توفيقا له من الله ، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم ، فإنهم قالوا : نحن بنو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأهل الحرم ، وولاية البيت وعاكفو مكة فليس لأحد من العرب منزلتنا فلا تعظموا شيئا من الحل أى كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم ، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الخمس ، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منه إلى المزدلفة ، ويرون ذلك لسائر العرب : قال بعض الصحابة : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي وإنه واقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقا له من الله عز وجل .

وعند خروجه صلى الله عليه وسلم للحج أصاب الناس بالمدينة جدرى بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما أو حصية ، منعت كثيرا من الناس من الحج معه صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى ، قيل كانوا أربعين ألفا ، وقيل كانوا سبعين ألفا ، وقيل كانوا تسعين ألفا ، وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشر ألفا ، وقيل وعشرين ألفا ، وقيل كانوا أكثر من ذلك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : أى عند ذهابه : عمرة فى رمضان تعدل حجة ، أو قال حجة معى « أى قال ذلك تطييبا لخواطر من تخلف . وصوب بعضهم أن هذا إنما قاله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه [أى إلى المدينة ، قاله لأم سنان الأنصارية لما قال لها : ما منعك أن تكونى حججت معنا ؟ وقالت : لنا ناضحان حج أبو فلان : تعنى زوجها وولدها على أحدهما ، وكان الآخر نسق عليه أرضا لنا : وقال ذلك أيضا لغيرها من النسوة ، قاله لأم سليم ولأم طلق ولأم الهيثم . ولا مانع أن يكون قال ذلك مرتين : مرة عند ذهابه لما ذكر ، ومرة عند رجوعه لمن ذكر .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم يوم الخميس لست بقين من ذى القعدة أى وقيل يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة ورجحه بعضهم وأطال فى الاستدلال له وذلك سنة عشر نهارا بعد أن ترجل وادهن ، وبعد أن صلى الظهر بالمدينة ، وصلى عصر ذلك اليوم بذى الحليفة ركعتين ، وطاف تلك الليلة على نسائه ، أى فإنه كن معه صلى الله عليه وسلم فى الهوداج وكن تسعة ، ثم اغتسل ، ثم صلى الصبح أى والظهر ، ثم طيبته عائشة رضى الله تعالى عنها بذريرة : هى نوع من الطيب مجموع من أخلاط الطيب ويطيب فيه مسك ، ثم أحرم صلى الله عليه وسلم أى وذلك بعد أن [اغتسل لإحرامه غير غسله الأول ، وتجرد فى إزاره وردائه ، أى فقد روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم أحرم فى رداء وإزار ، ولم يغسل الطيب بل كان يرى ويبص المسك فى مفارقه ولحيته الشريفة ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم لبد شعر رأسه بما يلزق بعضه ببعض فلا يشعث .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « طيبته صلى الله عليه وسلم لحرمه وحله » وعن رضى الله تعالى عنها قالت : كنت أطيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت » رواه الشيخان . وعن عائشة قالت « كنت أطيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يطوف على نسائه ، ثم يصبح محرما ينضح طيبا » وبه ردّ على ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قوله : لأن أصبح مطيبا بقطران أحب إلى من أن أصبح محرما أنضح طيبا . ويؤيد ما قاله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ما تقدم فى الحديثية : من أمره صلى الله عليه وسلم من تطيب قبل إحرامه بغسل الطيب وتقديم مافيه ، أى وصلى كما فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ركعتين أى قبل أن يحرم ، وبه يردّ قول ابن القيم رحمه الله تعالى : لم يتقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر [] وأهل حيث انبعثت به راحلته أى وهى القصواء [] أى وهو يردّ ما روى عن ابن سعد رحمه الله تعالى ، حج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة قدر بطوا أوساطهم ، ومن ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إنه حديث منكر ضعيف الإسناد ، وإنما كان صلى الله عليه وسلم راكبا وبعض أصحابه مشاة : ولم يعتمر صلى الله عليه وسلم فى عمره ماشيا ، وأحواله صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تخفى على الناس ، بل هذا الحديث منكر شاذ لا يثبت مثله وكان على راحلته صلى الله عليه وسلم رحل رث يساوى أربعة دراهم وفى رواية « حج صلى الله عليه وسلم على رحل وقطيفة تساوى أو لا تساوى أربعة دراهم ، وقال : اللهم اجعله حججا مبرورا لا رياء فيه ولا سمعة وذلك عند مسجد ذى الحليفة ، وأحرم بالحج والعمرة معا فكان قارنا ،

قال: وقيل أحرم بالحج فقط فكان مفردا، وقيل بالعمرة فقط، أى ثم أحرم بالحج بعد فراغه من أعمال العمرة فكان متمتعا، أخذنا من قول بعض الصحابة إنه صلى الله عليه وسلم أحرم متمتعا، وقيل أطلق لإحرامه.

وفى كلام السهلي رحمه الله: واختلفت الروايات فى إحرامه صلى الله عليه وسلم، هل كان مفردا، أو قارنا، أو متمتعا وكلها صحاح إلا من قال كان متمتعا وأراد أنه أهل بعمرة.

قال الإمام النووي: وطريق الجمع أى بين من يقول إنه أحرم قارنا، ومن يقول إنه أحرم مفردا، ومن يقول إنه أحرم متمتعا أنه أحرم أولا مفردا: أى بالحج ثم أدخل بالعمرة، أى وذلك: أى دخول الأضعف وهى العمرة على الأقوى الذى هو الحج من خصائصه صلى الله عليه وسلم فصار قارنا، وبدل لذلك حديث البخارى «أنه صلى الله عليه وسلم أهل بالحج، فلما كان بالعقيق أتاه آت من ربه فقال له: صل بهذا الوادى المبارك، وقل لبيك بحجة وعمرة معا، فصار قارنا بعد أن كان مفردا.

فمن روى القرآن اعتمد آخر الأمر، أى ومنه قول سيدنا أنس رضى الله عنه: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لبيك عمرة وحجا».

ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوى، وهو الانتفاع والارتفاق بالقران انتهى: أى بالقران المذكور الذى هو إدخال العمرة على الحج، لأنه يكفى فيه الاقتصار على عمل واحد من النسكين، أى فلا يأتى بطوافين ولا بسعين، أى وليس مراده التمتع الحقيقى، بأن أحرم بعمرة فقط، ثم بعد فراغه من أعمالها أحرم بالحج كما هو حقيقة التمتع. ومن ثم قال بعضهم: أكثر السلف يطلقون التمتع على القران:

ومن روى الأفراد اعتمد أول الأمر، ومنه قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، وقد سئل عن ذلك «لبي بالحج وحده» أو أن ابن عمر سمعه يقول: لبيك بحج ولم يسمع قوله وعمرة فلم يحك إلا ما سمع، وأنس رضى الله عنه سمع ذلك: أى سمع الحج والعمرة، أى فإن ابن عمر رضى الله عنه قيل له عن أنس بن مالك «أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يلبى بالحج والعمرة فقال ابن عمر لبي بالحج وحده، فقيل لأنس عن ابن عمر ذلك، فقال أنس رضى الله عنه: ما بعدونا إلا صبيانا: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لبيك لبيك عمرة وحجا» أى يصرح بهما جميعا وقال: «إني لرديف لأبي طلحة وإن ركبتى لتمس ركبة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو يلبي بالحج والعمرة ، وذلك مثبت لما قاله ابن عمر وزائد عليه فليس مناقضاه . أى ودليل من قال إنه أحرم مطلقا مارواه إمامنا الشافعي رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « خرج هو وأصحابه رضي الله عنهم مهلين : أى محرمين إحراما مطلقا ينتظرون القضاء » أى نزول الوحي لتعيين ما يصرفون إحرامهم المطلق إليه أى بإفراد أو تمتع أو قران « أى فجاءه صلى الله عليه وسلم الوحي أن يأمر من لا هدى معه أن يجعل إحرامه عمرة فيكون متمتعا ، ومن معه هدى أن يجعله حجا فيكون مفردا ، لأن من معه هدى أفضل ممن لا هدى معه ، والحج أفضل من العمرة .

ويدل لكون الصحابة أطلقوا إحرامهم مارواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها « خرجنا نلبي لأنذكر حجا ولا عمرة » لكن أجيب عن ذلك بأنهم لا يذكر ذلك مع التلبية وإن كانوا سموه حال الإحرام هذا .

وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليفعل » فلينظر الجمع بين هذا وما قبله .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم « من لم يكن معه هدى وأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا » أى فلا يجعلها عمرة بل يجعل إحرامه حجا ، ولم يذكر القرآن . وجاء في بعض الطرق « أنه أمر من كان معه هدى أن يحرم بالحج والعمرة معا » . وفي بعض الروايات « خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة لا يسمى حجا ولا عمرة ينتظر القضاء ، فنزل عليه القضاء وهو بين الصفا والمروة ، فأمر أصحابه من كان منهم أهل بالحج ولم يكن معه هدى أن يجعله عمرة » .

وفي الهدى : الصواب أنه صلى الله عليه وسلم أحرم بالحج والعمرة معا من حين أنشأ الإحرام ، فهو قارن ، ولم يحل حتى حل منهما جميعا وطاف لهما طوافا واحدا وسعى واحدا كما دلت عليه النصوص المستفيضة التي تواترت تواترا يعلمه أهل الحديث . وما ورد أنه صلى الله عليه وسلم طاف طوافين وسعى سعيين لم يصح .

قال : وغلط من قال لبي بالحج وحده ثم أدخل عليه العمرة : أتى الذي تقدم في الجمع بين الروايات عن النووي رحمه الله تعالى . ومن قال لبي بالعمرة ثم أدخل عليها الحج : أى وهذا لم يتقدم . ومن قال أحرم إحراما مطلقا لم يعين فيه نسكا ثم عينه بعد إحرامه أى وهو

ما تقدم عن إمامنا الشافعي رضي الله عنه . ومن قال أفرد الحج ، أراد به أنه أتى بأعمال الحج ولم يفرد للعمرة أعمالا ، وهذا محمل ما في بعض الروايات . وأفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ولم يعتمر . على أن بعض الحفاظ قال : إنه حديث غريب جدا ، وفيه نكارة شديدة .

ثم لبي صلى الله عليه وسلم أي بعد أن استقبل القبلة [] فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وروى أنه زاد على ذلك لبيك إله الخلق لبيك : أي وروى أنه زاد : لبيك حقا ، تعبدا ورقا على تليته المذكورة والناس معه يزيدون فيها ويتقصون لم ينكر عليهم ، وبه استدل أئمتنا على عدم كراهة الزيادة على تليته المشهورة المتقدمة [] فكان ابن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها : لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، لبيك والرغبة إليك والعمل . وأتاه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه الصلاة والسلام ، وأمره أن يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية من شعائر الحج ، فعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فانها من شعائر الحج » .

واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا دجاجة رضي الله عنه ، وقيل سباع بن عرفطة رضي الله عنه [] وولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ولدها محمد بن أبي بكر رضي الله عنهم في ذى الحليفة ، وأرسلت إليه صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تغتسل وتستنفر ، أي بخرق عريضة بعد أن تحشو بنحو قطن ، وتربط طرفي تلك الخرق في شيء تشده في وسطها تمنع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض وتحرم .

ثم حاضت سيدتنا عائشة رضي الله عنها في أثناء الطريق بمحل يقال له سرف بكسر الراء ، وكانت قد أحرمت بعمرة ؛ ففي البخاري « أنها قالت : وكنت فيمن أهل بعمرة فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تغتسل وتدخل الحج على العمرة » .

أقول : وقد جاء « أنها قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي ، فقال : ما يبكيك يا عائشة ؟ » وفي لفظ « ما يبكيك يا هنتاه ؟ لعلك نفست : أي حضت ، قلت : نعم : والله لو ددت أني لم أخرج معكم عامي هذا في هذا السفر ، قال : لا تقولين ذلك ، فهذا شيء كتبه الله على بنات آدم » .

أى واستدل البخارى رحمه الله بهذا على أن الحيض كان فى جميع بنات آدم ، وأنكر به على من قال إن الحيض أول ما وقع فى بنى إسرائيل ، وفى لفظ « قال : ماشأناك ؟ قلت : لا أصلى ، قال : لاصبر عليك ، إنما أنت امرأة من بنات آدم ؛ كتب الله عليك ما كتب عليهن ، أهلى بالحج » وفى رواية « ارفضى عمرتك ، أى لا تشرعى فى شىء من أعمالها ، « وأحرمى بالحج » فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج » أى تفعلين كل ما يفعل الحاج وأنت حائض « إلا أنك لا تطوفين بالبيت ، ففعلت ذلك ؟ أى أدخلت الحج على العمرة ، ووقفت المواقف » فوقفت بعرفة وهى حائض حتى إذا طهرت : أى وذلك يوم النحر ، وقيل عشية عرفة طافت بالبيت وبالصفا والمروة « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حلت من حجك وعمرتك جميعا » .

وذكر بعضهم أن فى هذه الحجة كان حمل عائشة رضى الله عنها سريع المشى مع خفة حمل عائشة ؛ وكان حمل صافية بطيء المشى مع ثقل حملها ، فصار يتأخر الركب بسبب ذلك فأمر صلى الله عليه وسلم أن يجعل حمل صافية على حمل عائشة ، وأن يجعل حمل عائشة على حمل صافية ، فجاء صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها يستعطف خاطرهما ، فقال لها : يا أم عبد الله ، حملك خفيف وحملك سريع المشى ؛ وحمل صافية ثقيل وحملها بطيء ، فأبطأ ذلك بالركب ، فنقلنا حملك على حملها ، وحماها على حملك ليسير الركب ، فقالت له : إنك تزعم أنك رسول الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : أفى شك أنى رسول الله أنت يا أم عبد الله ؟ قالت : فالك لا تعدل ؟ قال : فكان أبو بكر رضى الله عنه فيه حدة ، فلطمنى على وجهى ، فلامه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما سمعت ما قالت ؟ فقال : دعها فإن المرأة الغيرة لا تعرف أعلى الوادى من أسفله .

قالوا : ولما نزلوا بمحل يقال له العرج فقد البعير الذى عليه زاملته صلى الله عليه وسلم وزاملة أبى بكر ، أى زادهما ، وكان ذلك البعير مع غلام لأبى بكر . فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه للغلام : أين بعيرك ؟ قال : ضلته البارحة . فقال أبو بكر وقد اعترته حدة : بعير واحد تضله ، وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع ويتبسم لا يزيد على ذلك ، فلما بلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضلت جاء بحيس ووضع بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله تعالى عنه وهو يغتاض على الغلام : هون عليك

ياأبا بكر، فإن الأمر ليس لك ولا إلينا . وقد كان الغلام حريصا على أن لا يضل بعيره، وهذا غذاء طيب قد جاء الله به ، وهو خلف عما كان معه ، فأكل صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ومن كان يأكل معهما حتى شبعا ، فأقبل صفوان بن المعطل رضى الله تعالى عنه وكان على ساقاة القوم ، أى لأن هذا كان شأنه كما تقدم فى قصة الإفك والبعير معه وعليه الزاملة حتى أتناخه على باب منزله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟ فقال : ما فقدت شيئا إلا قعبا كنا نشرب فيه ؛ فقال الغلام : هذا القعب معى . ولما بلغ سعد بن عبادة وابنه قيسا رضى الله تعالى عنهما أن زاملته صلى الله عليه وسلم قد ضلت جاآ بزاملته وقالوا : أى كل واحد منهما : يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة ، وهذه زاملته مكانها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء الله بزاملتنا . فارجعا بزاملتكما . بارك الله لكما اه ثم نزل صلى الله عليه وسلم بنذى طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح أى بعد أن اغتسل بها . أى ثم سار صلى الله عليه وسلم ونزل بالمسلمين ظاهر مكة ودخل مكة نهارا : أى وقت الضحى من الثانية العليا التى هى ثنية كداء بفتح الكاف والمد . قال أبو عبيدة : لا ينصرف ، وهى التى ينزل منها إلى المعلاة مقبرة مكة ، وهى التى يقال لها الآن الحجون التى دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كما تقدم ، ودخل المسجد الحرام صباحا من باب عبد مناف ، وهو باب بنى شيبه المعروف الآن بباب السلام . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أبصر البيت . قال . اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وهما به وبراً ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما وبراً .

وفى مسند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : أخبرنا سعيد بن سالم عن جريح عن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا رأى البيت رفع يديه وقال . اللهم زد هذا البيت الخ . وفى رواية « كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة فرأى البيت رفع يديه وكبر وقال : اللهم أنت السلام ، وملك السلام ، فحينا ربنا بالسلام . اللهم زد هذا البيت الخ .

وعند دخوله صلى الله عليه وسلم المسجد طاف بالبيت : أى سبعا ماشيا ، فعن جابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « دخلنا مكة عند ارتفاع الشمس ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم باب المسجد فأناخ راحلته ، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه ، وفاضت عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا ، فلما فرغ صلى الله

عليه وسلم قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه» رواه البيهقي في السنن الكبرى بإسناد جيد .

وقيل طاف صلى الله عليه وسلم على راحلته الجذعاء ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قدم مكة وهو يشتكى ، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم مكة وهو يشتكى فطاف على راحلته ، فلما أتى الركن استلمه بمحجن ، فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين» رواه أبو داود ، وردّ بأن هذا الحديث تفرد به يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف .

على أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يذكر أن ذلك كان في حجة الوداع ولا في الطواف الأول من طوافاتها الثلاثة التي هي : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوداع ؛ فينبغي أن يكون ذلك في غير الطواف الأول ، بأن يكون في طواف الإفاضة أو طواف الوداع ، فلا ينافي ما تقدم عن جابر ولا ما في مسلم عنه أنه قال « طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته بالبيت ليراه الناس فيسألوه» وقوله «ورمل في ثلاث منها: أى يسرع المشى مع تقارب الخطأ ، ومشى : أى على هينته في أربع يستلم الركن اليماني والحجر الأسود في كل طوفة ، وابتداء الرمل كان في عمرة القضاء لما قال المشركون : غدا يقدم عليكم قوم قد وهتهم حمى يثرب ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ليرى المشركون جلدهم ، ومن ثم قال بعضهم لبعض : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا كما تقدم ، فلما كانت هذه الحجة فعلوا كذلك فصارت سنة .

قال : وثبت أنه صلى الله عليه وسلم قبل الحجر الأسود وثبت أنه استلمه بيده ثم قبلها . وثبت أنه استلمه بمحجنه فقبل المحجن ؛ ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليماني ولا قبل يده حين استلمه هـ .

وعند إمامنا الشافعي رضى الله تعالى عنه يستحب أن يقبل ما استلمه به . روى إمامنا الشافعي عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال « استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر فاستلمه ، ثم وضع شفتيه عليه طويلا ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا استلم الحجر قال : بسم الله والله أكبر ، وقال بينهما : أى بين الركن اليماني والحجر (ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم شيء من

الأذكار في غير هذا المحل حول الكعبة ، ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، أى لأههما
ليسا على قواعد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي
الله تعالى عنه « إنك رجل قوى لا تراحم على الحجر » أى الأسود تؤذى الضعيف ، إن
وجدت خلوة فاستلمه ، وإلا فاستقبله وهلل وكبر » [] وأخذ منه بعض فقهاءنا أن من شق
عليه استلام الحجر الأسود يسن له أن يهلل ويكبر .

ثم بعد الطواف صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين عند مقام سيدنا إبراهيم
عليه الصلاة والسلام ، جعل المقام بينه وبين الكعبة : أى استقبل جهة باب المحل الذى
به المقام الآن ، وهو المراد بخلف المقام ، قرأ فيهما مع أم القرآن (قل يا أيها الكافرون :
وقل هو الله أحد) ودخل صلى الله عليه وسلم زمزم فنزع له دلو فشرب منه ، ثم مج فيه ،
ثم أفرغها في زمزم ، ثم قال : لولا أن الناس يتخذونه نسكا لنزعت . أى وتقدم في فتح
مكة أنه صلى الله عليه وسلم قال « لولا أن تغلب بنو عبدالمطلب لاتزعت منها دلو ، وانزعت
له العباس . ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم خرج إلى الصفا ،
وقرأ (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ابدعوا بما بدأ الله به ، فسعى بين الصفا والمروة سبعا
راكبا على بعيره . »

وعن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه ، أن سعيه الذى طاف لقلومه كان على قدميه
لا على بعير ، أى فذكر البعير في هذا السعى غلط من بعض الرواة .

ثم رأيت بعضهم قال : بعض الروايات عن جابر وغيره يدل على أنه صلى الله عليه
وسلم كان ماشيا بين الصفا والمروة . ولعل بين الصفا والمروة مدرجة ، أو أنه صلى الله
عليه وسلم سعى بين الصفا والمروة بعض المرات على قدميه ، فلما ازدحم الناس عليه
ركب في الباقي . ويدل لذلك أنه قيل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن قومك
يزعمون أن السعى بين الصفا والمروة راكبا سنة ، فقال : صدقوا وكذبوا ، فقيل :
كيف صدقوا وكذبوا ؟ فقال : صدقوا في أن السعى سنة ، وكذبوا في أن الركوب
سنة ، فإن السنة المشى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى في السعى ، فلما كثر
عليه الناس يقولون هذا محمد هذا محمد حتى خرج العواتق من البيوت ، وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يضرب الناس بين يديه ، فلما كثر عليه الناس ركب ، وبهذا يحصل
الجمع بين الأحاديث الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم مشى بين الصفا والمروة ، والأحاديث

الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم ركب فيه وصار صلى الله عليه وسلم في السعي يخب ثلاثا ويمشي أربعاً ، ويرقى الصفا ، ويستقبل الكعبة ، ويوحده الله ويكبره ويقول : لا إله إلا الله والله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »
أى من غير قتال « ثم يفعل على المروة مثل ذلك » .

واعترض بأن كونه كان يخب ثلاثا ويمشي أربعاً كان في الطوف بالبيت لافي السعي بين الصفا والمروة ، وهذا السياق يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم سعى بعد طواف القدوم .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم حج ، فأول شيء بدأ به حين قدم مكة « أنه توضأ ثلاثا ثم طاف بالبيت ولم يذكر السعي » أى وفي مسلم في سبب نزول قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) أن المهاجرين في الجاهلية كانوا يهلون بصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة ، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ، ثم يخلقون ، فلما جاءهم الإسلام كرهوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، يرون أن ذلك من أمر الجاهلية ، فأنزله الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) .

وقيل إن سبب نزولها « أن الأنصار كانوا في الجاهلية يهلون لمناة ، وكان من أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا والمروة ، وأنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حين أسلموا ، فأنزله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) الآية ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم من لاهدى معه بالإحلال ، أى وإن لم يكن أحرم بالعمرة بأن لم يكن سمع أمره صلى الله عليه وسلم بأن من لاهدى معه يحرم بالعمرة ، فأحرم بالحج قارنا أو مفردا ، قال السهيلي رحمه الله : ولم يكن ساق الهدى معه من أصحابه رضى الله تعالى عنهم إلا طلحة بن عبد الله ، وكذا على كرم الله وجهه جاء من اليمن وقد ساق الهدى معه ، ويأتى ما فيه .
أى وأمره صلى الله عليه وسلم من ذكر بالإحلال كان بعد الحلق والتقصير ، لأنه أتى بعمل العمرة فحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب والخيط ، وأن يبقى كذلك إلى يوم التروية الذى هو اليوم الثامن من ذى الحجة فيهل : أى يحرم بالحج .

وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه الماء ويحملونه معهم في ذهابهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها في ذلك الزمن . وأمر صلى الله عليه وسلم من معه الهدى أن يبقى على إحرامه أى بالحج قارنا أو مفردا ، حتى قال بعضهم : لو استقبلت من أمرى

ما استدبرت ماسقت الهدى : قال : ويروى أن قائل ذلك هو صلى الله عليه وسلم ، فعن جابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم لما تم سعيه قال « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة » قال ذلك جوابا لقول بلغته عن جمع من الصحابة ، ننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر . وفي لفظ : وفرجه يقطر منيا ، أى قد جامع النساء . أى وفيه أنهم لا ينطلقون إلى منى إلا بعد الإحرام بالحج ، لأنهم يحرمون من مكة إلا أن يقال مرادهم أنا كيف نجتمع النساء بعد إحرامنا بالحج وكيف نجعلها عمرة بعد الإحرام بالحج كما سيأتى فى بعض الروايات .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان ، فقلت : من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار ، فقال : أو ما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون ؟ » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « لو استقبلت الخ » تأسف على فوات أمر من أمور الدين ومصالح الشرع ، كذا قال الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه ، لأنه يرى أن التمتع أفضل ورد بأنه لم يتأسف على التمتع لكونه أفضل ، وإنما تأسف عليه لكونه أشق على أصحابه فى بقائه محرما على إحرامه وأمره لم بالاحلال . وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لو تفتح عمل الشيطان » محمول على التأسف على فوات حظ من حظوظ الدنيا فلا تخالف .

ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه تلك المقالة قام خطيبا فحمد الله تعالى ، فقال : أما بعد ، فتعلمون أيها الناس لآنا والله أعلمكم بالله وأنتا كم له ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت هدما ولا حللت » وفى رواية « قالوا : كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اقبلوا ما أمرتكم به ، واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة ، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به » ففعلوا وأهلوا ، ففسخوا الحج إلى العمرة » وكان من جملة من ساق الهدى أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وعلى رضى الله تعالى عنهم ، فإن عليا كرم الله وجهه قدم إلى مكة من اليمن ومعه هدى . وعن جابر رضى الله تعالى عنه « لم يكن أحد معه هدى غير النبي صلى الله عليه وسلم وطلحة » وفى رواية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه : انطلق وطف بالبيت وحل كما أحل أصحابك ، فقال : يا رسول الله أهلت كما أهلت ، فقال له : ارجع فأحل .

كما أحل أصحابك ، قال : يا رسول الله إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد ، فقال : هل معك من هدى ؟ قال : لا ، فأشركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هديه وثبت على إحرامه ، وهذا صريح فى أن إحرامه صلى الله عليه وسلم كان بالحج .

ويمكن الجمع بين رواية أن عليا قدم من اليمن ومعه هدى ، وبين رواية أنه لم يكن معه هدى بأن الهدى تأخر مجيئه بعده ، لأنه تعجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف على الجيش رجلا من أصحابه .

ويؤيد ذلك قول بعضهم : كان الهدى الذى قدم به على كرم الله وجهه من اليمن والذى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مائة ، أى وإلا فالذى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وستون بدنة ، والذى قدم به من اليمن لعل كان سبعة وثلاثين بدنة ، ولا يخالف ذلك إشراكه له فى الهدى لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لا احتمال تلف ذلك الهدى وعدم مجيئه ، والذى فى البخارى لما قدم على كرم الله وجهه من اليمن قال له النبي صلى الله عليه وسلم بم أهلت يا على ؟ قال : بما أهل به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فأهدوا مكث حراما كما أنت ، أى فإنه تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان أرسل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى اليمن لهدمهم إلى الإسلام . قال البراء رضى الله تعالى عنه : فكنت ممن خرج مع خالد ، فأقننا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبى طالب كرم الله وجهه فأمره أن يقفل خالد بن الوليد ويكون مكانه ، وقال : مر أصحاب خالد ، من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ، ومن شاء فليقفل ، فكنت ممن أعقب مع على كرم الله وجهه ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ، وصلى بنا على كرم الله وجهه ، ثم صفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ، فأسلمت همدان جميعا ، فكتب رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان السلام على همدان .

وكان من جملة من لم يسبق الهدى أبو موسى الأشعري رضى الله تعالى عنه « فإنه لما قدم من اليمن قال له : بم أهلت ؟ قال : أهلت كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم ، قال له :

هل معك من هدى ؟ قال : قلت لا ، فأمرني فظفت بالبيت والصفاء والمروة » ورواية الشيخين عن أبي موسى رضى الله تعالى عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : له بم أهلت ؟ فقلت : لبيت بإهلال كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم قال : فقد أحسنت ، طف بالبيت وبالصفاء والمروة وأحل » أى بعد الخلق أو التقصير .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم كان مهلا بالحج فقط أو مع العمرة ، إلا أن يقال جوز لأبي موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من الصحابة الذين أحرموا بالحج ولا هدى معهم . ومن جملة من لم يسق الهدى أمهات المؤمنين رضى الله تعالى عنهن فأحلن ، أى لأنهن أحرمن إحراما مطلقا ثم صرفنه للعمرة ، أو أحرمن متمتعات أى بالعمرة ، إلا عائشة رضى الله تعالى عنها فإنها لم تحل أى لأنها أدخلت الحج على العمرة كما تقدم .

ومن أحل سيدتنا فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، أى لأنها لم يكن معها هدى وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما . وشكا على كرم الله وجهه فاطمة رضى الله تعالى عنها للنبي صلى الله عليه وسلم إذ أحلت ، أى فإنهم وجدها لبست صبيغا واكتحلت ، فأنكر عليها ، فقالت رضى الله تعالى عنها : أمرني أبى بذلك ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم محرّثا له عليها رضى الله تعالى عنها ، فصدّقها عليه الصلاة والسلام فى أنه أمرها بذلك ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال له : صدقت صدقت صدقت ، أنا أمرتها بذلك يا على .

وسأله سراقه بن مالك رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد : فشبك صلى الله عليه وسلم أصابعه فقال : بل للأبد الأبد « دخلت العمرة فى الحج هكذا إلى يوم القيامة » أى وفى رواية « فشبك بين أصابعه واحدة فى أخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج هكذا مرتين بل للأبد الأبد » بالإضافة أى إلى آخر الدهر ، وهذا الجواب بقوله دخلت العمرة فى الحج يدل على أن مراد السائل بالتمتع القران لا حقيقته الذى هو الإحرام بالحج بعد الفراغ من عمل العمرة ، لكن قول بعضهم : لما كان آخر سعيه صلى الله عليه وسلم على المروة قال « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة ، فن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقه فقال : يا رسول الله لعامنا هذا أم للأبد » الحديث ، يدل على أن مراده بالتمتع حقيقته ،

لكن لا يحسن الجواب بقوله دخلت العمرة في الحج ، إلا أن يقال المراد حصلت العمرة مع الإحرام بالحج لقلب الإحرام بالحج إلى العمرة لأن هذا كنه يدل على أنه أمر من أحرم بالحج ممن لا هدى معه أن يقلب إحرامه عمرة .

وأجاب عنه أئمتنا بأن ذلك : أى فسخ الحج إلى العمرة كان من خصائص الصحابة في تلك السنة ليخالفوا ما كان عليه الجاهلية : من تحريم العمرة في أشهر الحج ويقولون إنه من أفجر الفجور ، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك وإمامنا الشافعي وجمهير العلماء من السلف والخلف رضي الله عنهم .

وفي مسلم عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه « لم يكن فسخ الحج إلى العمرة إلا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » وخالف الإمام أحمد رضي الله عنه وطائفة من أهل الظاهر فقالوا : بل هذا ليس خاصا بالصحابة في تلك السنة ، أى بل باق لكل أحد إلى يوم القيامة فيجوز لكل من أحرم بالحج وليس معه هدى أن يقاب إحرامه عمرة ويتحلل بأعمالها .
وبعضهم قال : إن قول سراق رضي الله تعالى عنه معناه أن جواز العمرة في أشهر الحج خاصة بهذه السنة أو جائزة إلى يوم القيامة ، وفيه أنه لا يحسن الجواب عنه بما تقدم من قوله « دخلت العمرة في الحج » :

ثم نهض صلى الله عليه وسلم ونهض معه الناس يوم التروية الذي هو اليوم الثامن إلى منى وأحرم بالحج كل من كان أحل ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر بمنى ، والعصر والمغرب والعشاء ، وبات بها تلك الليلة أى وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة . وأمر صلى الله عليه وسلم أن تضرب له قبة من شعر بئمة ، فأقى عليه الصلاة والسلام عرفة ونزل في تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بتناقته القصواء بفتح القاف والمد ، وقيل بضم القاف والقصر ، وهو خطأ كما تقدم .

وفي كلام الأصل أن القصواء والعضباء والجدعاء اسم لناقة واحدة وفيه ما لا يخفى . فرحلت ثم أتى بطن الوادى فخطب على راحلته خطبة ذكر فيها تحريم الدماء والأموال والأعراض . روضع ربا الجاهلية ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس رضي الله تعالى عنه . ووضع الدماء في الجاهلية ، وأول دم وضعه دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قتله هذيل فقال : هو أول دم أبدا به من دماء الجاهلية ، موضوع فلا يطالب به في الإسلام وأوصى صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا ، وأباح ضربهن غير المبرح إن أتين بما لا يحل ؛

وقضى لهن بالرزق والكسوة بالمعروف على أزواجهن . وأمر صلى الله عليه وسلم بالاعتصام بكتاب الله عز وجل ، أى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أنه لا يضل من اعتصم به ، وأشهد الله عز وجل على الناس أنه قد بلغهم ما يلزمهم ، فاعترف الناس بذلك . وأمر أن يبلغ ذلك الشاهد الغائب .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب . فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ؛ وإنكم لتسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس ، اللهم فاشهد ثلاث مرات » .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم أمر مناديا صار ينادى بكل ما قاله من ذلك : أى وهو ربيعة بن أمية بن خلف أخو صفوان بن أمية وكان صيتا . وصار صلى الله عليه وسلم يقول له : يارببيعة قل : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا كما تقدم ، فيصرخ به وهو واقف تحت صدر ناقته صلى الله عليه وسلم .

وربيعة هذا ارتد في زمن عمر رضى الله تعالى عنه ، فإنه شرب الخمر ، فهرب منه إلى الشام ، ثم هرب إلى قيصر فتنصر ومات عنده .

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه أنه طاف ليلة هو وعمر رضى الله تعالى عنهما للحرس بالمدينة فرأوا نورا في بيت ، فانطلقوا يؤمنونه ، فإذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه لعبد الرحمن : تدرى بيت من هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا بيت ربيعة بن أمية ، وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ قال : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه (ولا تجسسوا) فانصرف عمر . ثم إن عمر رضى الله تعالى عنه غرب ربيعة إلى خيبر فكان ما تقدم . وقد رأى ربيعة قبل ذلك في المنام كأنه في أرض معشبة مخصبة وخرج منها إلى أرض مجدبة كالحة . ورأى أبا بكر رضى الله تعالى عنه في جامعة من حديد عند سرير إلى الحشر ، فقص ذلك على أبي بكر رضى الله تعالى عنه فقال

إن صدقت رؤياك تخرج من الإيمان إلى الكفر ، وأما أنا فإن ذلك ديني جمع لي في أدب الناس إلى يوم الحشر .

وبعث إليه صلى الله عليه وسلم أم الفضل زوجة العباس أم عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم لبنا في قدح شربه أمام الناس ، فعلموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن صائما ذلك اليوم الذى هو التاسع ، أى لأنهم تماروا عندها في صيامه صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم الذى هو يوم عرفة .

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة » أى وبهذا استدلال أئمتنا أنه لا يستحب للحاج صوم يوم عرفة الذى هو التاسع من ذى الحجة .

فأما تم صلى الله عليه وسلم خطبته أمر بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا فصلاهما مجموعتين في وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين : أى لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بمكة إقامة تقطع السفر لأنه دخلها في اليوم الرابع وخرج يوم الثامن ، فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات ، فالجمع للسفر كما يقول إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه كالجمهور لا للنسك كما يقول غيرهم .

أقول : وفيه أن فقهاءنا ذكروا أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل الجمعة في حجة الوداع مع عزمه على الإقامة أياما : أى تقطع السفر لعدم استيطانه .

ويردّ بأنه من أين أنه صلى الله عليه وسلم عزم على الإقامة بمكة المدة التى تقطع السفر هذه دعوى تحتاج إلى دليل . وأيضاً عزمه على ذلك إنما هو بعد عودته إلى مكة بعد فراغه من الوقوف والرمى ، ولا يتقطع سفره إلا بوصوله إلى مكة .

والأولى استدلال فقهاءنا على وجوب الاستيطان في إقامة الجمعة بعد أمره صلى الله عليه وسلم لأهل مكة بإقامة الجمعة مع أنهم غير مسافرين لعدم استيطانهم للمحل . فذهب إليه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه من أن الجمع للسفر لا للنسك في محل .

وقد رأيت أن مالكا رضى الله تعالى عنه سأل أبا يوسف وقد كان حجج مع هرون الرشيد وذلك بحضرة الرشيد ، فقال له : ما تقول في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات يوم الجمعة ، أصلى جمعة أم صلى ظهرا مقصورة ؟ فقال أبو يوسف : صلى جمعة ، لأنه خطبها قبل الصلاة ، فقال مالك : أخطأت ، لأنه لو وقف يوم السبت لخطب قبل الصلاة ،

فقال أبو يوسف : ما الذى صلى ؟ فقال مالك : صلى الظهر مقصورة ، لأنه أسرّ بالقراءة فصوبه هرون فى احتجاجه على أبى يوسف ، والله أعلم .

ثم ركب صلى الله عليه وسلم راحته إلى أن أتى الموقف ، فاستقبل القبلة ، ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب . وفى الحديث « أفضل الدعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى ، أى فى يوم عرفة » كما فى بعض الروايات « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » .

وجاء أن من جملة دعائه فى ذلك اليوم « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن وسوسة الشيطان ، ومن وسوسة الصدر ؛ ومن شتات الأمر ، ومن شر كل ذى شر » :

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كان فيما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكاني ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجمل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأتبهل إليك ابتهاج المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلنى بدعائك ربي شقيا ، وكن بى رءوفا رحيا . يا خير المسئولين ؛ ويا خير المعطين » واستمر كذلك صلى الله عليه وسلم حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة .

أى وخطب صلى الله عليه وسلم على ناقته فى ذلك اليوم . فعن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة رضى الله تعالى عنهم قال : بعثنى عتاب بن أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فبلاخته ثم وقفت تحت ناقته رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لعابها ليقع على رأسى ، فسمعتة يقول : أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه . وإنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراش ، ولأعاهر الحجر . ومن دعى إلى غير أبيه أو مولى غير مواله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله له صرفا ولا عدلا ، وجاءه صلى الله عليه وسلم جماعة من نجد فسألوه كيف الحج ؟ فأمر مناديا ينادى : الحج عرفة . من جاء ليلة جمع ، أى المزدلفة قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج « وجمع بفتح الجيم وسكون الميم أيام منى ثلاثة (فن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) ، أى وقال صلى الله عليه وسلم « وقفت ههنا وعرفة كلها موقف » زاد مالك فى الموطأ « وارفعوا عن بطن عرنة » .

وفي كلام بعضهم نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) يوم الجمعة بعد العصر والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضاء ، فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحي .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اتفق في ذلك اليوم أربعة أعياد : عيد للمسلمين وهو يوم الجمعة . وعيد لليهود . وعيد للنصارى . وعيد للمجوس ، ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم قبله ولا بعده .

ولما نزلت بكى عمر رضى الله تعالى عنه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا عمر ؟ فقال رضى الله تعالى عنه : أبكاني أنا كنا في زيادة ، أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص ، فقال : صدقت » . فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يعيش بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، ولم ينزل بعدها شيء من الأحكام .

ثم أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه خلفه ودفن إلى مزدلفة وقد ضم زمام راحلته القصواء التي خطب عليها في نمرة حتى إن رأسها ليصيب طرف رجله ، يسير العنق ، حتى إذا وجد فسحة سار النص وهو فوق العنق ، وهو يأمر الناس بالسكينة في السير ، فلما كان في الطريق عند الشعب الأبر نزل فيه فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً ، ثم ركب حتى أتى المزدلفة التي هي جمع ، أى وتقدم أن وقوفه صلى الله عليه وسلم بعرفات وإفاضته إلى مزدلفة قبل أن يبعث كان مخالفاً في ذلك لقوله « وصلى المغرب والعشاء مجموعتين في وقت العشاء » أى مقصورتين بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع وأذن للنساء والضعفة : أى الصبيان أن يرموا ليلاً ، أى أن يذهبوا من مزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا جرة العقبة قبل الزحمة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما « فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيهم أن لا يرموا جرة العقبة حتى تطلع الشمس » فليتم ذلك . فعن عائشة رضى الله عنها « أن سودة رضى الله عنها أفاضت في النصف الأخير من مزدلفة بإذن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأمرها بالدم ولا النفر الذين كانوا معها » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : أنا ممن قدم النبي صلى الله عليه وسلم في ضعفته أهله وروى ذلك الشيخان . ولم يأذن صلى الله عليه وسلم للرجال في ذلك إلا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم ، أى فالمراد بالضعفة

الصبيان كما تقدم ، وبهذا استدلل أئمتنا على أنه يستحب تقديم النساء والضعفة بعد نصف الليل إلى منى أى وأن يبقى غيرهم حتى يصلوا الصبح مغسلين .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها « أنها قالت : فلائن أكون استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما استأذنت سودة أحب إلى من مفروح به ، أى لأرى الجمرة قبل أن يأتى الناس » وفى لفظ « قبل حطمة الناس » لأن سودة رضى الله عنها كانت امرأة ضخمة ثقيلة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تفيض من مزدلفة مع النساء والضعفة .

وفى مسلم « مضت أم حبيبة من جمع ليل » أى فى نصف الليل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « أرسلنى صلى الله عليه وسلم مع ضعفة أهله ، فصلينا الصبح بمنى ورمينا الجمرة ، فلما كان وقت الفجر قام صلى الله عليه وسلم وصلى بالناس : أى بالمزدلفة الصبح مغسلا ثم أتى المشعر الحرام فوقف به : أى وهو راكب ناقته ، واستقبل القبلة ، ودعا الله ، وكبر ، وهلل ووحده ؛ ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا » وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم دعا بالمغفرة لأمته يوم عرفة ، فأجيب بأنه يغفر لها ما عدا المظالم ، ثم دعا بذلك أى بالمغفرة لأمته بمزدلفة ، فأجيب إلى ذلك : أى إلى غفران المظالم ، فجعل إبليس لعنه الله يحثو التراب على رأسه ، فضحك صلى الله عليه وسلم من فعله » وجاء ما بين أن المراد بالأمة من وقف بعرفة .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم دفع : أى من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس : أى قال جابر رضى الله تعالى عنه : وكان المشركون لا ينفرون حتى تطلع الشمس ، وأردف خلفه الفضل بن العباس . وجاءته امرأة تسأله ، فقالت له : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الرحلة أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر . وفى لفظ آخر « فوضع صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر » وفى لفظ آخر « أنه صلى الله عليه وسلم لوى عنق الفضل ، فقال له أبوه العباس رضى الله عنهما : يا رسول الله لويت عنق ابن عمك ؟ قال : رأيت شابا وشابة فلم آمن عليهما الشيطان ، فلما وصل صلى الله عليه وسلم إلى محسر حرّك ناقته قليلا وسلك الطريق التى تسلك على جمرة العقبة ، فرمى بها من أسفلها سبع حصيات ، التقطها

له عبد الله بن عباس رضى الله عنهما من موقفه الذى روى فيه مثل حصى الخذف « بفتح الخاء المعجمة وإسكان الذال المعجمة ، وهذا لا يخالف ما عليه أئمتنا من أن الأولى أن يلتقط حصى الرمي من مزدلفة .

ويكره أخذه من المرمى لجواز أن يكون التقط له ذلك من مزدلفة ثم سقط منه عند جمرة العقبة ، فأمر ابن عباس بالتقاطه .

لكن الذى فى مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل محسرا : أى الوادى المعروف ، وهو أول منى قال : عليكم بحصى الخذف الذى ترمى به الجمرة ، وهو يدل على أن أخذ الحصى من ذلك أولى ، إلا أن يقال يجوز أن يكون قال ذلك لجماعة تركوا أخذ ذلك من مزدلفة ، وأمر صلى الله عليه وسلم بمثلها ونهى عن أكبر منها ، وقطع صلى الله عليه وسلم التلبية عند الرمي ، وصار يكبر عند رمي كل حصاة وهو راكب ناقته . وفى رواية « على بغلة » . قال بعضهم : وهو غريب جدا « وبلال وأسامة أحدهما أخذ بخطامها والآخر يظله بثوبه ، لا ضرب ، ولا طرد ، ولا إليك إليك » .

وفى رواية « فرأيت بلالا رضى الله عنه يقود براجلته ، وأسامة بن زيد رضى الله عنه رافعا عليه ثوبه يظله من الحر حتى رمى جمرة العقبة » وخطب صلى الله عليه وسلم على بغلة الشهباء، وقيل على بعير بنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراض ، وذكر حرمة يوم النحر ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، فقال : « يا أيها الناس أى يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام ، قال : فأى بلد هذا ، قالوا : بلد حرام ، قال : فأى شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » أعادها مرارا « ثم رفع صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وأمرهم صلى الله عليه وسلم بأخذ مناسكهم عنه لعله لا يحج بعد عامه ذلك ، وكان وقوفه صلى الله عليه وسلم بين الجمرات والناس بين قائم وقاعد .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم خطب فى اليوم الأول واليوم الثانى من أيام التشريق وهو أوسطها » ويقال له يوم النفر الأول لجواز النفر فيه كما يقال لليوم الثالث فى أيام التشريق يوم النفر الآخر .

ثم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى المنحر بنى فنحرت ثلاثا وستين بدنة ، أى وهى التى

قدم بها من المدينة وذلك بيده الشريفة لكل سنة بدنة . قال بعضهم . وفي ذلك إشارة إلى متهمى عمره صلى الله عليه وسلم ، لأن عمره صلى الله عليه وسلم كان في ذلك اليوم ثلاثا وستين سنة ، فنحى صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة لكل سنة بدنة ، وطبخ له اللحم من لحمها ، وأكل منه : أى أخذ من كل بدنة بضعة ، فجعل ذلك في قدر وطبخ ، فأكل من ذلك اللحم وشرب من مرقته ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه فنحى ما بقي وهو تمام المائة ، أى ولعله الذى أتى به على كرم الله وجهه من الين هذا .

وجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ قال « أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع مائة بدنة نحر منها ثلاثين بدنة ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عليا فنحى ما بقي منها وقال له اقم لحمها وجلودها وجلالها بين الناس ، ولا تعط جزارا منها شيئا ، وخذ لنا من كل بعير جذية من لحم واجعلها فى قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونخثر من مرقها ففعل ، وأخبر صلى الله عليه وسلم أن منى كلها منحى ، وأن فجاج مكة كلها منحى . ثم حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه الشريف : أى حلقه معمر بن عبد الله وقال له : هنا وأشار بيده إلى الجانب الأيمن ، فبدأ بشقه الأيمن فحلقه ثم بشقه الأيسر ، وقسم شعره ، فأعطى نصفه لأبى طلحة الأنصارى » : أى شعر نصف رأسه الأيسر « بعد أن قال : ههنا أبو طلحة » وقيل أعطاه لأم سليم زوج أبى طلحة رضى الله عنهما ، وقيل لأبى كريب « وأعطى من نصفه الثانى » أى الذى هو الأيمن « الشعرة والشعرتين للناس » .

وفى رواية « ناول صلى الله عليه وسلم الحلاق شقه الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبى طلحة الأنصارى فأعطاه إياه ، ثم ناول الحلاق الشق الأيسر فحلقه وأعطاه أبى طلحة ، وقال : اقسمه بين الناس » .

قال فى النور : والحاصل أن الروايات اختلفت فى مسلم . ففى بعضها أنه أعطاه الأيسر ، وفى بعضها أنه أعطاه الأيمن . ورجح ابن القيم أن الذى اختص به أبو طلحة هو الشق الأيسر .

أقول : الذى فى مسلم قال للحلاق « ها وأشار بيده إلى جانبه الأيمن ، فقسم شعره بين من يليه » وفى رواية « فوزعه الشعرة والشعرتين ، ثم أشار إلى الحلاق وإلى جانبه الأيسر فحلقه فأعطاه لأم سليم » وفى رواية « قال ههنا أبو طلحة » وفى لفظ : « أين أبى طلحة ، فدفعه إلى أبى طلحة » .

وفي رواية « ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقة ، ثم دعا أبا طلحة فأعطاه إياه ، ثم ناوله الشق الأيسر فحلقة وأعطاه أبا طلحة ، فقال أقسم بين الناس » والجمع ممكن بين هذه الروايات ، والله أعلم .

وعن بعضهم قال ، شقت قلنسوة خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم اليرموك وهو في الحرب فسقطت فطلبها طلبا حثيثا فعوتب في ذلك ، فقال : إن فيها شيئا من شعر ناصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما ما كانت معى في موقف إلا نصرت بها . وعن أنس رضى الله عنه ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحلاق يحلقه وقد طاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل » .

ثم تطيب صلى الله عليه وسلم ، طيبته عائشة رضى الله عنها بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف الإفاضة ، ويقال له طواف الركن ، ويقال له طواف الصدر ؛ والأشهر أن طواف الصدر طواف الوداع . وحلق بعض أصحابه وقصر بعض آخر . وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : والمقصرين ، فأعاد صلى الله عليه وسلم وأعادوا ثلاثا ، وقال في الرابعة والمقصرين » .

والصحيح المشهور أنه قال ذلك في هذه الحجة التي هي حجة الوداع كما قال ذلك في الحديبية كما تقدم ، وقيل لم يقله إلا في الحديبية ، وبه جزم إمام الحرمين في النهاية . وقال النووي : ولا يبعد أن يكون وقع ذلك منه صلى الله عليه وسلم في الموضعين . قال في فتح الباري : بل هو المتعين لتضافر الروايات بذلك في الموضعين ، أى فإن في مسلم في حجة الوداع عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يارسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يارسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يارسول الله وللمقصرين ، قال . وللمقصرين ، ثم نهض صلى الله عليه وسلم راكبا إلى مكة فطاف في يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر وشرب من نبيذ السقاية » .

فمن ابن عباس رضى الله عنهما « رآ النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة رضى الله عنه فاستسقى فأثيناها باناء من نبيذ » : أى من سقاية العباس رضى الله عنه ، فإنهم كانوا يضعون في السقاية التمر والزبيب كما تقدم ، فشرب صلى الله عليه وسلم وسقى فضله لأسامة رضى الله تعالى عنه ، وقال : أحسنتم وأجملتم ، كذا فاصنعوا . ثم شرب صلى الله عليه

وصلم من ماء زمزم بالدلو ، قيل وهو قائم ، وقيل وهو على بعير ، والذي نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب « أى وفعل ذلك عند فتح مكة أيضا كما تقدم . وقيل لما شرب صلى الله عليه وسلم صب منه على رأسه الشريف . وعق ابن جريح « أنه صلى الله عليه وسلم نزع الدلو لنفسه » .

وقيل إن هذا يخالف ما تقدم من قوله « لولا أن الناس يتخذونه نسكا لنزعت » ومن قوله يوم فتح مكة « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى منى فصلى بها الظهر » كما اتفق عليه الشيخان ، وقيل صلاه بمكة وبه انفرد مسلم ورجح بأمور .

وجمع بينهما بأنه يجوز أن يكون صلى الظهر بمكة أول الوقت ثم رجع إلى منى فصلاها مرة أخرى بأصحابه ، أى الذين تخلفوا عنه بمنى ، فإنه صلى الله عليه وسلم وجدهم ينتظرونه ، فهى له صلى الله عليه وسلم معادة . قال بعضهم : وهذا مشكل على من لم يجوز إعادة . وعورض هذا بأنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم رمى جمرة العقبة ونحر ثلاثا وستين بدنة ، ونحر على كرم الله وجهه بقية المائة ، وأخذ من كل بدنة بضعة ، ووضعت فى قدر وطبخت حتى نضجت ، فأكل من ذلك اللحم وشرب من مرقه ، وحلق رأسه ، ولبس وتطيب وخطب « فكيف يمكن أن يكون صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمكة أول الوقت ، ويعود إلى منى فى وقت الظهر .

على أن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « أفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم من آخر يومه حين صلى الظهر ، ثم رجع إلى منى » رواه أبو داود .

وأجيب بأن النهار كان طويلا فلا يضر صدور أفعال منه صلى الله عليه وسلم كثيرة فى صدر ذلك اليوم .

على أن ابن كثير رحمه الله ، قال : لست أدرى أن خطبته صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم أكانت قبل ذهابه أو بعد رجوعه إلى منى ؟ .

وأما رواية عائشة رضى الله تعالى عنها المقتضية لكونه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمنى قبل أن يذهب إلى البيت . فأجاب بعضهم عنها بأنها ليست نصا فى ذلك بل تحتمل فليتأمل .

فإن قيل : روى البخارى وأهل السنن الأربعة « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخر الزيارة

إلى الليل» وفي لفظ «زار ليلاً» قلنا المراد بالزيارة زيارة مجيئه ، لا طواف الزيارة الذي هو طواف الإفاضة .

فقد روى البيهقي « أنه صلى الله عليه وسلم كان يزور البيت كل ليلة من ليالي منى » وهو قول عروة بن الزبير إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجزأ الطواف يوم النحر إلى الليل ؛ فقد أخذه من قول عائشة المتقدم ، وقد علمت ما فيه .

وقد قال بعضهم : الصحيح . من الروايات وعليه الجمهور أنه صلى الله عليه وسلم طاف يوم النحر بالنهار . والأشبه أنه كان قبل الزوال هذا كلامه .

وطافت أم سلمة رضي الله عنها في ذلك اليوم على بعيرها من وراء الناس . قالت « وطفقت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جانب البيت وهو يقرأ بالطور وكتاب مسطور » .

أى وعرض ذلك « بأنه صلى الله عليه وسلم أرسل أم سلمة رضي الله عنها ليلة النحر فرمت بجمرة العقبة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت » فكيف يلتئم هذا مع طوافه قبل الظهر ؟ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ذلك الوقت بمكة .

ويجاب بأنه يجوز أن تكون أم سلمة أخرت طوافها لذلك الوقت وإن كانت قدمت مكة قبل الفجر .

وعرض بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ في ركعتي الطواف بالطور ولا جهر بالقراءة في النهار بحيث تسمعه أم سلمة من وراء الناس ، هذا من المحال .

ويجاب بأن كونه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ في ركعتي الطواف بالطور شهادة نبي على من يثبت . وأم سلمة رضي الله عنها لم تدع أنها سمعت قراءته صلى الله عليه وسلم . ثم رأيت ابن كثير رحمه الله قال : والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصبح يومئذ ، أى عند قدومه مكة لطواف الوداع عند الكعبة وأصحابه ، وقرأ في صلاته (والطور) بكاملها . قال : ويؤيد ذلك ما روى عن أم سلمة قالت « شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أشتكى ، قال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة ، ومضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حينئذ إلى جنب البيت وهو يقرأ (والطور وكتاب مسطور) » .

أى وحينئذ يكون ما تقدم من قول الراوى « وطافت أم سلمة في ذلك اليوم الذى هو يوم النحر » وقوله في الرواية الأخرى « أرسل أم سلمة ليلة النحر فرمت بجمرة العقبة قبل

النحر ثم مضت فأفاضت « أى طافت طواف الإفاضة . وما جاء عن أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة » قال بعضهم : ذكر يوم النحر غلط من الراوى أو من الناسخ ، وإنما هو يوم النفر . ويقال بمثل ذلك فيما قبله فلي تأمل ، فإنه سيأتى فى بعض الروايات أنه طاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح .

إلا أن يقال إنه صلى الله عليه وسلم مكث بعد الطواف لصلاة الصبح حتى صلاها . وفيه أن بعضهم ذكر أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت ، أى طواف الوداع بعد صلاة الصبح ، والله أعلم ، وطافت فى ذلك اليوم الذى هو يوم النحر عائشة رضى الله عنها بعد أن طهرت من حيضها وكانت حائضا يوم عرفة ، أى كما تقدم . وطافت أيضا صفية رضى الله عنها فى ذلك اليوم .

وسئل صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم عما تقدم بعضه على بعض من الرى والحلق والنحر والطواف ، فقال : لا حرج : أى لا إثم .

ففى مسلم عن عمرو بن العاصى رضى الله عنه قال « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بمنى على راحلته للناس يسألونه ، فجاء رجل فقال : يا رسول الله لم أشعر أن التحلل قبل النحر فحلقت قبل أن أنحر ، فقال : اذبح ولا حرج ، ثم جاءه رجل آخر فقال : يا رسول الله لم أشعر أن الرى قبل النحر فنحرت قبل أن أرى ، فقال : ارم ولا حرج وجاءه آخر فقال : إني أفضت إلى البيت قبل أن أرى ؛ فقال : ارم ولا حرج ، قال : فما سئل عن شىء قدم ولا أخر إلا قال افعل ولا حرج » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أيضا فى تقديم السعى بين الصفا والمروة قبل الطواف بالبيت « أى فمن شاء قدم السعى عقب طواف القدوم ، ومن شاء أخره عن طواف الإفاضة » وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم أتى بالسعى عقب طواف القدوم .

وأقام صلى الله عليه وسلم بمنى ثلاثة أيام يرمى الجمار : أى ماشيا فى ذهابه وإيابه . وأمر صلى الله عليه وسلم شخصا أن ينادى فى الناس بمنى إنها أيام أكل وشرب وباعة . ورمى لكل جمر من الجمرات الثلاث بعد الزوال ، أى قبل الصلاة للظهر سبع حصيات ، يبدأ بالتى تلى مسجد منى : أى الخيف ويقف عندها للدعاء ، ثم التى تليها وهى الوسطى ثم يقف للدعاء ثم جمره العقبة ، ولم يقف عندها للدعاء : أى وكان أزواجه صلى الله عليه وسلم

يرمين بالليل. وخطبهم أى الناس فى اليوم الأول من أيام منى كما تقدم « ويقال لذلك اليوم يوم القرأنهم يقرون فيه فى منى وهو يوم الرؤوس لأكلهم الرؤوس فى ذلك اليوم ، وفى اليوم الثانى من أيام منى وهو يوم النفر الأول ، أى ويقال له يوم الأكارع : أى لأكلهم الأكارع فى ذلك اليوم .

وأوصى بنى الأرحام خيرا . فقد خطب صلى الله عليه وسلم فى الحج خمس خطب : الأولى يوم السابع من ذى الحجة بمكة . والثانية يوم عرفة . والثالثة يوم النحر بمنى . والرابعة يوم القر بمنى . والخامسة يوم النفر الأول بمنى أيضا . ثم نهض صلى الله عليه وسلم من منى فى اليوم الثالث الذى هو يوم النفر الآخر ونفر معه المسلمون بعد الزوال أى وبعد الرمى .

واستأذنه عمه العباس رضى الله عنه فى عدم المبيت بمنى فى الليالى الثلاث من أجل السقاية فرخص له فى ذلك .

وضربت له صلى الله عليه وسلم قبة بالحصب وهو الأبطح ، أى ضربها له أبو رافع رضى الله عنه ، وكان على ثقله ولم يأمره صلى الله عليه وسلم بذلك . فعن أبى رافع رضى الله عنه : « لم يأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنزل بالأبطح ، ولكنى جئت فضربت قبة ، فجاء فنزل ؛ وكان صلى الله عليه وسلم قال لأسامة رضى الله عنه : غدا تنزل بالحصب إن شاء الله » وهو المحل الذى تحالف فيه قريش وكنانة على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، أى وكان ذلك سببا لكتابة الصحيفة . وفيه أنه تقدم فى فتح مكة أنه صلى الله عليه وسلم نزل بالحجون عند شعب أبى طالب المكان الذى حصرت فيه بنو هاشم وبنو المطلب وأنه خيف بنى كنانة الذى تقاسمت قريش فيه جملتهم .

وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر » .

ولما نزل صلى الله عليه وسلم بالحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء وركد رقدة ، ثم إن عائشة رضى الله عنها قالت له : يا رسول الله أراجع بحجة ليس معها عمرة ، فدعا عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما فقال : اخرج بأختك من الحرم ، ثم افرغا من طوافكما حتى تأتيا نى ههنا بالحصب ، قالت : ففضى الله العمرة ، وفى لفظ « فاعتمرنا

من التنعيم مكان عمرتي التي فاتتني ، وفرغنا من طوافها في جوف الليل ، فأتيناها صلى الله عليه وسلم بالحصب فقال : فرغتما من طوافكما ، قلنا نعم ، فأذن في الناس بالرحيل « وفي رواية » فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصعد من مكة وأنا منهبطة إليها ، وأنا مصعدة وهو منهبط منها » .

واعترض كيف يأتي قولها عمرتي التي فاتتني مع قوله صلى الله عليه وسلم « قد حلت من حجتك وعمرتك » وكيف أقرها صلى الله عليه وسلم على ذلك .

وأجيب بأنها لما رأت صواحبها أبين بعمرة ثم بحج وهي لم تأت إلا بحج أحببت أن تأتي بعمرة أخرى زائدة على الحج وإن كانت العمرة مندرجة فيه ، وأقرها صلى الله عليه وسلم تطيبا لخاطرها ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان معها إذا هويت الشيء الذي لا مخالفة فيه للشرع تابعها عليه . وبهذا استدلت أئمتنا على جواز الإحرام بالعمرة قبل طواف الوداع . وأمر صلى الله عليه وسلم الناس أن لا ينصرفوا : أي إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت : أي الذي هو طواف الوداع .

ورخص صلى الله عليه وسلم في ترك المؤمنين ذلك للحائض التي قد طافت طواف الإفاضة قبل حيضها كصفية أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإنها حاضت بعد طواف الإفاضة ليلة النفر من منى . أي وقالت : ما أراني إلا حابستكم لانتظار طهرى وطواف الوداع ؛ فقال لها صلى الله عليه وسلم : أوما كنت طفت يوم النحر؟ « أوفى لفظ : « ما كنت طفت طواف الإفاضة يوم النحر؟ قالت بلى ، قال : لا بأس انفرى معنا » وفي رواية « قال يكفيك ذلك » أي لأنه هو طواف الركن الذي لا بد لكل أحد منه ، بخلاف طواف الوداع لا يجب على الحائض ولا يلزمها الصبر لتطهر وتأتي به ، ولادم عليها في تركه .

قال الإمام النووي رحمه الله : وهذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة ، إلا ما حكى عن بعض السلف وهو شاذ مردود .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة في تلك الليلة ، وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ، ثم خرج من الثانية السفلى ثنية كدى بضم الكاف والقصر : وهو عند باب شببكة متوجها إلى المدينة : أي التي خرج منها لما فتح مكة كما تقدم .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من المسجد من باب الحزورة ، ويقال له باب الحناطين . وجاء عن جابر رضي الله عنه « أن خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة كان

عند غروب الشمس فلم يصل حتى أتى سرف » قال بعضهم : لعل هذا كان في غير حجة الوداع ، فإنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت بعد صلاة الصبح فإذا أخره إلى وقف الغروب هذا غريب جدا هذا كلامه . وماروى أنه صلى الله عليه وسلم رجع بعد طواف الوداع إلى المحصب غير محفوظ .

أقول : هذا جمع به الإمام النووي رحمه الله بين الروايات المتقدمة عن عائشة حيث قال : ووجه الجمع أنه صلى الله عليه وسلم بعث عائشة مع أخيها بعد نزوله المحصب ، وواعدها أن تلحقه بعد اعتمارها ، ثم خرج هو صلى الله عليه وسلم بعد ذهابها فقصد البيت ليطوف طواف الوداع ، ثم رجع بعد فراغه من طواف الوداع فلقبها وهو صادر وهي داخله لطواف عمرتها ، ثم لما فرغت لحقته وهو في المحصب .

قال : وأما قولها فأذن في أصحابه فخرج ومر بالبيت وطاف فتأول بأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وإلا فطوافه صلى الله عليه وسلم كان بعد خروجها إلى العمرة وقبل رجوعها ، وأنه فرغ قبل طوافها للعمرة هذا كلامه فليتأمل ، فكانت مدة دخوله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وخروجه منها عشرة أيام ، وهذا السياق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يأت بعمرة بعد حججه ، وهو لا يناسب القول بأنه أحرم مفردا بالحج ، بل يدل للقول بأنه أحرم قارنا أو نواهما بعد إطلاق الإحرام ، أو أدخل الحج على العمرة .

وفي كلام بعضهم لم يعتمر صلى الله عليه وسلم تلك السنة عمرة مفردة لا قبل الحج ولا بعده ولو جعل حججه مفردا لكان خلاف الأفضل ، أى لأنه لم يقل أحد إن الحج وحده من غير اعتمار في سنته أفضل من القران .

وفي كلام بعض آخر : أجمعوا على أنه لم يعتمر بعد الحج ، فتعين أن يكون متمتعا تمتع قران .

وقد يطلق الأفراد على الإتيان بأعمال الحج فقط وإن كان قد أحرم بهما معا كما أن القران قد يطلق على الإتيان بطوافين وسبعين . فمن روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أفرد الحج أراد به أنه أتى بأعمال الحج ولم يفرد للعمرة أعمالا .

ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة في هذه الحجة التي هي حجة الوداع .

ولما طاف صلى الله عليه وسلم سبعا وقف في الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة فدعا الله وألزم جسده: أى صدره الشريف ووجهه بالملتزم .

أى ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدیر خم بقرب رابع جمع الصحابة وخطبهم خطبة بين فيها فضل على كرم الله وجهه ، وبراءة عرضه مما تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جورا وبخلا ، والصواب كان معه كرم الله وجهه في ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتيني رسول ربى فأجيب » أى وفي لفظ في الطبراني « فقال : يا أيها الناس إنه قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا نصف عمر الذى يليه من قبله ، وإنى لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب ، وإنى مسئول ، وإنكم مسئولون فما أتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وجهت ونصحت ، فجزاك الله خيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن جنته حق وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ؟ قالوا : بلى نشهد بذلك ، قال : اللهم اشهد » الحديث « ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته ، أى فقال : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، ولن تضلوا حتى تردا على الحوض » ، وقال فى حق على كرم الله وجهه لما كرر عليهم : ألسنت أولى بكم من أنفسكم ثلاثا ، وهم يجيبونه صلى الله عليه وسلم بالتصديق والاعتراف ، ورفع صلى الله عليه وسلم يد على كرم الله وجهه وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وابغض من ابغضه ، وانصره ، وأعز من أعاناه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » وهذا أقوى ما تمسكت به الشيعة والإمامية والرافضة على أن عليا كرم الله وجهه أولى بالإمامة من كل أحد ، وقالوا هذا نص صريح على خلافته سمعه ثلاثون صحابيا وشهدوا به ، قالوا : فلعلى عليهم من الولا ما كان له صلى الله عليه وسلم عليهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « ألسنت أولى بكم » وهذا حديث صحيح ورد بأسانيد صحاح وحسان ، ولا التفات لمن قدح فى صحته كأبي داود وأبي حاتم الرازى . وقول بعضهم إن زيادة اللهم وال من والاه إلى آخره موضوعة مردود ، فقد ورد ذلك من طرق صحح الذهبي كثيرا منها .

وقد جاء أن عليا كرم الله وجهه قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أنشد الله من ينشد يوم غدير خم إلا قام ، ولا يقوم رجل يقول أنبتت أو بلغتني إلا رجل سمعت أذناه ووعى قلبه ، فقام سبعة عشر صحابيا وفي رواية ثلاثون صحابيا ، وفي المعجم الكبير ستة عشر . وفي رواية اثنا عشر ، فقال : هاتوا ما سمعتم ، فذكروا الحديث ، ومن جملة « من كنت مولاه فعلى مولاه » وفي رواية « فهذا مولاه » وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه : وكنت ممن كنتم ، فذهب الله ببصرى ، وكان على كرم الله وجهه دعا على من كنتم .

قال بعضهم : ولما شاع قوله صلى الله عليه وسلم « من كنت مولاه فعلى مولاه » فى سائر الأمصار وطارف جميع الأقطار ، بلغ الحارث بن النعمان الفهرى ، فقدم المدينة فأناخ راحلته عند باب المسجد ، فدخل والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله أصحابه ، فجاء حتى جثا بين يديه ، ثم قال : يا محمد إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا ذلك منك ، وإنك أمرتنا أن نصلى فى اليوم والليلة خمس صلوات ونصوم شهر رمضان ونزكى أموالنا ونحج البيت فقبلنا ذلك منك ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعى ابن عمك ففضلته ، وقلت : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فهذا شئ من الله أو منك ؟ فاحمرت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : والله الذى لا إله إلا هو إنه من الله وليس منى ، قالها ثلاثا ، فقام الحارث وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك « وفى رواية « اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فوالله ما بلغ باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوق على رأسه فخرج من دبره فمات ، وأزل الله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) الآية ، وكان ذلك اليوم الثامن عشر من ذى الحجة « وقد اتخذت الروافض هذا اليوم عيدا فكانت تضرب فيه الطبول ببغداد فى حدود الأربعمئة فى دولة بنى بويه . وما جاء : من صام يوم ثمانى عشرة من ذى الحجة كتب الله له صيام ستين شهرا . قال بعضهم قال الحافظ الذهبى هذا حديث منكر جدا أى بل كذب .

فقد ثبت فى الصحيح ما معناه « أن صيام شهر رمضان بعشرة أشهر » فكيف يكون صيام يوم واحد يعدل ستين شهرا هذا باطل ، هذا كلامه فليتأمل .

وقد رد عليهم فى ذلك بما بسطته فى كتابى المسمى بالقول المطاع فى الرد على أهل

الابتداع نلخصت فيه الصواعق للعلامة ابن حجر الهيتمي ، وذكرت أن الرد عليهم في ذلك من وجوه :

أحدها أن هؤلاء الشيعة والرافضة اتفقوا على اعتبار التواتر فيما يستدلون به على الإمامة من الأحاديث ، وهذا الحديث مع كونه آحادا طعن في صحته جماعة من أئمة الحديث كآبي داود وأبي حاتم الرازي كما تقدم ، فهذا منهم مناقضة ؛ ومن ثم قال بعض أهل السنة : ياسبحان الله من أمر الشيعة والرافضة إذا استدللنا عليهم بشيء من الأحاديث الصحيحة قالوا هذا خبر واحد لا يغني ، وإذا أرادوا أن يستدلوا على ما زعموا أتوا بأخبار باطلة كاذبة لانصل إلى درجة الأحاديث الضعيفة التي هي أدنى مراتب الآحاد التي منها أنه قال لعلي أخي ووصي وخليفة في ديني بكسر الدال وخبر : أنت سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين . وخبر : سلموا على علي أيامرة الناس ، فإنها أحاديث كاذبة موضوعة مفتراة عليه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثانيها أن اسم المولى يطلق على عشرين معنى ، منها : أنه السيد الذي ينبغي محبته ويحجب بغضه ، ويؤيد إرادة ذلك « أن سبب إيراد ذلك أن عليا كرم الله وجهه تسكلم فيه بعض من كان معه باليمن من الصحابة وهو بريدة ، قدم هو وإياه عليه صلى الله عليه وسلم في تلك الحججة التي هي حجة الوداع ، وجعل يشكوه له صلى الله عليه وسلم لأنه حصل له منه جنوة ، فجعل يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا بريدة لاتقع في علي ، فإن عليا مني وأنا منه ، ألسأ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قال : نعم يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنت مولاه فعلى مولاه » فقال ذلك لبريدة خاصة . ثم لما وصل صلى الله عليه وسلم إلى غدير خم أحب أن يقول ذلك للصحابة عموما أي فكما عليهم أن يحبوني فكذلك ينبغي أن يحبوا عليا . وعلى تسليم أن المراد أنه أولى بالإمامة ، فالمراد في المآل لا في الحال قطعا ، وإلا لكان هو الإمام مع وجوده صلى الله عليه وسلم ، والمآل لم يعين له وقت ، فنأين أنه عقب وفاته صلى الله عليه وسلم ، وجاز أن يكون بعد أن يعقد له البيعة ويصير خليفة ، ويدل لذلك أنه كرم الله وجهه لم يحتج بذلك إلا بعد أن آلت إليه الخلافة ردا على من نازعه فيها كما تقدم . فسكوته كرم الله وجهه عن الاحتجاج بذلك إلى أيام خلافته ، قاض على كل من له أدنى عقل فضلا عن فهم بأنه لانص في ذلك على إمامته عقب وفاته صلى الله عليه وسلم .

ثالثها أنه تواتر النقل عن علي كرم الله وجهه ، أنه صلى الله عليه وسلم لم ينص عند موته على خلافة أحد لا هو ولا غيره ، فقد قيل له كرم الله وجهه كما يأتي : حدثنا فأنت الموثوق به والمأهون على ماسمعت ، فقال : لا والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ، لو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد في ذلك ما تركت القتال على ذلك ولو لم أجد إلا بردتي هذه . وفي رواية : ما تركت أخا بني تيم وعدى يعنى أبا بكر وعمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنهما يتوبان على منبره صلى الله عليه وسلم ولقاتلتها بيدي .

رابعها أنه لو كان هذا الحديث نصا على إمامته لم يسعه الامتناع من متابعة عمه العباس رضی الله تعالى عنه لما قال له العباس : اذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان هذا الأمر فينا علمنا . وأيضا لو كان الحديث نصا لكان لما قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير ، واحتج عليهم أبو بكر رضی الله تعالى عنه بأن الأئمة من قريش قالوا له : قد ورد النص بخلافة علي كرم الله وجهه ، ولم يكن بين ذكر الحديث في غدبر خم وبين ذلك إلا نحو شهرين ، فاحتمال النسيان على علي والعباس وعلى جميع الأنصار رضی الله تعالى عنهم من أبعد البعيد . على أنه ورد أنه لما قيل لعلي إن الأنصار قالوا منا أمير ومنكم أمير قال كرم الله وجهه : هلا ذكرت الأنصار قول النبي صلى الله عليه وسلم « يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم » فكيف يكون الأمر بينهم مع الوصاية بهم ، ودعوى الرافضة والشيعه أن الصحابة رضوان الله عليهم علموا هذا النص ولم يعملوا به عنادا غير مسموعة إذ هي ظاهرة البطلان ، لأن في ذلك تضليلا لجميع الصحابة وهم رضی الله تعالى عنهم معصومون عن أن يجتمعوا على ضلالة .

ومن العجب العجيب أن بعض غلاة الرافضة يقول بتكفير الصحابة بسبب ذلك ، وأن عليا كرم الله وجهه كفر لأنه أعان الكفار على كفرهم .

وأما دعواهم أن عليا إنما ترك النزاع في أمر الخلافة تقيّة وامتنالا لوصيته صلى الله عليه وسلم أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسلم سيفا فكذب وافتراء ، إذ كيف يجعله إماما على الأمة ويمنعه أن يسلم سيفا على من امتنع من قبول الحق ؟ وكيف منع سل السيف على أبي بكر وعمر وعثمان رضی الله تعالى عنهم مع قلة أتباعهم وكثرة أتباعه ، وسله على معاوية رضی الله تعالى عنه مع وجود من معه من الألو ف ، ولما ساع له أن يقول كما تقدم ،

لو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم وعدى
ينوبان على منبره صلى الله عليه وسلم ، ولما بين سبب تركه لمقاتلة أبي بكر وعمر وعثمان
ومقاتلته لمعاوية بأن أبا بكر اختاره صلى الله عليه وسلم لديننا فبايعناه فولاهما عمر فبايعناه
وأعطيت ميثاقى لعثمان ، فلما مضوا بايعنى أهل الحرمين وأهل المصرين البصرة والكوفة ،
فوثب فيها من ليس مثلى ولا قرابته كقرابتي ولا علمه كعلمي ولا سابقته كسابقتي وكنت
أحق بها منه ؛ يعنى معاوية رضى الله تعالى عنه كما سياتى . ومن ثم لما قيل للحسن المنثى
ابن الحسن السبط إن خبر « من كنت مولاه فعلى مولاه » نص فى إمامة على كرم الله وجهه
قال : أما والله لو يعنى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان لأفصح لهم ولقال
لهم : يا أيها الناس هذا وال بعدى والقائم عليكم بعدى فاسمعوا له وأطيعوا ، ووالله
لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليه فى ذلك ثم تركه كان أعظم خطيئة .

وقد سئل الإمام النووى رحمه الله : هل يستفاد من قول النبي صلى الله عليه وسلم « من
كنت مولاه فعلى مولاه » أنه كرم الله وجهه أولى بالإمامة من أبي بكر وعمر رضى الله
تعالى عنهما . فأجاب إنه لا يدل على ذلك ، بل معنى ذلك عند العلماء الذين هم أهل هذا
الشأن وعليهم الاعتماد فى تحقيق ذلك « من كنت ناصرهم ومواليهم ومحبه ومصافيه فعلى كذلك »
وقد قيل فى سبب ذلك أن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما قال لعلى كرم الله
وجهه : لست مولاي ؛ وإنما مولاي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذلك . ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى ذى الحليفة بات بها ، أى لأنه
صلى الله عليه وسلم كان كره أن يدخل المدينة ليلا .

ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك
وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ،
صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخل عليه الصلاة والسلام
لمدينة نهارا من طريق المعرس بفتح الراء المشددة .

باب ذكر عمره صلى الله عليه وسلم

قد اعتمر صلى الله عليه وسلم : أى بعد الهجرة أربع عمر . فقد قال بعضهم :
لإخلاف أن عمره صلى الله عليه وسلم لم تزد على أربع أى كلهن فى ذى القعدة ، مخالفا

للمشركين ، فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج ويقوون هي من أفجر الفجور
أى كما تقدم .

وأول تلك الأربعة عمرة الحديبية ، أى وكانت فى ذى القعدة التى صده فيها المشركون
عن البيت .

وثانيتها عمرته صلى الله عليه وسلم من العام المقبل ، أى وهى عمرة القضاء ، وكانت
فى ذى القعدة كما تقدم . وغن قتادة رضى الله تعالى عنه « كان المشركون فجعروا عليه
صلى الله عليه وسلم حيث ردوه فى الحديبية وكان فى ذى القعدة ، فاقتص الله منهم وأدخله
مكة فى ذلك الشهر الذى هو ذو القعدة ، وأنزل الله (الشهر الحرام بالشهر الحرام) .

وثالثها عمرته صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين ، وكانت من الجعرانة ،
وكانت فى ذى القعدة ، ودخل صلى الله عليه وسلم مكة ليلا ، ففضى عمرته ثم خرج من
ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت بها . ومن ثم خفيت على الناس كما تقدم :

ورابعها عمرته صلى الله عليه وسلم مع حجة الوداع : أى التى دخلت فى الحج بناء
على أنه أحرم قارنا أو التى أدخلها على الحج بناء على أنه أحرم بالحج خصوصية له ،
أو عينهما بعد أن أحرم مطلقا على ما تقدم فإنه أحرم لحمس بقين من ذى القعدة . وقد قالت
عائشة رضى الله تعالى عنها « اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا سوى التى قرنها
بحجة الوداع » .

وأخرج البخارى ومسلم « أنه صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة
إلا التى فى حجته » أى فإنه لم يوقعها فى ذى القعدة ، بل أوقعها فى ذى الحجة تبعا للحج .
وأما إحرامه بها فكان فى ذى القعدة فى خمس بقين منه كما تقدم .

وأخرجا أيضا أن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال : كنت أنا وابن عمر
مستندين إلى حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها وإنما نسمع صوتها بالسواك تستن ، فقلت :
يا أبا عبد الرحمن اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجب ؟ قال نعم ، فقلت لعائشة :
أى أمته ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن ؟ قالت : وما يقول ؟ قلت : يقول اعتمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجب ، فقالت : يغفر الله لأبى عبد الرحمن ، ما اعتمر
عمرة إلا وهو شاهدا ، وفى رواية إلا وهو معه ، وما اعتمر فى رجب قط ، أى وإنما
عتمر فى ذى القعدة .

ولكن روى الدارقطنى رحمه الله عنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت « خرجت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة فى رمضان فأفطر وصمت وقصر وأتممت » قال

في الهدى إنه غلط عليها وهو الأظهر ، فإنه صلى الله عليه وسلم ما اعتمر في رمضان قط .
أقول : وزاد بعضهم أنه اعتمر أيضا عمرتين عمرة في رجب وعمرة في شوال فيكون اعتمر
سته . إلا أن يقال : يجوز أن يكون مستند القائل بأنه اعتمر في رجب قول ابن عمر رضي الله
تعالى عنهما المتقدم ، وقد تقدم رده وجزاز أن يكون قوله اعتمر في شوال أى خرج للعمرة
في شوال وهي العمرة التي كانت في ضمن حجة الوداع ، والله أعلم .

باب ذكر نبذ من معجزاته صلى الله عليه وسلم

التي يمكن التحدى بها ، سواء تحدى بها بالفعل كالقرآن وتمنى اليهود الموت أولا .
وتلك المعجزة اصطلاحا هي الحاصلة له صلى الله عليه وسلم بعد البعثة إلى وفاته . وأما الأمور
الحاصلة له بين يدي أيام مولده وبعثته ، وقبل ذلك من الأمور الخارقة للعادة الغربية
الموهنة للكفر ، التي يعجز عن بلوغها قوى البشر ، ولا يقدر عليها إلا خالق القوى والقدر ،
لأنها في الاصطلاح يقال لها إرهابات وتأسيسات للرسالة ، ولا تسمى في الاصطلاح معجزات .
وهي إذا تليت على قلب المؤمن زادت إيمانا ، وإذا تفكر فيها ذوا البصيرة واليقين زادت
إيقانا ، فإن كل من أرسله الله عز وجل لم يخله من آية أيده بها مخالفة للعادات ، لكون
ما يدعيه من الرسالة مخالفا لها ، فيستدل بتلك الآية على صدقه فيما يدعيه ، لأن اقترانها
بدعواه الرسالة تصديق له فيها .

وقد كانت للأنبياء : أى الرسل معجزات مختلفة ، أى وهو صلى الله عليه وسلم أكثر
الرسول معجزة ، وأعظمهم آية ، وأظهرهم برهانا أى فقد جاء « مامن الأنبياء من نبي إلا وقد
أعطى من الآيات ما آمن عليه البشر » : أى آمنوا بسبب إظهاره « وإنما كان الذى أوتيت وحيا
أوحى الله عز وجل إلى » وهو القرآن لأنه الذى تحداهم به « فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة » .

أى فإنه لما غلب السحر في زمن موسى عليه الصلاة والسلام جاءهم بجنسه في معجزاته ،
فأتى العصا ، وفتق البحر . ولما غلب الطب في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام جاءهم
بجنسه ، فأحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص . ولما غلبت الفصاحة وقول الشعر في زمن
نبينا عليه الصلاة والسلام جاءهم بالقرآن . وهذا السياق يدل على أن المعجزة خاصة بالرسول
عليهم الصلاة والسلام ، ويوافق ذلك قول صاحب المواقف وشرحه ، وهي : أى المعجزة
بحسب الاصطلاح عبارة عما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله .

لكنه قال في شروط المعجزة : الرابع أن يكون أى الأمر الخارق للعادة ظاهرا على يد مدعى النبوة ليعلم أنه تصديق له انتهى . فيحتمل أنه أراد بالنبوة الرسالة . ويحتمل أنه أراد بها ما بهم الرسالة للشخص نفسه ، لأن النبي غير الرسول مرسل لنفسه ، ودعواه النبوة متضمنة لدعواه الرسالة لنفسه ، فهو رسول إلى نفسه ، فتكون المعجزة عامة في حق الرسول والنبي الذى ليس برسول .

ومما يؤيد هذا الثانى قول النسفي رحمه الله في عقائده : وأيدهم ، قال السعد رحمه الله : أى الأنبياء بالمعجزات الناقضات للعادات .

ثم قال : وقد روى بيان عددهم في بعض الأحاديث . قال السعد على ما روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . وفي رواية ، مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفا » ويؤيده أيضا قول الإمام السنوسى في شرح عقيدته الكبرى : إن معجزة النبي غير الرسول ، يجوز أن تتأخر بعد موته ، بخلاف معجزة الرسول فإن فيها خلافا إلى آخر ما ذكر . ومما يؤيد هذا الثانى أيضا ما نقله في الخصائص الصغرى عن بعضهم وأقره : فرض الله على الأنبياء إظهار المعجزات ليؤمنوا بها ، وفرض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتنوا بها انتهى : فقد قابل بين المعجزة والكرامة . وفيه تصريح بأنه يجب على النبي غير الرسل إظهار المعجزة .

وعن القرافى المالكي رحمه الله أنه يجب على النبي أنه يخبر بنبوته ، وذكر في الأصل أن الغرض ذكر نبذة من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإلا فمعجزاته صلى الله عليه وسلم كالبحر المتدافق بالأمواج .

وقد ذكر بعض العلماء أن معجزاته صلى الله عليه وسلم لا تنحصر . وفي كلام بعض آخر أنه صلى الله عليه وسلم أعطى ثلاثة آلاف معجزة : أى غير القرآن ، فإن فيه ستين ، وقيل سبعين ألف معجزة تقريبا .

قال في الخصائص : قال الحلبي : وليس في شيء معجزات غيره ما ينجو نحو اختراع الأجسام ، فإن ذلك من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة ، هذا كلامه .

وفيه أن هذا معارض بقول الله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام (إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير) الآية . والغرض ذكر تلك النبذة مجموعة وإن كان أكثرها قد سبق لكنه مفرق ، أى وأنه على ما تقدم بقولى أى كما تقدم ، وأسكت عن ذلك فيما لم يتقدم .

فن معجزاته صلى الله عليه وسلم وهو أعظمها القرآن ، أى لأنه تعالى أتى به مشتملا على أخبار الأمم السالفة وسير الأنبياء الماضية التى عرفها أهل الكتاب ، وهو صلى الله عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا عرف بمجالسة الكهان والأخبار ، لأنه صلى الله عليه وسلم قد نشأ بين أظهرهم فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية والأمم السالفة التى اشتمل عليها ، أى ومن كان من العرب يكتب ويقرأ ويجالس الأخبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن خصوصا عن المغيبات المستقبلية الدالة على صدقه ، لوقوعها على ما أخبر به . وقد أعجز الفحصاء البلاغ ، أى لحسن تأليفه والتأم كلماته ، بهرت العقول بلاغته ، وظهرت على كل قول فصاحته ، أحكمت آياته وفصامت كلماته ، فحارت فيه عقولهم ، وتبلدت فيه أحلامهم ، وهم رجال النظم والنثر ، وفرسان السجع والشعر .

وقد جاء على وصف مبين لأوصاف كلامهم البتر ، لأن نظامه لم يكن كنظام الرسائل والخطب ، ولا الأشعار وأسجاع الكهان .

وقد تحداهم ودعاهم إلى معارضته والإتيان بأقصر سورة منه ، أى وهو دليل قاطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل له ذلك إلا وهو واثق مستيقن أنهم لا يستطيعون ذلك ، لكونه من عند الله ، إذ يستحيل أن يقول صلى الله عليه وسلم ذلك وهو يعلم أنه الذى تولى نظمه ولم ينزل عليه من عند الله ، إذ لا يأمن أن يكون فى قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وشعر وخطابة قد بلغوا الدرجة العليا فى البلاغة ، وهو من جنس كلامهم ، فيصير كذابا ، ولو كان فى استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن ذلك إلى المحاربة التى فيها قتل صناديدهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم ، أى لأن النفوس إذا قرعت بمثل هذا استفرغت الوسع فى المعارضة ، فهو ممتنع فى نفسه عن المعارضة ، خلافا لمن قال إنما لم تقع المعارضة منهم لأن الله تعالى صرفهم عنها مع وجود قدرتهم عليها ، لأنه وإن كان صرفهم عنها فيه إعجاز لكن الإعجاز فى الأول أكمل وأتم ، وهو اللائق بعظيم فضل القرآن .

ومن ثم لما جاءه الوليد بن المغيرة وكان المقدم فى قريش بلاغة وفصاحة ، وكان يقال له ريحانة قريش كما تقدم ، وقال له صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ ، فقرأ صلى الله عليه وسلم (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وقال له أعده ، فأعاد ذلك قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر ، وإنه ليعلو ولا يعلى

عليه . وفي رواية قرأ عليه (حمّ - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب) الآيات فانطلق حتى أتى منزل أهله بنى مخزوم فقال : والله كلام محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إلى آخر ما تقدم ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : قد صبا الوليد ، والله لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل لعنه الله : أنا أكفيكموه ، فقعده على هيئة الحزين فر به الوليد ، فقال له : مالي أراك كثيبا؟ قال : وما يمعني أن أحزن ، وهذه قريش قد جمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك ، وزعموا أنك إنما زينت قول محمد لتصيب من فضل طعامه ، فغضب الوليد وقال : أو ليس قد علمت قريش أني من أكثرهم مالا وولدا ، وهل يشبع محمد وأصحابه من الطعام؟ فانطلق مع أبي جهل حتى أتى مجلس بنى مخزوم فقال : هل تزعمون أن محمدا كذاب فهل رأيتموه كذباكم قط؟ قالوا : اللهم لا ، قال : فترعمون أنه مجنون فهل رأيتموه خرفكم قط؟ أي أتى بانحرافات من القول؟ قالوا : لا ، قال : ترعمون أنه كاهن فهل سمعتموه يخبر بما تخبر به الكهنة؟ قالوا لا ، فعند ذلك قالت له قريش ، فاهو يا أبا المغيرة؟ فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر .

وقد سمع أعرابي رجلا يقرأ (فاصدع بما تؤمر) فسجد ، فقيل له في ذلك؟ فقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام . وسمع آخر رجلا يقرأ (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) فقال : أشهد أن مخلوقا لن يقدر على مثل هذا الكلام :

أي ولما سمع الأصمعي من جارية خماسية أو سداسية فصاحة فعجب منها ، فقالت له : أو تعدّ هذا فصاحة بعد قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية فجمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟

ولما أراد بعضهم معارضة بعض سوره وقد أوتى من الفصاحة والبلاغة الحظ الأوفى ، فسمع صبيا في المكتب يقرأ (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر) رجع عن المعارضة ومحا ما كتبه . وقال والله ما هذا من كلام البشر . قال بعضهم : ولم يتحدّ صلى الله عليه وسلم بشيء من معجزاته إلا بالقرآن . قال بعضهم : كل جملة من القرآن معجزة ، وحفظ من التبديل والتحريف على ممر الدهور ، وقارته لا يماه ، وسامعه لا يمجّه ، بل لا يزال مع تكريره وترديده غضا طريا ، تزايد حلاوته ، وتعاظم محبته ، وغيره من الكلام ولو بلغ الغاية يمل من الترداد ويعادى ، إذا أعيد يؤنس به في الخلوات

ويستراح بتلاوته من شدائد الأزمات ، واشتمل على جميع ما شتمت عليه جميع الكتب الإلهية وزيادة .

وقد قال بعض بطارقة الروم لما أسلم لعمر رضى الله تعالى عنه : إن آية (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه) جمعت جميع ما أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام من أحوال الدنيا والآخرة .

قال الحلبي في منهاجه : ومن عظم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوة وحجة ، ولم يكن هذا لنبي قط ، إنما يكون لكل منهم دعوة ، ثم يكون له حجة غيرها ، وقد جمعهما الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في القرآن ، فهو دعوة وحجة ، دعوة بمعانيه ، حجة بألفاظه .

وكفى الدعوة شرفاً أن تكون حجتها معها ، وكفى حجتها شرفاً أن لا تنفصل دعوتها عنها . وجمع كل شيء أى خصوصاً الإخبار بالمغيبات ، وتوجد على طبق ما أخبر به . والإخبار عن القرون السالفة ، كقصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام ، وقصة أهل الكهف ، وقصة ذى القرنين . والأمم الماضية كقصص الأنبياء مع أممهم ، وتيسره للحفظ ؛ ولا تنقض عجائبه ، ولا تشع منه العلماء ، ولا تزيع به الأهواء .

ومنها شق صدره الشريف صلى الله عليه وسلم ، أى والتأمه من غير حصول أدنى ضرر ولا مشقة مع تكرار ذلك أربعاً أو خمساً كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس : أى لما أخبر قريشاً بأنه أسرى به إلى بيت المقدس كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بموت النجاشي يوم موته ، وصلاته عليه مع أصحابه ؛ فقال المنافقون : انظروا هذا يصلى على عليج نصراني : أى لم يره قط ، فأنزل الله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم) الآية .

ومنها انشقاق القمر كما تقدم .

ومنها أن الملائكة من قريش لما تعاقدوا على قتله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ، وجاءوا إلى منزله صلى الله عليه وسلم ، وقعدوا إلى بابه ، فخرج عليهم وقد خفضوا أبصارهم ، وسقطت ذقونهم في صدورهم ، وأقبل صلى الله عليه وسلم حتى قام على رؤسهم فقبض قبضة من تراب ، والقبضة بضم القاف : الشيء المقبوض ، وبفتحها : المرة الواحدة ،

وقال « شأهت الوجوه » أى قبحت ، وألقاها على رؤوسهم ، فكل من أصابه شىء من ذلك قتل يوم بدر كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم هزم القوم يوم حنين بقبضة من تراب رمى بها فى وجوههم كما تقدم له فى بدر مثل ذلك .

ومنها نسج العنكبوت عليه صلى الله عليه وسلم فى الغار ، أى وعلى بعض أتباعه كما تقدم .

ومنها ما وقع لسراقة رضى الله تعالى عنه ، من غوص قوائم فرسه فى الأرض الجلد كما تقدم فى خبر الهجرة .

ومنها در الشاة التى لم ينز الفحل عليها كما تقدم فى قصة شاة أم معبد . وفى قصة أخرى عن أبى العالفة قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبياته التسعة يطلب طعاما وعنده ناس من أصحابه فلم يجد ، فنظر إلى عناق فى الدار ما نتجت قط . فسح مكان ضرعها ، فدفقت بضرع مللى بين رجلها ، فدعا بقعب فحلب فيه ، فبعث إلى أبياته قعبا ، ثم قعبا ، ثم حلب فشرب وشربوا » .

ومنها دعوته صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله تعالى عنه أن يعز الله به الإسلام فكان كذلك كما تقدم .

ومنها دعوته صلى الله عليه وسلم لعلى أن يذهب عنه الحر والبرد فلم يشك واحدا منهما وكان كرم الله وجهه يلبس ثياب الشتاء فى الصيف وثياب الصيف فى الشتاء ولا يتأثر كما تقدم .

أى ومن ذلك ما حدث به بلال رضى الله تعالى عنه قال : « أذنت فى غداة باردة فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فلم ير فى المسجد أحدا . فقال : أين الناس ؟ فقلت : حسبهم البرد . فقال : اللهم أذهب عنهم البرد ، قال : فلقد رأيتهم يترواحون فى الصلاة » .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه وقد أصابه مرض واشتد به وسمعه يقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى ، وإن كان متأخرا فاشفنى ، وإن كان بلاء فصبرنى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف قلت ؟ فأعاد ذلك عليه ، فسح صلى الله عليه وسلم بيده المباركة الشريفة ، ثم قال : اللهم اشفه ، فما عاد ذلك المرض إليه .

أى ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لحذيفة رضى الله تعالى عنه فى الخندق ليلة انهزام الأحزاب ، بأن الله يذهب عنه البرد ، فكان كأنه يمشى فى حمام كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى عيني على كرم الله وجهه وهو أرمد ، فعوفى من ساعته كما تقدم فى خير .

أى ومنها أنه صلى الله عليه وسلم بصق فى نحر كلثوم بن الحصين وقد رمى فيه بسهم يوم أحد فبرأ كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم تفل على أثر سهم فى وجه أبى قتادة فى غزاة ذى قرد ، فما ضرب عليه ولا قاح كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم تفل على شجرة عبد الله بن أنيس فلم تؤله كما تقدم .
ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه يوم خيبر فبرئت كما تقدم .

أى ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على رجل ورأس زيد بن معاذ رضى الله تعالى عنه حين أصابهما السيف عند قتل كعب بن الأشرف فبرأ كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على ساق بن على الحكم يوم الخندق وقد انكسرت ، فبرأ مكانه ولم ينزل عن فرسه كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على يد معوذ بن عفراء وقد قطعها عكرمة بن أبى جهل يوم بدر ، وجاء يحملها فألصقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتصقت كما تقدم .

ومنها أن محمد بن حاطب يحدث عن أمه أنها ولدته بأرض الحبشة وأنها خرجت به ، قالت : حتى إذا كنت من المدينة على ليلة أو ليلتين طبخت لك طعاما ففنى الحطب ، فذهبت أطلب ، فتناولت القدر فانكفأت على ذراعك ، فقدمت المدينة ، فأثبت بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب ، وهو أول من سمى بك : أى بعد الإسلام قالت : فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فيك ومسح على ذراعك ودعا لك ثم تفل على يدك ، ثم قال : « أذهب الباس رب الناس اشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما » قالت : فماقت من عنده صلى الله عليه وسلم حتى برئت يدك .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على عاتق خبيب وقد أصيبت يوم بدر بضربة على عاتقه حتى مال شقه فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه ، فالتصق كما تقدم .
ومنها رد عين قتادة بعد أن سألت على خده ، فكانت أحسن عينيه كما تقدم .
ومنها أن ضريرا شكوا إليه صلى الله عليه وسلم ذهاب بصره وأنه لا قائد له ، فقال له صلى الله عليه وسلم : توضأ وصل ركعتين ولفنه دعاء فدعا به فأبصر لوقته .
أى ومنها أن رجلا ابيضت عيناه ، فكان لا يبصر بهما شيئا ، فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فأبصر . قال بعضهم : رأيت وهو ابن ثمانين يدخل الخيط في الإبرة .

ومنها أن عتبة بن فرقد السلمى كان يشم منه رائحة الطيب ولا يمس طيبا ، لكونه صلى الله عليه وسلم نفث في يده الشريفة ومر بها صلى الله عليه وسلم على جسده . قال بعض نساء عتبة : كنا أربع نسوة مامنا امرأة إلا وهى تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبها وما يمس عتبة الطيب ، وإذا خرج إلى الناس ، قالوا : ماشمنا ريحا أطيب من ريح عتبة ، فقلن له يوما : إنا لنجهد في الطيب ولأنت أطيب ريحنا فم ذلك؟ فقال : أخذنى الشرا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكوت إليه ذلك ، فأمرنى أن أتجرد فتجردت وقعدت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وألقيت ثوبى على فرجى ، فنفث صلى الله عليه وسلم في يده الشريفة وذلك بها الأخرى ثم مسح ظهرى وبطنى بيديه فعبق هذا الطيب من يديه يومئذ ، وإلى ذلك أشار صاحب الأصل بقوله رحمه الله ورحمنا به :

وعتبة لما مسه راح عاطرا يذوق الشذا منه بأعطر ما يحوى

ومنها دعوته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بأن الله يعلمه التأويل والفقه في الدين ، فمن ابن عباس رضى الله عنهما « ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، وقال : اللهم علمه الكتاب » ، وفي لفظ « الحكمة » وعنه رضى الله عنه ، قال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم الخلاء فوضعت له وضوءا ، فلما خرج قال : من وضع هذا ؟ فأخبر ، فقال : اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس ، قال : اللهم بارك فيه ، وانشر منه فكان كما دعا » .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لجمل جابر رضى الله عنهما ، فصار سابقا بعد أن كان مسبوقا كما تقدم .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأنس بطول العمر وكثرة المال والولد فكان كما دعا . فقد ذكر أنه عاش فوق المائة ، وأخبر عن نفسه أنه أكثر الأنصار مالا ، ولم يمض حتى رأى مائة ولد من صلبه ، وقد كان دفن مائة وعشرين من أولاده حين قدم الحجاج البصرة ، وولد له بعد ذلك .

أى ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأم أبي هريرة رضى الله عنهما بالإسلام فأسلمت . فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال « كنت أدعو أمى للإسلام وهى مشركة فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى ، فقلت : يا رسول الله قد كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىّ ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فىك ما أكره ، فادع الله أن يهدى أمّ أبى هريرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اهد أمّ أبى هريرة للإسلام ، فخرجت مستبشرا بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جئت قصدت إلى الباب فإذا هو مجاف : أى مردود ، فسمعت أمى حسنّ قدمى ، فقالت : على رسلك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ، فاغتسلت ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكى من الفرح ، فقلت : يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك ، وهدى أمّ أبى هريرة ، فحمد الله وقال خيرا .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم فى تمر حائط جابر رضى الله عنه بالبركة ، فأوفى منه ما عليه وهو ثلاثون وسقا بسبب دين استدانه والده من يهودى ، وفضل بعد ذلك ثلاثة عشر وسقا . وفى رواية : سبعة عشر وسقا ، أى مع قلة ما كان فيه من التمر حتى قال جابر رضى الله عنه : كنت أود أن يؤدى الله دين والدى ولا أرجع إلى إخوتى بتمرة واحدة . فإن النخل فى ذلك العام لم يحمل إلا القليل ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم اليهودى فى أن يصبر إلى عام قابل وهو أبى ويقول : يا أبا القاسم لا أنظره ؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف فى النخيل ، ثم قال : يا جابر جذّ ، أى اقطع واقض ، فأخذت فى الجذاذ ووفيته ثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا ، فجثته صلى الله عليه وسلم فأخبرته فضحك ، وقال : أخبر بذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذهبت فأخبرته فقال : لقد علمت حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركنّ فيها .

وئى لفظ آخـر عن جابر : توفى أبى وعليه دين فعرضت على غـرمائه أن يأخذوا النخل بما عليه . فأبوا ولم يروا أن فيه وفاء ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : إذا جذذته ووضعته فى المريد فأعلمنى فجذذته ، فلما وضعته فى المريد آذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء معه أبو بكر وعمر فجلس عليه ودعا بالبركة ، أى وهذا محمل رواية : ودعا صلى الله عليه وسلم فى تمر جابر بحذف حائظ .

وقد يقال : يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم طاف فى النخل أو لا ودعا ، ثم لما قطع التمر ووضع فى المريد جاء وجلس عليه ودعا فلا مخالفة ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ادع غـرماءك فأوفهم ، فما تركت أحدا له دين إلا قضيته وفضل مثله ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشـرته ، فقال : أشهد أنى رسول الله .

ومنها استسقاؤه صلى الله عليه وسلم فأمرت السماء أسبوعا ، ثم شكى له من كثرة المطر فاستصحى لهم فانجـاب السحاب كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم دعا على عتبية بالتصخير ابن أبى لهب بأن يسلط عليه كلب فافتـرسه الأسد من بين القوم كما تقدم ، أى والأسد إنما يسمى كلبا لأنه يشبه الكلب فى أنه إذا بال رفع رجله ، ومن ثم قيل : إن كلب أهل الكهف كان أسدا . وحكى أنه كان رجلا يسمى بالكلب لللازمته للحراسة . ويرد ما جاء ليس فى الجنة من الدواب إلا كلب أهل الكهف ، وحمـار العزير ، وناقـة صالح ، وتقدم ذلك مع زيادة . وأما عتبة مكبرا فقد أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه معتب هذا هو المشهور وبعضهم عكس ، فقال : عتبة المكبر هو عقير الأسد ، وعتبية المصغر هو الذى أسلم يوم الفتح .

ومنها شهادة الشجرة له صلى الله عليه وسلم بالرسالة فى خبر الأعرابي الذى دعاه إلى الإسلام ، فقال : هل من شاهد على ما تقول ؟ قال : نعم هذه الشجرة ادعها ، فدعاها فأقبلت فاستشهدها فشهدت أنه كما قال ثلاثا ثم رجعت إلى منبتها .

ومنها أمره صلى الله عليه وسلم للشجرتين اللتين كانتا بشاطىء الوادى أن يجتمعا ليستتر بهما عند قضاء الحاجة ، فاجتمعتا ثم افتـرقتا وذهبتا إلى محلهما كما تقدم فى غزاة خيبر .

ومنها أمره صلى الله عليه وسلم أنسا أن يتلطف إلى نخلاته يقول هـن ، أمركن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجتمعن ليـقضى حاجته بينكن ، فلما قضى حاجته أمره أن يأمرهن بالعود إلى أماكنهن فعـدن كما تقدم .

ومنها مجيء الشجرة إليه صلى الله عليه وسلم لنتلله وتسلم عليه . فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم نام : أى فى الشمس فجاءت شجرة تشق الأرض حتى قامت عليه ، فلما استيقظ ذكر له ذلك . فقال : هى شجرة استأذنت ربها عز وجل فى أن تسلم على فأذن لها .

ومنها حين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم كما تقدم . ومنها تسبيح الحصا فى كفه صلى الله عليه وسلم كما تقدم .

أى ومنها تأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه صلى الله عليه وسلم آمين آمين آمين كما تقدم .

ومنها تسبيح الطعام بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم . ومنها إعلام الشاة المسمومة له صلى الله عليه وسلم بأنها مسومة كما تقدم . ومنها شكوى البعير له صلى الله عليه وسلم قلة العلف وكثرة العمل كما تقدم .

أى ومنها شكوى بعض الطيور له صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ بيضه أو فراخه . فقد جاء « أن حمرة جاءت فوق رأسه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أياكم فجع هذه ؟ فقال رجل من القوم : أنا أخذت بيضها ، فقال : رده رده رحمة لها » . وفى لفظ : « من فجع هذه بفرخيها ؟ فقلنا : نحن ، فقال صلى الله عليه وسلم : ردوها إلى موضعهما » ولا مانع من وجود البيض مع الفراخ .

ومنها سجود البعير له صلى الله عليه وسلم الذى استصعب على أهله وصار كالكلب الكلب لا يقدر أحد أن يقرب إليه كما تقدم .

ومنها سجود الغنم له صلى الله عليه وسلم فى بعض حوائط الأنصار كما تقدم .

ومنها تكليم الجمل له صلى الله عليه وسلم كما تقدم .

ومنها تكليم الحمار له صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وهو اليعفور كما تقدم .

ومنها شهادة الجمل عنده صلى الله عليه وسلم أنه لصاحبه الأعرابي دون من ادعاه .

ففى المعجم الكبير للطبرانى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه ، قال « كنا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم فبصرنا بأعرابي أخذ بخطام بعيره حتى وقف على النبي صلى الله عليه

وسلم ونحن حوله ، فقال : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه النبي

صلى الله عليه وسلم السلام . وجاء رجل آخر كأنه حرسى ، فقال الحرسى : يا رسول الله

هذا الأعرابي سرق سرب البعير ، فرغا البعير ساعة وحن فأنصت له رسول الله

صلى الله عليه وسلم ساعة فسمع رغاءه وحنينه ، فلما هدا البعير أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال للرجل : انصرف عنه فإن البعير شهد عليك أنك كاذب فانصرف ، وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على الأعرابي ؟ فقال : أى شيء ، قلت حين جئت لى ، قال : قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله اللهم صل على محمد حتى لا تبقى صلاة ، وبأرك على محمد حتى لا تبقى بركة ، اللهم سلم على محمد حتى لا يبقى سلام ، اللهم وارحم محمدا حتى لا يبقى رحمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل أبداها لى والبعير ينطق بعذرك وإن الملائكة قد سدوا الأفق .

أى ومنها سؤال الطيبة له صلى الله عليه وسلم ، أن يخلصها لترضع ولدها وتعود ، فخلصها ، وعادت وتلطفت بالشهادتين . فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على طيبة مربوطة إلى خباء ، فقالت : يا رسول الله خلصنى حتى أذهب فأرضع خشنى ثم أرجع فتر بطنى ، فقال لها : صيد قوم وربيطة قوم ، ثم استحلفها أن ترجع ، فحلفت له ، فحلها فكثت قليلا ثم جاءت وقد نفضت ضرعها ، فربطها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى خباء أصحابها فاستوهبها منهم فوهبوا له فحلها . »
وعن زيد بن أرقم نحو هذا ، وزاد فأنا والله رأيتها لتسبح فى البرية وتقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وذكر بعضهم أن حديث الغزاة موضوع :

أى ومنها شهادة الذئب له صلى الله عليه وسلم بالرسالة كما تقدم .
ومنها شهادة الضب له صلى الله عليه وسلم بالرسالة كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم عن مصارع المشركين بيدى ، فلم يعد أحد منهم من مصرعه كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن طائفة من أمته يغزون البحر ، وأن أم حرام بالراء المهملة بنت ملحان منهم « فكان كذلك كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم لعثمان بن عفان رضى الله عنه بأنه تصيبه بلوى شديدة فأصابته وقتل فيها .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار « إنكم ستلقون بعدى أثره ، فاصبروا حتى تلقوني » والأثره : بضم الهمزة وسكون التاء المثناة : أى يستأسر عليكم غيركم بأمور

الدنيا، فكان ما وقع في زمن معاوية في وقعة الجمل وصفين ، وفي زمن ولده يزيد في وقعة الحرة كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه لا يبقى أحدهم أصحابه بعد المائة : أى من الهجرة .
والذى ينبغى أن تكون المائة من حين وفاته صلى الله عليه وسلم ، لأن أبا الطفيل رضى الله عنه آخر من مات من الصحابة فكان موته بعد المائة من الوفاة .

وعن أبي الطفيل رضى الله عنه قال « وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسى ، وقال : يعيش هذا الغلام قرنا فعاش مائة سنة » .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات وهو باب واسع جدا .

فمن ذلك أنه جرى إليه صلى الله عليه وسلم برجل سرق ، فقال : اقتلوه ، فقيل له إنه سرق . فقال : اقطعوه ، ثم أتى به بعد إلى أبي بكر رضى الله عنه وقد سرق فقطع ، ثم ثالثة ورابعة إلى أن قطعت قوائمه ، ثم جرى به إلى أبي بكر وقد سرق ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : لا أجد لك شيئا إلا ما قضى به فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أمر بقتلك ، فإنه كان أعلم بذلك ، ثم أمر بقتله .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لقيس بن خرخشة العبسى رضى الله عنه وقد قال له « يا رسول الله أبايعك على ما جاء من الله ، وعلى أن أقول الحق : يا قيس عسى أن مرّ بك الدهر أن يليك ولاية لا تستطيع أن تقول معهم الحق ، فقال قيس : لا والله لا أبايعك على شيء إلا وفيت به ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذن لا يضررك شيء »
وكان قيس رضى الله عنه يعيب زيادا وابنه عبيدالله بن زياد ومن بعده ، فبلغ ذلك عبيدالله ابن زياد ، فأرسل إليه فقال له : أنت الذى تفتري على الله وعلى رسوله ؟ فقال : لا والله ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفتري على الله ورسوله ؟ قال : ومن هو ؟ قال : من ترك العمل بكتاب الله وصنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : ومن ذلك ؟ قال : أنت وأبوك ومن أمركما . قال : وأنت الذى تزعم أنك لا يضررك بشر ؟ قال نعم . قال : لتعلمن اليوم أنك كاذب ، اثتوني بصاحب العذاب ، فما ليس عند ذلك فمات .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لزوجاته « أيتكن تنبجها كلاب الحوآب ؟ وأيتكن صاحبة الجمل الأدب » بالبدال المهمله والفك لغة فى الأدب بالإدغام : وهو كثير الشعر « يقتل حولها قتلى كثير وتنجو بعدما كادت » فكانت تلك عائشة رضى الله عنها ، فإنه

لما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه كانت عائشة بمكة ، لأنها خرجت إلى مكة وهو محاصر وكلمها مروان بن الحكم في عدم الخروج ، وقال لها : لا تخرجي يا أماه ، فجاء إليها طلحة والزبير رضى الله عنهما بعد أن بايعا عليا على كره ، واستأذنا عليا كرم الله وجهه في العمرة فأذن لها فقدمها مكة ، وخرجت بنو أمية من المدينة ولحقت بمكة قبل المبايعه لعلي ، فخرج مروان وغيره من أهل المدينة ، وجاء إلى عائشة رضى الله عنها يعلى بن أمية رضى الله عنه وكان عاملا لعثمان باليمن . فلما بلغه حصار عثمان قدم لنصرته فسقط من على بعيره في أثناء الطريق فمكسر فخذنه ، وبلغه قتل عثمان ، فلا زالوا بعائشة حتى وافقت على الخروج إلى العراق في طلب دم عثمان رضى الله عنه ، ودفع لها ذلك الجمل يعلى بن أمية اشتراه بمائتي دينار ، وأعان الزبير بأربعمائة ألف دينار ، وصار يقول : من خرج في طلب دم عثمان فعلى جهازه ، فحمل سبعين رجلا من قريش ، وطلبت عائشة رضى الله عنها عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن يكون معها . فقال : معاذ الله أن أدخل في الفتنة ، ويقال إن طلحة والزبير دعوا عبد الله بن عمر رضى الله عنهم إلى الخروج معهم ، فقال لهم : أما تخافون الله أيها القوم ، وتدعوا هذا الأباطيل عنكم؟ وكيف أضرب في وجه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالسيف وقد عرفت فضله وسابقته ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنكما بايعتماه وأسألتماه القيام بهذا الأمر ثم نكثتما بعد أن جعل الله عليكما شهيدا ؛ وإنه مايدل ولا غير . والقاتل لعثمان رضى الله تعالى عنه أخو زعيمكم ورئيسكم يعنى عائشة وأخوها محمد بن أبي بكر رضى الله عنهم ، فإنه أخذ باحيتيه فضربها حتى تقلقت أضراسه وضربه بالمشقص ، فلما كانت عائشة رضى الله عنها في أثناء الطريق سمعت كلابا تنبح ، فسألت عن ذلك الخل ، فقيل لها : هذا الحوآب ؛ فأرادت الرجوع لما تذكرت ماقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . أى فإنها صرخت وأناخت بعيرها ، وقالت : والله أناصاحبة الحوآب ، ردوني ردوني ردوني . فعند ذلك يقال إن طلحة والزبير أحضرا خمسين رجلا شهدوا أن هذا ليس بماء الحوآب ، وأن المخبرها كذاب .

قال الشعبي : وهى أول شهادة زوربت في الإسلام ، وقال لها الزبير رضى الله عنه : ولعل الله أن يصلح بك بين الناس ؛ فلما بلغ عليا كرم الله وجهه توجه عائشة ومن ذكر معها إلى العراق توجه إلى العراق بعد أن كان أراد الذهاب إلى الشام وقام في الناس ، وقال : ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالثوا على سحق إمارتي ، وإنى خارج إليهم ، ثم

جاءه الخبر أن ستين ألف شيخ تبكى تحت قميص عثمان ، وهو منصوب على منبر دمشق ومعلق فيه أصابع زوجة عثمان ، فقال : أمتى يطلبون دم عثمان ؟ .

ولما أراد الخروج جاءه عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تخرج منها : أى المدينة ، فوالله لئن خرجت منها لا يرجع إليهما سلطان المساهين فسبوه ، وقالوا له : يا ابن اليهودية مالك ولهذا الأمر ؟ فقال لهم على كرم الله وجهه : دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم إن طلحة والزبير وأم المؤمنين وصلوا إلى البصرة ووقع بينهم وبين أهل البصرة مقتلة كبيرة ، بعد أن افرقوا فرقتين إحداهما تقول صدقت وبرت ، يعنى عائشة وجاءت بالمعروف . وقالت الأخرى كذبت . ثم انحازت الأخرى إلى عسكر أم المؤمنين وقهروا أهل البصرة ، ونادى منادى الزبير وطلحة : ألا من كان عنده أحد ممن غزا المدينة فليأت به ، فجىء بهم كما يجاء بالكلاب وكانوا ستمائة فقتلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير . وكتب طلحة والزبير إلى أهل الشام : إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله ، فوافقنا خيار أهل البصرة وخالفنا شرارهم ، ولم يفلت من قتلة أمير المؤمنين عثمان من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير ، والله مقيده إن شاء الله . وكتبوا لأهل الكوفة بمثله وكتبوا إلى أهل اليمامة بمثل ذلك ، وكتبوا إلى أهل المدينة بمثل ذلك .

ثم سار على كرم الله وجهه إلى البصرة ، ثم أرسل إلى أهل الكوفة يستنفرهم إليه فنفروا إليه بعد أمور يطول ذكرها ، وكانوا سبعة آلاف . والتقى الجيشان جيش على كرم الله وجهه وجيش عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، بعد أن كتب لطلحة والزبير : أما بعد ، فقد علمتما أنى لم أرد البيعة حتى أكرهت عليها ، وأنتا ممن رضى ببيعتى وألزمنى إياها ، فإن كنتما بايعتما طائعين فتوبا إلى الله وارجعما عما أنتما عليه فانك يا طلحة شيخ المهاجرين ، وأنت يا زبير فارس قريش ، لودفعتما هذا الأمر قبل أن تدخلوا فيه لكان أوسع لكما من خروجهما منه والسلام .

وكتب لعائشة رضى الله عنها : أما بعد ، فإنك قد خرجت من بيتك تزعين أنك تريدن الإصلاح بين المسلمين ، وطلبت بزعمك دم عثمان وأنت بالأمس تؤلين عليه فتقولين فى ملامن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلوا نعتلا فقد كفر ، قتله الله ؛ واليوم تطلين بثأره ، فاتقى الله وارجعى إلى بيتك وأسبلى عليك سترك قبل أن يفضحك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فلما قرعوا الكتائب عرفوا أنه على الحق .

وعند ذلك خرج طلحة والزبير رضى الله عنهما على فرسين وخرج إليهما على كرم الله وجهه ، ودنا كل واحد من الآخر. فقال لها على : لعمرى لقد أعددتما خيلا ورجالا وسلاحا ، فاتقيا الله ولا تكونا (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ألم تكونا : أخوتى فى الله تحرمان دى وأحرم دمكما ؟ فقال له طلحة رضى الله عنه : ألبت الناس على عثمان ، فقال له على كرم الله وجهه : أنتم أخذتماه حتى قتل ، فسلط الله اليوم على أشرنا على عثمان ما يكره ، ثم توافقوا على الصلح ، وقتل من كان له دخل فى قتل عثمان رضى الله عنه .

وبات الفريقان على ذلك . وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوا يتشاورون . ثم اتفقوا على إنشأ الحرب ؛ فلما كان وقت الغلس ثاروا ووضعوا السلاح ، فثار الناس ، فخرج طلحة والزبير فى وجوه الناس. وقالوا : ما هذا ؟ قالوا : طرقتنا جيش على فقالوا : علمنا أن عليا غير سفيه حتى يسفك الدماء ، ويستحل الحرمه : فقام على كرم الله وجهه فى وجوه الناس . وقال : ما هذا ، قالوا : طرقتنا جيش عائشه . فقال : لقد علمت أن طلحة والزبير غير سفهين حتى يستفكا الدماء ويستحلا الحرمه ، ونشبت الحرب فألبسوا هودج عائشه رضى الله عنها الدروع ، ووقفت على الجمل ، وصار كل من أخذ زمامه قتل ، وقتل طلحة رضى الله عنه جاءه سهم غرب يقال أرسله له مروان بن الحكم وهو كان فى جيش أم المؤمنين . وفر الزبير رضى الله عنه لما قال له على كرم الله وجهه : يا زبير أتذكر لما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك تقاتلتنى وأنت ظالم لى ؟ فقال : والله لو ذكرت ذلك ما قاتلتك ولا سرت سيزى هذا ، ولكن رجوعى عين العار فقال له على كرم الله وجهه : ترجع بالعار ولا ترجع بالنار ، فترك وذهب ، وصار الهودج مثل القنفذ من كثرة النشاب . فعند ذلك عقروا الجمل ، ووقع الهودج على الأرض ، وجعلت تقول عائشه رضى الله عنها : يا بنى اتبعه اتبعه .

وعند ذلك قال على كرم الله وجهه لمحمد بن أبى بكر رضى الله عنهما ، انظر أختك هل أصابها شىء ؟ فلما جاءها وأدخل يده ، قالت : من أنت ؟ قال : ابن الخثعمية ، قالت : محمد ؟ قال نعم . قالت : بأبى أنت وأمى ، الحمد لله الذى عافك . وفى رواية قال لها : أخوك محمد البار ، فقالت : بل مذمم العاق فضرب عليها فسطاطا ، فلما كان من آخر الليل خرج بها ، وأدخلها البصرة وأنزلها فى دار صفية بنت الحارث أم طلحة الطلحات ، وبكت

عائشة رضى الله عنها بكاء كثيرا وقالت : وددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . وقد قال على كرم الله وجهه مثل ذلك لما رأى من كثرة القتلى ، فقد قيل : إن القتلى بلغت عشرة آلاف ، وقيل ثلاثة عشر ألفا .

ثم إن عليا كرم الله وجهه صلى على القتلى من الفريقين ، ثم دخل البصرة على بغلته متوجها لعائشة رضى الله عنها ، فلما دخل عليها سلم عليها وقعد عندها ثم جهزها بكل شيء ينبغى لها ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأمرهن بلبس العمام وتقليد السيوف ، ثم قال لمن : لا تعلمن بأنكن نسوة وتلثن مثل الرجال وكن حولها من بعيد ولا تقربنها ، وقال لأخيها محمد : تجهز معها . وفي رواية جهز معها أخاها عبد الرحمن فى جماعة من شيوخ الصحابة . فلما كان يوم خروجها جاء إليها على كرم الله وجهه ووقف الناس وخرجت فودعها وودعتهم ، وقالت : يا بنى والله ما كان بينى وبين على فى القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحماتها ، وإنه على معتبى عليه عندى لمن الأخيار ، فقال على : أيها الناس صدقت والله وبرت ، ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، وذهب معها نحو سبعة أميال : ثم ذهبت إلى مكة حتى حججت ، ثم رجعت إلى المدينة وعلمت عند وصولها إلى مكة أن هؤلاء الرجال حولانساء فانهن كشفن عن وجوههن وعرفنها الحال فشكرت وقالت : والله لا يزداد ابن أبى طالب إلا كرما .

وقيل إن كعب بن سعد أتى عائشة رضى الله تعالى عنها وقال : لعل الله أن يصلح بك ، والأولى الصلح والسكون والنظر فى قتلة عثمان بعد ذلك ، فوافقت وركبت هودجها وقد ألبسوه الأدرع ثم بعثوا جملها وذهب إلى على كرم الله وجهه وقال له مثل ذلك ، فقال له : قد أحسنت ، وأشرف القوم على الصلح ، فخافت قتلة عثمان رضى الله عنه فأشار عليهم ابن السوداء الذى هو السبأى الذى هو أصل الفتنة أن يفتروا فرقتين تكون كل فرقة فى عسكر من العسكرين ، فإذا جاء وقت السحر ضربت كل فرقة منهما إلى العسكر الذى فيه الفرقة الأخرى فنادت كل فرقة فى العسكر الذى هى فيه غررنا ، ففعلوا ذلك ، فنشبت الحرب وحصل ماتقدم .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى الحسن رضى الله عنه « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فصالح معاوية رضى الله عنهما ، وحقق دماء الفئتين من المسلمين . أى فإن الحسن رضى الله عنه لما بويج له بالخلافة يوم مات أبوه

كان في الخلافة سبعة أشهر ، وقيل ستة أشهر . ولما سار إلى قتال معاوية كان معه أكثر من أربعين ألفا ، فلما سار عدا عليه شخص وضربه بخنجر في فخذه ليقنتله ، فقال الحسن : قتلتم أبي بالأمس ، ووثبتم على اليوم ، تريدون قتلى ، زهدا في العادلين ، ورغبة في القاسطين ، لتعلمن نيا بعد حين .

أى ويذكر أنه بينما هو يصلى إذ وثب عليه شخص فطعنه بخنجر وهو ساجد ، ثم خطب الناس ، فقال : يا أهل العراق اتقوا الله فينا فإننا أمراؤكم ونحن أهل البيت الذين قال الله فيهم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فإزال يقولها حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يبكي .

ثم كتب إلى معاوية رضى الله عنهما بتسليم الأمر : أى بعد أن أرسل إليه معاوية رضى الله عنه رجلين يكلمانه في الإصلاح ، فإن عمرو بن العاص لما رأى الكتاب مع الحسن أمثال الجبال ، قال لمعاوية : لى لأرى هذه الكتابات لانولى حتى تقتل أقرانها ، فخلع الحسن رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية ، تورعا وزهدا ، وقطعا للشر ، وإطفاء لثائرة الفتنة ، وتصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله المتقدم ، وغص منه شيعة حتى قال له بعضهم : يا عار المؤمنين سوّدت وجوه المؤمنين ، فقال له : لانتقل ذلك كرهت أن أقتلكم في طلب الملك ، وعند ذلك : أى لما انبرم الصلح طلب منه معاوية رضى الله عنهما أن يتكلم بجمع من الناس ويعلمهم أنه سلم الأمر إلى معاوية ، فأجابه إلى ذلك وصعد المنبر وحمد الله إلى أن قال في خطبته : أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، إلا إن أكيس الكيس التقي ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه إما أن يكون أحق به منى أو يكون حتى ، فان كان حتى فقد تركته لله ولصلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحقن دماهم ، ثم التفت رضى الله عنه إلى معاوية وقال (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ، أى ثم انتقل من الكوفة إلى المدينة وأقام بها ، وكان من جملة ما اشترطه على معاوية رضى الله عنه أن يكون الأمر شورى بين المسلمين بعده ، ولا يعهد إلى أحد من بعده عهدا .

وقيل على أن يكون الأمر للحسن بعده ، فلما سم الحسن اتهم بذلك زوجته بنت الأشعث بن قيس ، وأن ذلك بدسيسة من يزيد ولد معاوية ، ووعدا أن يتزوجها ، وبذل

لها مائة ألف درهم حرصا على أن يكون الأمر له ، فإن معاوية عرض بذلك في حياة الحسن ولم يكشفه إلا بعد موته .

ولما جاء الخبر لمعاوية بموته رضى الله عنه قال : يا عجباً من الحسن بن علي شرب شربة من غسل بماء رومة ، يعنى بئر رومة ففضى نحوه . وأتى ابن عباس رضى الله عنهما معاوية وهو لا يعلم الخبر ، فقال له معاوية : هل عندك خبر المدينة ؟ قال لا ، فقال معاوية : يا ابن عباس احتسب الحسن ، لا يحزنك الله ولا يسؤك ، فأظهر عدم التشوش وقال : أماماً أبقاك الله لى يا أمير المؤمنين فلا يحزننى الله ولا يسوءنى ، فأعطاه على تلك الكرامة ألف ألف .

وذكر بعضهم قال : كنا عند الحسن رضى الله عنه ومعنا الحسين رضى الله عنه ، فقال الحسن : لقد سقيت السم مرارا وما سقيته مثل هذه المرة ، ولقد لفظت طائفة من كبدى ، فقال له الحسين : أى أخى ومن سقاك ؟ قال : وما تريد ؟ أتريد أن تقتله ؟ قال نعم : قال لئن كان الذى أظن فالله أشد نقمة ، ولئن كان غيره ما أحب أن يقتل بى بريئاً .

وكان الحسن رضى الله عنه رجلاً حليماً لم يسمع منه كلمة فحش ، وكان مروان وهو وال على المدينة يسبه ويسب علياً كرم الله وجهه كل جمعة على المنبر ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : لا أبحو عنه شيئاً بأن أسبه ، ولكن موعدى وموعده الله ، فإن كان صادقاً جازاه الله بصدقه ، وإن كان كاذباً فالله أشد نقمة .

وأغلظ عليه رضى الله تعالى عنه مروان يوماً وهو سباكت ، ثم امتخط مروان يمينه ، فقال له الحسن رضى الله تعالى عنه : أف لك ، أما علمت أن اليمين لها شرف ، فبخجل مروان . وبكى مروان فى جنازته ، فقال له الحسين : أتسبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟ فقال : لئن كنت أفعل ذلك لى أحلم من هذا وأشار لى الجبل .

وهن ثم لما وقع بين الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما بعض الشحناء فتهاجرا ، ثم أقبل الحسن على الحسين فأكب على رأسه يقبله ، فقال له الحسين : إن الذى منعنى من ابتدائك بهذا أنك أحق بالفضل منى ، وكرهت أن أنازلك ما أنت أحق به منى ، وقد تقدم ذلك .

ومن شعر الحسن رضى الله تعالى عنه :

من ظن أن الناس يغنونه فليس بالرحمن بالوائق

ومن ذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بقتل الأسود العنسي الكذاب : أى الذى ادعى النبوة ليلة قتله بصنعاء وبمن قتله كما تقدم .

أى ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن رجلا من أمته يتكلم بعد الموت ، فكان كذلك وهو زيد بن حارثة . وتكلم غيره أيضا ؛ فعن ابن المسيب أن رجلا من الأنصار توفى ، فلما كفن أتاه القوم يحملونه تكلم ، فقال : محمد رسول الله ، فلعن المراد بالرجل جنس الرجل .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن أمته تتخذ الخصيان ، وأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يستوصوا بهم خيرا ، فقال « سيكون قوم ينالهم الخصاء ، فاستوصوا بهم خيرا » وهو يقتضى أن الخصاء لم يكن فى غير هذه الأمة .

ومن ذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بذهاب الأمانة والعلم والحشوع وعلم الفرائض أى قرب قيام الساعة .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس « تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، فقتل رضى الله تعالى عنه يوم اليمامة فى قتال مسيلمة الكذاب لعنه الله .

وإخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات باب واسع . منه الإخبار بالحوادث الكائنة بعده إلى آخر الزمان . والإخبار عن أحوال يوم القيامة من القضاء والحشر والحساب ، والإخبار عن الجنة والنار .

فمن حذيفة رضى الله تعالى عنه « لقد حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يكون حتى تقوم الساعة » وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح يوما وصعد المنبر فخطب حتى حضرت الظهر فنزل فصلى الظهر ، ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى العصر ، ثم صعد المنبر فخطب حتى غربت الشمس فأخبر بما كان وبما هو كائن .

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن فى جماعة من المهاجرين والأنصار « يامعاذ إنك عسى أن لاتلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى غدا وقبرى » وكان كذلك ، توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن ، ولم يقدم إلا فى خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ستفتح عليكم مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم رحما وصبورا ، والمراد بالرحم ، أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام جده

صلى الله عليه وسلم فإنها كانت قبطية ، والمراد بالصهر أم ولده إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنها كانت قبطية كما علمت .

ومنها إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم غير ماتقدم : فن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لثعلبة بن حاطب الأنصاري أى غير البدرى ، لأن ذاك قتل بأحد ، وهذا تأخر إلى زمن عثمان رضى الله تعالى عنه كما سيأتى خلافا لمن وهم فى ذلك ، لأن من شهد بدرا لا يدخل النار : وكثيرا مايقع الاشتراك فى الاسم واسم الأب كما قال بعض الصحابة ، وهو طلحة ابن عبيد الله : لئن مات محمد صلى الله عليه وسلم لأتزوجن عائشة من بعده ، فأنزل الله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) الآية ، ظن بعضهم أن المراد بطلحة هذا أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وحاشاه من ذلك ، وهو أجلّ مقاما من أن يصدر منه مثل ذلك .

ولما قال ثعلبة بن حاطب له : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطبيقه ، ثم أتاه مرة أخرى فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة أما ترضى أن تكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذى نفسى بيده ، لو سألت ربى أن يسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت ؛ فقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأؤتين كل ذى حق حقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فانخذ غمفا فصارت تنمى كما تنمى الدود ، وضافت عليه المدينة فتنجى عنها فنزل ودايا من أوديتها ، فكان يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك الجماعة فيما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجماعة فيما سوى الجمعة فإنه كان يشهدهما مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ترك الجمعة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما فعل ثعلبة ؟ فأخبروه بخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا ويح ثعلبة قالها ثلاثا ، فلما نزل قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة وكتب لها فرائض الصدقة وأسنانها وقال لهما مرا بثعلبة ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : انطلقا حتى تفرغا ؛ ثم تعودا إلىّ فانطلقا ثم مرّا عليه ، فقال : أرباني كتابكما أنظر فيه ، فنظر فيه ، فقال : ماهذه إلا أخية الجزية : انطلقا حتى أرى رأينى ، فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رأهما قال قبل أن يكلماه : يا ويح ثعلبة ، فلما

أخبراه بالذي صنع ثعلبة ، أنزل الله تعالى (ومنهم من عاهد الله) الآيات ، وكان عند النبي
النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فأرسل إليه بأن الله قد أنزل فيك قرآنا
وهو كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه الصدقة
فقال : إن الله منعني أن أقبل صدقتك ، فجعل يخون التراب على رأسه ، فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم : هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعني ، وأبى أن يقبل منه شيئا ، فأتى
أبا بكر رضى الله تعالى عنه حين استخلف فسأله قبول صدقته ، فقال له : لم يقبلها رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأنا لا أقبلها . ثم فعل كذلك مع عمر رضى الله تعالى عنه ثم مع
عثمان رضى الله تعالى عنه ، وكل يأبى أن يقبل صدقته ، ومات في خلافة عثمان .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رجل ارتد ولحق بالمشركين : اللهم اجعله
آية . فعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كان رجل من بنى النجار حفظ البقرة وآل
عمران ، وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فارتد ولحق بأهل الكتاب ، وكان يقول
ما يدرى محمد إلا ما كتب له ، فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله آية ، فأماته الله فدفنوه
فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوه وألقوه
فحفروا له وأعمقوا ما استطاعوا ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا مثل الأول ،
فحفروا وأعمقوا ، فلفظته الأرض في المرة الثالثة ، فعلموا أنه ليس من فعل الناس :

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لرجل يأكل بشماله « كل بيمينك ، فقال :
لا أستطيع » أى قال ذلك تكبرا وعنادا « فقال له صلى الله عليه وسلم : لا استطعت ، فلم
يطلق أن يرفعها إلى فيه بعد » .

أى ومن ذلك المرأة التى خطبها صلى الله عليه وسلم فقال له أبوها إن بها برصا ولم يكن
بها برص ، وإنما قال ذلك امتناعا من خطبته صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم :
فلتكن كذلك ، فبرصت .

ومن ذلك « أن فاطمة رضى الله تعالى عنها جاءت إليه صلى الله عليه وسلم فنظر إليها
وقد ذهب الدم من وجهها وغلبت الصفرة على وجهها من شدة الجوع ، فقال لها صلى الله
عليه وسلم : ادن منى يا فاطمة ، فدنت منه ، فرفع يده فوضعها على صدرها وفرج بين
أصابعه ، وقال : اللهم مشبع الجماعة ، ورافع الوضيعة ، ارفع فاطمة بنت محمد ، فذهبت
الصفرة عنها حالا ، ولم تشك بعد ذلك جوعا » .

ومن ذلك ما حدث به وائلة بن الأسقع قال « حضر رمضان ونحن في أهل الصفة فصمنا ، فكنا إذا أظفنا أتى كل رجل منا رجلا من أهل الصفة فأخذه فانطلق به فعشاه فأتت علينا ليلة فلم يأتنا أحد ، فأصبحنا صياما ، ثم أتت علينا الليلة القابلة فلم يأتنا أحد ، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بالذي كان من أمرنا ، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شيء ؟ فابقيت امرأة إلا أرسلت تقسم ما أمسى في بيتها . أياكل ذوكيد ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجتمعوا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك فإنهما بيدك لا يملكهما أحد غيرك ، فلم يكن إلا مستأذن يستأذن ، فإذا بشاة مصلية ورطب ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت بين أيدينا فأكلنا حتى شبعنا . »

ومنها تساقط الأصنام التي حول الكعبة بإشارته صلى الله عليه وسلم إليها ، أو طعنه فيها بقضيب كان في يده قائلا (جاء الحق وزهق الباطل) كما تقدم .
ومنها تكثير الطعام ، وقد وقع له ذلك في مواطن كثيرة .
فمن ذلك إطعام ألف من صاع شعير في حفر الخندق فشبعوا والطعام أكثر مما كان كما تقدم .

ومن ذلك إطعام أهل الخندق من تمر يسير كما تقدم .
ومن ذلك جمع ما فضل من الأزواد ودعاؤه صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وقسمتها في العسكر ، فقامت بهم كما تقدم في الحديدية وتبوك .

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة في تمرات قد صفهن في يده ، وقال ادع لي فيهن بالبركة ، أي فدعا له صلى الله عليه وسلم بذلك ، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : فأخرجت من ذلك التمر كذا وكذا وسقا في سبيل الله ، وكنا نأكل منه ونظم حتى انقطع في زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ، أي بانقطاع المزود الذي أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون به التمر . والمزود : وعاء من جلد يوضع فيه الزاد وقال له : إذا أردت شيئا فأدخل يدك ولا تكفأ فيكفأ عليك ، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وكان لا يفارق حقوى ، فلما قتل عثمان انقطع حقوى فسقط . وفي رواية : كان معلقا خلف رحلى فوقه في زمن عثمان : أي في زمن محاصرته وقتله فذهب . وفي رواية : فلما قتل عثمان انتهب بيتي وانتهب المزود : أي بعد سقوطه من حقوه فلا يخالف ما سبق .

وقد جاء في بعض الروايات عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بتمرات ، فقلت : يا رسول الله ادع لى فيهن بالبركة ، فصفهن ثم دعا فيهن بالبركة وقال : خذهن واجعل فى مزودك ما أردت منهن ، أى إذا أردت أخذ شيء منهن أدخل يدك فيه فخذة ولا تنثره نثرا . أى وفى لفظ « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصاب الناس مجاعة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة هل من شيء ؟ قلت : نعم شيء من تمر فى المزود ، فقال : ائتني به فأنتبه به فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ، ثم قال لى : ادع لى عشرة ، فدعوت عشرة فأكلوا حتى شبعوا ، فما زال يصنع ذلك حتى أطعم الجيش كلهم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : خذ ما جئت به أدخل يدك فاقبض ولا تكفأه ، قال : فقبضت على أكثر ما جئت به ، ثم أكلت منه حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أبى بكر وأطعمت ، وحياة عمر وأطعمت ، وحياة عثمان وأطعمت ، فلما قتل عثمان انتهب منى .

ومن ذلك تكثير الطعام الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصابعه . فقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الصفة لقصعة ثريد ، فأكلوا حتى لم يبق إلا اليسير فى نواحيها ، فجمعه صلى الله عليه وسلم فصار لقمة ، فوضعها على أصابعه وقال لأبى هريرة رضى الله تعالى عنه « أى لأنه كان من أهل الصفة » كل بسم الله . قال أبو هريرة : فولدنى نفسى بيده ما زلت آكل منها حتى شبعت كما تقدم » قيل وكان أصحاب الصفة حينئذ تسعين ، وقيل مائة ونيفا ، وقيل أربعائة .

ومن ذلك تكثير الطعام الذى جاء به أنس رضى الله تعالى عنه للنبي صلى الله عليه وسلم . فعنه رضى الله تعالى عنه قال « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهله ، فصنعت أمى أم سليم حيسا فجعلته فى تور ، فقالت : يا أنس اذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل : بعث بهذا إليك أمى ، وهى تقرؤك السلام ، وتقول لك : إن هذا لك منا قليل ، قال : فذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت له : إن أمى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا منك قليل ، فقال : ضعه ، ثم قال : اذهب فادع لى فلانا وفلانا وفلانا ومن لقيت ، فدعوت من سمى ومن لقيت . قيل لأنس : كم كانوا ؟ قال : زهاء ثلثائة ، وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس هات التور ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليحلق عشرة عشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه ،

فأكلوا حتى شبعا كلهم ، ثم قال : يا أنس ارفع ، فأدرى حين وضعت كان أكثر أو حين رفعت .

ومن ذلك تكثير الطعام الذى صنعه أبو أيوب الأنصارى . فعنه رضى الله تعالى عنه قال « صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضى الله تعالى عنه طعاما قدر ما يكفيهما فأتيتهما به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب فادع لى ثلاثين من أشرف الأنصار ، قال : فشق ذلك علىّ ، ما عندى ما أزيدة ، فقال : اذهب فادع لى ثلاثين من أشرف الأنصار . قال أبو أيوب رضى الله تعالى عنه : فدعوتهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اطعموا ، فأكلوا حتى صدروا ، ثم شهدوا أنه رسول الله قبل أن يخرجوا ، ثم قال : اذهب فادع لى ستين من أشرف الأنصار ، فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا ، ثم شهدوا أنه رسول الله قبل أن يخرجوا ، ثم قال : اذهب فادع لى تسعين من الأنصار ، فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا ، ثم شهدوا أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرجوا ، فأكل من طعامى ذلك مائة وثمانون رجلا كلهم من الأنصار .

قال : ومنها تكثير اللبن فى القدح . فعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه « أنه اشتد به الجوع يوما ، قال : فر علىّ أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فقمتم إليه وسألته عن آية من كتاب الله ليشبعنى ، فرّ ولم يفعل ، ثم مر علىّ عمر ففعلت معه وفعل معى كذلك ، ثم مر صلى الله عليه وسلم ، فتبسّم حين رآنى وعرف ما فى نفسى ، ثم قال : يا أبا هريرة « وفى لفظ « يا أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : الحق ، فتبعته صلى الله عليه وسلم إلى أن دخل بيته وأذن لى ، فدخلت فوجدت لبنا فى قدح ، فقال صلى الله عليه وسلم « أى لأهل بيته « من أين هذا اللبن ؟ فقيل : أهدى لك ، فقال : يا أبا هريرة ، قلت لبيك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ادع لى أهل الصفة ، فسأنى ذلك ، فقلت : ما هذا اللبن فى أهل الصفة ، وما أظن أن ينابى من هذا اللبن شيء « أى لأنهم كانوا أربعمائة على ما تقدم « فدعوتهم ، فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت ، فقال : يا أبا هريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، فأخذت القدح ، فجميت أعطيه الرجل ، فيشرب حتى يروى ، حتى لم يبق إلا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : اقعد فاشرب ، فشربت فقال لى : اشرب فشربت ، فما زال يقول لى اشرب فأشرب ، حتى قلت : لاوالذى بعثك بالحق ماأجد له مسلكا ، فأعطيته القدح ، فحمد الله

عز وجل وسمى وشرب الفضلة « اه أى وقد تقدم ذلك . وفى لفظ « حتى إذا لم يبق إلا أنا وهو فأخذ القدح على يده ونظر لى وتبسم ، فقال : يا أباهريرة ، قلت لبيك يا رسول الله ، قال : بقيت أنا وأنت ، قلت صدقت يا رسول الله ، قال : اقعده فاشرب » الحديث . وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لأبى هريرة : يا أباهر ، قال إنما أنا أبو هريرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : الذكر خير من الأثني » .

ولما وقع القتال بين على ومعاوية رضى الله تعالى عنهما كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يصلى خلف على كرم الله وجهه ، ويحضر طعام معاوية ، وعند القتال يصعد على تل فقيل له فى ذلك فقال : الصلاة خلف على أقوم ، وطعام معاوية أدمم ، والقعود على هذا التل أسلم .

ومن ذلك ما حدثت به بنت خباب بن الأرت رضى الله تعالى عنهما « قالت : خرج خباب فى سرية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهدنا وكان لنا عز ، فكان يجلبها فيملاً حلابها جفنة لنا ، فلما جاء خباب عاد حلابها لما كان عليه أولاً . فقلت لأبى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلبها فتمتلئ جفنتنا ، فلما حلبتها رجع حلابها » .

ومن ذلك ما حدث به بعض الصحابة أنه قال « كنا زهاء أربعمائة رجل فنزلنا فى موضع ليس فيه ماء فشق ذلك على أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فجاءت شوية لها قرنان فقامت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلبها ، فشرب حتى روى وسقى أصحابه حتى روى ثم قال لى صلى الله عليه وسلم املكها الليلة وما أراك تملكها ، فأخذتها فوئدت لها وتدأ ثم ربطتها بجبل ، ثم قت فى بعض الليل ، فلم أر الشاة ، ورأيت الحبل مطروحا فوجدت لى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : ذهب بها الذى جاء بها » .

ومنها « أن امرأة كانت أهدت للنبي صلى الله عليه وسلم سمنا فى عكة فقبله ، وترك فى العكة قليلا ونفخ فيه ودعا بالبركة ، فكان يأتيها بنوها يسألونها الأدم ، فتعمد لى تلك العكة فتجد فيها سمنا ، فزالت تقيم بها آدم بيتها بقية حياته صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، حتى كان من أمر على ومعاوية رضى الله تعالى عنهما ما كان » وفى رواية « أنها عصرتها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : عصرتيها؟ قالت نعم قال : لو تركتها مازال دائما » ويحتمل أن الواقعة تعددت .

وعن أم سليم أم أنس رضى الله تعالى عنهما ، قالت : « كان لى شاة ، فجمعت من سمها

ماملات به عكة وأرسلت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلها ، وأمر ففرغوها وردوها فارغة وكنت غائبة عن المنزل ، فلما جئت رأيت العكة مملوءة سمنًا ، قالت : فقلت للتي أرسلتها معها : كيف الخبر ؟ فأخبرتني الخبر فما صدقتها ، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ، وقلت له : يا رسول الله وجهت إليك عكة سمن ، قال : قد وصلت . فقلت : بالذي بعثك بالهدى ودين الحق لقد وجدتها مملوءة سمنًا تقطر ، قال : أفتعجبين أن أطعمك الله كما أطعمت نبيه صلى الله عليه وسلم : اذهبي فكلى واطعمي . الحديث .

أى ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لفرس جعيل الأشجعي . فعنه رضى الله تعالى عنه قال « خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته وأنا على فرس عجفاء ضعيفة فكنت في آخر الناس ، فلحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سر يا صاحب الفرس . فقلت : يا رسول الله عجفاء ضعيفة فرفع محقته كانت معه فضربها بها . وقال : اللهم بارك له فيها ، فلقد رأيتني ما أملك رأسها قدام القوم : ولقد بعث من بطنها بائني عشر ألفا . ومنها أن جليبيبا على وزن قنيديل الأنصارى ، وكان قصيرا دميما ، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه ، فقال : يا رسول الله إذا تجلذني كاسدا ، فقال : إنك عند الله لست بكاسد ، فخطب له صلى الله عليه وسلم جارية من أولاد الأنصار ، فكره أبو الجارية وأمها ذلك ، فسمعت الجارية بما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قبلت (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقالت : رضيت وسلمت لما رضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم اصعب الخير عليها صبا ولا تجعل عيشها كدا ، فكانت من أكثر الأنصار نفقة ومالا مع كونها أيما ، فإنه رضى الله تعالى عنه قتل عنها في بعض غزواته معه صلى الله عليه وسلم بعد أن قتل سبعة من المشركين ، ووقف عليه صلى الله عليه وسلم ودعاه له ، وقال : هذا منى وأنا منه ، وحمله صلى الله عليه وسلم على مساعديه ، ماله سرير غير ساعديه صلى الله عليه وسلم ، ثم حفروا له فوضعه في قبره ولم ولم يغسله ولم يصل عليه .

ومنها نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم ، حتى شرب القوم وتوضئوا وهم ألف وأربعمائة . قال : وفي رواية ألف وخمسمائة . وفي رواية : فشربوا وسقوا وملئوا

قراهم ، وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير ، والخليل اثنا عشر ألف فرس ، أي وهذه في غزوة تبوك ، وقد تكرر ذلك منه صلى الله عليه وسلم عدة مواطن عظيمة تقدمت ، وتكررت الروايات بحسب تكرر الوقائع ، وهو أشرف المياه كما قاله السراج البلقيني ولم يسمع بمثل هذه المعجزة التي هي خروج الماء من بين الأصابع عن غير نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهي أبلغ من نبع الماء من الحجر الذي ضربه موسى عليه الصلاة والسلام ، لأن خروج الماء من الحجر معهود ، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم والعظم والعصب كما تقدم اه .

ومنها : أن الماء فار بغرز سهم من كنانته صلى الله عليه وسلم في محله . وقع له ذلك في الحديبية ، وفي تبوك ، فقد جاء « أنه ورد في منصرفه من غزوة تبوك على ماء قليل لا يروى واحدا ، وشكوا إليه صلى الله عليه وسلم العطش ، فأخذ سما من كنانته وأمر أن يغرز فيه ، فقار الماء ، وارتوى القوم ، وكانوا ثلاثين ألفا » كما تقدم .

قال : ومنها ما تقدم له صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب بنى الحجاز من ضربه صلى الله عليه وسلم الأرض أو صخرة برجله حين عطش فخرج الماء كما تقدم .
ومنها : ركوبه صلى الله عليه وسلم الفحل الذي قطع الطريق على من يمر لما سافر صلى الله عليه وسلم مع عمه الزبير بن عبد المطلب إلى اليمن كما تقدم :

ومنها : انقلاب الماء الملح عذبا ببركة ريقه الشريف . فقد جاء « أن قوما شكوا إليه صلى الله عليه وسلم ملوحة في ماء بئرهم ، فجاء صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه حتى وقف على ذلك البئر ، ففتل فيه ، فتفجر بالماء العذب المعين » .

ومنها « أنه كان باليمن ماء يقال له زعاق من شرب منه مات ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم وجه إليه : أيها الماء أسلم فقد أسلم الناس ، فيكان بعد ذلك من شرب منه حم ولا يموت » .

ومنها : زوال القراع بمرور يده الشريفة صلى الله عليه وسلم . فقد جاء « أن امرأة أتته بصبي لها أقرع ، فسح صلى الله عليه وسلم رأسه فاستوى شعره وذهب داؤه » .

ومنها : إحياء الموتى له صلى الله عليه وسلم وسماع كلامهم . فمن ذلك « أنه صلى الله عليه وسلم دعا رجلا للإسلام فقال : لا أومن بك حتى تحيى لى بنتى ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرني قبرها ، فأراه قبرها فقال صلى الله عليه وسلم : يا فلانة ، فقالت : لييك وسعديك ، فقال

صلى الله عليه وسلم : أتخمين أن ترجعنى إلى الدنيا ؟ فقالت : لا والله يا رسول الله ، إني وجدت الله خيرا لى من أبوى ؛ ووجدت الآخرة خيرا من الدنيا .

ومنها : إبراء الأبرص . فقد روى « أن امرأة معاوية بن عفراء كان بها برص فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسح عليه بعضا ، فأذهب الله . »

ومنها : إبراء الرثة واللقوة والقرحة والسلعة والحرارة والديبابة والاستسقاء ؛ فإن ابن ملاعب الأسته أصابه استسقاء ، فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة حثوة من الأرض ففعل عليها ثم أعطاها رسوله ، فأخذها متعجبا يرى أنه قد هزى به ، فأتاه بها وهو على شفا ، فشربها فشفاه الله وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية بقوله :

وبكف من تربة الأرض داوى من تشكى من مؤلم استسقاء

ومنها : أن أخت إسحاق الغنوى هاجرت من مكة تريد المدينة هي وأخوها إسحاق المذكور ، حتى إذا كانت في بعض الطريق قال لها أخوها : اجلسى حتى أرجع إلى مكة ، فأخذ نفقة أنسيها ، قالت له : إني أخشى عليك الفاسق أن يقتلك : تعنى زوجها فذهب أخوها إلى مكة وتركها ، فر عليها راكب جاء من مكة ، فقال لها : مايقعدك ههنا؟ قالت : أنتظر أخى ، قال لا أخ لك ، قد قتله بعد ماخرج من مكة ، قالت : ففمت وأنا أسترجع وأبكى حتى دخلت المدينة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ في بيت حفصة ، فأخبرته الخبر ، فأخذ ملء كفه ماء فضربنى به ، فن يومئذ لم ينزل من عيني دمعة ، وكانت تصيبني المصائب العظام ، غايته أن ينفر الدمع على مقلتي ولايسيل على وجعتى .
ومنها : إبراء الجراحة كما تقدم .

ومنها : إبراء الكسر « فقد مسح صلى الله عليه وسلم على رجل ابن عتيك رضى الله تعالى عنه وقد انكسرت فكأنها لم تكسر قط » كما تقدم .

ومنها : إبراء الجنون . أى ومنها أن امرأة جاءتة صلى الله عليه وسلم بابن لها لا يتكلم وقد بلغ أوان الكلام ، فأتى بماء فضمض وغسل يديه ثم أعطاها صلى الله عليه وسلم إياه وأمرها أن تسقيه وتمسه به ، ففعلت ذلك ، فبرى وعقل عقلا يفضل عقول الناس .

ومنها « أن بعض الصحابة ثبتت في كفه سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة فشكا ذلك له صلى الله عليه وسلم ، فإزال صلى الله عليه وسلم يطحنها بكفه الشريفة حتى زالت ولم يبق لها أثر . »

ومنها « أنه صلى الله عليه وسلم أعطى جذلا من الحطب فصار سيفا » وقع ذلك لعكاشة ابن محصن رضى الله تعالى عنه يوم بدر كما تقدم . ووقع ذلك لعبد الرحمن بن جحش أيضا يوم أحد كما تقدم .

أى ومنها : انقلاب الماء لبنا وزيدا . ومنها « أنه عرضت كدية بالخنديق ولم يقدر أحد على إزالة شيء منها فضرها فصارت كثيبا » كما تقدم .

أى ومن إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ماروى عن النابغة الجعدى رضى الله تعالى عنه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياتا منها :

فلا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكذرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ' حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرها

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أجدت ، لا أفضض الله فاك من هذه إشارة إلى أسنانه » قال النابغة رضى الله تعالى عنه : فلقد أتت على نيف ومائة سنة وما ذهب لى سن . قيل عاش مائة واثنى عشرة سنة ، وقيل مائة وثمانين سنة ، أى كما تقدم . وفى لفظ : كان من أحسن الناس ثغرا ، وكان إذا سقطت له سن نبت له أخرى . أى وعلى هذا الأخير فالمراد لا أخلى الله فاك من الأسنان .

ومن ذلك : أن امرأة جاءت بابن لها صغير ، فقالت : يا رسول إن بابنى هذا جنونا ، وإنه يأخذه عند غداثنا وعشاثنا فيفسد علينا ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا له ، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشنى .

ومنها : إبراء وجع الضرس . فقد جاء « أن بعض الصحابة شكوا إليه صلى الله عليه وسلم وجع ضرسه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أدن منى ، فوالذى بعثنى بالحق لأدعون لك بدعوة لا يدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله عنه كربه ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على الخلد الذى فيه الوجع وقال : اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المسكين عندك سبع مرات ، فشفاه الله تعالى قبل أن يبرح » هذا ما يتعلق ببعض معجزاته صلى الله عليه وسلم التى يمكن التحدى بها ، والحمد لله وحده .

باب نبذة من خصائصه صلى الله عليه وسلم

أى ما اختص به صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس من الأنبياء وغيرهم ، وما اختص به عن غير الأنبياء ، وفيما اختصت به أمته صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس من الأنبياء وغيرهم ، وفيما اشتركت فيه مع الأنبياء دون أممهم .

لا يخفى أن ذكر خصائصه صلى الله عليه وسلم مندوب . قال فى الروضة : ولا يبعد القول بوجود ذلك ليعرف ، فلا يتأسى به جاهل فى ذلك . ثم لا يخفى أن الذى معنى خصائصه صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس إما أن يكون اختص بوجوبه عليه لأن الله علم أنه صلى الله عليه وسلم أقوم به وأصبر عليه من غيره ، ولأن ثواب الفرض أفضل من ثواب النفل غالباً (١) .

وقد جاء « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، أو اختص بتحريمه عليه ، لأن الله علم أنه صلى الله عليه وسلم أصبر على تركه ولمزيد فضل تركه ، أو اختص بإباحته له تسهيلاً عليه ، أو اختص باتصافه به لمزيد فضله وشرفه .

فمن القسم الأول صلاة الضحى : أى بما هو أقلها ، وهو ركعتان ، وركعتا الفجر وصلاة الوتر . قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث على فرائض ولسكن تطوع : الوتر ، وركعتا الفجر ، وركعتا الضحى » .

أى وفى الإمتاع أن هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه ومع ذلك فى ثبوت خصوصية هذه الثلاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم تظر . فإن الذى ينبغى ولا يعدل عنه إلى غيره أن لا تثبت خصوصيته إلا بدليل صحيح .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها « ما سبىح رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط ، وإنى لأسبجها » وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ، قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الضحى حتى نقول لا يدعها ،

(١) وجد فى نسخة بعد قوله غالباً (ومن غير الغالب إبراء المعرفاته سنة وإنظاره واجب ، وثواب الإبراء أفضل ، والتطهير قبل الوقت سنة وبعد الوقت واجب والأول أفضل ، وابتداء السلام سنة وورده واجب والأول أفضل اه) .

ويدعها حتى نقول لا يصلحها » وهذا يدل بظاهره ، ويقتضى عدم الوجوب ، إذ لو كانت واجبة في حقه صلى الله عليه وسلم لكان مداومته عليها أشهر من أن تخفى هذا كلامه .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لما صلى الضحى يوم الفتح في بيت أم هاني واطب عليها إلى أن مات ، وأنه صلى الله عليه وسلم صلى ثمان ركعات : وجاء في حديث مرسل : « كان صلى الله عليه وسلم يصلي ركعتين وأربعاً وستاً وثمانياً » وهل المراد بالوتر أقله أو أكثره أو أدنى كماله ؟ والسواك قال في الإمتاع : وهل هو بالنسبة إلى الصلاة المفروضة أو في كل الأحوال المؤكدة في حقنا أو فيها هو أعم من ذلك . وغسل الجمعة والأضحية واستدل لوجوبها بقوله تعالى (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي) إلى قوله (وبذلك أمرت) قال في الإمتاع : والأمر على الوجوب ، هذا كلامه ؟ وفيه نظر ، لأن أمر للوجوب والتدب ، والذي للوجوب إنما هو صيغة أفعل .

قال في الإمتاع : إن الآمدى وابن الحاجب رحمهما الله عدّا ركعتي الفجر من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولا سلف لهما في ذلك إلا حديث ضعيف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

واعترض كون الوتر واجبا عليه صلى الله عليه وسلم ، بأنه صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين صلاه على البعير ، إذ لو كان واجبا لما صلاه على الراحلة . وأجاب النووي رحمه الله بأن جواز هذا الواجب على الراحلة من خصائصه صلى الله عليه وسلم وأجاب القرافي المالكي رحمه الله بأن الوتر لم يكن واجبا عليه صلى الله عليه وسلم إلا في الحضر ، ووافقه على ذلك من أئمتنا الحليمي والعز ابن عبد السلام .

والعقيقة وأنه صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن يؤدي فرض الصلاة كاملة لا يخلل فيها ، وأنه يجب عليه صلى الله عليه وسلم أن يصلي في كل يوم وليلة خمسين صلاة على وفق ما كان في ليلة الإسراء ، كذا في الخصائص الصغرى للسيوطي .

والمشاورة في أمر الدين والدنيا لذوى الأحلام من الأمور الاجتهادية . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما نزلت هذه الآية (وشاورهم في الأمر) قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة في أمتي ، فمن شاور

منهم لم يعلم رشداً ، ومن ترك المشورة منهم لم يعلم غياً » وقد قيل : الاستشارة حصن من الندامة ومصابرة العدو وإن كثر .

وفي الحاوي للماوردي « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا بارز رجلاً لا ينفك عنه قبل قتله » هذا كلامه ، ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم بارز أحداً .

وقضاء دين من مات معسراً من المسلمين ، وأداء الجنایات والكفارات عن من لزمته وهو معسر ، وتخيير نسائه صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة أى بين زينة الدنيا ومفارقتها ؛ وبين اختيار الآخرة والبقاء في عصمته ، وأن من اختارت الدنيا يفارقها ومن اختارت الآخرة يمسكها ولا يفارقها : أى لأن الله تعالى قال لنبىه صلى الله عليه وسلم (يا أيها النبی قل لأزواجك ، إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) .

قيل اختلف سالف هذه الأمة في سبب نزول هذه الآية على تسعة أقوال : فقد قيل نزلت لما طلب من صلى الله عليه وسلم زيادة في النفقة ، فاعتزلهن شهراً ، ثم أمر بتخيرهن فيها ذكر كما تقدم .

عن جابر رضى الله تعالى عنه ، قال : جاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه ليأذن لهم ، قال : فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجدا النبي صلى الله عليه وسلم جالساً حوله نساؤه ، أى قد سأله النفقة وهو حاجم ساكت لا يتكلم ؛ فقال عمر رضى الله تعالى عنه : لأقولن شيئاً أضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله لو رأيت فلانة بعني زوجته سألتني النفقة فقممت إليها فوجأت عنقها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألتنى النفقة ، فقام أبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر رضى الله تعالى عنه إلى حفصة فوجأ عنقها ، وكل يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، ثم أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجتمع بين شهراً ؛ فعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلاً ودق عليه بابه وناداه ، قال عمر : فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقات ماذا ؟ أجاءت غسان ، لأننا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخليل لغزونا . فقال : لا ، بل أعظم من

ذلك وأطول ، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت : خابت حفصة
وخسرت ، كنت أظن هذا كائنا ؛ حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ودخلت
على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت : لأدرى
هو هذا معترلا في هذه المشربة ، أى لأن نساءه صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن عليه في
طلب النفقة أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن ، قال عمر رضى الله
تعالى عنه : لأقولن من الكلام شيئا أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتيت غلاما
له أسود ، فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج ، فقال : قد ذكرتك له
فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المسجد فجلست قليلا ثم غلبنى ما أبجد ، فأتيت الغلام
فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلى ، فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فلما كان في
المرّة الرابعة وقال لى مثل ذلك وليت مدبرا فإذا الغلام يدعونى ، فقال : أدخل ، قد أذن
لك ، فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على زمل حصير
قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ قال : فرفع رأسه إلى وقال لا
فقلت : الله أكبر ، ثم قلت : كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا
المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت فلانة يعنى
زوجته فراجعتنى فأنكرت عليا ، فقالت تنكر على أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم لتراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من
فعل ذلك وخسر ، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها بغضب زوجها ، فتبسم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فذهبت إلى حفصة فقلت : أراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
فقالت : نعم ، وتهجره إحداها اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن
وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها بغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
لا تراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسألينه شيئا ، وسلينى ما بدالك ، ولا يغررك
إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ؟ يعنى عائشة ، فتبسم
أخرى ، فقلت ، استأنس يا رسول الله قال نعم ، فجلست وقلت : يا رسول الله قد
أثر في جنبك زمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى
جالسا وقال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة
الدنيا ، فقلت : أستغفر الله يا رسول الله [] فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى

عليه أن يخبر نساءه في قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك) الآية ، فزل ودخل على عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقالت له : يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما أعددهن ، قال : إن الشهر تسع وعشرون . وفي رواية : يكون هكذا وهكذا ويشير بأصابع يديه ، وفي الثالثة حبس إبهامه ثم قال : يا عائشة إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمرى أبوبك . فقالت : وما هو يا رسول الله ، فقرأ (يا أيها النبي قل لأزواجك) الآية . قلت ، أفي هذا أستأمر أبوي ، فإني أريد الله ، ورسوله والدار الآخرة . وفي رواية « أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ » بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : ثم قلت له : لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثني متعنتا ولكن بعثني معلما بشيرا . ثم فعل أزواجه صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت عائشة رضي الله تعالى عنهن . وقد ذكر الأقوال التسعة في الإمتاع وذكر فيه أن التخيير كان بعد فتح مكة ، لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يقدم المدينة إلا بعد الفتح مع أبيه العباس رضي الله تعالى عنهما ، وذكر أنه حضر الواقعة .

ومن القسم الثاني تحريم أكل الصدقة واجبة أو مندوبة ، وكذا الكفارة والمندوبة والوقوف عليه إلا على جهة عامة كالأبار الموقوفة على المسلمين ، ويشاركه في الصدقة الواجبة آلة دون صدقة التطوع على الجهة الخاصة دون الجهة العامة ، والصدقة الواجبة هي المعنية بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » ولما سأله عمه العباس رضي الله تعالى عنه أن يستعمله على الصدقات قال صلى الله عليه وسلم « ما كنت لأستعملك على غسلات ذنوب الناس » ولما أخذ الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه قال له النبي صلى الله عليه وسلم : كخ كخ ، أرم بها ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة » وفي رواية « إن آل محمد لا يأكلون الصدقة » .

واختلف علماء السلف هل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تشارك النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ؟ فذهب الحسن رحمه الله تعالى إلى أن الأنبياء تشاركه في ذلك . وذهب سفیان بن عيينة إلى اختصاصه بذلك دونهم ، وأن يعطى شيئا لأجل أن يأخذ شيئا أكثر منه ، وأن يتعلم الكتابة أو الشعر وإنشاده وروايته لا التمثل به ، وأنه إذا لبس لامته للقتال

لابدعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وهذا الأخير مما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وخائنة الأعين ، وهي الإيذاء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر كما تقدم . وإسماك من كرهته ، ونكاح الكتابية ، قيل والتسرى بها والراجع خلافه . ونكاح الأمة المسلمة لأنه لا يخشى العنت ؛ أى الزنا .

ومن القسم الثالث القبلة في الصوم مع وجود الشهوة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يقبل عائشة رضى الله تعالى عنها وهو صائم ويمص لسانها ، ولعله صلى الله عليه وسلم لم يكن يبلغ ريقه المختلط بريقها . والخلو بالاجنبية ، وأنه صلى الله عليه وسلم إذا رغب في امرأة خلية كان له أن يدخل بها من غير لفظ نكاح أو هبة ومن غير ولى ولا شهود ، كما وقع له صلى الله عليه وسلم في زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها كما تقدم ، ومن غير رضاها ، وأنه إذا رغب في امرأة متزوجة يجب على زوجها أن يطلقها له صلى الله عليه وسلم ، وأنه إذا رغب في أمة وجب على سيدها أن يهبها له . وله أن يزوج المرأة لمن يشاء بغير رضاها ، وله أن يتزوج في حال إحرامه ، ومن ذلك نكاح ميمونة على ما تقدم ، وأن يصطلي من الغنيمة ما شاء قبل القسمة من جارية أو غيرها .

ومن صفاياها صلى الله عليه وسلم صفية وذو الفقار كما تقدم ، وأن يتزوج من غير مهر كما وقع لصفية رضى الله تعالى عنها . وقد قال المحققون : معنى ما في البخارى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم جعل عتقها صداقها أنه صلى الله عليه وسلم أعتقها بلا عوض وتزوجها بلا مهر ، فقول أنس رضى الله تعالى عنه أمهرها نفسها معناه أنه لما لم يصدقها شيئاً كان العتق كأنه المهر وإن لم يكن في الحقيقة كذلك ، وأن يدخل مكة بغير إحرام إنفاقاً ، وأن يقضى بعلمه ولو في حدود الله تعالى :

قال القرطبي في تفسيره : أجمع العلماء على أنه ليس لأجد أن يقضى بعلمه إلا النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى : وجمع له صلى الله عليه وسلم بين الحكم بالظاهر والباطن معا وجمعت له الشريعة والحقيقة ، ولم يكن للأنبياء إلا أحدهما بدليل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، وقوله : إني على علم لا ينبغى لك أن تعلمه وأنت على علم لا ينبغى لى أن أعلمه هذا كلامه .

وكتب عليه الشهاب القسطلاني رحمه الله : هذه غفلة كبيرة وجراءة على الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام ، إذ يلزم منه خلوتهم ببعض أهل العزم عليهم الصلاة والسلام من علم الحقيقة الذي لا يجوز خلوتهم ببعض آحاد الأولياء عنه وإخلاء الخضر بل بقية بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم الشريعة . وأعجب من ذلك أنه بين له وجه الخطأ ، فأجاب بقوله : مرادى الجمع بين الحكم والقضاء هذا كلامه .

وأقول : ذكر النسبوطي في كتابه [الباهر في حكم النبي بالباطن والظاهر] هل يقول مسلم إن الذي خص به نبينا صلى الله عليه وسلم ، أى عن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يورث نقصا في حق سائر الأنبياء ؟ معاذ الله ، وكل مسلم يعتقد أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء على الإطلاق ، وذلك لا يورث نقصا في حق أحد منهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الاعتراض كان لا يحتاج إلى جواب عنه ، لكن خشيت أن يسمعه جاهل فيؤديه ذلك إلى إنكار خصائص النبي صلى الله عليه وسلم التي فضل بها على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، توهمنا منه أن ذلك يورث نقصا فيهم ، فيقع والعياذ بالله في الكفر والزندقة هذا كلامه .

ومما حكم فيه بالظاهر والباطن معا ، قوله صلى الله عليه وسلم في ولد وليدة زمعة والد سودة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها لما اختصم فيه سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه وعبد بن زمعة ، فقال سعد : يا رسول الله هذا ابن أخي ، عهد إلى أنه ابنة ، انظر إلى شبهه به ، وقال عبد بن زمعة : هذا أخى ولد على فراش أبي من وليدته ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شبهه ، فرأى شيئا بينا بعتبة ، ثم قال : « هوك يا عبد الولد للفراش واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة » زاد في رواية « فليس بأخ لك » ففعله صلى الله عليه وسلم أحبا لسودة عملا بظاهر الشرع ، ونفى أخوته عنها بمقتضى الباطن . فقد حكم في هذه القصة بالظاهر والباطن معا .

وأما حكمه صلى الله عليه وسلم بالباطن فقد جاء في أمور متكررة من ذلك قتله الحارث بن سويد بقتله المجذر بن زياد غيلة من غير دعوى وارث ولا قيام بينة ولا قبل الدية كما تقدم .

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل مات أخوه : « إن أخاك محبوس بديته فاقض عنه ، فقال يا رسول الله قد أدبت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة ، قال أعطاها فإنها محقة » .

ومن ذلك أن امرأة جاءت إلى أخرى وقالت لها : فلانة تستعيرك حليك وهي كاذبة فأعارتها إياه ، فبعد مدة جاءت للمرأة تطلب حليها فقالت : لم أطلب حليك فجاءت للمرأة التي أخذته فأنكرت أخذه ، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته القصة فدعاها ، فقالت : والذي بعثك بالحق ما استعرت منها شيئا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ذهبوا فخذوه من تحت فراشها فأخذ وأمر بها فقطعت » .

وأن يقضى لنفسه ولولده ، وأن يشهد لنفسه ولولده وأن يقبل الهدية ممن يريد الحكومة عنده ، وأن يقضى في حال غضبه ، وأن يقطع الأرض قبل أن يفتحها .

ومما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا القسم أن له صلى الله عليه وسلم أن يصلى بعد نومه غير متمكن ، أى في النوم الذى تنام فيه عينه وقلبه ، بناء على أنه صلى الله عليه وسلم كان له نومان ، وحينئذ يكون قوله « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » المراد به غالبا ، إذ يبعد أن يكون بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس لهم الانوم واحد وله صلى الله عليه وسلم نومان .

وإباحة ترك إخراج زكاة المال ، لأنه كبقية الأنبياء لا ملك لهم مع الله ، وما في أيديهم من المال وديعة لله عندهم يبذلونه في محله ويمنعونه في غير محله ، ولأن الزكاة طهرة وهم مبرءون من الدنس كذا في الخصائص الصغرى نقلا عن سيدى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله .

وفيها بعد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم اختص بأن ماله باق بعد موته على ملكه ينفق منه على أهله في أحد الوجهين ، وصححه إمام الحرمين ، والذي صححه النووى الوجه الآخر ، وهو خروجه عن ملكه ، لكنه صدقة على المسلمين ، لا يختص به الورثة ، وما قاله ابن عطاء الله بناء على مذهب إمامه سيدنا مالك ، ومذهب الشافعى رحمه الله تعالى خلافه . ففي الخصائص الصغرى قبل هذا : وذكر مالك رضى الله تعالى عنه ، من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يملك الأموال ، إنما كان له التصرف وأخذ قدر كفايته . وعند الشافعى رضى الله تعالى عنه وغيره أنه يملك هذا كلام الخصائص .

ومن القسم الرابع أنه صلى الله عليه وسلم أول من أخذ عليه الميثاق يوم (الست بربكم) وأنه أول من قال بلى ؛ أى وأنه خص بالبسملة : وفيه ماتقدم أن ذلك على وجه وأن الأصح خلافه لما في القرآن في سورة النمل وفي المرفوع « أنزل على آية لم تنزل على نبي بعد سليمان

غيرى (بسم الله الرحمن الرحيم) وجاء « بسم الله فاتحة كل كتاب » وفيه أن الإنجيل من جملتها وهو كتاب عيسى ابن مريم وهو بعد سليمان عليهما السلام ، وقد قدمنا ذلك عند الكلام على أوائل البعث وبفاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة (آمن الرسول) إلى ختامها وآية الكرسي أعطيها من كنز تحت العرش وكذا الفاتحة والكوثر .

فقد جاء « أربع نزلت من كنز تحت العرش لم ينزل منه شيء غيرهن أم الكتاب ، وآية الكرسي ، وخواتيم سورة البقرة والكوثر » .

وذكر الجلال السيوطي رحمه الله في الخصائص الصغرى ، أن مما خص به أنه أعطى من كنز تحت العرش ولم يعط منه أحد غيره والسبع الطوال والمفصل .

وأن دار هجرته التي هي المدينة آخر الدنيا خرابا ، وأن جميع ما في الكون خلق لأجله ، وأنه تعالى كتب اسمه على العرش وعلى كل سماء ، وما فيها كما تقدم وعلى بعض الأحجار وورق الأشجار وبعض الحيوانات كما تقدم . قال بعضهم ~~خلق~~ ^{خلق} ~~على~~ ^{على} ما في الملكوت وذكر الملائكة له صلى الله عليه وسلم في كل ساعة ، وذكر اسمه صلى الله عليه وسلم في الأذان في عهد آدم والملكوت الأعلى كما تقدم .

ومما اخص به صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه يحرم نكاح أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد موته حتى على الأنبياء بخلاف زوجات الأنبياء بعد موتهم لا يحرم نكاحهن على المؤمنين . قال شيخنا الشمس الرملي والأقرب عدم حرمتن على الأتقياء من أمهم .

وفيه أنه إذا لم يحرم على آحاد المؤمنين فعلى الأتقياء بطريق الأولى ، إلا أن يقال الفرق ممكن ، يدل عليه قوله : والأقرب وإلا فهذا مما يتوقف فيه على النقل .

وقيل ومن ذلك أنه يجب على أزواجه صلى الله عليه وسلم من بعده الجلوس في بيوتهن ويحرم عليهن الخروج منها ولو لحج أو عمرة والراجع خلاف ذلك ، فقد حججن مع عمر رضى الله تعالى عنه وعنهن إلا سودة وزينب فخرجن في الهوادج عليهن الطيالبة الخضر . وعثمان رضى الله تعالى عنه يسير أمامهن يقول لمن أراد أن يمر عليهن إليك إليك . وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه خلفهن يقول لمن أراد أن يمر عليهن مثل ذلك ، ولا ترى هوداجهن إلا مد البصر ، ولما ولي عثمان رضى الله تعالى عنه حجج بهن أيضا إلا سودة وزينب .

وأنه يحرم أيضا رؤية أشخاص زوجاته صلى الله عليه وسلم في الأزر ، وسؤالهن مشافهة
أى من غير حجاب .

ولا يجوز كشف وجوههن لشهادة بلا خلاف ، وأن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على
سائر النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم وينصروه إن أدركوه وأن يأخذوا
العهد على أمهم بذلك كما تقدم ، وأنه صلى الله عليه وسلم يحشر على البراق ، فقد جاء «بعث
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدواب ويبعث صالح على ناقته ، ويحشر ابنا فاطمة
رضى الله تعالى عنهم على ناقته العضاء والقصى ، ويبعث بلال رضى الله تعالى عنه على
ناقة من نوق الجنة ، وأن في كل يوم ينزل على قبره الشريف صلى الله عليه وسلم سبعون ألف
ملك يضربونه بأجنحتهم ويحفون به ، ويستغفرون له ، ويصلون عليه إلى أن يمسا عرجوا
وهبط سبعون ألف ملك كذلك حتى يصبحون لا يعودون إلى أن تقوم الساعة » وأنه شق
صدره الشريف صلى الله عليه وسلم عند ابتداء الوحى ، وأنه تسكر له ذلك خمس مرات
على ماتقدم ، وأن خاتم النبوة بظهوره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره . وخاتم الأنبياء
كلهم عليهم الصلاة والسلام كان في يمينهم كما تقدم ، وتقدم مافيه ، وأن له صلى الله عليه
وهلم ألف اسم ، ونقل عن تفسير الفخر الرازى أن له صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف
اسم ، وأنه صلى الله عليه وسلم تسمى من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسما ؛ وأنه صلى الله
عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على الصورة التى خلق عليها مرتين كما تقدم ، وغيره لم
يره كذلك ، وأنه عليه الصلاة والسلام يحكم بالظاهر والباطن كما تقدم ، وأنه صلى الله
عليه وسلم أحلت له مكة ساعة من نهار ، وأنه حرّم ما بين لابتي المدينة كما تقدم ، وأنه لم
تر عورته قط ، وأن من رآها طمست عيناه كما تقدم ، وأنه إذا مشى فى الشمس أوفى القمر
لا يكون له صلى الله عليه وسلم ظل لأنه كان نورا ، وأنه إذا وقع شئ من شعره فى النار
لا يحترق ، وأن وطأه أثر فى الصخر على ماتقدم ، وأن الذباب لا يقع على ثيابه فضلا عن
جسده الشريف ، ولا يمتص نحو البعوض والقمل دمه كما تقدم ، وهذا لاينافى كون
القمل يكون فى ثوبه ، ومن ثم جاء « كان صلى الله عليه وسلم يفلى ثوبه » وأن عرقه أطيب
من ريح المسك كما تقدم .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ركب دابة لايتبول ولا تروث وهو راكبها ، ولو بنى
مسجده إلى صنعاء اليمن كان مسجده أى فى المضاعفة خلافا لجمع منهم ابن حجر الهيتمى .

وقد قال الحافظ السيوطي : نص العلماء على أن المسجدين : أى المسكى والمدني ، ولو وسعنا لم تختلف أحكامهما الثابتة لهما .

وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : لو مدّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذى الحليفة لكان منه ، فهذا الأثر مصرح بأن أحكام مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة له ، فالتوسعة لا تمنع استمرار الحكم ، وتقدم مافى ذلك ، وأنه يجب على أمته صلى الله عليه وسلم أن تصلى وتسلم عليه فى التشهد الأخير وعند كل ما يذكر عند بعضهم ، وأن القمر شق له صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وأن الحجر والشجر سلماً عليه صلى الله عليه وسلم ، وشهادة الشجر له صلى الله عليه وسلم بالنبوة وإجابته دعوته ، وكلام الصبيان المراضع ، وشهادتهم له بالنبوة كما تقدم ، وأن الجذع اليابس حن إليه صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة الإنس والجن إجماعاً معلوماً من الدين بالضرورة فيكفر جاحد ذلك ، وقد يتوقف فى كفر العاصى بيجحد إرساله صلى الله عليه وسلم للجن وإلى الملائكة على ما هو الراجح كما تقدم .

قال بعضهم والقول بمقابله مبنى على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، وهو قول مرجوح ذهب إليه المعتزلة والفلاسفة وجماعة من أهل السنة الأشاعرة . واستدلوا بأمر كلها مردودة وتقدم عن البارزى رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الحيوانات والجمادات ، لكن استدلل له بشهادة الضب والشجر له بالرسالة صلى الله عليه وسلم . وقد يتوقف فى الاستدلال بذلك .

وتقدم عن الحافظ السيوطى رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم أرسل لنفسه ، وتقدم الفرق بين عموم رسالته عليه الصلاة والسلام وعموم رسالة نوح صلى الله عليه وسلم ، وأنه صلى الله عليه وسلم بعث رحمة للبر والفاجر ، ورحمة للكفار بتأخير العذاب ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة بنحو الحسب والمسخ والفرق كسائر الأمم المكذبة كما تقدم ، وأن الله تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل خاطبه صلى الله عليه وسلم (يا أيها النبى - يا أيها الرسول - يا أيها المدثر - يا أيها المزمل) وقال (يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا داود ، يا زكريا ، يا يحيى ، يا عيسى) وأن الله أقسم بحياته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى (لعمرك إنهم لنى سكرتهم يعمهون) .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « ما حلف الله تعالى ب حياة أحد

إلا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم » وأقسم الله على رسالته بقوله (يس - القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) وأن إسرائيل عليه السلام أهبط إليه صلى الله عليه وسلم ولم يهبط إلى نبي قبله كما تقدم ، وأنه صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق على الله ، وأنه يحرم نكاح موطأته صلى الله عليه وسلم من الزوجات والسرارى إلا من باعه أو وهبه من السرارى فى حياته إن فرض ذلك ، وذهب الماوردى إلى تحريمها .

وفى كلام بعضهم : وتحرم زوجاته صلى الله عليه وسلم على غيره ولو قبل الدخول ولو مختارة للفراق ، خلافا لما فى الشرح الصغير للرافعى من حل المختارة للفراق ، وأنه يحرم التزوج على بناته صلى الله عليه وسلم ، وقيل على فاطمة خاصة رضى الله تعالى عنها .
وأما التسرى عاين فلم أقف على حكمه ؛ وما علل به منع التزويج عاين حاصل فى التسرى إلا أن يفرق .

وأوتى صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلا من أهل الجنة فى الجماع ، وقوة الرجل من أهل الجنة كمائة من أهل الدنيا ، فيكون أعطى صلى الله عليه وسلم قوة أربعة آلاف رجل ، وسليمان صلوات الله وسلامه عليه أعطى قوة مائة رجل . وقيل ألف رجل أى من رجال الدنيا ، وأن فضلاته صلى الله عليه وسلم طاهرة كما تقدم ، وأنه كان له صلى الله عليه وسلم أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام كجعله شهادة خزيمة بشهادة رجلين ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرساً من أعرابى فاستبقه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم وتباطأ الأعرابى والفرس معه فساومه فى الفرس رجال لا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتراه بزيادة عما اشتراه به صلى الله عليه وسلم فقال الأعرابى للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت مبتاعا لهذا الفرس فابتعه وإلا بعته ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمع نداء الأعرابى : أو ليس قد ابتعته منك ، فقال الأعرابى : لا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك ، فقال الأعرابى : شاهدان يشهدان أنى بعته ، فلما سمع خزيمة رضى الله تعالى عنه ذلك ، قال : أنا أشهد أنك بعته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخزيمة : كيف تشهد ولم تكن معنا ؟ فقال : يا رسول الله إنا نصدقك بخبر السماء أفلا نصدقك بما تقول ، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادته رضى الله تعالى عنه فى القضايا بشهادة رجلين . ومنه أخذ جواز الشهادة له صلى الله عليه وسلم بما ادعاه .

وترخيصه صلى الله عليه وسلم لأم عطية رضی الله تعالى عنها ، ولخولة بنت حكيم رضی الله تعالى عنها في النياحة لجماعة مخصوصين .

وترخيصه صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس رضی الله تعالى عنها في عدم الإحداد لما قتل زوجها سيدنا جعفر بن أبي طالب حيث قال لها تسلي ثلاثا ثم اصنعى ماشئت .
وتجوز التضحية بالعناق لأبي بردة ولعقبة بن عامر رضی الله تعالى عنهما . وزاد بعضهم ثلاثة آخرين .

وتزويجه صلى الله عليه وسلم لشخص امرأة على سورة من القرآن وقال : لانكون لأحد غيرك مهرا ولعل المراد سورة مجهولة ، فلا يخالفه ذلك ما عند أئمتنا من جواز ذلك على معين من السور القرآنية .

وتزويجه صلى الله عليه وسلم أم سليم أبا طلحة رضی الله تعالى عنهما على إسلامه كما تقدم وإعادة امرأة أبي ركانة إليه بعد أن طلقها ثلاثا من غير محلل .
وتخصيصه صلى الله عليه وسلم نساء المهاجرين بأن يرثن دور أزواجهن دون بقية الورثة وقد ألغز في ذلك بعضهم بقوله :

سلم على مفتى الأنام وقل له	هذا سؤال في الفرائض مبهم
قوم إذا ماتوا تحوز ديارهم	زوجاتهم فلغيرها لانقسم
وبقية المال الذي قد خلفوا	يجرى على أهل التوارث منهم

وأنه صلى الله عليه وسلم أول من ينشق عنه القبر ، فعن ابن عمر رضی الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم أهل البقيع فيخرجون معي ثم أنتظر أهل مكة » ، أى وفي رواية « وأنا أول من تنشق عنه الأرض فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى عليه الصلاة والسلام آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله » .

وفيه أن الاستثناء إنما هو من نفخة الفرع التي هي النفخة الأولى التي يفرع بسببها أهل السموات والأرض ، وتمر الجبال من السحاب ، وترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة في البحر تضربها الأمواج المعنية بقوله تعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) والمعنية بقوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) الآية . قال صلى الله عليه وسلم « والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك ، قلنا يا رسول الله

فمن استثنى الله في قوله : إلا من شاء الله : قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه . وفيه أن هذا يقتضى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يفرعون لأنهم أحياء ، ولم يذكرهم صلى الله عليه وسلم مع الشهداء ، والقياس قد يمنع لأنه يوجد في المفضل مالا يوجد في الفاضل . وأنه من يكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة . وأنه صلى الله عليه وسلم يقوم في المقام المحمود على يمين العرش ، وأنه الذى يشفع في فصل القضاء بين أهل الموقف ، وأنه له صلى الله عليه وسلم شفاعات في ذلك اليوم وهى إحدى عشرة شفاعة ذكرها في [مزيل الخفاء] وأنه صلى الله عليه وسلم صاحب لواء الحمد في ذلك اليوم ، آدم فمن دونه تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، وأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإمامهم في ذلك اليوم كما تقدم .

وأول من يؤذن له في السجود . وأول من ينظر إلى الرب عز وجل ، وأنه يسجد أولاً فيقول له الرب جل جلاله ، ارفع رأسك يا محمد ، قل تسمع ، وسل تعطى ، واشفع تشفع ، ثم ثانيا ، ثم ثالثاً كذلك فيشفع .

وأنه أول من يفيق من الصعقة . وفيه أن نفخة الصعقة ، وهى النفخة الثانية التى هى نفخة الموت لأهل السموات والأرض ، إلا أن يقال المراد بالصعقة هنا نفخة رابعة أثبتها ابن حزم .

فقد قال الحافظ الجلال السيوطى رحمه الله : وأغرب ابن حزم رحمه الله تعالى ، فادعى أن النفخ في الصور يقع أربع مرات ، فعليه تكون هذه النفخة ليست هى المذكورة في القرآن ، وأنها تكون في الموقف بعد النفخة الثالثة التى هى نفخة البعث التى بسببها يكون القيام من القبور إلى المحشر المعنية بقوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وهذه النفخة الرابعة تسمى نفخة الصعق أيضاً ، لأن بها يحصل لجميع أهل السموات والأرض في ذلك الوقت غشى وهو شبيه بالموت ، ويكون أول من يفيق من تلك الصعقة هو صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ يجده موسى عليه الصلاة والسلام آخذاً بقائمة من قوائم العرش ، ويكون قوله « أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكون أنا أول من رفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » من تخليط بعض الراوة . وحينئذ لا يحتاج إلى الجواب بأنه صلى الله عليه وسلم أخير بقوله لا أدري قبل أن أعلمه الله تعالى بأنه أول من

تنشق عنه الأرض على الإطلاق ، وأن موسى عليه الصلاة والسلام سبقه إلى العرش لأنه صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من الأرض ينتظر خروج أهل البقيع ، ومجيء أهل مكة فليتأمل ذلك .

وأول من يمر على الصراط ، وأول من يدخل الجنة ومعه فقراء المسلمين ، وأن له الوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة .

وقيل إنه في الجنة لا يصل لأحد شيء إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يقرأ في الجنة إلا كتابه ، ولا يتكلم في الجنة إلا بلسانه .

ومما شارك فيه الأنبياء في هذا القسم ، أن من دعاه صلى الله عليه وسلم ، في الصلاة يجب عليه الإجابة قولاً وفعلاً ولو كثيراً ، ولا تبطل صلاته بالنسبة لنا صلى الله عليه وسلم بخلاف غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنها تبطل .

ومنه أيضاً العصمة من الذنب مطلقاً كبيراً أو صغيراً عمداً أو سهواً ، وعدم التأثر والاحتلام ، لأن كلا من الشيطان ، ولم ير أثر لقضاء حاجته صلى الله عليه وسلم ، بل كانت الأرض تبطله ويشم من مكانه رائحة المسك . قال : وأنه صلى الله عليه وسلم كان ينظر بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء .

واستشكل بما جاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما ابتنى بأمر سلمة رضى الله تعالى عنها دخل عليها في الظلمة ، فوطئها صلى الله عليه وسلم على ابنتها زينب فبكت ، فلما كانت الليلة القابلة دخل صلى الله عليه وسلم في ظلمة أيضاً فقال « أنظروا ربائبكم لا أطأ عليها » وزينب هذه ولدتها من أبي سلمة بالحبيشة ، ودخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل وهي إذ ذاك طفلة فنضح صلى الله عليه وسلم وجهها بالماء ، فلم يزل ماء الشباب بوجهها حتى عجزت وقاربت المائة سنة .

وكان صلى الله عليه وسلم ينظر من خلفه كما ينظر أمامه ، أى وعن يمينه وعن شماله ، فقد جاء « إنى لأنظر إلى ما وراء ظهري كما أنظر إلى أمامي » فقيل كان له صلى الله عليه وسلم بين كتفيه عيمان كسم الخياط يبصر بهما لاحتجبهما الثياب ، وقيل كانت تنطبع صورة المحسوسات التي خلفه في حائط قبلته كما تنطبع الصور في المرآة . وهذا يدل على أن ذلك خاص بالصلاة ، وهو ظاهر أكثر الروايات أى وكانت تلك الصلاة إلى حائط فليتأمل .

وكان صلى الله عليه وسلم يرى الثريا اثنا عشر نجما وغيره لا يزيد على تسعة ولو أمعن النظر .

واختصت هذه الأمة المحمدية بأمر لم يشاركها فيه من قبلهم من الأمم ، وهى أنها خير الأمم ، وأكرم الخلق على الله . قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

وفى الحديث « إن الله اختار أمتى على سائر الأمم . وإن الله ينظر إليها فى أول ليلة من رمضان » وأعطيت الاجتهاد فى الأحكام ، وأظهر الله ذكرها فى الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل ، وأثنى عليها ؛ وأعطيت الصلوات الخمس : أى جمعت لم على ما تقدم ، وأعطيت صلاة العشاء .

فقد أخرج أبو داود والبيهقى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إنكم فضلتم بها » أى بصلاة العشاء « على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم » وفيه ما تقدم :

وأعطيت افتتاح الصلاة بالتكبير . وأعطيت التأمين : أى قول آمين عقب الدعاء ؛ فقد جاء « أعطيت آمين ولم يعطها أحد من كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاها هرون فإن موسى كان يدعو ويؤمن هرون عليهما الصلاة والسلام » وتقدم أن آمين عقب الفاتحة ليس من القرآن اتفاقا .

وأعطيت الاستنجاء بالحجر . وأعطيت الأذان والإقامة والركوع فى الصلاة ، وأما قوله تعالى لمريم (واركعى مع الراكعين) فالمراد بالركوع الخضوع كما تقدم ، ويلزمه أنها أعطيت فى الرفع منه « سمع الله لمن حمده » . وفى الاعتدال « اللهم ربنا لك الحمد » إلى آخره . وأعطيت تحريم الكلام فى الصلاة دون الصوم عكس من قبلهم . وأعطيت الجماعة فى الصلاة . وأعطيت الاصطفاف فيها كصفوف الملائكة . وأعطيت صلاة العيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر . وأعطيت قصر الصلاة فى السفر ، والجمع بين الصلاتين فيه على ما تقدم وفى المطر والمرض على قول اختاره جمع من العلماء ومنهم واللى رحمه الله . وأعطيت صلاة الخوف وصلاة شدته . وأعطيت شهر رمضان على ما تقدم . وأعطيت فيه أمورا منها تصفيد الشياطين .

وقد سئلت : ما فائدة تصفيد الشياطين فى رمضان مع وجود الفساد والشر وقتل الأنفس فيه ؟ وقد أجيبت عنه أربعة أجوبة ، حاصلها أن فائدة ذلك قلة الشر لانفيه بالكلية ، وقد

ذكرت ذلك في كتابي [إسعاف الإخوان في شرح غاية الإحسان] وهو كتاب ألفته في الصوم وما يتعلق به .

ومنها صلاة الملائكة عليهم حين يفطروا . ومنها أن ريح فهم بعد الزوال أطيب عند الله من ريح المسك ، وفيه أن هذا لا يختص بصوم رمضان . ومنها أن الجنة تزين فيه من رأس الحول إلى رأس الحول ، وتفتح أبواب الجنة ، وتغلق أبواب النيران ، وتفتح أبواب السماء في أول ليلة منه .

ومنها أنه يغفر لهم في آخر ليلة منه . وأعطيت العقيقة عن الأنثى . وأعطيت العذبة في العمامة . وأعطيت الوقف ، والوصية بالثلث عند الموت . وأعطيت غفران الذنوب بالاستغفار ، وجعل الندم توبة . وأعطيت صلاة الجمعة . وأعطيت ساعة الإجابة في يومها . وأعطيت ليلة القدر . وأعطيت السحور وتعجيل الفطر . وأعطيت الاسترجاع عند المصيبة . وأعطيت الحوقلة : أى لا حول ولا قوة إلا بالله . وأعطيت رفع الإصر عنها ، ومنه وجوب القصاص في الخطأ والمؤاخذة بحديث النفس والنسيان وما وقع عليه الإكراه ، وأن إجماعها حجة لأنها لا تجتمع على ضلالة : أى محرم . وأعطيت أن اختلاف علمائها رحمة ، وكان اختلاف من قبلهم عذابا ، والمراد بعلماء الأمة المجتهدون ، كما أن المراد ذلك بما رواه البيهقي عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أصحابي رحمة » أى ويقاس بأصحابه غيرهم ممن بلغ رتبة الاجتهاد . قال بعضهم : وما ذكره بعض الأصوليين والفقهاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « اختلاف أمتي رحمة » لا يعرف من خرجه بعد البحث الشديد ، وإنما يعرف عن القاسم بن محمد بلفظ « اختلاف أمة محمد رحمة » قال الحافظ السيوطي : ولعله خرّج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا ، وأن الطاعون لهم رحمة وكان على من قبلهم عذابا . وأعطيت الإسناد للحديث . قال أبو حاتم الرازي رحمه الله : لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام من يحفظون آثار الرسل ، أى ويأخذها واحد عن الآخر إلا في هذه الأمة ، أى حتى إن الواحد منهم يكتب الحديث الواحد من ثلاثين طريقا أو أكثر ، وأن فيها الأقطاب والأنجبار والأوتاد ، ويقال لهم العمدة والأبدال والأخيار والعصب ؛ فالأبدال بالشام . واختلفت الروايات في عددهم : فأكثر الروايات أنهم أربعون رجلا ، وفي بعض الروايات أربعون

رجلا ، وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة ، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم ، فعند ذلك تقوم الساعة .

وعن الفضل بن فضالة قال : الأبدال بالشام في حمص خمسة وعشرون رجلا ، وفي دمشق ثلاثة عشر ، وفي نيسان اثنان . وفي رواية عن حذيفة بن اليمان « الأبدال بالشام ثلاثون رجلا على منهاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام » .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال أربعون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض ، يقال لهم الأبدال » .

وعن الحسن البصرى رحمه الله : لن تخلو الأرض من سبعين صديقا وهم الأبدال : أربعون بالشام ، وثلاثون في سائر الأرض .

وعن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها : الرضا بالقضاء ، والصبر عن محارم الله ، والغضب في ذات الله » .

وجاء في وصف الأبدال « إنهم لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكن بسخاء النفس ، وسلامة القلوب ، والنصيحة لأنفسهم » وفي لفظ « لجميع المسلمين » .

وعن أبي سليمان : الأبدال بالشام والنجباء بمصر . وفي لفظ : الأبدال من الشام ، والنجباء من أهل مصر . وفي رواية عن علي كرم الله وجهه أيضا : والنجباء بالكوفة ، والعصب باليمن ، والأخيار بالعراق . وفي لفظ : والعصب بالعراق .

وعن بعضهم : النقباء ثلاثمائة وسبعون ، والبداء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمد أربعة ، والغوث : أى الذى هو القطب واحد ، فسكن النقباء الغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن الأبدال الشام ، والأخيار سائحون في الأرض ، والعمد في زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة ، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النجباء ، ثم الأبدال ، ثم الأخيار ، ثم العمد ، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث ، فما تم مسألته حتى يجاب .

وجاء عن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يكن نبي

قط إلا أعطى سبعة نجباء وزراء رفقاء ، وإنى أعطيت خمسة عشر : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله بن مسعود ، وسلمان ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة ، وأبوذر ، والمقداد ، وبلال ، ومصعب « وأسقط الترمذى حذيفة وأباذر والمقداد .

وأهم : أى أمته صلى الله عليه وسلم يخرجون من قبورهم بلاذنوب يحصها الله عنهم باستغفار المؤمنين لهم ، وأنها أول من تنشق عنها الأرض ، وأنها فى الموقف تكون على مكان عال مشرف على الأمم ، وأنها أول من يجاسب ، وأنها أول من يدخل الجنة من الأمم ، وأن لكل منها نورين كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنها تمر على الصراط كالبرق الخاطف وأنها تشفع فى بعضها ، وأن لها ماسعت وما سعى لها ، وأنها اختصت عن من الأمم ماعدا الأنبياء بوصف الإسلام على الرجح كما تقدم لأنه لم يوصف بالإسلام أحد الأمم السالفة سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقد شرفت بأن توصف بالوصف الذى توصف به الأنبياء تشريفا لها وتكريما ، فقد قال زيد بن أسلم أحد أئمة السلف العالمين بالقرآن والتفسير : لم يذكر الله بالسلم غير هذه الأمة ، أى وما ورد مما يؤم خلاف ذلك مؤول .

وقد خصت هذه الأمة بخصائص لم تكن لأحد سواها إلا للأنبياء فقط ؛ فمن ذلك الوضوء ، فإنه لم يكن أحد يتوضأ إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه مرفوعا ، فى التوراة والإنجيل وصف هذه الأمة أنهم يوضئون أطرافهم . وفى بعض الآثار : افترضت عليهم أن يتطهروا فى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء لكن تقدم فى الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم توضأ مرة مرة ، فقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، ثم توضأ مرتين ففقال : هذا وضوء الأمم من قبلكم ، من توضأ مرة أتاه الله أجره مرتين ، ثم توضأ ثلاثا ثلاثا ، فقال . هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ووضوء خليل الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين » وهذا الحديث كما ترى يقتضى مشاركة الأمم مع هذه الأمة فى أصل الوضوء ، والاختصاص إنما هو بالتثليث ، وتقدم الكلام على ذلك ، أى والغسل من الجنابة .

ففيما أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام فى وصف هذه الأمة « وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأن منها سبعين ألفا ، مع كل واحد من هؤلاء

السبعين ألفا سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، أى وباجلال الله تعالى توقيير المشايخ منهم ، وأنهم اذا حضروا القتال فى سبيل الله حضرهم الملائكة لنصرة الدين ، وأن الملائكة تنزل عليهم فى كل سنة ليلة القدر تسلم عليهم ، وأكل صدقاتهم فى بطونهم ، وإثابتهم عليها ، وتعجيل الثواب فى الدنيا مع ادخاره فى الآخرة ، كصلة الرحم فإنها تزيد فى العمر ويثاب عليها فى الآخرة ومدعوا به استجيب لهم .

روى الترمذى رحمه الله « أعطيت هذه الأمة ما لم يعط أحد بقوله تعالى (ادعونى أستجب لكم) » وإنما يقال هذا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام فى وصف هذه الأمة « إن دعونى استجبت لهم ، فإما أن يكون عاجلا ، وإما أن أصرف عنهم سوءا ، وأما أن أدخرهم فى الآخرة » ومخالطة الحائض سوى الوطء وما ألتق به ، وهو مباشرة ما بين سرتها وركبتها ، وتقدم وصفهم فى الكتب القديمة بما لا ينبغى إعادته هنا لطوله .

باب ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم

ولده صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله تعالى عنها قبل البعثة : القاسم ، وهو أول أولاده صلى الله عليه وسلم ، وبه كان يكنى ، وقيل عاش سنتين ؛ وقيل سنة ونصفا ، وقيل حتى مشى ، وقيل بلغ ركوب الدابة ، وقيل عاش سبع ليال . وهو أول من مات من ولده قبل البعثة ، ثم ولدت قبل البعثة أيضا زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم رضى الله تعالى عنهن . وقيل أول بناته صلى الله عليه وسلم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم رضى الله تعالى عنهن . وقيل أكبر بناته صلى الله عليه وسلم رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ثم فاطمة . وقيل أول بناته صلى الله عليه وسلم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة . وبعض الناس ذكر رقية بعد فاطمة .

وبعد البعثة ولد له صلى الله عليه وسلم عبد الله ؛ ويسمى الطيب الطاهر . وقيل الطيب والطاهر غير ، عبد الله المذكور ولدا فى بطن واحدة قبل البعثة .

أى وقيل اللذان ولدا فى بطن واحدة قبل البعثة الطاهر والمطهر . وقيل ولد له أيضا قبل البعثة فى بطن واحدة الطيب والمطيب . وقيل ولد له قبل البعثة عبد مناف ، مات هؤلاء

قبل البعثة وهم يرضعون ، أما عبد الله الذى ولد له بعد بعثته صلى الله عليه وسلم فكان آخر الأولاد من خديجة رضى الله تعالى عنها .

وبهذا يظهر التوقف فى قول السهلبلى رحمه الله كلهم ولدوا بعد النبوة . وأجاب بعضهم بأن المراد بعد ظهور دلائل النبوة .

وفيه أن دلائل النبوة وجدت قبل تزوجه بخديجة رضى الله تعالى عنها .

وعند موت عبد الله هذا قال العاص بن وائل والد عمرو بن العاصى . وقيل أبو لهب قد انقطع ولده : أى لا ولد له ذكر لأن ماعدا الذكر عند العرب لا يذكر فهو أبتى ، فأنزل الله تعالى (إن شانئك هو الأبتر) .

أقول : فى مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه قال « بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغنى لإغفائه ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ، فقال : أنزل على آتفا سورة فقراً (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر) ولا يخفى أن هذا يقتضى أن السورة المذكورة مدنية ، ثم رأيت الإمام النووى رجح ذلك لما ذكر .

وقد يقال : يجوز أن يكون (إن شانئك هو الأبتر) نزل بمكة وما عداه نزل بالمدينة . وقد يعبر عن معظم السورة بالسورة . ثم رأيت فى الإتيان ذكر أن بما نزل دفعة واحدة سورا منها الفاتحة والإخلاص والكوثر . ثم رأيت الإمام الرافعى رحمه الله قال : فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت فى تلك الإغفائة ، وقالوا : من الوحي ما كان يأتيه فى النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، وهذا غير صحيح ، لكن الأشبه أن يقال : القرآن كله نزل يقظة ، وكان صلى الله عليه وسلم خطر له فى النوم سورة كوثر المنزل عليه فى اليقظة : أى قبل ذلك .

وفيه أن قوله آتفا لا يناسبه ، قال : أويحمل الإغفائة على الحالة التى كانت تعتربه عند نزول الوحي . ثم رأيت الجلال السيوطى فى الإتيان نظر فى جواب الرافعى الأول بما ذكرته واستحسن الجواب الثانى .

وفى المواهب أن العاصى بن وائل اجتمع هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى باب من أبواب المسجد فتحدثا وصناديد قریش جلوس فى المسجد ، فلما دخل العاصى المسجد قالوا له : من ذا الذى كنت تتحدث معه ؟ قال : ذاك الأبتر ، يعنى النبي صلى الله عليه

وسلم ، وقد كان توفي أولاده صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله تعالى عنها أى الذكور ، فرد الله سبحانه وتعالى عليه وتولى جوابه بقوله : (إن شائتك هو الأبتى) أى عدوك ومبغضك هو الدليل الحقيقى : أى باغضك هو الأبتى : أى المقطوع عن كل خير ؛ أو المقطوع رحمه بينه وبين ولده ، لأن الإسلام حجزهم عنه فلا توارث بينهم . فلا يقال العاص وأبو لهب لهما أولاد ذكور ؟ فالأول له عمرو وهشام رضى الله تعالى عنهما . والثانى له عتبة ومعتب رضى الله تعالى عنهما .

قيل وكان بين كل ولدين لخديجة سنة . وكانت رضى الله تعالى عنها تعق عن الغلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكانت تسترضع لهم .

وذكر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيره فى قوله تعالى (يهب لمن يشاء إناثا) كلوط عليه الصلاة والسلام كان له إناث ولم يكن له ذكور (ويهب لمن يشاء الذكور) كإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فإنه لم يكن له بنت (أو يزوجهم ذكرا وإناثا) كنبينا صلى الله عليه وسلم (ويجعل من يشاء عقيما) كيجي وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فإنهما لم يولد لهما ولد .

أما زينب رضى الله تعالى عنها ، فتزوجها ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة شقيقتها ، وهو العاصى بن الربيع كما تقدم . وذكر بعضهم بدل هالة هند . قال : وهالة صحابية ، وهند لأعراف لها إسلاما . ويحتمل أن يكون أحدهما اسما والآخر لقبا ، فهما واحدة .

وفى سنة ثمان من الهجرة ، أى من ذى الحجة ولدت له صلى الله عليه وسلم مارية القبطية رضى الله تعالى عنها - وكان صلى الله عليه وسلم معجبا بها ، لأنها كانت بيضاء جميلة - ولده إبراهيم . وعق عنه صلى الله عليه وسلم بكبشين يوم سابعه ، وحلق رأسه ، وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين ، وأمر بشعره فدفن فى الأرض ، أى وغارت نساؤه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن من ذلك ولا كعائشة رضى الله تعالى عنها حتى إنه صلى الله عليه وسلم قال لها : انظرى إلى شبهه ، فقالت : ما أرى شيئا فقال . ألا ترى إلى بياضه ولحمه ، وكانت قابلتها بسلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وكانت قبل ذلك مولاة عمته صلى الله عليه وسلم صفية رضى الله تعالى عنها وهبتها له صلى الله عليه وسلم ، وسلمى زوجة أبى رافع رضى الله تعالى عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لعمه العباس

رضى الله تعالى عنه قبل ذلك ، و هبه له صلى الله عليه وسلم واسمه إبراهيم وكان قبطيا . وقيل غير ذلك ، أعتقه صلى الله عليه وسلم لما أخبره بإسلام العباس ، وزوجه مولاته سلمى المذكورة . وقيل كان مولى لسعيد بن العاص ، فورثه بنوه وهم ثمانية فأعتقوه كلهم إلا ولده خالد فإنه لم يعتق نصيبه منه ، فكلمه صلى الله عليه وسلم أن يعتق نصيبه أو يبيعه أو يهبه منه ، فوهبه منه صلى الله عليه وسلم فأعتقه ، قيل بعد أن سأله صلى الله عليه وسلم أبو رافع في ذلك ، وبقي عقبه مع أشرف المدينة .

وكان ولده عبد الله كاتباً وخازناً لعلى كرم الله وجهه أيام خلافته ، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته أن مارية قد ولدت غلاما ، فجاء أبو رافع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشره ، فوهب له عبداً .

وروى أبو رافع رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نسائه واغتسل عند كل واحدة منهن غسلا » قال أبو رافع « فقلت له : يا رسول الله لوجعلته غسلا واحداً ، قال : هذا أزكى وأطيب » وسمى صلى الله عليه وسلم ابنه يومئذ : أى يوم ولادته ، وقيل سماه شابع ولادته ، ودفعه لأم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس لترضعه ، وأعطاهما قطعة نخل ، فكانت ترضعه في بنى مازن وترجع به إلى المدينة ، وكان صلى الله عليه وسلم ينطلق إليها فيدخل البيت ويأخذه فيقبله ، ثم يرجع .

ولما احتضر جاء صلى الله عليه وسلم فوجده في حجر أمه ، فأخذه صلى الله عليه وسلم في حجره وقال « يا إبراهيم إنا لن نغنى عنك من الله شيئا ، ثم ذرفت عيناه صلى الله عليه وسلم وقال : إنا بك يا إبراهيم لحزونون ، تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ونهانا عن الصياح . أى وفي لفظ « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » ولولا أنه وعد صادق وموعد جامع — فإن الآخر منا يتبع الأول — وجدنا عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ما وجدناه « أى وفي لفظ « ولولا أنه أمر حق ووعد صادق وأنها سبيل مائة لحزنا عليك حزنا شديدا أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لحزونون » وفي لفظ « وإنا بفراقك يا إبراهيم لحزونون » .

وعن سيرين : لما نزل بإبراهيم الموت صرت كلما صحت أنا وأختي نهانا صلى الله عليه وسلم عن الصياح ، أى ولما بكى صلى الله عليه وسلم قال له أبو بكر وعمر رضى الله تعالى

عنهما « أنت أحق من علم الله حقه ، قال : تدمع العين ، وقال له صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه : أو لم تكن نهييت عن البكاء ؟ قال : لا ولكنني نهييت عن صوتين أحقين وآخرين : صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب وورثة شيطان ، وصوت عند نعمة هو ، وهذه رحمة ، ومن لا يرحم لا يرحم » وذكر « أنه لما مات كان صلى الله عليه وسلم مستقبلا للجبل فقال : يا جبل لو كان بك مثل ماى لهدك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصرخ أسامة رضى الله تعالى عنه ، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : رأيتك تبكى ، فقال له صلى الله عليه وسلم البكاء مع الرحمة ، والصرخ من الشيطان » .

ولما مات ولد سليمان بن عبد الملك التفت إلى ولى عهده عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه وقال له : إني أجد في كبدي جرة لا يظفها إلا عبرة ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : اذكر الله يا أمير المؤمنين ، وعليك بالصبر . والتفت إلى وزيره رجاء ، فقال له رجاء اقضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس ، فقد دمت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم ، فأرسل سليمان عينيه فبكى حتى قضى أرباء ، ثم أقبل عليهما ، فقال : لو لم أنزف هذه العبرة لانصدت كبدي ثم لم يبك بعدها ، ولذلك قيل :

في إفاضة الكئيب لدمعته ما يذهب من لوعته
وفي إرساله لعبرته ما يعينه على سلوته

ومات سنة عشر من الهجرة .

واختلف في سنه؟ فقيل سنة وعشرة أشهر وستة أيام ، وقيل ثمانية عشر شهرا ، مات عند ظرئه أم بردة ، وغسلته ، وحملت بين يديها على سرير .

وفي رواية غسله الفضل بن العباس رضى الله تعالى عنهما ورسول الله صلى الله عليه

وسلم على سرير .

وفي كلام ابن الأثير رحمه الله قيل : إن الفضل بن العباس رضى الله تعالى عنهما غسل إبراهيم ونزل ن قبره هو وأسامة بن زيد ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفير القبر ، قال الزبير : ورش على قبره ماء ، وعلم على قبره بعلامة . وهو أول قبر رش عليه الماء ، وفيه أنه رش على قبر عثمان بن مظعون بالماء ، وهو سابق على سيدنا إبراهيم كما تقدم ، وصلى عليه صلى الله عليه وسلم وكبر أربعاً ، أى وقيل لم يصل عليه : أى لم تقع الصلاة

عليه من أحد : وفي كلام النووي رحمه الله القول بالصلاة عليه ، هو قول جمهور العلماء وهو الصحيح .

وما جاء عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه لم يصل عليه قال ابن عبد البر رحمه الله إنه غلط ، فقد أجمع جماهير العلماء على الصلاة على الأطفال إذا استهلوا عملا مستفيضا عن السلف والخلف .

وقال الإمام أحمد رحمه الله في خبر عائشة رضي الله تعالى عنها : إنه خبر منكر جدا ، أى وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم « الطفل يصلى عليه » وجاء « صلوا على أطفالكم فإنه من أفراطكم » وقد جاء في المرفوع « إذا استهل المولود صلى عليه وورث وورث » وجاء « أحق ما صليتم على أطفالكم » ومن المقرر أنه إذا تعارض الإثبات والنفي قدم الإثبات على النفي .

ولما كسفت الشمس في ذلك اليوم قال قائل : كسفت لموت إبراهيم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكسف لموت أحد ولا لحياته » . وفي لفظ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده ، فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » الحديث . ودفن بالبقيع وقال « الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون رضي الله عنه » ولقنه صلى الله عليه وسلم . قال الإمام السبكي : وهو غريب . وقد احتج به بعض أئمتنا على استحباب تلقين الطفل .

وفي التتمة للمتولى من أئمتنا : والأصل في التلقين ما روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دفن إبراهيم قال : قل الله ربى ، ورسول الله أبى ، والإسلام دينى . فقيل له : يا رسول الله أنت تلقنه فمن يلقننا ؟ فأنزله الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أى وفي رواية « أنه صلى الله عليه وسلم لما دفن ولده إبراهيم وقف على قبره ، فقال : يا بنى إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بنى قل الله ربى ، والإسلام دينى ، ورسول الله أبى ، فبكت الصحابة رضوان الله عليهم . ومنهم عمر رضي الله عنه بكى حتى ارتفع صوته ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : يا رسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ولا جرى عليه القلم ويحتاج إلى تلقين مثلك يلقنه التوحيد في مثل هذا الوقت ، فما حال عمر وقد بلغ الحلم ، وجرى عليه القلم ، وليس له ملقن مثلك ؟ فبكى

النبي صلى الله عليه وسلم وبكت الصحابة معه ، ونزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى (ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) يريد بذلك وقت الموت : أى عند وجود الفتانين وعند السؤال في القبر ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية ، فطابت الأنفوس وسكنت القلوب ، وشكروا الله .

وفيه أن هذا يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم لم يلقن أحدا قبل ولده إبراهيم ، وهذا الحديث استند إليه مع يقول بأن الأطفال يسألون في القبر فيسن تلقينهم .
وذهب جمع إلى أنهم لا يسألون ، وأن السؤال خاص بالملكف ، وبه أفتى الحافظ ابن حجر رحمه الله ، فقال : والذي يظهر اختصاص السؤال بمن يكون مكلفا ، ويوافقه قول النووي رحمه الله في الروضة وشرح المهدب : التلقين إنما هو في حق الميت المكلف . أما الصبي ونحوه فلا يلقن . قال الزركشى : وهو مبنى على أن غير المكلف لا يسأل في قبره .

وذكر القرطبي رحمه الله أن الذى يقتضيه ظواهر الأخبار أن الأطفال يسألون ، وأن العقل يكمل لهم .

وذكر أن الأحاديث مصرحة بسؤال الكافر ، أى من هذه الأمة . ويخالفه قولهم حكمة السؤال تمييز المؤمن من المنافق الذى كان يظهر الإسلام في الدنيا ، وأما الكافر الجاحد فلا يسأل . قال الفاكهاني : إن الملائكة لا يسألون .

قال بعضهم : ووجهه ظاهر ، فإن الملائكة إنما يموتون عند النفخة الأولى ، أى فلم يبق منهم من يقع منه السؤال . وأما عذاب القبر فعام للمسلم والكافر والمنافق ، فعلم الفرق بين فنة القبر وعذابه ، وهو أن الفتنة تكون بامتحان الميت بالسؤال ، وأما العذاب فعام يكون ناشئا عن عدم جواب السؤال ، ويكون عن غير ذلك .

وقد اختص نبينا صلى الله عليه وسلم بسؤال أمته عنه ، بخلاف بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما ذلك إلا أن الأنبياء قبل نبينا كان الواحد منهم إذا أتى أمته وأبوا عليه اعتزلم وعوجلوا بالعذاب . وأما نبينا صلى الله عليه وسلم ، فبعث رحمة بتأخير العذاب ولما أعطاه الله السيف دخل في دينه قوم مخافة من السيف ، فقيض الله تعالى فتاني القبر ليستخرجوا بالسؤال ما كان في نفس الميت فيثبت الله المسلم ويزل المنافق .

وفي بعض الآثار تكرار السؤال في المجلس الواحد ثلاث مرات . وفي بعضها أن المؤمن يسأل سبعة أيام والمنافق أربعين يوما ، أى قد يقع ذلك .

وفي بعض الآثار أن فتاني القبر أربعة : منكر ، ونكير ، وناكور ، وسيدهم رومان
وفي بعضها ثلاثة ، أنكر ، ونكير ، ورومان . وقيل أربعة : منكر ، ونكير ، يكونان
للمنافق ، ومبشر وبشير للمؤمن .

ونقل الحافظ السيوطي عن شيخه الجلال البلقيني رحمهما الله أن السؤال يكون
بالسريانية ، واستغربه وقال : لم أره لغيره . وفي كلام الحافظ السيوطي : لم يثبت في
التقاين حديث صحيح ولا حسن ، بل حديثه ضعيف بانفاق جمهور الحديثين . ولهذا ذهب
جمهور الأمة إلى أن التلقين بدعة ، وآخر من أفتى بذلك العز بن عبد السلام ، وإنما استحسنه
ابن الصلاح وتبعه النووي نظرا إلى أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال .
وحيثئذ فقول الإمام السبكي : حديث تلقين النبي صلى الله عليه وسلم لابنه ليس له أصل
أى صحيح أو حسن .

وقال صلى الله عليه وسلم في حق إبراهيم « إن له ظئرا تم رضاعه » وفي رواية « إن له
ظئرين يكملان رضاعه في الجنة » وقال « لو عاش لو وضعت الجزية عن كل قبطي » وفي لفظ
« لأعتقت القبط وما استرق قبطي قط » وفي لفظ « مارق له خال » .

قال بعضهم : معناه لو عاش فرآه أخواله القبط لأسلموا فرحا به وتكرمة له ،
فوضعت الجزية عنهم ، لأنها لا توضع على مسلم . ومعنى الثاني إذا أسلموا وهم أحرار
لم يجر عليهم الرق ، لأن الحر المسلم لا يجرى عليه الرق .

وذكر أن الحسن بن علي رضي الله عنهما كلم معاوية في أن يضع الخراج عن أهل بلد
مارية وهي حفنة بالحاء المهملة وإسكان الفاء وبالنون : قرية من قرى الصعيد ، ففعل معاوية
ذلك رعاية لحرمتهم .

أى وقال النووي رحمه الله : وأما ما روى عن بعض المتقدمين لو عاش إبراهيم لكان
نبيا فباطل ، وجسارة على الكلام في المغيبات ، ومجازفة وهجوم على بعض الزلات . قال
الحافظ ابن حجر رحمه الله : وهو عجيب مع وروده عن ثلاثة من الصحابة ، وكأنه لم يظهر
له وجه تأويله ، وهو أن القضية الشرطية لا تستلزم الوقوع ، أى وكان اللائق به أن يكون
نبيا وإن لم يكن ذلك . ثم رأيت الجلال السيوطي رحمه الله نقل عن الأستاذ أبي بكر بن فورك
وأقره « أنه صلى الله عليه وسلم لما دفن ولده إبراهيم وقف على قبره وقال : يا بني إن القلب
يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، إن الله وإننا إليه راجعون » وكفى به صلى الله

عليه وسلم ، فقد جاء « أن جبريل عليه السلام قال له : السلام عليك يا أبا إبراهيم ، إن الله قد وهب لك غلاما من أم ولدك مارية ، وأمرك أن تسميه إبراهيم ، فبارك الله لك فيه ، وجعله قرّة عين لك في الدنيا والآخرة » زاد الحافظ الدمياطي رحمه الله « فاطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك » .

أقول : وسبب اطمئنانه صلى الله عليه وسلم بذلك أن مابورا كان يأوى إليها ويأتى إليها بالماء والحطب ، فاتهمت به وقال المنافقون عالج يدخل على عليّة ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبعث عليا كرم الله وجهه ليقتله ، فقال له على كرم الله وجهه : يا رسول الله أقتله أو أرى فيه رأيي ؟ فقال : بل ترى رأيك فيه ، فلما رأى السيف بيد على كرم الله وجهه تكشف ، وفي لفظ : فإذا هو في ركي يتبرد ، فقال على كرم الله وجهه : اخرج ، فناوله يده ، فأخرجه فإذا هو محبوب ، أي ممسوح ، فكف عنه على كرم الله وجهه ورجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : أصبت ، إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب . أي وتكون هذه القضية متقدمة على قول جبريل عليه الصلاة والسلام المذكور ، فالمراد مزيد الاطمئنان .

وفي كلام بعضهم « أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على مارية رضى الله تعالى عنها وهي حامل بولده إبراهيم فوجد عندها من ذكر ، فوقع في نفسه شيء ، فخرج صلى الله عليه وسلم وهو متغير اللون ، فلقبه عمر رضى الله تعالى عنه فعرف الغيظ في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فأخبره ، فأخذ عمر السيف ثم دخل على مارية رضى الله عنها وهو عندها فأهوى إليه بالسيف ، فلما رأى ذلك كشف عن نفسه فإذا هو محبوب فلما رآه عمر رضى الله عنه رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : ألا أخبرك يا عمر ؟ إن جبريل عليه الصلاة والسلام أتاني فأخبرني أن الله برأها ونزهاها مما وقع في نفسي ، وبشرني أن في بطنها غلاما مني ، وأنه أشبه الخلق بي ، وأمرني أن أسميه إبراهيم ، وكناني بأبي إبراهيم ، ولولا أني أكره أن أحول كنيتي التي تكنتت بها لتكنيت بأبي إبراهيم » والله أعلم .

أي وفي النور : إنى لا أعرف في الصحابة خصيا إلا هذا وشخص آخر يقال له سغد ، رآه مولاة يقبل جارية له فخصاه وجدعه ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه سيده .

حرفي كلام بعضهم عد ابن منده وأبو نعيم مابورا في الصحابة ، وقد غلطا في ذلك ، فإنه لم يسلم وما زال نصرانيا ، ومنه أى بسببه فتح المسلمون مصر في خلافة عمر رضى الله عنه .

باب ذكر أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم

أعمامه صلى الله عليه وسلم اثنا عشر ، وهم : الحارث وهو أكبر أولاد جدّه عبدالمطلب وبه كان يكنى . وشقيقه قمّ وقد هلك صغيرا . وأبو طالب . والزبير . وعبد الكعبة ، وهؤلاء الثلاثة أشقاء لعبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل الحارث لاشقيق له ، وحزّة وشقيقاه المقوم بفتح الواو وكسرهما مشددة ، وجحل بتقديم الجيم على الحاء ، واسمه المغيرة ، والجحل السقاء الضخم ، أى وقيل بتقديم الحاء مفتوحة على الجيم ، وهو فى الأصل الخللخال . والعباس وشقيقه ضرار ، وقد تقدم أن أم العباس رضى الله عنه أول من كست الكعبة الحرير ، وأبولهب واسمه عبد العزى ، والغيداق واسمه مصعب ، وقيل نوفل ، ولقب بالغيداق لكثرة جوده ، أى لأنه كان أجود قريش وأكثرها طعاما ومالا ، وذكر بعضهم فى أعمامه العوام .

وعماته صلى الله عليه وسلم ست وهن : أم حكيم وعاتكة وبرة وأروى وأميمة ، وهؤلاء الخمسة أشقاء لعبد الله والده صلى الله عليه وسلم وصفية : أى وهى شقيقة حمزة ولم يسلم من أعمامه صلى الله عليه وسلم الذين أدركوا البعثة إلا حمزة والعباس ، وحكى إسلام أبى طالب وقد تقدم ما فيه ولم يسلم من عماته اللاتي أدركن البعثة من غير خلاف إلا صفية أى أم الزبير بن العوام ، أسلمت وهاجرت أى وماتت فى خلافة عمر رضى الله عنه . قيل وأسلمت عاتكة التى هى صاحبة الرؤيا يوم بدر ، وقيل وأروى . قال بعضهم : والمشهور أن عاتكة لم تسلم .

باب ذكر أزواجه وسراريه صلى الله عليه وسلم

لا يخفى أن أزواجه صلى الله عليه وسلم المدخول بهن اثنا عشرة امرأة : خديجة رضى الله عنها ، وهى أول نساته صلى الله عليه وسلم وكانت قبله تحت أبى هالة بن زرارة التيمى ، وقيل كانت تحت عتيق بن عائذ المخزومى أولا ثم تحت أبى هالة كما تقدم . وجاء « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب

فيه ولا نصب» أى ليس فيه رفع صوت ولا تعب : أى من درة مجوفة ، فقد جاء « أنها قالت له : يا رسول الله هل فى الجنة قصب ؟ فقال : إنه من لؤلؤ مجيىء بالجيم وبالوحدة مشددة : أى مجوف . وجوزيت رضى الله عنها بهذا البيت ، لأنها أول من بنى بيتا فى الإسلام بزوجها برسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء « من كسا مسلما على عرى كساه الله من حلل الجنة ، ومن سقى مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق جزاء وفاقا » : وعن عائشة رضى الله عنها : ما غرت على أحد ما غرت على خديجة رضى الله عنها ، ولقد هلكت قبل أن يتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت له صلى الله عليه وسلم يوما وقد مدح خديجة رضى الله عنها : ما تذكر من عجوز حراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « والله ما أبدلتنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بما لها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » واتفق له صلى الله عليه وسلم « أنه أرسل لهما لامرأة تناوله صلى الله عليه وسلم ودفعه لآخر يدفعه لها ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : لم تحرز يدك (١) فقال : إن خديجة أوصتني بها ، فقالت عائشة : لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا ؛ فلبث ما شاء الله ثم رجع ، فإذا أم رومان أم عائشة رضى الله عنهما ، فقالت يا رسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه السن وأنت أحق من يتجاوز عنها ، فأخذ بشدق عائشة رضى الله عنها ؛ وقال : ألسن القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة ، والله لقد آمنت بى إذ كفر بى قومك ورزقت منها الولد وحرمتموه » .

ثم سودة بنت زمعة أى وأمها من بنى النجار لأنها بنت أختى سلمى بن عبد المطلب (٢) كما تقدم .

ثم أم عبد الله عائشة رضى الله عنها بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، اكننت بابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير رضى عنهم بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فصار يقال لها أم عبد الله كما تقدم .

(١) (قوله لم تحرز يدك) هكذا فى بعض النسخ وفى بعضها (لم تحزرت بذلك) وليحرر .

(٢) (قوله لأنها بنت أختى سلمى بن عبد المطلب) الذى تردقانى على المواهب (بنت أختى سلمى

بن عمرو بن زيد أم عبد المطلب) وهى ظاهرة .

وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة « هو عبد الله وأنت أم عبد الله » قالت : فمازلت أكتفى به ، أى وكان يدعوها أما لأنه رضى الله عنه تربى في حجرها .

ويقال إنها أتت منه صلى الله عليه وسلم بسقط : أى وسمى عبد الله . قال الحافظ الدمياطبى ولم يثبت كما تقدم ، وتزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة في شوال وهى بنت سبع سنين ، وبنى صلى الله عليه وسلم بها وهى بنت تسع سنين أى في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة على الصحيح كما تقدم ، وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لها : أريتك في النوم مرتين ، أرى ملكا يحملك في سرقه » أى شقة حرير « فيقول : هذه امرأتك فأكشف فأراك فأقول ، إن كان من عند الله يمضه » وقبض صلى الله عليه وسلم عنها وهى بنت ثمان عشرة ولم يتزوج بكرا غيرها ، وقبض صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجرها ، ودفن في بيتها كما سيأتى ، وماتت وقد قاربت سبعا وستين سنة في شهر رمضان سنة ثمان وخسين ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه بالقيع ، وقيل سعيد بن زيد ، ودفنت به ليلا وذلك في زمن ولاية مروان بن الحكم على المدينة في خلافة معاوية . وكان مروان استخلف أبا هريرة رضى الله عنه لما ذهب إلى العمرة في تلك السنة .

ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وهى شقيقة عبد الله بن عمر وأسن منه ، وأمها زينب أخت عثمان بن مظعون ، وكانت قبله صلى الله عليه وسلم تحت خنيس ابن حذافة رضى الله عنه ، فتوفى عنها بجراحة أصابته بيدر ، وقيل بأحد وهو خطأ لما سيأتى من أن تزوجه صلى الله عليه وسلم لها في شعبان على رأس ثلاثين شهرا من الهجرة قبل أحد بشهرين .

أقول : وكانت ولادتها قبل النبوة بخمس سنين وقريش تبنى البيت . وماتت بالمدينة في شعبان سنة خمس وأربعين ، وصلى عليها مروان بن الحكم ، وهو أمير المدينة يومئذ ، وحمل سريرها ، وحمله أيضا أبو هريرة رضى الله عنه وقد بلغت ثلاثا وستين سنة . وقيل ماتت لما بويج معاوية سنة إحدى وأربعين والله أعلم ، وطلقها صلى الله عليه وسلم . وقيل في سبب طلاقها أنه صلى الله عليه وسلم كان في بيتها فاستأذنت في زيارة أبيها ، أى وقيل في زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين : أى بينهما المصافاة فأذن لها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مارية وأدخلها بيت حفصة وواقعها ، فرجعت حفصة

فأبصرت مارية مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، وقالت له : إني رأيت من كان معك في البيت وغضبت وبكت ، أى وقالت : يا رسول الله لقد جئت إلى بشيء ما جئت به إلى أحد من نسائك في يومى وفى بيتى وعلى فراشى ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهها الغيرة ، قال لها : اسكتى فهى حرام علىّ أبتغى بذلك رضاك .

وفى رواية : « أما ترضين أن أحرمها على نفسى ولا أقربها أبداً ؟ قالت : بلى ، وحلف أن لا يقربها » : أى قال إنها حرام .

وفى رواية : « قد حرمتها علىّ » ، ومع ذلك أخبرك أن أباك الخليفة من بعد أبى بكر فاكتمى علىّ » .

وفى رواية. قال لها : « لا تخبرى بما أسرت إليك » فأخبرت بذلك عائشة رضى الله عنهما ، فقالت : قد أراحنا الله من مارية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرّمها على نفسه وقصت عليها القصة . وقيل خلا صلى الله عليه وسلم بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكنمى علىّ قد حرمت مارية على نفسى ، فأخبرت بذلك عائشة وكانتا متصادقتين بينهما المصافاة كما تقدم ، فطلقها وأنزل الله تعالى عند تحريم مارية قوله (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبغى مرضاة أزواجك) إلى قوله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى أوجب عليكم كفارة ككفارة أيمانكم ، لأن الكفارة تحل ما عقدته اليمين لأن هذا ليس من الأيمان : أى وأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على أن حفصة قد نبأت عائشة بما أسره إليها من أمر مارية ، وأمر الخلافة ، فلما أخبر صلى الله عليه وسلم عائشة ببعض ما أسرته لها وهو أمر مارية وأعرض عما أسره إليها من أمر الخلافة خوفاً أن ينتشر ذلك فى الناس ، قالت عائشة : من أنبأك هذا ؟ قال : « نبأنى العليم الخبير » ، ومن ثم كان ابن عباسى رضى الله عنهما يقول : والله إن خلافة أبى بكر وعمر لنى كتاب الله ثم يقرأ هذه الآية .

ولما أفشت حفصة رضى الله عنها سره صلى الله عليه وسلم طلقها كما تقدم ، فجاءه جبريل عليه السلام يأمره بمراجعتها ، لأنها صوامة قوامة ، وإنما لإحدى زوجاته صلى الله عليه وسلم فى الجنة .

وفى رواية ، تأتى : راجعها رحمة لعمر . وقيل همّ صلى الله عليه وسلم بتطبيقها ولم

يفعل ، فقد جاء عن عمار بن ياسر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يطلقها ، فقال له جبريل عليه السلام : إنها صوامة قوامه ، وإنها زوجتك في الجنة . وعليه فيراد بالمراجعة المصالحة والرضا عنها كما سيأتى . قال فى الينبوع : وهذا هو المشهور ، فسيأتى ما يدل على صحته : أى والذى سيأتى قول عمر رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم لما اعتزل نساءه : يا رسول الله أطلقتهن ؟ قال لا .

وفيه أن هذا كان عند طلبهن منه صلى الله عليه وسلم النفقة ، وهذه الواقعة غير تلك ، وقيل فى سبب نزول الآية غير ذلك .

وفى البخارى فى سبب نزول الآية عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها ، فلتقل له صلى الله عليه وسلم أكلت مغاير : أى أجد منك ريح مغاير ، فدخل على حفصة رضى الله عنها ، فقالت له ذلك ، فقال لها : لا ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا » أى لأنه صلى الله عليه وسلم لا يجب أن يظهر منه ريح كريهة ، لأن المغاير صمغ العوسج من شجر التمام كريبه الريح .

وعن عمر رضى الله عنه أن امرأته راجعته فى شىء فأنكر عليها مراجعتها ، فقالت له : عجباً لك يا ابن الخطاب : ما تريد أن تراجع ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقام عمر رضى الله عنه ، فدخل على حفصة رضى الله عنها فقال لها : يا بنية إنك لتراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقالت له حفصة : والله إنا لتراجعه ، فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم ، يا بنية لا تغررك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، يريد عائشة ، قال : ثم دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها ، فقالت : يا ابن الخطاب دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، فأخذتني والله أخذاً كسررتني عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها ، فأنا فى منزلى ، فجاءني صاحب لى من الأنصار ، وأخبرني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه ، فقلت : رغم أنف حفصة وعائشة فأخذت ثوبى وجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو فى مشربة له يرقى إليها بعجلة ، وهو

جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشربة وينحدر منها عليه، وغلّام له أسود يقال له رباح على رأس العجالة ، فقلت له قل له هذا عمر بن الخطاب ، فأذن لي : أى بعد أن قال له : يارباح استأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وفي كل مرة ينظر رباح إلى المشربة ولا يرد له جوابا ، وفي الثالثة رفع له عمر رضى الله عنه صوته فأوما إليه أن ارق ، قال : فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصت عليه القصة ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم ، ويأتى أن هذا كان عند اجتماعهن عليه فى النفقة لأجل معاتبة الله إياه بسبب الحديث الذى أفشته حفصة . ويحتمل أنه لاجتماع الأمرين .

وفي رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عن المرأتين من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى فيهما (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) فقال : واعجبا لك يا ابن عباس : هما عائشة وحفصة : أى فإن الله خاطبهما بقوله (إن تتوبا إلى الله) أى فهو خير لكما (فقد صغت قلوبكما) أى مالتا عما يجب عليكما من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتغاء مرضاته ، ثم استقبل الحديث قال : كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساءهم ، فصخبت على امرأتى فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النّبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفرغنى ذلك منهن ، فدخلت على حفصة ، فقلت لها : أتغاضب إحدانا كن النّبى صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل ؟ قالت : نعم فقلت : قد خبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكى ، لا تستكثرى النّبى صلى الله عليه وسلم ، ولا تراجعيه فى شيء ، ولا تهجره ، وسلينى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النّبى صلى الله عليه وسلم ، يريد عائشة ، فأخبرت أن النّبى صلى الله عليه وسلم طلق نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا ، فدخلت على حفصة ، فإذا هى تبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ ألم أكن حذرتك هذا ؟ أطلقكن النّبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لأدرى ، ها هو معتزل فى المشربة : أى الغرفة ، فانه صلى الله عليه وسلم لما عاتبه الله سبحانه بسبب الحديث الذى أفشته حفصة على عائشة حلف

لا يدخل على نسائه شهرا ، فصار صلى الله عليه وسلم يتغدى ويتعشى وحده في تلك المشربة ، فجئت المشربة ، فقلت لغلام أسود : استأذن لعمر ، فدخل الغلام فكلم النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع ، فقال : كلمته وذكرك له فصمت ، فانصرفت ، ثم غلبنى ما أجد ، فجئت ، فقلت للغلام : استأذن لعمر ، فدخل ثم رجع إلى فقال : ذكرك له فصمت ، فرجعت ، ثم غلبنى ما أجد ، فجئت الغلام ، ثم قلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم رجع إلى ، فقال ذكرك له ، فصمت ، فلما وليت منصرفا إذا الغلام يدعوني ، فقال : قد أذن لك النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال بجنبه ، متكئا على وسادة من آدم حشوها ليف ، فسلمت عليه ثم قلت له : وأنا قائم : يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فرفع بصره إلى فقال : لا ، فقلت : الله أكبر ، كنا معاشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة فإذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قلت يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها لا يفرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم تبسمة أخرى ، فجلست حين رأته صلى الله عليه وسلم تبسم .

وفي رواية أن عمر رضی الله عنه لما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة حثا على رأسه التراب ، وقال : ما يعبا الله بعمر وابنته بعدها فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم من الغد وقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصه رحمة لعمر .

وقد يراد بالمراجعة المصالحة والرضا فلا ينافي ما تقدم أنه لم يطلقها وإنما أراد ذلك ، ويبدل له ما جاء عن عمار بن ياسر رضی الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يطلقها فقال له جبريل عليه السلام : إنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك في الجنة ، ومن هذا وما يأتي يعلم أنه صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه ، وأما الظهار فلم يظاهر أبدا خلافا لمن زعمه .

أى وجاء عن ابن عباس رضی الله عنهما في سبب اعتزاله صلى الله عليه وسلم لنسائه في المشربة أنه شجر بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين حفصة أمر ، فقال لها : اجعلي بيني وبينك رجلا ، قالت : نعم ، قال : فأبوت إذن ، فأرسلت إلى عمر فجاء ، فلما دخل عليهما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم : تكلمي ، فتالت : بل أنت يا رسول الله تكلم

ولا تقل إلا حقاً ، فرجع عمر رضى الله عنه يده فوجأها فى وجهها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كف يا عمر ، فقال عمر : يا عدوة الله ، النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق ، والذي بعثه بالحق لولا مجلسه مارفعت يدي حتى تموتى ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فصعد إلى الغرفة ، فكث فيها شهراً لا يعرف شيئاً من نساءه ونزلت آية التخيير . ويقال : لا مانع من اجتماع هذا السبب مع ما تقدم .

ويروى أن سبب نزول آية التخيير أن نساءه صلى الله عليه وسلم اجتمعن عليه فسألته النفقة ولم يكن عنده شئ ، فألى أن لا يجتمع بهن شهراً وصعد المشربة الحديث .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال : جاء أبو بكر يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه ليؤذن لهم ، قال فأذن لأبي بكر رضى الله عنه فدخل ، ثم أقبل عمر ماشياً ، فأذن له فدخل فوجد النبي صلى الله عليه وسلم حوله نساؤه : أى قد سأله النفقة وهو واجم ساكت لا يتكلم ، فقال عمر رضى الله عنه : لأقولن شيئاً أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله لو رأيت فلانة بعنى زوجته سألتنى النفقة فقمتم إليها فوجأت عنقها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألتنى النفقة ، فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة فوجأ عنقها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة فوجأ عنقها وكل يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ثم أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجتمع بهن شهراً .

وفى رواية أخرى هن عمر رضى الله عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلاً ، فمدق عليه بابه وناداه ، قال عمر : فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : ماذا أ جاءت غسان ، لأننا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخليل لغزونا ، فقال : لا ، بل أمر أعظم من ذلك وأطول ، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت : خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابى ودخلت على حفصة وهى تبكى ، فقلت أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لا أدرى هو هذا معزلاً فى هذه المشربة : أى لأن نساءه صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن عليه صلى الله عليه وسلم فى طلب النفقة أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن ، قال عمر رضى الله عنه : لأقولن من الكلام شيئاً أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتيت غلاماً له صلى الله عليه وسلم أسود ، فقلت له : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم

خرج وقال : قد ذكرت لك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المسجد ، فجلست قليلا ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام ، فقلت : استأذن لعمري ، فدخل ثم خرج إلى ، فقال : قد ذكرت لك له فصمت ، فلما كان في المرة الرابعة وقال لي مثل ذلك وليت مدبرا ، فإذا الغلام يدعوني ، فقال : ادخل ، قد أذن لك ، فدخلت ، فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ قال : فرفع رأسه إلى وقال : لا ، فقلت : الله أكبر ، ثم قلت : كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ففطق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت فلانة يعني زوجته فراجعتني ، فأنكرت عايبها ، فقالت : تنكر أن راجعتك ؟ فوالله لقد رأيت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه وتهجره لإحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك وخسر ، أتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهبت إلى حفصة فقلت : أتراجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : نعم ، وتهجره إحداها اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسألينه شيئا ، وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ؟ يعني عائشة رضي الله تعالى عنها ، فتبسم أخرى ، فقلت ، أستأنس يا رسول الله ؟ قال : نعم فجلست وقلت : يا رسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا وقال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجبت لهم طبيعتهم في الحياة الدنيا ، فقلت : أستغفر الله يا رسول الله ، فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه في قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك) الآية ، فنزل ودخل على عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقالت له : يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما أعددهن ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الشهر تسع وعشرون . وفي رواية يكون هكذا وهكذا ، يشير بأصابع يديه وفي الثالثة حبس إبهامه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة إني ذاكر لك أمرا : فلا عليك أن لا تعجلي . وفي رواية : إني أعرض عليك أمرا وأحب أن لا تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت : وما هو يا رسول الله

فقرأ علىّ (يا أيها النبي قل لأزواجك) الآية ، قلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وفى رواية : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة . قالت رضى الله تعالى عنها : ثم قلت له لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت لك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يعثنى متعتنا ولكن بعثنى معلما ميسرا ، ثم فعل بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت عائشة رضى الله تعالى عنهن .

ثم زينب بنت خزيمة رضى الله تعالى عنها ، وهى أخت ميمونة لأمها ، كانت تدعى : أى فى الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم أى كما سمى صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بأبى المساكين لحبه لهم ، وجلوسه عندهم ، وتحدثه معهم ، وإحسانه إليهم رضى الله تعالى عنه ، كانت قبله تحت الطفيل بن الحارث ، فطلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث ، فقتل يوم بدر شهيدا ، فخطبها صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أمرها إليه فتزوجها صلى الله عليه وسلم وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا ، أى وذلك على رأس أحد وثلاثين شهر من الهجرة قبل أحد بشهر . وفى لفظ أن عبيدة بن الحارث قتل عنها يوم أحد فخلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ أنها كانت تحت عبد الله بن جحش ، قتل عنها يوم أحد ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فى المواهب : وهو أصح .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عروسة بزيب ، فعمدت أم سليم إلى تمر وسمن وأقط ، فصنعت حيسا فجعلته فى تور ، فقالت : يا أنس إذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل : بعثت بهذا إليك أمى وهى تقرئك السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادع لى فلانا وفلانا رجالا سماهم ، وادع لى من لقيت ، فدعوت من سمى ومن لقيت ، فرجعت ، فإذا البيت غاص بأهله ، قيل لأنس : ما عددهم ؟ قال : كانوا ثلثمائة فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده الشريفة على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله ، ثم جعل يدعو عنده عشرة يأكلون منه ، ويقول لهم : اذكروا الله وليأكل كل رجل مما يليه ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لى : يا أنس ارفع فرفعت ، فأدرى حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت ، فكنت عنده صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر وقيل شهران أو ثلاثة ، ثم توفيت وصلى عليها رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، ودفنت بالقيع ، وقد بلغت ثلاثين سنة أو نحوها . ولم يمت من أزواجه صلى الله عليه وسلم في حياته إلا هي وخديجة رضى الله تعالى عنهما .

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم بعد زينب هذه أم سلمة . واسمها هند . وكانت قبله صلى الله عليه وسلم عند أبي سلمة رضى الله تعالى عنه عبد الله بن عبد الأسد ابن عمته صلى الله عليه وسلم برة بنت عبد المطلب ، وأخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، وكانت هي وهو أول من هاجر إلى الحبشة على ماتقدم ، فلما مات أبو سلمة رضى الله تعالى عنه ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلى الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيرا ، فقالت : ومن يكن خيرا من أبي سلمة ؟ ولما اعتدت أم سلمة رضى الله تعالى عنها أرسل صلى الله عليه وسلم يخطبها مع حاطب بن أبي بلتعة رضى الله تعالى عنه ، أى وكان خطبها أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأبت ، وخطبها عمر فأبت ، فلما جاءها حاطب ، قالت : مرحبا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقول له : إني امرأة مسنة ، وإني أم أيتام : أى لأنها رضى الله تعالى عنها كان معها أربع بنات : برة وسامة وعمرة ودرة ، وإني شديدة الغيرة ، فأرسل صلى الله عليه وسلم يقول لها : أما قولك إني امرأة مسنة فأنا أسن منك ، ولا يعاب على المرأة أن تزوج أسن منها . وأما قولك : إني أم أيتام فإن كلهم على الله وعلى رسوله . وأما قولك : إني شديدة الغيرة فإني أدعو الله أن يذهب ذلك عنك . أى وفيه أنهم قالوا : يا رسول الله ألا تزوج من نساء الأنصار ؟ قال : إن فيهن غيرة شديدة . وفي لفظ أنها قالت زيادة على ماتقدم : ليس لي ههنا أحد من أوليائي فيزوجني ، فأثابها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : أما ما ذكرت من غيرتك فإني أدعو الله أن يذهبها عنك . وأما ما ذكرت من صيبتك فإن الله سيكفيهم . وأما ما ذكرت من أوليائك فليس أحد من أوليائك يكرهني ، فقالت لابنها : زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجه أى على متاع منه رحي وجفنة وفراش حشوه ليف ، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم ، وقيل أربعون درهما . قالت : فتزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدخلني بيت زينب أم المساكين رضى الله تعالى عنها بعد أن ماتت ، فإذا جرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحي وبرمة وقدر وكعب : أى ظرف الأدم ، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه .

وماتت أم سلمة رضي الله تعالى عنها في ولاية يزيد بن معاوية ، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ، وقيل سعيد بن زيد وغلظ قائله .

وذكر بعضهم أن تزويج ولدها لها رضي الله تعالى عنهما إنما كان بالعصوبة لأنه كان ابن ابن عمها .

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم بعد أم سلمة رضي الله تعالى عنها زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها ، وكان اسمها برة ، فسماها صلى الله عليه وسلم زينب : أي خشى أن يقال خرج من عند برة ، وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وكانت قبله صلى الله عليه وسلم عند مولاه زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما ثم طلقها ، فلما انقضت عدتها زوجه الله إياها ، أي لأنه صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة يخطبها له صلى الله عليه وسلم ، قال زيد : فذهبت إليها فجعلت ظهري إلى الباب فقلت : يا زينب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، فقالت : ما كنت لأحدث شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل ، فأ نزل الله تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن ، فكانت رضي الله تعالى عنها تفتخر بذلك على نسائه صلى الله عليه وسلم وتقول : إن الله أنكحنى إياه من فوق سبع سموات ، وهذا يرد ما قيل إن أختها أبا أحمد بن جحش زوجها منه صلى الله عليه وسلم .

قال في النور : ويمكن تأويل تزويج أخيها إياها .

أي وقد ذكر مقاتل رحمه الله أن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما لما أراد أن يتزوج زينب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله اخطب علي ، قال له : من؟ قال : زينب بنت جحش ، قال : لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نفساً ، فقال : يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس علي ففعلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنها امرأة لسوء ، فذهب زيد رضي الله تعالى عنه إلى علي كرم الله وجهه ، فحملة علي أن يكلم له النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلمه ، فقال إني فاعل ذلك ومرسلك يا علي إلى أهلها فتكلمهم ، ففعل ، ثم عاه يخبره بكرامتها وكرامة أخيها لذلك ، فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم يقول : قد رضيته لكم ، وأقضى أن تنكحوه ، فأنكحوه ، وساق لهم عشرة دنانير وستين درهما ودرعاً وخماراً وملحفة وإزاراً

وخصين مدا من الطعام وعشرة أمداد من التمر أعطاه ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولم عليها ، وأطعم المساكين خبزاً ولحماً : أى وتزوجها صلى الله عليه وسلم هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة على الصحيح وهى بنت خمس وثلاثين سنة ، وقيل نزلت فى ذلك اليوم آية الحجاب ، فإنه صلى الله عليه وسلم لما دعا القوم وطعموا تهباً صلى الله عليه وسلم للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) الآية وتكلم فى ذلك المناقون وقالوا : محمد حرم نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه أى لأن زيد بن حارثة كان يقال له زيد بن محمد : أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان تبناه كما تقدم ، فأنزل الله تعالى (ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم) وأنزل (أدعوهم لأبائهم) فن حينئذ كان يقال له رضى الله تعالى عنه زيد بن حارثة كما تقدم .

وهى أول نسائه صلى الله عليه وسلم لحوقابه . ماتت رضى الله تعالى عنها بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة . وصلى عليها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، أى فإن عمر رضى الله تعالى عنه أرسل إلى زينب رضى الله تعالى عنها بالذى لها من العطاء ، فسترته بثوب ، وأمرت بتفرقة ، فكان خمسة وثمانين درهماً ، ثم قالت : اللهم لا تدركنى عاما لعمر بعد عامى هذا فماتت .

وهى أول من جعل على نعشها قبة ، أى بعد فاطمة رضى الله تعالى عنها ، فلا يخالف ما سبق مما ظاهره أنه فعل لها ذلك .

وفى كلام بعضهم أن زينب هذه أول من حمل على نعش ، وقيل أول من حمل على نعش فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول فى حقها : هى التى كانت تساوينى فى المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت امرأة قط خيراً فى الدين وأتقى لله وأصدق فى حديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة من زينب رضى الله تعالى عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حقها : إنها لأواهة ، فقال رجل : يارسول الله ماالأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع . وهى أول نسائه صلى الله عليه وسلم لحوقابه كما تقدم . وقال له صلى الله عليه وسلم بعض نسائه : أينا أسرع بك لحوقاً ؟ قال : أطولكن يدا ، فلأخذن

قصبة يذرعها ، وفي لفظ عن عائشة رضی الله تعالى عنها : فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نمد أيدينا في الجدار نتناول ، فكانت سودة رضی الله تعالى عنها أطولهن . فلما ماتت زينب رضی الله تعالى عنها ، أوى وكانت امرأة قصيرة علموا أن المراد بطول اليد الصدقة ، لأنها كانت تعمل وتتصدق لا الجارحة وما في البخارى من أنها سودة ؛ قال ابن الجوزى : غلط من بعض الرواة .

والعجب من البخارى رحمه الله كيف لم ينبه عليه ولا علم بفساد ذلك الخطأ ، فإنه قال : لحوق سودة به صلى الله عليه وسلم من أعلام النبوة وكل ذلك وهم ، وإنما هى زينب فلما كانت أطولهن يداً بالعباءة . وجمع الطيبي رحمه الله بأنه يمكن أن يقال إن سودة رضی الله تعالى عنها أوّل نساءه صلى الله عليه وسلم موتا التي اجتمعن عند موته ، وكانت زينب رضی الله تعالى عنها غائبة .

وفيه أن في رواية أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعن عنده لم يغادر منهن واحدة أوى فقد قال له بعضهن . وفي لفظ قلن له : أين أسرع لحوقاً بك يا رسول الله ؟ وقد قال الإمام النووي : أجمع أهل السير على أن زينب رضی الله تعالى عنها أوّل مات من أزواجه صلى الله عليه وسلم بعده .

ثم جويرية رضی الله تعالى عنها بنت الحارث من بنى المصطلق . سبيت في غزوة بنى المصطلق ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على تسع أواق ، فأدى عليه الصلاة والسلام عنها ذلك وتزوجها .

وقيل جاء أبوها فافتداها ، ثم نكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم . وقيل إنها كانت بملك اليمين فأعتقها صلى الله عليه وسلم وتزوجها ، وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية ؛ أى لما تقدم . وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مسافع بن صفوان ، وتقدم عن عائشة رضی الله تعالى عنها أنها قالت كانت جويرية عليها ملاحه وحلاوة ، لا يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه . وكانت بنت عشرين سنة . أوى وتوفيت في المدينة سنة ست وخمسين ، وصلى عليها مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة يومئذ ، وقد بلغت سبعين سنة ، وقيل خمسا وستين سنة .

ثم ربحانة بنت يزيد من بنى النضير . وقيل من بنى قريظة ، وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجل من بنى قريظة ، يقال له الحكم . قال الحافظ الدمياطي

رحمه الله : ولذلك ينسبها بعض الرواة إلى بنى قريظة ، وكانت جميلة وسيمة ، وقعت في سبي بنى قريظة ، فكانت صني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام ودينها ، فاختارت الإسلام ، فأعتقها وتزوجها ، وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشا ، وقيل كانت موطوءة له صلى الله عليه وسلم بملكه العمين .

أى فقد ذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم خيرها بين أن يعتقها ويتزوجها ، وبين أن تكون في ملكه ، وعليه فتكون من السرازي لا من الزوجات .

قال الحافظ الدمياطى : والأول ، أى أنها زوجة أثبت عند أهل العلم . وقال العراقي إن الثانى : أى كونها سرية أضبط . ودخل بها صلى الله عليه وسلم بعد أن حاضت حيضة أى وذلك في بيت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية سنة ست من الهجرة ، وغارت عليه صلى الله عليه وسلم غيرة شديدة فطلقها فأكثر البكاء ، فراجعها صلى الله عليه وسلم ، وهذا مؤيد للقول بأنها كانت زوجة .

قيل ماتت مرجعه صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ودفنها بالبقيع .

ثم أم حبيبة رضى الله عنها ، وهى رملة بنت أبى سفيان بن حرب رضى الله تعالى عنهما وهى بنت عمه عثمان بن عفان . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فولدت له حبيبة وبها كانت تكنى ، وهى ريبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى حجره رضى الله تعالى عنها ، وتنصر عبيد الله بن جحش هناك وثبتت هى على الإسلام رضى الله تعالى عنها .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي رحمه الله فزوجها صلى الله عليه وسلم إياها ، وأصدقها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، أى والذي تولى عقد النكاح خالد بن سعيد بن العاصى على الأصح وكلته فى ذلك ، وهو ابن عم أبيها .

وقيل الذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، وقيل كان الصداق أربعة آلاف درهم ، وجهازها النجاشي من عنده ، وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة فى سنة سبع . وقيل تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وعليه يحمل ما فى

كلام العامري أن النبي صلى الله عليه وسلم جدد نكاح أم حبيبة رضي الله تعالى عنها بنت أبي سفيان رضي الله تعالى عنه تطيبا لخاطره .

ثم صفية رضي الله تعالى عنها بنت جبي بن أخطب سيد بني النضير ، قتل مع بني قريظة كما تقدم . وكانت عند سلام بن مشكم ، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، وتقدمت قصة قتله في خيبر ، ولم تلد لأحد منهما ، واصطفاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فأعتقها وتزوجها ، وجعل عنقها صداقها ، لأنه لما جمع سبي خيبر جاءه دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه . فقال : يا رسول الله أعطني جارية من السبي فقال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية رضي الله تعالى عنها . فقيل : يا رسول الله إنها سيدة بني قريظة والنضير لاتصلح إلا لك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم خذ جارية من السبي غيرها ، فحججها وجهزتها له أم سليم رضي الله تعالى عنها ، وأهدتها له من الليل وكان عمرها لم يبلغ سبع عشرة سنة ، فأولم صلى الله عليه وسلم عليها بتمر وسويق .

وفي لفظ : لما أصبح صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده شيء فليجيء به ، فبسط نطعا ، فجعل الرجل يأتي بالأقط ، وجعل الرجل يأتي بالتمر ، وجعل الرجل يأتي بالاسمن ، فحاسوا حيسا ، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس قال : كانت صفية عاقلة فاضلة ، ودخل عليها صلى الله عليه وسلم يوما وهي تبكي . فقال لها في ذلك ؟ فقالت قد بلغني أن عائشة وحفصة ينلان مني ، ويقولان : نحو خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولي لمن : كيف تكن خيرا مني ، وأبي هريرة ، وعمي موسى عليهما الصلاة والسلام ، وزوجي محمد صلى الله عليه وسلم : أي فهي بنت نبي وزوج نبي ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرا في وجهها ، فسألها عن ذلك . فقالت : رأيت كأن القمر وقع في حجري ، فذكرت ذلك لأبي . وتقدم في رواية أنها ذكرت ذلك لزوجها كنانة ، فضرب وجهي ضربة أثرت في هذا الأثر ، وقال : إنك لتمدين عنقك إلى أن تكوني عند ملك العرب .

ولا مانع من تعدد الواقعة . فقد قال في النور : لعلهما فعلا بها ذلك ، وتقدم في رواية أنها رأت الشمس وقعت على صدرها ، وتقدم أنه يجوز تعدد الرؤيا ، أو أنها رأت الشمس والقمر في وقت واحد .

وفي زمن خلافة عمر رضي الله عنه أتت جارية لها إلى عمر رضي الله عنه ، فقالت له :
يا أمير المؤمنين إن صفة تحبّ السبت وتصل اليهود ، فسألها عمر رضي الله عنه ، فقالت :
أما السبت فإنني لأحبه منذ أبدلني الله به الجمعة : وأما اليهود ، فإن لي فيهم رحما ، فأنا
أصلها ، ثم قالت للجارية : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : الشيطان ، قالت : اذهبي
فأنت حرة .

قال الحافظ الدمياطي رحمه الله : ماتت في رمضان سنة خمسين . وقيل سنة اثنتين وخمسين
ودفنت بالبقيع : وخلفت ما قيمته مائة ألف درهم من أرض وعرض . وأوصت لابن أختها
بثلثها وكان يهوديا .

وذكر الرافعي رحمه الله عن إمامنا الشافعي رضي الله عنه أنها أوصت لأخيها ، وكان
يهوديا بثلاثين ألفا ، أي وهذا لا يعارض ما ذكر لأنه يجوز أن يكون من روى عنه إمامنا
لم يعتبر ما زاد على الثلاثين الذي هو تمة الثلث ، وهو ثلاثة وثلث ، لأن ثلث المائة ثلاثة
وثلثون وثلث ، أو أن القائل أوصت بثلثها تجوز وأطلق على الثلاثين ثلثا .

ثم ميمونة رضي الله عنها بنت الحارث ، وكان اسمها برة فسماها صلى الله عليه وسلم
ميمونة ، زوّجها له صلى الله عليه وسلم عمه العباس رضي الله عنه ، وهي خالة ابنه عبد الله
ابن عباس ، وأختها أسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس وزينب بنت خزيمة أم المؤمنين ،
وخالة خالد بن الوليد رضي الله عنه . وكانت في الجاهلية عند مسعود بن عمرو فقارقها ،
فخلف عليها أبوهرم فتوفى عنها فتزوجها صلى الله عليه وسلم وهو محرم ، أي كما عليه جمهور
علماء المدينة في عمرة القضاء .

وفي الهدى : يشبه أنه صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو محرم خلافا لابن عباس
ووهمه في ذلك ، قال : لأن السفير بينهما في النكاح وهو أبو رافع أعلم بالنعصة وهو رجل
بالغ ، وابن عباس كان سنه نحو عشر سنين : قال : ولا يخفى أن مثل هذا الترجيح موجب
للتقديم ، وكان ذلك سنة سبع .

وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثا وبنى بها بسرف بعد أن أحل على ما تقدم : وماتت
سنة إحدى وخمسين على الأصح وبلغت ثمانين سنة ، ودفنت بسرف الذي هو محل
البدخول بها .

والحاصل أن جملة من خطبه صلى الله عليه وسلم من النساء ثلاثون امرأة منهن من لم

وميمونة ، وآوى إليه أربعا : عائشة وزينب وأم سلمة وحفصة ، وهؤلاء التسعة مات
عنهن صلى الله عليه وسلم ، وقد نظمهن بعضهم فقال :

توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية وحفصة تلوهن هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة ثلاث وست ذكرهن مهذب

ومن جملة اللاتي لم يدخل به النبي صلى الله عليه وسلم التي ماتت من الفرح ، لما علمت
أنه صلى الله عليه وسلم تزوج بها وهي عز أخت دحية الكلبي رضي الله تعالى عنهما التي
ماتت قبل دخوله بها .

ومن جملتهن سودة القرشية التي خطبها صلى الله عليه وسلم فاعتذرت بينها ، وكانوا
خسة ، وقيل ستة ، فقال لها خيراً .

ومن جملتهن التي تعوذت منه صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أعوذ بالله منك ، فقال
لها : لقد عدت بمعاذ ، وقد أعاذك الله مني . وفي لفظ : عدت بعظيم ، وفي لفظ :
عائد الله :

وفي كلام بعضهم أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم خفن أن تغلبن عليه لجهاها ، فقلن
لها : إنه صلى الله عليه وسلم يعجبه إذا دنا منك أن تقولى له أعوذ بالله منك ، فاما دنا منها
قالت : أعوذ بالله منك . وفي رواية : قلن لها : إن أردت أن تحظى عنده فتعوذى بالله
منه فلما دخل عليها قالت له : أعوذ بالله منك ، فصرف صلى الله عليه وسلم وجهه عنها
وقال ماتقدم وطلقها ، وأمر أسامة رضي الله تعالى عنه فتبعها بثلاثة أثواب .

وفي لفظ أنى أبو أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجونية : أى أسماء بنت
النعمان بن أبي الجون الكندية ، فلما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها فقالت
تعال أنت . وفي رواية فقال : هبي نفسك ، فقالت : تهب الملكة نفسها للسوقة ، فأهوى
صلى الله عليه وسلم بيده إليها لتسكت ، فقالت : أعوذ بالله منك ، قال : عدت بمعاذ ،
فخرج فقال : يا أبا أسيد اكسها رازقين وألحقها بأهلها ، وهذا هو المشهور .

وروى هذا الخبر عن أسيد بن أبي أسيد قال : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى امرأة يتزوجها من بلجون : أى من بنى الجون ، فجننت بها ، فأزلتها بالشعب في أجم

ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله جئتك بأهلك ، فأثابها صلى الله عليه وسلم ، فأهوى إليها ليقبلها فقالت : أعود بالله منك» الحديث .

ومن جملتهن التي اختارت الدنيا . وقيل التي كانت تلتقط البعر هي المستعيذة منه .
ومن جملتهن قتيلة بضم القاف وفتح التاء المثناة فوق ، بنت قيس أخت الأشعث ابن قيس الكندي ، وزوجه إياها أخوها وهى بحضرموت ، ومات صلى الله عليه وسلم قبل قدمها عليه ، وأوصى صلى الله عليه وسلم بأن تخبر ، فإن شاءت ضرب عليها الحجاب وكانت من أمهات المؤمنين ، وإن شاءت الفراق فتتكح من شاءت فاخترت الفراق ، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل رضى الله تعالى عنه بحضرموت ، فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله تعالى عنه قال : هممت أن أحرق عليها بيتها ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : ماهى من أمهات المؤمنين ، مادخل بها صلى الله عليه وسلم ولا ضرب عليها الحجاب ، وقال صلى الله عليه وسلم : «ماتزوجت شيئا من نسائي ولازوجت شيئا من بناتي إلا بوحي جاءنى به جبريل عليه الصلاة والسلام من ربي عز وجل» أى وعنه صلى الله عليه وسلم أن خديجة رضى الله تعالى عنها تزوجها قبل نزول الوحي .

أى وقد ألف فى أزواجه صلى الله عليه وسلم الحافظ الهمداني جزءا فليطلب ، وكذا : ألف فيهن الشمس الشامى :

وأما سراريه صلى الله عليه وسلم فأربع : مارية القبطية أم ولده سيدنا إبراهيم ، وريحانة على ماتقدم ، وجارية وهبتها له صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها ، أخرى اسمها زليخة القرظية .

باب ذكر المشاهير من خدمه صلى الله عليه وسلم

من الأحرار

فمن الرجال أنس بن مالك الأنصاري رضى الله تعالى عنه ، كان من أخص خدمه صلى الله عليه وسلم . خدمه من حين قدم المدينة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم عشر سنين كما تقدم . فعن أنس رضى الله تعالى عنه « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ أبو طلحة يعنى زوج أمه بيدي فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله

إن أنسا غلام كيس فليخدمك ، فخدمته صلى الله عليه وسلم في السفر والحضر ، وتقدم في بعض الروايات أن ابتداء خدمته له صلى الله عليه وسلم كان عند خروجه صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ، ومات وقد جاوز المائة .

وعبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب سواكه ونعله صلى الله عليه وسلم ، إذا قام صلى الله عليه وسلم ألبسه إياهما ، فإذا جاس جعلهما في ذراعيه حتى يقوم . وكان رضى الله تعالى عنه يمشى بالعصا أمامه صلى الله عليه وسلم حتى يدخل الحجره .
أى ومعيقب الرومى رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب خاتمه صلى الله عليه وسلم :
وعقبة بن عامر الجهنى رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب بغلته صلى الله عليه وسلم ، يقودها في الأسفار ، وكان عالما بكتاب الله عز وجل وبالقرائن ، فصيحاً ، شاعراً مفهماً . ويأتى أنه ولى مصر لمعاوية رضى الله تعالى عنهما وتوفى بها ، وصرف عنها بمسلمة بن مخلد رضى الله تعالى عنه .

وأسقع بن شريك ، صاحب راحلته صلى الله عليه وسلم . كان رضى الله تعالى عنه يرحل ناقته صلى الله عليه وسلم « وعنه أنه صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم : يا أسقع ، قم فارحل ، فقال : يارسول الله أصابتنى جنابة ولا ماء ، فسكت صلى الله عليه وسلم وجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بآية التيمم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قم يا أسقع فتيمم ، فأراني التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين ، فقمتم وتيممت ثم رحلت له صلى الله عليه وسلم ، ثم سار صلى الله عليه وسلم حتى مر بماء ، فقال لى : يا أسقع أمس هذا جلدك . وتقدم أن سبب نزول آية التيمم ضياع عقد عائشة رضى الله تعالى عنها في بعض الغزوات .

وبلال مؤذنه صلى الله عليه وسلم . وكان رضى الله تعالى عنه على نفقاته ، وهو مولى أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه الذى اشتراه وهو يعذب فى الله وأعتقه كما تقدم .
ومن النساء أمة الله بنت رزينة ، وخولة ، ومارية أم الرباب ، ومارية وجدة المثنى ابن صالح ، وقيل التى قبلها .

باب ذكر المشاهير من مواليه صلى الله عليه وسلم

الذين أعتقهم

فمن الرجال زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما ، كما تقدم أن خديجة رضى الله تعالى عنها وهبته له صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فتبناه صلى الله عليه وسلم . وكان يقال له ابن محمد ، فلما نزل (ادعوهم لأبائهم) أى وقوله تعالى (ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم) الآية قيل له زيد بن حارثة كما تقدم . وكان حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه أسامة وأخو أسامة لأمه أمين ابن أم أيمن بركة الحبشية رضى الله تعالى عنهم .

وأبو رافع كان قبطياً ، وكان للعباس رضى الله تعالى عنهما فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم . ولما أسلم العباس وبشر أبو رافع رضى الله تعالى عنه النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام العباس أعتقه .

وشقران كان حبشياً ، وقيل فارسياً ، وكان لعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ، فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم .

وثوبان . وأنجشة ، اشتراه صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديدية وأعتقه . وكان رضى الله تعالى عنه يحدو بالنساء ، قال له صلى الله عليه وسلم وقد حدا بهن : رويدا رويدا يا أنجشة ، رفقا بالقوارير ، يعنى النساء ، لأن الحداء إذا سمعته الإبل أسرع في المشى فترجع الراكب والنساء يضعفن من شدة الحركة ، وشبههن صلى الله عليه وسلم في ضعفهن بالقوارير وهى الأواني من الزجاج .

ورباح كان أسود ويسار كان نوبياً على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قتله العرنيون . وقد تقدم أن هذا غير يسار الذى كان دليلاً لسرية غالب بن عبد الله اللبى إلى الميفعة .

وسفيئة وكان أسود ، وكان لأم سلمة رضى الله تعالى عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم فأعتقته ، واشترطت عليه أن يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعاش . وكان اسمه بهران . وقيل رومان . وقيل غير ذلك ، وإنما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفيئة لأنه حمل أمتة للصحابة رضى الله تعالى عنهم نقلت عليهم ، فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : اجمل فإنما أنت سفينة ، قال رضى الله تعالى عنه : فلو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين إلى أن عدت سبعة ماثقل على . وقيل لأنه انكسرت به السفينة في البحر فركب لوحا من ألواحها فنجا .

وذكر أن البحر ألقاه على أجمة سبع فأقبل نحوه ، فقال له : أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء إلى وضربني بمنكبيه ثم مشى أمامي حتى أقامنى على الطريق ثم همهم وضربني بذنبه فرأيت أنه يودعنى . وقيل إنما وقع له ذلك لما أضل الجيش الذى كان فيه بأرض الروم .

وسلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم هو الذى أدى عنه نجوم كتابته ، وفى كونه كان رقيقا ماتقدم .
أى والخصى الذى أهدها له المقوقس الذى هو مابور المتقدم ذكره . وآخر يقال له سندر .

وفى كلام بعضهم أعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه أربعين رقبة . ومن النساء أم أيمن وأميمة وسيرين التى أهديت له صلى الله عليه وسلم مع مارية ، أى وتقدم أنها أختها .

وذكر بعضهم أن سيرين هذه وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه . وتقدم أن المقوقس أهدى معهما قنسر وأنها أخت مارية وسيرين فهن الثلاث أخوات ؛ وتقدم أنه أهدى إليه صلى الله عليه وسلم رابعة .

باب ذكر المشاهير من كتابه صلى الله عليه وسلم

فقد ذكر بعضهم أن كتابه صلى الله عليه وسلم كانوا ستة وعشرين كاتباً على ما ثبت عن جماعة من ثقات العلماء .

وفى السيرة للعراقى أنهم كانوا اثنين وأربعين ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى . وهو أول من كتب له صلى الله عليه وسلم من قريش بمكة ثم ارتد وصار يقول كنت أصرف محمداً حيث أريد ، كان يملئ على عزيز حكيم ، فأقول أو علم حكيم ، فيقول : نعم ، كل صواب . وفى لفظ : كان يقول اكتب كذا ، فأقول أكتب كذا ؟ فيقول اكتب كيف شئت ، ونزل فيه (فمن أظلم ممن ائثرى على الله كذبا) .

أى ثم لما كان يوم الفتح ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتله فر إلى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، لأنه كان أخاه من الرضاعة ، أرضعت أمه عثمان فغيبه عثمان رضى الله تعالى عنه ثم جاء به بعدما اطمأن الناس ، واستأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فصمت له رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال نعم ، فلما انصرف عثمان قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن حوله : ما صمت عنه إلا لثقتلوه إلى آخر ما تقدم . ثم أسلم وحسن إسلامه ، ودعا الله تعالى أن يختم عمره بالصلاة ، فات ساجداً في صلاة الصبح ، وقيل بعد التسليمة الأولى ، وقيل الثانية .

وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعامر بن فهيرة رضى الله تعالى عنهم . أى وعبد الله بن الأرقم ، وكان يكتب الرسائل للملوك وغيرهم ، قال عمر في حقه : ما رأيت أخشى لله منه .

وأبي بن كعب رضى الله تعالى عنه ، وهو أول من كتب له صلى الله عليه وسلم من الأنصار بالمدينة ، كان في أغلب أحواله يكتب الوحي ، وهو أخذ الفقهاء الذين كانوا يكتبون في عهده عليه الصلاة والسلام .

وثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان أى وأخوه يزيد :

قال بعضهم : كان معاوية وزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنهما ملازمين للكتابة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوحي وغيره ، لاعمل لهما غير ذلك .

قال زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم بالسريانية ، قال : إني لا آمن يهود على كتابي ، فامرني بنصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيه فكنت أكتب له صلى الله عليه وسلم إليهم وأقرأ لهم كتبهم .

والمغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاصي ، وعبد الله بن رواحة ، أى ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله ابن أبي سلول :

باب يذكر فيه حراسه صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه قوله تعالى (والله يعصمك من الناس)

سعد بن معاذ حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة يوم بدر : أى الليلة التي صبيحتها ذلك اليوم. وفي ذلك اليوم لم يحرسه صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه شاهرا سيفه حين نام بالعريش .

وفي كلام بعضهم أن سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه كان مع أبي بكر رضى الله عنه في العريش يحرسانه صلى الله عليه وسلم في بدر .

ومحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه حرسه صلى الله عليه وسلم يوم أحد :

والزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه حرسه صلى الله عليه وسلم يوم الخندق .

والمغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه حرسه يوم الحديبية .

وأبو أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة نبي بصفية

ببعض طرق خيبر .

وبلال وسعد بن أبي وقاص وذكوان بن عبد قيس رضى الله عنهم حرسوه صلى الله

عليه وسلم بوادى القرى .

أى وحرسه صلى الله عليه وسلم ابن أبي مرثد الغنوى في الليلة التي كانت في صبيحتها

وقعة حنين حيث قال صلى الله عليه وسلم « ألا رجل يحرسنا الليلة ؟ فقال : أنا يا رسول

الله فدعاه صلى الله عليه وسلم ، وبعد نزول الآية وهى (والله يعصمك من الناس)

ترك الحرس . »

باب يذكر فيه من ولى السوق في زمنه

صلى الله عليه وسلم

وتصدق هذه الولاية الآن بالحسبة ومتوليها بالختسب . كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم استعمل سعد بن سعيد بن العاصى بعد الفتح على سوق مكة . واستعمل عمر بن

الخطاب رضى الله تعالى عنه على سوق المدينة :

باب يذكر فيه من كان يضحك

صلى الله عليه وسلم

منهم نعيان . كان صلى الله عليه وسلم إذا نظر إلى نعيان لا يتمالك نفسه أن يضحك لأنه كان مزاحا ، وتقدم عنه . ويأتى أيضا ما وقع بينه وبين سليط أو سويط .
ومنهم الذى كان يحده فى الخمر ، واسمه عبد الله ، ويلقب بالخممار .

باب يذكر فيه أمناء رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه . كان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم على نسائه .

وكذا أبو أسد بن أسيد الساعدى ، كان أمينه صلى الله عليه وسلم على نسائه . وهو آجر من مات من أهل بدر رضى الله تعالى عنهم . وكان ممن أبصر الملائكة يوم بدر وكف بصره .

وبلال المؤذن رضى الله تعالى عنه ، كان أمينه صلى الله عليه وسلم على نفقاته .
ومعيقب ، كان أمينه صلى الله عليه وسلم على خاتمه الشريف .

باب يذكر فيه شعراؤه صلى الله عليه وسلم

الذين كانوا يناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفار قريش

حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

باب يذكر فيه من كان يضرب الأعناق بين يديه

صلى الله عليه وسلم

وهم على كرم الله وجهه ، والزبير ، والمقداد ، ومحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنهم ، وعاصم بن ثابت ، أى والضحاك بن سفيان رضى الله تعالى عنه .
ولعل المراد من كان يتكرر منه ذلك ، فلا ينفى ما تقدم فى قصة الحارث بن سويد أنه قال لعويمر بن ساعدة رضى الله تعالى عنه اضرب عنقه .

باب يذكر فيه مؤذنه صلى الله عليه وسلم

وهم بلال ، وابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنهما بالمدينة ، وسعد القرظ مولى عمار ابن ياسر رضى الله تعالى عنهما بقباء ، وقيل له القرظ لاجتاراه فيه . ومن قال القرظى فقد أخطأ ، وأبو محذورة رضى الله تعالى عنه بمكة : أى وأذن بين يديه صلى الله عليه وسلم زياد بن الحارث الصدائى كما تقدم :

وقد يقال : مراد الأصل من تكرر أذانه ، فلا يرد هذا ، وكذا لا يرد عبد العزيز بن الأصم فإنه أذن أيضا بين يديه صلى الله عليه وسلم مرة واحدة .

باب يذكر فيه العشرة المبشرون بالجنة

رضى الله تعالى عنهم

وهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطاحنة ، والزبير ، وسعد ابن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وقد نظم ذلك بعضهم فى بيت ، فقال :

لقد بشرت بعد النبي محمد بجنة عدن زمرة سعداء
سعيد وسعد والزبير وعامر وطاحنة والزهرى والخلفاء

أى وربما أسقط بعضهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ؛ وذكر بدله عبد الله بن مسعود
رضى الله تعالى عنه ، وهو غريب جدا .

باب يذكر فيه حوار يوه صلى الله عليه وسلم

بالحاء المهملة : أى أنصاره الذين اشتهروا بهذا الوصف ، وهم الخلفاء الأربعة ، وحزرة
وجعفر ، وأبو عبيدة ، وعثمان بن مظعون ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ؛
وطلحة والزبير ، وهو أكثرهم شهرة بهذا الوصف بل هو المراد عند إطلاق حوارى
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

باب يذكر فيه سلاحه صلى الله عليه وسلم

كان له صلى الله عليه وسلم من السيوف تسعة : ومن الدروع سبعة . ومن القسي
سنة . ومن الأتراس ثلاثة . ومن الرماح اثنان . ومن الحراب ثلاثة . ومن الخود اثنان :
فأما السيوف : فسيف يقال له مأثور بهمة ساكنة ثم ثاء مثلثة . ورثه صلى الله عليه
وسلم من أبيه ، وقدم به المدينة ، أى ويقال : إنه من عمل الجن : وسيف يقال له العضب
أى القاطع ، أرسل به إليه سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه عند توجهه صلى الله عليه وسلم
إلى بدر . وسيف يقال له ذو الفقار ، كان فى وسطه مثل فقرات الظهر . غنمه صلى الله
عليه وسلم يوم بدر ، كان للعاص بن وائل قتل يوم بدر كافرا ، وكانت قائمته وقبيعته ،
بفتح القاف وكسر الموحدة ثم مشناة تحتية ساكنة ثم عين مهملة مفتوحة ، وحلقته بإسكان
اللام وفتحها ، وعلاقته بكسر العين ، فضة ، وكان لا يفارقه صلى الله عليه وسلم فى حرب
من الحروب . ويقال إن أصله من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة . وسيف يقال له
الصمصامة بفتح الصاد المهملة وإسكان الميم ، كان مشهورا عند العرب ، وهو سيف عمرو
ابن معد يكرب . أهدها صلى الله عليه وسلم لخالد بن سعيد بن العاص حيث امتعلمه صلى
الله عليه وسلم على اليمن . وسيف يقال له القلعى بفتح اللام ، نسبة إلى برج القلعة : موضع
بالبادية . وسيف يقال له الحيف بفتح الحاء المهملة ثم مشناة تحت ساكنة : وهو الموت ،
وهذه الثلاثة من سلاح بنى قينقاع مثلث النون . وسيف يقال له الرسوب بفتح الراء وضم

السين المهملة ثم واو ساكنة ثم موحدة : أى يرصب ويستقر فى الضربة ، وهو أحد السيوف التسعة التى أهدتها بلقيس لسليمان عليه الصلاة والسلام . وصيف يقال له المخدم بكسر الميم ، ثم حاء ساكنة ثم ذال معجمة مفتوحة : القاطع وهما كانا معلقين على صنم طى الذى يقال له الغاس ، وصيف يقال له القضيب ، من قضب الشيء : قطعه ، فعيل بمعنى فاعل : أى قاطع .

وأما الدروع ، فدرع يقال لها ذات الفضول يضم الفاء وبالضاد المعجمة لطلوها . أرسل بها إليه صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه حين سار إلى بدر ، أى وكانت من حديد ، وهى التى رهنها صلى الله عليه وسلم عند أبى الشحم اليهودى على ثلاثين صاعاً من الشعير ، وكان الدين إلى سنة . ودرع يقال لها ذات الوشاح بكسر الواو وبالشين المعجمة مخففة وفى آخره حاء مهملة : ودرع يقال لها ذات الحواشى . ودرع يقال لها السفرية بالفاء ، والسفر : موضع يصنع به الدروع . قال فى النور : والذى أحفظه فى هذه الدرع السعدية بضم السين المهملة وبالغين المعجمة الساكنة ثم دال مهملة مفتوحة . ودرع يقال لها الفضة ، ويقال لها السعدية بالعين المهملة مفتوحة ، وهما من دروع بنى قينقاع ، يقال إنها درع داود عليه الصلاة والسلام التى لبسها لقتال جالوت كما تقدم . ودرع يقال لها البتراء بفتح الموحدة ، ثم مثناة فوق ساكنة ممدودة ؛ قيل لها ذلك لقصرها . ودرع يقال لها الخرنق بالخاء المعجمة مكسورة ، ثم راء ساكنة ثم نون مكسورة ثم قاف ؛ قيل لها ذلك لنعومتها .

وأما القسى ؛ فقوس يقال لها البيضاء من شوحط ، وهو من شجر الجبال ، يتخذ منه القسى ، وهو من سلاح بنى قينقاع . وقوس يقال لها الروحاء . وقوس يقال لها الصفراء من نبع وهو شجر يتخذ منه القسى . ومن أغصانه السهام كسرت يوم أحد . وقوس يقال لها الزوراء ، ويقال لها الكتوم لانخفاض صوتها إذا رمى عنها ، قيل وهى التى اندقت سيتها يوم أحد ، أى وقوس يقال لها السداد .

وأما الأتراس ؛ فترس يقال لها الزلوق ، لأن السلاح يزلق عنه . وترس يقال لها فتق بضم الفاء وفتح التاء المثناة فوق وبالتاف . وترس يقال لها تمثال عقاب أو كبش ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة عليه فذهب .

وأما الرماح ؛ فرمح يقال له المثنى . ورمح يقال لها المثوى بضم الميم وإسكان التاء

المثلثة وكسر الواو ، من الثوى : وهو الإقامة ، لأن المطعون به يقيم موضعه ولا ينتقل : أى وثلاث رماح أصابها من سلاح بنى قينقاع ، يقال لأحدها المثنى بضم الميم وإسكان الاء المثلثة ثم نون مفتوحة . وفى الأصل المثنى بتقديم النون على الاء .

وأما الحراب ؛ فحربة يقال لها النبعة . وحربة يقال لها البيضاء . وحربة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العنزة قال : جاء بها الزبير رضى الله تعالى عنه من أرض الحبشة ، أعطاها له النجاشى رحمه الله ، وقاتل بها بين يدي النجاشى عدوا للنجاشى ، وظهر النجاشى على ذلك العدو ، وشهد بها الزبير رضى الله تعالى عنه بدرا وأحدًا وخيبر ؛ ثم أخذها منه صلى الله عليه وسلم منصرفه من خيبر ، فكانت تحمل بين يديه صلى الله عليه وسلم يوم العيد ، يحملها بلال رضى الله تعالى عنه ، فتركز بين يديه صلى الله عليه وسلم ويصلى إليها ، وكذا كان يصلى إليها فى أسفاره ، أى وكان صلى الله عليه وسلم يمشى بها وهى فى يده . ورابعة يقال لها المهر . وخامسة يقال لها النمر ، وكان له صلى الله عليه وسلم محجن طولُه قدر ذراع أو أكثر بيسير ، يمشى به ، ويعلق بين يديه على بعيره يسمى الذقن ، وكان له رأس معقفة كالصولجان .

وكان له صلى الله عليه وسلم قضيب من شوحط يسمى المشوق ، قيل وهذا القضيب هو الذى كانت تتداوله الخلفاء ا هـ .

أى وكان له صلى الله عليه وسلم مخصرة بكسر الميم وإسكان الخاء المعجمة وفتح الصاد : وهى ما يمسكه بيده من عصا أو مقرعة تسمعون رجون ، ويقال لها العسيب .

وأما الخود جمع خودة : وهى ما يجعل على الرأس من الزرد مثل القلنسوة : فخودة يقال لها الموشح بالميم وبالشين المعجمة مشددة مفتوحة والحاء المهملة . وخودة يقال لها السبوغ بالسين المهملة وبالغين المعجمة أو ذات السبوغ .

باب يذكر فيه خيله وبغاله وحمرة صلى الله عليه وسلم

كان له صلى الله عليه وسلم سبعة أفراس . وكان له بغال ست وكان له من الحمير اثنتان ؛ وكان له من الإبل المعدة للركوب ثلاثة .

فأما أفراسه صلى الله عليه وسلم ، ففرس يقال له السكب : شبه بسكب الماء وانصبابه ،

لشدة جريه ؛ وهى أول فرس ملكه صلى الله عليه وسلم ، اشتراه من أعرابي بعشرة أواق ، وكان اسمه عند الأعرابي الضرس : أى بفتح الضاد وكسر الراء وبالسين المهملة : الصعب السىء الخلق ، وكان أعر : أى له غرة ، وهى بياض فى وجهه ، محجلا طلق اليمين ، كميناً : أى بين السواد والحمره . وقال ابن الأثير كان أسود أدهم ، وفرس يقال له المرتجز : أى سمى به لحسن صهيله ، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر ؛ وكان أبيض ؛ وهو الذى شهد له فيه خزيمه بأنه صلى الله عليه وسلم اشتراه من صاحبه بعد أن أنكر بيعه له ، وقال له أنت بمن يشهد لك ، فجعل شهادة خزيمه بشهادتين ، بعد أن قال له صلى الله عليه وسلم : كيف شهدت ولم تحضر ؟ فقال لتصديقى إياك يا رسول الله ، وإن قولك كالمعاينة فقال له صلى الله عليه وسلم : أنت ذو الشهادتين ، فسمى ذا الشهادتين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « من شهد له ، خزيمه أو شهد عليه فهو حسيبه » لكن جاء أنه صلى الله عليه وسلم رد الفرس على الأعرابي وقال « لا برك الله لك فيها » فأصبحت من الغد شائلة برجلها . وفرس يقال له اللحييف بالحاء المهملة واللام المضمومة فعيل بمعنى فاعل ، لأنه كان يلحف الأرض بذنبه لطوله : أى يغطيها . وقيل لأنه كان يلتحف معرفته . وقيل هو بضم اللام مصغراً ، وقيل بالحاء المعجمة مع فتح اللام وهو الأكثر . وهذا الفرس أهداه له صلى الله عليه وسلم فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام . وفرس يقال له اللزاز ، أى أهداه له المقوقس كما تقدم ، مأخوذ من قولهم : لاززته : أى لاصقته ، فكان يلحق بالمللوب لسرعته ، وقيل غير ذلك . وفرس يقال له الطرف أى بكسر الطاء المهملة وسكون الراء والفاء : الكريم الجيد من الخيل . وفرس يقال له البورد ، وهو بين السكيت والأشقر ، أهداه له صلى الله عليه وسلم تميم الدارى رضى الله تعالى عنه ، وأهداه صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله تعالى عنه . وفرس يقال له سبحة : أى بفتح السين وإسكان الموحدة وفتح الحاء المهملة : أى سريع الجرى ، هذا هو المشهور . وعد بعضهم فى خيله صلى الله عليه وسلم غير ذلك ؛ فأوصل جملتها إلى خمسة عشر بل إلى العشرين ، وقد ذكر الحافظ الدمياطى أسماء الخمسة عشر فى سيرته وقال فيها : وقد ذكرناها وشرحناها فى كتابنا كتاب الخيل .

وكان سرجه صلى الله عليه وسلم دفنين من ليف . قال : لم يكن شىء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم مسح وجه فرسه ومنخريه وعينيه بكمّ قبيصه فقيل له :
يا رسول الله تمسح بكمّ قبيصك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم إن جبريل عليه السلام عاتبنى
في الخيل . وفي رواية « في الفرس » أى فى امتنانها . وفى رواية « فى سياستها » وقال
« انجيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها فخذوا بنواصيها ،
وادعوا بالبركة » اه .

أى وقد ذكر « أنه صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قام إلى فرسه الطرف فعلق
عليه شعيره ، وجعل صلى الله عليه وسلم يمسح ظهره بردائه ، فقيل له : يا رسول
الله تمسح ظهره بردائك ؟ فقال : نعم ، وما يدريك لعل جبريل عليه الصلاة والسلام
أمرنى بذلك ؟ » .

وعن بعضهم قال : دخلت على تميم الدارى رضى الله تعالى عنه وهو أمير بيت المقدس ،
فوجدته يتقى لفرسه شعيرا ، فقلت : أيها الأمير ما كان لهذا غيرك ؟ فقال : إني سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من تقى لفرسه شعيرا ثم جاء به حتى يعلقه عليه كتب
الله له بكل شعيرة حسنة » وكان صلى الله عليه وسلم يضم الخيل للسباق ، فيأمر باضمارها
بالخشيش اليابس شيئا بعد شيء ، ويأمر بسقيها غدوة وعشيا ، ويأمر أن يقودها كل يوم
مرتين ، ويؤخذ منها من الجرى الشوط والشوطان .

وأما بخاله صلى الله عليه وسلم ؛ فبغلة شبيهة يقال لها دلدل ، أهداها له المقوقس كما
تقدم . والدلدل فى الأصل : القنفذ ، وقيل ذكر القنفاذ ، وقيل عظيمها ، وهذه أول
بغلة ركبت فى الإسلام . وفى لفظ : رؤيت فى الإسلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يركبها
فى المدينة وفى الأسفار . وعاشت حتى ذهبت أسنانها ، فكان يدق لها الشعير ،
وعميت . وقاتل عليها على كرم الله وجهه الخوارج بعد أن ركبها عثمان رضى الله تعالى
عنه ، وركبها بعد على ابنه الحسن ثم الحسين رضى الله تعالى عنهما ، ثم محمدا بن الحنفية
رحمه الله .

وسئل ابن الصلاح رحمه الله : هل كانت أنثى أو ذكرا والتاء للوحدة ، فأجاب
بالأول . قال بعضهم : وإجماع أهل الحديث على أنها كانت ذكرا ، ورماها رجل بسهم
فقتلها . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى إلى
زوجته أم سلمة ، فأنتبه بصوف وليف ، ثم فتلت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم للدلدل رسنه

وعذارا ، ثم دخل البيت فأخرج عباءة فثناها ثم ربيعها على ظهرها ، ثم سمي وركب ، ثم أردفتي خلفه . وبغلة يقال لها فضة ، أهداها له عمرو بن عمرو الجذامي كما تقدم . ووهبها صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله تعالى عنه ، أى وأوصلها بعضهم إلى سبعة .

وفى [مزبل الخفاء] وفى [سيرة مغلطاي] : كان له صلى الله عليه وسلم من البغال دلدل وفضة ، والتي أهداها له ابن العلماء : أى بفتح العين المهملة وإسكان اللام وبالمد فى غزوة تبوك ، والأيلية : وبغلة أهداها له كسرى ، وأخرى من دومة الجندل ، وأخرى من عند النجاشي هذا كلامه .

وعقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه كان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده فى الأسفار ، وتوفى بمصر ودفن بقرافتها ، وقبره معروف بها ، وكان واليها من قبل معاوية بعد عتبة بن أبى سفيان ، ثم صرف عنها بمسلمة بن مخلد .

وعن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال : قدت برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته مدة من الليل ، فقال أنخ ، فأنخت فزل عن راحلته ، ثم قال : اركب فقلت : سبحان الله أعلى مركبك يا رسول الله وعلى راحلتك ؟ فأمرنى ، فقال اركب ، فقلت له مثل ذلك ، ورددت ذلك مرارا حتى خفت أن أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فركبت راحلته . ذكره فى الإمتاع .

وأما حمرة صلى الله عليه وسلم ، فحمار يقال له يعفور . وحمار يقال له عفير بالعين المهملة ، وقيل بالمعجمة وغلط قائله وكان أشهب ، ومات فى حجة الوداع . والأول أهداه له فروة بن عمرو الجذامى ، وقيل المقوقس . والثانى أهداه له المقوقس ، وقيل فروة بن عمرو كذا فى سيرة الحافظ الديلمى رحمه الله ، والعفرة هى الغبرة ، أى وأوصل بعضهم حمرة صلى الله عليه وسلم إلى أربعة .

وتقدم أن يعفوراً وجدته صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وأنه يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم طرح نفسه فى بئر جزعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات ، وتقدمت قصته وما فيها .

وأما إبله صلى الله عليه وسلم التى كان يركبها . فناقة يقال لها القصواء . وناقة يقال لها الجداء ، وناقة يقال لها العضاء ، وهى التى كانت لاتسبق فسبقت ، فشق ذلك على

المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه » .

وفي رواية « إن الناس لم يرفعوا شيئا من الدنيا إلا وضعه الله عز وجل » ويقال إن هذه العضباء لم تأكل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تشرب حتى ماتت ، وقيل إن التي كانت لا تنسب ثم سبقت هي القصواء ، وكانت العضباء يسبق بها صاحبها الذي كانت عنده الحاج ، ومن ثم قيل لها سابقة الحاج . وقيل إن هذه الثلاثة اسم لناقة واحدة وهو المفهوم من الأصل ، وهو موافق في ذلك لابن الجوزي رحمه الله حيث قال إن القصواء هي العضباء وهي الجدعاء . وقيل القصواء واحدة والعضباء والجدعاء واحدة . وفي كلام بعضهم : وأما البقر فلم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم ملك شيئا منها : أى للقنية فلا ينافي أنه صلى الله عليه وسلم ضحى عن نسائه بالبقر .

وأما غنمه صلى الله عليه وسلم ، فقيل مائة ، وقيل سبعة أعز كانت ترعاها أم أيمن رضي الله تعالى عنها ، وجاء « اتخذوا الغنم فإنها بركة » وكان له صلى الله عليه وسلم شياه يختص بشرب لبنها ، وماتت له صلى الله عليه وسلم شاة ، فقال : ما فعلتم بإهابها ؟ قالوا إنها ميتة ، قال دباغها طهورها . واقتنى صلى الله عليه وسلم الديك الأبيض ، وكان يبيت معه في البيت وقال « الديك الأبيض وصديقي وصديقي وعدو عدوي ، والله يجرس دار صاحبه وعشرا عن يمينها ، وعشرا عن يسارها ، وعشرا من بين يديها ، وعشرا من خلفها » وقد جاء « اتخذوا الديك الأبيض فإن دارا فيها ديك أبيض لا يقربها شيطان ولا ساحر ولا الدويرات حوذا ، واتخذوا هذا الحمام المقاصيص في بيوتكم فإنها تلهي الجن عن صبيانكم » .

وفي العرائس « أن آدم قال يارب شغلت بطلب الرزق لأعرف ساعات التسبيح من أيام الدنيا فأهبط الله ديكا وأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح ، فهو أول داجن اتخذه آدم عليه السلام من الخلق ، فكان الديك إذا سمع التسبيح ممن في السماء سبح في الأرض ، فيسبح آدم بتسبيحه » .

باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الظاهرة

وإن شاركه فيها غيره

قال : قد خلق الله تعالى أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سليمة من العيب حتى صلحت لحلول الأنفس الكاملة ، وهم في ذلك متفاوتون ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أصنع الأنبياء مزاجا ، وأكملهم جسدا .

وعن أنس رضى الله عنه « ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجها وصوتا » انتهى . وكانت صفاته صلى الله عليه وسلم الظاهرة لا تدرك حقائقها ، وإلى هذا يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

إنما مثلوا صفاتك لنا نس كما مثل النجوم الماء

وتقدم بعض صفته صلى الله عليه وسلم في خبر أم معبد رضى الله عنها .

ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه كان ضخما الهامة : أى الرأس . ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه كان فخما مفخما : أى عظيما في الصدور والعيون ، يتلأأ وجهه كالقمر ليلة البدر قال : كان في وجهه تدوير ، ليس بالمطهم ولا المكثم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى في وجهه . وفي رواية « تجرى من وجهه » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يرق صلى الله عليه وسلم مع شمس قط إلا غلب ضوءه ضوء الشمس ؛ ولم يرق مع سراج قط إلا غلب ضوءه ضوء السراج انتهى . أقصر من المشذب بضم الميم وفتح الشين والذال المعجمتين مشددة ثم موحدة على وزن معظم : البائن الطويل في نحافة . وأطول من المربع . قال : وعن علي كرم الله وجهه : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة القوم ، والممغط : المتناهي في الطول . والمتردد المجتمع الخلق : أى القصير جدا ، لم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فارقه رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب للربعة : أى لا طويل ولا قصير ، عظيم الهامة . أى وفي رواية : ضخم الرأس ، رجل الشعر إذا انفرت عقيقته ، وفي لفظ عقيقته : وهى الشعر المعقوص فرق : أى إذا انفرت من

ذات نفسها فرقتها : أى أبقاها مفروقة وإلا تركها معقوصة : أى تركها على حالها لم يفرقتها ، لم يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره . قال : أى جعله وفرة .

وحاصل الأحاديث أن شعره صلى الله عليه وسلم وصف بأنه جمّة ، ووصف بأنه وفرة ، ووصف بأنه لمة . وفسرت اللمة : بالشعر الذى ينزل على شحمة الأذن ، والجمّة بالذى ينزل على المنكبين : قال بعضهم : كان شعره صلى الله عليه وسلم يقصر ويطول بحسب الأوقات ، فإذا غفل عن تقصيره وصل إلى منكبيه ، وإذا قصره تارة ينزل عن شحمة أذنه وتارة لا ينزل عنها .

وجاء فى وصف شعره صلى الله عليه وسلم : ليس يجعد ققط : أى بالغ فى الجعودة ، ولا رجل سبط : أى بالغ فى السبوطه فلا ينافى ما جاء عن على كرم الله وجهه : كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم سبطا .

وعن أم هانىء رضى الله عنها : كان له صلى الله عليه وسلم أربع غدائر : أى ضفائر ، تخرج أذنه اليمنى من بين ضفيرتين ، وأذنه اليسرى كذلك . قال ابن القيم رحمه الله : لم يخلق صلى الله عليه وسلم رأسه الشريف إلا لأربع مرات انتهى . أزهر اللون : أى أبيض مشرب بحمرة : أى وهى المراد بالسمر ، وفى رواية : كان أسمر ، ومن ثم جاء فى رواية : كان بياضه صلى الله عليه وسلم إلى سمرة ، لأن العرب قد تطلق على من كان كذلك أى بياضه إلى حمرة أسمر ، ومن ثم جاء : ليس بالأبيض الأمهق : أى شديد البياض الذى لا يخالطه حمرة كلون الجص :

وعن على كرم الله وجهه : ليس أبيض شديد الوضح . وفى رواية : شديد البياض ، ولا معارضة لأنه محمول على ما كان من جسده تحت الثياب ، ومن ثم جاء : أنور المتجرد : وهو ما كشف عنه الثوب من البدن .

وقيل المراد بالأمهق الأخضر ، فقد قيل إن المهق خضرة الماء ، ولا بالآدم : أى شديد الأدمة . واسع الجبين ، أى وفى رواية مفاض الجبين : أى واسع . وفى رواية

كان جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صلتا : أى أملس . وفى رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلى الجبين كأنه السراج المتوقد يتلأأ ، أزج الحاجبين ، سوابع من غير قرن : أى بين حاجبيه فرجة ، وهو البلج ، أى والقرن بالتحريك : اتصال شعر الحاجبين . وورد : مقرون الحاجبين : أى شعرهما متصل بالآخر ، لاحاجز بينهما :

ولا منافاة لأن ذلك يجوز أن يكون بحسب الراى ، لأن الفرجة التى كانت بين حاجبيه سيرة لا تبين إلا لمن دقق النظر . بينهما عرق يدره الغضب : أى إذا غضب امتلاً ذلك العرق دماً فيظهر ويرتفع . ألقى العينين : أى سائله مرتفع وسطه : أى وفى وسطه احديداب . وفى رواية : دقيق العينين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم . أى مرتفعاً . أدعج العينين أى شديد سواد العينين . وفى كلام بعضهم : الدعج سواد العين ، ويقابله الأشهل وهو من فى سواد عينيه حمرة . وقد جاء : أشهل العينين ، وأشهل العينين : أى فى بياض عينيه صلى الله عليه وسلم حمرة . وكانت فى الكتب القديمة مع علامات نبوته صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، أى وفى رواية : أنجل العينين : أى واسعهما . أهدب الأشفار : أى طويل هدب شعر العينين .

أى وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أكحل العينين . والكحل : سواد هدب العين خلقة .

وعن جابر رضى الله عنه : إذا نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت أكحل : أى فى عينيه كحل وليس بالكحل . سهل الخلدن أى وفى رواية أسيل الخلدن : أى ليس فى خديه نوء وارتفاع ، ضليع الفم : أى واسعه . أشذب : أى فى ريقه برد وعذوبة . مفلج الأسنان : أى مفرق ما بين الثنايا كما فى رواية : أفلج الثنيتين ، لأن الفلج تباعد ما بين الثنايا والرابعيات . وفى رواية : برآق الثنايا . كان إذا تكلم روى كالنور يخرج من بين ثناياه ، يفتر عن مثل حب الغمام : أى إذا ضحك بانث أسنانه كالبرد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : حسن الثغر . وعن أنس رضى الله عنه : شممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهته صلى الله عليه وسلم . كث اللحية : أى كثير شعرها . وفى رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيف اللحية ، وكان يسرحها بالماء ، وكان له صلى الله عليه وسلم مشط من العاج وهو الدبل . وقيل شىء يتخذ من ظهر السلحفاة البحرية ، ويقال لعظم الفيل عاج أيضاً : أى وائس مراداً هنا أى وكان له مقراض : أى مقص يقص به أطراف شاربه .

وفى المشكاة عن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » .

أى وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالمقراض من عرض لحيته وطولها .

وقد لا ينافى ذلك ما جاء «أمرنى ربي باعفاء لحيتي وقص شاربي» وقال « من الفطرة قص الأظفار والشارب ، وحلق العانة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه حتى كأن ثيابه ثياب زيات أو دهان . أى وفى لفظ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر التقنع حتى يرى حاشية ثوبه كأنه ثوب زيات أو دهان وليس فى شعر رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء .

وعن أنس رضى الله عنه أن شيب لحيته صلى الله عليه وسلم كان فى عنقه وصدغيه متفرقا . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : عرف من مجموع الروايات أن الذى شاب فى عنقه صلى الله عليه وسلم أكثر مما شاب فى غيرها .

وقال صلى الله عليه وسلم « شيبتنى هود وأخواتها ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ما أخواتها يا رسول الله؟ قال : الواقعة ، والقارعة ، وسأل سائل ، وإذا الشمس كورت ، واقتربت الساعة » :

وفى رواية « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت ، واقتربت الساعة » وقال صلى الله عليه وسلم « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة » ولعل شبيهه صلى الله عليه وسلم لم يخضب . وقيل كان يخضب بالحناء والكتم .

وقال صلى الله عليه وسلم « أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم » ونهى صلى الله عليه وسلم عن الخضاب بالسواد وقد تقدم . ضليح الفم : أى واسع وهو مما تمدح به العرب ، وتذم بصغر الفم ، غاض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول مع نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، دقيق المسربة يفتح الميم وإسكان السين ثم راء مضمومة : وهو الخيط الشعر الذى بين الصدر والسرة ، كأن عنقه جيد دمية : هى صورة تتخذ من العاج فى صفاء الفضة .

أى وعن على كرم الله وجهه : كأن عنقه إبريق فضة ، معتدل الخلق بادنا متماسكا : أى ذلحم متماسك يمسك بعضه بعضا ، ليس مسترخى اللحم سواء البطن والصدر : أى مستويهما عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس : وهى رءوس العظام : أى ملتقى كل عظمين كالمرفقين والمنكبين والركبتين . موصول ما بين اللبة بفتح اللام وتشديد الموحدة المفتوحة : هو المنحر والسرة بشعر يجرى كالخيط ، وهو المعبر عنه فيما سبق بدقيق المسربة

عاري الثديين والبطن وما سوى ذلك : أشعر الذراعين والمناكب . وأعلى الصدر ، طويل
الزندين : أى عظيم الذراعين ، رحب الراحة : أى واسعها :

قال أنس رضى الله تعالى عنه : مامست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، سائل الأصابع أى طويلها شثن الكفين والقدمين : أى يميلان إلى
الغلظ ، وذلك ممدوح فى الرجال مذموم فى النساء . أى وكانت سبابة يديه صلى الله عليه وسلم
أطول من الوسطى . قال ابن دحية رحمه الله : وهذا باطل بيقين ، ولم يقله أحد من ثقات
المسلمين : أى وإنما كان ذلك فى أصابع قدميه صلى الله عليه وسلم ، وهو فى ذلك كغيره
من الناس . وفى رواية منهوس بالمهملة والمعجمة العقب : أى قليل لحم القدمين . سبط
العظام : أى ممتدما لانتواء فيها .

وفى رواية سبط العصب وهو كل عظم فيه مخ خصان الأخصين ، ينبو عنهما الماء :
أى يتجافى أخص القدم وهو وسطه : أى شديد التجافى عن الأرض . مسيح القدمين : أى
أملسها ، وهذا يوافق ما جاء فى رواية : إذا وطى " بقدمه وطىء بكلها ليس له أخص ،
إذا زال زال : تفلعا : أى يرفع رجله بقوة ويخطو تكفيا : أى يتأيل إلى قدمه . وقيل يمينا
وشمالا كالختمال ، ولا يذم إلا من تكلفه لا من كان ذلك جبلة له . ويمشى هونا : أى برفق
ووقار دون عجلة . ذريع المشية : أى واسعها إذا امشى كأنما ينحط من صعب . أى وذكر
فى [سفر السعادة] أن هذه المشية مشية أصحاب الهمم العلية ومن قلبه حى ، وإن هذا النوع من
المشى يسمى مشى الهويناء المذكور فى قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض
هونا) وهو أعدل أنواع المشى ، لأن الماشى إما متهاون بالمشى كالخشبة ، أو طائش ينزعج
وهذان النوعان فى غاية القبح ، لأن الأول يدل على الخمول وموت القلب . والثانى
يدل على خفة الدماغ وقلة العقل ثم قال : وأنواع المشى عشرة هذه الثلاثة منها ،
وذكر باقيا .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا التفت التفت جميعا أى بسائر جده ، ولا يلوى عنقه كما
يفعله أهل الخفة والطيش ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه :

لا يقال : قد ذم صلى الله عليه وسلم المتشدين : لأننا نقول : المراد بهم من يكثر الكلام
من غير احتياط ولا احتراز ومن يلوى أشداقه استهزاء بالناس .

وكان صلى الله عليه وسلم يتكلم بجوامع الكلم : أى بالكلام القليل الألفاظ الكثير

المعاني . فصلا لافضول فيه ولا تقصير ، قال صلى الله عليه وسلم « أعطيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصارا .

قال : ومن تلك الكلمات « لآخر في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له . ماهلك امرؤ عرف قدر نفسه . رحم الله عبدا قال خيرا فغتم أو سكت فسلم . ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهها . خير الأمور أوساؤها . السعيد من وعظ بغيره » . إذا أشار أشار بكفه كلها اه وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث قارب يده اليمنى من اليسرى فضرب بابهام اليمنى راحة اليسرى ، أى وربما يسبح عند التعجب وربما حرك رأسه وعض شفته ، وربما ضرب بيده على فخذه ، وربما نكت الأرض بعود . وإذا غضب أعرض بوجهه .

أى وكان صلى الله عليه وسلم إذا غضب احمر وجهه الشريف ، وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته . وفي رواية : إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته وتنفس الصعداء أى تنفس طويلا وقال : حسبي الله ونعم الوكيل ، جل : أى معظم ضحكه التبسم ، وكون معظم ضحكه ذلك لا يتأني أنه صلى الله عليه وسلم ضحك غير ما مرة حتى بدت نواجذه .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا جرى به الضحك وضع يده على فيه ، قال : وكان أكثر أحواله صلى الله عليه وسلم يمشى منتعلا ، وربما مشى صلى الله عليه وسلم حافيا . وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل من هدية أهديت إليه حتى يأكل منها صاحبها : أى بعد أن أهديت إليه صلى الله عليه وسلم الشاة المسمومة .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع ويلعقهن إذا فرغ بلعق الوسطى ، ثم التي يليها ثم الإبهام ، وقال « إن لعق الأصابع بركة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بلعق الصحيفة ويقول : « إنكم لا تدرؤن في أى طعامكم البركة » اه .

ونحن نوضح بعض هذه الصفات الظاهرة بعبارة واضحة قريبة للأفهام فنقول :

كان صلى الله عليه وسلم عظيما معظما في الصدور والعيون كبير الرأس ، لأن كبير الرأس يدل على كثرة العقل غالبا ، ووجهه كالقمر ليلة البدر ، لون جسده الذى ليس تحت الثياب أبيض مشرب بحمرة ، طويل الحاجبين مع دقة ما بينهما خال من الشعر وهو البلج ، وضده القرن ، وهو أن يتصل شعر أحدهما بالآخر .

بين حاجبيه عرق إذا غضب انتفح ، طويل الأنف مع حذب في وسطه ودقة في طرفه ،
ليس في حذبه ارتفاع لأن العرب تدم به .

في عينيه شكلة : وهى بياض وحمرة ، شديد سواد العين مع اتساعها ، واسع الفم ،
لأن سعة الفم تدل على الفصاحة . بين ثناياه والرباعيات فرجة ، ويقال لها الفلج . كثير
شعر اللحية ، شبيه قليل ، عنقه كالإبريق الفضة . إذا مشى مال إلى أمامه .

باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الباطنة

وإن شاركه فيها غيره

كان صلى الله عليه وسلم سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ،
ولا فحاش ، ولا عياب ولا مزاح : أى كثير المزاح ، فلا ينافى ما روى : كان صلى الله عليه
وسلم يمزح أصحابه قال : وقد جاء « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » لكن جاء عن عائشة
رضى الله تعالى عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مزاحا . وكان يقول : إن الله
تعالى لا يؤاخذ المزاح الصادق في مزاحه .

وجاء عن بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم : ما رأيت أحدا أكثر مزاحا من رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كانت فى النبي صلى الله عليه وسلم دعابة .
وعن بعض السلف : كان للنبي صلى الله عليه وسلم مهابة ، فكان ييسط الناس بالدعابة .
قال صلى الله عليه وسلم لعنته صفة لا تدخل الجنة عجوز فبكت ، فقال لها وهو يضحك :
الله تعالى يقول (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربيا أترابا) وهن العجائز الرمص :
أى والعروب المتحبة لزوجها التى تقول وتفعل ما تهيج به شهوته إياها ، وأترابا : كأنهن
ولدن فى يوم واحد لأنهن يكن بنات ثلاث وثلاثين سنة .

وجاءه صلى الله عليه وسلم رجل وطلب أن يحمله على بعير فقال له : إني حاملك على
ولد الناقة ، فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ .

وقد أتى أزهر ، وفى لفظ زاهر وكان يهدى للنبي صلى الله عليه وسلم الهدية من البادية ،

فكان كلما قدم من البادية يأتي معه بطرف وهدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : زاهر باديتنا ونحن حاضره . وفي لفظ : لكل حاضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر ، وكان صلى الله عليه وسلم يحبه . جاءه يوما وهو يبيع متاعه في السوق وكان رجلا دميما ، فاحتضنه من خلفه ، فقال أرسلني ، من هذا ؟ فلما عرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم صار يمكن ظهره من صدره الشريف عليه الصلاة والسلام ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من يشتري العبد ؟ فقال : يا رسول الله تجدني كاسدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولكن عند الله لست بكاسد أو قال : أنت عند الله غال . ويجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم جمع بين هذين اللفظين ، وكل روى ما سمع منهما .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت « خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ، فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال لي تعالي حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت حتى إذا حملت اللحم ، وكنا في سفرة أخرى ، قال صلى الله عليه وسلم للناس تقدموا فتقدموا ثم قال لي : تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقتي ، فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك .

وعن أنس رضي الله عنه قال : دخل صلى الله عليه وسلم على أمي فوجد أخى أبا عمير حزينا ، فقال : يا أم سليم ، ما بال أبي عمير حزينا ؟ فقالت : يا رسول الله مات نغيره : تعني طيرا كان يلعب به ، فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير ما فعل النغير : وكان كلما رآه قال له ذلك .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها فقلت لسودة والنبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينها كلى فأبت ، فقلت لها : كلى كلى ، أو لألطنخن وجهك فأبت ، فوضعت يدي فيها فطلبت وجهها ، فضحك صلى الله عليه وسلم وأرخصي فخذة لسودة ، وقال : الطخى وجهها فلطخت وجهي ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم أي وقال صلى الله عليه وسلم يوما لعائشة : ما أكثر بياض عينك أنتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم يتغافل عما لا يشتهى ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكبار ، وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب

عورته ، وكان صلى الله عليه وسلم يقابل السيئة بالحسنة ، ولا يذم ذواقا ولا يمدحه .
والذواق الشيء ، يقال ماذقت ذواقا : أى شيتا من طعام أو شراب .

وعن عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما عن رجل من العرب : قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفي رجلى نعل كثيفة ، فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعجنى بعجة بسوط فى يده ، وقال : بسم الله أوجعتنى ، قال : فبت لنفسى لأنما ، أقول أوجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان ، فانطلقت وأنا متخوف ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى فبعجتك بالسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها بها ، ولما نزل قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال له جبريل عليه السلام ، أى بعد أن سأله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : إن ربك عز وجل يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

وفى الحديث « لا ينال عبد صريح الإيمان حتى يكون كذلك » وفى الحديث إن ذلك أفضل أهل الدنيا والآخرة .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق والمسألة ، لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وإنما يغضب إذا تعرض للحق بشيء وعند غضبه لذلك لا يثنيه شيء عن الانتصار له ، ويكرم كريم كل قوم ، ويؤليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ويسأل عنهم ، فإن كان غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده ، ويسأل الناس عما الناس فيه ، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة ، أحسنهم مواساة ، لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ويعطى كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه .

من جالسه أو نادمه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . من سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول .

عنده الناس فى الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء : لا ترفع فيه الأصوات ، ولا يتنازعون عنده الحديث .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير : أى على غاية من السكون والوقار لأن الطير لا تكاد تقع إلا على ساكن ، وإذا تكلم عنده أحد أنصتوا له حتى يفرغ من حديثه : أى لا يقطع بعضهم على بعض حديثه ، يضحك مما يضحكون ، ويعجب مما يعجبون .

فقد ذكر أن أبا بكر رضى الله عنه خرج تاجرا إلى بصرى ومعه نعيان بن عمرو الأنصاري وسويط بن حرملة وكلاهما بدرى . وكان سويط على زاد أبي بكر فجاءه نعيان وقال له أطمعنى ، فقال : لاحتى يأتي أبو بكر وكان نعيان رجلا مضحكا كما مزاحا فيه دعابة وله أخبار ظريفة في دعابته ، فقال لسويط : لأغيظنك ، فذهب إلى ناس ، وفي رواية : فمروا بقوم ، فقال لهم نعيان : تشترون منى عبدا لى ؟ قالوا نعم . قال : إنه عبد له كلام وهو قائل لكم لست بعبده ، أنا رجل حر ، فإن كان إذا قال لكم هذه تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا على عبدى ، قالوا لا بل نشتره ، ولا ننظر في قوله ، فاشتروه منه بعشرة قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا ، فجاء القوم له وقالوا له : قد اشتريناك ، فقال : هو كاذب أنا رجل حر ، وفي رواية أنهم وضعوا عمامته في عنقه ، فقال لهم : إنه يتهزأ ولست بعبده ، فقالوا له قد أخبرنا بخبرك ، فطرحوا الحبل في عنقه وذهبوا به ، ولم يسمعوا كلامه ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه ، فأخبره خبره ، فذهب هو وأصحابه وأتبعوا القوم ، وأخبروهم أنه يمزح ، وردوا عليهم القلائص ، وردوا سليطا منهم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فضحك من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حولا كاملا ، لأن سفر أبي بكر رضى الله عنه كان قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بعام .

ووقع لنعيان هذا أنه مر بمخرمة بن نوفل رضى الله عنه وقد كف بصره وهو يقول ألا رجل يقودنى حتى أبول ، فأخذ بيده نعيان ، فلما بلغ مؤخر المسجد قال له : ههنا ، فبال فصاح الناس به ، فقال : من قادنى ؟ قيل نعيان ، فقال لله على أن أضربه بعصاى هذه ، فبلغ نعيان فأتاه ، فقال له : هل لك فى نعيان ؟ قال نعم ، قال : فقم ، فقام معه ، فأتى به عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو إذ ذاك أمير المؤمنين وهو يصلى ، فقال : دونك الرجل ، فجمع يديه فى العصا ثم ضربه ، فقال الناس : أمير المؤمنين ، فقال : من قادنى ؟ فقيل نعيان ، قال : لا أعود إلى نعيان أبدا :

وجاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه فقال بعض الصحابة لنعيمان: لو نحرمتها فأكلناها؟ فإننا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقها، فنحرها نعيان، فخرج الأعرابي فرأى راحلته، فصاح: واعقراه يا محمد، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من فعل هذا؟ قالوا نعيان، فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عنه، فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطالب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجرید، فأشار إليه رجل ورفع صوته: ما رأيتك يا رسول الله وأشار بأصبعه حيث هو، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تعفر وجهه بالتراب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عن وجهه التراب ويضحك، ثم غرم صلى الله عليه وسلم ثمنها.

وكان رضى الله عنه إذا دخل المدينة طرفة اشتراها في ذمته، ثم جاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: يا رسول الله هذه هدية، فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعط هذا ثمن ماجئت به إليك، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو لم تهد ذلك لى؟ فيقول: يا رسول الله لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن يكون لك، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه.

وكان صلى الله عليه وسلم دائم البشر ضحوك السن: أى أكثر أحواله ذلك حسبا رآه هذا الخبر، فلا ينافى أنه صلى الله عليه وسلم كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة ليست له راحة، فإنه بحسب ما كان عند ذلك الخبر.

وفى كلام ابن القيم رحمه الله: قد صانه الله عن الحزن فى الدنيا وأسبابها، ونهاه عن الحزن على الكفار، وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، فمن أين يأتيه الحزن، بل كان دائم البشر ضحوك السن، كذا قال.

وفى كلام الإمام أبى العباس بن تيمية رحمه الله: ليس المراد الحزن الذى هو الألم على فوات مطلوب أو حصول مكروه، فإن ذلك منهى عنه، وإنما المراد به الاهتمام واليقظة لما يستقبله من الأمور، وهذا مشترك بين القلب والعين.

وستلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: خلقه القرآن: أى ما ذكره القرآن (وإنك لعلى خلق عظيم) وإنه تأدب بآدابه وتخلق بمحاسنه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال » .
قال : وذكر في عوارف المعارف أن في قول عائشة رضى الله عنها خلقه القرآن سرا
غامضاً ، حيث عدلت إلى ذلك عن قولها كان متخلقا بأخلاق الله سترًا للحال بلطف المقال
استحياء من سبحات ذى الجلال اه ، أى فكان صلى الله عليه وسلم متضفا بما فيه من
الاجتهاد فى طاعة الله والخضوع له ، والانقياد لأمره والشدة على أعدائه ، والتواضع
لأوليائه ، ومواساة عباده وإرداة الخير لهم ، والحرص على كمالهم ، والاحتمال لأذاهم ،
والقيام بمصالحهم وإرشادهم إلى ما يجمع لهم خيري الدنيا والآخرة مع التعفف عن أموالهم
إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة التى اتصف بها صلى الله عليه وسلم
وشرف وكرم .

وكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية وخوفاً من الله ، أى ومن ثم كان صلى الله
عليه وسلم يقول « أنا أتقاكم لله ، وأخوفكم منه » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت « أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فدخل
معى فى الحافى ، ثم قال : ذرينى أتعبد لربى ، فقام صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم قام فصلى
فبكى حتى سال دمه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم
يزل كذلك حتى جاءه بلال رضى الله عنه فأذنه بالصلاة ، فقلت : يا رسول الله ما يبكيك
وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ، ولم
لا أفعل وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) إلى قوله (سبحانهك فقنا عذاب النار) :

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « أواه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أواه » أى وعن
أبي موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول من صنعت
له النورة ودخل الحمام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، فلما دخله وجد حره وغمه
قال : أواه من عذاب الله ، أواه قبل أن لا يكون أواه » .

أى وفى [سفر السعادة] : لم يدخل صلى الله عليه وسلم الحمام أبداً ، والحمام الموجودة
الآن بمكة شرفها الله تعالى المشهورة بحمام النبي صلى الله عليه وسلم لعلها بنيت فى موضع
اغتسل فيه صلى الله عليه وسلم مرة ، هذا كلامه .

وأرسل صلى الله عليه وسلم وصيفة فأبطأت عليه ، فقال لها : لولا خوف القصاص

لأوجعتك بهذا السواك . وما ضرب صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة امرأة ولا خادمة من أهله .

قال : وعن خادمه أنس رضى الله عنه : ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر فتوانيت عنه ، أو ما صنعتته فلأمنى ، ولا لأمنى أحد من أهله صلى الله عليه وسلم إلا قال دعوه . وفى لفظ : خدمته فى السفر والحضر عشر سنين والله ما قال لى فى شىء صنعته لم صنعت هذا هكذا ولا لشىء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وهذا يدل على أنه رضى الله عنه خدمه صلى الله عليه وسلم عند قدومه المدينة ، وتقدم أن فى بعض الروايات ما يدل على أن ابتداء خدمة أنس له صلى الله عليه وسلم فى فتح خيبر ، وتقدم ما فيه .
ووصف صلى الله عليه وسلم فى الكتب القديمة بأن حلمه صلى الله عليه وسلم يسبق غضبه ، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما .

وقد تقدمت قصته صلى الله عليه وسلم مع اليهودى الذى طلب منه وفاء ما اقترض منه صلى الله عليه وسلم قبل حلول الأجل ونظيرها .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها صلى الله عليه وسلم لم يكن فحاشا . استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم رجل ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة ، فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة متى عهدتني فحاشا ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اثناء شره .

قال ابن بطال رحمه الله : إن هذا الرجل هو عيينة بن حصن ، لأنه كان يقال له الأحق المطاع ، وهو صلى الله عليه وسلم إنما تطلق فى وجهه تألفا له ليسلم قومه ، لأنه كان المطاع فيهم . وأما ذمه صلى الله عليه وسلم له فلا أنه يعلم ما يقع منه بعد ، فإنه ارتد فى زمن الصديق رضى الله عنه وحارب ثم رجع وأسلم .

أى وقد قيل إن سبب نزول قوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) الآية أن عيينة هذا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قال له أسلم قال : على أن تبني لى مقصورة فى مسجدك هذا أكون أنا وقومى فيها وتكون أنت معى .

ومن تأمل سيرته صلى الله عليه وسلم مع أهله وأصحابه وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين علم أنه صلى الله عليه وسلم بلغ الغاية في التواضع ورقة القلب ولين الجانب .

وعن أنس رضى الله عنه : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة يوما . فقلت : والله لا أذهب وفى نفسى أنى أذهب ، فخرجت على صبيان يلعبون فى السوق ، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابى من ورائى ، فنظرت إليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال : يا أنيس اذهب حيث أمرتك . فقلت نعم أنا أذهب . يا رسول الله اه .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، وأرجح الناس حلما ، وأعظم الناس عفوا ، وأسخى الناس كفا .

وكان صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسله ، وقال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه وقد اضطروه إلى شجرة فخطفت رداؤه الشريف فوقف ، ثم قال : أعطونى رداؤى ، لو كان لى عدد هذه العضاء نعماً لقسمته بينكم .

وفى رواية : « لو أن لى مثل جبال تهامة ذهباً لقسمته بينكم ثم لا تجدونى كذوبا ، ولا بخيلا ، ولا جباناً » كما تقدم .

وكان صلى الله عليه وسلم أشجع الناس قلبا ، وأشد الناس بأسا وأشد الناس حياء . وكان أشد حياء من البنت البكر فى خدرها أى بيتها وسترها ، وكان إذا فرح ، غص طرفه ، وإذا أخذ العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض صوته ، وربما غطى وجهه بيده أو ثوبه .

وكان يجب الفأل الحسن ، ويغير الاسم القبيح بالحسن كما تقدم ، وربما غير الحسن بالقبيح كما تقدم . وكان يقول لأصحابه : إذا أرسلتم لى رسولا فليكن حسن الاسم ، حسن الوجه .

من ذلك أن شخصا كان سادنا : أى خادما الصنم ، وكان يسمى غاوى بن ظالم . فبينما هو عند صنمه إذ أقبل ثعلبان إلى الصنم ورفع كل واحد منهما رجله وبال على رأس ذلك للصنم ، فلما رأى ذلك كسر ذلك الصنم وأنشد :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له كيف اسمك ؟ فقال : غاوى بن ظالم .
فقال صلى الله عليه وسلم له : بل أنت راشد بن عبد ربه .
ومن هذا السياق يعلم أن الثعلبان بفتح التاء المثلثة مثني ثعلب لا بضمها ذكر الثعلاب
كما قيل .

ومن تغيير الاسم القبيح بالحسن ما وقع له صلى الله عليه وسلم في غزوة ذي قرد أنه مر
على ماء فسأل عنه ، فقيل له : هذا اسمه بئسان وهو صالح . فقال : لا ، بل اسمه نعمان
وهو طيب ، فانقلب عذبا . واشتراه طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ثم تصدق به ، فلما
جاء إليه صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنت
يا طلحة إلا فياض فسمى طلحة التياض .

وكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر . قالت عائشة رضى الله عنها :
مارأيت رجلا أكثر مشاورة للرجال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا حلف قال : لا ومقلب القلوب ، وربما قال في يمينه وأستغفر
الله ، وإذا اجتهد في اليمين قال : لا ، والذي نفس أبي القاسم بيده ، وربما قال : والذي
نفس محمد بيده ، وربما قال في يمينه : لا ، وأستغفر الله والذي نفسى بيده .

وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس إغضاء عن العورات . وكان إذا ذكره شيئا عرف
في وجهه ، ولم يشافه أحدا بمكروه حتى إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان
يقول أو يفعل كذا . بل يقول : ما بال أقوام يقولون أو يفعلون كذا .

لايجزى بالسينة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس
لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة . مادعاه أحد من أصحابه أو أهل بيته إلا قال
ليبيك ، يخالط أصحابه ، ويحادثهم ، ويداعب ، أى يمازح صبيانهم ، ويجلسهم في
حجره الشريف .

أى فقد كان صلى الله عليه وسلم يصف أولاد عمه العباس عبد الله وعبيد الله وغيرهما
رضى الله عنهم ويقول : من سبق إلى كذا ، فيستبقون إليه فيقعدون على صدره
الشريف فيقبلهم ويلتزمهم . ويحيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى
في أقصى المدينة ، ويشهد الجنائز ، ويقبل عذر المعتذر . ماوضع أحد فمه في أذنه إلا استمر
صاغيا له حتى يفرغ من حديثه ويذهب ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده صلى الله عليه
وسلم منه حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها .

وكان صلى الله عليه وسلم يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، لم يرقط ماداً رجله بين أصحابه . يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له رداءه وآثره بالوسادة التي تحته ، ويعزم عليه بالجلوس عليها إن أبى ، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم ويكنيهم ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته ، وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، وطعن في الحديث الذى ورد بذلك ، وإذا سمع بكاء الصغير وهو يصلى تجوز فيها : أى خففها .

أكثر الناس شفقة على خلق الله تعالى وأرأفهم بهم وأرحمهم بهم ، قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ومن ثم رغب صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أن يجعل سبه ولعنه لأحد من المسلمين رحمة له : أى إذا كان لا يستحق ذلك السب فى باطن الأمر ويستحقه فى ظاهر الأمر . أى وقال صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » أوصل الناس للرحم ، وأقومهم بالوفاء وحسن العهد .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

وكان يركب الحمار : أى وربما ركب عربانا ويردف خلفه . فعن أنس رضى الله عنه : رأيت صلى الله عليه وسلم يوماً على حمار خطامه ليف ، أى وقد جاء أن ركوب الحمار براءة من الكبر ، وكان يجلس على الأرض ، وكان يشرب قائماً وقاعداً وينتعل قائماً وقاعداً ، ويصلى منتعلاً وحافياً .

وفى لفظ : كان أكثر صلاته صلى الله عليه وسلم فى نعليه وكان يحب التيامن فى شأنه كله فى ظهوره وترجله وتنعله ، وكان يحب السواك حتى لقد أحنى لثته . وكان يكتحل بالإمّ عند النوم ثلاثاً فى كل عين : وفى لفظ : ثلاثاً فى اليمنى ومرتين فى اليسرى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالإمّ ، فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر ، وإنه من خير أكله » وكان يعود المساكين ويجلس بين أصحابه .

« وحج صلى الله عليه وسلم على راحل رث عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم ، وقال : اللهم اجعله حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة » كما تقدم ، وأهدى فى حجه ذلك مائة يدنة كما تقدم .

وكان يفلى ثوبه ، أى وإن كان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن القمل لا يؤذيه ،

ويحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه وهو الجمل الذى يسقى عليه الماء ؛ ويقم البيت .

قال وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل عمل البيت ، وأكثر ما يعمل الخياطة ، ما يرى فارغا قط فى بيته ، إما يخصف نعلا لرجل مسكين ، أو يخيظ ثوبا لأرملة انتهى ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويحب الطيب ، ويأمر به .

وكان يتطيب بالمسك والغالية ، ويتبخر بالعود والعنبر والكافور ، ويأمر أصحابه بالمشى أمامه . ويقول : « خلوا ظهري للملائكة » زاهدا فى الدنيا . ما ترك درهما ولا دينارا . توفى ودرعه مرهونة ، وتقدم أنها ذات الفضول عند يهودى وتقدم أنه أبو الشحم على نفقة عياله ، وتقدم أن ذلك كان ثلاثين صاعا من شعير ، وكان الأجل سنة .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » . ماشع ثلاثة أيام تباعا من خبز البر حتى فارق الدنيا . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه .

وفى رواية : ما شبع يومين من خبز الشعير : أى ومعلوم أن ذلك إنما هو لتأسى به أمته فى الإعراض عن الدنيا . قالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « لى عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذبا ، فقلت : لا يارب ، أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .

قال صلى الله عليه وسلم « مالى وللدنيا ، إنما أنا فى الدنيا كرجل سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة حتى مال لى فتركها ولم يرجع إليها » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما أبالى بما رددت به عنى الجوع » ولم ينخل له صلى الله عليه وسلم دقيق الشعير . قال : وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : والذى بعث محمدا بالحق ما رأى من خلا ، ولا أكل خبزا من دخولا منذ بعثه الله تعالى لى أن قبض . فقيل لها : كيف كنتم تصنعون بالشعير ؟ قالت : كنا نقول أف أف انتهى ، أى فيطير ما طاره وما بقى عجنائه : ولا خبز له صلى الله عليه وسلم مرقق . ولا أكل التى من الخبز .

وعن أنس رضى الله عنه قال : جاءت فاطمة رضى الله عنها بكسرة خبز لى النبي

صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » أى فانه صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا . ولا أكل على خوان قط ، إنما كان يأكل على السفرة ، وربما وضع صلى الله عليه وسلم طعامه على الأرض .

أى وخطب صلى الله عليه وسلم يوما فقال : والله ما أمسى فى بيت محمد صاع من طعام وإنما لتسعة آيات . قال الحسن : والله ما قالها استقلالا لرزق الله ، ولكن أراد صلى الله عليه وسلم أن تتأسى به أمته .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد فى بيت من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار لا تلخب ولا لطبخ ، فقبل له : بأى شىء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ فقال : بالأسودين الماء والتمر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : والله لقد كان يأتى على آل محمد صلى الله عليه وسلم الليالى ما يجدون فيها عشاء .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : أهدى لنا أبو بكر شاة قالت إنى لأقطعها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلمة البيت ، فقال لها قائل : أما كان لكم سراج ؟ فقالت : لو كان لنا ما نسرج به أكلناه .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يجمع فى بطنه بين طعامين ، إن أكل لحما لم يزد عليه ، وإن أكل تمرا لم يزد عليه ، وإن أكل خبزاً لم يزد عليه ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم إلا ثوب واحد من قطن ، قصير السكين ، كنه إلى الرسغ ، وطوقه مطلق من غير أزرار . أى وفى لفظ : كان قصير رسول الله صلى الله عليه وسلم قطنا ، قصير الطول ، قصير السكين ، كنه إلى الرسغ .

وكان له صلى الله عليه وسلم جبة ضيقة السكين ، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر من نسج عمان .

وكان له صلى الله عليه وسلم بردة بمانية طولها ستة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع وشبر ، كان يلبسها فى يوم الجمعة والعيدين ثم يطويان .

وكان له صلى الله عليه وسلم رداء أخضر طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر تداولته الخلفاء .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة تسمى السحاب ، كساها على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فكان ربما طلع عليه على كرم الله وجهه فيقول صلى الله عليه وسلم : أتاكم على في السحاب ، يعني عمامته التي وهبها له صلى الله عليه وسلم .

: وكان إذا اعمى يرخي عمامته بين كتفيه ، وكان يلبس القلنسوة اللاتئة : أى اللاصقة بالرأس ، وذات الأذان كان يلبسها في الحروب ، والقلانس الطوال إنما حدثت في أيام الخليفة المنصور .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « فرق بيننا وبين المشركين العمام على القلانس » أى فإنه صلى الله عليه وسلم كان يلبس القلانس تحت العمام ، ويلبس القلانس بغير عمام ويلبس العمام بغير قلانس .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة سوداء دخل يوم فتح مكة لابسها . وعن جابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « كان للنبي صلى الله عليه وسلم عمامة سوداء يلبسها في العيدين ويرخيها خلفه » .

وجاء أن جبريل عليه السلام كانت عمامته يوم غرق فرعون سوداء . ومقدار عمامته الشريفة صلى الله عليه وسلم لم يثبت في حديث . قال بعض الحفاظ : والظاهر أنها كانت نحو العشرة أذرع أو فوقها ببسير ، وكانت له صلى الله عليه وسلم خرقة إذا توضع تمسح بها ، هذا .

وفى [سفر السعادة] : لم يكن صلى الله عليه وسلم ينشف أعضائه بعد الوضوء بمندبل ولا منشفة ، وإن أحضروا له شيئاً من ذلك أبعد . والحديث المروى عن عائشة رضى الله عنها : كانت له صلى الله عليه وسلم نشافة يتنشف بها بعد الوضوء . وحديث معاذ رضى الله عنه فى معناه كلاً ما ضعيف وقال : تنشيف الأعضاء من الوضوء لم يصح فيه حديث .

وكانت له صلى الله عليه وسلم ملحفة موروثة إذا أراد أن يدور على نسائه رشها بالماء أى لتظهر راحتها . وكان يصبغ قميصه ورداءه وعمامته بالزعفران . أى وفى لفظ : كان يصبغ ثيابه كلها بالزعفران حتى العمامة .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قميص أصفر ورداء أصفر وعمامة صفراء .

وعن ابن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه : كان أحب الصبغ إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم الصفرة . وقال الحافظ الدمياطي رحمه الله : ويعارض هذه الأحاديث ما روى في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المزعفر ، وفي لفظ : نهى عن أن يتزعفر الرجل .

أى وقد يقال : على تقدير صحة تلك الأحاديث فهي منسوخة ، أو كلن ذلك من خصوصياته صلى الله عليه وسلم . وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم اشترى السراويل . واختلف هل لبسها ؟ فقيل نعم ، ففي الأوسط للطبراني ومسند أبي يعلى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى بزازين ، فاشترى سراويل بأربعة دراهم ، وكان لأهل السوق وزآن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أوزن وأرجح . وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السراويل فذهبت لأحمله عنه ، فقال «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفا يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم . قلت يا رسول الله إنك لتلبس السراويل . قال : أجل في السفر والحضر ، وبالليل وبالنهار ؛ فإني أمرت بالستر ، فلم أجد شيئا أستر منه » ومخرجه هو وشيخه ضعيفان .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم توفني فقيرا ولا توفني غنيا ، واحشرنى في زمرة المساكين » وفي لفظ آخر « اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرنى في زمرة المساكين ، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة ، أنتنى الدنيا خضرة حلوة ، ورفعت إلى رأسها وتزينت لى ، فقلت : إني لا أريدك ، لاحاجة لى فيك ؛ ولو كانت الدنيا وزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » انتهى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبي صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاويا لا يجدون عشاء :

قال : وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، الفاقة أحب إلى من اليسار » وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كنت أرثى له صلى الله عليه وسلم من الجوع ، وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنع عنك الجوع ، فيقول : يا عائشة إن إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم ، فأكرمهم وأجزل ثوابهم أخشى إن ترفعت فى معيشتى أن يتصربنى دونهم ، فأصبر أيا ما يسيرة أحب إلى من أن يتقص حظى غدا فى الأخرى ، وما من شىء أحب إلى من اللحوق بإخوانى » :

قال : وقال صلى الله عليه وسلم « يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد .
يا عائشة إن الله لم يرض مع أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ، وقال (فاصبر كما صبر أولوا
العزم من الرسل) والله لأصبرن جهدى ولا قوة إلا بالله » انتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ،
فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » وكان صلى الله عليه وسلم على غاية من الإعراض
عن الدنيا ، وكان يصلى على الحصير وعلى القروة المدبوغة ، وربما نام على الحصير فأثرت
في جسده الشريف .

وكان ينام على شيء من آدم محشو ليفا ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : « ما لي وللدنيا ؟ » .
وعن عائشة رضى الله عنها : « دخلت امرأة من الأنصار فرأت ذلك الأدم . وفي لفظ
رأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه
صوف ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا ؟ فقلت : يا رسول الله
غلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك فذهبت فبعثت هذا ، فقال : رديه ، فلم أرد
وأعجبنى أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : والله يا عائشة لو شئت
لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » .

وعنها رضى الله عنها أنها كانت تفرش تلك العباءة مثنية طاقين ، ففي بعض الليالي
رבעتها ، فنام صلى الله عليه وسلم عليها ثم قال : « يا عائشة ما الفراشى الليلة ليس كما يكون ؟
قلت : يا رسول الله رבעتها ، قال : فأعيديه كما كان » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استجد ثوبا قال : اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ،
أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له . وكان يقول
لأصحابه كلهم رضى الله عنهم « إذا لبس أحدكم ثوبا فليقل الحمد لله الذى كسانى ما أوارى
به عورتى ، وأتجمل به في حياتى » قال : وكان أرجح الناس عقلا : والعقل مائة جزء :
تسعة وتسعون في النبي صلى الله عليه وسلم ، وجزء في سائر الناس .

وعن وهب بن منبه : قرأت في أحد وسبعين كتابا أنه صلى الله عليه وسلم أرجح الناس
وأفضلهم رأيا : وفي رواية : وجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء
الدنيا إلى انتهائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم إلا كحبة بين رمال الدنيا .
ومما يتفرع على العقل اقتناء الفضائل ، واجتناب الرذائل ، وإصابة الرأى ، وجودة الفطنة

وحسن السياسة والتدبير ، وقد بلغ من ذلك صلى الله عليه وسلم الغاية التي لم يبلغها
بشئ سواه .

ومما يكاد يقضى منه العجب حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم للعرب الذين هم كالوحوش
الشاردة ، كيف ساسهم ، واحتمل جفاهم ، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه صلى الله
عليه وسلم ، واجتمعوا عليه ، واختاروه على أنفسهم ، وقاتلوا دونه أهلهم وآباءهم وأبناءهم
وهاجروا في رضاه أو طانهم انتهى ، والله أعلم .

باب يذكر فيه مدة مرضه ، وما وقع فيه ، ووفاته

صلى الله عليه وسلم التي هي مصيبة الأولين والآخريين من المسلمين

ذكر أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى البقيع من جوف الليل فاستغفر لهم . فعن
أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له
في جوف الليل « إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي ، قال : فانطلقت معه
فلما وقف بين أظهرهم ، قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لکم ما أصبحتم فيه مما
أصبح الناس فيه ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها
أولها والأخيرة شر من الأولى ، قال : ثم أقبل على ، وقال : يا أبا مويهبة هل علمت أني
قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، وخبرت بين ذلك وبين لقاء ربي ،
فاخترت لقاء ربي والجنة » أي وفي رواية « أن أبا مويهبة قال له : بأبي أنت وأمي ، فخذ
مفاتيح خزائن الأرض والخلد فيها ، ثم الجنة . قال لا ، والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء
ربي والجنة ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى أهله ، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه
ذلك ابتداء الصداع » أي وفي رواية « ذهب بعد ذلك إلى قتلى أحد فضلى عليهم ، فرجع
معصوب الرأس ، فكان ذلك بدء الوجع الذي مات فيه » وفي رواية : « رجع من
هنازة بالبقيع » .

قالت عائشة رضي الله عنها : « لما رجع من البقيع وجدني وأنا أجد صداعا في رأسي وأنا
أقول وارأساه ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل أنا وارأساه قال : لو كان ذلك وأنا حي فاستغفر
لك وأدعوك وأكفئك وأدفنك » وفي لفظ « وما يضررك لومت قبلي فقمتم عليك وكفنتك

وصليت عليك ودفنتك ، فقلت : واثكلاه . والله : إنك لتحب موتي ، فلو كان ذلك لظلت يومك معرسا ببعض أزواجك ، قالت : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أنا وارأساه ، لقد هممت أن أرسل إلى أبيك وأخيك فأقص أمري وأعهد عهدي فلا يطمع في الدنيا طامع . « وفي لفظ » ثم قلت يا بني الله ويدفع المؤمنون ، أو يدفع الله وبأبي المؤمنون « وفي رواية : « أنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه : ادعى لي أباك أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابا فإني أخاف أن يتمنى متمن أو يقول قائل أنا أولى ، وبأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر » وفي رواية : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما اثنتى بكتف أولوح حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يخاف عليه ، فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم ، قال : أبا الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر . »

قال ابن كثير رحمه الله : وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بين فيها فضل الصديق رضى الله عنه من بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ولعل خطبته صلى الله عليه وسلم هذه كانت عوضا عما أراد صلى الله عليه وسلم أن يكتبه في الكتاب .

وفي رواية أنه اجتمع عنده صلى الله عليه وسلم رجال ، فقال صلى الله عليه وسلم : هلموا أكتب لكم كتابا لاتصلوا بعده ، فقال بعضهم : أى وهو سيدنا عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه الوجع وعندكم القرآن ، أى وإنما قال ذلك رضى الله عنه تخفيفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتفعت أصواتهم ، فأمرهم بالخروج من عنده .

وجاء أن العباس رضى الله عنه قال لعلى كرم الله وجهه : لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصح من مرضه هذا فإني أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أى وفي رواية : خرج على بن أبي طالب كرم الله وجهه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مرضه الذى مات فيه ، فقال الناس : يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده عمه العباس رضى الله عنهما . وقال له : والله أنت بعد ثلاث عبد العصى ، وإني لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه هذا بعد ثلاث إلا ميتا ، فإني رأيت فى وجهه ما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسأله فيمن هذا الأمر ؟ فإن

كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا ، فقال على كرم الله وجهه :
والله لا أسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة رضی الله عنها : وصار صلى الله
عليه وسلم يدور على نسائه فاشتد به المرض عند ميمونة رضی الله عنها ، وقيل في بيت زينب
رضی الله عنها ، وقيل في بيت ریحانة رضی الله عنها ، قالت عائشة رضی الله عنها : فدعا
صلى الله عليه وسلم نساءه فاستأذنين أن يمرض في بيتي فأذن له ، وفي رواية : صار يقول
وهو في بيت ميمونة أين أنا غدا أين أنا غدا ؟ يريد يوم عائشة رضی الله عنها . وفي البخارى
يقول : أين أنا اليوم أين أنا غدا ؟ استبطاء ليوم عائشة رضی الله عنها ، فأذن له أزواجه أن
يكون حيث شاء ، فكان في بيت عائشة .

وفي رواية عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى النساء في مرضه فاجتمعن ،
فقال : إني لأستطيع أن أدور بينكن ، فإن رأيتم أن تأذن لي فأكون في بيت عائشة فعلتن :
فأذن له قالت : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى بين رجلين من أهله معتمدا
عليهما الفضل بن العباس ورجل آخر ، وفي رواية بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل
آخر ، وفي رواية بين أسامة ورجل آخر عاصبا رأسه الشريف تخط قدماه الأرض حتى
دخل بيتي ، قال ابن عباس رضی الله عنهما : الرجل الذي لم تسمه على بن أبي طالب كرم الله
وجهه ، أى فإنه كان بينها وبين على ما يقع بين الأعمام ، وقد صرحت بذلك لما أرادت أن
توجه من البصرة بعد انقضاء وقعة الجمل وخرج الناس ومن جملتهم على كرم الله وجهه
لتوديعها ، حيث قالت : والله ما كان بيني وبين على في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحائها
فقال على : أيها الناس صدقت والله وبرت ، ما كان بيننا وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة
نبيكم في الدنيا والآخرة ، وقد تقدم ذلك .

ثم غمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد به وجعه ، فقال : هريقوا على من سبع
قرب من آبارشتي حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم ، فأقعدناه صلى الله عليه وسلم في
مخضب إناء من حجر ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم ، وفي لفظ :
حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن : أى وصب المياه المذكورة له دخل في دفع السم .
أى فإنه صلى الله عليه وسلم صار يقول لعائشة : يا عائشة ما زال أجد ألم الطعام الذى أسمته
بخير ، فهذا أوان انقطاع أهرى من ذلك السم . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
عاصبا رأسه الشريف حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ماتكم به أن صلى على أصحاب

أحد ، أى دعا لهم فأكثر الصلاة عليهم واستغفر لهم . ثم قال : إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ؟ فاختار ذلك العبد ما عند الله ، ففهمها أبو بكر رضى الله تعالى عنه وعرف أن نفسه يريد . أى فسكى أبو بكر [] فقال : نفديك بأنفسنا وأبنائنا . فقال : « على رسلك يا أبا بكر . أى وفى رواية قال : يا أبا بكر لاتبك ، أيها الناس إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر » وهذا حديث صحيح جاء عن بضعة عشر صحابيا ، ولكثرة طرقة عدّ من المتواتر .

وفى أخرى : « إن أعظم الناس علىّ منا فى صحبته وذات يده أبو بكر » وفى أخرى : « فانى لأعلم امرأ أفضل عندى يدا فى الصحابة من أبى بكر » .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن نبي يموت حتى يخبر بين الدنيا والآخرة » أى وفى الحديث « حياتى خير لكم ، وماتى خير لكم تعرض علىّ أعمالكم ، فإن رأيت شرا استغفرت لكم » أى وهذا بيان للثانى لاستغناء الأول عن البيان ، ومعلوم أن خيرا وشرا هنا ليسا أفضل تفضيل الذى يوصل بمن حتى يلزم التناقض ، بل المراد أن ذلك فضيلة ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : انظروا هذه الأبواب اللاصقة فى المسجد ، أى وفى لفظ : هذه الأبواب الشوارع فى المسجد فسدوها إلا باب أبى بكر . أى وفى لفظ : إلا ما كان من باب أبى بكر ، فإنى وجدت عليه نورا . وفى لفظ « سدوا عنى كل خوخة فى هذا المسجد إلا خوخة أبى بكر » فإن المراد بالأبواب الخوخ ؟ « فإنى لأعلم أن أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه » أى وفى لفظ : « أبو بكر صاحبى ومؤنسى فى الغار ، سدوا كل خوخة فى المسجد غير خوخة أبى بكر » وفى لفظ « لاتؤذونى فى صاحبى ولولأن الله سماه صاحبا لاتخذته خليلا ، ألسدوا كل خوخة إلا خوخة ابن أبى قحافة » أى وجاء فى الحديث « لكل نبي خليل من أمته ، وإن خليل أبى بكر ، وإن الله اتخذ صاحبكم خليلا » وفى رواية « وإن خليلى عثمان بن عفان » وجاء « لكل نبي خليل » وخليلى سعد ابن معاذ » .

وفى أسباب النزول للثعالبي عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، وإنه لم يكن نبي إلا وله خليل . ألا وإن خليلى أبو بكر » وفى رواية الجامع الصغير « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، وإن خليلى أبو بكر » وفى رواية الجامع الصغير « خليلى من هذه الأمة

أويس القرني « ولعل هذا كان قبل أن يقول صلى الله عليه وسلم في مرض موته قبل موته بخمسة أيام « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذًا خليلا من أمتي لا اتخذت أبا بكر خليلا ، لكن خلة الإسلام أفضل . وفي رواية « ولكن أخوة الإسلام ومودته » وفي رواية « لكن أخي وصاحبي » .

وجمع بأن الأول : أي إثبات الخلة لغير الله محمول على نوع منها ونفيها عن غير الله محمول على كمالها .

ثم لا يخفى أن قوله صلى الله عليه وسلم « ولو كنت متخذًا خليلا غير ربي لا اتخذت أبا بكر خليلا » يدل على أن مقام الخلة أرقى من مقام المحبة ، وأن المحبة والخلة ليسا سواء خلافاً لمن زعم ذلك .

أي ولا مانع أن يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل ، فلا حاجة إلى ما تكلفه بعضهم مما يدل على أن مقام المحبة أفضل من مقام الخلة : أي الذي يدل عليه ما جاء « ألا قائل قولاً غير هجر؟ إبراهيم خليل الله ، وموسى صفي الله ، وأنا حبيب الله ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة » وعند ذلك : أي إغلاق الأبواب ، قال الناس : أغلق أبوابنا وترك باب خليله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر ، وإني أرى على باب أبي بكر نورا ، وأرى على أبوابكم ظلمة ، لقد قلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدقت ، وأمسكتم الأموال وجادلتم بالماله ، وخذلتوني وواساني . أي ولعل قولهم وترك باب خليله لا ينافي ما تقدم من عدم اتخاذه خليلا .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بسد الأبواب إلا باب أبي بكر ، قال عمر : يا رسول الله دعني أفتح كوة أنظر إليك حيث تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، وقال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ما بالك فتمتحت أبواب رجال في المسجد يعني أبا بكر ، وما بالك سددت أبواب رجال في المسجد ؟ فقال : يا عباس ما فتمتحت عن أمري ولا سددت عن أمري . وفي لفظ : ما أنا سدديتها ، ولكن الله سددها .

وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بسد الأبواب إلا باب علي . قال الترمذي حديث غريب . وقال ابن الجوزي : هو موضوع

وضعه الراضة ليقابلوا به الحديث الصحيح في باب أبي بكر . وجمع بعضهم بأن قصة علي متقدمة على هذا الوقت ، وأن الناس كان لكل بيت بابان باب يفتح للمسجد وباب يفتح خارجه إلا بيت علي كرم الله وجهه ، فإنه لم يكن له إلا باب من المسجد ، وليس له باب من خارج ، فأمر صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب : أي التي تفتح للمسجد . أي بتضييقها وصيرورتها خوفاً لإبواب علي كرم الله وجهه ، فإن علياً لم يكن له إلا باب واحد ليس له طريق غيره كما تقدم ، فلم يأمر صلى الله عليه وسلم يجعله خوخة ، ثم بعد ذلك أمر صلى الله عليه وسلم بسد الخوخ إلا خوخة أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

وقول بعضهم حتى خوخة علي كرم الله وجهه ، فيه نظر لما علمت أن علياً كرم الله وجهه لم يكن له إلا باب واحد ؛ فالباب في قصة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ليس المراد به حقيقة بل الخوخة . وفي قصة علي كرم الله وجهه المراد به حقيقة .

أقول : وما يدل على تقدم قصة علي كرم الله وجهه ما روى عنه قال « أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر أن سد بابك ، قال : سمعاً وطاعة فسد بابه ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ففعلوا ، وأمرت الناس ففعلوا ، وامتنع حمزة ، فقلت : يا رسول الله قد فعلوا إلا حمزة ، فقال صلى الله عليه وسلم : قل لحمزة فليحول بابه ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن تحول بابك فحول ، وعند ذلك قالوا : يا رسول الله سددت أبوابنا كلها إلا باب علي ، فقال : ما أنا سددت أبوابكم ولكن الله سدها » وفي رواية « ما أنا سددت أبوابكم وفتح باب علي ولكن الله فتح باب علي وسد أبوابكم » .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد ، فلإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي ، فقال فيكم قائلكم ، وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته ، ولكنني أمرت بشيء فاتبعته ، إنما أنا عبد مأمور ما أمرت به فعلت (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) ومعلوم أن حمزة رضي الله تعالى عنه قتل يوم أحد ، فقصة علي كرم الله وجهه متقدمة جداً على قصة أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

وعلى كون المراد بسد الأبواب تضييقها وجعلها خوفاً يشكل ماجاء « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب علي ، فقال العباس : يا رسول الله قلدر ما أدخل أنا وحدي وأخرج ، قال : ما أمرت بشيء من ذلك ، فسدها كلها غير باب

على « فعلى تقدير صحة ذلك يحتاج إلى الجواب عنه ، وعلى هذا الجميع يلزم أن يكون باب على كرم الله وجهه مستمر مفتوحا في المسجد مع خوخة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، لما علم أنه لم يكن لعلى باب آخر من غير المسجد .

وحينئذ قد يتوقف في قول بعضهم في سد الخوخ إلا خوخة أبي بكر إشارة إلى استخلاف أبي بكر لأنه يحتاج إلى المسجد كثيرا دون غيره ، لكن في تاريخ ابن كثير رحمه الله : وهذا : أى سد جميع الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب على لا ينافى ما ثبت في صحيح البخارى من أمره صلى الله عليه وسلم في مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر ، لأن في حال حياته صلى الله عليه وسلم كانت فاطمة رضى الله تعالى عنها تحتاج إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها صلى الله عليه وسلم فأبقى صلى الله عليه وسلم باب على كرم الله وجهه لذلك رفقا بها ، وأما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فزالته هذه العلة فاحتيج إلى فتح باب الصديق رضى الله تعالى عنه لأجل خروجه إلى المسجد ليصلى بالمسلمين ، لأنه الخليفة بعده عليه الصلاة والسلام هذا كلامه . وهو يفيد أن باب على كرم الله وجهه سد مع سد الخوخ ولم يبق إلا خوخة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، وجعل لبيت على كرم الله وجهه باب من الخارج .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى « يا على لا يحل لأحد جنب مكث في المسجد غيرى وغيرك » .

وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها « أنها قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه حتى انتهى إلى صرح المسجد ، فنادى بأعلى صوته إنه لا يحل المسجد لجنب ولا لخاص إلا للحمدا وأزواجه وعلى وفاطمة بنت محمد ، ألا هل بينت لكم أن لا تنزلوا » قال الحافظ ابن كثير : وهذا أى الثانى إسناده غريب وفيه ضعف هذا كلامه ، والمراد المكث في المسجد لا المرور به والاستطراق منه فإن ذلك لكل أحد .

ثم رأيت الحافظ السيوطى رحمه الله أشار إلى ذلك ، وذكر أن مثل على كرم الله وجهه فيما ذكر ولداه الحسن والحسين حيث قال : وكذا على بن أبى طالب والحسن والحسين اختصوا بجواز المكث في المسجد مع الجنابة والله أعلم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا إنهم كانوا عيبتى التى أويت إليهم ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال في خطبته هذه « أيها الناس من أحسن من نفسه شيئا فليقم أدع الله له ، فقام إليه رجل ، فقال : يا رسول الله إني لمنافق ، وإني لكذوب ، وإني لثوم ، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ويحك أيها الرجل ، لقد سترك الله لو سترت على نفسك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا ، وأذهب عنه النوم إذا شاء . قال ابن كثير : في إسناده ومثته غرابة شديدة . وأمر صلى الله عليه وسلم في مرضه أبا بكر أن يصلى بالناس ، قال : وكانت تلك الصلاة صلاة العشاء ، وقد أذن بلال ، وقال ضعوا لى ماء فى الخضب : أى وهو شبه الإجانة من نحاس ، فاغتسل فيه ، أى وهذا مع ما سبق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان له مخضب من حجر ومخضب من نحاس . ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يذهب فأغشى عليه ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ فقلنا : لا هم ينتظرونك ، أى وعند ذلك قال ضعوا لى ماء فى الخضب ، فاغتسل ثم أراد أن يذهب فأغشى عليه ثم أفاق ، فقال أصلى الناس ؟ قلنا : لا هم ينتظرونك يا رسول الله ، قال : ضعوا لى ماء فى الخضب فاغتسل ، ثم أراد أن يذهب فأغشى عليه ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ قلنا : لا هم ينتظرونك يا رسول الله ، والناس ملمومة فى المسجد ينتظرون النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه بأن يصلى بالناس ، فأناه الرسول ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلى بالناس ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه لعمر : يا عمر صل بالناس ، فقال له عمر رضى الله تعالى : عنه أنت أحق بذلك .

وفى رواية « أن بلالا رضى الله تعالى عنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فقال : الصلاة يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أستطيع الصلاة خارجا ، ومر عمر بن الخطاب فليصل ، بالناس ، فخرج بلال رضى الله تعالى عنه وهو يبكي ، فقال له المسلمون : ما وراءك يا بلال ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع الصلاة خارجا ، فبكوا بكاء شديدا ، وقال لعمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلى بالناس ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : ما كنت لأتقدم بين يدي أبى بكر أبدا ، فادخل على نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن أبا بكر على الباب ، فدخل عليه صلى الله عليه وسلم بلال رضى الله تعالى عنه فأخبره بذلك ، فقال : نعم مارأى ، مر أبا بكر فليصل بالناس ، فخرج إلى أبى بكر فأمره أن يصلى فصلى بالناس .

وفي رواية فقال « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : فقلت : إن أبا بكر رجل أسيء : أى رقيق القلب إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء » فقال صلى الله عليه وسلم : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فعاودته ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء . فر عمر فإيصل بالناس ففعلت حفصة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحفصة مه إنكن صواحب يوسف عليه الصلاة والسلام . . وفي لفظ : « إنكن لأنتن صواحب يوسف عليه الصلاة والسلام » فقالت حفصة رضى الله تعالى عنها لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيرا ومروا أبا بكر فليصل بالناس » : أى مثل صاحبة يوسف عليه الصلاة والسلام . وهى زليخا أظهرت خلاف ما تبطن ، وظهرت للنساء اللاتي جمعتهن أنها تريد إكرامهن بالضيافة ، وإنما قصدها أن ينظرن لحسن يوسف عليه الصلاة والسلام فيعذرنها فى حبه والنبي صلى الله عليه وسلم فهم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها تظهر كراهة ذلك مع محبتها له باطنا هكذا يقتضيه ظاهر اللفظ .

والمقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها إنما قصدت بذلك خوف أن يتشاءم الناس أبا بكر فيكرهونه حيث قام مقامه صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت : ما حملنى على كثرة مراجعتى له صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يجب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه .

وفي رواية : « إن الأنصار رضى الله تعالى عنهم لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد وجعا طافوا بالمسجد وأشفقوا من موته صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه الفضل رضى الله تعالى عنه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه على كرم الله وجهه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه العباس رضى الله تعالى عنه فأخبره بذلك ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم متوكئا على على والفضل والعباس أمامه ، والنبي صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلدننى قبلى فيمن بعث إايه فأخلد فيكم ؟ ألا وإني لاحق بربي وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول (والعصر إن الإنسان لئى خسر) السورة

وإن الأمور تجري بإذن الله ، ولا يحملك استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) وأوصيكم بالأنصار خيرا ، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم في الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم في الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسكم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا فلإن فرطكم وأنتم لاحقون بى ، ألا وإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرد على غدا فليكشف يده ولسانه إلا فيما ينبغي : أيها الناس إن الذنوب تغير النعم ، فإذا بر الناس برتهم أمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أمتهم » وفي الحديث « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم » .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى خيرية الموت بأنه فرط ، فخير صفة لا أفعل تفضيل حتى يشكل بأنه يقتضى أن حياتى خير لكم من مماتى ومماتى خير لكم من حياتى كما مر ، ثم لازال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى النبي صلى الله عليه وسلم مؤتما به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الثانية : أى أتى بها منفردا .

وقال صلى الله عليه وسلم « لم يقبض نبى حتى يؤمه رجل من قومه » أى وقد قال ذلك صلى الله عليه وسلم لما صلى خلف عبد الرحمن بن عوف كما تقدم فى تبوك .

قال : وفى رواية عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد خفة .

أى وأبو بكر فى الصلاة . فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر ، فلما رآه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ذهب ليتأخر فأوهأ إليه أن لا يتأخر ، وأمرهما فأجلساه إلى جنب أبى بكر عن يساره . وفى رواية عن يمينه ، وأنه صلى الله عليه وسلم دفع فى ظهر أبى بكر وقال : صل بالناس أى ومنعه من التأخر ، فجعل أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى قائما كبقية الصحابة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا انتهى .

وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم صلى مقتديا بأبى بكر رضى الله تعالى عنه . وحينئذ لا يحسن التفريع على ذلك بما جاء فى لفظ : فكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى وهو قائم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ : يأتى بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم

والناس يصلون بصلاة أبي بكر . وفي لفظ : يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يقتدون بصلاة أبي بكر ، وهذا يدل على أن الصحابة رضی الله تعالى عنهم صلوا خلف أبي بكر وأبو بكر يصلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وصار يسمع الصحابة التكبير ، وقد بوب البخارى على ذلك «باب من أسمع الناس تكبير الإمام» ، وقال بعد ذلك «باب الرجل يأتهم بالإمام ويأتهم الناس بالمأموم» فإن منعه صلى الله عليه أبا بكر رضی الله تعالى عنه من التأخر مع صلاته على يسار أبي بكر أو على يمينه يدل على أن أبا بكر رضی الله تعالى عنه لم يقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم بل استمر إماما ، إذ لا يجوز عندنا أن يقتدى أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم مع تقدم أبي بكر عليه صلى الله عليه وسلم في الموقف . وحينئذ يخالف ذلك قول فقهاءنا إن الصحابة رضی الله تعالى عنهم اقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اقتدائهم بأبي بكر ، وجعلوه دليلا على جواز الصلاة بإمامين على التعاقب إذ لا يحسن ذلك إلا أن يكون أبو بكر رضی الله تعالى عنه تأخر ونوى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم . إلا أن يقال يجوز أن تكون صلاته صلى الله عليه وسلم خلف أبي بكر تكررت ، ففي مرة منعه صلى الله عليه وسلم من التأخر واقتدى به ، وفي مرة تأخر أبو بكر رضی الله تعالى عنه عن موقفه ، واقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، واقتدى الناس بالنبي بعد اقتدائهم بأبي بكر ، وصار أبو بكر يسمع الناس التكبير ، ولا ينافي ذلك قول البخارى الرجل يأتهم بالإمام ويأتهم الناس بالمأموم ، لجواز أن يكون المراد يقتدون ويتبعون تكبير المأموم ، ثم رأيت الترمذى رحمه الله تعالى صرح بتعدد صلاته صلى الله عليه وسلم خلف أبي بكر رضی الله تعالى عنه حيث قال : ثبت أنه صلى الله عليه وسلم صلى خلف أبي بكر مقتديا به في مرضه الذى مات فيه ثلاث مرات ، ولا ينكر هذا إلا جاهل لا علم له بالرواية هذا كلامه .

وبه يرد قول البيهقي رحمه الله : والذي دلت عليه الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى خلفه في تلك الأيام التي كان يصلى بالناس فيها مرة ، وصلى أبو بكر رضی الله تعالى عنه خلفه صلى الله عليه وسلم مرة ، وقال صلى الله عليه وسلم في مرضه ذلك يوما لعبد الله ابن زمة بن الأسود : مر الناس فليصلوا : أى صلاة الصبح . وكان أبو بكر رضی الله تعالى عنه غائبا ، فقدّم عبد الله عمر رضی الله تعالى عنه يصلى بالناس ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته أخرج رأسه الشريف حتى أطلعه للناس من حجرتة ، ثم قال

صلى الله عليه وسلم : لا ، لا ، لا ، ثلاث مرات ، ليصل بهم ابن أبي قحافة ، فانقضت الصفوف ، وانصرف عمر رضى الله تعالى عنه : أى من الصلاة ، فابرح القوم حتى طلع ابن أبي قحافة فتقدم وصلى بالناس الصبح . وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما سمع صوت عمر رضى الله تعالى عنه قال : أليس هذا صوت عمر ؟ فقالوا : بلى يارسول الله ، فقال : يأبى الله ذلك والمؤمنون . وفى لفظ : يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر ، قال ذلك ثلاثا . قال فى السيرة الهشامية : فبعث صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر رضى الله تعالى عنه تلك الصلاة فصلى بالناس .

وقد يقال : المراد بصلى عمر تلك الصلاة نوى تلك الصلاة ودخل فيها ، فلا يخالف ما تقدم من انتقاض الصفوف ، وانصراف عمر رضى الله تعالى عنه من الصلاة . وقال عمر رضى الله تعالى عنه لعبد الله بن زمعة : ويحك ماذا صنعت يا ابن زمعة ؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بهذا ، فقال عبد الله بن زمعة رضى الله تعالى عنه : ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولكن حيث لم أر أبا بكر ورأيتك أحق من حضر بالصلاة ، وفى آخر يوم أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الستارة والناس خلف أبى بكر ، فأراد الناس أن ينحرفوا فأشار إليهم صلى الله عليه وسلم أن امكثوا ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من هيئة المسلمين فى صلاتهم سرورا منه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وذلك يوم الاثنين يوم موته صلى الله عليه وسلم ثم أتى الستارة .

وفى السيرة الهشامية : لما كان يوم الاثنين قبض الله تبارك وتعالى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج إلى الناس وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر وفتح الباب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على باب عائشة رضى الله تعالى عنها ، فكاد المسلمون يقتلون فى صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فرحابه ، فأشار إليهم : أن اثبتوا على صلاتكم ، ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفاق من وجعه ، فرجع أبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى أهله بالسنح ، وفيها فى رواية أنه لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه إلى صلاة الصبح أبو بكر يصلى بالناس ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح الناس ، فعرف أبو بكر رضى الله تعالى عنه أن الناس لم يصيبوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظهره ، وقال : صل بالناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه على يمين أبي بكر رضي الله تعالى عنه فصلى قاعدا ، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس رافعا صوته حتى خرج من باب المسجد يقول : «أيها الناس سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، إني والله ما تمسكون على بشيء ، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن» .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه ، قال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه يارسول الله قد أراك أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ، واليوم يوم بنت خارجة أفأتياها؟ قال نعم ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى أهله بالسنع ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى من ذلك اليوم ، فليتأمل الجمع بين هذه الروايات . وقد أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله تعالى عنه أن يصلي بالناس قبل مرضه ، فإنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى قباء بعد أن صلى الظهر وقد وقع بين طائفتين من بني عمرو بن عوف تشاجر حتى تراموا بالحجارة ليصلح بينهم ، فقال صلى الله عليه وسلم لبلال رضي الله تعالى عنه : إن حضرت صلاة العصر ولم آتكم فرأبأ بكر فليصل بالناس ، فلما حضرت صلاة العصر أذن بلال ، ثم أقام ثم أمر أبا بكر رضي الله تعالى عنه فتقدم وصلى بالناس ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يشق الناس حتى قام خلف أبي بكر فصفح الناس : أي صفقوا ، فلما كثر ذلك التفت أبو بكر رضي الله تعالى عنه ؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه فأراد التأخر ، فأوماً إليه صلى الله عليه وسلم أن يكون على حاله ، وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته؟ قال : يا أبا بكر ما يمنعك إذ أوامت إليك أن لا تكون ثبت ، فقال أبو بكر : يارسول الله لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال للناس : إذا نابكم في صلاتكم شيء فلتسبح الرجال ولتصفق النساء ؛

وهذا استدلل به القاضي عياض رحمه الله على أنه لا يجوز لأحد أن يؤمه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يصلح للتقدم بين يديه صلى الله عليه وسلم في الصلاة ولا في غيرها لالعذر ولا لغيره .

وقد نهى الله المؤمنين عن ذلك ، ولا يكون أحد شافعا له صلى الله عليه وسلم . وقد

قال صلى الله عليه وسلم « أتمتكم شفعاؤكم » وحينئذ يحتاج للجواب عن صلته صلى الله عليه وسلم خلف عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ركعة ، وسيأتى الجواب عن ذلك ، ولعل هذه المرة كانت في اليوم الذى توفى فيه صلى الله عليه وسلم .

فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالناس الغداة ، ورأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم قد برى ففرحوا فرحا شديدا ، ثم جلس صلى الله عليه وسلم فى مصلاه يحدتهم حتى أضحى ، ثم قام صلى الله عليه وسلم إلى بيته فلم يتفرق الناس من مجلسهم حتى سمعوا صياح الناس ، وهب يقرب الماء ظنا أنه غشى عليه وابتدر المسلمون الباب فسبقهم العباس رضى الله تعالى عنه ، فدخل وأغلق الباب دونهم . فلم يلبث أن خرج إليهم فنعى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يا عباس ما أدركت منه صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أدركته وهو يقول : جلال ربى الرفيع ، قد بلغت ، ثم قضى ، فكان هذا آخر شئ تسكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت فى الإمتاع نقل هذا القول الذى قدمته عن البيهقى .

وذكر فى رواية أخرى : لم يزل أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى بالناس حتى كانت ليلة الاثنين ، فأقنع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوعك وأصبح منفيقا ، فعمد إلى صلاة الصبح يتوكأ على الفضل وعلى غلام له يدعى ثوبان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقد شهد الناس مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه ركعة من صلاة الصبح ، وقام ليأتى بالركعة الأخرى ، فجاء إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ينفرجون له حتى قام إلى جنب أبى بكر رضى الله تعالى عنه فاستأخر أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه فقدمه فى مصلاه وجلس صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ أبو بكر رضى الله تعالى عنه من صلته أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركعة الأخيرة . ثم انصرف إلى جذع من جذوع المسجد فجلس إلى ذلك الجذع ، واجتمع إليه المسلمون يسلمون عليه ويدعون له بالعافية ثم قام صلى الله عليه وسلم فدخل بيت عائشة ، ودخل أبو بكر رضى الله تعالى عنه على عائشة رضى الله تعالى عنها ، وقال : الحمد لله قد أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم معافى ، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد شفاه ، ثم ركب رضى الله تعالى عنه فلحق بأهله بالسنع ، وانقلبت كل امرأة من نسائه صلى الله عليه وسلم إلى بيتها ، فلما دخل صلى الله

عليه وسلم اشتد عليه الوعك ، فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، وأخذ في الموت فصار يغمى عليه ثم يفيق ويشخص بصره إلى السماء ، فيقول في الرفيق الأعلى الإله ، وكان عنده صلى الله عليه وسلم وقد اشتد به الأمر قدح فيه ماء . وفي لفظ بدل قدح عباء . وفي لفظ ركوة فيها ماء ، فلما اشتد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر صار يدخل يده الشريفة في القدح ثم يمسح وجهه الشريف بالماء ويقول : اللهم أعني على سكرات الموت : أي غمراته .

وعن فاطمة رضي الله تعالى عنها « صار صلى الله عليه وسلم لما يغشاه الكرب وتقول واكرب أبتاه يقول لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس على أبيك كرب بعد اليوم » أقول : وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم قال : واكرباه ، وقال : لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات ، اللهم أعني على سكرة الموت » وفي رواية « اللهم أعني على كرب الموت » والحكمة في ذلك ، أي فيما شوهد من شدة مالتي من الكرب عند الموت تسلية أمته صلى الله عليه وسلم إذا وقع لأحد منهم شيء من ذلك عند الموت . ومن ثم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : لا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية : لأزال أعبط المؤمن بشدة الموت بعد شدته على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحصل لمن شاهده من أهله وغيرهم من المسلمين الثواب لما يلحقهم من المشقة عليه كما قيل بمثل ذلك في حكمة ما يشاهد من حال الأطفال عند الموت من الكرب الشديد .

ثم رأيت الأستاذ الأعظم الشيخ محمد البكري رحمه الله ونفعنا به سئل عن ذلك . فأجاب بأجوبة منها هذا الذي ذكرته . ومنها أن مزاجه الشريف كان أعدل الأمزجة فإحساسه صلى الله عليه وسلم بالألم أكثر من غيره .

ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم ، ولأن تشبث الحياة الإنسانية بيدنه الشريف أقوى من تشبثها ببدن غيره لأنه أصل الموجودات كلها أي كما تقدم . أي وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : مارأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم في مرضه « ليس أحد أشد بلاء من الأنبياء . كان النبي من أنبياء الله يسلط عليه القمل حتى يقتله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم ليعرى حتى ما يجد ثوبا يوارى به عورته إلا العباءة يدرعها ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما يبرح البلاء على العبد حتى يدعه يمشى على الأرض ليس عليه خطيئة » وقال « ليس من عبد مسلم يصيبه أذى فاسواه إلا حط عنه خطاياها كما تحط الشجرة ورقها » وفي لفظ « لا يصيب المؤمن نكبة من شوكة فاقوقها إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة » وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل يشتكى ويتقلب على فراشه . وكان يعوذ بهذه الكلمات إذا اشتكى أحد من الناس منه « أذهب الباس رب الناس ، واشف أنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما فلما ثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذى مات فيه أخذت بيده اليمنى وجعلت أمسحه بها فأعوذه بتلك الكلمات ، فانتزع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة من يدي وقال : اللهم اغفر لي ، واجعلني في الرفيق الأعلى مرتين » .

وفي رواية « لم يشتك صلى الله عليه وسلم شكوى إلا سأل الله العافية » حتى كان مرضه الذى مات فيه فإنه لم يكن يدعو بالشفاء ، وطلق صلى الله عليه وسلم يقول : يا نفس مالك تلوذين كل ملاذ .

أى وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : دخل على عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما ومعه سواك يستن به : أى من عسيب النخل ، وكان أحب السواك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضريع الأراك : وهو قضيب يلتوى من الإراكة حتى يبلغ التراب فيبقى في ظلها فهو ألين من فرعها فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرفت أنه يريد أنه لأنه كان يحب السواك ، فقلت ، آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته فقضمته ثم مضغته . وفي رواية : فتناولته وناولته إياه فاشتد عليه ، فقلت أئنه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته ، فأعطيته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستن به وهو مستند إلى صدرى . وكانت رضى الله تعالى عنها تقول : إن من نعم الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي وهو في بيتي وبين سحري ونحري : أى والسحر : الرثة : وفي رواية : بين حاقتي وذاقتي ، وإن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته . وفي رواية : فجمع الله بين ريقى وريقه في آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة :

وجاء أنهم للدوده صلى الله عليه وسلم في هذا المرض : أى سقوه لدودا من أحد جانبي فمه ، وجعل يشير إليهم وهو صلى الله عليه وسلم مغمى عليه أن لا يفعلوا به وهم يظنون أن الحامل له على ذلك كراهة المريض للهواء ، فلما أفاق قال ، ألم أنهكم أن تلدوني ،

لا يبقى أحد في البيت إلا لد وأنا أنظره إلا العباس فإنه لم يشهدكم ، وهذا رد عليهم ، فإنه قد جاء أنهم قالوا له : عمك العباس أمر بذلك ولم يكن له في ذلك رأى ، إنما قالوا ذلك تعللا وخوفا منه صلى الله عليه وسلم ، قالوا وتخوفنا أن يكون ذات الجنب ، فإن الخاصرة أى وهو عرق في الكلية إذا تحرك وجع صاحبه ، كانت تأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذته ذلك اليوم فأغمى عليه حتى ظنوا أنه قد هلك فلددوه : أى لددته أسماء بنت عميس رضى الله تعالى عنها ، فلما أفاق وأراد أن يلد من في البيت لدد جميع من في البيت حتى ميمونة رضى الله تعالى عنها وكانت صائمة ، هذا .

وفي رواية أنه لما اشتد عليه صلى الله عليه وسلم المرض دخل عليه عمه العباس رضى الله عنه وقد أغمى عليه ، فقال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لو لددته : قلن إنا لانجترى على ذلك ، فأخذ العباس يلدده ، فأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : من لددني ، فقد أقسمت ليلددن إلا أن يكون العباس ، فإنكم لددتموني وأنا صائم ، قلن فإن العباس هو قد لك ، وقالت له أسماء بنت عميس رضى الله عنها ، إنما فعلنا ذلك ظننا أن بك يارسول الله ذات الجنب ، فقال لها : إن ذلك لداء ما كان الله ليعذبني به . وفي رواية « أنا أكرم على الله من أن يعذبني بها » وفي أخرى « إنها من الشيطان ، وما كان الله ليسلطها على » .

قال بعضهم : وهذا يدل على أنها من سبي الأسقام التي استعاذ صلى الله عليه وسلم منها بقوله « اللهم إني أعوذ بك من الجنون والجذام وسبي الأسقام » .

وفي السيرة المشامية : لما أغمى عليه صلى الله عليه وسلم اجتمع عليه نساء من نسائه منهم أم سلمة وميمونة ، ومن نساء المؤمنين منهم أسماء بنت عميس ، وعنده صلى الله عليه وسلم العباس عمه ، واجتمعوا على أن يلددوه فلددوه ، فلما أفاق صلى الله عليه وسلم قال : من صنع هذا بي ؟ قالوا يارسول الله عمك ، فقال عمه العباس رضى الله تعالى عنه : حسبنا يارسول الله أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إن ذلك داء ما كان الله ليعذبني به ، لا يبقى في البيت أحد إلا لد لإعشى ، فلدوا حتى ميمونة ، وكانت رضى الله تعالى عنها صائمة عقوبة لهم بما صنعوا .

وأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه هذا أربعين نفسا ، وكانت عنده صلى الله عليه وسلم سبعة دنائير أو ستة ، فأمر عائشة رضى الله عنها أن تتصدق بها بعد أن

وضعها صلى الله عليه وسلم في كفه وقال : ما ظن محمد بربه ، أن لولتي الله وهذه عنده فتصدقت بها .

وفي رواية : أمرها بإرسالها إلى علي كرم الله وجهه ليتصدق بها ، فبعثت بها إليه فتصدق بها بعد أن وضعها في كفه ، وقد كان العباس رضى الله عنه قبل ذلك يبسير رأى أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء ، فقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له هو ابن أخيك .

وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام صحبة ملك الموت وقال له : يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك ، قال : فاقبض ياملك الموت كما أمرت . فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي لفظ : أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد إن الله أرسلني إليك تكريماً لك وتشريفاً ، يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول لك : كيف تجدك ؟ قال : أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً ، ثم جاء اليوم الثاني والثالث ، فقال له ذلك ، فرد عليه صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك ؛ وجاء معه في اليوم الثالث ملك الموت ، فقال له جبريل عليه السلام : هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ما استأذن على أحد قبلك ، ولا يستأذن على ~~حدي~~ بعدك ، أتأذن له فأذن له فدخل فسلم عليه ، ثم قال : يا محمد إن الله أرسلني إليك ، فإن أمرتني أن أقبض روحك قبضت ، وإن أمرتني أن أترك تركت ، قال : أو تفعل ؟ قال : نعم وبذلك أمرت ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام ، فقال له : يا محمد إن الله قد اشتاق إلى لقاءك ، أي وفي رواية : أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد إن الله يقرئك السلام ورحمة الله ، ويقول لك : إن شئت شفيتك وكفيتك ، وإن شئت توفيتك وغضرت لك ، قال : ذلك إلى ربي يصنع بي ما يشاء .

وفي رواية : الخلد في الدنيا ثم في الجنة أحب إليك أم لقاء ربك ، ثم الجنة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقاء ربي ثم الجنة .

أي وجاء أن جبريل عليه السلام قال : هذا آخر وطئ بالأرض ، وفي لفظ آخر عهدى بالأرض بعدك ، وإن أهبط إلى الأرض لأحد بعدك . قال الحافظ السيوطي رحمه الله : هو حديث ضعيف جداً ، ولو صح لم يكن فيه معارضة ، أي لما وزد أنه ينزل ليلة القدر مع الملائكة يصلون على كل قائم وقاعد يذكر الله لأنه يحمل على أنه آخر نزوله بالوحي . وفيه أنه ذكر أن حديث : يوحى الله إلى عيسى عليه السلام أي بعد قتله الدجال صريح

في أنه يوحى إليه بعد النزول . والظاهر أن الجأى إليه عليه السلام بالوحي جبريل عليه السلام ، بل هو الذى يقطع به ولا يتردد فيه لأن ذلك وظيفته لأنه السفير بين الله ورسوله عليهم الصلاة والسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لملك الموت : امض لما أمرت به فقبض روحه الشريفة ، وعند اشتداد الأمر به صلى الله عليه وسلم أرسلت عائشة رضى الله عنها خلف أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه كما تقدم لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مفيقا وقال له قد رد الله بك علينا عقولنا ، وقد أصبحت بنعمة من الله وفضل فقال له أبوبكر : يا رسول الله اليوم يوم بنت خاراجة يعنى زوجته وكانت بالسنح ، قال له : ائت أهلك ، فقام أبو بكر وذهب وأرسلت حفصة خلف عمر وأرسلت فاطمة خلف على كرم الله وجهه فلم يجىء أحد منهم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صدر عائشة ، وذلك يوم الاثنين حين زاغت الشمس لاثنتى عشرة ليلة خلت مع ربيع الأول هكذا ذكر بعضهم .

وقال السهيل : لا يصح أن يكون وفاته يوم الاثنين إلا فى ثالث عشرة أو رابع عشرة لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة كانت يوم الجمعة وهو تاسع ذى الحجة وكان المحرم أما بالجمعة وإما بالسبت ، فإن كان السبت فيكون أول صفر إما الأحد أو الاثنين فعلى هذا لا يكون الثانى عشر من شهر ربيع الأول بوجه . وقال الكلبى : إنه توفى فى الثانى من شهر ربيع الأول . قال الطبرى : وهذا القول وإن كان خلاف الجمهور فلا يبعد إن كانت الثلاثة أشهر التى قبلها كلها تسعة وعشرين يوما ، وفيما قاله نظر المتابعة أنس بن مالك فيما حكاه البيهقي والواقدي .

وقال الخوارزمي : توفى أول شهر ربيع الأول ، وفى رواية إن سالم بن عبيد ذهب وراء الصديق إلى السنح فأعلمه بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يخالف ما قبله لأنه يجوز أن يكون ذلك ذهب إلى الصديق بعد الرسول الذى أرسلته له عائشة رضى الله عنها قبل موته صلى الله عليه وسلم . وآخر ما تكلم به عليه الصلاة والسلام : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيما نكم » حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يترغغ بها فى صدره ولا يفيض بها لسانه . وآخر ما عهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يترك بجزيرة العرب دينان » وكانت مدة شكواه صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل اثنتى عشرة ليلة ، وقيل عشرا ، وقيل ثمانية .

وقالت فاطمة ، ضى الله عنها لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأبناؤه أجب
داع دعاه ، ياأبناؤه النردوس مأواه ياأبناؤه إلى جبريل ننعاه .

قال ابن كثير رحمه الله : وهذا لا يعد نياحة بل هو من ذكر فضائل الحق عليه ، عليه
أفضل الصلاة والسلام ؟ قال : وإنما قلنا ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى
عن النياحة .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنها قالت من سفاهة رأيي وحداثة سني أني أخذت وسادة
فوسدت بها رأسه الشريف من حجرى ، ثم قت مع النساء أبكى وأندم ، والانتدام : ضرب
الخلد باليد عند المصيبة .

وسمعوا قائلًا ولا يرون شخصه ، يقال إنه الخضر عليه السلام أى قال على كرم الله وجهه
أندرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام ، وفي إسناده متروك يقول : السلام عليكم يا أهل البيت
ورحمة الله وبركاته (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إن فى الله عزاء
من كل مصيبة ، وخلفا عن كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فتقوا واياه فارجوا فإن
المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن كثير رحمه الله : هذا الحديث مرسل وفي إسناده ضعف . وسجى صلى الله عليه
وسلم بثوب حبرة أى بالإضافة : برد من يرودا اليمن ، ولم أقف على أن ثيابه صلى الله عليه وسلم التى
كانت عليه قبل الموت نزع عنه ثم سجى ، إلا أن كلام فقهائنا يشعر بذلك ، حيث جعلوا
ذلك دليلا لنزع ثياب الميت وستره بثوب .

وعند ذلك دهش الناس وطاشت عقولهم واختلفت أحوالهم ، فأما عمر رضى الله تعالى
عنه فخبل ، وأما عثمان رضى الله تعالى عنه فأخرس ، وأما على كرم الله وجهه فأقع :
وجاء أبو بكر وعيناه تهملان ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى طبت
حيا وميتا ، وتكلم كلاما بليغا سكن به نفوس المسلمين وثبت جأشهم .

أى فإن عمر رضى الله تعالى عنه صار فى ناحية المسجد يقول : والله مات رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع أيدي ناس
من المنافقين كثير وأرجلهم ، وصار رضى الله عنه يتوعد من قال إنه مات ، بالقتل
أو القطع .

ونقل عنه رضى الله عنه أنه قال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم مات ، ولكن مامات ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه

عليه السلام ، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قدم مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، ولا زال رضى الله عنه يتوعد المنافقين حتى أزيد شدقه .

فقام أبو بكر رضى الله عنه وصعد المنبر وقال كلاما بليغا . ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) فقال عمر رضى الله عنه : هذه الآية في القرآن . وفي لفظ : فكأنى لم أسمع بها في كتاب الله تعالى قبل الآن لما نزل . ثم قال (إنا لله وإنا إليه راجعون) صلوات الله وسلامه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعند الله نحتسب رسوله ، قال : يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم (إنك ميت وإنهم ميتون) ، وقال تعالى (كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) . وقال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) ، فلما بويح أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة كما سيأتى أقبلوا على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلفوا هل يغسل فى ثيابه أو مجرد منها كما تجرد الموتى ، فألقى الله عليهم النوم وسمعوا من ناحية البيت قائلا يقول : لا تغسلوه فإنه كان طاهرا ، فقال أهل البيت صدق فلا تغسلوه ، فقال العباس رضى الله عنه لاندع سنة لصوت لاندري ماهو ، فغشيهم النعاس ثانية ، فناداهم أن غسلوه وعليه ثيابه ، أى وزاد فى رواية « فإن ذلك إبليس وأنا الخضر » وفى رواية « لاتزغوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيصه » قال الذهبى حديث منكر ، فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسلوه وعليه قيصه ، وفى لفظ وهليه قيص ومحول مفتوح يصبون عليه الماء ويدلكونه والقميص دون أيديهم على والعباس وكذا ولدا العباس الفضل وقثم ، فكان العباس وابناه الفضل وقثم يلبوناه مع على ، وفى لفظ « غسله على والفضل » محتضنه والعباس يصب الماء وجعل الفضل رضى الله عنه يقول : أرحنى قطعت وتينى ، وأسامة وشقران مولاه ، وفى لفظ « وصالح مولاه صلى الله عليه وسلم يصبان الماء ، ولف على كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميص يغسل بها جسده الشريف .

وعن على كرم الله وجهه : ذهبت أتمس منه مايلتمس من الميت : أى ما يخرج من بطن

الميت فلم أر شيئا ، فكان صلى الله عليه وسلم طيبا حيا وميتا ، وما تناولت منه صلى الله عليه وسلم عضوا إلا كأنما يقبله معى ثلاثون رجلا: أى ويحتاج إلى الجمع بين هذا ، وما تقدم عن الفضل رضى الله عنه .

قيل وتغسيل على كرم الله وجهه له صلى الله عليه وسلم كان بوصية منه صلى الله عليه وسلم له . فعن على كرم الله وجهه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن لا يغسله أحد غيرى وقال : لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه غيرك ، أى على فرض وقوع ذلك فلا ينافى ما تقدم ، وادعى الذهبى أن هذا الحديث منكر . وفى رواية: فكان الفضل وأسامة رضى الله عنهما يناولان الماء من وراء السر وأعينهما معصوبة . وفى لفظ : كان العباس وأسامة يناولان الماء من وراء السر ، لأن العباس رضى الله عنه نصب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كاة : أى خيمة رفيعة من ثياب يمانية فى جوف البيت وأدخل عليا فيها؛ زاد بعضهم : والفضل وأبا سفيان بن الحارث ابن عمه صلى الله عليه وسلم .

ونصب السكلة دليل لقول فقهائنا رحمه الله : والأكل وضع الميت عند الغسل بموضع خال من الناس مستور عنهم لا يدخله إلا الغاسل ومن يعينه . والذي رواه ابن ماجه رحمه الله أنه تولى غسله صلى الله عليه وسلم على والفضل ، وأسامة بن زيد يناول الماء ، والعباس واقف: أى لا يغسل ولا يناول الماء : أى ويحتاج للجمع بين هذه الروايات . وقيل إن العباس لم يشاهد غسله صلى الله عليه وسلم ، وعن على رضى الله عنه : لما غسلت النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع ماء فى حقويه فرفعته بلسانى وازدردته فأورثنى ذلك قوة حفظى .

ويروى أنه كرم الله وجهه ، رأى فى عينه صلى الله عليه وسلم قذاة فأدخل لسانه فأخرجها منها .

وعن عائشة رضى الله عنها : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه : أى لو ظهر لها قولها المذكور وقت غسله صلى الله عليه وسلم ما غسله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه ، وغسل ثلاث غسلات : واحدة بالماء القراح ، وواحدة بالماء والسدر ، أى والغسلة التى كانت بالماء القراح كانت قبل الغسلة التى بالسدر فهى المزيلة وواحدة بالماء مع الكافور ، أى وهذه هى الخزئة فى الغسل هذا :

وفى كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله : وغسل صلى الله عليه وسلم فى المرة الأولى بالماء القراح ، وفى الثانية بالماء والسدر ، وفى الثالثة بالماء والكافور .

وفي لفظ : فغسلوه بالماء القراح ، وطيبوه بالكافور في مواضع سجوده ومفاصله ، وغسل من ماء بئر غرس وهي بئر بقاء ، قال صلى الله عليه وسلم « نعم البئر بر غرس هي من عيون الجنة وماؤها أطيب الماء » وكان صلى الله عليه وسلم يشرب منها ، ويؤتي له بالماء منها .
وعند ابن ماجه رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لعلي كرم الله وجهه « إذا أنامت فاغسلني بسبع قرب من بئر بئر غرس » .

وكفن صلى الله عليه وسلم بثلاثة أثواب سحولية : أى بيض من القطن ، من عمل سحولة : قرية من قرى اليمن ؛ وفي رواية الشيخين عنها : كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة ، قيل إزار ورداء ولفافة ، وقوله ليس فيها قميص ولا عمامة : أى لم يكن في كفنه صلى الله عليه وسلم ذلك كما فسر بذلك إمامنا الشافعي رحمه الله وبجمهور العلماء ، قال بعضهم : وهو الصواب الذى يقتضيه ظاهر الحديث .

وما قيل إن معناه أن القميص والعمامة زائدان على الأثواب الثلاثة ليس في محله ؛ لأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم كفن في قميص وعمامة ، وهذا يدل على أنه نزع عنه صلى الله عليه وسلم القميص الذى غسل فيه قبل تكفينه في الأثواب الثلاثة .

وقيل كفن في ذلك الثوب بعد عصره . وفيه أنه لا يخلو عن الرطوبة وهي تنفسد الأكفان . ويؤيد كونه صلى الله عليه وسلم كفن في ذلك الثوب ماجاء في رواية « كفن صلى الله عليه وسلم في ثوبه الذى مات فيه وحلة نجرانية » والحلة : ثوب فوق ثوب ، قال ابن كثير : وهذا غريب جدا ، وفي كلام بعضهم أنه حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم كفن في الأثواب الثلاثة المتقدمة وزيادة برد حبرة أحمر .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أتى بالبرد ولفوه فيه ولكنهم ردوه ، أى ثم نزع عنه صلى الله عليه وسلم ولم يكفونوه فيه ، وفي رواية : ثوبين وبرد أحمر ، وهذا يخالف ما عليه أئمتنا أن من كفن في ثلاثة أثواب يجب أن تكون لفائف يستر كل منها جميع البدن . وفي رواية كفن في سبعة أثواب .

وبعد تكفينه صلى الله عليه وسلم وذلك يوم الثلاثاء وضع على سرير ، وفي لفظ : ثم

أدرج صلى الله عليه وسلم في أكفانه وجره عودا ونداء ، ثم احتملوه حتى وضعوه على سريره وسجوه .

وذكر أنه كان عند علي كرم الله وجهه مسك ، وقال إنه من فضل حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصلى عليه صلى الله عليه وسلم الناس أفذاذا لم يؤمهم أحد ، وفي لفظ : لما أدرج صلى الله عليه وسلم في أكفانه وضع على سريره ثم وضع على شفير حفرته ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء لا يؤمهم أحد .

وذكر أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار بقدر ما يسع البيت ؛ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وسلم المهاجرون والأنصار كما سلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم ، ثم صفوا صفوفا لا يؤمهم أحد ، وكان أبو بكر وعمر في الصف الأول الذي حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالا اللهم إنا نشهد أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه ، ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته ، فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذي أنزل معه ، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رءوفا رحلما ، لا نبتغي بالإيمان به بدلا ولا نشترى به ثمنا أبدا ، فيقول الناس آمين آمين ، وهذا يدل على أنه المراد بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم الدعاء للصلاة على الجنائز المعروفة عندهم ، والصحيح أن هذا الدعاء كان ضمن الصلاة المعروفة التي بأربع تكبيرات .

فقد جاء أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فكبر أربع تكبيرات ثم دخل عمر رضي الله عنه فكبر أربعاً ، ثم دخل عثمان رضي الله عنه فكبر أربعاً ، ثم طلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما ، ثم تتابع الناس أرسالا يكبرون عليه ، أى وعلى هذا إنما خصوا الدعاء بالذكر لأنه الذى يليق به صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم استشاروا كيف يدعون له فأشير بمثل ذلك .

قال : وقال ابن كثير رحمه الله : وهذا الأمر : أى صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم فرادى من غير إمام يؤمهم مجتمع عليه . ولا يقال لأن المسلمين لم يكن لهم حينئذ إمام لأنهم لم يشرعوا في تجهيزه عليه الصلاة والسلام إلا بعد تمام البيعة لأبي بكر رضي الله عنه لأنه لما تحقق موته صلى الله عليه وسلم ، واجتمع غالب المهاجرين على أبي بكر وعمر وانضم إليهم

من الأنصار أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل ومن معه من الأوس ، وتخلف على والزبير ، أي ومن كان معهما من المهاجرين كالعباس وطلحة بن عبيد الله والمقداد وجمع من بني هاشم في بيت فاطمة رضي الله تعالى عنها وتخلف الأنصار بأجمعهم واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ؛ أي وفي دار سعد بن عباد وكان سعد مريضا مزملا بشيابه بينهم : أي اجتمعوا أولا ثم تفرق عنهم أسيد بن حضير رضي الله عنه ومن معه من الأوس .

فلا يخالف ذلك ما تقدم من انضمام أسيد بن حضير رضي الله عنه ومن معه من المهاجرين رضي الله عنهم مع أبي بكر رضي الله عنه ، ولا يخالف ذلك ما في بعض الروايات عن عمر رضي الله عنه وتخلف الأنصار عنا بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة .

واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر رضي الله عنه إلا عليا والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة رضي الله عنها ؛ فقال عمر رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه : انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار . أي فإنه أتاهم آت ، فقال : إن هذا الخي من الأنصار مع سعد بن عباد رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم .

أي فعن عمر رضي الله عنه « بينا نحن في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجل ينادى من وراء الجدران اخرج إلى يا ابن الخطاب ، فقلت : إليك عنى فأنا عنك متشاغل ، يعنى بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه قد حدث أمر ، إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة فأدركهم قبل أن يحدثوا أمرا يكون فيه حرب .

قال : فانطلقنا نؤمهم : أي نقصدهم حتى رأينا رجلين صالحين ، أي وهما عويمر بن ساعدة ومعدة بن عدى وهما من الأوس ، قالا : أين تريدون ؟ فقلت : نريد إخواننا من الأنصار فقالا : لا عليكم أن تقربوهم ، واقضوا أمركم يامعشر المهاجرين بينكم . فقلت : والله لنأتينهم فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون ، وإذا بين أظهرهم رجل مزمل ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عباد ، فقلت : ماله ؟ قالوا إنه وجمع ، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد ذفت ذافة منكم : أي دب قوم بالاستعلاء والترفع علينا تريدون أن تختزلونا من أهلنا ، أي تنحونا عنه تستبدون به دوننا ، فلما سكته أردت أن أتكلم ، وقد كنت زورت مقالة أعجبتني أردت أن قولها بين يدي أبي بكر ،

فقال أبو بكر رضي الله عنه : على رسلك يا عمر ، فكرهت أن أغضبه وكنت أرى منه بعض الحدة فسكت ، وكان أعلم مني ، والله ماترك من كلمة أعجبتني في تزويري لإقالتها في بديته وأفضل ، فقال : أما بعد ، فما ذكرت من خير فأنتم له أهل ، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا ، يعني مكة ولدتنا العرب كلها فليست منها قبيلة إلا لقريش منها ولادة ودار ، وكنا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاما ونحن عشيرته صلى الله عليه وسلم وأقاربه وذوو رحمه ، فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة ، ولم يترك شيئا أنزل في الكتاب بأيديهم إلا قاله ، ولا شيئا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الأنصار إلا ذكره ، ومنه « لو سلكت الناس واديا وسلكت الأنصار واديا لسلكت وادى الأنصار » وقال « لقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد « قريش ولادة هذا الأمر » فقال سعد رضي الله تعالى عنه صدقت ، فقال أى الصديق رضي الله عنه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، أى وفي رواية أنه : أى الصديق رضي الله عنه ، قال لهم : أنتم الذين آمنوا ونحن الصادقون ، وإنما أمركم الله أن تكونوا معنا فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله وكونوا مع الصادقين) والصادقون : هم المهاجرون ، قال الله تعالى (للفقراء المهاجرين) إلى قوله (أولئك هم الصادقون) .

وفي رواية « أن أبا بكر رضي الله عنه أحق على الأنصار بنجر « الأئمة من قريش » وهو حديث صحيح ورد عن نحو أربعين صحابيا ، وأنتم يامعشر الأنصار إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين وأنتم أحق بالرضا بقضاء الله ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئت وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح فلم أكره ما قال غيرها ، وكان والله أن أقدم فتضرب عتي ولا يقربني ذلك من لائم أحب إلي من أن أمر على قوم فيهم أبو بكر ، فقال كل من عمر وأبي عبيدة : لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر أى وفي لفظ بل نبايعك ، وأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا من عمر رضي الله عنه كان بعد أن أتى أبا عبيدة ، وقال : إنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما رأيت بك ضعف رأى قبلها منذ أسلمت ، أما ببق فيكم الصديق وثاني اثنين ؟ وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر ابسط يدك لأبايعك ، فقال له أنت أفضل مني ، فأجابته بأنت أقوى مني ثم كرر ذلك . فقال له : فأين قوتي مع فضلك . واعترض قول أبي بكر المذكور ، بأنه كيف يقول ذلك مع علمه بأنه أحق بالخلافة ؟ وكيف يقدم أبا عبيدة على عمر مع أنه أفضل منه ؟ .

وأجيب بأنه رضى الله عنه قال ذلك لأنه استحي أن يقول : رضى لكم نفسى مع علمه بأن كلا من عمر وأبي عبيدة لا يقبل وأن أبا بكر رضى الله عنه كان يرى جواز تولية المفضل على من هو أفضل منه ، وهو الحق عند أهل السنة لأنه قد يكون أقدر من الأفضل على القيام بمصالح الدين وأعرف بتدبير الأمر وما فيه انتظام حال الرعية .
وعند قول أبي بكر رضى الله عنه ما ذكر قال قائل من الأنصار ، أى وهو الحباب ، بجاء مهمله مضمومة فوحدة رضى الله عنه ، ابن المنذر : أنا جدي لها المحكك ، وعنديها المرجب بالجيم والجذيل تصغير الجذل : وهو عود ينصب للإبل الجرباء فتحتمك به ليزول جربها . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار أملس والعذيق تصغير العذق بفتح العين وهو النخلة ، والمرجب المسند بالرجبة وهى خشبة ذات شعبتين يسند بها النخلة إذا كثر حملها ، أى أناذ والرأى والتدبير الذى يستشئ به فى الحوادث لاسيا هذه الحادثة ، منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش ، وتتابعت خطباؤهم على ذلك . وقالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل الرجل منكم قرن معه رجلا منا فنرى أن يلى هذا الأمر رجلا منا ومنكم ، فقام زيد بن ثابت رضى الله عنه ، وقال للأنصار : أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين وكنانحن أنصاره فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره ثم أخذ بيد أبي بكر رضى الله عنه وقال هذا صاحبكم . فقال الحباب بن المنذر رضى الله عنه يامعشر الأنصار لا تسمعوا مقالة هذا فتذهب قريش بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبو اعليكم فأجلوهم من بلادكم ، فأنتم أحق به منهم ، أما والله وإن شئتم لتقيمها جذعة ، فقال له عمر رضى الله عنه إذن يقتلك الله فقال بل أراك تقتل ، فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما فقال : يامعشر الأنصار إنا كنا أول من سبق إلى هذا الدين وجهاد المشركين ، ما قصدنا إلا رضا الله ورسوله فلا ينبغي لنا أن نستطيع على الناس ، ولا نطلب عرض الدنيا ، وإن قريشا أولى بهذا الأمر فلا ننازعهم ، فقال له الحباب ، ألتيت على ابن عمك يعنى سعد بن عبادة ، فقال : لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم وفى رواية قال عمر رضى الله عنه يا معشر الأنصار ، أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر يؤم الناس وأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر وفى لفظ أن يقيمه عن مقامه الذى أقامه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضى الله عنه . وفى لفظ قالوا : نستغفر الله ، لاتطيب أنفسنا ، ولعل المراد قال معظمهم :

فلا يخالف ذلك ماجاء عن عمر رضى الله تعالى عنه ولما كثر اللغط ، وعلت الأصوات حتى خشيت الاختلاف . وقلت : سيفان فى غمد واحد لا يكونان وفى رواية : هيات لا يجتمع فحلان فى مغرس . فقلت : ابسط يدك يا أبابكر ، وكذا قال له من الأنصار زيد بن ثابت وأسيد بن حضير وبشير بن سعد رضى الله عنهم ، فبسط يده : فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار . أى حتى سعد بن عباد رضى الله عنه ، خلافا لمن قال إن سعد ابن عباد أبو أن يبايع أبابكر حتى لقي الله . أى فإنه رضى الله تعالى عنه توجه إلى الشام ومات بها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : والعذر له فى ذلك أنه رضى الله عنه تأول أن للأنصار فى الخلافة استحقاقا فبنى على ذلك ، وهو معذور ، وإن لم يكن ما اعتقده من ذلك حقا هذا كلامه .

ولا ينافيه ما جاء عن عمر رضى الله عنه : وثبنا على سعد بن عباد . فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عباد : أى فعلتم معه من الإعراض والإذلال ما يقتله ، فقلت : قتل الله سعد بن عباد ، فإنه صاحب فتنة ، نعم ينافيه ما حكاه ابن عبد البر أن سعد بن عباد رضى الله عنه أبى أن يبايع أبابكر حتى لقي الله .

قال بعضهم : ويضعفه ما جاء فى بعض الروايات أن أبابكر رضى الله عنه لما قال لسعد : لقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد « قريش ولاة هذا الأمر » ، قال له سعد : صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء ، وبه يظهر التوقف فيما تقدم عن ابن حجر رحمه الله هذا .

وفى كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله : فأنكروا على سعد أمره ، وكادوا يطئون سعدا فقال ناس من أصحابه : اتقوا سعدا لا تطئوه ، فقال عمر رضى الله عنه : اقتلوا سعدا قتله الله ، ثم قام عمر رضى الله عنه على رأس سعد وقال : قد هممت أن أطأك حتى تنذر عيونك ، فأخذ قيس بن سعد رضى الله عنهما باحذية عمر رضى الله عنه وقال : والله لو خفضت منه شعرة ما رجعت وفيك جارحة ، فقال أبو بكر : مهلا يا عمر ، الرفق الرفق ، ما هنا أبلغ ؛ فقال سعد : أما والله لو كان لى قوة على النهوض لألحقتك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع ، فلما عاد أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى محلتهما أرسلتا له بايع فقد بايع الناس ، فقال : لا والله حتى أرميكم بما فى كنانتي من نبل ، وأخضب من دمانكم

سنان رعى ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يداي . والله لو اجتمع لكم الجن والإنس لما بايعتكم . فلما عاد الرسول وأخبرهم بما قال ، قال له عمر : لاندعه حتى يبايع ، فقال له قيس بن سعد : دعه فقد لح فاتركوه ، فتركوه ، وكان سعد رضى الله عنه لا يحضر معهم ، ولا يصلى فى المسجد ، ولا يسلم على من لقي منهم ، فلم يزل بجانبهم حتى إذا كان بعرفة يقف ناحية عنهم ، فلما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة لقيه فى بعض طرق المدينة ، فقال له : إيه ياسعد فقال له : إيه يا عمر ، فقال له عمر : أنت صاحب المقالة ، قال نعم أنا ذاك ، وقد أفضى الله إليك هذا الأمر ، كان والله صاحبك خيرا لنا ، وأحب إلينا من جوارك ، وقد أصبحت كارها لجوارك ، فقال له عمر رضى الله عنه : إنه من كره جوار جاره تحول عنه ، فقال له سعد : إني متحول إلى جوار من هو خير من جوارك ، فخرج رضى الله عنه إلى الشام واستمر بها إلى أن مات فى السنة الخامسة عشر من الهجرة : وذكر الطبرى رحمه الله أن سعدا رضى الله عنه بايع مكرها ، وهو وهم ، هذا كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله .

قال عمر رضى الله عنه : وإنما بايعت أبا بكر خشية إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإذا أن نبايعهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد ، وذلك كان فى يوم موته صلى الله عليه وسلم الذى هو يوم الاثنين ، فلما كان الغد كانت البيعة العامة صعد أبو بكر رضى الله عنه المنبر ، وقام عمر رضى الله عنه بين يدي أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه فبايعوه ، فبايع الناس أبا بكر رضى الله عنه بيعة عامة بعد بيعة السقيفة . ثم تكلم أبو بكر رضى الله عنه فقال فى خطبته ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى أرتج عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا بدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا أشيبت الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، فقوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .

وشن الغارة بعض الرافضة على قول الصديق رضى الله عنه فقوموني ، بأنه كيف

تجوز إمامة من يستعين بالرعية على تقويمه مع أن الرعية تحتاج إليه . ورد بأن هذا من أكبر الدلائل على فضله ، لقوله الآخر : أطيعوني ما أطعت الله ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ، لأن كل أحد ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تجوز عليه المعصية .

ولما بويع بالخلافة أصبح رضى الله تعالى عنه على ساعده قاش وهو ذاهب به إلى السوق ، فقال له عمر : أين تريد؟ قال : السوق ، قال : تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين ، قال : فمن أين أطعم عيالي ، فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إليه ، فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم : أى فى سعة النفقة ولا بأوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، وإذا أبلت شيئا رددته وأخذت غيره ، ففرض له كل يوم نصف شاة . وفى رواية : جعل له ألفين فقال : زيدوني فان لي عيالا وقد شغيت عن السفارة فزادوه خمسمائة .

وهو رضى الله تعالى عنه أول من جمع القرآن وسماه مصحفا ، واتخذ بيت المال ، وسها من جعل ذلك من أوليات عمر رضى الله تعالى عنه .

ولما تخلف على والزبير ومن معهما كالعباس وطلحة بن عبيد الله والمقداد وجمع من بنى هاشم في بيت فاطمة كما تقدم عن المبايعة ، استمروا على ذلك مدة لأهم رضى الله عنهم وجدوا في أنفسهم حيث لم يكونوا في المشورة : أى فى سقيفة بنى ساعدة مع أن لهم فيها حقا . وقد أشار سيدنا عمر رضى الله عنه إلى أنبيعة أبي بكر رضى الله تعالى عنه كانت فلتة : أى بغتة لا عن استعداد لها ، ولكن وقى الله شرها : أى لم يقع فيها مخالفة ولا منازعة ، ولذلك لما اجتمعوا : أى على والزبير والعباس وطلحة بن عبيد الله ومن تخلف عن المبايعة منهم بأبي بكر رضى الله عنه قام خطيبا وقال : والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت راغبا فيها ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ، ولكن أشفقت من الفتنة : أى لو أخرت إلى اجتماعكم .

وقد روى أن شخصا قال لأبي بكر رضى الله عنه : ما حملك على أن تلى أمر الناس وقد نهيته أن أتأمر على اثنين ، فقال : لم أجد من ذلك بدا ، خشيت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الفرقة ، وقال : ما فى الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمرا عظيما مالى به من طاقة ، فقال على والزبير رضى الله تعالى عنها ما غضبنا إلا لأننا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أخق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولذا أمره

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة من بين الناس وهو حى ، فلم يكن تأخرهم رضى الله تعالى عنهم للقدح في خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه . ومن ثم قال إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : أجمع الناس على خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، لأنهم لم يجدوا تحت أديم السماء خيرا من أبى بكر فولوه رقابهم . أى فالأمة أجمعت على حقية إمامة بكر رضى الله تعالى عنه ، وهذا : أى اجتماع على كرم الله وجهه بأبى بكر رضى الله تعالى عنهما كان بعد ما أرسل إليه على كرم الله وجهه في الاجتماع به واجتمع به كما سيأتى ، لكن سيأتى أن ذلك كان بعد موت فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنها ، وسياق غير واحد يدل على أن اجتماع على الزبير ومبايعتهما أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان قبل موت فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وهو ما صححه ابن حبان وغيره ، ويؤيده ما حكاه بعضهم أن الصديق رضى الله تعالى عنه خرج يوم الجمعة فقال ، اجمعوا الى المهاجرين والأنصار ، فاجتمعوا ، ثم أرسل إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه والنفر الذين كانوا تخلفوا معه ، فقال له : ما خلفك يا على عن أمر الناس ؟ فقال : خلفنى عظيم المعتبة ، ورأيتكم استقلتم برأيكم فاعتذر إليه أبو بكر رضى الله تعالى عنه بخوف الفتنة لو أخرج ، ثم أشرف على الناس وقال : أيها الناس هذا على بن أبى طالب لا يبيعه لى في عنقه ، وهو بالخيار من أمره . ألا وأنتم بالخيار جميعا في بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيرى فأنا أول من يبايعه ، فلما سمع ذلك على كرم الله وجهه زال ما كان قد داخله ، فقال أجل لا نرى لها غيرك ، امدد يدك ، فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه فإن هذا دليل على أن عليا كرم الله وجهه بايع أبا بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام .

وفى كلام المسعودى : لم يبايع أبا بكر أحد من بنى هاشم حتى ماتت فاطمة رضى الله تعالى عنها . وقال رجل للزهري : لم يبايع على كرم الله وجهه أبا بكر ستة أشهر ، فقال : لا والله ولا أحد من بنى هاشم حتى بايعه على كرم الله وجهه ، فليتأمل الجمع على تقدير الصحة .

وقد جمع بعضهم بأن عليا كرم الله وجهه بايع أولا ، ثم انقطع عن أبى بكر لما وقع بينه وبين فاطمة ما وقع .

أى ويدل لهذا الجمع أن فى رواية أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما صعد المنبر ونظر فى وجوه القوم ، فلم ير الزبير رضى الله تعالى عنه فدعا به فجاء ، فقال : قلت ابن عمه رسول الله وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ، فقال لا تتريب يا خليفة رسول الله ،

فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليا كرم الله وجهه ؛ فدعا به فجاء ، فقال : قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين ، فقال : لا لأثر يب يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام فبايعه :

ويبعد هذا الجمع ما في البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها فلما توفيت فاطمة رضى الله عنها التمس : أى على كرم الله وجهه مصالحة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ولم يكن بايع تلك الأشهر ؛ فأرسل إلى أبى بكر الحديث .

والسبب الذى اقتضى الوقوع بين فاطمة وأبى بكر رضى الله تعالى عنهما أن فاطمة رضى الله تعالى عنها جاءت إلى أبى بكر تطلب إرثها مما أعطاه الأنصار له صلى الله عليه وسلم من أرضهم وما أوصى به إليه صلى الله عليه وسلم ، وهو وصية خيبر وهو أول وقف كان فى الإسلام ، ومما أفاء الله على حوائط فى بنى النضير . قال سبط ابن الجوزى : وهو أول وقف كان فى الإسلام ، ومما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أرض بنى النضير وفدك ، ونصيبه صلى الله عليه وسلم من خيبر وهما حصنان من حصونها الوطيح وسلام فإنه صلى الله عليه وسلم أخذهما صلحا كما تقدم ، وحصته صلى الله عليه وسلم مما افتتح منها عنوة وهو الخمس . فإن ذلك كله كان للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان صلى الله عليه وسلم ينفق من ذلك على أهل بيته سنة وما يقبله فى الكراع : أى الخيل والسلاح فى سبيل الله ، فربما احتاج صلى الله عليه وسلم إلى شيء ينفقه قبل فراغ السنة فيقترض ، ولهذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند اليهودى على أصع من شعير ، وافتكها أبو بكر ، وتلك الدرع كانت ذات الفضول التى أهداها له صلى الله عليه وسلم سعد بن عباد لما توجه إلى بدر كما تقدم ، ولم يشبع هو ولا أهل بيته ثلاثة أيام تباعا ، أى متتابعة كما تقدم فقال لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه : لست بالذى أقسم من ذلك شيئا ، ولست تاركا شيئا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به فيها إلا عملته ، وإنى أخشى إن تركت أمره أو شيئا من أمره أن أزيغ . وفى رواية قال لها قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما هى طعمة أطعمينها الله فإذا مت عادت على المسلمين ، فإن اهتمتني فسل المسلمين يخبرونك بذلك . وقال لها : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لانورث ما تركناه صدقة » ولكن أعول من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله ، وأنفق على من كان ينفق عليه ، وقوله صدقة هو بالرفع كما هو الرواية : أى الذى تركناه فهو صدقة ، وقد منع بذلك عائشة وبقية أزواجه صلى الله عليه وسلم لما جئن إليه يطلبن ثمنهن :

وزعمت الرافضة أن الصديق رضى الله تعالى عنه كان ظالما لفاطمة رضى الله عنها بمنعه إياها من مخلف والدها ، وأنه لا دليل له في هذا الخبر الذى رواه ، لأن فيه احتجاجا بخبر الواحد مع معارضته لآية المواريث .

ورد بأنه إنما حكم بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عنده قطعى فساوى آية المواريث من قطعية المتن ، وكان مخصوصا لآية المواريث :

وذكر عن الرافضة أنهم زعموا أن صدقة بالنصب وأن مانافية . ويرده صدر الحديث « إنا معاشر الأنبياء لانورث » وأما رواية « نحن معاشر الأنبياء » فلم تجب في كتاب من كتب الحديث كما قاله غير واحد ، ومن رواه بذلك رواه بالمعنى لأن نحن وإنا مفادهما واحد ولا يعارض ذلك قوله تعالى (وورث سليمان داود) وقوله تعالى حكاية عن زكريا : (فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث) إذ المراد وراثته العلم والحكمة :

وفى لفظ أنها رضى الله تعالى عنها قالت له : من يرثك ؟ قال : أهلى وولدى ، فقالت فما لى لا أرث أبى . فقال لها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لانورث فغضبت رضى الله تعالى عنها من أبى بكر رضى الله تعالى عنه وهجرته إلى أن ماتت ، أى فإنها عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر على ما تقدم . ومعنى هجرانها لأبى بكر رضى الله تعالى عنه أنها لم تطلب منه حاجة ولم تضطر إلى لقائه ، إذ لم ينقل أنها رضى الله تعالى عنها لقيته ولم تسلم عليه ، ولا كلمته .

وروى ابن سعد أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه جاء إلى بيت على لما مرضت فاطمة فاستأذن عليها ، فقال على كرم الله وجهه : هذا أبو بكر على الباب يستأذن ، فإن شئت أن تأذنى له فأذنى ، قالت : وذاك أحب إليك ؟ قال نعم ، فأذنت له رضى الله تعالى عنه ، فدخل واعتذر إليها فرضيت عنه ، وأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه صلى عليها .

وقال الواقدى : وثبت عندنا أن عليا كرم الله وجهه دفنها رضى الله تعالى عنها ليلا ، وصلى عليها ومعه العباس والفضل رضى الله تعالى عنهم ولم يعلموا بها أحدا . قال بعضهم : وكأنها تأولت قوله صلى الله عليه وسلم « لا نورث » وحملت ذلك على الأموال . أى الدرهم والدنانير كما جاء فى بعض الروايات « لا تقسم ورثتى ديناراً ولا درهما » بخلاف الأراضى ، وأهل طلب إرثها من فدىك كان منها بعد أن ادعت رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطها فدىكا . وقال لها : هل لك بينة فشهد لها على كرم الله وجهه وأم أيمن ، فقال لها رضى الله تعالى عنها أبرجل وامرأة تستحقها .

واعترض عليه الرافضة بأن فاطمة معصومة بنص (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) وخبر «فاطمة بضعة مني» فدعواها صادقة لعصمتها. وأيضاً شهد لها بذلك الحسن والحسين وأم كلثوم رضي الله تعالى عنهم.

وردت عليهم بأن من جملة أهل البيت أزواجه صلى الله عليه وسلم ولسن بمعصومات اتفاقاً فكذلك بقية أهل البيت. وأما كونها بضعة منه فمجاز قطعاً، وإنها كبضعة فيما يرجع للخير والشفقة. وأما زعم أنه شهد لها الحسن والحسين وأم كلثوم فباطل لم ينقل عن أحد ممن يعتمد عليه، على أن شهادة الفرع للأصل غير مقبولة.

وفي كلام سبط ابن الجوزي رحمه الله أنه رضي الله تعالى عنه كتب لها بفدك، ودخل عليه عمر رضي الله تعالى عنه فقال: ما هذا. فقال: كتاب كتبت له لفاطمة بغيرها من أبيها فقال: لماذا تنفق على المسلمين وقد حاربك العرب كما ترى، ثم أخذ عمر الكتاب فشقه وقد جاء أن بعد موت فاطمة رضي الله تعالى عنها: أي وذلك بعد ستة أشهر من موته صلى الله عليه وسلم إلا ليالي على ماتقدم، أرسل على كرم الله وجهه وقد اجتمع على وبنو هاشم إلى أبي بكر وقالوا: اثنتا ولايات معك أحد، كراهة أن يحضر عمر رضي الله تعالى عنه لما علموا من شدته، فخافوا أن ينتصر لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، فيتكلم بكلام يوحش قلوبهم على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال عمر رضي الله تعالى عنه لأبي بكر لا والله لا تدخل عليهم وحدك، قال ذلك خوفاً عليه أن يغلظوا عليه في المعاتبة، وربما كان ذلك سبباً لتغير قلبه فيترتب عليه ما لا ينبغي، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: وما يفعلون بي، والله لا آتينهم، أي فدخل عليهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحده، فقال له على كرم الله وجهه: إنا قد عرفنا لك فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك: أي لا نخسبك عليه، ولكن استبدت علينا بالأمر: أي لم تشاورنا فيه وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لنا نصيباً: أي في المشاورة، ففاضت عيننا أبي بكر رضي الله تعالى عنه وقال: والذي نفسي بيدي لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي من قرابتي، فقال له على كرم الله وجهه: موعذك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر رضي الله تعالى عنه الظهر، أي وقد حضر عنده على كرم الله وجهه رقى المنبر بكسر القاف، فتشهد وذكر شأن على كرم الله وجهه وعذره في تخلفه عن البيعة ثم إن علياً رضي الله تعالى عنه بايعه: أي بعد أن عظم أبا بكر رضي الله تعالى عنه

وذكر فضيلته وسابقتها ، وذكر أنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة حق على أبى بكر ، فأقبل الناس على على كرم الله وجهه وقالوا : أصبت وأحسنت .

وقد علمت الجمع بين من قال بايع بعد ثلاثة أيام من موته صلى الله عليه وسلم ومن قال : لم يبايع إلا بعد موت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر ، وهو أنه بايع أولاً ثم انقطع عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه لما وقع بينه وبين فاطمة ما وقع ، ثم بايعه مبايعة أخرى ، فتوهم من ذلك بعض من لا يعرف باطن الأمر أن تخلفه إنما هو لعدم رضاه ببيعته فأطلق ذلك من أطلقه . ومن ثم أظهر على كرم الله وجهه مبايعة لأبى بكر ثانياً بعد ثبوتها على المنبر لإزالة هذه الشبهة .

وبهذا يعلم ما وقع فى صحيح مسلم عن أبى سعيد من تأخر بيعة على هو وغيره من بنى هاشم إلى موت فاطمة ، ومن ثم حكم بعضهم عليه بالضعف .

ومما يؤيد الضعف ما جاء أن علياً وأبا بكر رضى الله عنهما جاآ لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بستة أيام ، فقال على كرم الله وجهه : تقدم يا خليفة رسول الله ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « على منى بمنزلة من ربي » وصلاة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بالناس لم تختص بالمرض ؛ فقد جاء أنه وقع قتال بين بنى عمرو بن عوف ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم ، فقال : يا بلال إن حضرت الصلاة ولم آت مر أباً بكر فليصل بالناس ، فلما حضرت صلاة العصر أقام بلال الصلاة ، ثم أمر أباً بكر فصلى كما تقدم .

وفى شرح مسلم للإمام النووي رحمه الله : وتأخر على كرم الله وجهه أى ومن تأخر معه عن البيعة لأبى بكر ليس قادحاً فيها ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل أهل العقد والحل ، بل مبايعة من تيسر منهم وتأخره كان للعذر أى الذى تقدم ، وكان عذر أبى بكر وعمر وبقية الصحابة واضحاً لأنهم رأوا أن المبادرة بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين ، لأن تأخرها ربما لزم عليه اختلاف ، فينشأ عنه مفساد كثيرة كما أفصح به أبو بكر رضى الله تعالى عنه فيما تقدم :

وجاء كما تقدم أنه قيل لعلى كرم الله وجهه : هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة؟ فحدثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ما سمعت ، فقال : لا والله لئن كنت

أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ، لو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد في ذلك ما تركت القتال على ذلك ، ولو لم أجد إلا بردق هذه ، وما تركت أختي بني تميم وعمر بن الخطاب ينوبان على منبره صلى الله عليه وسلم ، ولقاتنتهما بيدي ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يمت فجأة بل مكث في مرضه أياما وليالي يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اخترنا لدينانا من رضىه النبي صلى الله عليه وسلم لديننا فبايعناه وكان لذلك أهلا ، لم يختلف عليه منا اثنان ، فلما قبض تولاها عمر رضى الله تعالى عنه بمبايعته ، وأقام فيها لم يختلف عليه منا اثنان ، وأعطيت ميثاق لعثمان رضى الله تعالى عنه ، فلما مضوا بايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين : أى الكوفة والبصرة ، فوثب فيها من ليس مثلي ولا قرابته كقرابتي ولا علمه كعلمي ولا سابقته كسابقتي ، وكنت أحق بها منه ؛ يعنى معاوية فهو رأى رأيتة وفى لفظ لكن شئ رأيناه من قبل أنفسنا ، فهذا تصريح منه كرم الله وجهه بأنه صلى الله عليه وسلم لم ينص على إمامته .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم عند مرجعه من حجة الوداع بعد أن جمع الصحابة وكرر عليهم «ألست أولى بكم من أنفسكم ثلاثا» وهم يجيبونه بالتصديق والاعتراف ثم رفع يد على كرم الله وجهه وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاة » الحديث فتقدم الكلام عليه وأن ذلك لا يدل على الخلافة .

وإنما قال سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه : إن بيعة أبى بكر رضى الله تعالى عنه كانت فلتة : أى من غير استعداد ولا مشورة كما تقدم ، ردا على من بلغه عنه أنه قال إذا مات عمر بايعت فلانا ، والله ما كانت بيعة أبى بكر بمشورة ، فالبيعة لا تتوقف على ذلك فغضب فلما رجع مع آخر حجة حجها المدينة قال على المنبر : قد بلغنى أن فلانا قال والله لو مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلانا ، إن بيعة أبى بكر كانت فلتة مع غير مشورة ، فلا يغترن امرؤ أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة ، فنعم ، وإنها كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرها ، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبى بكر ، فمن بايع رجلا من غير مشورة المسلمين فإنه لا بيعة له ولا الذى بايعه .

ولما ثقل المرض على الصديق رضى الله تعالى عنه دعا عبد الرحمن فقال : أخبرنى عن عمرو بن الخطاب ، فقال : أنت أعلم به منى ، فقال الصديق : وإن فقال عبد الرحمن : هو

والله أفضل من رأيك فيه ، ثم دعا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال : أخبرني عن عمر فقال : أنت أخبرنا به ، ثم دعا عليا كرم الله وجهه وقال له مثل ذلك ، ثم قال علي كرم الله وجهه : اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ، ودعا جمعا من الأنصار فيهم أسيد بن حضير ومألم ، فقال : اللهم أعلمه رضى للرضا ويسخط للسخط الذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه ؛ فعند ذلك دعا عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقال : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلها فيها حيث يؤمن ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، فإن عدل فذلك ظنى فيه وعلمى به ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ثم أمر بالكتاب فحتم ، ثم دعا عمر خاليا فأوصاه بالمسلمين ، وقبل أن يظهر الصديق رضى الله عنه هذا الأمر ، اطلع على الناس من كوة وقال : أيها الناس إني قد عهدت عهدا أفترضون به ؟ فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله ، فقام على كرم الله وجهه فقال : لا رضى إلا أن يكون عمر قال : فإنه عمر قال : وكانت صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم كصلاتهم على غيره : أى بتكبيرات أربع لا مجرد الدعاء من غير تكبيرات ، وهو يخالف ما تقدم المفيد أن صلاتهم إنما كانت مجرد الدعاء لا الصلاة للمعهودة .

وقد يقال : لا مخالفة ، وإنما نصوا على الدعاء لكونه مخالفا للدعاء المعروف فى صلاة الجنازة على غيره صلى الله عليه وسلم .

وفى شرح مسلم عن القاضى عياض : واختلف هل صلى عليه صلى الله عليه وسلم : فقيل : لم يصل عليه أحد أصلا ، وإنما كان الناس يدخلون أرسالا يدعون ويتضرعون : والصحيح الذى عليه الجمهور أنهم صلوا عليه أفرادا ، فكان يدخل عليه فوج يصلون فرادى ثم يخرجون ، ثم يدخل فوج آخر فيصلون كذلك .

وعن ابن الماجشون : صلى عليه صلى الله عليه وسلم اثنان وسبعون صلاة كحزمة رضى الله عنه قيل له : من أين لك هذا ؟ قال : من الصندوق الذى تركه مالك رحمه الله تعالى بخطه عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، فصلى عليه الرجال الأحرار أولا ثم النساء الأحرار ثم الصبيان ثم العبيد ثم الإمام .

واختلفوا في الموضع الذى يدفن فيه ، فمن قائل يدفن في البقيع ، ومن قائل ينقل
ويدفن عند إبراهيم الخليل ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : ادفنوه في الموضع الذى قبض
فيه ، فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب .

أى وفي رواية أنه رضى الله عنه قال : إن عندى في هذا خبرا سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول « لا يدفن نبي إلا حيث قبض » . وفي لفظ « لا يقبض الله روح نبي
إلا في الموضع الذى يجب أن يدفن فيه » .

وعن أبي بكر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبض
النبي إلا في أحب الأماكن إليه » قال بعضهم : ولا شك أن أحبها : أى الأمكنة إليه أحبها
إلى ربه تعالى ، فإن حبه صلى الله عليه وسلم تابع لحب ربه جل وعلا .
وفي الحديث « ما مات نبي إلا دفن حيث قبض » فحول فراشه وحفر له ودفن في
ذلك الموضع الذى توفاه الله فيه .

واختلفوا هل يجعل له صلى الله عليه وسلم لحد أو يجعل له شق ، وكان في المدينة
شخصان ، أحدهما يصنع اللحد ، والآخر يصنع الشق والأول هو أبو طلحة زيد بن سهل
والثانى أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه .

وفي لفظ كان أبو عبيدة يحفر حينئذ لأهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل يحفر
لأهل المدينة فكان يلحد ، فقال عمر رضى الله عنه : ترسلوا لها ، وكل من حضر منهما
نزلناه ، فأرسلوا خلفهما رجلين ، وقال عمر رضى الله عنه : اللهم خر لرسولك ، وقيل
المرسل والقائل ما ذكر العباس رضى الله عنه ، فسبق أبو طلحة رضى الله عنه فصنع له
صلى الله عليه وسلم لحداً وأطبق عليه بتسع لبنات ثم أهيل التراب . وقد جاء في الحديث
« ألدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » وقد روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص
رضى الله عنه أنه قال في مرض موته : ألدوا لى لحدنا ، وانصبوا على اللبن نصبا كما صنع
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ صلى الله عليه وسلم من قبل رأسه كما رواه البيهقي
وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما : أى وضع سريره صلى الله عليه وسلم عند مؤخر
القبر ، فكان رأسه الشريف عند المحل الذى يكون فيه رجلاه فلما أدخل القبر سلّ من
قبل رأسه ، ودخل قبره العباس وعلى والفضل وقثم وشقران . واتفق ابن حبان عن ابن
عباس رضى الله عنهما على الثلاثة الأول ، وفرش شقران فى اللحد تحته صلى الله عليه وسلم
قطيفة حمراء :

وفي رواية بيضاء كان يجعلها على رجله ، إذا سافر ، لأن الأرض كانت ندية وقال
والله لا يلبسها أحد بعدك ، فدفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل أخرجت : أى عملاً بوصيته صلى الله عليه وسلم ، فقد روى البيهقي عن أبي موسى
رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن لا تتبعوني بصارخة ولاجمرة ، ولا تجعلوا
بينى وبين الأرض شيئاً ، لكن فى رواية الجامع الصغير « افرشوا لى قطيقتى فى الحلى ،
فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

وكان دفنه صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء . وعن أم سلمة رضى الله عنها « كنا مجتمعين
نبكى تلك الليلة لم نهم فسمعنا صوت المساحى ، فصحنا وصاح أهل المسجد ، فارتجت
المدينة صيحة واحدة ، فأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى وانتحب
فزادنا حزناً ، فيالها من مصيبة ما أصابنا بعدها من مصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به
صلى الله عليه وسلم .

وعن فاطمة رضى الله عنها : لما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لأنس :
يا أنس كيف طابت نفوسكم أن تحنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب ؟ وفى
لفظ : أطابت نفوسكم أن دفنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التراب ورجعتم . وفى
رواية أنها قالت لعلى كرم الله وجهه : يا أبا الحسن دفنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : نعم ، قالت : كيف طابت قلوبكم أن تحنوا التراب عليه ؟ كان نبي الرحمة ، قال :
نعم ، ولكن لا راد لأمر الله . وقد جاء أن الإنسان يدفن فى التربة التى خلق منها ، وهو
يدل على أنه صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما خلقوا من تربة واحدة لأنهم
دفنوا ثلاثهم فى تربة واحدة .

فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه لما حضرته الوفاة قال لمن حضره : إذا أنامت وفرغتم
من جهازى فاحملوني حتى تقفوا بباب البيت الذى فيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقفوا
بالباب وقولوا : السلام عليكم يا رسول الله ، هذا أبو بكر يستأذن ، فإن أذن لكم بأن فتح
الباب ، وكان الباب مغلقاً بقفل ، فأدخلوني وادفنتوني ، وإن لم يفتح الباب فأخرجوني إلى البقيع
وادفنتوني به . فلما وقفوا على الباب وقالوا ما ذكر سقط القفل وانفتح الباب ، وسمع
هاتف من داخل البيت : أدخلوا الحبيب إلى الحبيب ، فإن الحبيب إلى الحبيب مشتاق .
ولما احتضر عمر رضى الله عنه قال لابنه عبد الله رضى الله عنه : يا عبد الله اثنت

أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها ؛ فقل لها : إن عمر يقرئك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين
فإني لست اليوم بأمر المؤمنين ، وقل : يستأذن أن تدفنيه مع صاحبيه ، فإن أذنت فادفوني
وأن أبت فردوني إلى مقابر المسلمين ، فأتاها عبد الله وهو يبكي ، فقال : إن عمر يستأذن أن
يدفني مع صاحبيه ، فقالت : لقد كنت ادخرت ذلك المكان لنفسى ولأوثرنه اليوم على
نفسى ، فلما رجع عبد الله إلى أبيه وأقبل عليه ، قال عمر : أقعدوني ، ثم قال لعبد الله :
ماوراءك ، قال : قد أذنت لك ، قال : الله أكبر ، ما شئ أهم إلي من ذلك المضجع .

وقد ذكر أن الحسن رضی الله عنه لما سقى السم ورأى كبده تقطع أرسل إلى عائشة
رضی الله عنها أن يدفن عند جده صلى الله عليه وسلم ، فأذنت له ، فلما مات منع من ذلك
مروان وبنو أمية ، فدفن بالبقيع . ويذكر أنه رضی الله عنه قال لأخيه الحسين رضی الله
عنه قال : كنت بلغت إلى عائشة إذا مات أن تأذن لي أن أدفن في بيتها مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقالت : نعم ولا أدري لعلها كان ذلك منها حياء ، فإذا أنامت فاطلب ذلك
منها ، فإن طابت نفسها فادفني في بيتها وما أظن القوم إلا سيعنعونك ، فإن فعلوا فلا تراجعهم
في ذلك وادفني في بقیع الغرقد ، فإن لي فيمن فيه أسوة ، فلما مات الحسن رضی الله عنه
جاء الحسين رضی الله عنه إلى عائشة رضی الله عنها فطلب منها ذلك ، فقالت : نعم وكرامة
فبلغ ذلك مروان ، فقال : كذب وكذبت ، والله لا يدفن هناك أبدا ، منعوا عثمان من دفنه
هناك ويريدون دفن حسن ، فبلغ ذلك الحسين رضی الله عنه ، فلبس الحديد هو ومن معه ،
وكذلك مروان لبس الحديد هو ومن معه ، فبلغ ذلك أباهريرة رضی الله عنه ، فانطلق إلى
الحسين وناشده الله وقال له : أليس أخوك قد قال لك ما قال : فلم يزل به حتى رضی
بدفنه بالبقيع فدفن بجانب أمه رضی الله عنها ، ولم يشهد جنازته أحد من بني أمية إلا سعيد
ابن العاص . لأنه كان أميراً على المدينة ، قدمه الحسين فصلى عليه إماماً وقال هي السنة .

قال ابن كثير رحمه الله : والذي نص عليه غير واحد من الأئمة سلفنا وخلفنا أنه صلى الله
عليه وسلم توفي يوم الإثنين قبل أن ينتصف النهار ، ودفن يوم الثلاثاء قبل وقت الضحى ،
والقول أنه مكث ثلاثة أيام لا يدفن غريب ، والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم مكث بقية
يوم الإثنين وإيلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء وبعض ليلة الأربعاء .

وكان السبب في تأخره صلى الله عليه وسلم ما علمت من اشتغالهم ببيعة أبي بكر رضی الله
عنه حتى تمت ، وقيل لعدم اتفاهم على موته صلى الله عليه وسلم ، وكان آخر من طلع من

قبره الشريف قثم بن العباس رضى الله عنهما ، وقيل المغيرة بن شعبة رضى الله عنه لأنه
التي خاتمه في القبر الشريف وقال لعلى : يا أبا الحسن خاتمى ، وإنما طرحته عمدا لأمس
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكون آخر الناس عهدا به قال : انزل فخذ ، وقيل ألقى
الفأس في القبر وقال : الفأس الفأس فنزل وأخذها ، ويقال إن عليا كرم الله وجهه لما قال
له المغيرة ذلك نزل وناوله الخاتم أى أو الفأس ، أو أمر من نزل وناوله ذلك وقال له : إنما
فعلت ذلك لتقول أنا آخر الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم عهدا ؛ واعترض بأن المغيرة
رضى الله عنه لم يكن حاضرا للدفن .

وقد روى أن جماعة من العراق قدموا على على كرم الله وجهه فقالوا : يا أبا الحسن
جئناك لنسألك عن أمر نحب أن نخبرنا عنه ، فقال لهم : أظن أن المغيرة بن شعبة يحدثكم
أنه كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : أجل ، عن هذا جئنا نسألك
قال : كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم قثم بن العباس رضى
الله عنهما .

وقام الإجماع على أن هذا الموضع الذى ضم أعضائه الشريفة صلى الله عليه وسلم أفضل
بقاع الأرض حتى موضع الكعبة الشريفة ، قال بعضهم : وأفضل من بقاع السماء أيضا
حتى من العرش .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : ما نفضنا الأيدي من دفن رسول الله صلى الله عليه
وسلم حتى أتكرنا قلوبنا ، قال بعضهم : وأظلمت الدنيا حتى لم ينظر بعضنا إلى بعض ،
وكان أحدها يبسط يده فلا يراها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا فرط لأمتي
لن يصابوا بمثلى » وفي مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد
بأمة خيرا قبض نبيها قبلها ، فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها » فياله من خطب جل عن
الخطوب ، ومصاب علم دمع العيون كيف يصوب ، وطارق هجم هجوم الليل ، وحادث
هد كل القوى والحيل ، ولشدة أسف حمارة عليه صلى الله عليه وسلم الذى كان يركبه ألقى
نفسه في حفيرة فبات كما تقدم ، وتركت ناقته صلى الله عليه وسلم الأكل والشرب حتى
ماتت ، وأنشد الحافظ الدمياطى عن غيره :

ألا يا ضريحا ضم نفسك زكية عليك سلام الله فى القرب والبعد
عليك سلام الله ماهبت الصبا وما نلاح قمرى على البان والرند

وما سبغت ورق وغنت حمامة وما اشتاق ذو وجد إلى ساكني نجد
ومالي سوى حبي لكم آل أحمد أمرغ من شوقى على بابكم خدى

باب بيان ما وقع من الحوادث من عام ولادته

صلى الله عليه وسلم إلى زمان وفاته صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال

وبيان زمن ولادته عاما ويوما وشهرا ومكانا

اعلم أن الأكثر على أنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل ، وحكى بعضهم الإجماع عليه . قال : وكل قول خالفه فهو وهم .

وقيل بعد الفيل بخمسين يوما ، وقيل بزيادة خمسة أيام ، وقيل بشهر ، وقيل بأربعين يوما ، وقيل بشهرين وعشرة أيام ، وقيل بعشرين سنة ، وقيل بعشر سنين ، وقيل بخمس عشرة سنة .

وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين في شهر ربيع الأول لعشر خلون منه وقيل لليلتين ، وقيل لثمان خلت ، واختاره الحميدى تبعا لشيخه ابن حزم : وحكى القضاعى رحمه الله عن [عيون المعارف] إجماع أهل التاريخ عليه . وقيل لاثنتى عشرة ليلة وهو المشهور ، وقيل لسبع عشرة ، وقيل لثمان بقين منه ، وذلك في النهار عند طلوع الفجر ، وقيل ولد ليلا وعليه عمل أهل مسكة في زيارة موضع مولده الشريف صلى الله عليه وسلم وكونه في شهر ربيع الأول هو قول الجمهور من العلماء ، وحكى ابن الجوزى رحمه الله الاتفاق عليه . وقيل في صفر ، وقيل في ربيع الآخر ، وقيل في رجب ، وقيل في شهر رمضان .

واختلف في مكان ولادته صلى الله عليه وسلم ، فقيل بمكة وعليه قيل بالدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ، وقيل بالشعب شعب بنى هاشم وذلك المحل يزار الآن ، وقيل بالردم ، وقيل ولد صلى الله عليه وسلم بعسفان .

وفي السنة الثالثة من مولده صلى الله عليه وسلم شق صدره الشريف عند ظهره حليلة رضى الله تعالى عنها ، وقيل كان في الرابعة ، وفيها ولد أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه بمسنى .

وفي السنة السادسة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت وفاة أمه آمنة ودفنت بالأبواء وقيل بشعب أبي ذئب بالحجون محل مقابر أهل مكة ، وقيل في دار رابعة بالمعلاة ، وفيها ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وفي السنة السابعة من مولده صلى الله عليه وسلم استقل بكفالتة جده عبد المطلب ، وفيها أصابه صلى الله عليه وسلم رمد شديد ، وفيها استسقى عبد المطلب وهو صلى الله عليه وسلم معه بسبب رؤيا دقيقة ، وفيها خرج عبد المطلب لتهيئة سيف بن ذى يزن الحميري بالملك .

وفي السنة الثامنة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت وفاة جده عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له صلى الله عليه وسلم . وفي هذه السنة مات حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود والكرم : ومات كسرى أنوشروان .

وفي السنة التاسعة من مولده صلى الله عليه وسلم قيل سافر به عمه أبو طالب إلى بصرى من أرض الشام ، وهي مدينة هوازن .

وفي السنة العاشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت حرب الفجار الأولى : وفي السنة العاشرة وقيل الحادية عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كان شق صدره الشريف .

وفي السنة الثانية عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كان حرب الفجار الثانية : وكان سفر عمه أبي طالب به صلى الله عليه وسلم إلى بصرى من أرض الشام على ما عليه الأكثر .

وفي السنة الثالثة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وفي السنة الرابعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت حرب الفجار الثالثة ، وقيل كان عمره صلى الله عليه وسلم عشرين سنة .

وفي السنة السابعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كان سفر عمه الزبير والعباس ابني عبد المطلب لليمن للتجارة ، وصحبهما النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي السنة الخامسة والعشرين من مولده صلى الله عليه وسلم كان سفره صلى الله عليه

وسلم إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة رضى الله عنها . وتزوج صلى الله عليه وسلم خديجة .
وفي سنة ثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ولد على بن أبي طالب كرم الله وجهه
في الكعبة .

وفي سنة أربع وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ولد معاوية بن أبي سفيان رضى
الله عنه ومعاذ بن جبل رضى الله عنه .

وفي سنة خمس وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم هدمت قريش الكعبة وبنتها .
وفي سنة سبع وثلاثين رأى صلى الله عليه وسلم الضوء والنور ، وكان صلى الله عليه
وسلم يسمع الأصوات .

وفي السنة الأولى من النبوة كان نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم في اليقظة بعد
أن مكث صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يوحى إليه في المنام .

وفي السنة الثالثة من النبوة قيل توفى ورقة بن نوفل .

وفي السنة الرابعة من النبوة كان إظهار الدعوة .

وفي السنة الخامسة من النبوة ولدت عائشة رضى الله عنها . وقيل ولدت في الرابعة .

وفي السنة الخامسة أيضا كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة . وفيها ماتت سمية

أم عمار بن ياسر رضى الله عنهم ، وهي أول شهيدة في الإسلام .

وفي السنة السادسة من النبوة أسلم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وعمر بن الخطاب

رضى الله عنه ، وقيل أسلموا رضى الله عنهما في سنة خمس ، وكان إسلام حمزة رضى الله
عنه قبل إسلام عمر رضى الله عنه بثلاثة أيام .

وفي السنة السابعة من النبوة تقاسمت قريش وتعاهدت على معاداة بنى هاشم وبنى المطلب

وقيل كان ذلك في السادسة ، وقيل في الخامسة ، وقيل في الثامنة وذلك في خيف بنى كنانة
بالأبطح ويسمى محصبا ، وهو بأعلى مكة شرفها الله عند المقابر .

وفي السنة التاسعة من النبوة كان انشقاق القمر له صلى الله عليه وسلم ؛

وفي السنة العاشرة من النبوة مات أبو طالب وماتت خديجة رضى الله عنها . وكان

صلى الله عليه وسلم يسمى ذلك العام عام الحزن: وفيها جاءه صلى الله عليه وسلم جن نصيبين

وأسلموا . وفيها تزوج صلى الله عليه وسلم سودة رضى الله عنها بنت زمعة ودخل عليها

في مكة . وفيها عقد صلى الله عليه وسلم عقده على عائشة رضى الله عنها ، ولم يدخل

صلى الله عليه وسلم عليها إلا في المدينة .

وفي السنة الحادية عشرة من النبوة كان ابتداء إسلام الأنصار رضى الله عنهم .
وفي السنة الثانية عشرة من النبوة كان الإسراء والمعراج . وفيها وقعت بيعة
العقبة الأولى .

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة كانت بيعة العقبة الثانية التي هي الكبرى ،
وبعضهم يسميها العقبة الثالثة ، ويسمى إسلام الأنصار عقبة مع أنه لامبايعة فيه . وفي هذه
السنة أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يهاجر للحبشة ، فلما بلغ برك الغماد رده ربيعة بن الدغنة
سيد القارة .

وفي السنة الرابعة عشرة من النبوة وهي السنة الأولى من الهجرة إلى المدينة ، فكانت
الهجرة فيها في صفر أو في غرة ربيع الأول . وفيها كان بناء المسجد ومساكنه صلى الله عليه
وسلم ومسجد قباء ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ، قيل وكان ابتداء
خدمة أنس رضى الله عنه له صلى الله عليه وسلم . فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم
المدينة صارت الأنصار يعثون إليه صلى الله عليه وسلم بالهدايا رجالهم ونساؤهم ، وكانت
أم أنس رضى الله عنهما لا شيء لها تهديه له صلى الله عليه وسلم فكانت تتأسف ، فأخذت
يوما بيد أنس رضى الله عنه وقالت : يا رسول الله هذا يخدمك . وجاء أن زوجها أباطلحة
رضى الله عنه جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن أنسا غلام
كيس فليخدمك .

وجمع بأن أمه جاءت به أولا ثم جاء به أبو طلحة ثانيا لأنه وليه وعصبته ، قال
في [الخميس] وهذا غير محيى به لخدمته صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر . وفيها كما
في الأصل ، وقيل في السنة الثانية زيد في صلاة الحضر ركعتان وتركت صلاة الفجر
وصلاة المغرب لأنها وتر النهار ، وأقرت صلاة السفر ، وتركت على الفريضة
الأولى كذا قيل . وفي هذه السنة مات من مشركي مكة الوليد بن المغيرة . ولما احتضر
جزع ، فقال له أبو جهل لعنه الله : يا عم ما جزعك ؟ فقال : والله ما بي من جزع من
الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة ، فقال أبو سفيان رضى الله عنه : لا تخف ،
إني ضامن أن لا يظهر . وفيها مات العاص بن وائل . وفيها مات أسعد بن زرارة رضى الله عنه
وفيها ابتدئت الغزوات ؛ فكان فيها غزوة الأبواء وغزوة ودان كما في الأصل . وفي هذه
السنة نبى صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها ، وفيها شرع الأذان ، وفيها صلى الله

عليه وسلم الجمعة في طريقه حيث ارتحل صلى الله عليه وسلم من قباء إلى المدينة ، وهي أول جمعة صلاها ، وأول خطبة خطبها في الإسلام . وفيها أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه . وكان فيها بعث عمه حمزة رضي الله عنه يعترض عيرا لقريش ، وبعث ابن عمه عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى بطن رابع . وبعث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الخرار يعترض عيرا لقريش .

وفي السنة الخامسة عشرة من النبوة والثانية من الهجرة تزوج على كرم الله وجهه بفاطمة رضي الله عنها وتكنيته بأبي تراب ، وغزوة بواط وغزوة العشرة ، وسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى بطن نخلة ، وتحويل القبلة ، وتجديد بناء مسجد قباء ، وفرض رمضان وغزوة بدر الكبرى ، ووفاة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها ، وقتل عصماء وفرض زكاة الفطر ، وشروع صلاة عيده : وفرض زكاة الأموال ، وغزوة قرقرة الكدر . وسرية سالم بن عمير رضي الله عنه . وغزوة بني قينقاع . وغزوة السوق ، وموت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ، والتضحية وصلاة عيدها :

وفي السنة السادسة عشرة من النبوة والثالثة من الهجرة سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه لقتل كعب بن الأشرف لعنه الله . وتزوج عثمان رضي عنه أم كلثوم رضي الله عنها ، وغزوة غطفان وغزوة بحران ، وسرية زيد بن حارثة رضي الله عنهما إلى قردة . وتزوج حفصة رضي الله عنها ، وتزوج زينب بنت خزيمة رضي الله عنها ، وولادة الحسن ، وغزوة أحد ، وغزوة حمراء الأسد ، وعلوق فاطمة بالحسين رضي الله عنهما .

وفي السنة السابعة عشرة من النبوة والرابعة من الهجرة سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى قطن . ووفاته . وسرية عبد الله بن أنيس رضي الله عنه إلى عرنة لقتل سنان بن خالد . وسرية القراء رضي الله عنهم إلى بئر معونة . وقصة الرجيع . وسرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى مكة لقتل أبي سفيان رضي الله عنه ، وغزوة بني النضير ، ووفاة زينب بنت خزيمة ، وغزوة ذات الرقاع ، وصلاة الخوف ، وولادة الحسين رضي الله عنه ، وغزوة بدر الصغرى ، وتزوج أم سلمة رضي الله عنها ، وتحريم الخمر عند بعضهم .

وفي السنة الثامنة عشرة من النبوة والخامسة من الهجرة غزوة دومة الجندل ، وغزوة المريسيع ، ونزول آية التيمم ، وتزوج جويرية رضي الله عنها ، وقصة الإفك ، وغزوة الخندق ، وغزوة بني قريظة ، وقصة أولاد جابر رضي الله عنهم ، وتزوج زينب بنت جحش رضي الله عنها ، ونزول آية الحجاب ، وفرض الحج ،

وفي السنة التاسعة عشرة من النبوة والسادسة من الهجرة سرية محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى القرطاء، وقصة ثمامة، وغزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وسرية عكاشة رضى الله عنه إلى الغمر، وسرية محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى ذى القصة، وسرية أبي عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه إلى مصارع أصحاب محمد بن مسلمة رضى الله عنهم، وسرية زيد ابن حارثة رضى الله عنهما إلى بني سليم بالجموم، وسرية زيد بن حارثة رضى عنهما إلى العيص، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى الطرف، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى وادى القرى، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى أم قرفة، وسرية عبد الله ابن عتيك رضى الله عنه لقتل أبي رافع، وسرية عبد الله بن رواحة رضى الله عنه إلى أسير ابن رزام اليهودى بخيبر، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى حسمى، وغزوة الحديبية، ونزول حكم الظهار، وتحريم الخمر، وتزوجه صلى الله عليه وسلم أم حبيبة رضى الله عنها.

وفي السنة العشرين من النبوة والسابعة من الهجرة، كان اتخاذ الخاتم، وإرسال الرسل إلى الملوك، ووقوع السحر به صلى الله عليه وسلم، وغزوة خيبر، وفتح وادى القرى، والدخول بأم حبيبة رضى الله عنها، وسرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى طائفة من هوازن، وعمرة القضاء، وتزوج ميمونة رضى الله عنها، وسرية ابن أبي العوجاء رضى الله عنه إلى بني سليم.

وفي السنة الحادية والعشرين من النبوة والثامنة من الهجرة، كان إسلام خالد بن الوليد رضى الله عنه وعمرو بن العاصى رضى الله عنه وعثمان بن طلحة رضى الله عنه، وسرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله عنه إلى بني الملوحة، وسريته إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضى الله عنه بفدك، واتخاذ المنبر الشريف، وسرية شجاع بن وهب رضى الله عنه إلى بني عامر، وسرية كعب ابن عمير الفغارى إلى ذات أطلاق، وسرية مؤتة، وسرية عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى ذات السلاسل، وسرية أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى سيف البحر، وسرية أبي قتادة رضى الله عنه إلى بطن أضم، وسرية عبد الله بن أبي حدرد رضى الله عنه إلى الغابة، وغزوة فتح مكة شرفها الله تعالى، وسرية خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى العزى بنخلة، وسرية عمرو ابن العاصى رضى الله عنه إلى مواء صنم هذيل، وسرية سعد بن زيد الأشهلى رضى الله عنه إلى مناة صنم للأوس، وسرية خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى بني جزيمة، وغزوة حنين، وسرية

أبي عامر رضى الله عنه إلى أوطاس ، وسرية أبي الطفيل إلى ذى الكفين ، وغزوة الطائف ،
وولادة ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وقلوم أول الوفود عليه صلى الله عليه وسلم
وهو وفد هوازن ، ووفاة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها .

وفى السنة الثانية والعشرين من النبوة وهى التاسعة من الهجرة ، بعث عينته بن حصن
الفزارى إلى بنى تميم ، وبعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بنى المصطلق ، وسرية قطبة
ابن عامر رضى الله عنه إلى خثعم ، وسرية الضحاك الكلابى رضى الله عنه إلى بنى كلاب ،
وسرية علقمة بن محرز رضى الله عنه إلى أهل الحبشة ، وبعث على بن أبي طالب كرم الله
وجهه إلى القلس ، وبعث عكاشة بن محصن رضى الله عنه إلى الجباب ، وإسلام كعب
ابن زهير ، وهجره صلى الله عليه وسلم لنسائه ، وغزوة تبوك ، وسرية خالد بن الوليد
رضى الله عنه من تبوك إلى أكيدر ، وإرسال كتابه من تبوك إلى هرقل ، وهدم مسجد
الضرار ، وقصة كعب بن مالك وصاحبيه رضى الله عنهم ، وقصة اللعان ، وإسلام ثقيف ،
ورجم الغامدية ، ووفاة النجاشى ، ووفاة أم كلثوم رضى الله عنها ، وموت عبد الله بن أبي
ابن سلول ، وحجج أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

وفى السنة الثالثة والعشرين من النبوة وهى العاشرة من الهجرة قدوم عدى بن حاتم رضى الله
تعالى عنه ، وبعث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ومعاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن ، وبعث خالد
ابن الوليد رضى الله عنه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وبعث على بن أبي طالب كرم الله وجهه
إلى اليمن ، وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذى الخليفة ، وبعث جرير بن عبد الله أيضا
رضى الله عنه إلى ذى الكلاع ، وبعث أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى أهل
نجران ، وقصة بديل وتميم الدارى ، ووفاة ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وخروجه صلى الله
عليه وسلم للحج .

وفى السنة الرابعة والعشرين من النبوة وهى الحادية عشرة مع الهجرة ، قدوم وفد
النخع ، وسرية أسامة بن زيد رضى الله عنهما إلى أبى ، وقصة الأسود العنسى ومسيلمة
الكذاب وسجاح وطليحة ، وما وقع فى ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم ، ومدة مرضه ،
ووقت مرضه صلى الله عليه وسلم . وموته وغسله وتكفينه ، والصلاة عليه ، ودفنه صلى الله
عليه وسلم وشرف وكرم ، والله أعلم .

اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك . اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك ،

وأتمم علينا نعمتك من فضلك ، واجعلنا من عبادك الصالحين . اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا . اللهم ألهمنا رشدنا ، وأعدنا من شر نفوسنا . اللهم ارزقنا نفسا مطمئنة تؤمن بقلائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك . اللهم إنا مقصرون في طلب رضاك فأعنا عليه بحولك وقوتك (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأسمى ، وعلى آل محمد وأزواجه وذرياته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ، واختم لنا بخير ، وأصلح لنا شأننا كله ، وافعل ذلك ياخواننا وأحبابنا وسائر المسلمين ، وأستغفر الله من من قول بلا عمل ، وأمتغفره من كل خطأ وزلل ، وأسأله علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وقلبا خاشعا ، وعملا متقبلا ، وشفاء من كل داء ، وأن يجعل ذلك حجة لنا ولا يجعله حجة علينا إنه جواد كريم رءوف رحيم لطيف خبير ، والحمد لله وحده .

اللهم صل على من لانبى بعده عبدك ورسولك سيدنا محمد ، الذات المسكلمة ، والرحمة المنزلة من عندك . اللهم احشرنا فى زمرة ، واجعلنا من خدام سنته آمنين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فهرست

الجزء الثالث من إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون

صفحة	
٣	فتح مكة شرفها الله تعالى
٦١	غزوة حنين
٧٦	غزوة الطائف
٩٩	غزوة تبوك
١٣٤	باب سراياه صلى الله عليه وسلم وبعوثه
١٣٥	سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه
١٣٦	سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه
١٣٨	سرية سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه
١٣٩	سرية عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنه
١٤٤	سرية عمير بن عبدى الخطمي الضرير
١٤٦	سرية سالم بن عمير إلى أبي عفاك
١٤٦	سرية عبد الله بن مسلمة رضى الله عنه
١٥١	سرية عبد الله بن عتيك رضى الله عنه
١٥٤	سرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى القردة.
١٥٥	سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد
١٥٧	سرية الرجيع

صحيفة

- ١٦٦ سرية القراء رضى الله تعالى عنهم إلى بئر معونة
١٧١ سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء
١٧٤ سرية عكاشة بن محصن رضى الله تعالى عنه إلى الغمر
سرية محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه لذى القصة
١٧٥ سرية أبي عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه إلى ذى القصة أيضا
سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه إلى بنى سليم بالجموح
سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى العيص
١٧٨ سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى بنى ثعلبة
١٧٩ سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى جذام
١٨٠ سرية أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضى الله عنه لبنى فزارة
١٨٣ سرية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إلى حومة الجندل
١٨٥ سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى مدين
سرية أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى بنى سعد بن بكر بفدك
١٨٦ سرية عبد الله بن رواحة رضى الله عنه إلى أسير
١٨٧ سرية عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريس رضى الله عنهما
١٨٩ سرية سعيد بن زيد رضى الله تعالى عنه
١٩١ سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى طائفة من هوازن
سرية أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه إلى بنى كلاب
١٩٢ سرية بشير بن سعد الأنصارى رضى الله تعالى عنه إلى بنى مرة بفدك
سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة
بالميضة ، اسم محل وراء بطن نخل
١٩٤ سرية بشير بن سعد الأنصارى رضى الله تعالى عنه إلى يمن
١٩٥ سرية ابن أبي العوجاء السلمى رضى الله تعالى عنه إلى بنى سليم
سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى بنى الملوح
١٩٧ سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد
رضى الله تعالى عنه

حجبة

- ١٩٨ سرية شجاع بن وهب الأسدي رضي الله تعالى عنه إلى بني عامر
سرية كعب بن عمير الغفاري رضي الله تعالى عنه
سرية عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه إلى ذات السلاسل
٢٠١ سرية الخبيط
٢٠٤ سرية أبي قتادة رضي الله تعالى عنه إلى غطفان
٢٠٥ سرية عبد الله بن أبي حنيفة الأسلمي رضي الله تعالى عنه إلى الغابة
٢٠٦ سرية أبي قتادة رضي الله تعالى عنه إلى بطن أضم
٢٠٨ سرية خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى العزى
٢٠٩ سرية عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه إلى سواع
سرية سعد بن زيد الأشهلي رضي الله تعالى عنه إلى مناة
سرية خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى بني جذيمة
٢١٤ سرية أبي عامر الأشعري رضي الله تعالى عنه إلى أوطاس
٢١٥ سرية الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله تعالى عنه إلى ذي الكففين ، صنم عمرو بن حميمة
الدوسي ليهدمه
٢١٦ سرية عينة بن حصن الفزاري رضي الله تعالى عنه إلى بني تميم
٢٢١ سرية قطبة بن عامر رضي الله تعالى عنه إلى حى من خثعم
٢٢٢ سرية الضحاك الكلابي رضي الله تعالى عنه
سرية علقمة بن مجزز رضي الله تعالى عنهما
٢٢٣ سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
٢٢٤ سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج
٢٢٥ سرية خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ،
وكان نصرانيا
٢٢٧ سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه
٢٣٥ باب يذكر فيه ما يتعلق بالوفود التي وفدت عليه صلى الله عليه وسلم
٢٨١ باب بيان كتبه صلى الله عليه وسلم التي أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام

- ٢٨٣ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر
٢٩١ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس
٢٩٣ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة
٢٩٥ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمقوقس ملك القبط
٣٠٠ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمنذر بن ساوى العبدى بالبحرين على يد العلاء

ابن الحضرمي

- ٣٠١ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان
٣٠٣ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هوذة
٣٠٤ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر الغساني
٣٠٧ حجة الوداع
٣٤٠ باب ذكر عمره صلى الله عليه وسلم
٣٤٢ باب ذكر نبذ من معجزاته صلى الله عليه وسلم
٣٧٢ باب ذكر نبذ من خصائصه صلى الله عليه وسلم
٣٩١ باب ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم
٤٠٠ باب ذكر أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم
باب ذكر أزواجه وسراريه صلى الله عليه وسلم
٤١٩ باب ذكر المشاهير من خدمه صلى الله عليه وسلم من الأحرار
٤٢١ باب ذكر المشاهير من مواليه صلى الله عليه وسلم الذين أعتقهم
٤٢٢ باب ذكر المشاهير من كتابه صلى الله عليه وسلم
٤٢٤ باب يذكر فيه حراسه صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه قوله تعالى (والله يعصمك

من الناس)

- باب يذكر فيه من ولي السوق في زمنه صلى الله عليه وسلم
٤٢٥ باب يذكر فيه من كان يضحكه صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه أمناء رسول الله صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه شعراؤه صلى الله عليه وسلم

صفة

- ٤٢٦ باب يذكر فيه مع كان يضرب الأعناق بين يديه صلى الله عليه وسلم
- باب يذكر فيه مؤذنه صلى الله عليه وسلم
- باب يذكر فيه العشرة المبشرون بالجنة رضى الله تعالى عنهم
- ٤٢٧ باب يذكر فيه حواريه صلى الله عليه وسلم
- باب يذكر فيه سلاحه صلى الله عليه وسلم
- ٤٢٩ باب يذكر فيه خيله وبغاله وحمره صلى الله عليه وسلم
- ٤٣٤ باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الظاهرة وإن شاركه فيها غيره
- ٤٤٠ باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الباطنة وإن شاركه فيها غيره
- ٤٥٥ باب يذكر فيه مدة مرضه وما وقع فيه ، ووفاته صلى الله عليه وسلم التي هي مصيبة الأولين والآخرين من المسلمين
- ٤٩١ باب بيان ما وقع من الحوادث من عام ولادته صلى الله عليه وسلم إلى زمن وفاته صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال ، وبيان زمن ولادته عاما ويوما وشهرا ومكانا